

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

الجزء الثاني

العصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

باسمك ربى أبتدئُ ، وبحولك أستعين ، وبتوفيقك أُسَدَّد ، وعلى صفيِّك المختار سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله ، وصحبه الأبرار ، أُصَلِّى أفضلَ صلاة ، وأُسلِّم أزكى سلام .

وبعد : فهأنذا أقدّم بين يدى القراء الجزء الثانى من « جمهرة رسائل العرب » . حاويا ما استوعبه جُهدى من الرسائل فى العصر الأموى ، وسيَرَونه حافلا مُمْتِعا كما رأوا سابقه . وكذلك سيَرَون تالِيَيْه إن شاء الله .

وكان من بين المآخذ التى نقلت عنها رسائل هذا العصر ، كتاب : « اختيار المنظوم والمنثور ، لأبى الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور ، المتوفى سنة ٢٨٠ هـ » . وقد ذكره ابن النديم فى الفهرست فى أثناء ترجمة صاحبه ـ ص ٢٠٩ ـ قال : «وله من الكتب المصنفة ، كتاب المنظوم والمنثور ، أربعة عشر جزءا ، والذى بيد الناس ثلاثة عشر جزءا » .

وقد أَكَلَتْ ضِبَاعَ الضَّياع جُلَّ هذا الكتاب ، ولم يصل إلينا منه إلا أجزاء ثلاثة : الحادى عشر ، والثانى عشر ، والثالث عشر ، ومن تلك الأجزاء نسختان خطيتان محفوظتان فى دار الكتب المصرية ، إحداهما رقم ٥٨١ أدب ، والأخرى رقم ١٨٦٠ أدب .

وفى الجزأين الأخيرين قليل من رسائل الأمويين ، وبحر زاخر من رسائل العباسيين ـ وسترد فى الجزء الثالث إن شاء الله ـ وينفرد ذلك الكتاب بأن معظم ما ورد فيه لم يرد فيما بين أيدينا فى عصرنا هذا من كتب الأدب والتاريخ

وأودّ أن أنبه هنا إلى أن أرقام الصفحات التى ذيّلتُ بها الرسائل المنقولة عنه ، فى هذا الجزء وما بعده ، هى صفحات النسخة الثانية ، إذ نسختُ منها ـ بيدى ـ ابتداء ، لكبر خطها وانفراج سطورها ، ثم عارضتُ ما نسخته بالنسخة الأولى .

ومن الكتب الأدبية النفيسة التى اطلعت عليها فى دار الكتب المصرية أيضا ، كتاب : « نثر الدرر للوزير زين الكفاة أبى سعد منصور بن الحسين الآبى[1] المتوفى سنة ٤٢٢ هـ » . وهو فى سبعة أجزاء ، تقع فى ٨٣٢ صفحة ، ومنه نسخة بالدار مصورة بالتصوير الشمسى رقم ٤٤٢٨ أدب[2] ويخيّل إلىّ أن أبا إسحق الحُصْرى القَيْروانى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ قد وضع كتابه : « زهر الآداب » . على غِرار هذا الكتاب .

وفيه رسائل قليلة للأمويين والعباسيين ، وقد أشرت إلى نبذة يسيرة وردت فيه ، فى أواخر رسالة مروان بن محمد إلى بعض الخوارج ، وكان بودِّى أن أنقل ما حواه من الرسائل ، بَيْدَ أنه حال بينى وبين ذلك حائلان : رداءة الخط ، وسوء التصوير ، فقد غُشِّى أكثر صفحاته بظِلّ أسود كثيف من أثَر التصوير ، مما حَسَرَ معه بَصَرِى عن تبيُّن الحروف بجلاء ووضوح ، ولما كان دَيْدَنى أن أباشر عملى بنفسى ، دون أن أرْكَنَ فيه إلى أحد سواى ، لم يسَعْنى أن أعهدَ إلى النسّاخ بنسخها منه ، إذ كانت عاقبة الاستنساخ أن أعتَهِد ما نسخ ، وأراجعه ثانيةً فى دقّة واستثبات ، وأرجو أن

(١) الآبى نسبة إلى آبة قرية من قرى ساوة بفارس ، قال ياقوت فى معجم البلدان ١ : ٥٣ « ولى أعمالا جليلة ، وصحب الصاحب بن عباد ، ثم وزر لمجد الدولة رستم بن فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه »

(٢) ومنه بالدار أيضا بعض نسخ خطية غير أنها ليست تامة الأجزاء .

تتاح لبعض أدبائنا الأماثل فرصةٌ موفَّقة ، فينشر للناس هذا السِّفر الجليل ، مُميطا عنه اللثامَ ، معبِّداً إليه السبيلَ .

واللهَ أسأل أن يمنحنا شرفَ الدُّءوب على خدمة لغة قرآنه ونبيِّه ، وأن يَزْوِيَ عنا ما قد يعتورُنا من المَلال والكَلال ، فى إحياء كنوزها الدفينة ، واجتلاء جواهرها المستجِنَّة ، وأن يرزقنا ثوابَ الدنيا وحُسْنَ ثواب الآخره ، عليه توكَّلْنا ، وإليه أَنَبْنا ، وإليه المصير ؟

أحمد زكى صفوت

وحرر بالقاهرة فى { رجب ١٣٥٦ هـ
سبتمبر ١٩٣٧ م

فهرس

مآخذ الرسائل فى هذا الجزء

الكتاب	الأجزاء
الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى	: الجزء الثانى ـ الخامس ـ السادس ـ الثامن ـ الحادى عشر ـ السادس عشر ـ الثامن عشر
تاريخ الأمم والملوك: لأبى جعفر بن جرير الطبرى	: الجزء الرابع ـ السادس ـ السابع ـ الثامن : التاسع
تاريخ الكامل : لعز الدين بن الأثير	: الجزء الثالث ـ الرابع
صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى	: الجزء الأول ـ السادس ـ التاسع ـ العاشر
الكامل : للمبرد	: الجزء الأول ـ الثانى
العقد الفريد : لابن عبد ربه	: « الأول ـ الثانى الثالث
زهر الآداب : لأبى إسحٰق الحُصْرى	: « الأول ـ الثالث
البيان والتبيين : للجاحظ	: « الأول ـ الثانى ـ الثالث
وفيات الأعيان لابن خلكان	: « الأول ـ الثانى
شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد	: المجلد الأول ـ الثالث ـ الرابع
صحيح الإمام البخارى	: الجزء الأول
مروج الذهب : للمسعودى	: « الثانى
معجم البلدان : لياقوت الحموى	: « الثانى ـ السادس
الإمامة والسياسة : لابن قتيبة	: « الأول ـ الثانى
نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى	: الجزء السابع
الأمالى لأبى على القالى	: الجزء الثانى ـ ذيل الأمالى
مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى	: « الثانى
جمهرة الأمثال : لأبى هلال العسكرى	: « «

عيون الأخبار : لابن قتيبة : الجزء الخامس

تهذيب تاريخ ابن عساكر : « الأول

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار :

للمقريزى » »

اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور : « الثانى عشر ـ الثالث عشـ

نثر الدرر : لمنصور بن الحسين الآبىّ : « الثالث

غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص :

الفاضحة للوطواط

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى :

ثمرات الأوراق : لابن حجة الحموى :

كتاب الخراج : لأبى يوسف :

سرح العيون ، شرح رسالة ابن زيدون :

لابن نباتة المصرى

أدب الكتاب : لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى :

سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن الجوزى :

الحسن البصرى : » » :

فتوح البلدان : للبلاذرى :

الفخرى : لابن طباطبا .

كتاب الوزراء والكتاب :

لابن عبدوس الجهشيارى :

مقدمة ابن خلدون :

خاص الخاص : للثعالبى :

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح :

رسائل البلغاء : لمحمد كرد على بك :

الباب الثالث

الرسائل
في
العصر الأموي

خلافة الحسن ومعاوية

١ - كتاب عبد الله بن عباس إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما

كتب عبد الله بن عباس إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما إذ ولّاه الناس أمرهم بعد الإمام علي كرم الله وجهه في رمضان سنة ٤٠ هـ .

« أما بعد ، فإن المسلمين وَلَّوْكَ أمرَهم بعد عَلِيٍّ عليه السلام ، فشَمِّرْ للحرب[١] ، وجاهِدْ عدوَّك ، وقارِبْ أصحابَك ، واشْتَرِ من الظنين ذَنْبَه بما لا يَثْلِم دينك[٢] ، وَوَلِّ[٣] أهلَ البيوتات والشرف ، تستصلحْ بهم عشائرَهم ، حتى يكون الناس جماعةً ،

(١) وفي رواية : « إن الناس قد ولوك أمرهم بعد علي فاشدد عن يمينك ... » .

(٢) الظنين : المتهم ، من ظننته إذا اتهمته فهو فعيل بمعنى مفعول ، ويثلم : يعيب وينقص ، وأصله من ثلم الإناء إذا كسر حرفه وبابه ضرب وفرح » ويروى « واشتر من الضنين دينه بما لا يثلم دينك » والضنين البخيل (٣) وفي رواية « واستعمل » وفي أخرى « ووال » .

فإن بعض ما يكرَه الناسُ ـ مالم يتعدَّ الحقَّ ، وكانت عواقبُه تؤدى إلى ظهور العدل وعزِّ الدين ـ خيرٌ من كثير مما يحبه الناس ، إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجوْر ، وذُلِّ المؤمنين ، وعزّ الفاجرين ، واقتد بما جاء عن أئمة العدل ، فقد جاء عنهم: « إنه لا يَصلُح الكذبُ إلا فى حرب أو إصلاح بين الناس ، فإن الحرب خُدْعة[1] » ولك فى ذلك سِعَة ، إذا كنت محاربا ، مالم تُبْطِلْ حقًّا .

واعلم أن عليّا أباك إنما رغَّب الناسَ عنه إلى معاوية أنه آسَى[2] بينهم فى الفَيْء ، وسوَّى بينهم فى العطاء ، فثَقُل عليهم . واعلم أنك تحارب من حاربَ اللهَ ورسوله فى ابتداء الإسلام ، حتى ظهر أمر الله ، فلما وُحِّد الربُّ ، ومُحِقَ الشِّركُ ، وعَزَّ الدين ، أظهروا الإيمان ، وقرءوا القرآن مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كُسالَى ، وأدَّوا الفرائِضَ وهم لها كارهون ، فلما رأوا أنه لا يَعِزُّ فى الدين إلا الأتقياء الأبرار ، توسَّموا بسيمى الصالحين ، ليظن المسلمون بهم خيراً ، فما زالوا بذلك حتى شَرِكوهم فى أماناتهم ، وقالوا حسابُهم على الله ، فإن كانوا صادقين فإخوانُنا فى الدين ، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين ، وقد مُنِيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم ، ولله ما زادهم طولُ العمر إلا غيًّا ، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مَقْتاً ، فجاهِدْهم ولا ترْضَ دَنِيَّةً ، ولا تَقْبَلْ خَسْفاً[3] ، فإن عليًّا لم يُجِب إلى الحكومة حتى غُلب على أمره فأجاب ، وإنهم يعلمون أنه أولى بالأمر إن حكموا بالعدل ، فلما حكموا بالهوَى رجع إلى ما كان عليه حتى أَتَى عليه أَجَلُه ، ولا تخرجَنَّ من حقٍّ أنت أولى به ، حتى يَحُول الموت دون ذلك ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م٤ ص : ٨ ، والعقد الفريد ١ : ٩ ، ٢ : ٢٤٤)

---

(١) الحرب خدعة مثلثة الخاء ، وبضمها مع فتح الدال أى تنقضى بخدعة .

(٢) آسى بينهم: أى سوى . (٣) ذلا .

٢ — كتاب الحسن إلى معاوية

ودَسَّ معاوية رجلا من حِمْير إلى الكوفة ، ورجلا من بنى القَيْن إلى البصرة : يكتبان إليه بالأخبار فدُلَّ على الحميرىّ وعلى القَيْنىِّ فأُخِذا وقتلا ، وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

« أما بعد : فإنك دَسَسْتَ إلىَّ الرجالَ ، كأنك تحبّ اللِّقاء ، لا أشك فى ذلك ، فتوقَّعْه إن شاء الله ، وبَلَغَنى أنك شَمِتَّ بما لم يَشْمَتْ به ذوو الحِجَى[1] ، وإنما مَثَلُكَ فى ذلك كما قال الأول :

فإنَّا ومَنْ قد مات مِنَّا لَكالَّذِى ... يَرُوحُ فيُمْسِى فى المَبِيت لِيغْتَدِى

فقل للذى يَبْغِى خِلافَ الذى مضى ... تَجَهَّزْ لأُخْرَى مثلِها فكأنْ قَدِ

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١١)

٣ — رد معاوية على الحسن

فأجابه معاوية :

أما بعد: فقد وصل كتابك، وفَهِمت ما ذَكرتَ فيه،ولقد علمتُ بما حدث فلم أفرح ولم أحزَن ، ولم أَشْمَت ولم آسَ[2] ، وإن عليًّا أباك لكما قال أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

فأنت الجواد وأنت الذى ... إذا ما القلوبُ مَلأْنَ الصدورا

جَدِيرٌ بطَعْنَةِ يوم اللِّقا ... يُضَرِّبُ منها النساء النُّحُورا

وما مُزْبِدٌ من خليج البِحَا ... رِ يَعْلُو الإكامَ ويعلو الجُسُورَا[3]

بأَجْوَدَ منه بما عِنده ... فيُعْطِى الألوفَ ويعطى البُدُورا[4]

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١١)

---

(١) أى شمت بموت أبى ، والعاقل لا يشمت بالموت (٢) أى ولم أحزن وفعله كفرح .

(٣) أزبد البحر إزباداً فهو مزبد أى مائج يقذف بالزبد (بالتحريك) وهو كالرغوة. والإكام جمع أكمة كقصبة : وهى التل (٤) البدرة كوردة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار وجمعه بدر كعنب وبدور كجنود .

٤ — كتاب ابن عباس إلى معاوية

وكتب عبد الله بن عباس من البصرة إلى معاوية :

« أما بعد : فإنك ودسَّك أخا بنى القَيْنِ إلى البصرة تلتمس من غَفَلات قريش مثل ما ظفِرْتَ به من يَمَانِيَتك لكما قال أُمَيَّة بن الأسكر[1] :

لَعَمْرُكَ إنِّى والخُزَاعِىَّ طارقًا ... كَنَعْجَةَ غادَتْ حَتْفَها تَتحفَّرُ[2]

أثارتْ عليها شَفْرَةً بِكُرَاعِها ... فظلَّتْ بها من آخِرِ الليل تُنْحَرُ[3]

شَمِتَّ بقوم هم صَدِيقُك أهلكوا ... أصابهمُ يومٌ من الدهر أعسَرُ

(الأغانى ١٨ : ١٦٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٢)

٥ — رد معاوية على ابن عباس

فأجابه معاوية :

« أما بعد : فإن الحسن بن علىّ قد كتب إلىّ بنحو مما كتبتَ به ، وأنَّبنى بما لم يحقِّق سوء ظن ورأيٍ فىّ ، وإنك لم تُصِبْ مَثَلِي ومثلكم ، وإنما مَثَلُنَا كما قال طارِق الخُزاعى يُجيب أميَّة عن هذا الشعر :

---

(١) فى شرح ابن أبى الحديد « أمية بن أبى الصلت » وهو خطأ ، روى صاحب الأغانى قال : أصيب قوم من بنى جندع (كبرقع) بن ليث بن بكر بن هوازن رهط أمية بن الأسكر يقال لهم بنو زبينة (كصحيفة) ابن جندع ، أصابهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يوم المريسيع فى غزوته بنى المصطلق وكانوا جيرانه يومئذ ومعهم ناس من بنى لحيان (بالكسر) من هذيل ، ومع بنى جندع رجل من خزاعة يقال له طارق ، فاتهمه بنو ليث بهم وأنه دل عليهم ، وكانت خزاعة مسلمها ومشركها يميلون إلى النبى صلى الله عليه وسلم على قريش ، فقال أمية بن الأسكر : لعمرك إنى والخزاعى . . . . فى أبيات ، فأجابه طارق الخزاعى : لعمرك ما أدرى . . . . ».

(٢) غادت : باكرت ، والحتف : الموت ، ومنع نعجة من الصرف للضرورة .

(٣) الشفرة : السكين العظيم ، والكراع من الغنم والبقر : مستدق الساق وهو بمنزلة الوظيف من الفرس ، وجاء فى المثل : « كالباحث عن المدية » ويروى « عن الشفرة » وفى آخر : « كباحثة عن حتفها بظلفها » وأصله أن رجلا كان جائعاً بالفلاة القفر ، فوجد شاة ولم يكن معه ما يذبحها به فبحثت الشاة الأرض بأظلافها ، فسقطت على شفرة فذبحها بها ، يضرب لكل من أعان على نفسه بسوء تدبيره .

فواللهِ ما أدرِى (وإنى لَصادقٌ) إلى أىِّ مَنْ يَظَّنُّنِى أتعذَّرُ[١]
أُعنِّفُ أنْ كانتْ زَبِينَةُ أهلكتْ ونالَ بنى لِحْيانَ شرٌّ فأُنفِرُوا[٢]

(الأغانى ١٨ : ١٦٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٢)

٦ — كتاب الحسن إلى معاوية

وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

« من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سُفيان ، أما بعد : فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله رحمةً للعالمين ، فأظهر به الحقَّ ، وقَمَعَ به الشِّركَ ، وأعزَّ به العرب عامّة ، وشرَّف به قريشاً خاصَّة ، فقال : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » فلما توفاه الله تنازعت العرب فى الأمر بعده ، فقالت قريش : نحن عَشيرته وأولياؤه ، فلا تُنازِعونا سلطانَه ، فعرَفت العربُ لقريش ذلك ، وجاحَدَتْنا قريش ما عرفَتْ لها العربُ ، فهيهات ! ما أنصَفَتْنا قريش ، وقد كانوا ذوى فضيلة فى الدين ، وسابقةٍ فى الإسلام ، ولا غرْوَ[٣] إلا منازَعَتُكَ إيانا الأمرَ بغير حق فى الدنيا معروف ، ولا أثرٍ فى الإسلام محمود ، فاللهُ المَوْعِد ، نسأل الله معروفَه أن لا يُؤْتيَنا فى هذه الدنيا شيئاً يَنْقُصُنا عنده فى الآخرة .

إن علياً لما توفاه الله وَلَّانى المسلمون الأمر بعده ، فاتق الله يا معاوية ، وانظر لأمة محمد صلى الله عليه وآله ما تَحْقِنُ به دماءها ، وتُصْلِح به أمرها ، والسلام .

وبعث بالكتاب مع الحارث بن سُوَيد التَّيْمىّ (تيم الرَّباب) وجُنْدُب الأزدى ، فقَدِما على معاوية ، فدعَواه إلى بَيْعة الحسن عليه السلام ، فلم يجبهما . وكتب جوابه :

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٩)

---

(١) أظنه وأطنه : بالظاء والطاء مشددتين : اتهمه ، وهو افتعل من الظنة بالكسر أى التهمة ، وأصله أظتن ، ثم أبدل وأدغم .

(٢) أنفروا : شردوا . (٣) لا غرو ولاغروى : أى لاعجب .

٧ — رد معاوية على الحسن

« أما بعد : فقد فهمتُ ما ذكرتَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله ، وذكرتَ تنازُعَ المسلمين الأمْرَ بعده ، فصرَّحتَ بتُهَمَة أبى بكر الصديق وعُمَرَ وأبى عُبيدة الأمين وصُلَحاء المهاجرين ، فكرهتُ لك ذلك . إن الأمة لمَّا تنازعت الأمرَ بينها ، رأت قريشاً أخْلَقَها به ، فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يُوَلّوا من قريش أعلَمَها بالله ، وأخشاها له ، وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر ولم يَأْلُوا[1] ، ولو علموا مكان رجل غير أبى بكر يقوم مَقامه ويَذُبُّ عن حرَم الإسلام ذَبَّه ، ما عَدَلوا بالأمر إلى أبى بكر ، والحالُ اليومَ بينى وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمتُ أنك أضبطُ لأمر الرعية ، وأحْوَطُ على هذه الأمة ، وأحسنُ سياسةً ، وأكْيَدَ للعدو ، وأقوى على جمع الفَيْء ، لسلَّمتُ لك الأمر بعد أبيك ، فإن أباك سَعَى على عثمان حتى قُتِل مظلوماً ، فطالب اللهُ بدمه ، ومن يطلُبه اللهُ فلن يفوته ، ثم ابتزّ الأمةَ أمرَها ، وفرّق جماعتها ، فخالفه نُظَراؤه من أهل السابقة والجهاد والقِدَم فى الإسلام ، وادعى أنهم نكثوا بيعته ، فقاتلهم ، فسُفِكت الدماء ، واستُحِلّت الحُرَم ، ثم أقبل إلينا لايدَّعى علينا بيعة ، ولكنه يريد أن يَمْلِكنا اغتراراً ، فحاربناه وحاربنا ، ثم صارت الحرب إلَى أن اختار رجلا واخترنا رجلا ليحكما بما تَصْلُح عليه الأمة ، وتعود به الجماعةُ والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقا ، وعليه مثله ، على الرِّضا بما حَكَمَا ، فأمضى الحَكَمَان عليه الحُكْم بما علمت وخلعاه ، فوالله ما رضى بالحكم ، ولا صَبَرَ لأمر الله ، فكيف تدعونى إلى أمر إنما تطلبه بحق أبيك وقد خرج منه ، فانظر لنفسك ولدينك ، والسلام » .

ثم قال للحارث وجُنْدُب : ارجعا فليس بينى وبينكم إلا السيف .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٩)

---

(١) ألايألو : قصر وأبطأ .

صورة أخرى لكتاب الحسن إلى معاوية

وروى كتاب الحسن السابق إلى معاوية بصورة أخرى وهى :

كتب الحسن عليه السلام إلى معاوية مع جُندُب بن عبد الله الأَزْدِىّ :

« من الحسن بن على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان ، سلام عليك فإنى أَحْمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمةً للعالمين ومِنَّةً للمؤمنين ، وكافة للناس أجمعين « لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ » فبلَّغ رسالات الله ، وقام بأمر الله ؛ حتى توفاه الله غير مُقَصِّر ولا وانٍ ، بعد أن أظهر الله به الحقَّ ومَحَق به الشِّركَ ، وخَصَّ به قريشاً خاصة ، فقال له : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » فلما توُفِّىَ تنازعت سلطانَه العربُ ، فقالت قريش : نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ، ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطانَ محمد وحقَّه ، فرأت العرب أن القول ما قالت قريش ، وأن الحجة فى ذلك لهم على مَنْ نازَعَهم أمرَ محمد ، فأَنْعَمَت[1] لهم وسلَّمت إليهم ، ثم حاجَجْنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت به العرب ، فلم تُنْصِفنا قريش إنصافَ العرب لها ، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنصاف والاحتجاج ، فلما صرنا أهلَ بيت محمد وأولياءه إلى مُحاجَّتهم وطلب النَّصَف[2] منهم ، باعدونا واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ومُراغَمتنا[3] ، والعَنَت منهم لنا ، فالموعد الله ، وهو الولى النصير .

ولقد كنا تعجَّبْنا لتوثُّب المتوثبين علينا فى حقنا وسلطان بيتنا ، وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام ، وأمسَكْنا عن منازعتهم مخافةً على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب[4] فى ذلك مَغْمَزًا يَثْلِمونه به ، أو يكون لهم بذلك سبب إلى

---

(١) أنعم له : قال له نعم . (٢) النصف : الإنصاف .

(٣) راغمهم: نابذهم وعاداهم، والعنت: المشقة . (٤) هى الأحزاب التى تحزبت وتظاهرت على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغطفان وبنى مرة وبنى أشجع وبنى سليم بنى أسد (فى غزوة الأحزاب ، وهى غزوة الخندق سنة ٥ هـ) وكان قائدهم العام أبا سفيان .

ما أرادوا من إفساده ، فاليوم فليتعجب المتعجِّب من توثُّبك يا معاوية على أمر لست من أهله ، لا بفضل فى الدين معروف ، ولا أثر فى الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله ولكتابه ، والله حَسِيبك ، فستَرُدّ وتعلم لِمَنْ عُقْبى الدار ، وبالله لتلقَيَنَّ عن قليل ربَّك ، ثم لَيَجْزِينَّك بما قدّمَتْ يداك ، وما الله بظلام للعبيد .

إن عليًّا لما مضى لسبيله - رحمة الله عليه يوم قُبض ، ويوم مَنَّ الله عليه بالإسلام ، ويوم يُبْعث حيا - ولاّنى المسلمون الأمر بعده ، فأسألُ اللهَ أن لا يُؤتينا فى الدنيا الزائلة شيئًا يَنْقُصُنا به فى الآخرة مما عنده من كرامة ، وإنما حملنى على الكتابِ إليك الإعذارُ فيما بينى وبين الله عزّ وجل فى أمرك ولك فى ذلك إن فعلتَه الحَظُّ الجسيم ، والصلاح للمسلمين ، فدع التمادىَ فى الباطل ، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتى ، فإنك تعلم أنى أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أوَّاب[1] حفيظ ومَن له قلب مُنيب ، واتق الله ودع البغى واحقن دماء المسلمين ، فوالله مالك خير فى أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به ، وادخل فى السِّلم والطاعة ، ولا تُنازِع الأمرَ أهلَه ، ومَن هو أحق به منك ، ليطفئ الله النائرةَ[2] بذلك ، ويجمع الكلمة ، ويصلح ذاتَ البين ، وإن أنت أبيت إلا التمادِى فى غيك ، سرتُ إليك بالمسلمين ، فحاكَمْتُك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » . (شرح ابن أبى الحديدم٤ : ص ١٢)

صورة أخرى لرد معاوية على الحسن

وروى أيضًا : رد معاوية على الحسن بصورة أخرى وهى :

فكتب معاوية إليه :

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسن بن على : سلام عليك فإنى أَحْمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فقد بلغنى كتابك ، وفهمت ما ذكرتَ به

(١) آب إلى الله تعالى: رجع عن ذنبه وتاب، فهو أواب، مبالغة. (٢) النائرة: العداوة والشحناء.

محمداً رسول الله من الفضل ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كلّه ، قديمه وحديثه ، وصغيره وكبيره ، وقد والله بلّغ وأدّى ، ونَصَح وهَدَى ، حتى أنقذ اللهُ به من الهَلَكة ، وأنار به من العَمَى ، وهَدَى به من الجهالة والضَّلالة ، فجزاه الله أفضَل ما جَزَى نبيًّا عن أمته ، وصلوات الله عليه يوم وُلِد ، ويوم بُعث ، ويوم قُبِض ، ويوم يُبْعث حيا ، وذكرتَ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتنازُعَ المسلمين الأمرَ بعده ، وتغلُّبَهم على أبيك ، فصَرَّحتَ بتُهَمَة أبي بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وأبي عُبَيدة الأمين ، وحَوارِيِّ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلحاء المهاجرين والأنصار ، فكَرِهت ذلك لك ، إنك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظَّنين ولا المسيء ولا اللئيم ، وأنا أحب لك القول السديد ، والذكر الجميل .

إن هذه الأمة لما اختلفت بينها ، لم تَجْهَل فضلكم ولا سابقتكم ولا قَرابتكم من نبيكم ، ولا مكانكم في الإسلام وأهله ، فرأت الأمة أن تَخْرُج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيها ، ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعوامّهم أن يُولُّوا هذا الأمر من قريش أقدمَها إسلامًا ، وأعلَمها بالله ، وأحبّها له ، وأقواها على أمر الله ، فاختاروا أبا بكر ، وكان ذلك رأى ذوى الدين والفضل والناظرين للأمة ، فأوقع ذلك في صدوركم لهم التُّهَمَة ، ولم يكونوا متَّهَمين ، ولا فيما أَتَوا بالمخطئين ، ولو رأى المسلمون أن فيكم من يُغْنِي غناءه[2] . ويقوم مقامه ، ويَذُبّ عن حريم الإسلام ذَبَّه ، ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبةً عنه ، ولكنهم عملوا في ذلك بما رأوه صلاحاً للإسلام وأهله ، والله يَجْزِيهم عن الإسلام وأهله خيراً .

وقد فهمتُ الذى دعوتنى إليه من الصلح ، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلو علمت أنك أضبط مني للرعية ، وأحْوَط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأقوى على جمع الأموال ،

---

(١) هو الزبير بن العوام ، والحوارى : الناصر أو ناصر الأنبياء .

(٢) الغناء : النفع ، وأغنى غناءه : أجزأ عنه وقام مقامه .

وأكيد للعدو ، لأجبتك إلى ما دعوتنى إليه ، ورأيتك لذلك أهلاً ، ولكن قد علمتَ أنى أطول منك ولاية ، وأقدم منك بهذه الأمة تجربة ، وأكبر منك سنا ، فأنت أحقُّ أن تُجيبنى إلى هذه المنزلة التى سألتنى ، فادخُل فى طاعتى ولك الأمر من بعدى ، ولك ما فى بيت مال العراق من مالٍ ، بالغًا ما يبلغ تحمِله إلى حيثُ أحببت ، ولك خَراج أىِّ كُوَرِ العراق شئت ، معونةً لك على نفقتك ، يَجْبيها أمينك ، ويحملها إليك فى كل سنة ، ولك ألا يُستولَى عليك بالإساءة ، ولا تُقضَى دونك الأمور ، ولا تُعصَى فى أمرأردت به طاعة الله ، أعاننا الله وإياك على طاعته ، إنه سميع مجيب الدعاء ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٣)

٨ — كتاب معاوية إلى الحسن

وكتب معاوية إلى الحسن رضى الله عنه :

« أما بعد : فإن الله يفعل فى عباده ما يشاء لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ، فاحذر أن تكون منيّتك على أيدى رَعَاعٍ من الناس ، وَأْيَسْ من أن تجد فينا غَمِيزَةً ، وإن أنت أعرضتَ عما أنت فيه وبايعتنى ، وفَيْتُ لك بما وعدتُ ، وأجرَيْتُ لك ما شَرَطْتُ ، وأكون فى ذلك كما قال أعشى بنى قيس ابن ثَعْلَبة :

وإنْ أحدٌ أَسْدَى إليك أمانةً ... فَأَوْفِ بِهَا ، تُدْعَى إذا مِتَّ وافيا
ولا تحسُدِ المَوْلَى إذا كان ذا غِنًى ... ولا تَجْفُهُ إن كان فى المال فانيا[1]

ثم الخلافة لك من بعدى ، فأنت أَوْلَى الناس بها ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٣)

(١) المولى : الصاحب والقريب كابن العم ونحوه.

٩ — رد الحسن على معاوية

فأجابه الحسن :

« أما بعد : فقد وصل إلىَّ كتابُك تذكر فيه ما ذكرتَ ، وتركتُ جوابَك خَشْيَةَ البغى عليك ، وبالله أعوذ من ذلك ، فاتَّبِع الحق تعلم أنى مِن أهله ، وعلىّ إثمٌ أنْ أقولَ فأكْذِبَ ، والسلام » . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٣)

١٠ — كتاب معاوية إلى عماله

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية قرأه ، ثم كتب إلى عماله على النواحى بنسخة واحدة :

« من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان ، ومَن قِبَله من المسلمين ، سلام عليكم ، فإنى أحمَدُ إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذى كفاكم مُؤْنة(١) عدوكم ، وقَتَلَةَ خليفتكم ، إن الله بلطفه وحُسْن صنعه أتاح لعلىّ بن أبى طالب رجلا من عباده فاغتاله فقتله ، فترك أصحابَه متفرقين مختلفين ، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ، فأقبلوا إلىّ حين يأتيكم كتابى هذا بجُهْدكم وجندكم ، وحسن عُدَّتكم ، فقد أصبتم بحمد الله الثأرَ ، وبلغتم الأملَ ، وأهلكَ الله أهلَ البغى والعُدوان ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وأقبل معاوية بجيشه قاصداً إلى العراق . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٣)

---

(١) المؤنة : الثقل ، وفيها لغات إحداها . مئونة على وزن فعولة بفتح الفاء وبهمزة مضمومة ، والثانية : مئونة بهمزة ساكنة كغرفة ، والثالثة : مونة كسورة .

١١ — الصلح بين الحسن ومعاوية

وتجهز الحسن عليه السلام للقاء معاوية ، وخرج بأصحابه إلى المدائن ، ولكنهم رأوا منه أنه يجنح إلى موادعة معاوية ومصالحته ، فثاروا به وأساءوا إليه(١) ، فازداد لهم بغضا ، وازداد منهم ذعرا ، ورأى الأمر قد تفرق عنه ، فبعث إلى معاوية يطلب الصلح ، وبعث معاوية إليه رسولين قَدِما عليه المدائن ، فأعطياه ما أراد ، وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف فى أشياء اشترطها .

قال الطبرى : « كاتب الحسن معاوية وأرسل إليه بشروط ، قال : إن أعطيتنى هذا فأنا سامع مطيع ، وعليك أن تَفِيَ لى به ، ووقعت صحيفة الحسن فى يد معاوية ، وقد أرسل معاوية قبل هذا إلى الحسن بصحيفة بيضاء مختومٍ على أسفلها ، وكتب إليه : أَنِ اشترطْ فى هذه الصحيفة التى ختمتُ أسفلَها ما شئتَ فهو لك ، فلما أتت الحسنَ اشترط أضعاف الشروط التى سأل معاويةَ قبل ذلك وأمسكها عنده ، وأمسك معاوية صحيفةَ الحسن عليه السلام ، التى كتب إليه يسأله ما فيها .

---

(١) وذلك أن الحسن عليه السلام لما أتى ساباط ، أقام بها أياما ، فلما أراد أن يرحل الى المدائن ، قام فخطب الناس. فقال : « أيها الناس إنكم بايعتمونى على أن تسالموا من سالمت ، وتحاربوا من حاربت ، وإنى والله ما أصبحت محتملا على أحد من هذه الأمة ضغينة فى شرق ولا غرب ، ولما تكرهون فى الجماعة والألفة والأمن وصلاح ذات البين ، خير مما تحبون فى الفرقة والخوف والتباغض والعداوة ، وإن عليا أبى كان يقول : لاتكرهوا إمارة معاوية ، فإنكم لو فارقتموه لرأيتم الرءوس تندر عن كواهلها كالحنظل » ثم نزل فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا : ما قال هذا القول إلا وهو خالع نفسه ومسلم الأمر لمعاوية ، كفر والله الرجل ؛ ثم نشدوا على فسطاطه فانتهبوا متاعه حتى أخذوا مصلاه من تحته ، وانتزعوا مطرفه عن عاتقه ، وأخذوا جارية كانت معه فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراده ، ولاموه وضعفوه لما تكلم به ، فلما مر فى مظلم ساباط ، قام إليه رجل يقال له جراح بن سنان وبيده معول ، فأخذ بلجام فرسه وقال : الله أكبر ياحسن ! أشرك أبوك ثم أشركت أنت ! وطعنه بالمعول فوقعت فى فخذه فشقتها حتى بلغت أربيته (أصل الفخذ) وسقط الحسن إلى الأرض

فلما التقى معاوية والحسن عليه السلام ، سأله الحسن أن يعطيه الشروط التى شرط فى السِّجِلّ الذى ختم معاوية فى أسفله،فأبى معاوية أن يعطيَه ذلك ، فقال : لك ما كنت كتبت إلىّ أوّلا تسألنى أن أعطِيكه ، فإنى قد أعطيتك حين جاءنى كتابك ، قال الحسن عليه السلام : وأنا قد اشترطت حين جاءنى كتابك ، وأعطيتنى العهد على الوفاء بما فيه ، فاختلفا فى ذلك فلم ينفِّذ للحسن عليه السلام من الشروط شيئاً » .

وسلم الحسن عليه السلام الأمر إلى معاوية ، ودخل معاوية الكوفة وبايعه أهلها بالخلافة لخمس بقين من ربيع الأول ، ويقال من جمادى الأولى سنة ٤١ هـ .

(تاريخ الطبرى ج : ٦ ص ٩٢– ٩٣)

١٢ — كتاب الحسن إلى معاوية بعد الصلح

ولما سلم الحسن بن علىّ رضى الله عنه الأمر إلى معاوية ، سار يريد المدينة ، فكتب إليه معاوية يدعوه إلى قتال الخوارج ، فكتب إليه :

« لو آثَرْتُ أن أقاتلَ أحداً من أهل القِبْلة لَبدأتُ بقتالك ، فإنى تركتك لصلاح الأمة ، وحَقْنِ دمائها » . (الكامل لابن الأثير ٣ : ١٦٣)

* * *

وروى أبو العباس المبرِّد قال :

دخل معاوية الكوفة مع الحسن بن علىّ صلوات الله عليه بعد أنْ بايعه الحسن والحسين عليهما السلام ، وقيس بن سعد بن عُبَادة ، ثم خرج الحسن يريد المدينة ، فوجَّه إليه معاوية ، وقد تجاوز فى طريقه ، يسأله أن يكون المتولِّى لمحاربة الخوارج[1] ، فقال الحسن : « والله لقد كففتُ عنك لحقن دماء المسلمين ، وما أحسبُ ذلك يَسَعنى ، أفأقاتِل عنك قومًا أنت والله أَوْلَى بالقتال منهم » . (الكامل للمبرد ٢ : ١٥٦)

---

(١) وكان أول من خرج منهم بعد قتل على عليه السلام حوثرة الأسدى،فإنه كان متنحيا بالبندنيجين فكتب إلى حابس الطائى يسأله أن يتولى أمر الخوارج حتى يسير إليه بجمعه ، فيتعاضدا على مجاهدة معاوية ، فأجابه فرجعا إلى موضع أصحاب النخيلة ، فلما رجع جواب الحسن إلى معاوية وجه إليهم جيشاً أكثرهم من أهل الكوفة فهزموهم .

١٣ — كتاب معاوية إلى ابن عباس

وكتب معاوية إلى ابن عباس رضى الله عنه ، عند صلح الحسن عليه السلام له كتابا يدعوه فيه إلى بيعته ، ويقول له فيه :

« ولَعَمْرِى لو قتلتُك بعثمان رجوتُ أن يكون ذلك لِله رِضًا ، وأن يكون رأيًا صوابًا ، فإنك من السّاعين عليه ، والخاذلين له ، والسّافكين دَمَهُ ، وما جرَى بينى وبينك صُلْح فيمنعَك منى ، ولا بِيَدِك أمان » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٥٨)

١٤ — رد ابن عباس على معاوية

فكتب إليه ابن عباس جوابًا طويلًا يقول فيه :

« وأمّا قولك : إنّى من الساعين على عثمان ، والخاذلين له ، والسافكين دَمَه ، وما جرى بينى وبينك صلح فيمنعَك منى ، فأُقسِم بالله لَأنت المتربِّصُ بقتله ، والمحبُّ لهلاكه ، والحابِسُ الناسَ قِبَلك عنه على بصيرة من أمره ، ولقد أتاك كتابه وصَرِيخُهُ[1] يستغيث بك ويستصرخ ، فما حَفَلْتَ به[2] ، حتى بعثتَ إليه مُعَذِّراً بأَخَرَة[3] ، أنت تعلم أنهم لن يتركوه حتى يُقتلَ ، فقُتل كما كنت أردت ، ثم علمت عند ذلك أن الناس لن يَعْدِلوا[4] بيننا وبينك ، فطفِقْتَ تَنْعَى عثمان وتُلزِمنا دَمَه ، وتقول : قُتل مظلومًا ، فإن يك قُتل مظلومًا فأنت أظلم الظالمين ، ثم لم تزل مُصَوِّبا ومُصَعِّداً[5] ،

---

(١) الصريخ : المستغيث (والمغيث أيضاً ، ضد) واستصرخ : استغاث ، تقول ، استصرخه فاصرخه . (٢) انظر ص ٢٧٧ من الجزء الأول .

(٣) المعذر : المقصر يتعذر بغير عذر ، يوهم أن له عذراً ولا عذر له ، وجاء أخرة وبأخرة محركتين وقد يضم أولهما : أى آخر كل شىء ، وفى الأصل (بأجرة) وهو تحريف .

(٤) أى لن يسووا . (٥) التصويب: خلاف التصعيد ، يقال صوب رأسه : إذا خفضه .

وجَاثماً ورابِضًا[1] ، تستغوى الُجهَّال ، وتنازعنا حقَّنا بالسفهاء ، حتى أدركت ما طلبتَ ، وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٥٨)

١٥ — كتاب معاوية إلى الحسين بن علىّ

قال صاحب زهر الآداب :

وكان لمعاوية بن أبى سفيان عَيْنٌ بالمدينة يكتب إليه بما يكون من أمور الناس وقريش ، فكتب إليه أن الحسين بن علىّ رضى الله عنه أعتق جارية له وتزوجها ، فكتب معاوية إلى الحسين :

« من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن على :

أما بعدُ ، فإنه بلغنى أنك تزوجتَ جارِيتَك ، وتركتَ أكفاءك من قريش ، ممن تستحسنه للولد ، وتَمْجُدُ به فى الصِّهر ، فلا لنفسك نظرتَ ، ولا لولدك انتقيت » .

١٦ — رد الحسين على معاوية

فكتب إليه الحسين بن علىّ رضى الله عنه :

أما بعد ، فقد بلغنى كتابُك وتعييرُك إياى بأنى تزوجتُ مولاتى ، وتركتُ أكفائى من قريش ، فليس فوقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنْتَهًى فى شَرَفٍ ، ولا غايةٌ فى نَسَبٍ[2] ، وإنما كانت مِلْكَ يمينى ، خرَجَتْ عن يدى بأمرٍ الْتَمَستُ فيه ثوابَ الله تعالى ، ثم ارتجعتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد رفع الله بالإسلام الخسيسةَ ، ووضع عنّا به النقيصةَ فلا لومَ على امرئ مُسْلِم إلا فى أمر مَأْثَم ، وإنما اللومُ لَوْمُ الجاهلية » .

---

(١) جثم الطائر والإنسان كضرب ونصر جثما وجثوما : تلبد بالأرض ، وربضت الشاة كضرب ربضا وربوضاً ، وهو مثل جثوم الطير وبروك الإبل .

(٢) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا يهود خيبر (سنة ٧ هـ) وهزمهم وسباهم ، وكان فى السبى صفية بنت حيي بن أخطب سيد بنى النضير ، فتزوجها عليه الصلاة والسلام وأصدقها عتقها ، وقد أسلمت .

فلما قرأ معاوية كتابه نبذه إلى يزيد فقرأه وقال : لَشَدَّ ما فَخَر عليك الحسينُ !
قال : لا ، ولـكنها أَلسِنَةُ بنى هاشم الِحداد ، التى تَفلِقُ الصَّخر ، وتغرف من البحر .
(زهر الآداب ١ : ٧٢)

* * *

وروى صاحب العقد هذا الخبر قال :

تزوج علىّ (زين العابدين) بن الحسين جارية له وأعتقها ، فبلغ ذلك عبد الملك ابن مروان ، فكتب إليه يؤنبه ، فكتب إليه علىّ :

« إن الله رَفَعَ بالإسلام الخسيسةَ ، وأتمَّ به النقيصة ، وأكرمَ به من اللؤم ، فلا عارَ على مسلم ، وهذا رسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وسلم قد تزوج أَمَتَه[1] ، وآمرأةَ عَبْدِهِ[2] » .

---

(١) هى صفية اليهودية كما قدمنا .

(٢) يشير إلى زواجه صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش ـ وأمها أميمة عمته ـ بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة ، وذلك أن رسول الله كان خطبها له ، فتأفف أهلها من ذلك لشرفها ورفعة حسبها ـ وكان العرب يأبون أن يزوجوا بناتهم من الموالى ـ وزيد وإن كان قد تبناه الرسول ـ لا يلحقه ذلك بالأشراف ، فلما نزل قوله تعالى « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِيناً » لم يروا بدا من القبول فلما دخل بها زيد أرته من كبريائها ودالتها ما لم يحتمله ، فشكاها الرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها ، إلى أن ضاق بها ذرعا ، فأخبره بعزمه على طلاقها وكرر ذلك ، فأمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها ، حسما لهذا الشقاق من جهة ، وحفظا لشرفها أن يضيم بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ، ولكن رسول الله خشى لوم اليهود والعرب عليه فى زواجه بزوج ابنه . فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى فى نفسه ما أبداه الله فبت الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهى تحريم زوج المتبنى بقوله تعالى : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً » .

فقال عبد الملك : إن عليّ بن الحسين يَشْرُف من حيث يتّضِعُ الناس .
(العقد الفريد ٣ : ٢٤٣)

١٧ – كتاب الحسين بن على إلى معاوية

وروى ابن أبى الحديد عن المدائنى قال :

قال معاوية يوما لعَقِيل بن أبى طالب : هل من حاجة فأقضِيَها لك ؟ قال : نعم ، جارية عُرِضت علىّ وأبَى أصحابها أن يبيعوها إلا بأربعين ألفاً ، فأحبّ معاوية أن يمازحه فقال : وما تصنع بجارية قيمتُها أربعون ألفاً ، وأنت أعمى تجتزئ بجارية قيمتها خمسون درهما ؟ قال : أرجو أن أطَأَها فتلِدُ لى غلاما إذا أغضبتَه يضرب عنقك بالسيف ، فضحك معاوية وقال : ما زَحْناك يا أبا يزيد ، وأمر فابتيعت له الجارية التى أولدها ابنه « مُسْلِماً » ، فلما أتت على مُسْلِم ثمانى عشرة سنة ، وقد مات عقيل أبوه ، قال لمعاوية : يا أمير المؤمنين إن لى أرضاً بمكان كذا من المدينة ، وإنى أُعْطِيتُ بها مائة ألف ، وقد أحببت أن أبيعك إياها ، فادفع إلىّ ثمنها ، فأمر معاوية بقبض الأرض ودفع الثمن إليه ، فبلغ ذلك الحسين عليه السلام ، فكتب إلى معاوية :

« أما بعدُ : فإنك غرَرْتَ غلاما من بنى هاشم ، فابتعت منه أرضاً لا يملكها ، فاقبِض من الغلام ما دَفَعْتَه إليه ، واردد إلينا أرضنا » .

١٨ – رد معاوية على الحسين

فبعث معاوية إلى مسلم فأخبره ذلك وأقرأه كتاب الحسين عليه السلام ، وقال : اردد علينا مالنا وخذ أرضك ، فإنك بعت مالا تَمْلِكُ ، فقال مسلم : أمّا دُونَ أن أضرِبَ رأسك بالسيف فلا ، فاستلقَى معاوية ضاحكاً يضرب برجليه ، وقال : يابنى هذا والله كلام قاله لى أبوك حين ابتعتُ له أمّك ، ثم كتب إلى الحسين :

« إنى قد رَدَدْتُ عليكم الأرض ، وسوّغت[1] مسفًا ما أخذ » فقال الحسين عليه السلام : « أَبَيْتم يا آلَ أبى سفيانَ إلا كرَمًا » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٨٢)

١٩ — كتاب الحسين بن على إلى معاوية

وكان مال حُمِل من اليمن إلى معاوية ، فلما مرّ بالمدينة وثب عليه الحسين بن على عليه السلام ، فأخذه وقسمه فى أهل بيته ومَواليه ، وكتب إلى معاوية :

« من الحسين بن علىّ إلى معاوية بن أبى سفيان :

أما بعد : فإن عِيراً[2] مرّتْ بنا من اليمن تحمِل مالاً وحُلَلا ، وعَنْبراً وطِيبًا إليك ، لِتُودِعَها خزائن دِمَشق ، وتُعِلّ بها بعد النَّهَلِ[3] بنى أبيك ، وإنى احتجت إليها فأخذتها ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص٣٢٧)

٢٠ — رد معاوية على الحسين

فكتب إليه معاوية :

« من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسين بن علىّ :

سلام عليك ، أما بعدُ : فإن كتابك ورد علىّ ، تذكُر أن عِيرا مرت بك من اليمن ، تحمل مالًا وحُلَلا ، وعَنبراً وطِيبًا إلىّ ، لِأُودِعَها خزائن دمشق ، وأُعلّ بها بعد النَّهَل بنى أبى ، وأنك احتجت إليها فأخذتها ، ولم تكن جديراً بأخذها ، إذ نسبْتَها إلىّ ، لأن الوالى أحقّ بالمال ، ثم عليه المَخْرَجُ منه ، وَايْمُ الله لو تركْتَ ذلك حتى صار إلىّ ، لم أبخَسْك حظَّك منه ، ولكنى قد ظننت يابن أخى أن فى رأسك نَزْوَةً[4] ،

---

(١) سوغه ما أصاب : تركه له خالصا .

(٢) العير : الإبل تحمل الميرة ، بلا واحد من لفظها ، أو كل ما امتير عليه إبلا كانت أو حميرا أو بغالا

(٣) العل والعلل محركة : الشربة الثانية أو الشرب بعد الشرب تباعا ، عل كضرب ونصر ، وعله كضرب ونصر أيضا وأعله ، والنهل محركة ، أول الشرب . نهلت الإبل كفرح ، وقد أنهلها .

(٤) النزوة : الوثبة ، من نزا نزوا ونزوانا إذا وثب ، يريد أنه يتوثب لطلب الخلافة .

وبِوُدِّى أن يكون ذلك فى زمانى ، فأعرفَ لك قَدْرَك ، وأتجاوزَ عن ذلك ، ولكنى وَاللهِ أتخوفُ أن تُبْتَلَى بمن لا يُنظِرُك فُوَاقَ[1] ناقة ، وكتب فى أسفل كتابه :

يا حسينُ بنَ علىّ : ليس ما جئتَ بالسائغِ يوما فى العِلَلْ[2]

أَخْذُكَ المالَ ولم تُؤْمَرْ به إنّ هذا من حُسَينٍ لَعَجَلْ

قد أجزْناها ولم نَغْضَبْ لها واحتملْنا من حسينٍ ما فعلْ

يا حُسينُ بن علىّ ذَا الأَمَلْ لكَ بَعْدِى وَثْبَةٌ لَاتُحْتَمل

وبودّى أننى شاهدُها فَأُلِيها منك بالخُلقِ الأجَل[3]

إننى أرْهَبُ أنْ تَصْلَى بمن عِندَه قد سَبَق السيفُ العَذَلْ[4]

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٣٢٧)

٢١ — كتاب محمد بن الحنفية إلى الحسين بن على

وجرى بين الحسين بن علىّ وبين أخيه محمد[5] بن الحنفِيَّة رضى الله عنهما كلام ، وافترقا متغاضِبَين ، فلما وصل محمد إلى منزله كتب إلى الحسين بعد البسملة :

---

(١) أنظره : أمهله ، والفواق كغراب ويفتح : ما بين الحلبتين من الوقت،أو مابين فتح يدك وقبضها على الضرع . (٢) السائغ : الجائز . (٣) أليها : أى أتولاها وأعالجها .

(٤) سبق السيف العذل : مثل معناه قد فرط من الفعل مالا سبيل إلى رده (والعذل : اللوم) وأول من قال هذا المثل ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر،وكان له ابنان يقال لأحدهما سعد وللآخر سعيد ، فنفرت إبل لضبة تحت الليل ، فوجه ابنيه فى طلبها ، فوجدها سعد فردها، ومضى سعيد فى طلبها فلقيه الحارث بن كعب ، وكان على الغلام بردان ، فسأله الحارث إياهما ، فأبى عليه ، فقتله وأخذ برديه ، فكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادا قال:أسعد أم سعيد (فذهبت مثلا يضرب فى النجاح والخيبة) فمكث ضبة بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم إنه حج فوافى عكاظ ، فلقى بها الحارث بن كعب ورأى عليه بردى ابنه سعيد ، فعرفهما فقال له : هل أنت مخبرى ما هذان البردان اللذان عليك ؟ قال : بلى ، لقيت غلاما وهما عليه ، فسألته إياهما فأبى على فقتلته وأخذت برديه هذين ، فقال ضبة : بسيفك هذا ؟ قال : نعم ، فقال . فأعطنيه أنظر إليه فإنى أظنه صارما ، فأعطاه الحارث سيفه، فلما أخذه من يده هزه وقال: الحديث ذوشجون (أى ذو طرق جمع شجن كشمس) ثم ضربه به حتى قتله ، فقيل له ياضبة ، أفى الشهر الحرام ؟ فقال : سبق السيف العذل .

(٥) هو محمد بن على بن أبى طالب ، والحنفية أمه ، وهى من بنى حنيفة بن لجيم ، واسمها خولة بنت جعفر ، وتوفى محمد سنة ٨١ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٤٤٧ .

« من محمد بن علىّ إلى أخيه الحسين بن علىّ ، أما بعد ، فإن لك شرَفا لا أبْلُغُهُ ، وفضلا لا أُدْرِكه ، فإن أمّى امرأة من بنى حَنِيفة ، وأمّك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان مِلْء الأرض نساء مثل أمّى ما وَفَيْنَ بأمّك ، فإذا قرأتَ رُقْعتى هذه فالبَسْ رداءك ونعليك ، وسِرْ إلىّ لترضِيَنى ، وإياك أن أَسْبِقَك إلى هذا الفضل الذى أنت أَوْلَى به منى ، والسلام » .

فلبس الحسين رداءه ونعليه وجاء إليه وترضّاه[1] .

(غررِ الخصائص الواضحة : ص ٣٨٣)

٢٢ — كتاب الحسن بن علىّ إلى أهل البصرة

وكتب الحسن بن على عليهما السلام إلى أهل البصرة كتابا قال فيه :

« من لم يُؤْمن بالله وقضائه وقَدَره فقد كفر ، ومن حَمَل ذنْبه على ربه فقد فَجَر ، إن الله لا يُطاعُ استكراها ، ولا يُعْصَى لِغَلَبَة ، لأنه المَليك لما ملّكهم ، والقادر على ما أقدرهم عليه ، فإن عَمِلوا بالطاعة لم يَحُل بينهم وبين ما فعلوا ، وإن عَمِلوا بالمعصية فلو شاء حال بينهم وبين مافعلوا ، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذى أجبرهم على ذلك ، فلو أجبر الله الخلقَ على الطاعة لأَسْقَطَ عنهم الثوابَ ، ولو أجبرهم على المعاصى لأسقط عنهم العقابَ ، ولو أهملهم لكان عَجْزاً فى القدرة ، ولكن له فيهم المَشِيئة التى غيَّبها عنهم ، فإن عملوا بالطاعات كانت له المِنَّةُ عليهم ، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجَّة عليهم » .

(المنية والأمل ص ١٠)

---

(١) وفى رواية زهر الآداب (١ : ٧١) :

وقع بين الحسن بن على ومحمد بن الحنفية رضى الله عنهما لحاء (أى منازعة) ومشى الناس بينهما بالنمائم ، فكتب إليه محمد بن الحنفية :

« أما بعد ، فإن أبى وأباك على بن أبى طالب » لا تفضلنى فيه ولا أفضلك ، وأمى امرأة من بنى حنيفة ، وأمك فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو ملئت الأرض بمثل أمى ، لكانت أمك خيرا منها ، فإذا قرأت كتابى هذا ، فاقدم حتى تترضانى ، فإنك أحق بالفضل منى » .

٢٣ — كتاب ابن عباس إلى مجبرة الشام

وكتب عبد الله بن عباس إلى مُجْبِرة[١] الشأم :

« أما بعد ، أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضَلَّ المتقون ، وتَنْهَوْن الناس عن المعاصى وبكم ظهر العاصُون ؟ يا أبناء سَلَفِ المقاتلين ، وأعوان الظالمين ، وخُزَّان مساجد الفاسقين ، وعُمَّار سلف الشياطين ، هل منكم إلا مُفْتَرٍ على الله يحمِلُ أجْرَامه[٢] عليه ، وينسبُها عَلَانِيةً إليه ، وهل منكم إلا مَن السيفُ قِلادتُه ، والزور على الله شهادته ؟ أعَلَى هذا تواليتم ، أم عليه تمالَيتم[٣] ؟ حَظُّكم منه الأوفر ، ونصيبكم منه الأكبر ، عَمَدتم إلى مُوالاةِ مَن لم يَدَعْ لله مالًا إلا أخذه ، ولا مَنَاراً إلا هَدَمه ، ولا مالًا ليتيم إلا سَرَقه أو خانه ، فأوجبتم لِأخبث خلقِ الله أعظمَ حقِّ الله ، وتخاذلتم أهل الحق حتى ذَلُّوا وقلّوا ، وأعَنْتم أهلَ الباطل حتى عَزُّوا وكثُروا ، فأَنِيبوا إلى الله وتوبوا ، تاب الله على من تاب ، وقبل من أناب » . (المنية والأمل ص ٩)

٢٤ — كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص

وكتب معاوية إلى عمرو بن العاص — وبلغه عنه أمر — :

« وفّقك الله لِرُشْدك ، بلغنى كلامك فإذا أوله بَطَر وآخره خَوَرٌ ، ومن أبطره الغنى أذلَّه الفقرُ ، وهما ضِدّان مُخادعان للمرء عن عقله ، وأولَى الناس بمعرفة الدواء من يَبِينُ له الداء ، والسلام » .

---

(١) المجبرة أو الجبرية : فرقة تقول بأن الإنسان لا يقدر على شىء ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور فى أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنه كالريشة فى مهب الرياح ليس له كسب فيما يأتيه

(٢) الأجرام : جمع جرم بالضم وهو الجريمة . (٣) مخفف عن تمالأتم أى اجتمعتم .

٣٥ — رد عمرو على معاوية

فأجابه عمرو :

« طاولَتْك النِّعم ، وطاولَتْ بك ، علوُّ إنصافك يُؤْمِن سطوةَ جوْرك ، ذكرتَ أنى نطقتُ بما تكره ، وأنا مخدوع ، وقد علمت أنى مِلْت إلى محبتك ولم أُخْدع ، ومثلك شَكَرَ مَسْعَى معتذِر ، وعفا زَلَّة مُعْتَرِف » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٠١)

٣٦ — كتب بين معاوية وبسر بن أبى أرطاة وبين زياد ابن أبيه

روى الطبرى قال :

« صالحَ الحسن عليه السلام معاوية ، وشَخَص إلى المدينة ، فبعث معاوية بُسْرَ ابن أبى أرْطاة إلى البصرة فى رجب سنة ٤١ هـ ، وزيادٌ متحصِّنٌ بفارس[١] ، فكتب معاوية إلى زياد : « إنَّ فى يديك مالاً من مال الله ، وقد وَلِيتَ ولايةً ، فأدِّ ما عندك من المال » :

فكتب إليه زياد :

« إنه لم يَبْقَ عندى شىء من المال ، وقد صَرفتُ ما كان عندى فى وَجْهِه ، واستودعتُ بعضَه قوماً ، لِنازلةٍ إن نَزَلَتْ ، وحَمَلْتُ ما فَضَلَ إلى أمير المؤمنين[٢] رحمةُ الله عليه » .

فكتب إليه معاوية « أنْ أقبلْ إلىّ نَنظُرْ فيما وَلِيتَ وجَرَى على يديك ، فإن أستقام بيننا أمر فهو ذاك ، وإلا رجَعْتَ إلى مَأْمَنِك » .

---

(١) وكان واليا عليها من قبل الإمام على كرم الله وجهه كما قدمنا فى الجزء الأول .

(٢) يعنى الإمام عليا رضى الله عنه .

فلم يأته زياد ، فأخذ بُسْرٌ بنى زياد الأكابرَ منهم فحبسهم (عبد الرحمن وعُبيد الله وعبَّادا) وكتب إلى زياد :

« لتَقْدَمَنَّ على أمير المؤمنين أو لأَقتُلَنَّ بنيك » فكتب إليه زياد :

« لستُ بارِحاً من مكانى الذى أنا بِهِ حتى يَحكمَ اللهُ بينى وبين صاحبك ، فإن قتلتَ مَن فى يديك من ولدى، فالمصيرُ إلى الله سبحانه ، ومِنْ ورائنا وورائكم الحسابُ، وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

فهمَّ بقتلهم ، فأتاه أبو بَكْرة[1] فقال : أخذتَ ولدى وولدَ أخى غِلمانا بلا ذنب ، وقد صالح الحسن معاوية على أمان أصحاب علىّ حيث كانوا ، فليس لك على هؤلاء ولا على أبيهم سبيل ، فقال : إنَّ على أخيك أموالاً قد أخذها ، فامتنع من أدائها ، قال: ما عليه شىء ، فاكفُف عن بنى أخى حتى آتيك بكتاب من معاوية بتخليتهم ، فأجَّله أياما ، قال له : إن أتيتنى بكتاب معاوية بتخليتهم ، وإلا قتلتهم ، أو يُقبِلَ زياد إلى أمير المؤمنين ، فأتى أبو بكرة معاوية فكلمه فى زياد وبنيه ، وكتب معاويةُ إلى بُسْر بالكف عنهم وتخلية سبيلهم فخلاهم .

وفى رواية أخرى للطبرى أيضاً قال :

كتب بُسْر إلى زياد : « لَئِن لم تَقْدَم لَأُصْلُبَنَّ بنيك » فكتب إليه : « إن تفعل فأهلُ ذاك أنت ، إنما بعثَ بك ابن آكلةِ الأكباد[2] » فركب أبو بكرة إلى معاوية فقال : يا معاوية إن الناس لم يعطوك بَيْعتهم على قتل الأطفال ، قال : وما ذاك

---

(١) هو أخو زياد لأمه ، وأبوه الحارث بن كلدة .

(٢) هى هند أم معاوية وذلك أن حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوم بدر قد قتل عمها شيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، واشترك هو والإمام على وعبيدة بن الحارث بن المطلب فى قتل أبيها عتبة بن ربيعة ، واشترك هو والإمام على وزيد بن حارثة فى قتل ابن زوجها حنظلة بن أبى سفيان، فلما كانت غزوة أحد قتل حمزة رضى الله عنه (قتله وحشى مولى جبير بن مطعم،دعاه سيده وقال له اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمز
حمزة وأخذت كبده لتا كلها

يا أبا بكرة ؟ قال : بُسْرٌ يريد قتل أولاد زياد ، فكتب معاوية إلى بسر أن خَلِّ من بيدك من ولد زياد ، وكان معاوية قد كتب إلى زياد بعد قتل عليّ عليه السلام يتوعده .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٩٦)

٢٧ — كتاب معاوية إلى زياد

وروى ابن أبى الحديد قال :

كان عليّ عليه السلام قد ولَّى زياداً قطعة من أعمال فارس ، واصطنعه لنفسه ، فلما قتل عليّ عليه السلام بقى زياد فى عمله ، وخاف معاوية جانبَه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من مُمَالأته الحسنَ بن عليّ عليه السلام ، فكتب إليه :

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان إلى زياد بن عُبَيْد[1] ، أما بعد : فإنك عَبْد قد كفَرْتَ النعمةَ ، واستدعيتَ النِّقمةَ ، ولقد كان الشكرُ أوْلَى بك من الكفر ، وإن الشجرة لَتَضْرِبُ بِعِرْقها ، وتتفرّع من أصلها ، إنّك — لا أمَّ لك[2] بل لا أبَ لك — قد هلكتَ وأهْلكتَ[3] ، وظننت أنك تخرج من قَبْضَتى ،

(١) ذكروا أن سمية أم زياد كانت قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكندى للحارث بن كلدة — وكان طبيبا يعالجه — فولدت له على فراشه نافعا ، ثم ولدت أبا بكرة فأنكر لونه ، وقيل له : إن جاريتك بغى ، فانتفى من أبى بكرة ومن نافع ، وزوجها عبيدا — وكان عبدا لابنته — فولدت على فراشه زيادا (العقد الفريد ٣ : ٢) .

(٢) يقول الرجل للرجل « لا أم لك » وهو شتم وسب ، ومعناه : ليس لك أم حرة . وذلك أن بنى الإماء عند العرب مذمومون ليسوا بمرضيين ولا لاحقين ببنى الحرائر ، وقيل معناه: أنت لقيط لا تعرف لك أم ، ولا يقول الرجل لصاحبه « لا أم لك » إلا فى غضبه عليه مقصرا به شاتما له (وربما وضع موضع المدح بمعنى التعجب منه) .

وأما إذا قال « لا أبا لك » — ويقال أيضا لا أب لك ولا أباك ولا أبك بغير لام — فلم يترك له من الشتيمة شيئاً ، وإذا أراد كرامة قال « لا أبا لشانيك » « ولا أب لشانيك » .

وجاء فى كتب اللغة أيضا وأكثر ما يذكر « لا أبا لك » فى المدح، أى لا كافى لك غير نفسك وقد يذكر فى معرض الذم كما يقال لا أم لك ، وقد يذكر فى معرض التعجب ودفعا للعين كقولهم لله درك ، وقد يذكر بمعنى جد فى أمرك وشمر ، لأن من له أب اتكل عليه فى بعض شأنه » .

وجاء فيها « لا أبا لك: دعاء ، فى المعنى لا محالة وفى اللفظ خبر، يقال لمن له أب ولمن لا أب له، وقيل لا أبالك : كلمة تفصل بها العرب كلامها » .

(٣) أى وأهلكت أسرتك لأن خروجك على يعرضها لبطشى بها .

ولا ينالك سلطانى ! هيهاتَ ! ما كُلُّ ذى لُبٍّ يصيبُ رأيُه ، ولا كلُّ ذى رأى يَنصَح فى مَشُورته، أمسِ عبدٌ ، واليومَ أميرٌ ! خُطَّةٌ ما ارتقاها مثلُك يابن سُمَيَّة !

وإذا أتاكَ كتابى هذا فخذ الناس بالطاعة والبَيْعة ، وأسرِع الإجابة ، فإنك إن تفعل فدَمَك حَقَنتَ ، ونفسَك تداركتَ ، وإلا اختطفتُك بأضعف رِيش[1] ، ونِلتُك بأهون سعى ، وأُقسِم قَسَماً مَبْرُورا أنْ لا أُوتَى بك إلا فى زَمَّارة[2] ، تمشى حافيًا من أرض فارس إلى الشأم ، حتى أُقيمَك فى السوق ، وأبيعَك عبداً ، وأردَّكَ إلى حيثُ كنتَ فيه ، وخرجتَ منه ، والسلام » . (شرح ابن أبى الحديد م : ٤ ص ٦٨)

٢٨ — رد زياد على معاوية

فلما ورد الكتاب على زياد غَضِب غضبًا شديداً ، وكتب إلى معاوية :

« أما بعد : فقد وصل إلىَّ كتابك يامعاوية ، وفهمتُ مافيه ، فوجدتك كالغَريق يُغطِّيه الموجُ فيتشبَّث بالطُّحْلُب[3] ، ويتعلق بأرجل الضفادع ، طَمَعًا فى الحياة ، إنما يكفُر النِّعَمَ ، ويستدعى النِّقَمَ مَن حادَّ[4] الله ورسولَه وسعى فى الأرض فساداً .

فأمّا سبُّك لى فلولا حِلْمٌ ينهانى عنك ، وخوفِى أنْ أُدْعَى سفيهاً ، لَأَثَرْتُ[5] لك مَخازىَ لا يغسِلها الماء ، وأمّا تعييرُك لى بسُمَيَّة ، فإن كنتُ ابنَ سمية فأنت ابن حمامَة[6] وأمّا زَعْمُك أنك تختطفنى بأضعف ريش ، وتتناولُنى بأهون سعى ، فهل رأيتَ بازِيًا

---

(١) يريد بأضعف قوة ، وكانوا يلزقون الريش على السهم ليقووه ويسددوه ، ومنه قالوا: راش السهم يريشه إذا ركب عليه الريش، فهو مريش .

(٢) أى فى جماعة زمارة تزمر حولك بالمزامير لتشهيرك والتشنيع عليك .

(٣) الطحلب بضم اللام وفتحها: خضرة تعلو الماء المزمن.

(٤) أى غاضبه وخالفه وعاداه . (٥) لأبرزت وأظهرت.

(٦) روى ابن أبى الحديد فى شرحه (م ١ : ص ١٥٧) أن حمامة جدة معاوية أم أبيه أبى سفيان وأنها كانت بغيا فى الجاهلية صاحبة راية.

يُفزِعه صغيرُ القَنابَر[1] ؟ أم هل سمعتَ بذئب أكله خروف ؟ فامضِ الآن لطِيَّتك[2] ، واُجْهَد جَهْدك[3] ، فلستُ أنزِل إلا بحيثُ تَكرَه ، ولا أجتهد إلا فيما يَسوءك ، وستعلم أيُّنا الخاضع لصاحبه ، الطالِعُ إليه ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٦٨)

٢٩ — رد معاوية على زياد

فلما ورد كتاب زياد على معاوية غمّه وأحزنه[4] ، ثم كتب إليه مع المُغيرَة ابن شُعْبة :

---

(١) البازى : واحد البزاة التى تصيد ، ضرب من الصقور ، القبر كسكر : ضرب من العصافير واحدته قبرة والقنبراء بضم الباء وفتحها لغة فيها والجمع القنابر ، والعامة تقول القنبرة بالضم ، وقد جاء ذلك فى الرجز * جاء الشتاء واجثأل القنبر * (اجثأل الطائر : نفش ريشه) .

(٢) الطية : الناحية ، والحاجة والوطر ، فهى تكون منزلا وتكون منتوى ، ومضى لطيته أى لوجهه وقصده الذى يريده ولنيته التى انتواها .

(٣) الجهد بالفتح ويضم : الطاقة ، واجهد جهدك : ابلغ غايتك .

(٤) روى ابن أبى الحديد قال : « وبعث إلى المغيرة بن شعبة فخلابه وقال : يامغيرة ، إنى أريد مشاورتك فى أمر أهمنى ، فانصحنى فيه وأشر على برأى المجتهد ، وكن لى أكن لك ، فقد خصصتك بسرى وآثرتك على ولدى ، قال المغيرة : فما ذاك ؟ والله لتجدنى فى طاعتك أمضى من الماء فى الحدور ، ومن ذى الرونق فى كف البطل الشجاع ، قال : يامغيرة إن زيادا قد أقام بفارس يكش لنا كشيش الأفاعى (كشيش الأفعى : صوتها من جلدها لامن فيها ، وفعله كضرب) وهو رجل ثاقب الرأى ماضى العزيمة جوال الفكر مصيب إذا رمى ، وقد خفت منه الآن ما كنت آمنه إذ كان صاحبه حيا ، وأخشى ممالأته حسنا فكيف السبيل إليه ، وما الحيلة فى إصلاح رأيه ؟ قال المغيرة : أنا له إن لم أمت ، إن زيادا رجل يحب الشرف والذكر وصعود المنابر ، فلو لا طفته المسألة وألنت له الكتاب ، لكان لك أميل وبك أوثق ، فاكتب إليه وأنا الرسول ، ورحل المغيرة بالكتاب حتى قدم فارس ، فلما رآه زياد قربه وأدناه ولطف به فدفع إليه الكتاب فجعل يتأمله ويضحك ، وكان مما قاله له المغيرة : دع عنك اللجاج يرحمك الله وارجع إلى قومك وصل أخاك وانظر لنفسك ولا تقطع رحمك ، قال زياد : إنى رجل صاحب أناة ، ولى فى أمرى روية ، فلا تعجل على ولا تبدأنى بشىء حتى أبدأك » وقال صاحب العقد : (٣ : ٣) وكان المغيرة لزياد صديقا ، وذلك أن زيادا كان أحد الشهود الأربعة الذين شهدوا على المغيرة (أى بالزنا) وهو الذى تلجلج فى شهادته عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فنجا المغيرة وجلد الثلاثة من الشهود وفيهم أبو بكرة أخو زياد . . . قال زياد للمغيرة : أشر على وارم الغرض الأقصى ، فإن المستشار مؤتمن ، قال أرى أن تصل حبلك بحبله وتسير إليه وتعير الناس أذنا صماء وعينا عمياء . . . وقد عمل بمشورة المغيرة وسار إلى معاوية .

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان إلى زياد بن أبى سفيان[١] ، أما بعدُ : فإن المرء ربّما طرَحَه الهوَى فى مَطارِح العَطَب ، وإنك لَلمرء المضروبُ به المثلُ : قاطِعُ الرَّحِم ، وواصِلُ العدوّ ، حَمَلَك سوء ظنِّك بى ، وبُغضك لى على أن عَقَقْتَ قرابتى ، وقطعْتَ رَحِمِى ، وبَتَتَّ[٢] نَسَبِى وحُرْمتى ، حتى كأنك لست أخى ، وليس صَخْر ابن حَرْب أباك وأبى ! وشتان ما بينى وبينك ، أطلب بدم ابن أبى العاص[٣] وأنت تقاتلنى ، ولكن أدركك عِرْقُ الرَّخاوة من قِبَل النساء ، فكنتَ كتاركةٍ بيضها بالعَرَاء[٤] : ومُلْحِقَة بيضَ أخرى جَناحَها ، وقد رأيتُ أن أعطِفَ عليك ، ولا أؤاخذك بسوء سعيك ، وأن أَصِلَ رَحِمَك ، وأَبتغِىَ الثواب فى أمرك ، فاعلم أبا المُغيرة أنك لو خُضْتَ البحر فى طاعة القوم فتضرب بالسيف حتى ينقطع مَتْنُه ، لَمَا ازددتَ منهم إلا بُعْدا ، فإن بنى عبد شمس أبغضُ إلى بنى هاشمٍ من الشَّفْرَة إلى الثور الصَّرِيع وقد أُوثِقَ للذبح ، فارجِعْ رحمك الله إلى أصلك ، واتَّصل بقومك ، ولا تكن

---

(١) ذكروا أن البغايا فى الجاهلية كانت لهن رايات يعرفن بها وينتحيها الفتيان ، فيقال إن أباسفيان خرج يوما وهو ثمل إلى تلك الرايات ، فقال لصاحبة الراية هل عندك من بغى ؟ فقالت : ماعندى إلا سمية ، قال : هاتها على نتن إبطيها ، فوقع بها ، فولدت له زيادا على فراش عبيد (العقد الفريد ٣ : ٢)
وقد شهد أبو مريم السلولى حين استلحق معاوية زيادا قال : أشهد أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف ، وأنا خمار فى الجاهلية ، فاشتريت له لحما وخمرا وطعاما ، فلما أكل قال : يا أبا مريم ابغنى بغيا ، فخرجت فأتيت سمية ، فقلت لها : إن أبا سفيان من قد عرفت شرفه وجوده ، وقد أمرنى أن أصيب له بغيا ، فهل لك ؟ فقالت : نعم يجىء الآن عبيد بغنمه ــ وكان راعيا ــ فإذا تعشى ووضع رأسه أتيته ، فرجعت إلى أبى سفيان فقلت : لم أجد إلا جارية الحارث بن كلدة : سمية ، فقال : ائتنى بها على ذفرها وقذرها ، وأخذتها درعها ، وأغلقت الباب عليهما ، فلم ألبث أن خرج على يمسح جبينه ، فقلت : مه يا أبا سفيان ، فقال : ما أصبت مثلها يا أبا مريم ، لولا استرخاء من ثدييها وذفر فى إبطيها (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٧٠ ومروج الذهب ٢ : ص ٥٦) (الذفر بالتحريك ويسكن : النتن ، والذفر بالتحريك : كل ريح ذكية من طيب أو نتن ، أو يخص برائحة الإبط المنتنة) .

وكان يقال له : زياد بن عبيد ، وزياد بن أبيه ، وزياد بن سمية ، وزياد بن أمه ، ولما استلحق (سنة ٤٤ هـ) قيل له زياد بن أبى سفيان .

(٢) قطعت. (٣) أى عثمان وهو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية.

(٤) العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشىء .

كالموصول يطير بريشِ غيره ، فقد أصبحتَ ضالَّ النسب ، ولَعَمْرِى ما فعل بك ذلك إلا اللّجاجُ ، فدَعْه عنك فقد أصبحتَ على بيِّنةٍ من أمرك ، ووضوحٍ من حُجَّتك ، فإن أحببتَ جانبي ووثِقْتَ بى فإِمْرَةٌ بإِمرة ، وإن كرِهْتَ جانبي ولم تثق بقولى ، ففِعْلٌ جميل ، لا علىَّ ولا لى ، والسلام » . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٦٩)

٣٠ — رد زياد على معاوية

فكتب إليه زياد جواب كتابه :

« أما بعدُ : فقد وصل كتابك يا معاوية مع المُغيرة بن شعْبَة وفهمتُ ما فيــه ، فالحمد لله الذى عرَّفك الحقَّ وردَّك إلى الصِّلة ، ولست ممن يجهل معروفاً ، ولا يُغفِل حسباً ، ولو أردتُ الآن أن أُجيبك بما أوجَبَته الحجَّةُ ، واحتمله الجوابُ ، لطال الكتابُ ، وكثر الخطابُ ، ولكنك إن كنتَ كتبتَ كتابك هذا عن عَقْدٍ صحيح ونية حسنة ، وأردت بذلك بِرّا ، فستزرع فى قلبى مَودة وقَبولا ، وإن كنتَ إنما أردتَ مَكِيدة ومكراً وفساد نِيَّة ، فإن النفس تأبَى ما فيه العَطَبُ ، ولقد قمتُ يوم قرأت كتابك مَقاماً يَعْيا به الخطيبُ المِدْرَه[1] ، فتركتُ مَنْ حَضَرَ لا أهلَ وِرْدٍ ولا صَدَرٍ[2] ، كالمتحيِّرين بمَهْمَهٍ[3] ضل بهم الدليلُ ، وأنا على أمثال ذلك قدير » .

(١) وذلك أنه لما ورد عليه المغيرة بكتاب معاوية ، جمع الناس بعد يومين أو ثلاثة فخطبهم فقال أيها الناس: ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم، وارغبوا إلى الله فى دوام العافية لكم، فقد نظرت فى أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم فوجدتهم كالأضاحى فى كل عيد يذبحون ، ولقد أفنى هذا اليومان يوم الجمل وصفين ما ينيف على مائة ألف كلهم يزعم أنه طالب حق وتابع إمام وعلى بصيرة من أمره ، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول فى الجنة ، كلا ليس كذلك ، ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم ، وإنى لخائف أن يرجع الأمر كما بدا ، فكيف لامرىء بسلامة دينه ، وقد نظرت فى أمر الناس فوجدت أحمد العاقبتين العافية ، وسأعمل فى أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته ، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله » .

والمدره : المقدم فى اللسان عند الخصومة ، فهو لسان القوم والمتكلم عنهم الذى يرجعون إلى رأيه .

(٢) الورد : الإشراف على الماء وغيره دخله أو لم يدخله ، والصدر : الرجوع .

(٣) المهمه : المفازة البعيدة والبلد المقفر .

وكتب فى أسفل الكتاب :

« إذا مَعْشَرِى لم يُنْصفونى وَجَدتَنى ... أدافِعُ عنى الضَّيْمَ ما دمت باقيا
وكم معشرٍ أعْيَتْ قَنَاتِى عليهمُ ... فلاموا وألْفَونى لدى العزم ماضيا
وهَمٍّ به ضاقت صدورٌ فَرَجْتُه ... وكنت بطِبِّى للرجالِ مُداويا
أدافِعُ بالحلم الجَهُولَ مَكِيدَةً ... وأخفِى له تحت الضلوع الدَّواهيا[1]
فإن تدنُ منى أدنُ منك ، وإن تَبِنْ ... تجِدْنى إذا لم تدُن منِّىَ نائيا »[2]

فأعطاه معاوية جميع ماسأله، وكتب إليه بخط يده ماوَثِقَ به فدخل إليه الشأم، فقربه وأدناه وأقره على ولايته، ثم استعمله على العراق . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٦٩)

٣١ — كتاب الحسن بن على إلى زياد ابن أبيه

وكان سعيد بن أبى سَرْح مَوْلَى حَبيب بن عبد شمس شِيعةً لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فلما قَدِم زياد الكوفة[3] طلبه وأخافه ، فأتى الحسنَ بن علىّ عليه السلام مستجيراً به ، فوَثَب زياد على أخيه وولده وامرأته فحبسهم ، وأخذ ماله ونَقَض داره ، فكتب الحسن بن علىّ عليه السلام إلى زياد :

من الحسن بن على إلى زياد :

« أما بعدُ ، فإنك عَمَدْتَ إلى رجل من المسلمين ، له مالهم ، وعليه ما عليهم ، فهَدَمْتَ دارَه ، وأخذت ماله ، وحَبَسْتَ أهله وعِياله[4] ، فإن أتاك كتابى هذا فابْنِ له دارَه ، وارْدُد عليه عِياله وماله ، وشفِّعْنى فيه فقد أجَرْتُه ، والسلام[5] » .

---

(١) فى الأصل « تحت العصاة » وأرى أنه تحريف والأقرب إلى المعنى « تحت الضلوع » كما أثبته .
(٢) وإن تبن : أى وإن تفارق وتبعد .
(٣) ولاه معاوية البصرة سنة ٤٥ ه ، ثم ضم إليه الكوفة بعد موت أميرها المغيرة بن شعبة سنة ٥٠ ه
(٤) العيال جمع عيل (كجياد جمع جيد) وهو من يلزم الانفاق عليه ، ويكون اسما للواحد .
(٥) وفى رواية أخرى أن نص الكتاب :
« أما بعد فقد علمت ما كنا أخذنا من الأمان لأصحابنا ، وقد ذكر لى فلان أنك تعرضت له فأحب أن لاتعرض له إلا بخير والسلام » .

٣٢ — رد زياد على الحسن

فغضب زياد إذ قدَّم نفسه عليه ولم ينسبه إلى أبى سفيان ، وكتب إليه :

« من زياد بن أبى سفيان إلى الحسن بن فاطمة ، أما بعد : فقد أتانى كتابُك تَبْدَأُ فيه بنفسك قَبْلى وأنت طالِبُ حاجة ، وأنا سلطان وأنت سُوقة[١] ، وتأمرنى فيه بأمر الُمطاع المُسَلَّط على رعيته ، كتبتَ إلىَّ فى فاسقٍ آوَيْتَه إقامةً منك على سوء الرأى ، ورِضًا منك بذلك ، وايْمُ الله لا تَسْبِقنى به ولو كان بين جِلدك ولحمك ، وإن نِلْتُ بَعضَك غيرَ رفيقٍ بك ، ولا مُرْعٍ عليك ، فإنَّ أحبَّ لحم علىَّ أنْ آكُلَهُ لَلَّحْمُ الذى أنت منه ، فسلِّمْه بجَرِيرته[٢] إلى من هو أولى به منك ، فإن عفوتُ عنه لم أكن شفَّعْتُك ، وإن قتلتُه لم أقتله إلا لحبِّه أباك الفاسِق ، والسلام[٣] » .

٣٣ — رد الحسن على زياد

فلما ورد الكتاب على الحسن عليه السلام قرأه وتبسم ، وكتب بذلك إلى معاوية ، وجعل كتاب زياد عِطْفَه[٤] ، وبعث به إلى الشأم ، وكتب جواب كتابه كلمتين لا ثالثة لهما :

« من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سُمَيَّة ، أما بعدُ : فإن رَسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الولد للفِراش ، وللعاهِرِ الحجَرُ[٥] » ، والسلام » .

---

(١) السوقة : الرعية ، للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وربما جمع على سوق بفتح الواو .

(٢) الجريرة : الذنب .

(٣) وفى رواية أخرى . « أما بعد فإنك كتبت إلى فى فاسق لا يؤويه إلا الفساق من شيعتك وشيعة أبيك ، وايم الله لأطلبنه ولو بين جلدك ولحمك فإنى أحب أن آكل لحما أنت منه » .

(٤) أى جانبه ، وعطفا كل شىء : جانباه .

(٥) العاهر : الزانى . والمعنى أن الزانى لاحق له فى النسب ولا حظ له فى الولد ، وإنما هو لصاحب الفراش أى لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها ، وهو كقوله الآخر : له التراب أى لا شىء له ، أراد الحسن عليه السلام بذلك أن يبين لزياد أن استلحاق معاوية إياه مخالف لما تقضى به الشريعة ، وأنه يجب أن يدعى لعبيد لا لأبى سفيان .

٣٤ — كتاب معاوية إلى زياد

فلما قرأ معاوية كتاب زياد إلى الحسن ضاقت به الشام ، وكتب إلى زياد :

« أما بعدُ ، فإن الحسن بن علىّ بعث إلىّ بكتابك إليه ، جواباً عن كتاب كتبه إليك فى ابن أبى سَرْح ، فأكثرتُ العَجَبَ منك ، وعلمت أنَّ لك رأيين ، أحدهما من أبى سفيان ، والآخر من سُمَيَّة ، فأما الذى من أبى سفيان فحِلْمٌ وحَزْمٌ ، وأما الذى من سمية فما يكون من رأى مِثلِها ، من ذلك كتابك إلى الحسن تَشْتُمُ أباه وتَعرِض له بالفسق ، ولعمرى إنك لَأَوْلى بالفِسق من أبيه ، فأمّا أن الحسن بدأ بنفسه ارتفاعاً عليك ، فإن ذلك لا يَضَعُك لو عَقَلتَ ، وأما تسلُّطه عليك بالأمر فحُقَّ لِمثلِ الحسن أن يتسلَّط ، وأمّا تركُكَ تشفِيعَه فيما شَفَع فيه إليك ، فحظٌّ دَفَعتَه عن نفسك إلى من هو أَوْلَى به منك ، فإذا ورد عليك كتابى فَخلِّ ما فى يديك لسعيد بن أبى سرح ، وابنِ له داره ، وارْدُد عليه ماله ، ولا تعرَّضْ له ، فقد كتبتُ إلى الحْسن « عليه السلام » أن يُخَيِّره : إن شاء أقام عنده ، وإن شاء رجع إلى بلده ، ولا سلطانَ لك عليه لا بيدٍ ولا لسان ، وأما كتابك إلى الحسن « عليه السلام » باسمه واسم أمه ، ولا تنسُبه إلى أبيه ، فإن الحسن وَيحَك مَنْ لا يُرْمَى به الرَّجَوانِ[1] ، وإلى أىّ أم وَكَلْتَه لا أمَّ لك ؟

= وقد حدث أنه لما شهد الشهود بحضرة معاوية أن زيادا ينتسب إلى أبى سفيان ، قام يونس بن عبيد الثقفى فقال : يامعاوية قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقضيت أنت أن الولد للعاهر ، وأن الحجر للفراش ، مخالفة لكتاب الله تعالى وانصرافا عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشهادة أبى مريم على زنا أبى سفيان ، فقال معاوية : والله يايونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرة بطيئا وقوعها ، فقال يونس : هل إلا إلى الله ثم أقع ؟ قال : نعم وأستغفر الله ، فقال عبد الرحمن بن أم الحكم فى ذلك — ويقال إنه ليزيد بن مفرغ الحميرى :

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... مغلغلة عن الرجل اليمانى

أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زانى !

(مروج الذهب ٢ : ٥٧).

(١) الرجوان : مثنى رجا كعصى : وهو ناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها ، ورمى به الرجوان : استهين به واستهزىء كأنه رمى به رجوا بئر ، أرادوا أنه طرح فى المهالك .

أما علمت أنها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فذاك أفخر له لو كنت تعه وتعقله[١] ! » وكتب فى أسفل الكتاب شعراً من جملته :

أَمَا حَسَنٌ فابنُ الذى كان قبله ... إذا سار سار الموتُ حيث يسير

وهل يَلِدُ الرِّيبالُ إلا نظيرَه ... وذا حَسَنٌ شِبْهٌ له ونظير[٢]

ولكنه لو يُوزَن الحلم والحِجا ... بأمرٍ لقالوا يَذْبُلٌ وثَبِير[٣]

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٧٢ ، و ص ٧ ، والعقد الفريد ٣ : ٥)

٣٥ — كتاب زياد إلى معاوية

وقال زياد : ما غلبنى أمير المؤمنين معاويةُ فى شىء من السياسة إلا مرة واحدة : استعملتُ رجلا فكسر خَرَاجَه فخشى أن أعاقبه ، ففرّ إليه واستجار به فأمّنه ، فكتبتُ إليه : « إن هذا فساد لعملى إذا طلبتُ أحدا لجأ إليك فتحرّم بك[٤] » .

٣٦ — رد معاوية عليه

فكتب إلىّ : « إنه لا ينبغى لنا أن نسوس الناس بسياسة واحدة ، فيكون مَقامُنا مَقامَ رَجل واحد ، لا نَلِنْ جميعاً فيَمْرَحَ الناسُ فى المعصية ، ولا نشتدَّ جميعاً ، فنَحمِلَ الناس على المَهالك ، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة فيستريح الناس فيما بيننا » .

(العقد الفريد ١ : ١٥ ، و ٣ : ٥)

---

(١) وفى رواية أخرى : « أما بعد فإن لك رأيين أحدهما من أبى سفيان والآخر من سمية ، فأما الذى من أبى سفيان فحزم وعزم ، وأما الذى من سمية فكما يكون رأى مثلها ، وإن الحسن بن على كتب إلى يذكر أنك عرضت لرجل من أصحابه ، وقد حجزناه عنك ونظراءه ، فليس لك على واحد منهم سبيل ولا عليه حكم ، وعجبت منك حين كتبت إلى الحسن لا تنسبه إلى أبيه ، أفإلى أمه وكلته لا أم لك ، فهو ابن فاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالآن حين اخترت له » .

(٢) الرئبال : الأسد وقد لا يهمز . (٣) يذبل : جبل ببلاد نجد . وثبير : جبل بمكة .

(٤) وفى رواية أخرى : « إن هذا أدب سوء لمن قبلى » .

٣٧ — كتاب معاوية إلى زياد

وكتب معاوية إلى زياد : « أما بعد فاعْزل حُرَيْثَ بن جابر عن العمل ، فإنى لا أذكر مَقاماتِه بِصِفِّينَ إلا كانت حَزَازةً فى صدرى » .

٣٨ — رد زياد عليه

فكتب إليه زياد : « أما بعدُ : فخَفِّض عليك : يا أمير المؤمنين ، فإن حريثا قد سَبَق شرفا ، لا يَرْفعه معه عمل ، ولا يَضَعه معه عَزْل » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٧٤)

٣٩ — كتاب زياد إلى الحكم بن عمرو الغفارى

ولما ولى زياد البصرة استعمل الحكم بن عمرو الغِفَارى على خُرَاسان (سنة ٤٥ هـ) ثم كتب إليه (سنة ٥٠ هـ) « إن أهل جبل الأَشَلِّ[١] سلاحُهم اللُّبود[٢] ، وآنيَتهم الذهب » فغزاهم وغَنِم منهم غنيمة عظيمة ، وورد على زياد الخبرُ بما غنم ، فكتب إليه :

« إن أمير المؤمنين كتب إلىَّ أن أَصْطَفِىَ له كلَّ صفراءَ وبيضاء والرَّوَائعَ[٣] ، فلا تحركَنَّ شيئا حتى تُخْرِجَ ذلك »[٤] .

٤٠ — رد الحكم عليه

فكتب إليه الحكم : « أما بعدُ فإن كتابك ورد ، تذكر أن أمير المؤمنين كتب إلىَّ أن أصطفى له كل صفراء وبيضاء والروائع ، ولا تحركَنَّ شيئاً ، وإنى وجدت كتاب

---

(١) جبل فى ثغور خراسان .

(٢) هكذا فى الأصل ولعله «لباسهم اللبود» واللبود جمع لبد كحمل وهو الصوف يتلبد بعضه على بعض .

(٣) الصفراء : الذهب . والبيضاء : الفضة ، والروائع : النفائس التى تروع الناظرين بجمالها وحسنها

(٤) وفى رواية العقد « فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة » .

الله عزّ وجل قبل كتاب أمير المؤمنين[1] ، وإنه والله لو كانت السمواتُ والأرض رَتْقًا[2] على عبد اتقى الله عزّ وجل جعل الله سبحانه وتعالى له منها مَخْرَجا » .

وقال للناس اغْدُوا على غنائمكم ، فغدا الناس ـ وقد عزل الخُمُس ـ فقسم بينهم تلك الغنائم .

٤١ — رد زياد عليه

فكتب إليه زياد : « والله لئِنْ بقيتُ لك لأَقْطَعَنَّ منك طابِقًا[3] سَحْتا » فقال الحكم : اللهم إن كان لى عندك خير فاقبِضْنى ، فمات بخراسان بمَرْوَ سنة ٥٠ هـ .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٤١ ، والعقد الفريد ١ : ١٩)

٤٢ — كتاب المغيرة بن شعبة إلى معاوية

وكتب المُغيرة بن شُعْبة إلى معاوية حين كبِر وخاف أن يستبدلَ به ـ وكان عامله على الكوفة ـ :

« أما بعدُ : فقد كبرت سِنِّى[4] ، ورَقَّ عظمى ، واقترب أجلى ، وسَفَّهنى سُفَهاء قريش ، فرَأْىُ أمير المؤمنين فى عَمَلِه مُوَفَّقًا » .

(العقد الفريد ٦ : ٢٦ ، وصبح الأعشى ٦ : ٤٧٨)

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ » .

(٢) الرتق ضد الفتق ، رتقت الفتق : سددته .

(٣) الطابق بفتح الباء وكسرها : العضو . والسحت : العذاب والاستئصال ، سحت الشحم عن اللحم : قشره عنه ، وسحتهم : بلغ مجهودهم فى المشقة عليهم ، وأسحتهم لغة ، وسحته وأسحته: استأصله ، وقرئ قوله تعالى « فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ » بضم الياء من الإسحات وهو لغة نجد وتميم ، وبفتح الياء والحاء من السحت ، وهو لغة الحجاز : أى يهلككم ويستأصلكم .

(٤) عاش سبعين سنة ، وتوفى سنة خمسين هجرية . وقيل ٥١ وقيل سنة ٤٩ .

٤٣ — رد معاوية عليه

فكتب إليه معاوية :

« أمّا ما ذكرتَ من كِبَر سنِّك فأنت أكلْتَ شبابَك ، وأما ما ذكرت من اقتراب أجَلِك ، فإنى لو أستطيع دفعَ المَنيَّة لدَفَعْتُها عن آل أبى سُفيان ، وأما ما ذكرت من سُفهاء قريش نحُكماؤها أحَلُّوكَ ذلك المَحَلّ ، وأما ما ذكرت من العمل : فَضَحٍّ رُوَيْدًا يدركِ الهَيْجَا حَمَل »[1] . (العقد الفريد ١ : ٢٦)

٤٤ — بين معاوية والمغيرة بن شعبة

وكتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة أن « اكتب إلىّ بشىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم » :

فكتب إليه : « سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله كَرِهَ لكم ثلاثاً : قِيل وقال ، وإضاعةَ المال ، وكثرة السؤال » . (صحيح البخارى ١ : ١٧٧)

---

(١) هو مثل ، معناه لاتعجل فى الأمر وتأن وارفق ، ضحى الإبل : غداها فى الضحى ، فتضحت هى : أى أكلت فى الضحى . وأصله أن العرب كانوا يسيرون فى البادية يوم ظعنهم ، فإذا مروا ببقعة من الأرض فيها كلأ وعشب، قال قائلهم: ألا ضحوا رويدا : أى ارفقوا بالإبل حتى تتضحى: أى تنال من هذا المرعى ، ثم وضعت التضحية مكان الرفق ، لتصل الإبل إلى المنزل ، وقد شبعت . والهيجا بالقصر والمد : الحرب ، وحمل : هو حمل بن سعدانة الصحابى ، وقد قدمنا فى الجزء الأول ص ٤٠١ كلمة مطولة فى هذا المثل ، فارجع إليها .

قال صاحب العقد : فلما انتهى الكتاب إلى المغيرة كتب إليه يستأذنه فى القدوم عليه فأذن له ، فلما دخل عليه قال له : يامغيرة ، كبرت سنك ، ورق عظمك ولم يبق منك شىء ، وما أرانى إلا مستبدلا بك ، قال المحدث عنه : فانصرف إلينا ونحن نرى الكآبة فى وجهه ، فأخبرنا بما كان من أمره ، قلنا له فما تريد أن تصنع ؟ قال : ستعلمون ذلك ، فأتى معاوية فقال له : يا أمير المؤمنين إن الأنفس ليغدى عليها ويراح ، ولست فى زمن أبى بكر وعمر، فلو نصبت لنا علما من بعدك نصير إليه فإنى قد دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد ، فقال : يا أبا محمد ، انصرف إلى عملك ورم هذا الأمر لابن أخيك ، فأقبلنا نركض على النجب ، فالتفت فقال : والله لقد وضعت رجله فى ركاب طويل ألغى عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

٤٥ — كتاب المستورد بن علفة الخارجى إلى سماك بن عبيد

واجتمعت الخوارج بالكوفة - إبَّانَ وِلاية المُغيرة بن شُعْبة عليها - وولَّوا عليهم المُستَورِد بن عُلَّفَة التَّيْمِى وبايعوه، واتّعدوا أن يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ، ونُمِىَ إلى المغيرة أنهم خارجون عليه، فحذّر أهل الكوفة إيواءهم ونُصرتهم، فخرجوا منها، فوجّه فى أثرهم مَعْقِل بن قيس الرِّياحى:

وسارت الخوارج حتى بلغوا المدائن، وكان سِماك بن عُبَيْد العَبْسِىّ عاملًا للمغيرة عليها، فكتب إليه المستورد:

« من عبد الله المستورد أمير المؤمنين إلى سِماك بن عُبَيْد:

أما بعدُ: فقد نَقَمنا على قومنا الجَوْرَ فى الأحكام، وتعطيلَ الحدود، والاستئثارَ بالفَىْء، وإنا ندعوك إلى كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وولايةِ أبى بكر وعمر رضوان الله عليهم، والبراءة من عثمان وعلىّ، لأحداثهما فى الدين، وتركهما حكمَ الكتاب، فإن تقبلْ فقد أدركت رُشْدَك، وإلا تقبلْ فقد أبلَغْنا فى الإعذار إليك، وقد آذنّاك بحَرْب فنبَذْنا إليك على سَوَاءٍ[1]، إن الله لا يحب الخائنين ».

وتبعهم معقل حتى لحقهم بالمَذَار[2]، ودارت بينهما رحى الحرب بشدة، ودعا المستورد مَعْقِلا للمبارزة، وطعنه المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفه أمَّ الدماغ، فوقع ميتاً وقتل معقل، وشدّ أصحابه على الخوارج، فما لبثوهم أن قتلوهم. (تاريخ الطبرى ٦ : ١٠٩)

---

(١) اقتباس من قوله تعالى « فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » ومعناه إذا هادنت قوما فعلمت منهم النقض للعهد، فلا توقع بهم سابقا إلى النقض حتى تعلمهم أنك نقضت العهد، فتكونوا فى علم النقض مستوين ثم أوقع بهم.

(٢) بلد فى ميسان بين واسط والبصرة.

٤٦ — كتاب حبيب بن مسلمة إلى أهل تفليس

روى الطبرى قال :

« وَكفَرَ أهل إِرْمِينِيَةَ زمانَ معاويةَ[١] ، وقد أَمَّرَ حَبِيب بن مَسْلَمَةَ على الباب وحبيب يومئذ بِجُرْزَان[٢] ، وكاتب أهل تَفِليس وتلك الجبال ، ثم ناجزهم حتى استجابوا ، واعتقدوا من حبيب ، وكتب بينه وبينهم كتاباً بعد ما كاتبهم .

وكان كتابه إليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من حبيب بن مَسْلَمَة إلى أهل تِفليس من جُرْزَان أرض الهُرْمز ، سِلْمٌ أنتم ، فإنى أحمَدَ إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، فإنه قد قَدِم علينا رسولكم « تفلى » فبلَّغ عنكم وأدّى الذى بعثتم ، وذكر « تفلى » عنكم أنا لم نكن أمة فيما تحسبون ، وكذلك كُنّا حتى هدانا الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأعزّنا بالإسلام بعد قِلة وذِلة وجاهلية[٣] ، وذكر « تفلى » أنكم أحببتم سِلْمنا ، فما كَرِهتُ والذين آمنوا معى ، وقد بعثتُ إليكم عبد الرحمن بن جَزْء السُّلَمىّ ، وهو من أَعْلَمِنا ، من أهل العلم بالله ، وأهل القرآن ، وبعثتُ معه بكتابى بأمانكم ، فإن رضيتم دفعه إليكم ، وإن كَرِهتم آذَنكم بحرب على سَواء إن الله لا يحب الخائنين » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٦)

٤٧ — عهد حبيب بن مسلمة لأهل تفليس

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تِفليس من جُرْزان أرض الهُرْمز بالأمان على أنفسكم وأموالكم وصَوامِعِكم وبِيَعكم[٤] وصلواتكم ،

---

(١) أى نقضوا الأمان الذى كان كتبه لهم سراقة بن عمرو فى خلافة عمر بن الخطاب (انظر جمهرة رسائل العرب ج ١ : ص ٢٤٧) .

(٢) اسم لناحية بأرمينية ، وكانت قصبتها تفليس .

(٣) الجاهلية : هى الحال التى كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر ، وغير ذلك .

(٤) الصومعة : متعبد النصارى ، وكذا البيعة بالكسر ، والصغار : الذل .

على الإقرار بصَغار الجِزْية ، على كل أهل بيت دينارٌ وافٍ ، ولنا نُصْحُكم ونصرُكم على عدو الله وعدونا ، وقِرَى[1] المجتاز ليلةً من حَلالِ طعام أهل الكتاب ، وحلال شرابهم ، وهدايةُ الطريق فى غير ما يُضَرُّ فيه بأحد منكم ، فإن أسلمتم ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، فإخواننا فى الدين ومَوالينا[2] ، ومن تولَّى عن الله ورسله وكتبه وحِزبه فقد آذَنَّاكم بحَرْب على سَوَاء ، إن الله لا يحب الخائنين » .

شهد عبد الرحمن بن خالد والحجاج وعِياض ، وكتب رَبَاح ، وأشهد الله وملائكته والذين آمنوا ، وكَفَى بالله شهيداً[3] » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٦٠)

٤٨ — كتاب زياد إلى معاوية فى شأن حجر بن عدى

ولما مات المغيرة بن شُعبة والى الكوفة سنة ٥٠ هـ وكان زياد على البصرة ، ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، وكان من كبراء الشيعة بها حُجْر بن عَدِىّ الكِنْدى ، فبلغ زياداً أن حجراً يجتمع إليه الشيعة ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى معاوية فى أمره وكثر عليه . فكتب إليه معاوية أَنْ شُدَّه فى الحديد ثم احمله إلىّ ، فشده فى الحديد وحمله هو ورءوس أصحابه إلى معاوية ، وكانوا أربعة عشر رجلا ، وكتب إليه كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من زياد بن أبى سفيان : أما بعدُ : فإن الله قد أحسن عند أمير المؤمنين البَلاءَ[4] ، فكاد له عدوَّه ، وكفاه مُؤْنة مَن بَغَى عليه ، إن طَوَاغِيتَ[5] من هذه التُّرابية السَّبَئِيّة ، رَأْسُهم حُجْر

(١) القرى : ما يقدم للضيف

(٢) أى أصحابنا وخلفاؤنا . (٣) انظر ما قدمناه فى الجزء الأول من هامش ص ١٨٥ .

(٤) البلاء : الإنعام (والبلاء يكون منحة ويكون محنة) .

(٥) طواغيت : جمع طاغوت ، وهو الشيطان ، وكل رأس ضلال ، والترابية : الشيعة ، نسبة إلى أبى تراب كنية الإمام على كرم الله وجهه ، كناه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . حدث عمار بن ياسر قال : كنت أنا وعلى رفيقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة العشيرة (كجهينة ، وهى من ناحية ينبع =

. . . .

بين مكة والمدينة وكانت الغزوة سنة ٢ هـ) فنزلنا منزلا فرأينا رجالا من بنى مدلج يعملون فى نخل لهم ، فانطلقنا فنظرنا إليهم ساعة ، ثم غشينا النعاس ، فعمدنا إلى صور من النخل(الصور بالفتح:النخل المجتمع) فنمنا تحته فى دقعاء من التراب ، فما أيقظنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتانا وقد تتربنا فى ذلك التراب فجلس عند رأس على وأيقظه وجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول : قم يا أبا تراب فكانت من أحب كناه إليه ، وكان يفرح إذا دعى بها ،ودعت بنو أمية خطباءها أن يسبوه بها على المنابر وجعلوها نقيصة له ووصمة عليه (انظر تاريخ الطبرى ٢ : ٢٦١ وسيرة ابن هشام ١ : ٣٦٥ وشرح ابن أبى الحديد م ١ . ص ٤) والسبئية : فرقة من غلاه الشيعة نسبة إلى عبد الله بن سبأ وهو يهودى من أهل صنعاء أمه سوداء ، أسلم زمن عثمان — على دخل — ثم جعل يتنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، وهو رأس الغلاة من الشيعة ، ومنه انشعبت أصنافها وهو الذى وضع للمسلمين مبدأ الرجعة فكان يقول : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمدا يرجع،وقد قال الله عز وجل : « إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، ثم قال لهم بعد ذلك إنه كان ألف نبى، ولكل نبى وصى ، وكان على وصى محمد، ثم قال محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء ، ثم قال: من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصى رسول الله وتناول أمر الأمة، ثم قال لهم: إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصى رسول الله فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه . . . . . .

وقد غلا فى على فزعم أنه نبى، ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله، ودعا إلى ذلك قوما من غواة الكوفة ، وقد أتى قوم منهم إلى على ، فقالوا له مشافهة : أنت هو ، فقال لهم ومن هو ؟ قالوا : أنت الله أنت خالقنا ورازقنا ، فاستتابهم وتوعدهم ، فأقاموا على قولهم، فاستعظم الأمر وأمر بنار فأججت فى حفرتين ودخن عليهم فيها طمعا فى رجوعهم فأبوا فحرقهم بالنار حتى قال بعض الشعراء فى ذلك :

لترم بى الحوادث حيث شاءت إذا لم ترم بى فى الحفرتين

فجعلوا يقولون وهم يرمون فى النار : الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لايعذب بالنار إلا الله ، وفى ذلك يقول رضى الله عنه :

لما رأيت الأمر أمرا منكرا أججت نارا ودعوت قنبرا

« يريد قنبرا مولاه ، وهو الذى تولى طرحهم فى النار » .

ثم إن عليا خاف من إحراق الباقين منهم شماتة أهل الشأم وخاف اختلاف أصحابه عليه، وشفع جماعة من أصحابه منهم عبد الله بن عباس فى عبد الله بن سبأ خاصة ، وكان على قد هم بقتله ، وقالوا : ياأمير المؤمنين إنه قد تاب فاعف عنه فأطلقه بعد أن اشترط عليه أن لايقيم بالكوفة ونفاه إلى المدائن ، فلما قتل على عليه السلام وبلغ ابن سبإ قتله ، قال : لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ماصدقنا موته ، وزعم أن المقتول لم يكن عليا ، وإنما كان شيطانا تصور للناس فى صورة على ، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، وزعموا أنه حى فى السحاب ، فإذا أظلتهم سحابة قالوا : السلام عليك يا أبا الحسن وزعموا أن الرعد صوته والبرق سوطه ، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلا كما ملئت جورا . (انظر تاريخ الطبرى ٥ : ٩٨ والفرق بين الفرق ص٢٢٣ والملل والنحل للشهرستانى ٢،١٢ والفصل لابن حزم ٤ : ١٣٨ و ١٤٢ وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٢٥) .

وقد أراد زياد من وصف الشيعة بالسبئية أن يتنقصهم ويزرى بهم، لما عرف عن السبئية من المعتقدات الفاسدة والمبادىء الباطلة .

ابن عَدِيّ خالفوا أمير المؤمنين . وفارقوا جماعة المسلمين ، ونَصَبوا لنا الحرب ، فأظهرَنا الله عليهم وأمكننَا منهم ، وقد دعوتُ خيارَ أهل المِصْر وأشرافهم وذوى السِّنِّ والدين منهم ، فشَهِدوا عليهم بما رأوا وعلموا ، وقد بعثت بهم إلى أمير المؤمنين ، وكتبت شهادة صُلَحاء أهل المصر وخيارهم فى أسفل كتابى هذا » .

وكانت الشهادة عليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما شَهِد عليه أبو بُرْدَة بن أبى موسى الأشعرى لله رب العالمين : شهد أن حُجْر بن عدى خَلَع الطاعة ، وفارق الجماعة ، ولَعَن الخليفة ودعا إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نَكْث البيعة ، وخلع أمير المؤمنين معاوية ، وكفر بالله عزّ وجل كفرة صَلْعاء[١] » .

وشهد رءوس الأرباع[٢] ووجوه من أهل الكوفة على مثل شهادة أبى بردة ، وأمر معاوية بالقوم فحبسوا . (تاريخ الطبرى ٦ : ص ١٥٠ و ص ١٥٢)

٤٩ — كتاب شريح بن هانئ إلى معاوية

وكان زياد قد كتب فى الشهود شُرَيح بن هانئ الحارثى ، فكتب شريح إلى معاوية كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من شريح بن هانئ ، أما بعدُ : فإنه بلغنى أن زياداً كتب إليك بشهادتى على حُجْر بن عدى ، وإن شهادتى

---

(١) أى مكشوفة بارزة، أخذا من الأرض الصلعاء : وهى التى لانبات فيها . والرأس الأصلع : الذى انحسر شعر مقدمه . والصلعاء أيضا الداهية والأمر الشديد ، ومن كلامهم « ركبت الصليعاء » والصليعاء كحميراء : السوءة الشنيعة البارزة المكشوفة ، أو الداهية الشديدة .

(٢) وكانت الكوفة يومئذ مقسمة أرباعا، ورءوس الأرباع عمرو بن حريث على ربع أهل المدينة، وخالد بن عرفطة على ربع تميم وهمدان ، وقيس بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة على ربع ربيعة وكندة، وأبو بردة بن أبى موسى على مذحج وأسد .

على حجر أنه ممن يُقيم الصلاة، ويؤتى الزكاة، ويُديم الحج والعُمْرة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حَرَامُ الدَّمِ والمال، فإن شئتَ فاقتله، وإن شئتَ فَدَعْه » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٥٢، والأغانى ١٦ : ٨)

٥٠ — كتاب معاوية إلى زياد

فكتب معاوية إلى زياد :

« أما بعد، فقد فهمت ما اقتصصت به فى أمر حجر وأصحابه، وشهادة من قِبَلك عليهم، فنظرت فى ذلك : فأحيانا أَرَى قتلَهم أفضل من تركهم، وأحيانا أرى العفو عنهم أفضل من قتلهم، والسلام » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٥٣)

٥١ — رد زياد على معاوية

فكتب إليه زياد :

« أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت رأيك فى حجر وأصحابه، فعَجِبتُ لاشتباه الأمر عليك فيهم، وقد شَهِد عليهم بما قد سمعتَ مَن هو أعلم بهم، فإن كانت لك حاجةٌ فى هذا المصر فلا تَرُدَّنَّ حجراً وأصحابه إلىّ » .

وشُفع فى ستة من أصحاب حجر فخلى معاوية سبيلهم، وأوفد إلى حجر وسائر أصحابه رسولًا، فقال لهم الرسول: إنا قد أُمرنا أن نَعْرِض عليكم البراءة من علىّ واللعن له، فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم، فابرءوا من هذا الرجل نُخَلِّ سبيلكم، فأبَوا وقالوا : بل نتولاه، ونتبرأ ممن تبرأ منه، فأقبل أصحاب معاوية يقتلونهم واحدا واحدا حتى قتلوا ستة (منهم حجر) . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٥٣)

٥٢ — كتاب معاوية إلى زياد

وبقى من أصحاب حُجْر اثنان : هما عبد الرحمن بن حَسَّان العَنَزِىّ وكَرِيم بن عَفِيف الخَثْعَمِىّ، فقالا : ابعثوا بنا إلى أمير المؤمنين فنحن نقول فى هذا الرجل مثل مقالته : فلما دخلا على معاوية قال للخثعمى : ما تقول فى علىّ ؟ قال : أقول فيه قولك، قال :

أتبرأ من دين عليّ الذى كان يَدِينُ الله به ؟ فسكت وكره معاوية أن يجيبه وشفع فيه فخلى سبيله .

ثم أقبل على عبد الرحمن العَنَزِىّ ، فسأله فلم يَرُقه جوابه[1] ، فبعث به إلى زياد ، وكتب إليه :

أما بعد : فإن هذا العَنَزِىَّ شرُّ مَن بعثتَ ، فعاقِبه عُقُوبته التى هو أهلها ، واقتله شرَّ قِتْلَةٍ » .

فبعث به زياد إلى قُسِّ الناطف[2] ، فدفن به حيا ، وكان ذلك سنة ٥١ هـ

(تاريخ الطبرى ٦: ١٥٥ ، والأغانى ١٦ : ١٠)

٥٣ — كتاب معاوية إلى زياد

وأوفد زيادٌ ابنه عُبيدَ الله إلى معاوية ، فكتب إليه معاوية :

« إن ابنك كما وصفتَ ، ولكن قوِّمْ من لسانه[3] » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٠٩)

---

(١) قال له معاوية : إيه ياأخا ربيعة ، ما قولك فى على ؟ قال : دعنى ولا تسألنى فإنه خير لك ، قال والله لا أدعك حتى تخبرنى عنه ، قال : أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيرا ، ومن الآمرين بالحق والقائمين بالقسط ، والعافين عن الناس ، قال : فما قولك فى عثمان ؟ قال : هو أول من فتح باب الظلم وأرتج أبواب الحق ، قال : قتلت نفسك ، قال : بل إياك قتلت ، ولا ربيعة بالوادى (يريد أنه ليس له أحد من قومه يكلمه فيه كما شفع فى الخثعمى) .

(٢) موضع قريب من الكوفة على شاطىء الفرات الشرقى .

(٣) قال الجاحظ : وكانت فى عبيد الله لكنة ، لأنه نشأ بالأساورة مع أمه مرجانة (والأساورة قوم من العجم نزلوا بالبصرة كالأحامرة بالكوفة) وكان زياد تزوجها من شيرويه الأسوارى ، وكان قال مرة : « افتحوا سيوفكم » يريد « سلوا سيوفكم » فقال يزيد بن مفرغ :

ويوم فتحت سيفك من بعيد … أضعت وكل أمرك للضياع

وقال لسويد بن منجوف : « اجلس على إست الأرض » فقال سويد : « ما كنت أحسب أن للأرض إستا » .

وقال المبرد : وكان عبيد الله ألكن يرتضخ لغة فارسية ، وقال لرجل مرة واتهمه برأى الخوارج : أهرورى منذ اليوم ! (يريد أحرورى . وكانت الخوارج تسمى الحرورية) ـ الكامل للمبرد ٢ : ١٦٥ — .

٥٤ — كتاب زياد إلى معاوية

وكتب زياد إلى معاوية :

« إنى قد ضَبَطْتُ لك العراق بيمينى ، وبقِيت شِمالى[1] فارغة » يُعرِّض له بالحجاز .

فبلغ ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فرفع يده إلى السماء وقال : اللهم اكفِنا شِمال زياد ، فخرجت فى شماله قَرْحَة فقتلته ، وكانت وفاته سنة ٥٣ هـ

(العقد الفريد ١ : ٢٦ ، ٣ : ٥ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ١٦٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٨)

٥٥ — كتاب السيدة عائشة إلى معاوية

وكتبت السيدة عائشة رضى الله عنها إلى معاوية :

« أما بعد : فإنه من يعمل بِمَسَاخِطِ الله يصيِّرْ حامِدَه من الناس ذامًّا له والسلام » .

(العقد الفريد ١ : ٢٠)

وفى رواية البيان والتبيين :

كتب معاوية إلى عائشة أن اكتبى إلىّ بشىء سمعته من أبى القاسم صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكتبت إليه : « سمعت أبا القاسم صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « من عمل بما يُسْخِط الله عاد حامِدُه من الناس له ذامًّا » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

٥٦ — كتاب عبد الله بن الزبير إلى معاوية

وكان لعبد الله بن الزبير أرض قريبة لأرضٍ لمعاوية ، فيها عَبيد له من الزُّنوج يَعْمُرونها ، فدخلوا فى أرض عبد الله ، فكتب إلى معاوية :

---

(١) ورواية الطبرى « قد ضبطت لك العراق بشمالى ويمينى فارغة فاشغلها بالحجاز » .

« أمّا بعد : فإنه يا معاوية إن لم تمنع عبيدك من الدخول فى أرضى ، وإلاَّ كان لى ولك شأن » .

٥٧ — رد معاوية على ابن الزبير

فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه قال له : ما ترى ؟ قال : أرى أن تُنفِذ إليه جيشاً أوَّله عنده وآخِرُه عندك يأتونك برأسه ، فقال : يا بنى ، عندى خير من ذلك ، علىّ بدواة وقِرْطاس ، وكتب :

« وقفتُ على كتابك يابْنَ حَوَارِىِّ رسولِ اُللهِ صلى الله عليه وسلم ، وساءنى والله ما ساءك ، والدنيا هيِّنة عندى فى جَنب رضاك ، وقد كتبت على نفسى رَقْماً[1] بالأرض والعَبيد ، وأشهدتُ علىّ فيه ، ولْتُضَفِ الأرض إلى أرضك ، والعبيد إلى عبيدك ، والسلام » .

٥٨ — رد ابن الزبير على معاوية

فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب إليه :

« وقفت على كتاب أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — فلا عَدِمَ الرأىَ الذى أحَلَّه من قريش هذا المحلّ والسلام » .

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله ، رماه إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه أَسْفَر وجْهُه ، فقال : يا بنىّ ، إذا رُميتَ بهذا الداء ، فداوِه بهذا الدواء .

(ثمرات الأوراق ص ١١٧)

---

(١) الرقم: الكتابة والختم ، وهو هنا فعل بمعنى مفعول أى كتبت مرقوما أى مكتوبا ، وربما كان الأصل « رقما » والرقيم : الكتاب : وهو فعيل بمعنى مفعول أيضا .

٥٩ — كتاب سعيد بن العاص إلى معاوية

وذكروا أن معاوية كان يُغرى بين مَرْوان بن الحكم وسَعيد بن العاص ، وكان قد عزل مروان بن الحكم عن المدينة وولى عليها سعيد بن العاص (سنة ٤٩ هـ) . وكتب إليه يأمره بِقَبض أموال مروان كلِّها فيجعلها صافيةً ، ويقبض فَدَك[1] منه — وكان وهبها له — فراجَعَه سعيد فى ذلك وقال : قَرَابته قريبة[2] ، فكتب إليه ثانية آمِرَه باصطفاء أموال مروان فأبى ، وأخذ سعيد الكتابين فوضعهما عند جارية ، ثم عزل عن المدينة سنة ٥٤ هـ ، ووليَها مَرْوانُ بن الحكم ، فكتب إليه معاوية يأمره بقبض أموال سعيد بالحجاز ، وأرسل مروان إليه بالكتاب مع ابنه عبد الملك ، نخبّره أنه لو كان شيئًا غير كتاب أمير المؤمنين لتجافيتُ ، فدعا سعيد بالكتابين اللذين كتب بهما معاوية إليه فى أموال مروان يأمره فيهما بقبض أمواله ، فذهب بهما إلى مروان ، فقال : هو كان أَوْصَلَ لنا مِنَّا له ، وكفَّ عن قبض أموال سعيد ، وكتب سعيد إلى معاوية :

« العجبُ مِمَّا صنَع أمير المؤمنين بنا فى قَرابتنا أن يُضْغِن بعضَنا على بعض ، فأمير المؤمنين فى حلمه ، وصبره على ما يكره من الأخْبَثين ، وعفوِه ، وإدخالِه القطيعةَ بيننا والشَّحناء ، وتوَارُث الأولاد ذلك[3] ، فوالله لو لم نكن بنى أب واحد إلا لِمَا جَمَعنا الله عليه من نصر الخليفة المظلوم وباجتماع كلمتنا ، لكان حقا علينا أن نَرْعَى ذلك ، والذى أدركنا به خير » .

---

(١) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر سنة ٧ هـ وسيأتى فصل مطول عنها بعد (فى شرح كتاب عمر بن عبد العزيز إلى ابن حزم)

(٢) ثلاثتهم يجتمعون فى جدهم أمية ، فهم : معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية ، ومروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ، وسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية .

(٣) خبر قوله « فأمير المؤمنين » محذوف ، أى غير محق فيما يفعله بنا من ذلك .

فكتب إليه يتنصَّل من ذلك وأنه عائد له إلى أحسن ما يعهده .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٦٥)

٦٠ — كتاب معاوية إلى مروان بن الحكم

وكتب معاوية إلى مَرْوان بن الحكَم وهو والى المدينة :

« أما بعدُ : فإن أمير المؤمنين أحَبَّ أن يَرُدَّ الألفة ، ويَسُلّ السَّخِيمة[١] ، ويَصِلَ الرَّحِمَ ، فإذا وصل إليك كتابى فاخطُبْ إلى عبد الله بن جعفر ابنتَه أمَّ كُلثوم على يزيد ابن أمير المؤمنين ، وارغَبْ له فى الصَّداق[٢] » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٤١ ، ومعجم البلدان ٢ : ٢٤٨)

٦١ — كتاب سعيد بن العاص إلى معاوية

وذكروا أن معاوية كتب إلى سعيد بن العاص وهو على المدينة يأمره أن يدعو أهل المدينة إلى البيعة ليزيد ، ويكتب إليه بمن سَارَع ممن لم يسارع ، فلما أتى سعيدَ بن العاص الكتابُ ، دعا الناس إلى البيعة ليزيد ، وأظهر الغِلْظة وأخذهم بالعزم والشدة ، وسطا بكل من أبطأ عن ذلك ، فأبطأ الناس عنها إلا اليسير ، لاسيما بنى هاشم ، فإنه

---

(١) السخيمة : الحقد والضغينة .

(٢) فوجه مروان إلى عبد الله بن جعفر فقرأ عليه كتاب معاوية وأعلمه بما فى رد الألفة من صلاح ذات البين واجتماع الدعوة ، فقال عبد الله : إن خالها الحسين بينبع ،وليس ممن يفتات عليه بأمر ، فأنظرنى إلى أن يقدم ، وكانت أمها زينب بنت على بن أبى طالب صلوات الله عليه ، فلما قدم الحسين ذكر ذلك له عبد الله بن جعفر ، فقام من عنده ، فدخل إلى الجارية فقال : يابنية إن ابن عمك القاسم ابن محمد بن جعفر ابن أبى طالب أحق بك ، ولعلك ترغبين فى كثرة الصداق ، وقد نحلتك البغيبغات (انظر ص ٥٢٩ من الجزء الأول) فلما حضر القوم للإملاك تكلم مروان بن الحكم فذكر معاوية وما قصده من صلة الرحم وجمع الكلمة ، ، فتكلم ، الحسين فزوجها من القاسم ، فقال له مروان : أغدرا ياحسين ؟ فقال : أنت بدأت ، خطب أبو محمد الحسن بن على عليه السلام عائشة بنت عثمان بن عفان ،واجتمعنا لذلك ، فتكلمت أنت فزوجتها من عبد الله بن الزبير ، فقال مروان ما كان ذلك ، فالتفت الحسين إلى محمد بن حاطب فقال: أنشدك الله أكان ذاك ؟ قال: اللهم نعم .

لم يُجِبْه منهم أحد ، وكان ابن الزبير من أشد الناس إنكاراً لذلك ورَدًّا له ، فكتب سعيد بن العاص إلى معاوية :

« أما بعدُ : فإنك أمرتنى أنْ أَدعوَ الناسَ لبَيْعة يزيد ابن أمير المؤمنين ، وأن أكتب إليك بمن سارع ممن أبطأ ، وإنى أُخْبرك أن الناس عن ذلك بِطَاءٌ[1] ، لاسيما أهل البيت من بنى هاشم ، فإنه لم يُجِبْنى منهم أحد ، وبَلَغنى عنهم ما أكْرَه ، وأما الذى جاهر بعداوته وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير ، ولستُ أَقْوَى عليهم إلا بالخيل والرجال ، أو تَقْدَمَ بنفسك فتَرَى رَأْيك فى هذا ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٩)

٦٢ — رد معاوية على سعيد

فكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وإلى عبد الله بن جعفر ، وإلى الحسين بن على رضى الله عنهم كُتُبا ، وأمر سعيد بن العاص أن يوصِّلها إليهم ، ويَبْعث بجواباتها ، وكتب إلى سعيد بن العاص :

« أما بعد : فقد أتانى كتابك ، وفَهِمتُ ما ذكرتَ فيه من إبطاء الناس عن البيعة ، ولا سيما بنى هاشم ، وما ذكر ابنُ الزبير ، وقد كتبتُ إلى رؤسائهم كتباً ، فسلِّمها إليهم ، وتَنَجَّزْ جواباتِها ، وابعث بها إلىَّ حتى أرى فى ذلك رأيى ، ولتشتدَّ عزيمتك ، ولْتصْلُبْ شكيمتُك[2] ، وتحسن نيَّتك ، وعليك بالرفق ، وإياك والخُرْقَ[3] ، فإن الرِّفق رَشَد ، والخرق نكَد ، وانظر حُسَيْناً خاصَّةً فلا يناله منك مكروه ، فإن له قرابةً وحقًّا عظيماً لا يُنْكِره مسلم ولا مسلمة ، وهو لَيْثُ عَرِينٍ ، ولستُ آمنك

---

(١) بطاء : جمع بطىء ، كطوال وقصار جمع طويل وقصير.

(٢) الشكيمة : الأنفة ، وأصلها فى اللجام الحديدة المعترضة فى فم الفرس ، وهو شديد الشكيمة : أى أنف أبى لا ينقاد .

(٣) الخرق : ضد الرفق ، وأن لا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور . والحمق : وهو بفتحتين مصدر ، وبالضم اسم .

إن شاددْته[1] أن لا تقوَى عليه ، فأمّا مَن يَرد مع السباع إذا وَرَدَتْ ، ويَكنِس إذا كَنَسَتْ[2] ، فذلك عبد الله بن الزبير ، فاحْذَره أشدَّ الحذَر ، ولا قوة إلا بالله ، وأنا قادم عليك إن شاء الله ، والسلام ». (الإمامة والسياسة ١ : ١٢٩)

٦٣ — كتاب معاوية إلى ابن عباس

وكتب إلى ابن عباس :

« أما بعد : فقد بلغنى إبطاؤك عن البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين ، وإنى لو قتلتك بعثمان لكان ذلك إلىّ ، لأنك مِمَّن ألَّبَ[3] عليه وأجْلَب ، وما معَك منى أمان فتطمئن به ولا عهدٌ فتَسْكُنَ إليه ، فإذا أتاك كتابى هذا فاخرج إلى المسجد ، والْعَن قتلَة عثمان ، وبايِعْ عاملى ، فقد أعْذَر من أنْذَر[4] ، وأنت بنفسك أبصرُ ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

٦٤ — كتاب معاوية إلى عبد الله بن جعفر

وكتب إلى عبد الله بن جعفر :

« أما بعدُ : فقد عرَفْتَ أثرَتى[5] إياك على مَن سِواك ، وحُسْنَ رأيى فيك وفى أهل بيتك ، وقد أتانى عنك ما أكْرَه ، فإن بايعتَ تُشْكَر ، وإن تأْبَ تُجْبَر ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

---

(١) فى الأصل « شاورته » وهو تحريف .

(٢) أى يستتر ويختبىء ، من كنس الظبى كضرب دخل فى كناسه (والكناس ككتاب : مستتره فى الشجر) . (٣) ألب : حرض ، وأجلب وجلب (كضرب ونصر) وجلب : أحدث جلبة ، وهى اختلاط الأصوات ، والمعنى ثار عليه . (٤) أعذر : صار ذا عذر .

(٥) آثره إيثارا : فضله ، والأثرة اسم منه .

٦٥ — كتاب معاوية إلى الحسين

وكتب إلى الحسين :

« أما بعدُ : فقد انتهت إلىَّ عنك أمورٌ لم أكن أظنُّك بها ، رغبةً بك عنها ، وإن أحقَّ الناس بالوفاء لَمَن أعطى بيعتَهُ مَن كان مِثْلَك فى خَطَرِك[1] وشرفك ومنزلتك التى أنزلك الله بها ، فلا تُنازعْ إلى قطيعتك ، واتق الله ولا تَرُدَّنَّ هذه الأمة فى فتنة، وانظر لنفسك ودينك وأمة محمد «وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

٦٦ — كتاب معاوية إلى ابن الزبير

وكتب إلى عبد الله بن الزبير :

« رأيتُ كِرامَ النَّاسِ إن كُفَّ عنهُم بحِلمٍ ، رأوْا فَضْلاً لمن قد تَحَلَّما
ولا سيَّما إن كان عَفْوا بقُدْرَةٍ فذلك أَحْرَى أن يُجَلَّ ويُعْظَما
ولستَ بذى لؤمٍ فتعْذَرَ بالذى أتاه من الأخلاق من كان ألأَمَا[2]
ولكنَّ غِشًّا لستَ تَعَرِفُ غيرَه وقد غشَّ قبل اليوم إبليسُ آدَمَا
فما غشَّ إلا نفسَه فى فِعاله فأصبح ملعونًا وقد كان مُكْرَمًا
وإنى لأخشى أن أنالك بالذى أردت ، فيُخزِى اللهُ من كان أظلَمَا »

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

---

(١) الخطر : القدر .

(٢) فى الأصل ، « أتيته من أخلاق من كان ألوما » وهو تحريف ، وقد صححته كما ترى .

٦٧ — رد ابن عباس على معاوية

فكان أول من أجابه عبد الله بن عباس ، فكتب إليه :

« أما بعد : فقد جاءنى كتابك ، وفهمتُ ما ذكرتَ ، وأنْ ليس معى منك أمانٌ ، وإنه واللهِ ما منك يُطلَبُ الأمان يا معاوية ، وإنما يُطلَب الأمانُ من الله رب العالمين ، وأما قولك فى قتلى : فواللهِ لو فعلتَ لَلقيتَ اللهَ ، ومحمدٌ صلى الله عليه وسلم خَصْمُك ، فما إخاله أفلَحَ ولا أنْجَحَ[1] مَن كان رسول الله خَصْمه ، وأما ما ذكرتَ من أنى ممن ألَّبَ على عثمان وأجْلَبَ ، فذلك أمرٌ غِبْتَ عنه ، ولو حَضَرتَه ما نسَبْتَ إلىّ شيئاً من التأليب عليه ، وايمُ اللهِ ما أرى أحداً غَضِبَ لعثمان غَضَبى ، ولا أعظَمَ أحدٌ قتلَه إعظامى ، ولو شَهِدتُه لنَصرْتُه أو أموتَ دونه ، ولقد قلتُ وتمنَّيتُ يوم قُتِل عثمان : ليت الذى قَتَل عثمان لَقِيَنى فقتلنى معه ولا أبْقَى بعده ، وأما قولك لى : العن قتلة عثمان ، فلعثمانَ ولْدٌ خاصة وقرابةٌ هم أحق بلعنهم منى ، فإن شاءوا أن يَلْعَنُوا فليَلْعَنوا ، وإن شاءوا أن يُمسِكوا فليمسكوا ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

٦٨ — رد عبد الله بن جعفر على معاوية

وكتب إليه عبد الله بن جعفر :

« أما بعد : فقد جاءنى كتابك ، وفهمت ما ذكرتَ فيه من أَثَرتك إياى على من سواى ، فإن تفعل فبحظك أصبتَ ، وإن تَأْبَ فبنفسك قصَّرتَ ، وأما ما ذكرت من جَبْرك إياى على البيعة ليزيد ، فلعمرى لئن أجبرتنى عليها لقد أجبرناك وأباك على الإسلام حتى أدخلنا كما كارِهَيْنِ غير طائعين ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣١)

---

(١) أنجح : صار ذا نجح .

٦٩ — رد عبد الله بن الزبير على معاوية

وكتب إليه عبد الله بن الزبير :

« ألاَ سمِعَ اللهُ الذى أنا عَبْدُه ... فأخزَى إلهُ الناس مَنْ كان أظْلَما
وأَجْرَا على الله العظيم بحِلْمه ... وأسرَعَهم فى المُوبقات تَقَحُّما[١]
أغرَّكَ أنْ قالوا حَليمٌ بعِزّة ... وليس بذى حِلم ولكن تحلَّما
ولو رُمْتَ ما إنْ قد عزَمتَ وجدتَنى ... هِزَبْرَ عَرِينٍ يترك القِرْنَ أكْتَما[٢]
وأُقْسِم لولا بَيْعةٌ لك لم أكن ... لأَنْقُضَها ، لم تنجُ منى مُسَلَّما »

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣١)

٧٠ — رد الحسين على معاوية

وكتب إليه الحسين رضى الله عنه :

« أما بعد : فقد جاءنى كتابك تذكر فيه أنه انتهتْ إليك عنى أمور لم تكن تظنُّنى بها رغبةً بى عنها ، وإن الحسناتِ لايَهْدِى لها ولا يُسَدِّد إليها إلا اللهُ تعالى ، وأما ما ذكرتَ أنه رُقِّىَ[٣] إليك عنى ، فإنما رَقَّاه المَلاّقون[٤] ، المشّاءون بالنّميمة المفرِّقون بين الجمع ، وكَذَب الغاوُون المَارقون ، ما أردتُ حرْباً ولا خلافاً ، وإنى

---

(١) « أجرا » مسهل عن « أجرأ » وهو معطوف على « أظلما » اقتحم الإنسان الأمر وتقحمه: رمى بنفسه فيه بغير روية .

(٢) الهزبر : الأسد ، والعرين : بيته ، والقرن : كفؤك فى الشجاعة أوعام ، والأكتم والأكثم العظيم البطن . والمعنى : يتركه صريعا منتفخا بطنه .

(٣) رقى عليه كلاما ترقية : رفعه ، وليتنبه إلى أن هذه العبارة لم ترد فى كتاب معاوية إلى الحسين ، ولعلها سقطت من الأصل .

(٤) تملقه وتملق له تملقا وتِملاقا (بكسر التاء والميم فى هذه) وملقه وملق له كفرح ملقا : تودد إليه وتلطف له ، فهو متملق وملق (كفرح) وملاق .

لأخشى اللهَ فى تركـ ذلك منك ومن حزبك القاسِطِين[1] ، المُحِلِّين[2] ، حزب الظالم ، وأعوان الشيطان الرجيم ، ألستَ قاتِلَ حُجْرٍ وأصحابه العابدين المُخْبِتِين[3] ، الذين كانوا يستفظعون البِدَعَ ، ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ، فقتلتَهم ظُلْماً

---

(١) قسط كضرب قسطا بالفتح وقسوطا ، فهو قاسط : جار وعدل عن الحق قال تعالى : « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » وقسط كضرب ونصر قسطا بالكسر فهو قاسط ، وأقسط إقساطا فهو مقسط : عدل ، قال تعالى : « وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » وقال « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ » أى ذوات القسط ـ والقسط من المصادر الموصوف بها كالعدل يستوى فيه الواحد والجمع ـ وقد تبين مما تقدم أن العدل فيه لغتان قسط وأقسط ، وأن الجور فيه لغة واحدة ، قسط بغير ألف .

(٢) قال صاحب القاموس « ورجل محل : منتهك للحرام ، أو لا يرى للشهر الحرام حرمة ،وجاء فى اللسان « ويقال : المحل الذى يحل لنا قتاله ، والمحرم : الذى يحرم علينا قتاله ، ويقال : المحل : الذى لا عهد له ولاحرمة ، والمحرم الذى له حرمة » وقد قدمنا فى الجزء الأول ص ٤٠٣ أن الإمام عليا كرم الله وجهه كتب كتابا إلى مخنف بن سليم جاء فيه « لعلك تلقى معنا هذا العدو المحل » وكتابا إلى أخيه عقيل جاء فيه «فإن رأيى قتال المحلين » وأن ابن أبى الحديد فسره (م٤ : ص ٥٧) قال : «أى الخارجين من الميثاق والبيعة يعنى البغاة ومخالفى الإمام ، ويقال لكل من خرج من إسلام ، أو حارب فى الحرم ، أو فى الأشهر الحرم ، محل ، وعلى هذا فسر قول زهير :
« وكم بالقنان من محل ومحرم» أى من لاذمة له ومن له ذمة،وكذلك قول خالد بن يزيد بن معاوية فى زوجته رملة بنت الزبير بن العوام :

ألا من لقلب معنى غزل   بحب المحلة أخت المحل

أى ناقضة العهد أخت المحارب فى الحرم ، أو أخت ناقض ببعة بنى أمية » وقال المبرد فى الكامل أيضا (ج ٢ : ص ١٦٨) « وكان عبد الله بن الزبير يدعى المحل لإحلاله القتال فى الحرم، وفى ذلك يقول رجل فى رملة بنت الزبير . . . الخ » وكذا فى العقد الفريد (ج٢ : ص ٢٦٨) .

وكان العلويون والخوارج يصفون الأمويين « بالمحلين » كما ترى فى كتاب الحسين عليه السلام، وكما ورد فى كلام سليمان بن صرد لأصحابه : « وإن تستشهدوا فإنما قاتلتم المحلين، وماعند الله خير للأبرار والصديقين» انظر تاريخ الطبرى ٧ : ٦٨ ـ وقال الصلت بن مرة شاعر الخوارج . لما كثر بينهم الخلاف وخلعوا قطرى بن الفجاءة وولوا عبد ربه الصغير :

قل للمحلين قد قرت عيونكم   بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا أناسا على دين ففيرنا   طول الجدال وخلط الجد باللعب

(انظر الكامل للمبرد ٢ : ٢٢٧)

(٣) أخبت : خشع وتواضع .

وعَدَوانا من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة ، والعهود المؤكَّدة[١] ، جراءةً على الله واستخفافاً بعهده ، أوَلستَ بقاتل عمرو بن الحَمِق[٢] الذى أخلقت وأبلت وجهه العبادةُ ، فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود مالو فهمته العُصْم[٣] نزلت مِنْ سُقُف[٤] الجبال ؟ أو لستَ المدَّعى زياداً فى الإسلام ، فزعمت أنه ابن أبى سُفيان ، وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفِراش وللعاهِرِ الحَجَر ، ثم سلَّطته على أهل

(١) يشير إلى ما كان أخذه الحسن عليه السلام من معاوية من كتاب الأمان لشيعته .

(٢) هو عمرو بن الحمق الخزاعى : صحابى هاجر بعد الحديبية ، وكان ممن دخل الدار على عثمان ، ثم صار من شيعة على ، وشهد معه وقعة الجمل وصفين والنهروان ، ولما طلب زياد رؤساء أصحاب حجر ابن عدى ، خرج عمرو بن الحمق ورفاعة بن شداد حتى نزلا المدائن ، ثم ارتحلا حتى أتيا أرض الموصل فأتيا جبلا فكمنا فيه ، وبلغ عامل ذلك الرستاق (الرستاق : يستعمل فى الناحية التى هى طرف الإقليم ، فارسى معرب) أن رجلين قد كمنا فى جانب الجبل ، فاستنكر شأنهما — وهو رجل من همدان يقال له : عبد الله بن أبى بلتعة — فسار إليهما فى الخيل نحو الجبل ومعه أهل البلد ، فلما انتهى إليهما خرجا ، فأما عمرو بن الحمق فكان مريضاً ، وكان بطنه قد سقى (السقى كشمس وحمل : ماء أصفر يقع فى البطن،وقد سقى بطنه كرمى) فلم يكن عنده امتناع . وأما رفاعة بن شداد — وكان شابا قويا — فوثب على فرس له جواد ، فقال له : أقاتل عنك ،قال: وماينفعنى أن تقاتل ، أنج بنفسك إن استطعت فحمل عليهم فأفرجوا له ، فخرج تنفر به فرسه ، وخرجت الخيل فى طلبه وكان راميا ، فأخذ لا يلحقه فارس إلا رماه فجرحه أو عقره ، فانصرفوا عنه .

وأخذ عمرو بن الحمق ، فسألوه من أنت ؟ فقال: من إن تركتموه كان أسلم لكم ،وإن قتلتموه كان أضر لكم، فسألوه فأبى أن يخبرهم، فبعث به ابن أبى بلتعة إلى عامل الموصل — وهو عبد الرحمن بن عبدالله ابن عثمان الثقفى — فلما رأى عمرو بن الحمق ، عرفه وكتب إلى معاوية بخبره ، فكتب إليه معاوية : « أنه زعم أنه طعن عثمان بن عفان تسع طعنات بمشاقص كانت معه (المشاقص جمع مشقص كمنبر وهو النصل الطويل أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش) وإنا لا نريد أن نعتدى عليه ، فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان ، فأخرج فطعن تسع طعنات فمات فى الأولى منهن أو الثانية (سنة ٥١ هـ) وبعث عبد الرحمن الثقفى برأسه إلى معاوية ، وهو أول رأس أهدى فى الإسلام . وقيل إنه لما هرب بالموصل دخل غارا فنهشته حية فمات فأخذ عامل الموصل رأسه فأرسله إلى زياد فبعث به زياد إلى معاوية ، وقيل إنه عاش إلى أن قتل فى وقعة الحرة سنة ٦٣ هـ (انظر تاريخ الطبرى ٦ : ١٤٨ وخلاصة تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ص ٢٤٤ وأسد الغابة فى معرفة الصحابة ٤ : ١٠٠ والإصابة فى تمييز الصحابة ٤ : ٢٩٤). وقد جاء فى تاريخ الطبرى أيضا (٥ : ١٣٢) أن عمرو بن الحمق كان مع محمد بن أبى بكر حين تسور على عثمان الدار ، فلما قتله كنانة بن بشر بن عتاب التجيبى ، وثب عمرو بن الحمق على عثمان فجلس على صدره وبه رمق ، فطعنه تسع طعنات ، قال عمرو : فأما ثلاث منهن فإنى طعنتهن إياه لله ، وأما ست فإنى طعنتهن إياه لما كان فى صدرى عليه » .

(٣) العصم : جمع أعصم ، وهو الوعل فى ذراعيه أو فى إحداها بياض وسائره أسود أو أحمر .

(٤) لعله « من شم الجبال » جمع أشم . والجبل الأشم : المرتفع .

الإسلام : يقتلهم، ويقطّع أيديَهم وأرجلَهم من خِلاف، ويصلِّبهم على جُذُوع النخل(1)، سبحانَ اللهِ يا معاوية ! لـكأنك لست من هذه الأمة ، وليسوا منك ، أو لست قاتِلَ

---

(1) جاء فى شرح ابن أبى الحديد (م ٣ : ص ١٥) .

روى أن أبا جعفر محمد على الباقر عليه السلام قال لبعض أصحابه — فى كلام له — :

« ثم لم نزل أهل البيت نستذل ونستضام ونقصى ونمتهن ونحرم ونقتل ونخاف ، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ، ووجد الـكاذبون الجاحدون لـكذبهم وجحودهم موضعا يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء فى كل بلدة ، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المـكذوبة ، ورووا عنا مالم نقله ومالم نفعله ليبغضونا إلى الناس ، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام ، فقتلت شيعتنا بـكل بلدة وقطعت الأيدى والأرجل على الظنة ، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام ، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى إن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال من شيعة على » .

وروى المدائنى فى كتاب الأحداث قال : « كتب معاوية نسخة واحـدة إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبى تراب وأهل بيته » فقامت الخطباء فى كل كورة ، وعلى كل منبر يلعنون عليا ويبرءون منه ويقعون فيه وفى أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الـكوفة، لكثرة من بها من شيعة على عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سمية، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام على عليه السلام ، فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم ، وقطع الأيدى والأرجل، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم ، وكتب معاوية إلى عماله فى جميـع الآفاق « ألا يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيتـه شهادة » وكتب إليهم « أن انظروا من قبلـكم من شيعة عثمان ومحبيه ، وأهل ولايتـه والذين يروون فضائله ومناقبه ، فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم واكتبوا لى بكل مايروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته » ففعلوا ذلك حتى أكثروا فى فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان يبعثه إليهم معـاوية من الصلات والـكساء والحباء والقطائـع ، ويفيضه فى العرب منهم والموالى ، فـكثر ذلك فى كل مصر ، وتنافسوا فى المنازل والدنيا، فليس يجىء أحد مردود من الناس عاملا من عمال معاوية ، فيروى فى عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه ، فلبثوا بذلك حينا ، ثم كتب إلى عماله : « إن الحديث فى عثمان قد كثر وفشا فى كل مصر ، وفى كل وجه وناحية ، فإذا جاءكم كتابى هذا فادعوا الناس إلى الرواية فى فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ، ولا تتركوا خبرا يرويه أحـد من المسلمين فى أبى تراب إلا أتونى بمناقض له فى الصحابة مفتعلة ، فان هذا أحب إلى وأقر لعينى ، وأدحض لحجة أبى تراب وشيعته ، وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله » فقرئت كتبه على الناس ، فرويت أخبار كثيرة فى مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجد الناس فى رواية مايجرى هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر ، وألقى إلى معلمى الـكتاتيب فعلمـوا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الـكثير الواسع ، وحتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن ، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم ، فلبثوا بذلك ماشاء الله .

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميـع البلدان : « انظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه » وشفع ذلك بنسخة أخرى : من اتهمتموه بموالاة =

الحضرمي(١) الذي كتب إليك فيه زياد أنه على دين علي كرم الله وجهه ، ودينُ عليّ هو دينُ ابن عمه صلى الله عليه وسلم الذي أجلسك مجلسَك الذي أنت فيه ، ولولا ذلك كان أفضلَ شرفِكَ وشرفِ آبائك تجشُّمُ الرحلتين : رحلةِ الشتاء والصيف(٢) ، فوضعها اللهُ عنكم بنا ، مِنَّةً عليكم ، وقلتَ فيما قلت : لاتردَّنَّ هذه الأمةَ في فتنة ، وإني لا أعلم لها فتنةً أعظمَ من إمارتك عليها ، وقلتَ فيما قلت : انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، وإني والله ما أعرفُ أفضلَ من جهادك ، فإنْ أفعل فإنه قُرْبةٌ إلى ربي ، وإن لم أفعله فأستغفرُ اللهَ لديني ، وأسأله التوفيق لِمَا يحبُّ ويرضى ، وقلت فيما قلت :

= هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره» فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ، ولا سيما بالكوفة حتى إن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به ، فيدخل بيته فيلقي إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه، ولايحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه ، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة ، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراءون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك ، فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ، ويقربوا مجالسهم ، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل . حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان ، فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق ، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها .

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليه السلام (سنة ٥٠) فازداد البلاء والفتنة ، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه ، أو طريد في الأرض ، ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام ، وولي عبد الملك بن مروان ، فاشتد على الشيعة وولى عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرب إليه أهل النسك والصلاح والدين ببغض علي وموالاة أعدائه وموالاة من يدعى قوم من الناس أنهم أيضا أعداؤه ، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم ، وأكثروا من الغض من علي عليه السلام وعيبه والطعن فيه والشنآن له ، حتى إن إنسانا وقف للحجاج ، ويقال إنه جد الأصمعي عبد الملك بن قريب ، فصاح به أيها الأمير إن أهلي عقوني فسموني عليا ، وإني فقير بائس ، وأنا إلى صلة الأمير محتاج، فتضاحك له الحجاج، وقال : للطف ماتوسلت به، قد وليتك موضع كذا » اهـ . ولاتنس أن الشيعة وضعوا أحاديث مختلفة في صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوة خصومهم ــ انظر ابن أبي الحديد م ٣ ص ١٧ .

(١) يعني شريك بن شداد الحضرمي ، وكان من أصحاب حجر بن عدي الذين بعث بهم زياد إلى معاوية وقتل مع حجر .

(٢) كان للقرشيين في الجاهلية رحلتان كل عام : رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا يخرجون بتجارتهم قوافل عظيمة وقد ذكر الطبري أن إحدى هذه القوافل بلغت خمسمائة وألف بعير، وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته ، ذلك إلى ما أخذه لهم بنو عبد مناف من الإيلاف أي العهد بتأمين التجارة ، وكان هاشم بن عبد مناف قد خرج إلى الشام =

متى تكذنى أكذك[1] ، فكذنى يا معاوية ما بدا لك ، فلعمرى لقديما يُكاد الصالحون ، وإنى لأرجو أن لاتضرَّ إلا نفسك ، ولا تمحق إلا عملك ، فكذنى ما بدا لك ، واتق الله يا معاوية . واعلم أن لله كتاباً لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، واعلم أن الله ليس بناسٍ لك قتلك بالظِّنَّة ، وأخذك بالتُّهَمة ، وإمارتك صبيًّا يشرب الشراب ، ويلعب بالكلاب[2] ، ما أراك إلا قد

= وأخذ إيلافا منها لمن تجر إليها من قريش ، وخرج المطلب بن عبد مناف فأخذ إيلافا من اليمن ، وأخذ عبد شمس بن عبد مناف إيلافا من الحبشة ، وأخذ نوفل بن عبد مناف إيلافا من فارس (انظر ذيل الأمالى ص ٢٠٤) ، فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأقطار آمنين فى امتيازهم وانتقالهم شتاء وصيفا لا يتعرض لهم ، على حين أن الناس كانوا يتخطفون من حولهم ويغار عليهم ، وكان أبو سفيان يرأس العير التى تتردد بين مكة والشام ، ولا يغيبن عنك ماروى فى كتب السيرة فى غزوة بدر من : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلا من الشام فى عيرلقريش عظيمةفيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم » . (١) وهذه العبارة أيضا لم ترد فى كتاب معاوية إليه .

(٢) روى المسعودى فى مروج الذهب (ج ٢ : ص ٩٤) قال :

« وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب ، وجلس ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد — بعد قتل الحسين — فأقبل على ساقيه فقال :

اسقنى شربة تروى مشاشى ... ثم صل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندى ... ولتسديد مغنمى وجهادى

« والمشاش كغراب : النفس والطبيعة » ثم أمر المغنين فغنوا ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهى ، وأظهر الناس شرب الشراب وكان له قرد يكنى بأبى قيس ، يحضره مجلس منادمته ، ويطرح له متكأ ، وكان قردا خبيثا ، وكان يحمله على أتان وحشية ، قد ريضت وذللت لذلك بسرج ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ، فجاء فى بعض الأيام سابقا ، فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشمر (مخطط) وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق (أى مصبغة بمثل الشقائق) وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان ، فقال فى ذلك بعض شعراء الشام فى ذلك اليوم :

تمسك أبا قيس بفضل عنانها ... فليس عليها إن سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذى سبقت به ... جياد أمير المؤمنين أتان

وروى ابن طباطبا فى الفخرى ص ٤٩ : قال :

« كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفا بالصيد لا يزال لاهيا به ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه « الجلال بالكسر جمع جل بالضم والفتح: ما تلبسه الدابة لتصان به ويهب لكل كلب عبدا يخدمه، قيل إن عبيد الله بن زياد أخذ من بعض أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار جناية ، وجعلها فى خزائن بيت المال ، فرحل ذلك الرجل من الكوفة وقصد دمشق ليشكو حاله إلى يزيد وكانت دمشق فى تلك الأيام فيها سرير الملك — فلما وصل إلى ظاهر دمشق ، سأل عن يزيد فعرفوه أنه =

أَوْبَقتَ(١) نفسَك، وأهلكتَ دينك، وأضَعْتَ الرعيَّةَ، والسلام» .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣١)

٧١ — بين معاوية وسعيد بن العاص

فلما جاوب القومُ معاوية بما جاوبوه من الخلاف لأمره والكَرَاهِيَة لبيعته ليزيد، كتب إلى سعيد بن العاص يأمره أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد أخذا بغلظة وشدة، ولا يدع أحداً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى يبايعوا، وأمره أن لايحرِّك هؤلاء النَّفرَ ولا يَهِيجهم، فلما قَدِم كتاب معاوية، أَخَذَهم بالبيعة أعنفَ مايكون من الأخذ وأغلَظَه، فلم يبايعه أحد منهم، فكتب إلى معاوية :

« إنه لم يبايعنى أحد، وإنما الناس تَبَع لهؤلاء النفر، فلو بايعوك بايعك الناس جميعاً، ولم يتخلف عنك أحد » .

فكتب إليه معاوية يأمره أن لايحرّكهم إلى أن يَقْدَم، ثم قَدِم معاوية.

= فى الصيد، فكره أن يدخل دمشق، وليس يزيد حاضرا فيها، فضرب مخيمه ظاهر المدينة، وأقام به ينتظر عود يزيد من الصيد، فبينا هو فى بعض الأيام جالس فى خيمته لم يشعر، إلا بكلبة قد دخلت عليه، وفى قوائمها الأساور من الذهب، وعليها جل يساوى مبلغا من المال كبيرا، وقد بلغ منها العطش والتعب، وكادت تموت، فعلم أنها ليزيد وأنها قد شذت منه، فقام إليها وقدم لها ماء، وتعهدها بنفسه، فما شعر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل، وعليه زى الملوك، وقد علته غبرة، فقام إليه وسلم عليه، فقال له أرأيت كلبة عابرة بهذا الموضع؟ فقال: نعم يا مولانا، هاهى فى الخيمة، قد شربت ماء واستراحت، وقد كانت على غاية من العطش والتعب، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ونظر إلى الكلبة وقد استراحت فجذب بحبلها ليخرج، فشكا الرجل إليه حاله وعرفه ما أخذ منه ابن زياد، فطلب دواة وكتب إليه برد ماله وخلعة سنية، وأخذ الكلبة وخرج، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ولم يدخل دمشق » .

وقال الحسن البصرى: « أربع خصال كن فى معاوية، لولم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سكيرا خميرا، يلبس الحرير، ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زيادا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الولد للفراش وللعاهر الحجر »، وقتله حجرا، ويلا له من حجر وأصحاب حجر مرتين » — انظر تاريخ الطبرى ٦ : ١٥٧ والمنية والأمل ص ١٥ .

(١) أوبقت أهلكت .

المدينة حاجا ، وكان من أمره معهم ما كان[1] (الإمامة والسياسة ١ : ١٢٢)

---

(١) وذلك أنه لما دنا منها استقبله أهلها ، فيهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين ابن على ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، فأقبل على ابن أبى بكر ، فسبه وقال : لامرحبا بك ولا أهلا ، فلما دخل الحسين عليه قال : لا مرحبا بك ولا أهلا ، بدنة يترقرق دمها والله مهريقه « والبدنة بالتحريك من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة ، للذكر والأنثى » فلما دخل عليه ابن الزبير ، قال : لامرحبا بك ولا أهلا ، ضب تلعة ، فدخل رأسه تحت ذنبه «والتلعة كوردة: ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها » فلما دخل عبد الله بن عمر ، قال : لامرحبابك ولا أهلا ، وسبه ، فقال : إنى لست بأهل هذه المقالة ، قال : بلى ، ولما هو شر منها، فدخل معاوية المدينة وأقام بها ، وخرج هؤلاء الرهط معتمرين ، فلما كان وقت الحج خرج معاوية حاجا ، فأقبل بعضهم على بعض ، فقالوا : لعله قد ندم فأقبلوا يستقبلونه ، فلما دخل ابن عمر ، قال : مرحبا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق ، هاتوا لأبى عبد الرحمن دابة ، وقال لابن أبى بكر : مرحبا بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق ، هاتوا له دابة، وقال لابن الزبير : مرحبا بابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، هاتوا له دابة ، وقال للحسين : مرحبا بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب المسلمين قربوا لأبى عبد الله دابة ، وجعلت ألطافه « جمع لطف بالتحريك وهو الهدية » تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ، ويحسن إذنهم وشفاعتهم ، وحملهم على الدواب . وخرج حتى أتى مكة فقضى حجه، ولما أراد الشخوص أمر بأثقاله فقدمت وأمر بالمنبر فقرب من الكعبة ، ثم أرسل إليهم ، فاجتمعوا وقالوا: من يكلمه ؟ فأقبلوا على الحسين فأبى ، فقالوا لابن الزبير : هات فأنت صاحبنا ، فدخلوا عليه ، فرحب بهم وقال : قد علمتم نظرى لكم ، وتعطفى عليكم ، وصلتى أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فسكتوا ، فقال : أجيبونى ، فسكتوا ، فقال : أجيبونى ، فسكتوا ، فقال لابن الزبير: هات فأنت صاحبهم ، قال : نخيرك بين إحدى ثلاث ، أيها أخذت فهى لك رغبة ،وفيها خيار : إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبضه الله ولم يستخلف أحداً، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، فدع هذا الأمر ، حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فما صنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش ، وترك من ولده ومن رهطه الأدنين من كان لها أهلا ، وإن شئت فما صنع عمر ، جعلها شورى فى ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا ، فقال معاوية : هل غير هذا؟ قال لا، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا: نحن على ما قال ابن الزبير، فقال معاوية إنى أتقدم إليكم وقد أعذر من أنذر ، إنى قائم فقائل مقالة فإياكم أن تعترضوا على حتى أتمها ، فإن صدقت فعلى صدقى ، وإن كذبت فعلى كذبى ،وأقسم بالله لئن رد على رجل منكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يبقى إلا عليها ، وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفيهما ، فإن تكلم بكلمة يرد بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقى المنبر ، وحف به أهل الشأم ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً . فقال بعد حمد الله والثناء عليه : إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار « العوار مثلثة : العيب» قالوا إن حسينا وابن أبى بكر وابن عمر وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نبرم أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإنى دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا .

٧٢ — كتاب معاوية إلى ابنه يزيد

وكتب معاوية إلى ابنه يزيد — وقد بلغه مُقارَفَتُهُ اللّذاتِ، وانهماكُه فى الشهوات — :

«من معاوية بن أبى سفيان أمير المؤمنين إلى يزيد بن معاوية :

أما بعدُ : فقد أدَّتْ ألسِنةُ التَّصْريحِ إلى أُذُن العناية بك[١] ما فَجَعَ الأمَلَ فيك، وباعَدَ الرَّجاءَ منك، إذ[٢] ملأتَ العيونَ بَهْجةً، والقلوبَ هَيْبةً، وترامَتْ إليك آمالُ الراغبين، وهِمَمُ المتنافسين، وشَحَّتْ بك فِتْيانُ قريش وكُهول أهلك، فما يَسُوغُ لهم ذِكرُك إلا على الجِرَّةِ المُهَوِّعةِ[٣]، والكَظِّ : الجَشْءِ[٤].

اُقتحمتَ البوائقَ[٥]، وانتَقَدْتَ للمَعايِرِ[٦]، واعتضتَها من سُمُوّ الفضل، ورفيعِ القدر، فليتك (يزيدُ) إذ كنتَ لم تكن، سَرَرْتَ يافعا[٧] ناشئاً، وأثكلتَ

= فقال أهل الشأم : وما يعظم من أمر هؤلاء؟ إيذن لنا فنضرب أعناقهم، لانرضى حتى يبايعوا علانية، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر، وأحلى دماءهم عندهم، أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا، ثم قربت رواحله فركب ومضى. فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لانبايع، فلما دعيتم وأرضيتم بايعتم. قالوا : لم نفعل، قالوا بلى قد فعلتم وبايعتم، أفلا أنكرتم ؟ قالوا : خفنا القتل، وكادكم بنا وكادنا بكم — انظر ذيل الأمالى ١٧٧ والعقد الفريد ٢ : ٢٤٨ والإمامة والسياسة ١ : ١٣٨

(١) أى إلى أذن ذى العناية بك — يريد به معاوية نفسه — والمعنى : لقد أفضت بأنبائك ألسنة الرقباء عليك إلى مسامع أبيك ذى العناية الشديدة بشأنك، وصرحت له بما تقارفه من المنكرات والمثالب.

(٢) إذ هنا ظرفية. (٣) الجرة : مايفيض به البعير فيأكله ثانية، وهوعه ما أكل : قيأه إياه، والمراد أنهم يستثقلون ذكره. (٤) كظه الطعام كظا : ملأه حتى لايطيق النفس، والجشء كشمس : الكثير.

(٥) البوائق : الدواهى جمع بائقة، والمعنى اقترفت الآثام والمعاصى.

(٦) المعاير : المعايب؛ قالت ليلى الأخيلية :

لعمرك ما بالموت عار على امرىء ... إذا لم تصبه فى الحياة المعاير

(٧) أيفع الغلام ويفع كفتح يفوعا : شب، فهو يافع ولم يستعمل اسم الفاعل من الرباعى، وثكلت المرأة ولدها (كتعب) : فقدته، وأثكلها الله ولدها : أفقدها إياه، والمعنى : وأفقدتنا الأمل فيك وأحزنتنا، والكهل : من جاوز الثلاثين، أو أربعا وثلاثين إلى إحدى وخمسين، والضالع : المائل، ضلع عنه كفتح ضلعا بالتسكين. مال، أى مائلا إلى الهوى منحرفا عن طريق الرشاد.

كَهْلاً ضالِعا ، فَوَاحَرَ ناهُ[1] عليك (يزيدُ) ! وياحَرَّ صَدْرِ المُشْكَل بك ، ما أشْمَتَ فتْيانَ بنى هاشم ! وأذلَّ فِتيانَ بنى عبد شمس[2] عند تفاوُض المَفاخِرِ ودراسة المَناقِب ! فَمَنْ لِإصلاحِ ما أفسدتَ ، ورَتْق ما فتَقْتَ ؟ هيهاتَ ! خَمَشَتْ[3] الدُّرْبَةُ وجهَ التصبُّر بك ، وأبَتِ الجنايةُ إلا تحدُّرًا على الألسن ، وحلاوةً على المناطِق ، ما أربَحَ فائدةً نالوها ، وفُرْصَةً انتهزوها !

انتبِهْ (يزيدُ) لِلفَظَة[4] ، وشاوِرِ الفِكرة ، ولا تكن إلى سَمْعِك أسرعَ من معناها إلى عقلك واعلم أن الذى وطَّأك[5] وسوْسةَ الشيطان ، وزخرفةَ السُّلطان ، مما حَسُن عندك قُبحُه ، واحْلَوْلَى عندك مُرُّه ، أمرٌ شرِكَك فيه السَّوادُ[6] ، ونافسَكَهُ الأعْبُدُ ، لا لِأَثَرَة تدّعيها أوجبَتْها لك الإمْرَة ، وأضعتَ بها من قدرك ، فأمكنْتَ بها من نفسك ، فكأنك شانِئُ[7] نفسك ، فمن لهذا كلِّه ؟

(١) جاء فى شرح التبيان للعكبرى على ديوان المتنبى ج ٢ ص ٢٥٥ عند الكلام على قوله :

واحر قلبـاه ممن قلبـه شبم ... ومن بجسمى وحالى عنده سقم

واستجلب هاء السكت (فى واحر قلباه) وثبتها فى الوصل كما تثبت فى الوقف ، والعرب تفعل ذلك كقراء: ابن ذكوان « فبهداهم اقتدهى » بكسر الهاء وإثبات الياء وصلا ، وكقراءة هشام بكسر الهاء . وحرك الهاء أبوالطيب لسكونها وسكون الألف قبلها ،وللعرب فى ذلك أمران: منهم من حرك بالضم تشبيها بهاء الضمير ، وأنشدوا : « يامرحباه بحمار أعفرا » ومنهم من يحرك بالكسر على مايوجد كثيرا فى الكلام عند التقاء الساكنين ، وأنشدوا :

يارب ياربا‌ه إياك أسل ... عفراء ياربا‌ه من أقبل الأجل

فى كلام كثيرا رجع إليه هنالك ، وانظر أيضاً خزانة الأدب للبغدادى ج ٤ : ص ٥٩٢ ولسان العرب ج ٢٠ : ص ٣٧٠ ، ومما أورده صاحب اللسان فى ذلك قول قيس العامرى فى ليلى :

فناديت ياربا‌ه أول سألتى ... لنفسى ليلى ثم أنت حسيبها

قال وهو كثير فى الشعر ، وليس شىء منه بحجة عند أهل البصرة .

(٢) يعنى قومه ، فهو معاوية بن أبىسفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ،والتفاوض الاشتراك فى كل شىء ، والمجاراة فى الأمر . والمناقب : المفاخر جمع منقبة بفتح الميم والقاف .

(٣) خمشت : خدشت ، والدربة : العادة والجرأة على الأمر ، والمعنى دربتك على اجتراح المعاصى والسيئات .

(٤) هكذا فى الأصل ، وربما كانت « للعظة » .

(٥) أى لينك وسهل عليك الانغماس فى الشهوات .

(٦) السواد من الناس : عامتهم .

(٧) شانئ : مبغض .

أعلم يا يزيد أنك طَريدُ الموتِ وأسير الحياة ، بلغنى أنك اتخذتَ المَصانع[١] والمجالس للملاهى والمزامير ، كما قال الله تعالى : « أتبنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ[٢] آيةً تعبثُون وَتتخِذُونَ مَصانِعَ لعلَّكُمْ تَخلُدُونَ » وأجهرتَ[٣] الفاحِشَةَ حتى اتخذتَ سَريرتَها عندكَ جَهْرا .

اعلم (يا يزيد) أن أول ما سَلَبَكه الشُكرُ معرفةُ مواطِنِ الشكر لله على نِعمه المتظاهرة[٤]، وآلائه المتواتِرَة ، وهى الجَرْحَة العُظمى ، والفَجْعة الكبرى : تركُ الصلواتِ المفروضاتِ فى أوقاتها ، وهو من أعظم ما يَحْدُث من آفاتها ، ثم استحسان العيوبِ ، وركوبُ الذنوب ، وإظهارُ العورة ، وإباحة السر ، فلا تأمَنْ نفسك على سِرِّكَ ، ولا تَعْقِد على فعلك ، فما خَيرُ لذَّة تُعقِبُ الندمَ ، وتعفِّى[٥] الكرمَ .

وقد توقَّف أمير المؤمنين بين شَطْرين من أمرك ، لما يتوقّعه من غَلَبة الآفة ، واستهلاكِ الشهوة ، فكن الحاكِمَ على نفسك ، واجعل المحكومَ عليه ذهنَك ، ترْشُد إن شاء الله تعالى .

ولْيَبْلغْ أمير المؤمنين ما يَرُدُّ شارِداً من نومه ، فقد أصبح نُصبَ الاعتزال من كل مُؤانِس ، ودَرِيئةَ[٦] الألسن الشامتة ، وفقَك الله فأحسن » .

(صبح الأعشى ٦ : ٣٨٧)

---

(١) المصانع : المبانى من القصور — والحصون .

(٢) الريع : المرتفع من الأرض ، آية : أى أبنية وقصوراً يفتخرون بها ، ويعبثون بالفقراء ويتطاولون عليهم من أجلها ، والمصانع فى الآية قيل : الأبنية ، وقيل : هى أحباس تتخذ للماء واحدها مصنعة ومصنع ، وهذه الآية نزلت فى عاد قوم هود .

(٣) جهر بالكلام وأجهر به ، ويعديان بغير حرف فيقال جهر الكلام وأجهره : أعلنه وأظهره

(٤) المتظاهرة المتوالية المترادفة ، وأصله من ظاهر بين الثوبين : إذا لبس أحدهما على الآخر ، والآلاء : النعم ، جمع إلى كحمل وألو وألى كشمس وألى كعصا وإلى كرضا .

(٥) تمحو وتزيل ، وأصله من عفت الريح المنزل : إذا درسته .

(٦) الدريئة : الحلقة يتعلم عليها الطعن والرمى ، وفى الأصل «ودرأة» وهو تحريف .

خلافة يزيد بن معاوية

٧٣ — كتاب يزيد إلى الوليد بن عتبة

وبويع ليزيد بن معاوية بالخلافة بعد وفاة أبيه فى رجب سنة ٦٠ هـ، وأمير المدينة الوليدُ بن عُتْبة بن أبى سُفيان، ولم يكن ليزيد همٌّ حين وَلِى إلا بيعة النفر الذين أبَوْا الإجابة إلى بَيعته حين دعاهم إليها أبوه، فكتب إلى الوليد:

« بسم الله الرحمن الرحيم، من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عُتْبة:

أما بعد: فإن معاوية كان عبداً من عباد الله، أكْرَمه الله واستخلَفَه وخوّله(١) ومكّن له، فعاش بقَدَر، ومات بأجَل، فرحمه الله، فقد عاش محموداً، ومات برًّا تقيًّا والسلام ».

* * *

وكتب إليه فى صحيفة كأنها أذن فَأْرة:

« أما بعد: فخُذ حُسَيْنا، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير بالبَيعة أخذاً شديداً ليست فيه رُخْصَةٌ(٢) حتى يبايعوا، والسلام ».

وأبى الحسين عليه السلام أن يبايع ليزيد وخرج إلى مكة.

(تاريخ الطبرى ٦: ١٨٨)

---

(١) خوله الله تعالى المال: أعطاه إياه متفضلا.　(٢) الرخصة: التسهيل.

صورة أخرى

وروى ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة ، قال :

مات معاوية وكان يزيد غائباً ، فلما قدم دِمَشْقَ بعد موت أبيه كتب إلى عامل المدينة[(١)] :

« أما بعد : فإن معاوية بن أبى سفيان كان عبداً استخلفه الله على العباد ، ومَكّن له فى البلاد ، وكان من حادثِ قضاءِ الله « جَلَّ ثناؤه ، وتقدَّسَتْ أسماؤه » فيه ماسَبَق فى الأوّلين والآخرين ، لم يَدْفع عنه مَلَكٌ مُقرَّب ، ولا نبى مُرْسَل ، فعاش حميداً ، ومات سعيداً ، وقد قلّدَنا اللهُ عزّ وجل ما كان إليه ، فيالها مصيبةً ما أجلّها ! ونعمةً ما أعظمَها ! نَقْل الخلافة ، وفَقْد الخليفة ، فنَسْتَوْزِعه[(٢)] الشكرَ ، ونَسْتَلْهِمُهُ الحمدَ ، ونسأله الخِيَرة[(٣)] فى الدّارَيْنِ معا ، ومحمودَ العُقْبَى فى الآخرة والأولَى ، إنه ولِىُّ ذلك ، وكلُّ شىء بيده لاشريك له .

وإن أهلَ المدينة قومنا ورجالنا ومَن لم نزل على حُسْنِ الرأى فيهم ، والاستعداد بهم ، واتباع أَثَرِ الخليفة فيهم ، والاحتذاء على مثاله لديهم ، من الإقبال عليهم ، والتقبُّل من مُحْسنهم ، والتجاوز عن مسيئهم ، فبايع لنا قَوْمَنا ومَن قِبَلَك من رجالنا

(١) نص عبارته « كتب إلى خالد بن الحكم وهو عامل المدينة » وهو خطأ ، إذا لايعرف من ولاة المدينة فى هذا العهد وال بذلك الاسم ، ولعل الأصل « إلى مروان بن الحكم » وهذا خطأ أيضاً ، أجل إن مروان ولى المدينة فى خلافة معاوية ، ولكن وليها حين وفاته هو الوليد بن عتبة بن أبى سفيان كما تقدم لك فى الكتاب السابق — عن تاريخ الطبرى — وجاء أيضاً فى صبح الأعشى ج ٤ : ص ٢٩٥ « ولى معاوية على المدينة سنة ٤٢ هـ مروان بن الحكم ، ثم عزله سنة ٤٩ هـ وولى مكانه سعيد بن العاص ، ثم عزله سنة ٥٤ هـ ورد إليها مروان بن الحكم ، ثم عزله سنة ٥٩ هـ وولى مكانه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ثم عزله يزيد عن المدينة والحجاز ، وولى مكانه عمرو بن سعيد الأشدق ، ثم عزله سنة ٦١ هـ وعاد الوليد بن عتبة » .

(٢) أستوزع الله تعالى شكره : استلهمه .

(٣) تخير الشىء : اختاره ، والاسم الخيرة بسكون الياء وبفتحها والأخيرة أعرف وهى الاسم ، من قولك اختاره الله تعالى .

بَيْعه منشرحه بها صدورُكم، طيِّبةً عليها أنفسُكم، وليكن أوّل مَن يبايعك من قومنا وأهلنا الحسين، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، ويَحلفون على ذلك بجميع الأيْمان اللازمة، ويحلفون بصَدَقةِ أموالهم غيرِ عُشْرِها، وحُرِّية[1] رَقيقهم، وطَلاق نسائهم، بالثَّبات على الوفاء بما يُعْطون من بَيْعتهم، ولا قُوَّةَ إلا بالله والسلام».

(الإمامة والسياسة ١ : ١٤٩)

٧٤ – كتاب أهل الكوفة إلى الحسين بن على

واجتمعت الشِّيعة بالكوفة فى منزل سليمان بن صُرَد، فذكروا هلاك معاوية، فحمدوا الله عليه، فقال سليمان: إن معاوية قد هلك، وإن حسينا قد تقبَّضَ على القوم ببيعته، وقد خرج إلى مكة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهِدُو عدوه فاكتبوا إليه، وإن خفتم الوَهَل[2] والفشَل فلا تغرُّوا الرجل من نفسه» قالوا: لا، بل نقاتل عدوه، ونقتل أنفسنا دونه، قال: فاكتبوا إليه، فكتبوا إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لحسين بن علىّ من سليمان بن صُرَد، والمسَيَّب ابن نَجَبَة، ورِفاعة بن شدّاد، وحَبِيب بن مُظاهِر، وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة.

سلام عليك، فإنا نَحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فالحمد لله الذى قَصَم عدوَّك الجبَّارَ العَنِيدَ الذى انْتَزَى[3] على هذه الأمة، فابتزَّها أمرَها، وغَصَبَها فَيْئَها، وتأمَّرَ عليها بغير رِضًى منها، ثم قتل خِيارها، واستبقَى شِرارها، وجعل مال الله

---

(١) فى الأصل «وجزية» وهو تصحيف.
(٢) الوهل: الضعف والفزع والفشل.
(٣) انتزى: وثب، وابتزها: سلبها.

دُولةً[1] بين جَبابِرتها وأغنيائها ، فبُعْداً له كما بَعِدت[2] ثمود .

إنه ليس علينا إمام فاقْدَم علينا لعلّ اللّهَ أن يَجمَعنا بك على الهدى ، والنعمانُ بن بَشِير فى قصر الإمارة ، لسنا نجتمع معه فى جُمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلتَ إلينا أخرجناه من الكوفة حتى نلحقه بالشأم ، والسلام ورحمة الله عليك » .

ثم سرَّحوا بالكتاب مع عبد الله بن سبع الهَمْدانى ، وعبد الله بن وَال ، وأمروهما بالنَّجاء[3] ، فخرج الرجلان مسرِعَيْن حتى قَدِما على حسين لعشرٍ مَضَين من رمضان بمكة ، ثم سَرَّحُوا إليه قيس بن مُسْهِرٍ الصَّيداوى ، وعبد الرحمن بن عبد الله الأَرْحَبىّ ، وعُمَارة بن عُبَيد السَّلُولىّ ، فحملوا معهم نحوا من ثلاث وخمسين صحيفة ، من الرجل والاثنين والأربعة .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٧ ، والإمامة والسياسة ٢ : ٣ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٤ : ٨)

٧٥ — كتاب ثان

ثم سرَّحوا إليه هانئَ بن هانئ السَّبِيعى ، وسعيد بن عبد الله الحَنَفى ، وكتبوا معهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لحسين بن علىّ من شيعته من المؤمنين والمسلمين :

أما بعد : فحَىَّ هَلاَ[4] ، فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأىَ لهم فى غيرك ، فالعجلَ العجلَ ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٧)

---

(١) الدولة بالضم فى المال ، يقال : صار الفىء دولة بينهم : يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا . والدولة بالفتح فى الحرب : أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى ، يقال : كانت لنا عليهم الدولة ، وقيل هما سواء فيهما يضمان ويفتحان ، قال الفراء فى قوله تعالى « كَىْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » قرأها الناس برفع الدال إلا السلمى فيما أعلم فإنه قرأها بنصب الدال .

(٢) البعد بالضم والبعد محركة : النأى والهلاك ، وفعلهما ككرم وكفرح .

(٣) النجاء الإسراع .

(٤) حى هلا (بدون تنوين وبه) على كذا وإلى كذا : أى أقبل وأسرع .

٧٦ — كتاب ثالث

وكتب شَبَث بن رِبْعِيّ، وحَجّار بن أبْجَر، ويزيد بن الحارث، ويزيد بن رُوَيْم، وعَزْرَة بن قيس، وعمرو بن الحجّاج الزُّبَيْدِيّ، ومحمد بن عُمَيْر التميمي:

«أما بعد: فقد اخضرّ الجَنَابُ، وأَيْنَعَت الثِّمار، وطَمَت الجِمَامُ[1]، فإذا شئتَ فاقْدَمْ على جُندٍ لك مُجَنَّد، والسلام عليك». (تاريخ الطبري ٦ : ١٩٧)

٧٧ — رد الحسين على أهل الكوفة

وتلاقت الرُّسُل كلها عنده، فقرأ الكتب، وسأل الرسل عن أمر الناس، ثم كتب مع هانئ بن هانئ السَّبِيعِي، وسعيد بن عبد الله الحنفي — وكانا آخر الرسل —:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من حسين بن علي إلى المَلَأ من المؤمنين والمسلمين، أما بعدُ: فإن هانئًا وسَعِيداً قَدِما عليّ بكتبكم، وكانا آخرَ مَن قَدِم عليَّ من رُسُلكم، وقد فهمتُ كل الذي اقتصصتم وذكرتمُ ومقالةَ جُلِّكم: «إنه ليس علينا إمامٌ فأَقْبِلْ لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق» وقد بعثت إليكم أخي وابنَ عمي[2]، وثِقَتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمْرِكم ورأيكم، فإن كتب إليّ أنه قد أجمع رأيُ مَلَئِكم، وذوي الفضل والحِجا منكم على مثلِ ما قدِمَتْ عليَّ به رُسُلكم، وقرأتُ في كتبكم، أَقْدَمْ عليكم وَشِيكا[3] إن شاء الله، فلعمري ما الإمامُ إلا العامِلُ بالكتاب، والآخذ بالقِسط، والدائن بالحق، والحابسُ نفسَه على ذاتِ الله، والسلام».

(تاريخ الطبري ٦ : ١٩٧، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٤ : ٨)

---

(١) الجمام: جمع جم بالفتح، وهو معظم الماء. وطمى الماء: علا. وطم: غمر.

(٢) بعث إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل. (٣) سريعاً.

٧٨ — كتاب مسلم بن عقيل إلى الحسين

وبعث الحسين عليه السلام إلى ابن عمه مُسْلِم بن عَقيل بن أبى طالب ، فقال له . سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلىّ ، فإن كان حقًّا خرجنا إليهم ، فخرج مسلم حتى أتى المدينةَ ، واستأجر دَليلين من قيس ، فأقبلا به فضَلاَّ الطريقَ وجارا ، وأصابهم عطش شديد ، فكتب مسلم مع قيس بن مُسْهِر الصَّيداوى إلى الحسين :

« أما بعد : فإنى أقبلتُ من المدينة ، معى دَليلان لى ، فجارا عن الطريق وضَلاَّ ، واشتد علينا العطشُ ، فلم يلبثا أن ماتا ، وأقبلْنا حتى انتهيا إلى الماء ، فلم نَنْجُ إلا بحُشَاشة[١] أنفسنا ، وذلك الماء بمكان يُدْعَى المَضِيقَ من بطن الخُبَيْتِ ، وقد تطيّرت من وجهى هذا ، فإن رأيتَ أعفَيتنى منه وبعثتَ غيرى ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٨)

٧٩ — رد الحسين على مسلم

فكتب إليه الحسين :

« أما بعد : فقد خشِيتُ ألا يكون حَمَلَكَ على الكتاب إلىّ فى الاستعفاء من الوجه الذى وجَّهْتُكَ له إلا الجبنُ ، فامضِ لوجهك الذى وجهتُك له ، والسلام عليك » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٨)

٨٠ — كتاب عبد الله بن مسلم الحضرمى إلى يزيد

ثم أقبل مسلم حتى دخل الكوفة ، فنزل دار المختار بن أبى عُبَيْدٍ ، وأقبلت الشيعة تختلف إليه ، فبلغ ذلك النعمان بن بشير والى الكوفة فخطب الناس وحثّهم ألا يسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فقام إليه عبد الله بن مُسْلِم الحَضْرمى حليف بنى أُمَّية وضعّفه[٢] ، وخرج عبد الله وكتب إلى يزيد بن معاوية :

---

(١) الحشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح .

(٢) نسبه إلى الضعف .

« أما بعد : فإن مسلم بن عقيل قد قَدِمَ الكوفة ، فبايعته الشيعة للحسين بن على ، فإن كان لك بالكوفة حاجةٌ فابعث إليها رجلاً قويًّا ، ينفِّذ أمرك ، ويعمل مثل عملك فى عدوك ، فإن النعمان بن بشير رجل ضعيف ، أو هو يتضعَّف » :

فكان أولَ من كتب إليه ، ثم كتب إليه عُمارة بن عُقْبة بنحوٍ من كتابه ، ثم كتب إليه عمر بن سعد بن أبى وقَّاص بمثل ذلك » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٩)

٨١ — كتاب يزيد إلى عبيد الله بن زياد

فلما اجتمعت الكتب عند يزيد ، بعث إلى عُبَيد الله بن زياد بعهده على الكوفة ، وكان عاملا له على البصرة ، فضم إليه المِصْرين ، وكتب إليه :

« أما بعد : فإنه كتب إلىّ شيعَتى من أهل الكوفة ، يخبروننى أن ابن عَقِيل بالكوفة يجمع الجموع لشَقِّ عَصَا[1] المسلمين ، فسِرْ حين تقرأ كتابى هذا ، حتى تأتى أهل الكوفة ، فتطابَ ابن عقيل كطلب الخَرَزَة حتى تَثْقَفَهُ[2] فتُوثِقَه ، أو تقتله ، أو تنفيَه ، والسلام » .

فاستخلف عبيد الله أخاه عثمان بن زياد على البصرة وأقبل إلى الكوفة » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٠٠)

٨٢ — كتاب الحسين إلى أهل البصرة

وقد كان الحسين كتب مع مَوْلًى لهم يقال له سليمان كتاباً إلى أهل البصرة ، إلى رءوس الأخماس ، وإلى الأشراف ، فكتب إلى مالك بن مِسْمَع البكرى ، وإلى الأحنف بن قيس ، وإلى المُنْذِر بن الجارُود ، وإلى مسعود بن عمرو ، وإلى قيس بن

---

(١) شق فلان العصا : مثل يضرب لمفارقة الجماعة ومخالفتهم ، والأصل فى العصا الاجتماع والائتلاف وذلك أنها لا تدعى عصا حتى تكون جميعا ، فإن انشقت لم تدع عصا ، قالوا وأصل هذا أن الحاديين يكونان فى رفقة ، فإذا فرقهم الطريق شقت العصا التى معهما فأخذ هذا نصفها وهذا نصفها .

(٢) ثقفه كسمعه صادفه أو أخذه أو ظفر به أو أدركه .

الهَيْثم ، وإلى عُمَر بن عُبَيد الله بن مَعْمَر ، فجاءت منه نسخة واحدة إلى جميع أشرافها ، وهى :

« أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خَلْقه ، وأكرمه بنُبُوَّته ، واختاره لرسالته ، ثم قَبَضه الله إليه ، وقد نَصَح لعباده ، وبلَّغ ما أُرْسِل به صلى الله عليه وسلم ، وكنا أهلَه وأولياءه وأوصياءه وورَثَته ، وأحقَّ الناس بمَقَامه فى الناس ، فاستأثَر علينا قومُنا بذلك ، فرضِينا ، وكَرِهْنا الفُرْقةَ ، وأحبَبْنا العافية ونحن نعلم أنّا أحق بذلك الحق المستحَق علينا مِمَّن تولاه ، وقد أحسنوا وأصلحوا وتحرَّوا الحقَّ فرحِمَهم الله ، وغفر لنا ولهم .

وقد بعثتُ رسولى إليكم بهذا الكتاب ، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإنَّ السُّنَّةَ قد أُمِيتَت ، وإنّ البِدعة قد أُحْييت ، وإن تسمعوا قولى وتطيعوا أمرى أَهْدِكم سبيلَ الرشاد ، والسلام عليكم ورحمة الله » :

فكل من قرأ ذلك الكتاب من أشراف الناس كتَمه غير المنذر بن الجارود ، فإنه خشِىَ بِزَعْمه أن يكون دَسِيساً من قِبَل عبيد الله ، فجاءه بالرسول من العَشِيَّة التى يريد صبيحتَها أن يسبق إلى الكوفة ، وأقرأه كتابه ، فقدم الرسول فضرب عنقه .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٠٠)

٨٣ — كتاب مسلم بن عقيل إلى الحسين

ودخل عُبَيد الله بن زياد الكوفة ، فتهدَّد الناس وتوعدهم ، وأخذهم أخذاً شديداً ، وبلغ ذلك مسلم بن عقيل فخرج من دار المختار ، ولاذ بدار هانِئ بن عُرْوة المُرادىّ ، وقد كتب مسلم حيث تحول إلى دار هانئ كتابا إلى الحسين مع عابس ابن أبى شَبِيب الشاكرىّ :

« أما بعد : فإن الرَّائد[١] لا يَـكْذِبُ أهلَه ، وقد بايعنى من أهل الـكوفة ثمانيةَ عشَرَ ألفًا ، فعجِّل الإقبالَ حين يأتيك كتابى ، فإن الناس كلَّهم معك ، ليس لهم فى آل معاوية رأىٌ ولا هوًى والسلام » :

وجدَّ ابنُ زياد فى طلب مسلم بن عقيل حتى ظفِر به فضرب عنقه ، وعنق هانئ .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢١١)

٨٤ — كتاب عبيد الله بن زياد إلى يزيد

ولما قتل ابن زياد مُسلمًا وهانئًا بعث برءوسهما مع هانئ بن أبى حَيَّة الوادعىّ ، والزُّبير بن الأَرْوَح التميمىّ إلى يزيد بن معاوية ، وأمر كاتبه عمرو بن نافع أن يكتب إلى يزيد بما كان من مسلم وهانئ ، فكتب إليه كتابا أطال فيه — وكان أول من أطال فى الكتب — فلما نظر فيه عبيد الله بن زياد كرِهه وقال : ما هذا التطويل ، وهذه الفُضُول[٢] ؟! اكتب :

« أما بعد : فالحمد لله الذى أخذ لأمير المؤمنين بحقِّه ، وكفاه مُؤْنَةَ عدوه ، أُخبِرُ أمير المؤمنين — أكرمه الله — أن مسلم بن عقيل لجأ إلى دار هانئ بن عُرْوة المُرادىّ ، وأنى جعلت عليهما العيونَ ، ودَسَسْتُ إليهما الرجال[٣] ، وكِدْتهما حتى استخرجتهما ،

(١) الرائد : المرسل فى طلب الـكلأ .

(٢) جمع فضل ، وهو الزيادة .

(٣) دعا ابن زياد مولى له يقال له معقل ، فقال: خذ ثلاثة آلاف درهم، ثم اطلب ابن عقيل وأصحابه وأعطهم إياها فقل لهم : استعينوا بها على حرب عدوكم ، وأعلمهم أنك منهم ، فإنك ، لو قد أعطيتها إياهم اطمأنوا إليك ووثقوا بك ، ولم يكتموك شيئاً من أخبارهم ، ثم اغد عليهم ورح ، ففعل معقل ما أمره به ، وتلطف حتى دخل على ابن عقيل ، فبايعه وأعطاه المال ، وجعل يختلف إليهم ، فهو أول داخل وآخر خارج ، يسمع أخبارهم ، ويعلم أسرارهم ، ثم ينطلق بها حتى يقرها فى أذن ابن زياد .
وكان هانئ يغدو ويروح إلى عبيد الله ، فلما نزل به مسلم انقطع من الاختلاف وتمارض فجعل لا يخرج ، فقال عبيد الله لجلسائه : مالى لا أرى هانئا ؟ فقالوا : هو شاك ، فقال : لو علمت بمرضه لعدته ، وجاءه بعض أصحابه فقالوا : ما يمنعك من لقاء الأمير ، فإنه قد ذكرك ؟ وأقسموا عليه لما ركب معهم ، فأجابهم ، فلما دخل على ابن زياد قال له : إيه يا هانئ ، ما هذه الأمور التى تربص فى دارك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين؟ جئت =

وأمكن اللهُ منهما ، فقدّمتهما فضربتُ أعناقهما ، وقد بعثتُ إليك برءوسهما مع هانئ ابن أبي حية الهَمْداني والزبير بن الأروح التميمي ، وهما من أهل السمع والطاعة والنصيحة ، فلْيَسْألهما أمير المؤمنين عما أحبَّ من أمر ، فإنَّ عندهما علماً وصدقا ، وفهماً وورَعًا ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٢١٤)

٨٥ — رد يزيد على ابن زياد

فكتب إلى ابن زياد :

« أما بعد : فإنك لم تَعْدُ أن كنتَ كما أحبُّ ، عمِلْتَ عملَ الحازم ، وصُلْتَ صَوْلةَ الشجاع الرّابطِ الجَأْشِ[1] ، فقد أغنيتَ وكفَيتَ ، وصَدَّقت ظني بك ، ورأيي فيك ، وقد دعوتُ رسوليك فسألتهما وناجيتهما فوجدتهما في رأيهما وفضلهما كما ذكرتَ ، فاستوْصِ بهما خيراً .

وإنه قد بلغني أن الحسين بن عليّ قد توجّه نحو العراق ، فضَع المَناظِرَ[2] والمَسَالِح ، واحترِسْ على الظن ، وخذ على التُّهَمَةِ ، غير أنْ لاتقتل إلا من قاتَلك ، واكتب إليّ في كل مايحدُثُ من الخَبَر ، والسلام عليك ورحمة الله » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٢١٣)

٨٦ — كتاب عبد الله بن جعفر إلى الحسين

ولما جاء الحسينَ عليه السلام كتابُ مسلم بن عَقِيل ، يدعوه فيه إلى تعجيل الإقبال ، خرج من مكة قاصِداً إلى الكوفة :

= بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك ، وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك ، وظننت أن ذلك يخفى على لك! قال : ما فعلت وما مسلم عندي . قال : بل قد فعلت ، قال : ما فعلت ، قال بلى ، فلما كثر ذلك ، بينهما ، وأبى هانىء إلا مجاحدته ومناكرته ، دعا ابن زياد معقلا ، فجاء حتى وقف بين يديه ، فقال : أتعرف هذا ؟ قال : نعم ، وعلم هانىء عند ذلك أنه كان عينا عليهم وأنه قد أتاه بأخبارهم .

(١) الجأش : النفس أو القلب ، وربط جأشه رباطة (ككتابة) : اشتد قلبه ، وهو رابط الجأش وربيطه : شجاع ، يربط نفسه عن الفرار يكفها لجرأته وشجاعته ، وقيل يربط نفسه عن الفرار لشناعته

(٢) المناظر جمع منظرة وهي المرقبة : موضع في رأس جبل فيه رقيب ينظر العدو ، والمسالح جمع مسلحة وهي الرقبة أيضاً والقوم ذوو سلاح .

وقد كتب إليه حين خرج من مكة عبد الله بن جعفر بن أبى طالب مع ابنيه عَوْن ومحمد :

« أما بعدُ : فإنى أسألك بالله لَمَا انصرفتَ حين تنظرُ فى كتابى فإنى مُشْفِق عليك من الوجه الذى توَجّهُ له أن يكون فيه هلاكُكَ واستئصالُ أهل بيتك ، إنْ هلكتَ اليوم طَفِئَ[1] نورُ الأرض ، فإنكَ عَلَمُ المهتدين ، ورجاء المؤمنين . فلا تعجَلْ بالسير فإنى فى إثْرِ الكتاب والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢١٩ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٤ : ٧)

٨٧ — كتاب من عمرو بن سعيد بن العاص إلى الحسين

وقام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد بن العاص — وكان عامل يزيد على مكة — فقال له : اكتب إلى الحسين كتاباً : تجعل له فيه الأمانَ ، وتمنِّيه فيه البرَّ والصلةَ ، وتوثِّق له فى كتابك ، وتسأله الرجوع ، لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع ، فقال له عمرو : اكتب ما شئت وأْتنى به أختِمه ، فكتب عبد الله بن جعفر الكتاب ، ثم أتى به عمرو ابن سعيد ، فقال له : اختِمه وابعث به مع أخيك يحيى بن سعيد ، فإنه أحْرَى أن تطمئنّ نفسه إليه ، ويعلم أنه الجِدُّ منك ففعل ، وكان كتابه إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علىّ .

أما بعدُ : فإنى أسألُ اللهَ أن يَصْرِفك عما يُوبِقُك[2] ، وأن يَهْدِيَك لما يُرْشِدك ، بَلغَنى أنك قد توجّهْت إلى العراق ، وإنى أُعيذك بالله من الشِّقاق ، فإنى أخاف عليك فيه الهلاكَ ، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر ، ويحيى بن سعيد ، فأقبلْ إلىّ معهما ، فإن لك عندى الأمانَ والصلةَ والبر ، وحُسْنَ الجِوار ، لك الله علىّ بذلك شهيد وكفيل ومُراعٍ ووكيل ، والسلام عليك » .

---

(١) طفئت النار كسمع انطفأت . (٢) أوبقه : أهلكه .

ولحقه يحيى بن سعيد ، وعبد الله بن جعفر ، ودفعا إليه الكتاب ، وجَهَدا به أن يرجع ، فأبى عليهما . (تاريخ الطبرى ٦ : ٢١٩)

٨٨ — رد الحسين بن علىّ على عمرو بن سعيد

وكتب إلى عمرو بن سعيد :

« أما بعدُ : فإنه لم يشاقِقِ اللهَ ورسولَه من دعا إلى الله عزّ وجل : وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وقد دعوتَ إلى الأمان والبر والصلة ، فخيرُ الأمان أمانُ اللهِ ولن يُؤْمِنَ اللهُ يومَ القيامة مَن لم يَخَفْه فى الدنيا ، فنسأل اللهَ مخافةً فى الدنيا تُوجِبُ لنا أمانة يوم القيامة ، فإن كنتَ نويتَ بالكتاب صِلَتى وبرى فجُزيتَ خيراً فى الدنيا والآخرة والسلام » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٢١٩)

٨٩ — كتاب الحسين إلى أهل الكوفة

وأقبل الحسين عليه السلام حتى إذا بلغ « الحاجِرَ » بعث قيس بن مُسْهِر الصَّيْداوى إلى أهل الكوفة ، وكتب معه إليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن علىّ إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد : فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءنى يُخبرنى فيه بحُسْن رأيكم ، واجتماع مَلَئِكم على نصرنا ، والطلب بحقنا ، فسألتُ اللهَ أن يُحسِن لنا الصُّنْعَ ، وأن يُثيبَكم على ذلك أعظمَ الأجر ، وقد شَخَصْتُ إليكم من مكةَ يوم الثلاثاء لِثمانٍ مَضَيْن من ذى الحِجَّة يوم التَّرْوية[1] ، فإذا قَدِم عليكم رسولى فاكْمُشُوا[2] فى أمركم وجِدُّوا ، فإنى قادمٌ

(١) هو ثامن ذى الحجة ، سمى بذلك لأن الماء كان قليلا بمنى فكانوا يرتوون فيه من الماء لما بعد .
(٢) كمش فى أمره كفرح وكرم : جد .

عليكم فى أيامى هذه إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[١] » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٢٣)

٩٠ — كتاب ابن زياد إلى الحر بن يزيد

ولما بلغ ابنَ زياد إقبالُ الحسين ، بعث الحُصَيْن بن نُمَيْر التميمى ، فأمره أن ينزل القادِسِيَّة ، وأن يضع المَسَالِحَ ، وقدَّم الحُرَّ بن يزيد التميمى بين يديه فى ألف فارس من القادسية ، فيستقبل حسيناً ، وكان الحسين قد سبقه إلى ذى حُسُم ونزل به ، فسار إليه الحُرُّ حتى وقف مقابِلَه ، وكثر بينهما الكلام ، ثم سار الحسين فى أصحابه ، والحُرُّ يسايره ، فلم يزالوا يتسايرون حتى انتهوا إلى نِينَوَى ، فإذا رسولٌ مُقْبل من الكوفة ، فلما انتهى إليهم دفع إلى الحُرِّ كتابا من عبيد الله بن زياد ، فإذا فيه :

« أما بعدُ : فَجَعْجِعْ[٢] بالحسين حين يَبْلُغك كتابى ، ويَقْدَمُ عليك رسولى ، فلا تُنزِلْه إلا بالعَرَاء[٣] فى غير حِصْن ، وعلى غير ماء ، وقد أمرتُ رسولى أن يَلْزَمك ولا يفارقَك حتى يأتيَنى بإنفاذك أمْرِى ، والسلام » .

ونزل الحسين قرية تسمّى العَقْر ، وذلك فى الثانى من المحرم سنة ٦١ هـ .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٢)

٩١ — كتاب عمر بن سعد إلى ابن زياد

فلما كان من الغَدِ قدِم عليهم عمر بن سعد بن أبى وَقَّاص من الكوفة فى أربعة آلاف ، فبعث إلى الحسين عليه السلام رسولا ، فقال : ائته فسَلْه ما الذى جاء به ، وماذا يريد ؟

---

(١) وأقبل قيس بن مسهر إلى الكوفة بكتاب الحسين ، حتى إذا انتهى إلى القادسية ، أخذه الحصين بن نمير ، فبعث به إلى ابن زياد ، فقال له : اصعد القصر فسب الكذاب ابن الكذاب ، فصعد ثم قال : أيها الناس : إن هذا الحسين بن على خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله إليكم ، وقد فارقته بالحاجر فأجيبوه ، ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه ، واستغفر لعلى بن أبى طالب ، فأمر به ابن زياد أن يرمى به من فوق القصر فرمى به فتقطم فمات .

(٢) أى احبسه وضيق عليه ، والجعجعة : الحبس والتضييق ، وقيل معناه : أزعجه وأخرجه ، وجعجع به أيضاً : أناخ به وألزمه الجعجاع «مكان جعجع وجعجاع : ضيق خشن غليظ » .

(٣) العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشىء .

فأبلغه الرسول رسالة عمر إليه ، فقال له الحسين : كتب إلىّ أهل مِصْركم هذا أن أقدَم، فأمّا إذ كَرِهونى فأنا أنصرف عنهم ، فكتب عمر إلى ابن زياد :

«بسم الله الرحمن الرحيم،أما بعد فإنى حيث نزلت بالحسين بعثتُ إليه رسولى فسألته عما أقدمه وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب إلىّ أهلُ هذه البلاد، وأتتنى رسلهم فسألونى القدوم،ففعلت، فأمّا إذ كرهونى، فَبدَا لهم غيرُ ماأتتنى بهرسلهم،فأنا منصرف عنهم».

فلما قرئَ الكتاب على ابن زياد قال :

الآنَ إذ عَلِقَتْ مخالبُنـــا به يَرْجُو النجاة ولاتَ حِينَ مَناصِ [1]

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٤)

٩٢ — رد ابن زياد على عمر بن سعد

وكتب إلى عمر بن سعد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فقد بلغنى كتابُك ، وفهمت ما ذكرت ، فاعْرِض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه ، فإذا فعل ذلك رأَيْنا رَأْيَنَا والسلام » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٤)

٩٣ — كتاب آخر من ابن زياد إلى عمر

وجاء من عبيد الله بن زياد كتاب إلى عمر بن سعد :

« أما بعدُ : فحُلْ بين الحسين وأصحابه وبين الماء ، ولا يذوقوا منه قَطرة ، كما صُنِع بالتَّقِىّ الزَّكِىّ [2] المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان » .

فبعث عمر بن سعد عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة [3]، وحالوا بين حسين وأصحابه ، وبين الماء أن يُسْقَوا منه قطرةً ، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٤)

---

(١) أى فرار ، ناص نوصا ومناصا . (٢) أى الصالح من زكا يزكو زكاء : إذا صلح .
(٣) الشريعة والشرعة (بالكسر) والمشرعة : مورد الشاربة .

٩٤ — كتاب عمر بن سعد إلى ابن زياد

والتقى الحسين عليه السلام ، وعمر بن سعد مرارا ثلاثا أو أربعاً ، ثم كتب عمر إلى ابن زياد :

«أما بعدُ : فإن الله قد أطفأ النَّائرة[1]،وجَمَع الكلمة، وأصلح أمر الأمة،هذا حُسَيْنٌ قد أعطانى أن يرجع إلى المكان الذى منه أتى، أو أن نُسَيِّرَه إلى أى ثَغْر من ثغور المسلمين شِئْنا، فيكونَ رجلا من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، أو أن يأتى يزيدَ أمير المؤمنين، فيضعَ يده فى يده ، فيرى فيما بينه وبينه رأيَه ، وفى هذا لكم رضاً ،وللأمة صلاحٌ » .

فلما قرأ عبيد الله الكتابَ قال : هذا كتاب رجل ناصحٍ لأميره ، مُشفقٍ على قومه، نعم قدقبلْتُ، فقام إليه شَمِر بن ذى الجَوْشَن فثناه عن القبول[2] ، فدعاه عبيد الله فقال له : اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فلْيعرِض على الحسين وأصحابه النزولَ على حكمى ، فإن فعلوا فليبعث بهم إلىّ سِلما ، وإن هم أبَوا فليقاتلهم ، فإن فعل فاسمع له وأطع، وإن هو أبى فقاتلهم فأنت أمير الناس ، وثِب عليه فاضرب عنقه ، وابعث إلىّ برأسه .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٥)

٩٥ — كتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد

وكان كتاب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد :

« أما بعدُ : فإنى لم أَبعثْك إلى حسين لتَكُفَّ عنه ، ولا لِتُطاوِلَه ، ولا لتُمَنِّيَه السلامة والبقاء ، ولا لِتَقعُدَ له عندى شافعاً ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحُكم

(١) النائرة : العداوة والشحناء .

(٢) إذ قال له : أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك إلى جنبك ؟ والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده فى يدك ، ليكونن أولى بالقوة والعز ، ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فإن عاقبت فأنت ولى العقوبة، وإن غفرت كان ذلك لك ، فقال له ابن زياد : نعم ما رأيت . الرأى رأيك .

وَاستسلموا، فابعث بهم إلىّ سِلما ، وإن أبَوْا فازحَف إليهم حتى تقتلَهم وتُمثّلَ بهم ، فإنهم لذلك مستحقون، فإن قُتِل حسين فأَوْطِ الخيلَ صدرَه وظهره، فإنه عاق مُشَاقّ قاطع ظَلوم، وليس دَهْرِى[1] فى هذا أنْ يُضرَّ بعد الموت شيئاً، ولـكنْ علىَّ قولٌ[2] لو قد قتلتُه فعلتُ هذا به ، إن أنت مضيتَ لأمرنا فيه جزَيناك جزاءَ السامع المطيع ، وإن أبيتَ فاعتزِلْ عملَنا وجُنْدنا، وخَلِّ بين شَمِر بن ذى الجَوْشن وبين العسكر، فإنا قد أمرناه بأمرنا ، والسلام » .

فأقبل شمر بن ذى الجوشن بكتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد فقرأه عليه وقال له : أخبِرنى ما أنت صانع ؟ أتمضى لأمر أميرك وتقتل عدوه ؟ وإلَّا فخلِّ بينى وبين الجند قال : لا ، ولا كرامةَ لك وأنا أتولى ذلك ، قال فدونك فنهض إليه عشية الخميس لتسع مضَين من المحرم وزحف عليه، وعبّأ الحسين أصحابه، ونَشِب القتال بين الفريقين ؛ واستمات أصحاب الحسين فى القتال حتى فَنُوا، وقتل الحسين عليه السلام قتله سنان بن أنس لعنه الله - وكان قتله بالطَّفِّ[3] يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ ، وأمر ابن سعد أصحابه أن يُوطِئوا خيلهم الحسينَ ، فوَطِئوه بخيلهم ، ثم حُمل النساء ، ورأسُه إلى يزيد بن معاوية بدمشق .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٦)

٩٦ — كتاب عبد الله بن عمر إلى يزيد

وكان عُبَيد الله بن زياد قد أمر بالمختار بن أبى عُبَيد الثَّقفى أن يُسْجَن ، لما كان من مناصرته لمُسْلِم بن عَقيل ، فلم يزل فى السجن حتى قتل الحسين رضى الله عنه ، ثم إن

---

(١) يقال : مادهرى بكذا ومادهرى كذا : أى ماهمى وغايتى.

(٢) معناه : ولـكن لى رأى واعتقاد ، قال فى اللسان « ويتجوزون فى تسميتهم الاعتقادات والآراء قولا ، لأن الاعتقاد يخفى فلا يعرف إلا بالقول ، أو بما يقوم مقام القول من شاهد الحال، فلما كانت لاتظهر إلا بالقول سميت قولا إذ كانت سببا له ، وكان القول دليلا عليها كما يسمى الشىء باسم غيره إذا كان ملابسا له » وقال فى اللسان أيضا : قال ابن الأثير : « العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال ، وتطلقه على غير الكلام واللسان ، فتقول : قال بيده أى أخذ ، وقال برجله أى مشى ، وقال الشاعر :

* وقالت له العينان سمعا وطاعة * أى أومأت ، وقال بالماء على يده : أى قلب ، وقال بثوب : أى رفعه ، وكل ذلك على المجاز والاتساع » .

(٣) أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرية .

المختار بعث إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب بالمدينة ، يسأله أن يكتب له إلى يزيد ابن معاوية ، فيكتب إلى ابن زياد بتخْلية سبيله ، وعلمت صَفِيَّة أخت المختار بمحبس أخيها ، وهى تحت عبد الله بن عمر ، فبكت وجزِعت ، فلما رأى ذلك ابن عمر كتب إلى يزيد :

« أما بعد : فإن عُبَيد الله بن زياد حبس المختار وهو صِهرى ، وأنا أُحِبُّ أن يُعافَى ويُصْلَحَ من حاله ، فإن رأيتَ « رَحِمنا الله وإياك » أن تكتب إلى ابن زياد فتأمره بتخليته فعلتَ ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٥٩)

٩٧ — كتاب يزيد إلى ابن زياد

فلما قرأ يزيد كتاب ابن عمر ضحك ثم قال: يشفَّع أبو عبد الرحمن، وأهلُ ذلك هو، وكتب إلى ابن زياد :

«أما بعدُ : فَخَلِّ سبيل المختار بن أبى عبيد حين تنظر فى كتابى والسلام عليك » .

فدعا ابن زياد بالمختار فأخرجه ، ثم قال له قد أجَّلتك ثلاثًا ، فإن أدركتك بالكوفة بعدها ، فقد بَرِئت منك الذِّمة ، فخرج إلى الحجاز .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٥٩)

٩٨ — كتاب عبد الله بن الزبير إلى يزيد

وعزل يزيد بن معاوية عمرو بن سعيد بن العاص عن الحجاز[1] ، وولَّى الوليدَ ابن عُتْبة (سنة ٦١ هـ) فكتب عبد الله بن الزبير إلى يزيد :

---

(١) وذلك أنه لما قتل الحسين عليه السلام ، قام عبد الله بن الزبير فى أهل مكة وعظم مقتله ، فثار إليه أصحابه ، فقالوا له : أظهر بيعتك ، فإنه لم يبق أحد ، إذ هلك حسين ، ينازعك هذا الأمر — وقد كان يبايع الناس سرا ، ويظهر أنه عائذ بالبيت — فقال لهم : لا تعجلوا ، وعمرو بن سعيد بن العاص يومئذ عامل مكة ، وقد كان أشد شىء عليه وعلى أصحابه ، وكان مع شدته عليهم يدارى ويرفق ، ثم إن الوليد بن عقبة وناسا معه من بنى أمية قالوا ليزيد : لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث به إليك ، فسرح الوليد بن عقبة على الحجاز أميرا وعزل عمرو بن سعيد.

« إنك بعثتَ إلينا رجلا أخرَقَ لا يتَّجه لِأَمْرِ رُشْد ، ولا يَرْعَوى لعِظَة الحكيم ، ولو بعثت إلينا رجلا سَهْلَ الخلق ، ليِّن الكَنَف[1] ، رجوتُ أن يسهل من الأمور ما استوعَر[2] منها ، وأن يجتمع ماتفرَّق ، فانظر فى ذلك فإن فيه صَلاحَ خواصِّنا وعوامِّنا ، إن شاء الله ، والسلام » .

فعزل يزيدُ الوليدَ بن عُتبة ، وبعث عثمان بن محمد بن أبى سفيان .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٣)

٩٩ — كتاب يزيد إلى أهل المدينة

وكَرِه أهل المدينة خلافةَ يزيد ، وأجمعوا على الخِلاف عليه[3] ، فكتب إليه عثمان ابن محمد بن أبى سفيان بذلك ، فكتب يزيد إليهم :

«أما بعدُ فَإِنَّ ٱللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ » وإنى والله قد لَبِسْتكم فأخلقتكم[4] ، ورفعتكم على رأسى ، ثم على عينى ، ثم على فَمى ، ثم على بَطْنِى ، وأَيْمُ ٱللهِ لَئِن وضعتكم تحت قَدَمى لَأَطَأَنَّكمْ وَطْأَةً أُقِلّ بها عَدَدَكم ، وأتركُكم بها أحاديثَ ، تُنْتَسخُ أخبارُكم مع أخبار عاد وثمود » . (صبح الأعشى ٦ : ٣٩٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٥٦)

---

(١) الكنف : الجانب . (٢) ماصعب .

(٣) وذلك أن عثمان بن محمد أمير المدينة بعث إلى يزيدوفدا من أهل المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة الأنصارى ، فقدموا على يزيد ، فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم ، فلما قدم الوفد المدينة ، قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعيبه ، وقالوا : قد قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويضرب عنده بالقيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخراب (أى ذوى الخرب بالتحريك وبالضم وهو الفساد فى الدين) والفتيان ، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه ، فتابعهم الناس فخلعوه وأتوا عبدالله ابن حنظلة فبايعوه وولوه عليهم .

وذكروا أن عبد الله بن حنظلة لما وفد على يزيد كان معه ثمانية بنين له ؛ فأعطاه يزيدمائة ألف درهم ، وأعطى بنيه كل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم ، فلما قدم المدينة أتاه الناس فقالوا : ما وراءك ؟ قال : جئتكم من عند رجل والله لولم أجد إلا بنى هؤلاء لجاهدته بهم ، قالوا : قد بلغنا أنه أجداك وأعطاك وأكرمك ، قال : قد فعل ، وما قبلت ذلك منه إلا لأتقوى به عليه ، وحضض الناس فبايعوه .

(٤) أى أبليتكم ، خلق الثوب كنصر وكرم وسمع : بلى ، فهو خلق كسبب ، وأخلق بالألف لغة وأخلقه أبلاه ، والمراد زهدت فيكم .

١٠٠ — كتاب بنى أمية بالمدينة إلى يزيد

وخلع أهل المدينة يزيد، وبايعوا عبد الله بن حَنْظَلَة الأنصارى، ووثبوا على من كان بالمدينة من بنى أمية وحصروهم وأخافوهم، فكتب هؤلاء إلى يزيد:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعدُ: فإنا قد حُصِرنا فى دار مَرْوان بن الحكَم، ومُنِعْنا العِذَابَ[1]، ورُمينا بالجَبُوب[2]، فياغَوْثاه، ياغَوْثاه».

(تاريخ الطبرى ٧ : ٥)

١٠١ — كتاب مسلم بن عقبة إلى يزيد

فَوَجَّه يزيد مُسْلِمَ بن عُقْبةَ المُرِّى إلى المدينة، فقمع فتنتها، وأخمد ثورتها، ثم كتب إلى يزيد:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله يزيد بن معاوية أمير المؤمنين من مُسْلِم بن عُقْبَة، سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله، فإنى أحمد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو، أما بعدُ: تولَّى اللهُ حِفظَ أمير المؤمنين والكِفايةَ له، فإنى أُخْبِر أمير المؤمنين — أبقاه الله — أنِّى خرجت من دمَشق، ونحن على التَّعبئة التى رأى أميرُ المؤمنين يومَ فِراقنا بوَادى القُرَى[3]، فرجع معنا مَرْوانُ بن الحكم[4]، وكان لنا عَوْنا على عدونا، وأنَّا انتهينا إلى المدينة، فإذا أهلُها قد خَنْدَقُوا عليها بالخنادق، وأقاموا على

(١) العذب من الشراب والطعام: كل مستساغ والجمع عذاب وعذوب.

(٢) الجبوب: الأرض والتراب، وفى الأصل «بالحبوب» بالحاء وهو تصحيف.

(٣) وادى القرى: واد بين الشأم والمدينة، كثير القرى.

(٤) وذلك أن أهل المدينة حين بلغهم إقبال مسلم بن عقبة بالجيش، قالوا لمن معهم من بنى أمية — وكانوا قد حصروهم فى دار مروان —: والله لا نكف عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم، أو تعطونا عهد الله وميثاقه لاتبغونا غائلة، ولا تدلوا لنا على عورة، ولا تظاهروا علينا عدوا. فنكف عنكم ونخرجكم عنا، فأعطوهم عهد الله وميثاقه لانبغيكم غائلة، ولا ندل لكم على عورة، فأخرجوهم من المدينة، فخرجت بنو أمية بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادى القرى فرجع مروان معه.

أنقابها[١] الرجالَ بالسلاح، وأدخلوا ماشيتهم، وما يحتاجون لحصارهم سَنَةً فيما يقولون، وأنّا أعذَرْنا إليهم وأخبرناهم بعهد أمير المؤمنين، وما بَذل لهم فأبَوْا ، ففرّقتُ أصحابي على أفواه الخنادق ، فولّيت الحُصَيْنَ بن نُمَيْر ناحيةَ ذِناب ، وما والاها عليها الوالى ، ووجّهت حُبَيْش بن دَلَجَة إلى ناحية بنى سَلَمة ، ووجهتُ عبد الله بن مَسْعَدة إلى ناحية بَقِيع الغَرْقَد ، وكنتُ ومن معى من قوّاد أمير المؤمنين ورجاله فى وجوه بنى حارثة ، فأدخلنا الخيلَ عليهم حين ارتفع النهار من ناحية عبد الأشهل ، بطريق فتحه لنا رجلٌ منهم[٢] ، مما دعاه إليه مَرْوانُ بن الحكم إلى صَنيعِ أمير المؤمنين ، وقد تضمّن[٣] له عنه من قُرْبِ المكانِ ، وجَزِيل العطاء، وإيجاب الحقّ ، وقضاءِ الذّمام[٤]، وقد بعث به أميرُ المؤمنين ، وأرجو من الله عزّ وجل أن يُلهِمَ خليفته وعبدَه عِرْفانَ ما أولَى من الصُّنع ، وأسْدَى من الفضل ، وكان ـ أكرم الله أمير المؤمنين ـ من محمود مَقَامِ مَرْوان بن الحكم ، وجميل مَشْهَدِه ، وشديد بأسه ، وعظيم نِكايته لعدو أمير المؤمنين ، مالا إخَالُ ذلك ضائعاً عند إمام المسلمين ، وخليفة رب العالمين ، إن شاء الله .

وسلّم اللهُ رجال أمير المؤمنين ، فلم يُصَب أحد منهم بمكروه ، ولم يُقِم لهم عدوهم ساعةً من ساعات نهارهم، فما صلّيتُ الظهر ـ أصلح الله أمير المؤمنين ـ إلا فى مسجدهم بعد القتل الذريع[٥] ، والانتهاب العظيم ، وأوقعْنا بهم السيوفَ ، وقتلْنا من أشْرَف لنا منهم ، واتّبَعْنا مُدْبِرَهم ، وأجْهَزنا على جريحهم ، وانتهبناها ثلاثاً كما قال

---

(١) جمع نقب : وهو الثقب والثغر .

(٢) وذلك أن مروان جاء بنى حارثة فكلم رجلا منهم ورغبه فى الصنيعة ، وقال افتح لنا طريقا فأنا أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين ومتضمن لك عنه شطرما كان بذل لأهل المدينة من العطاء وتضعيفه، ففتح له طريقا ورغب فيما بذل له فاقتحمت الخيل .

(٣) أى التزمه وضمنه . (٤) العهد . (٥) السريع .

أميرالمؤمنين[١] ـ أعز الله نصره ـ وجعلتُ دُورَ بنى الشهيدالمظلوم عثمان بن عفان فى حِرْز وأمان ، فالحمد لله الذى شفَى صدرى من قتل أهل الخلاف القديم ، والنِّفاق العظيم ، فطالما عَتَوا ، وقديماً مَا طَغَوا ، وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وأنا فى منزل سعيد ابن العاص مُدْنَفا مريضاً ، ما أُرانى إلا لما بى ، فما كنت أُبالى متى مُتُّ بعد يومى هذا » .

وكتب لهلال المحرم سنة أربع وستين[٢] هـ . (الإمامة والسياسة ١ : ١٥٥)

---

(١) وكان يزيد حين ودعه قال له : ادع القوم ثلاثا ، فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم » فاذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثا فما فيها من مال أو رقة أو سلاح أو طعام فهو للجند ، فاذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس ، ولما دخل مسلم المدينة دعا أهلها إلى البيعة على أنهم خول ليزيد يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم ماشاء ، وكانت هذه الوقعة تسمى وقعة الحرة بالفتح لأن مسلما حاصر المدينة من جهة الحرة « موضع بظاهر المدينة » ووقعت فى ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ ، قيل وكان الرجل من أهل المدينة بعد ذلك إذ زوج ابنته لايضمن بكارتها ويقول لعلها افتضت فى وقعة الحرة .

(٢) فى الأصل سنة ثلاث وستين وهو خطأ ، لأن وقعة الحرة كانت فى ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ لليلتين بقيتا منه .

بعد موت يزيد

الخوارج وابن الزبير

١٠٢ — كتاب نجدة بن عامر إلى نافع بن الأزرق

وسار الخوارج بعد أن نصروا ابن الزبير بمكة إلى الأهواز[١]، وقد أمَّروا عليهم نافع ابن الأزرق الحنفي، ثم شجر بينهم الخلاف، فنفر عنه جماعة منهم بزعامة نجدة بن عامر[٢].

---

(١) كور بين البصرة وفارس.

(٢) لما فرغ مسلم بن عقبة من قتال أهل المدينة، شخص إلى مكة لحرب عبد الله بن الزبير — وكان قد امتنع على يزيد، ودعا إلى نفسه، وبايعه أهل مكة والحجاز — وعاجلت المنية مسلما فى الطريق، وكان قد استخلف على الجيش قبل موته حصين بن نمير السكونى، وقدم حصين مكة فحاصرها وقذف البيت بالمجانيق « جمع منجنيق بفتح الميم وتكسر: آلة ترمى بها الحجارة » وحرقه بالنار، وبينا هو يقاتل ابن الزبير إذ أتى نعى يزيد، فقفل بالجند إلى الشام.

وكان الخوارج حين علموا بمسير جيش الشام إلى مكة، خرجوا إليها ليمنعوا الحرم منهم، فسر ابن الزبير بمقدمهم ونبأهم أنه على رأيهم، فقاتلوا معه أهل الشأم حتى انصرفوا عن مكة، ثم ناظروه فلم يرقهم قوله، فتفرقوا عنه وصاروا إلى البصرة، ونظروا فى أمورهم فأمروا عليهم نافع بن الأزرق الحنفى، وأجمع القوم على الخروج فمضى بهم نافع إلى الأهواز سنة ٦٤ هـ وطردوا عمال السلطان عنها وجبوا الفىء.

ولم يزالوا على رأى واحد، حتى جاء مولى لبنى هاشم إلى نافع، فقال له إن أطفال المشركين فى النار، وإن من خالفنا مشرك، فدماء هؤلاء الأطفال لنا حلال، فقال له نافع: كفرت، قال له: إن لم آتك بهذا من كتاب الله فاقتلنى، قال نوح: « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » فهذا أمر الكافرين وأمر أطفالهم، فشهد نافع أنهم جميعا فى النار ورأى قتلهم، وقال: الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه، ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم، ومتى جاء منهم جاء فعلينا أن نمتحنه، وهم ككفار العرب لا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، والقعد بمنزلتهم، والتقية لا تحل « والتقية: هى المحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء، إذا كانت العداوة بسبب الدين » فإن الله تعالى يقول: « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً » وقال عز وجل فيمن كان =

ومضَوا إلى اليمامة[١] ، وكتب نجدة وهو باليمامة إلى نافع :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإنَّ عَهْدِي بك وأنت لليتيم كالأب الرَّحيم ، وللضعيف كالأخِ البَرِّ ، لا تأخُذُك فى الله لَوْمَةُ لائمٍ ، ولا ترَى مَعُونَةَ ظالم ، كذلك كنت أنت وأصحابُك ، أَمَا تَذْكُرُ قولك : « لولا أنى أعْلم أنَّ للإمام العادلِ مِثْلَ أجْرِ جميع رَعِيَّتِه ، ماتولَّيْتُ أمرَ رجلين من المسلمين » ، فلما شَرَيْتَ[٢] نفسك فى طاعة ربك ابتغاءَ رِضْوانه ، وأصَبْتَ من الحق فَصَّه[٣] ، وركِبتَ مُرَّه ، تجرَّد لك الشيطانُ ، ولم يكن أحدٌ أثقلَ عليه وَطْأَةً منك ومن أصحابك ، فاستمالك واستهواك ، واستغواك وأغواك ، فغَوَيْتَ[٤] فأكفرتَ الذين عَذَرهم اللهُ فى كتابه من

= على خلافهم « يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ » فنفر جماعة من الخوارج عنه منهم نجدة بن عامر واحتج عليه بقول الله عز وجل: « إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً » وبقوله عزوجل « وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ » فالقعد منا ، والجهاد إذا أمكن أفضل ، لقوله عز وجل : « وَفَضَّلَ ٱللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً » ثم مضى نجدة بأصحابه إلى اليمامة .

(١) من بلاد نجد .

(٢) أى بعت ، ويسمى الخوارج أنفسهم « الشراة » جمع شار كقاص وقضاة من شرى يشرى كرمى : بمعنى باع ، لقولهم شرينا أنفسنا فى طاعة الله : أى بعناها ووهبناها ، أخذا من قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ ٱللَّهِ » أو من شرى بمعنى اشترى لقولهم : شرينا الآخرة بالدنيا أى اشتريناها . قال عمران بن حطان :

إنى أدين بما دان الشراة به ... يوم النخيلة عند الجوسق الخرب

« والجوسق كجعفر : القصر » يشير إلى قيام المستورد الخارجى بالنخيلة بعد وقعة النهروان . وقال الطرماح بن حكيم :

لله در الشراة إنهم ... إذا الكرى مال بالطلا أرقوا

« والطلا : الأعناق أو أصولها جمع طلية أو طلاة ، وكلها بالضم » وقال أيضا :

والنار لم ينج من روعاتها أحد ... إلا المنيب بقلب المخلص الشارى

وقال معاذ بن جوين :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ ... شرى نفسه لله أن يترحلا

(٣) فص الأمر : مفصله . (٤) غوى بالفتح غيا وغوى بالكسر غواية .

قَعدِ[١] المسلمين وضَعفتهم، فقال جل ثناؤه ، وقَوْلُه الحق ، ووَعْدُه الصِّدق : « لَيْسَ عَلَى الضُّعفَاءِ وَلَا عَلَى المَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلّهِ وَرَسُولِهِ » ثم سَمَّاهم أحسنَ الأسماء ، فقال : « مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ[٢] » .

ثم استحللْتَ قتلَ الأطفال ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم ، وقال الله عزّ ذِكْرُه : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى »[٣] وقال سبحانه فى القَعَدِ خيراً ، وفضَّل الله من جاهد عليهم ، ولا تَدْفَع منزِلةُ أكثر الناس عملًا منزلةَ مَن هو دونه[٤] ، أوَما سَمِعْتَ قوله عز وجل : « لَا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ[٥] » فجعلهم الله من المؤمنين ، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم .

ورأيتَ ألّا تُؤَدِّيَ الأمانة إلى من خالَفَك ، والله يأمر أن تُؤَدَّى الأماناتُ إلى أهلها[٦] ، فاتّق الله وانظر لنفسك ، وَاتَّقِ يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا فإن الله عز ذكره بالمِرْصاد ، وحُكْمه العَدل ، وقَوْلُه الفَصْلُ ، والسلام » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٧٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٣٨٢ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٤)

---

(١) القعد : اسم جمع قاعد كخدم وخادم ، ويروى القعدة وهو جمع قاعد ككتبة وكاتب، ورجل ضعيف وضعوف وضعفان والجمع ضعاف وضعفاء وضعفة (بالتحريك) وضعفى (كقتلى) وضعا فى بالفتح .

(٢) أى ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل ، وإنما وضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على أنهم منخرطون فى سلك المحسنين غير معاتبين لذلك .

(٣) وزر يزر كوعد : أثم ، والوزر : الإثم ، أى ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى .

(٤) وفى رواية ابن أبى الحديد : « فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يرفع منزلة من هو دون المجاهدين » والعقد الفريد: « ولا يرفع أكثر الناس عملا منزلة عمن هو دونه إلا إذا اشتر كا فى أصل» .

(٥) أى من عمى أو زمانة أو غيرها ، وتمام الآية : « وَالمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللّهُ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ (أى لضرر) دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللّهُ الحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللّهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ (أى لغير ضرر) أَجْرًا عَظِيمًا » .

(٦) قال تعالى : « إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » .

١٠٣ — رد نافع على نجدة

فكتب إليه نافع :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فقد أتانى كتابُك تَعظُنى فيه وتُذكرنى ، وَتنصَح لى وَتزْجُرنى ، وتَصِف ما كنتُ عليه من الحق ، وما كنتُ أُوثِرُه من الصواب ، وأنا أسألُ الله جَلَّ وعَزَّ أن يجعلنى من « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » وَعِبْتَ علىَّ مادِنْتُ به من إكْفَار الْقَعَدِ وَقَتْلِ الأطفالِ واستحلالِ الأمانة، فسأفسِّر لك لِمَ ذلك إن شاء الله :

أما هؤلاء القَعَد : فليسوا كما ذكرتَ مِمَّن كان بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا بمكة مَقْهورين محصورين ، لايجدون إلى الهَرَب سبيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقًا ، وهؤلاء قد فَقِهُوا فى الدين ، وَقرءوا القرآن ، والطريق لهم نَهْجٌ واضح ، وقد عرَفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مِثْلَهُم، إذْ «قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الْأَرْضِ » فقيل لهم « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » وقال « فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ[(١)] » وقال « وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ[(٢)] » فخبَّر بتعذيرهم وأنهم كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وقال : « سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » فانظر إلى أسمائهم وسِماتهم[(٣)] » .

---

(١) أى فرحوا بقعودهم عن الغزو بعد رسول الله — وذلك فى غزوة تبوك وتمام الآية الكريمة: « وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ » .

(٢) يعنى أسدا وغطفان ، استأذنوا فى التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال ، وقيل هم رهط عامر بن الطفيل ، قالوا : إن غزونا معك أغارت طيئ على أهالينا ومواشينا . والمعذر : إما من عذر فى الأمر إذا قصر فيه موهما أن له عذرا ولا عذر له ، فالمعنى : المقصرون الذين لاعذر لهم — وهذا مايعنيه نافع فى كتابه — وإما من اعتذر فأصله المعتذرون ، ألقيت فتحة التاء على العين وأبدل منها ذال وأدغمت فى الذال التى بعدها ، ومعناه : الذين يعتذرون ، كان لهم عذر أو لم يكن ، وقرأ ابن عباس المعذرون بسكون العين — وهم الذين لهم العذر — وكان يقول: والله لكذا أنزلت، وقال: لعن الله المعذرين (بالتشديد).

(٣) جمع سمة ، وهى العلامة .

وأمّا أمْرُ الأطفال . فإن نبى الله نوحًا عليه السلام كان أعْلَمَ بالله يا نجدةُ منى ومنك فقال . « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّارًا » فسماهم بالكفر وهم أطفال وقبل أن يُولدوا ، فكيف كان ذلك فى قوم نوح ، ولا نكون نقولهُ فى قومنا ؟ والله يقول : « أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ[2] » ، وهؤلاء كمشركى العرب لاتُقْبَل منهم جِزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأما استحلال أمانات من خالفنا ، فإن آلله عز وجل أَحَلَّ لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم ، فدماؤهم حَلَالٌ طِلْق[3] ، وأموالهم فَئْء للمسلمين ، فاتق الله وراجع نفسك ، فإنه لا عُذْرَ لك إلا بالتوبة ، ولن يَسَعَك خِذلانُنا ، والقعودُ عنا ، وتَرْكُ ما نَهَجناه لك من طريقتنا ومقالتنا ، والسلام على من أقَرَّ بالحق وعَمِل به » .

(الكامل ٢ : ١٧٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٨٢ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٤)

١٠٤ — كتاب ابن عباس إلى نجدة بن عامر

وكتب نجدة بن عامر إلى ابن عباس يسأله عن سَهْم ذوى القربى : لمن هو ؟ فكتب إليه ابن عباس :

« كتبت إلىّ تسألنى عن سهم ذوى القربى لمن هو ، وهو لنا ، وإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعانا إلى أن نُنكح منه أَيِّمنا[4] ، وَنَقْضِىَ منه مَغْرَمنا ، ونُخدم منه عائلتنا، فأبينا إلا أن يسلّمه لنا : وأبى ذلك علينا » . (كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٢٤)

---

(١) أحدا . (٢) الزبر جمع زبور كصبور : وهو الكتاب — فعول بمعنى مفعول : أى أم نزل لكم فى الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو فى أمان من عذاب الله ؟

(٣) طلق : حلال ، فهو تأكيد على حد قولهم : قفل راجعا .

(٤) الأيم : العزب رجلا كان أو امرأة سواء تزوج من قبل أو لم يتزوج .

١٠٥ — كتاب نافع إلى خوارج البصرة

وكتب نافع إلى مَن بالبصرة من المُحَكِّمة[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : « فَإِنَّ ٱللهَ اصْطَفَى لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، والله إنكم لتعلمون أنَّ الشريعة واحدة ، والدين واحد ، فَفِيمَ المُقَامُ بين أظهرِ الكفار ، تَرَوْنَ الظُّلم ليلاً ونهاراً ؟ وقد ندَبكم الله إلى الجهاد ، فقال : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً » ولم يجعل لكم فى التخلُّف عذراً فى حال مَن الأحوال فقال : « انْفِرُوا[2] خِفَافًا وَثِقَالاً » وإنما عَذَر الضُّعفاء والمَرْضى والذين لا يَجِدُونَ ما ينفقون[3] ، ومن كانت إقامته لعِلَّة ، ثم فضَّل عليهم مع ذلك المُجَاهِدِينَ فقال :

---

(١) يسمى الخوارج « المحكمة » لأنهم أنكروا أمر الحكمين ، وقالوا : لا حكم إلا الله ، ولا حكم إلا لله وكأن هذه التسمية على السلب ، لأنهم ينفون الحكم وينكرون التحكيم ، ونظير ذلك تسمية جماعة القدرية (بالتحريك) بهذا الاسم ، مع أن الأساس الذى قام عليه مذهبهم هو «لاقدر» فهم ينكرون قدر الله ، ويغالون فى إثبات القدرة للإنسان ، وأنه حر الإرادة فى أعماله . وكان الأولى أن تسمى جماعة المجبرة بالقدرية لإسنادهم جميع أفعال العبد إلى القدر .

وذكروا أن أول من حكم ولفظ بالحكومة رجل يقال له الحجاج بن عبد الله ويعرف بالبرك — وهو أحد الخوارج الثلاثة الذين اتفقوا على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص — فإنه لما سمع بذكر الحكمين قال : أيحكم فى دين الله ؟ لا حكم إلا لله ، فسمعه سامع فقال : طعن والله فأنفذ ، وقيل إن أول من حكم عروة بن أدية ، وأول سيف سل من سيوف الخوارج سيفه . وذلك أنه لما كتبت صحيفة التحكيم بين على ومعاوية خرج الأشعث بن قيس الكندى بها يقرؤها على الناس ، حتى مر على طائفة من بنى تميم فيهم عروة ، فقرأها عليهم ، فقال عروة تحكمون فى أمر الله عز وجل الرجال ؟ لا حكم إلا لله ، ماهذه الدنية يا أشعث وما هذا التحكيم ؟ ثم شهر عليه السيف والأشعث مول فضرب به عجز البغلة فشبت البغلة ، فنفرت اليمانية وكانوا جل أصحاب على ، فلما رأى ذلك الأحنف بن قيس قصد هو وأصحابه إلى الأشعث فسألوه الصفح فقبل وصفح .

(٢) انفروا : اخرجوا ، وتمام الآية الكريمة : « وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

(٣) يشير إلى قوله تعالى « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ، وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ » .

« لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ » فلا تغترُّوا ، ولا تطمئنوا إلى الدنيا ، فإنها غرّارة مكّارة ، لذّتها نافدة[1] ، ونعمتها بائدة ، حُفّت بالشهوات اغترارا ، أظهرت حَبْرة[2] ، وأضمرت عَبْرةً ، فليس آكل منها أُكْلة[3] تسرّه ، ولا شاربٌ شُرْبة تؤنقه[4] ، إلاّ دنا بها درجةً إلى أجله ، وتباعدَ بها مسافةً من أمله ، وإنما جعلها الله داراً لمن تزوَّد منها إلى النعيم المقيم ، والعيش السليم ، فلن يرضى بها حازمٌ داراً ، ولا حليم[5] بها قرارًا ، فاتقوا الله « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » والسلام على من اتبع الهدى » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٧٩ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ ، ص ٣٨٢)

١٠٦ — كتاب نافع إلى عبد الله بن الزبير

وكتب نافع إلى عبد الله بن الزبير يدعوه إلى أمره :

« أما بعدُ : فإنى أحذِّرك من الله « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نفسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ » فاتّقِ اللهَ ربَّك وَلاَ تتوَلَّ الظالمين ، فإن الله يقول : « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » وقال « لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فى شَىْءٍ » وقد حضرتَ عثمانَ يوم قُتِلَ ، فلعمرى لئن كان قُتِلَ مظلومًا لقد كفر قاتِلُوه وخاذِلوه ولئن كان قاتلُوه مُهتدين — وإنهم لَمُهتدون — لقد كفرَ من يتولاه وينصُره ويَعضُده ، ولقد علمتَ أن أباك وطلحةَ وعليًّا كانوا أشد الناس عليه ، وكانوا فى أمره من بين قاتلٍ وخاذلٍ ، وأنت تتولَّى أباك وطلحة

(١) ذاهبة فانية (٢) الحبرة : السرور كالحبور ، وفى الأصل « حيرة » وهو تصحيف .

(٣) الأكلة بالفتح : المرة ، وبالضم : اللقمة والطعمة . والشربة بالفتح : المرة ، وبالضم : مقدار الرى من الماء كالحسوة .

(٤) آنقه الشيء إيناقا : أعجبه ، وفى رواية « توافقه » .

(٥) حليم : عاقل ، من الحلم بالكسر وهو العقل ، وفى رواية « حكيم » .

وعثمان ، وكيفَ ولايةُ قاتلٍ مُتعمِّدٍ ومقتولٍ فى دين واحد ؟ ولقدمَلَكَ علىٌّ بَعْدَه ، فنَفى الشُّبُهَاتِ ، وأقام الحدودَ ، وأجرى الأحكامَ مَجَارِيَهَا ، وأعطى الأمور حقائقَها فيما عليه وله ، فبايعه أبوك وطلحةُ ، ثم خَلَعاه ظَالِمَيْنِ له ، وإن القول فيك وفيهما لَكَما قال ابن عباس : « إن يكن علىٌّ فى وقت معصيتكم ومُحاربتكم له كان مؤمناً ، أَمَا لقد كَفَرتم بقتال المؤمنين وأئمة العَدْل ، ولئن كان كافراً كما زعمتم ، وفى الحكم جائراً ، لقد بُؤْتُم بغضب من الله لِفراركم من الزَّحْفْ » ولقد كنتَ له عَدُوّا ، ولسيرته عائباً ، فكيف تولَّيْته بعد موته ؟ » . (الكامل للمبرد ٢ : ١٧٩ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٤)

١٠٧ — كتاب من عبد الله بن الزبير إلى المهلب بن أبى صفرة

واشتدت شوكة الخوارج الأزارقة بالأهواز ، وخشِى أهل البصرة أن يجتاحوا مِصْرَهم ، فهبُّوا لمدافعتهم ، ونَشِبت بين الفريقين عِدَّةُ وَقَعات[1] .

---

(١) لما غلب نافع على بلاد الأهواز أقام بها يعترض الناس ويقتل الأطفال ، فإذا أجيب إلى المقالة جبى الخراج ، وفشا عماله فى السواد ، فارتاع لذلك أهل البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس فشكوا ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان ، وسيرتهم ما ترى ، قال الأحنف : إن فعلهم فى مصركم إن ظفروا به كفعلهم فى سوادكم ، فجدوا فى جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه عشرة آلاف فأتى عبد الله بن الحرث بن نوفل ابن الحرث بن عبد المطلب (وهو ببة) أمير البصرة من قبل ابن الزبير فسأله أن يؤمر عليهم ، فاختار لهم مسلم بن عنيس فأمره عليهم ، والتقى بنافع فى «دولاب» فاقتتلوا قتالا شديدا ، وقتل فى المعركة ابن عنيس ونافع . ثم عزل ابن الزبير عبد الله بن الحرث عن البصرة وولاها عمر ابن عبيد الله بن معمر ، وولى عمر أخاه عثمان بن عبيد الله محاربة الأزارقة . فلما عبروا إليهم دجيلا نهض إليهم الخوارج — وذلك قبيل الظهر — فقال عثمان لحارثة بن بدر : أما الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة : حسبك بهؤلاء ، فقال : لاجرم ، والله لا أتغدى حتى أناجزهم ، فقال له حارثة : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتعسف فأبق على نفسك وجندك ، فقال : أبيتم أهل العراق إلا جبنا . وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قتيلا ، وانهزم الناس .

وعزل ابن الزبير عمر بن عبيد الله وولى الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة — وهو أخو عمر بن عبد الله ابن أبى ربيعة المخزومى الشاعر — وأقام حارثة بن بدر يدافع الخوارج فهزموه ، فهرب يركض حتى أتى دجيلا ، فجلس فى سفينة واتبعه جماعة من أصحابه ، وأتاه رجل من بنى تميم وعليه سلاحه ، والخوارج وراءه ، فصاح به : ياحارث ليس مثلى ضيع ، فقال للملاح : قرب ، فقرب إلى جرف ، فطفر بسلاحه فى السفينة ، فساخت بالقوم جميعا ، وماتوا غرقا ، وتوجه الخوارج نحو البصرة ، فضج الناس إلى الأحنف ، فأتى الحارث بن عبد الله فقال : أصلح الله الأمير ، إن هذا العدو قد غلبنا على سوادنا وفيئنا ، فلم يبق إلا أن يحصرنا فى بلدنا حتى نموت هزلا ، قال فسموا رجلا ، فقال الأحنف : ما أرى لها إلا المهلب بن أبى صفرة ، فولاه قتالهم .

ثم أجمع رأى القوم على أنه ليس لهذا الأمر إلا المُهَلَّبُ بن أبى صُفْرة فكلموه أن يتولى قتال الخوارج — وكان ابن الزبير قد كتب له عهداً على خُراسان — فقال لهم : لا أفعل ، هذا عهد أمير المؤمنين معى على خراسان ، فلم أكن لِأَدَعَ عهده وأمره ، فدعاه أمير البصرة الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المعروف بالقُبَاع ، فكلمه فى ذلك ، فقال له مثل ذلك ، فاتفق رأى الأمير ورأى أهل البصرة على أن كتبوا على لسان ابن الزبير :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن الزبير إلى المهلب بن أبى صفرة ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن الحارث بن عبد الله كتب إلىّ أن الأزارقة المارقة أصابوا جُنداً للمسلمين كان عددهم كثيراً ، وأشرافهم كثيراً ، وذكر أنهم قد أقبلوا نحو البصرة ، وقد كنت وجّهتُك إلى خراسان ، وكتبت لك عليها عَهْدًا ، وقد رأيت حيثُ ذُكِر أمرُ هذه الخوارج أن تكون أنت تَلِى قِتَالَهم ، فقد رجوت أن يكون ميموناً طائرُك ، مُبارَكاً على أهل مصرك ، والأجر فى ذلك أفضلُ من المسير إلى خُراسان ، فسِرْ إليهم راشداً ، فقاتل عدو الله وعدوك ، ودافع عن حقك وحقوق أهل مصرك ، فإنه لن يفوتك من سلطاننا خراسان ولا غير خراسان إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٨٦)

١٠٨ — كتاب المهلب إلى الحارث بن عبد الله

ونهض المهلب لقتال الخوارج ، ومضى يَؤُمُّ سُوق الأهواز[1] فدخلها ، وكتب بذلك إلى الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة أمير البصرة كتابا يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإنا منذ خرجنا نَؤُمُّ هذا العدو ، فى نِعَم من الله متصلةٍ علينا ، ونعمةٍ من الله متتابعةٍ عليهم ، نُقْدِم ويُحْجِمون ، ونَحُلّ ويرتحلون ،

---

(١) مدينة بالأهواز .

إلى أن حَلَلْنا سُوق الأهواز ، والحمد لله رب العالمين ، الذى من عنده النصر وهو العزيز الحكيم » .

١٠٩ — رد الحارث بن عبد الله عليه

فكتب إليه الحارث :

« هنيئاً لك « أخا الأَزْدِ[1] » الشَّرفُ فى الدنيا ، والذُّخْرُ فى الآخرة إن شاءالله» .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٨٩)

١١٠ — كتاب المهلب إلى الحارث بن عبد الله

وكانت وقعة سِلَّى وسِلَّبْرَى[2] من أشد الوَقَعات بين المهلب والخوارج ، دارت عليهم فيها الدائرة ، وقُتل أميرهم عُبَيد الله بن بشير بن الماحوز .

وكتب المُهَلَّب بن أبى صُفرة إلى الحارث بن عبد الله بعد الوقعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فإنا لَقِينا الأزارِقَةَ المارِقَةَ بحَدٍّ وجِدٍّ ، فكانت فى الناس جَوْلَةٌ ، ثم ثابَ[3] أهلُ الحِفَاظ والصَّبْر بِنِيَّاتٍ صادقة ، وأبْدان شِدادٍ ، وسُيوف حِدَادٍ[4] ، فأعقَبَ اللهُ خيرَ عاقِبَةٍ ، وجاوَزَ بالنِّعمة مِقدارَ الأَمَل ، فصاروا دَرِيئةَ[5] رماحنا ، وضَرائِبَ[6] سيوفنا ، وقتل الله أَميرَهم ابنَ الماحوز ، وأرجو أن يكون آخرُ هذه النعمة كأوّلها ، والسلام » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٥)

---

(١) وقد استجفاه المهلب لمخاطبته إياه بقوله : « أخا الأزد » فقال لأصحابه : ما أجفى أهل الحجاز ! أما ترونه يعرف اسمى واسم أبى وكنيتى ؟

(٢) مجموع اللفظين موضع واحد بالأهواز قرب جنديسابور . (٣) رجع .

(٤) وكان الخوارج قد نادى مناديهم فى أثناء المعركة ألا إن المهلب قد قتل ، فأقبل المهلب يركض بين الصفين وهو يصيح : أنا المهلب ، فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنوا أن أميرهم قد قتل

(٥) الدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرمى عليها .

(٦) ضرائب : جمع ضريبة ، وهى ما يضرب بالسيف .

١١١ — رد الحارث بن عبد الله على المهلب

فكتب إليه الحارث :

« قد قرأت كتابك يا أخا الأَزْد ، فرأيتُك قد وهب الله لك شَرَفَ الدنيا وعِزَّها ، وذَخَر لك ثواب الآخرة إن شاء الله وأَجْرَها ، ورأيتُك أوثَقَ حُصُونِ المسلمين ، وهَادَّ أركانِ المشرِكين ، وأخَا السِّياسة ، وذَا الرِّياسة ، فاستدِمِ الله بِشُكْرِه ، يُتْمِمْ عليك نِعَمَه والسلام[1] » . (الكامل للمبرد ٢ : ١٩٦)

صورة أخرى لكتاب المهلب إلى الحارث

وروى الطبرى كتاب المهلب السابق إلى الحارث بن عبد الله بصورة أخرى قال :

ولما ظهر المهلَّبُ على الأزارقة « فى وقعة سِلَّى وَسِلِّبْرَى » كتب إلى الحارث بن عبد الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، للأمير الحارث بن عبد الله من المهلَّب بن أبى صُفْرة ، سلام عليك : فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذى نَصر أمير المؤمنين ، وهزَم الفاسقين ، وأنزل بهم نِقْمته ، وقتلَهم كُلَّ قِتْلةٍ ، وشرَّدهم كل مُشرَّد .

أُخبرُ الأميرَ « أصلحه الله » أَنَّا لقِينا الأَزَارقةَ بأرض من أرض الأهواز يقال لها « سِلَّى وسِلِّبْرَى » فزحَفْنا إليهم ، ثم ناهضناهم ، فاقتتلْنا كأشدِّ القتال مَلِيًّا[2] من النهار ، ثم إن كتائبَ الأزارقة اجتمع بعضُها إلى بعض ، ثم حَملوا على طائفةٍ من

---

(١) وكتب إليه أهل البصرة يهنئونه ولم يكتب إليه الأحنف ولكن قال : اقرءوا عليه السلام وقولوا له : أنالك على ما فارقتك عليه ، فلم يزل يقرأ الكتب ويلتمس فى أضعافها كتاب الأحنف ، فلما لم يره قال لأصحابه : أما كتب إلينا ؟ فقال له الرسول : حملنى إليك رسالة وأبلغه ، فقال : هذه أحب إلينا من هذه الكتب .

(٢) طويلا .

المسلمين فهزموهم ، وكانت فى المسلمين جَوْلَةٌ قد كنتُ أشفقتُ أن تكون هى إلاَّ صِرَّى[١] منهم ، فلما رأيت ذلك عَمَدْتُ إلى مكانٍ يَفَاعٍ[٢] فعلوته ، ثم دعوتُ إلىَّ عَشِيرتى خاصّةً والمسلمين عامة ، فثاب إلىَّ أقوام شَرَوا أنفسهم ابتغاءَ مَرْضاةِ الله ، من أهل الدين والصبر والصدق والوفاء ، فقصَدْتُ بهم إلى عَسْكر القوم ، وفيه جماعتُهم وحَدُّهم ، وأميرُهم قد أطاف به أُولُو فَضْلِهم فِيهِمْ وذوو النِّيات[٣] منهم ، فاقتتلْنا ساعةً ، رمياً بالنَّبل وطَعْناً بالرماح ، ثم خَلَص الفريقان إلى السيوف ، فكان الجِلادُ بها ساعةً من النهار مُبَالطةً[٤] ومُبالدةً ، ثم إن الله عز وجل أنزل نصره على المؤمنين ، وضَرَب وجوه الكافرين ، ونزل طاغِيَتُهم فى رجال كثير من حُمَاتهم وذوى نيَّاتهم ، فقتلهم الله فى المعركة ، ثم أتبعتُ الخيلَ شُرَّادَهم ، فقُتِلُوا فى الطريق والإخاذِ[٥] والقَرِيِّ ، والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله » .

فلما أتى هذا الكتاب الحارث بن عبد الله بعث به إلى ابن الزبير فقرئ على الناس بمكة.

(تاريخ الطبرى ٧ : ٨٩)

صورة أخرى لرد الحارث على المهلب

وروى الطبرى أيضاً رد الحارث بن عبد الله على كتاب المهلب بصورة أخرى، وهى:

وكتب الحارث بن أبى ربيعة إلى المهلب :

« أما بعد : فقد بلغنى كتابُك تذكر فيه نَصْرَ الله إياك وظَفَرَ المسلمين ، فهنيئاً لك يا أخا الأزد بشرف الدنيا وعِزِّها ، وثواب الآخرة ، وفضلها ، والسلام عليك ورحمة الله » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٨٩)

---

(١) أصر على الأمر : عزم ، وهو منى صرى ، اى عزيمة قاطعة وجد .

(٢) اليفاع واليفع بالتحريك : التل .

(٣) أى وذوو النيات الصادقة منهم ، وربما كان الأصل « وذوو الثبات منهم » .

(٤) المبالطة والتبالط : التجالد بالسيوف ، وكذا المبالدة : المبالطة بالسيوف والعصى .

(٥) الإخاذ : الغدران جمع إخاذة ، والقرى : مسيل الماء من التلاع .

١١٢ — كتاب مصعب بن الزبير إلى المغيرة بن المهلب

ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج فى ولاية الحارث بن عبد الله حتى عزل الحارث ووَلِىَ مُصْعَب بن الزبير، فكتب إليه: أنِ اقْدَم علىّ واستخلِفْ ابنك المُغيرة، ففعل ثم مضى إلى مُصْعَب فولاَّه المَوْصِلَ.

وكتب مصعب إلى المغيرة بن المهلب بولايته: كتب إليه:

«إنك إن لم تكن كأبيك فإنك كافٍ لما وَلَّيْتُك، فشمِّر واتَّزِر[1]، وجِدّ واجتهد». (الكامل للمبرد ٢ : ١٩٨)

١١٣ — كتاب عمر بن عبيد الله إلى مصعب بن الزبير

وولَّى مُصْعَبُ بن الزبير عُمَرَ بن عُبَيد الله بن مَعْمرٍ قتال الخوارج بعد المهلب، فزحف إليهم فقاتلهم قتالا شديداً قُتِل فيه ابنه عُبَيد الله، فحمل عليهم حَمْلة هزمهم فيها، وانتهبهم، ثم كتب إلى مصعب:

«أما بعد: فإنى قد لَقِيت الأزارقة، فرزَقَ اللهُ عُبَيد الله بن عمر الشهادة، ووهب له السعادةَ، ورزقَنا عليهم الظَّفَر، فتفرّقوا شَذَرَ مَذَرَ[2]، وبلغتنى عنهم عودةٌ فيَمَّمْتُهم[3]، وبالله أستعين، وعليه أتوكل». (الكامل للمبرد ٢ : ١٩٩)

---

(١) يقال: ائتزر بالإزار وتأزر به: أى لبسه، واتزر أيضا وأصله ائتزر. أدغمت الهمزة فى التاء والمعنى استعد.

(٢) تفرقوا شذر مذر بفتح الشين والميم وكسرهما: ذهبوا فى كل وجه.

(٣) أى قصت إليهم.

طلب التوابين بدم الحسين
رضى الله عنه

وفى سنة ٦٥ هـ تحركت الشّيعة بالكوفة ، واتّعدوا الاجتماعَ بالنُّخيلة للمسير إلى أهل الشأم ، للطلب بدم الحسين بن على رضى الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مَقْتله تلاقوا بالتلاوُم والتندُّم ، ورأوا أنهم قد أخطأوا خطأً كبيراً بدعائهم إياه إلى النُّصرة وتركهم إجابته ، ومقتلِه إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُغْسَل عارهم والإثم عنهم فى مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه ، وتابوا مما فَرَط منهم فى ذلك ـ فسُمُّوا التَّوَّابين ، وولَّوْا أمرهم سليمانَ بن صُرَد الخُزاعِيّ .

١١٤ ــ كتاب سليمان بن صرد
إلى سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان إلى سعد بن حُذَيفة بن اليَمان بالمدائن كتابا يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من سليمان بن صُرَد إلى سعد بن حُذَيفة ومَن قِبَله من المؤمنين ، سلام عليكم ، أما بعدُ : فإن الدنيا دارٌ قد أدْبَرَ منها ما كان معروفا ، وأقبلَ منها ما كان مُنْكَرا ، وأصبحَتْ قد تَشَنَّأَتْ[1] إلى ذوى الألباب ، وأزْمَعَ[2] التَّرحالَ منها عبادُ الله الأخيار ، وباعوا قليلًا من الدنيا لا يَبْقَى ، بجَزيلِ مَثُوبةٍ عند الله لا يَفْنَى ، إن أولياءَ الله من إخوانكم وشيعة آل نبيكم ، نظروا لأنفسهم فيما ابْتُلُوا به من أمر ابن بنت نبيِّهم الذى دُعِيَ فأجاب ، ودعا فلم يُجَب ، وأراد الرَّجْعَةَ فحُبس ، وسألَ

(١) يريد أنها قد صارت مشنوءة : أى مكروهة مبغضة ، من شنئه كسمع ومنع إذا كرهه .
(٢) أزمعت الأمر وعليه : أجمعت أو ثبت عليه .

الأمانَ فمَنِع ، وترك الناس فلم يتركوه ، وعدَوا عليه فقتلوه ، ثم سلبوه وجرّدوه ظلما وعُدوانا ، وغِرّة بالله وجهلا ، وبعين الله ما يعملون ، وإلى الله ما يَرْجعون ، « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » فلما نظر إخوانكم ، وتدبّروا عواقبَ ما استقبلوا ، رأوا أنْ قد خَطِئوا بخِذلان الزّكيّ الطيّب ، وإسلامِه[1] ، وترك مواساته ، والنصر له خَطأً كبيراً ، ليس لهم منه مَخرج ولا توبةٌ دون قَتْل قاتليه أو قتلهم ، حتى تفنى على ذلك أرواحُهم ، فقد جد إخوانكم ، فجِدوا وأعِدُّوا واستعدوا ، وقد ضرَبنا لإخواننا أجَلًا يوافوننا إليه ومَوْطِنًا يلقَوْننا فيه ، فأما الأَجَل فغُرّة[2] شهر ربيع الآخر سنة ٦٥ ، وأما الموطن الذى يلقَوننا فيه فالنُّخَيْلة ، أنتم الذين لم تزالوا لنا شِيعةً وإخواناً وإلاًّ[3] ، وقد رأينا أن ندْعُوَكم إلى هذا الأمر الذى أراد اللهَ به إخوانُكم فيما يزعمون ويُظهرون لنا أنهم يتوبون ، وإنكم جُدَراء[4] بتَطْلاب الفضل والتماس الأجر ، والتوبة إلى ربكم من الذنب ، ولو كان فى ذلك حَزُّ الرقاب ، وقتل الأولاد ، واستيفاء الأموال ، وهلاكُ العشائر ، ما ضَرَّ أهلَ عَذْراء[5] الذين قُتِلوا ألاَّ يكونوا اليومَ أحياء وهم عند ربهم يُرْزقون ، شُهداء قد لقُوا الله صابرين محتسبين ، فأثابهم ثواب الصابرين — يعنى حُجْراً وأصحابه — وما ضرّ إخوانكم المقتَّلين صبرا[6] ، والمصلَّبين ظلما ، والمَمْثُولَ بهم ، المعتدَى عليهم ، ألاَّ يكونوا أحياء مُبْتَلَين بخطاياكم ، قد خِيرَ[7] لهم فلَقُوا ربَّهم ووفّاهم اللهُ « إن شاء الله » أجرَهم ، فاصبِروا « رَحِمَكم الله » على البَأْساءِ والضَّرّاءِ وحين البَأْسِ ، وتوبوا إلى الله عن قريب ، فوالله إنكم لأَحْرِياء[8] أن لا يكونَ أحدٌ من إخوانكم ، صَبَر على شىء من البلاء إرادةَ ثوابه ،

---

(١) أسلمه : خذله . (٢) الغرة من الشهر وغيره : أوله .
(٣) الإل : القرابة . (٤) جمع جدير : أى حقيق .
(٥) عذراء : قرية بغوطة دمشق قتل بها معاوية حجر بن عدى وأصحابه .
(٦) قتل صبرا : هو أن يحبس ويرمى حتى يموت .
(٧) خار الله له فى الأمر : جعل له فيه الخير . (٨) جمع حرى : أى جدير وحقيق .

إلا صَبَرتم التماسَ الأجر فيه على مِثْلِه ، ولا يَطلبَ رضاء الله طالبٌ بشىء من الأشياء ـ ولو أنه القتلُ ـ إلا طَلَبتم رضاء الله به ، إن التقوى أفضلُ الزاد فى الدنيا ، وما سوى ذلك يَبُور[١] ويَفْنَى ، فَتَعْزِفُ[٢] عنها أنفسكم ، ولتكن رغبتُكم فى دار عافيتكم ، وجهادِ عدوِّ الله وعدوِّكم ، وعدوِّ أهل بيت نبيكم ، حتى تَقْدَموا على الله تائبين راغبين ، أحيانا الله وإياكم حَياةً طيِّبة ، وأجارنا وإياكم من النار ، وجعل مَنَايانا قَتْلًا فى سبيله على يَدَىْ أبغض خَلْقه إليه ، وأشدِّهم عداوةً له ، إنه القدير على ما يشاء ، والصانع لأوليائه فى الأشياء ، والسلام عليكم » .

فقرأ سعد بن حُذَيفةَ كتب سليمان بن صُرَد على الشِّيعة بالمدائن، وقال لهم: إن إخوانكم قد بعثوا إليكم يستنجدونكم ويستمدونكم ، فماذا تَرَون؟ وماذا تقولون؟ فقال القوم بأجمعهم: نجيبهم ونقاتل معهم ، ورأْيُنا فى ذلك مثل رأيهم . (تاريخ الطبرى ٧ : ٤٩)

١١٥ — رد سعد بن حذيفة على ابن صرد

فكتب سعد بن حذيفة إلى سليمان بن صرد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى سليمان بن صرد من سعد بن حذيفة ومن قبله من المؤمنين ، سلام عليكم ، أما بعد : فقد قرأنا كتابك ، وفهمنا الذى دعوتنا إليه ، من الأمر الذى عليه رأى المَلإِ من إخوانك ، فقد هُدِيتَ لحظِّك ، ويُسِّرْت لرُشْدك ، ونحن جادُّونَ مُجِدُّون[٣] ، مُعِدُّون مُسْرِجون مُلْجِمُون ، ننتظر الأمر ونستَمِع للداعى فإذا جاء الصَّريخُ[٤] أقبلْنا ولم نُعَرِّج إن شاء الله والسلام » .

فلما قرأ كتابه سليمان بن صرد قرأه على أصحابه فسُرُّوا بذلك .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٥١)

---

(١) يهلك . (٢) عزفت نفسه عنه كضرب عزوفا : زهدت فيه وانصرفت عنه .
(٣) يقال جد الأمر يجد بكسر الجيم وضمها ، وأجد : أى اجتهد ، وأسرج الدابة : شد عليها السرج ، وألجمها : ألبسها اللجام .
(٤) الصريخ : المستغيث (والمغيث أيضا : ضد) .

١١٦ — كتاب المثنى بن مُخَرِّبة إلى ابن صرد

وكتب ابن صرد إلى المُثَنَّى بن مُخَرِّبة العَبْدى نسخة الكتاب الذى كتب به إلى سعد بن حذيفة، فكتب إليه المثنى :

« أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وأقرأتُه إخوانك ، فحمِدوا رأيك ، واستجابوا لك ، فنحن مُوافُوك « إن شاء الله » للأجل الذى ضربْتَ ، وفى الموطنِ الذى ذكرتَ والسلام عليك » .

وكتب فى أسفل كتابه :

تبصَّرْ كأنِّى قد أتيتُك مُعْلَمًا ... على أتلعِ الهادِى أجَشَّ هَزِيمِ (١)

طَوِيلِ القَرَا نَهْدِ الشَّوَاءِ مُقَلِّصٍ ... مُلِحٍّ على فَأْسِ اللِّجامِ أَزُومِ (٢)

بكل فَتًى لا يَمْلأُ الرَّوْعُ نَحْرَهُ ... مُحِسٍّ لعَضِّ الحرب غيرِ سَئُومِ (٣)

أخِى ثِقةٍ يَنوِى الإله بسَعْيه ... ضَرُوبٍ بنَصْلِ السيفِ غيرِ أَثِيمِ

(تاريخ الطبرى ٧ : ٥١)

---

(١) أعلم نفسه فهو معلم : وسمها بسيمى الحرب ، وأعلم فرسه : علق عليه صوفا ملونا فى الحرب ، على أتلع الهادى : أى على فرس أتلع الهادى، والهادى : العنق ، وأتلع وتليع :طويل العنق ، وصف من التلع بالتحريك وهو طول العنق ، وفعله كفرح وكرم ، والأجش : الغليظ الصوت من الخيل (ومن الإنسان ومن الرعد وغيره) والهزيم : الفرس الشديد الصيت (أى القوى الصوت) .

(٢) القرا : الظهر . والنهد : الفرس الحسن الجميل الجسيم اللحيم المشرف . وسواء الجبل: ذروته، فمعنى نهد السواء : مشرف الذروة ، وفى الأصل « الشواء » بالشين وهو تصحيف ، وإنما الوارد فى كتب اللغة « الشوى » مقصورا ، وشوى الفرس قوائمه ، وفرس مقلص : مشرف طويل القوائم منضم البطن ، الفأس من اللجام : الحديدة القائمة فى الحنك ، وأزم الفرس على فأس اللجام كضرب أزما وأزوما فهو آزم وأزوم : عض عليه وقبض .

(٣) الروع : الفزع ، محس لعض الحرب : معناه أنه مدرب عليها قد اعتاد أن يخوض غمارها ، وأن يعضه نابها ، والسئوم : الكثير السآمة .

١١٧ — كتاب عبد الله بن يزيد إلى ابن صرد

فلما استهلَّ هلال ربيع الآخِر سنة ٦٥ هـ خرج سليمان بن صرد فى أصحابه إلى النُّخَيلة، وبلغ ذلك عبدَ الله بن يزيد الأنصارى أمير الكوفة من قبل ابن الزبير - وكان ابن الزبير ولاّه أميراً عليها على حربها وثغرها ، وولى إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله أميراً على خراجها - فخرجا إليه ، وحاولا أن يَثْنِياه عن رأيه فأبى ، وأجمع القوم على الشُّخوص واستقبال عبيد الله بن زياد .

ثم أَدْلَجَ[١] ابن صُرَد عَشِيَّةَ الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر ، وقد كتب إليه عبد الله بن يزيد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن يزيد إلى سليمان بن صرد ومن معه من المسلمين ، سلام عليكم ، أما بعدُ : فإن كتابى هذا إليكم كتابُ ناصِحٍ ذى إرْعاء[٢] ، وكم من ناصح مُسْتَغَشّ ، وكم من غاشٍّ مستنصَح مُحَبّ ، إنه بلغنى أنكم تريدون المسير بالعددِ اليسير إلى الجمْع الكثير ، وإنه مَن يُرِد أن ينقُل الجبالَ عن مَرَاتِبها[٣] تَكِلّ مَعَاوِله ، ويُنزَع وهو مذموم العقل والفعل ، يا قومنا لا تُطْمِعوا عدوَّكم فى أهل بلادكم ، فإنكم خِيَارٌ كلكم ، ومتى ما يُصِبْكم عدوُّكم يعلموا أنكم أعلامُ[٤] مِصْرِكم فيُطْمعهم ذلك فيمن وراءكم ، يا قومنا « إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا[٥] عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا » يا قومنا إن أيدينا وأيديكم اليومَ واحدة ، وإن عدوّنا وعدوكم واحد ، ومتى تجتمِع كلمتُنا نَظْهَرْ على

---

(١) أدلج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فادلج بالتشديد .

(٢) أرعى على أخيه : أبقى عليه .

(٣) المراتب : جمع مرتبة ، وهى المنزلة ، من رتب رتوبا إذا ثبت واستقر ولم يتحرك : أى عن أماكنها التى رتبت بها ، وربما كان الأصل « عن مراسيها » .

(٤) جمع علم بالتحريك ، وهو سيد القوم . (٥) ظهر عليه : غلبه .

عدونا ، ومتى تختلف تَهُن[1] شوكتنا على من خالفنا ، يا قومنا لاتَستغِشُّوا نُصحى ، ولا تخالفوا أمرى ، وأقبِلوا حين يُقرأ عليكم كتابى ، أقبل الله بكم إلى طاعته ، وأدْبَر بكم عن معصيته ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٧١)

١١٨ — رد ابن صرد عليه

فكتب إليه ابن صرد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، للأمير عبد الله بن يزيد من سليمان بن صُرَد ومن معه من المؤمنين ، سلام عليك ، أما بعدُ : فقد قرأنا كتابك ، وفهمنا ما نوَيْتَ ، فنِعْمَ واللهِ الوالى ، ونعم الأمير ، ونعم أخو العَشيرة ، أنت واللهِ من نأْمَنه بالغيْب ، ونستَنْصِحه فى المَشُورة ، ونحمَده على كل حال ، إنا سَمِعنا الله عزّ وجل يقول فى كتابه : « إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ[2] الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » :

إن القوم قد استَبْشروا ببَيْعَتهم التى بايعوا ، إنهم قد تابوا من عظيم جُرْمهم ، وقد توجَّهوا إلى الله ، وتوكّلوا عليه ، ورَضُوا بما قضى اللهُ ، « رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » والسلام عليك » .

---

(١) تهن : تضعف ، والشوكة : شدة البأس .

(٢) السائح : الصائم الملازم للمساجد .

وسار ابن صرد بأصحابه حتى انتهى إلى عَيْن الوَرْدة[١] فنزل فى غربيِّها ، وأقبل عبيد الله بن زياد بجيشه ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين ، واسْتُشْهِد[٢] فى المعركة سليمان بن صرد بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضاً كثير من رءوس أصحابه ، فلما رأى من بقِي من التَّوابين أن لا طاقةَ لهم بمن بإزائهم من أهل الشأم انحازوا عنهم وارتحلوا وعليهم رِفاعة بن شَدَّاد البَجَلىّ ، وكان ذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ . (تاريخ الطبرى ٧ : ٧٢)

(١) هى رأس العين : بلد فى وسط الجزيرة . (٢) استشهد : قتل فى سبيل الله .

طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي

بدم الحسين رضى الله عنه

١١٩ — كتاب المختار إلى عبد الله بن عمر

وقدِم المختار بن أبى عُبَيد الثَّقفى (١) الكوفةَ فى رمضان سنة ٦٤ هـ ، فأتاه بعض الشيعة ليلا ، فساءلهم عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صُرَد الخزاعىّ ، وإنه لن يلبث يسيراً حتى يخرج ، فجعل يزعم لهم أن محمد بن الحنفيَّة قد بعثه إليهم أميناً ووزيراً ، وأنه أمره بقتال المُلْحِدين والطلب بدماء أهل بيته ، وما زال حتى استمال طائفة من الشيعة ، ومُعْظَمهم يومئذ مع ابن صُرَد :

---

(١) هو المختار بن أبى عبيد بن مسعود الثقفى ، وقد كان لأبيه أبى عبيد شأن عظيم فى فتح فارس ، فإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين ولى الخلافة ، كان أول ما عمل به أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيبانى لقتال أهل فارس ، وجعل يندبهم ثلاثة أيام فلا ينتدب أحد إلى فارس — وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس، فكان أول منتدب أبو عبيد والد المختار، وقد أبلى أبو عبيد فى فتح فارس بلاء حسنا حتى مات فى وقعة الجسر وولد ابنه المختار فى السنة الأولى من الهجرة، ولم يكن المختار فى تشيعه لآل على بالمخلص، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه فى أمر الحسن بن على رضى الله عنه يوم طعن فى مظلم ساباط وحمل إلى المدائن — وكان عم المختار وهو سعد بن مسعود عاملا له على المدائن — فقال المختار لعمه : هل لك فى الغنى والشرف ؟ قال : وماذاك ؟ قال : توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوثقه! بئس الرجل أنت ! ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضى الله عنه ، نزل دار المختار ، فبايعه المختار فيمن بايعه من أهل الكوفة وناصحه ودعا إليه، ثم ظفر ابن زياد بمسلم وقتله ، وأمر بالمختار فسجن ، فبعث المختار إلى عبد الله بن عمر بالمدينة ، يسأله أن يشفع له عند يزيد بن معاوية : — وكانت صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر — فكتب ابن عمر إلى يزيد يشفع فيه فشفعه ، وخلى ابن زياد سبيله ، وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وبايع عبد الله بن الزبير ، وقاتل معه حين حاصر مكة جيش يزيد تحت إمرة الحصين بن نمير ، وأقام مع ابن الزبير بعد مهلك يزيد ، حتى قدم الكوفة فى منتصف رمضان سنة ٦٤ هـ .

فلما خرج ابن صرد نحو الجزيرة ـ خاف عبد الله بن يزيد الأنصارى وإبراهيم ابن محمد بن طَلْحة أميرا الكوفة أن يَثِب عليهما المختار ، فزَجّاه[١] فى السجن ، فكتب المختار إلى صِهْره عبد الله بن عمر بن الخطاب .

« أما بعد : فإنى قد حُبستُ مظلوماً ، وظن بى الوُلاة ظنونا كاذبة ، فا كتب فىّ « يرحمك الله » إلى هذين الظالِمَين كتابا لطيفاً ، عسى اللهُ أن يخلِّصنى من أيديهما ، بلطفك وبَرَكتك ويُمنك ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٩٣)

١٢٠ — كتاب ابن عمر إلى عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن طلحة

فكتب عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أما بعد : فقد علِمْتما الذى بينى وبين المختار بن أبى عبيد من الصِّهر ، والذى بينى وبينكما من الودِّ ، فأقسمتُ عليكما بحقِّ ما بينى وبينكما لَمَا خلَّيْتما سبيلَه حين تنظران فى كتابى هذا ، والسلام عليكما ورحمة الله » .

فلما أتاهما كتابُ ابن عمر ، دَعَوا للمختار بكُفَلاء يَضْمَنونه بنفسه ، فأتاه أناس من أصحابه كثير فضَمِنوه ، فدعَوَا به فحلَّفاه بالله الذى لا إله إلا هو عالم الغَيْب والشَّهادة الرحمن الرحيم : لا يَبْغيهما غائلةً ، ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان ، فإن هو فعل فعليه ألف بَدَنة يَنْحرها لدى رِتاج[٢] الكعبة ، ومماليكُه كلُّهم ذَكَرُهم وأنثاهم أحرار ، فحلف لهما بذلك[٣] ، فأطلقاه من السجن » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٩٣)

---

(١) زجه : رماه . (٢) الرتاج : الباب العظيم .

(٣) وكان المختار بعد ذلك يقول : « قاتلهم الله ما أحمقهم حين يرون أنى أفى لهم بأيمانهم هذه ؟ أما حلفى لهم بالله فإنه ينبغى لى إذا حلفت على يمين فرأيت ماهو خير منها أن أدع ماحلفت عليه وآتى الذى هو خير وأكفر يمينى ، وخروجى عليهم خير من كفى عنهم وأكفر يمينى ، وأما هدى ألف بدنة ، فهو أهون على من بصقة ، وما ثمن ألف بدنة فيهولنى ؟ وأما عتق مماليكى فوالله لوددت أنه قد استتب لى أمرى ، ثم لم أملك مملوكا أبداً » .

١٢١ — كتاب المختار إلى أصحاب ابن صرد

وكتب المختار وهو فى سجنه إلى أصحاب سليمان بن صُرَد حين قَدِموا من قتال عبيد الله بن زياد :

« أما بعدُ ، فإنَّ اللهَ أعظمَ لكم الأجْرَ ، وحطَّ عنكم الوِزْرَ ، بمُفارقة القاسطين ، وجِهادِ المُحِلِّين ، إنكم لم تُنْفقوا نفقةً ، ولم تَقْطعوا عَقَبَة[1] ، ولم تَخْطُوا خُطوة ، إلا رفع الله لكم بها درجةً ، وكتبَ لكم بها حسنةً ، إلى مالا يُحْصيه إلا اللهُ من التضعيف ، فأبشِروا ، فإنى لو قد خرجتُ إليكم قد جَرَّدْتُ فيما بين المشرق والمغرب فى عدوكم السيف بإذن الله ، فجعلتهم بإذن الله رُكامًا[2] ، وقتلتُهم فَذًّا وتوْءما[3] ، فرحَّب الله بمن قاربَ منكم واهتدى ، ولا يُبْعِدِ اللهُ إلا من عصى وأبَى ، والسلام يا أهل الهدى » .

فبعثوا إليه رسولًا منهم فقالوا : قل له قد قرأنا الكتاب ، ونحن بحيثُ يَسُرُّك ، فإن شئتَ أن نأتيك حتى نُخرجك فعلنا ، فأتاه فدخل عليه السجن فأخبره بما أرسل به إليه ، فسرّ باجتماع الشيعة له ، وقال لهم : لا تريدوا هذا ، فإنى أخرج فى أيامى هذه .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٦٣)

١٢٢ — كتاب إلى إبراهيم بن مالك الأشتر افتعله على محمد بن الحنفية

واختلفت الشيعة إلى المختار بعد خروجه من السجن ، واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل أصحابه يكثرون ، وأمره يَقْوَى ويشتد حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن طلحة عن الكوفة ، وبعث على عملهما عبد الله بن مُطيع العَدَوى ، لخمس بقين من رمضان سنة ٦٥ هـ .

---

(١) العقبة : المرقى الصعب فى الجبل .

(٢) متراكمين بعضهم ملقى فوق بعض .

(٣) أى فردا وزوجا .

وساورت الشيعةَ ريبة فيما ادعاه المختار من أن ابن الحنفية بعث به إليهم ، فأوفدوا وفداً منهم إلى ابن الحنفية يستثبت منه ، فقالوا له : إن المختار قد قدِم علينا وهو يزعم أنه جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى الطلب بدماء أهل البيت ، فبايعناه على ذلك ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه ، فقال لهم : أما ما ذكرتم من دعاء مَن دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لَوَدِدْتُ أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، فخرجوا من عنده وهم يقولون ، قد أذن لنا ، قد قال : لوددت أن الله انتصر لنا . . . . . . ولو كَرِه لقال : لاتفعلوا ، وجاءوا المختار فقالوا : قد أمرنا بنصرتك ، فكبَّر واستبشر ، واستجمعت له الشيعة وحَدِبَتْ[1] عليه :

ودعا أصحاب المختار إبراهيم بن الأشتر أن ينضم إلى زُمْرتهم ، فقال لهم : إنى قد أجبتكم إلى ما دعوتمونى إليه من الطلب بدم الحسين وأهل بيته ، على أن تولونى الأمر ، فقالوا : هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدىّ ، وهو الرسول ، والمأمور بالقتال ، وقد أمرنا بطاعته فلم يجبهم ابن الأشتر ، فانصرفوا إلى المختار ، فأخبروه بما ردّ عليهم ، فسار المختار إلى ابن الأشتر فقال له : هذا كتاب إليك من المهدى محمد ابن أمير المؤمنين الوصىّ يسألكِ أن تنصرنا وتؤازرنا ، فإن فعلت اغتبطت ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك ، ودفعه إليه الكتاب ، ففض خاتمه وقرأه فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدىّ إلى إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإنى أحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو . أما بعد : فإنى قد بعثتُ إليكم بوَزِيرى ، وأمينى ونَجِيبى[2] الذى ارتضيتُه لنفسى ، وقد أمرتُه بقتال عدوى ، والطَّلبِ بدماء أهل بيتى ، فانهَضْ معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك لو نصرتَنى ، وأجبتَ دعوتى ، وساعدتَ وزيرى ، كانت لك عندى بذلك فضيلةٌ ، ولك بذلك أعِنَّةُ

(١) عطفت .

(٢) النجيب : المنتجب أى المختار ، انتجب فلان فلانا إذا استخلصه واصطفاه اختيارا على غيره .

الخيل[١] وكل جيش غازٍ، وكل مِصرٍ، ومِنْبَر، وثَغْرٍ ظَهَرْتَ عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد أهل الشأم، عليّ الوفاء بذلك، عليّ عهدُ الله، فإن فعلتَ ذلك نِلتَ به عند الله أفضل الكرامة، وإن أبيت هلكت هلاكًا لا تستقيله أبداً، والسلام عليك».

فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب قال: قد كتب إليّ ابن الحنفية، وقد كتبت إليه قبل اليوم، فما كان يكتب إليّ إلا باسمه واسم أبيه، قال له المختار: إن ذلك زمان وهذا زمان، قال إبراهيم: فمن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إليّ؟ فقال أصحاب المختار: نشهد أن هذا كتاب محمد بن عليّ إليك، فقال إبراهيم للمختار: ابسط يدك أبايعك، فبسط المختار يده، فبايعه إبراهيم.

وجعل المختار وأصحابه يدبِّرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ هـ، فثاروا بالكوفة وقاتلوا جند ابن مطيع فهزموهم، وحصروا ابن مطيع حتى اشتد عليه الحصار فهرب إلى البصرة، وخَلَص الأمر للمختار فبايعه الناس، وغلب على الكوفة[٢].

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٩، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٤ : ٨٤)

١٢٣ - كتاب عبد الرحمن بن سعيد بن قيس إلى المختار

وكان مروان بن الحكم قد بويع بالخلافة بالشام «لثلاث خَلَوْنَ من ذى القَعدة سنة ٦٤ هـ» فلما استوثقت له الشام بالطاعة، بعث جيشاً إلى العراق عليه عبيد الله بن زياد، وجعل له إذ وجَّهه إلى العراق ما غلب عليه، وأمره أن يُنْهِبَ[٣] الكوفة إذا هو

---

(١) أى وليت القيادة.

(٢) قال المسعودى فى مروج الذهب (ج ٢ : ص ٩٨) «وأخرج المختار بن مطيع وغلب على الكوفة، وابتنى لنفسه داراً، واتخذ بستانا أنفق عليه أموالا عظيمة أخرجها من بيت المال، وفرق الأموال على الناس بها تفرقة واسعة، وكتب إلى الزبير يعلمه أنه إنما أخرج ابن مطيع عن الكوفة لعجزه عن القيام بها، ويسوم ابن الزبير أن يحتسب له بما أنفقه من بيت المال، فأبى ابن الزبير ذلك عليه، فخلع المختار طاعته وجحد بيعته». (٣) أى يجعلها نهباً يغار عليه.

ظَفِر بأهلها ثلاثًا ، وكان من أمره وأمر التوابين بعَين الوَردة ما قدمنا ، ثم إنه أقبل إلى المَوْصِل ، فكتب عبد الرحمن بن سعيد بن قيس عامل المختار على الموصل إلى المختار :

« أما بعدُ : فإنى أُخبرك أيها الأمير أن عبيد الله بن زياد قد دخل أرض الموصِل ، وقد وجَّه قِبلى خيلَه ورجالَه ، وإنى انحَزْتُ إلى « تَكْرِيت » حتى يأتيَنى رأيك وأمرك ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١١٣)

١٢٤ — رد المختار على عبد الرحمن بن سعيد

فكتب إليه المختار :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كتابك ، وفهِمتُ كل ما ذكرت فيه ، فقد أصبتَ بانحيازك إلى « تَكريت » فلا تبرحَنَّ مكانك الذى أنت به حتى يأتيك أمرى إن شاء آلله ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١١٣)

١٢٥ — كتاب المختار إلى عبد الرحمن بن سعيد

ودعا المختار يزيد بن أنس ، فوجَّهه إلى الموصل ، وكتب إلى عبد الرحمن بن قيس أبن سعيد :

« أما بعدُ : فَخلِّ بين يزيد وبين البلاد إن شاء الله ، والسلام عليك » .

وفَصَلَ يزيدُ بن أنس من الكوفة على رأس جيش انتخبه ، وسار إلى الموصل ، فقاتل جيش ابن زياد وهزمه .

ثم سيّر المختار إلى ابن زياد جيشًا عليه إبراهيم بن الأشتر ، فالتقى به على شاطئ نهر خازِر من أرض الموصل ، ودارت الدائرة على ابن زياد ، وقتله ابن الأشتر ، وكان ذلك سنة ٦٧ هـ .

١٢٦ - كتاب المختار بالأمان لعمر بن سعد بن أبي وقاص

ووثب المختار سنة ٦٦ هـ بمن كان بالكوفة من قَتَلة الحسين رضى الله عنه والمشايعين على قتله ، فقتل مَن قَدَر عليه منهم ، وهَرَب من الكوفة بعضهم فلم يقدر عليه .

وكان عبد الله بن جَعْدة بن هُبَيْرة أكرمَ خلق الله على المختار لقرابته بعلى[١] ، فكلم عمرُ بن سعد بن أبى وقّاص عبدَ الله بن جَعْدة ، وقال له : إنى لا آمن هذا الرجل - يعنى المختار - فخذ لى منه أمانا ففعل ، وكتب له :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمانٌ من المختار بن أبى عبيد لعُمَر بن سعد بن أبى وقّاص ، إنك آمِنٌ بأمان الله على نفسك ومَالِك ، وأهلك وأهل بيتك وولدك ، لا تؤاخَذُ بحَدَثٍ كان منك قديمًا، ما سَمِعْتَ وأطعت، ولزِمْتَ رَحْلَك وأهلَك، ومِصْرَك، فمن لَقِىَ عمر بن سعد من شُرْطة[٢] الله وشيعةِ آل محمد ، ومن غيرهم من الناس ، فلا يعْرِض له إلا بخير » .

شَهِدَ السَّائِبُ بن مالك ، وأحمر بن شُمَيْط ، وعبد الله بن شَدّاد ، وعبد الله ابن كامل ، وجعل المختار على نفسه عَهْدَ الله وميثاقَه لَيَفِيَنّ لعمر بن سعد بما أعطاه من الأمان ، إلاّ أنْ يُحْدِثَ حَدَثًا[٣] ، وأشهدَ اللهَ على نفسه ، وكفى بالله شهيدًا » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٢٦)

(١) كانت أم جعدة أم هانئ بنت أبى طالب أخت على بن أبى طالب عليه السلام : (تاريخ الطبرى ج ٧ : ص ١٤١) .

(٢) شرط السلطان : نخبة أصحابه الذين يقدمهم على غيرهم من جنده ، والمعنى هنا : من أولياء الله وأنصار دينه الذين يقدمهم على غيرهم من عباده .

(٣) وكان أبو جعفر محمد بن على يقول : « أما أمان المختار لعمر بن سعد إلا أن يحدث حدثا، فإنه كان يريد به إذا دخل الخلاء فأحدث » .

١٢٧ - كتاب المختار إلى محمد بن الحنفية

ولم يَرْعَ المختار هذا العهد ، فقتل عمر بن سعد وابنه حَفْص بن عمر ، وبعث برأسيهما إلى محمد بن الحنفية وكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، للمهدىِّ محمد بن على من المختار بن أبى عبيد ، سلام عليك يأيُّها المهدى ، فإنى أحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن الله بعثنى نِقمةً على أعدائكم ، فهم بين قتيل وأسِير وطَريد وشريد ، فالحمد لله الذى قتل قاتِليكم ، ونَصَر مُؤازِريكم[1] ، وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه ، وقد قتلنا من شَرِكَ فى دم الحسين وأهل بيته « رحمة الله عليهم » كلَّ من قَدَرْنا عليه ، ولن يُعْجِز اللهَ من بقى ، ولست بمُنْجِمٍ[2] عنهم حتى لا يبلُغَنى أنَّ على أدِيم الأرض منهم إرَمِيًّا[3] ، فاكتب إلىَّ أيها المهدى برأيك أتَّبِعْهُ وأكون عليه ، والسلام عليك أيها المهدى ورحمة الله وبركاته » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٢٧)

١٢٨ - كتاب المختار إلى مالك بن مسمع وزياد بن عمرو

وكان المُثَنَّى بن مُخَرِّبة العَبْدِىّ ممن بايع المختار ، فقال له المختار : الْحَق ببلدك بالبصرة ، فادْعُ الناس ، وأَسِرَّ أمرك ، فقَدِم البصرة فدعا ، فأجابه رجال من قومه وغيرهم ، فوجَّه إليهم أمير البصرة الحارثُ بن عبد الله عبَّادَ بن حُصَين ، فهزَمهم وحوى ما كان فى مُعَسْكرهم ، ولاذ المثنى وأصحابه بعبد القيس فمنعوهم وأبَوا أن يسلِّموهم ، فأرسل الأميرُ الأحنَفَ بنَ قيس ليُصْلح أمر الناس ، فأتى عَبْدَ القيس فقال لهم : ألستم

---

(١) المؤازر : المساعد والمعين . (٢) أنجم : أقلع .

(٣) أى أحداً ، يقال ما بالدار أرم بالتحريك ، وأريم : كأمير . وإرمى كعنبى ، ويحرك ، أو يرمى ، وبكسر أوله : أى أحد .

على بَيعة ابن الزبير ؟ قالوا : بَلَى ، ولكنا لا نسلِّم إخواننا ، قال : فمُروهم فليَخْرجوا إلى أى بَلاد أحبُّوا ، ولا يُفْسِدوا هذا المِصْر على أهله ، وهم آمِنون فليخرجوا حيث شاءوا ، فمشى مالك بن مِسْمَع ، وزياد بن عمرو ، ووجوه أصحابهم إلى المثنى ، فأشاروا عليه أن يَلْحَق بصاحبه المختار ، فقبِل قولهما ، وشخَص إلى المختار بالكوفة ، وأخبره حين قَدِم عليه بما كان من أمر مالك بن مِسْمَع ، وزياد بن عمرو ، ومَسيرهما إليه وذبِّهما عنه حين شَخَص عن البصرة ، فطمِع المختار فيهما ، فكتب إليهما :

« أما بعدُ : فاسْمَعا وأطِيعَا أُوتِكُما من الدنيا مَا شِئْتُما ، وأَضْمَن لكما الجنّة » .

فقال مالك لزياد : يا أبا المُغيرةِ ، قد أكثر لنا أبو إسحاق[1] إعطاءنا الدنيا والآخرة ، فقال زياد مازحا لمالك : يا أبا غسَّان ، أمّا أنا فلا أقاتِلُ نَسِيئةً[2] ، مَن أعطانا الدراهم قاتلنا معه . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠١)

١٢٩ — كتاب المختار إلى الأحنف بن قيس

وكتب المختار إلى الأحنف بن قيس :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبى عبيد إلى الأحنف بن قيس ، ومَن قِبَله ، فسِلْم أنتم ، أما بعد : فوَيْلُ امِّ[3] ربيعة من مُضَر ، فإن الأحنف مُورِدٌ قومه

(١) كنية المختار .

(٢) النسيئة : التأخير ، يقال : بعته بنسيئة : أى بأخرة ، ونسأته البيع وأنسأته : أخرته .

(٣) يقال فى المستجاد : « ويلمه » . تعجبا منه ، وأصله ويل لأمه حذفت اللام لكثرته فى الكلام وحذفت الهمزة من أمه تخفيفا وألقيت حركتها على اللام ، ثم ركبوه وجعلوه كالشىء الواحد وهو مدح خرج بلفظ الذم ، كما يقولون : أخزاه الله ما أشعره ، ولعنه الله ما أسمعه ، وفى الحديث قوله لأبى بصير : « ويلمه مسعر حرب » . تعجباً من شجاعته وجرأته وإقدامه — ومسعر حرب كمنبر أى موقد نارها ، من سعر النار والحرب كمنع : أوقدها — وقول المختار : «ويل أم ربيعة». يقصد به مدح عبد القيس ، وهم من ربيعة — فهم بنو عبد القيس بن جديلة بن أسد بن ربيعة — لما كان منهم من إيواء داعية المثنى بن مخربة العبدى والذب عنه ، وقوله « من مضر » يعنى أنه يمدح ربيعة ، ويفضلها على مضر ، يقصد الأحنف بن قيس ، وهو من تميم وتميم من مضر : — فهم بنو تميم بن طابخة بن إلياس بن مضر — لما كان من الأحنف فى أمر المثنى .

سَقَر (١) ، حيث لا يستطيع لهم الصَّدَر (٢) ، وإنى لا أَمْلِك ما خُطَّ فى القَدَر ، وقد بلغنى أنكم تسموننى كذّابا ، وإن كُذِّبتُ فقد كُذِّبَتْ رُسُل من قبلى ، ولست بخيرٍ من كثير منهم (٣) » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٣١ ـ ١٣٢ ، والعقد الفريد ٢ ، ٢٦٥)

---

(١) سقر : جهنم . (٢) الصدر : الرجوع .

(٣) قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد ج ٢ : ص ٢٦٥ : « وجعل المختار يتتبع قتلة الحسين بن على ومن خذله ، فقتلهم أجمعين ، فلما أفناهم دانت له العراق ، ولم يكن صادق النية ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك بغيته أظهر للناس قبح نيته » فادعى أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحى من الله وكتب إلى أهل البصرة : « بلغنى أنكم تكذبوننى وتكذبون رسلى ، وقد كذبت الأنبياء من قبلى ، ولست بخير من كثير منهم » . وقال : « ج ٢ : ص ٢٧٠ » . لما قتل الحجاج ابن الزبير ومنع أمه أسماء أن تدفنه . قالت : أما إنى سمعت رســول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج من ثقيف رجلان : الكذاب والمبير » . (أى المهلك) فأما الكذاب فالمختار ، وأما المبير فأنت ، فقال الحجاج : اللهم مبير لا كذاب . وقال المبرد فى الكامل : « ج ٢ ص ١٦٧ » . وكان المختار لا يوقف له على مذهب ، كان خارجيا ، ثم صار زبيريا ، ثم صار رافضيا فى ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم ضربا من السجاعة لأمور تكون ، ثم يحتال فيوقعها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل ، فمن ذلك قوله ذات يوم « لتنزلن من السماء نار دهماء ، فلتحرقن دار أسماء » فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال: أو قد سجع بى أبو إسحاق ! هو والله محرق دارى ، فتركه والدار وهرب من الكوفة ، وقال فى بعض سجعه : أما والذى شرع الأديان ، وجنب الأوثان ، وكره العصيان لأقتلن أزد عمان ، وجل قيس عيلان ، وتميما أولياء الشيطان ، حاشا النجيب ظبيان» . فكان ظبيان النجيب يقول: لم أزل فى عمر المختار أتقلب آمنا.

وخرج يشيع إبراهيم بن الأشتر حين شخص لقتال عبيد الله بن زياد ، فقال للناس : « إن استقمتم فبنصر الله ، وإن حصتم حيصة ، فإنى أجد فى محكم الكتاب ، وفى اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بملائكة غضاب ، تأتى صور الحمام دوين السحاب » أى قريبا منه ، وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماما بيضا ضخاما ، وقال لهم : «إن رأيتم الأمر لنا فدعوها ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها » . فلما التقوا كانت على أصحاب إبراهيم الدائرة فى أول النهار ، فأرسل أصحاب المختار الطير فتصايح الناس : الملائكة ! فتراجعوا واقتتل الناس حتى اختلط الظلام ، وأسرع القتل فى أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيف فيهم حتى أفنوا : « الكامل للمبرد ج ٢ : ص ١٦٩ » .

وقال الشهرستانى فى الملل والنحل : « ١ : ١٥٣ » . ومن مذهب المختار أنه يجوز البداء على الله تعالى ، والبداء له معان : البداء فى العلم ، وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبداء فى الإرادة ، وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبداء فى الأمر ، وهو أن يأمر بشىء ، ثم يأمر بعده بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء ، لأنه كان يدعى علم مايحدث من الأحوال ، إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام (ابن الحنفية) فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء وحدوث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وقد تبرأ ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس بأنه من دعاته ورجاله ، وتبرأ من الضلالات التى ابتدعها من التأويلات الفاسدة ، والمخاريق المموهة ، فمن مخاريقه أنه كان عنده كرسى قديم قد غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة =

١٣٠ — كتاب المختار إلى ابن الزبير

ولما استجمع الأمرُ للمختار بالكوفة ـ وهو عند الشِّيعة إنما يدعو إلى ابن الحنفية ، والطلب بدماء أهل البيت ـ أخذ يخادع ابن الزبير ، فكتب إليه :

« أمّا بعدُ : فقد عرَفتَ مُناصَحتى إياك ، وجَهْدِى على أهل عداوتك ، وما كنتَ أعطيتنى ـ إذا أنا فعلت ذلك ـ مِن نفسك ، فلما وَفَيْتُ لك وقضيتُ الذى كان لك علىَّ ، خِسْتَ[١] بى ولم تَفِ بما عاهدتَنى عليه[٢] ، ورأيتَ منى ما قد رأيت ، فإن تُرِد مُرَاجَعتى أُرَاجِعْك ، وإن تُرِدْ مناصحتى أَنْصَحْ لك » :

= وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين على عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبنى إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يضعه فى براح الصف ، ويقول : « قاتلوا ولكم الظفر والنصرة ، وهذا الكرسى محله فيكم محل التابوت فى بنى إسرائيل ، وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مددا لكم » . ـ أخذ من قوله تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هٰرُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ، ويقال إنه اشتراه من نجار بدرهمين ـ انظر قصته فى تاريخ الطبرى : (٧ : ١٤٠) . والكامل للمبرد : (٢ : ١٧٠) .

(١) خاس بالعهد يخيس : غدر ونكث .

(٢) وذلك أن المختار لما أطلقه ابن زياد سجنه خرج إلى الحجاز ، فلقى ابن الزبير ، فقال له : إنى قد جئتك لأبايعك ، على أن لا تقضى الأمور دونى ، وعلى أن أكون فى أول من تأذن له ، وإذا ظهرت استعنت بى على أفضل عملك ، فقال له ابن الزبير : أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : وشر غلمانى أنت مبايعة على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ! لا والله لا أبايعك أبداً إلا على هذه الخصال ، قال عباس بن سهل : فالتقمت أذن الزبير ، فقلت له : اشتر منه دينه حتى ترى من رأيك ، فقال له ابن الزبير : فإن لك ما سألته ، فبسط يده فبايعه وقاتل معه جند حصين بن نمير حين حاصر مكة ، فكان أحسن الناس بلاء ، وأعظمهم غناء . (تاريخ الطبرى ج ٧ : ص ٦١) .

وأقام المختار مع ابن الزبير حتى هلك يزيد وانقضى الحصار ، ورجع جند حصين إلى الشأم ، واصطلح أهل الكوفة على عامر بن مسعود بعد ما هلك يزيد يصلى بهم حتى يجتمع الناس على إمام يرضونه ، فلم يلبث عامر إلا شهراً حتى بعث ببيعته وبيعة أهل الكوفة إلى ابن الزبير ، فبعث عبد الله بن يزيد الأنصارى وإبراهيم بن محمد بن طلحة أميرين على الكوفة ، ثم عبد الله بن مطيع ، وكذلك ولى على البصرة ولاة كما قدمنا ، ولم يول المختار كما كان ينتظر .

وهو يريد بذلك كفَّه عنه حتى يستجمع له الأمر ، وهو لا يُطْلِع الشيعة على شيء من هذا الأمر ، وإذا بلغهم شيء منه أراهم أنه أبعد الناس عن ذلك » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٣)

١٣١ — كتاب المختار إلى ابن الزبير

وقال أبو العباس المبرِّد فى الكامل :

« ويروى أن المختار بن أبى عبيد حيثُ كان والياً لابن الزبير على الكوفة[١] ، اتَّهمه ابن الزبير ، فولَّى رجلاً من قريشٍ الكوفةَ ، فلما أطَلَّ قال لجماعة من أهلها : اخرجوا إلى هذا المغرور فردوه ، فخرجوا إليه فقالوا : أين تريد ؟ والله لئن دخلت الكوفة ليقتلَنَّك المختار ، فرجع ، وكتب المختار إلى ابن الزبير :

« إن صاحبك جاءنا ، فلما قَارَبَنا رجع ، فما أدرِى ما الذى ردَّه ؟ » .

فغضِب ابن الزبير على القرشى وعجَّزه وردَّه إلى الكوفة ، فلما شارَفَها قال المختار : اخرجوا إلى هذا المغرور فردوه ، فخرجوا إليه ، فقالوا : إنه والله قاتِلُك ، فرجع ، وكتب المختار إلى ابن الزبير بمثل كتابه الأول ، فلام القرشيَّ ، فلما كان فى الثالثة فَطِن[٢] ابن الزبير ، وعلم بذلك المختار[٣] .

---

(١) هكذا يروى أبو العباس ، ولكن المختار لم يكن واليا لابن الزبير على الكوفة ، وإنما غلب عليها وأخرج منها عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير كما قدمنا .

(٢) فطن به وإليه وله كفرح ونصر وكرم .

(٣) وروى الطبرى فى هذا الصدد قال :

وأراد ابن الزبير أن يعلم أسلم هو أم حرب ؟ (أى المختار) : فدعا عمر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام المخزومى ، فقال له : تجهز إلى الكوفة فقد وليناكها ، فقال : كيف وبها المختار ؟ قال : إنه يزعم أنه سامع مطيع ، فتجهز بما بين الثلاثين ألف درهم إلى الأربعين ألفا ، ثم خرج مقبلا إلى الكوفة ، وجاء عين المختار من مكة فأخبره الخبر ، فقال له : بكم تجهز ؟ قال بما بين الثلاثين ألفا إلى الأربعين ألفا ، فدعا المختار زائدة بن قدامة ، وقال له : احمل معك سبعين ألف درهم ، ضعف ما أنفق هذا فى مسيره إلينا ، وتلقه فى المفاوز ، وأخرج معك مسافر بن سعيد الناعطى فى خمسمائة فارس دارع ورامح عليهم البيض ، ثم قل له : خذ هذه النفقة فإنها ضعف نفقتك ، فإنه قد بلغنا أنك تجهزت وتكلفت قدر ذلك ، فكر هنا =

فلما رأى المختار أن ابن الزبير قد فطن لما أراد ، كتب إليه .

من المختار بن أبى عبيد الثّقفى خليفة الوصىّ محمد بن على أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن أسماء .

ثم ملأ الكتاب بسبه وسب أبيه . (الكامل للمبرد ٢ : ١٦٧)

١٣٢ — كتاب المختار إلى ابن الزبير

وأُخْبِر المختار أن أهل الشأم قد أقبلوا نحو العراق ، فخشى أن يأتيَه أهل الشأم من قِبَل المغرب ، ويأتيه مُصْعَب بن الزبير من قبل البصرة ، فوادع ابن الزبير ، وداراه وكايده .

وكان عبد الملك بن مروان — وقد بويع بالخلافةِ فى غُرّة رمضان سنة ٦٥ هـ — بعث عبد الملك بن الحارث بن الحكَم بن أبى العاص إلى وادى القُرَى ، والمختارُ لابن الزبير مكايدٌ مُوادِع ، فكتب المختار إلى ابن الزبير :

« أما بعدُ : فقد بلغنى أن عبد الملك بن مَرْوان قد بعث إليك جيشاً ، فإن أحببت أن أُمِدَّك بمَدَد أمْدَدْتك » .

١٣٣ — رد ابن الزبير على المختار

فكتب إليه ابن الزبير :

« أما بعدُ : فإن كنتَ على طاعتى فلستُ أكْرَه أن تبعثَ الجيش إلى بلادى ، وتبايعَ لى الناسَ قِبَلك ، فإذا أتتنى بيعتك صَدَّقْتُ مقالتك ، وكففتُ جُنودى عن

= أن تغرم فخذها وانصرف، فإن فعل، وإلا فأره الخيل، وقل له : إن وراء هؤلاء مثلهم مائة كتيبة، فأخذ زائدة المال ، وأخرج معه الخيل وتلقاه بالمفاوز ، وعرض عليه المال وأمره بالانصراف ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد ولانى الكوفة ، ولا بد من إنفاذ أمره ، فدعا زائدة الخيل ، وقد أكمنها فى جانب ، فلما رآها قد أقبلت . قال : هذا الآن أعذر لى ، وأجمل بى ، هات المال ، فقال له زائدة ، أما إنه لم يبعث به إليك إلا لما بينك وبينه ، فدفعه إليه فأخذه ، ثم مضى راجعاً نحو البصرة — تاريخ الطبرى ٧: ١٣٣ .

بلادك ، وعجِّل علىَّ بتسريح الجيش الذى أنت باعثه ، ومُرْهم فليسيروا إلى مَن بوادى القُرَى من جند ابن مَرْوان ، فليقاتلوهم ، والسلام » .

فسرَّح المختار شُرَحْبيل بن وَرْس فى جيش ، وقال له : سر حتى تدخل المدينة ، فإذا دخلتها فاكتب إلىَّ بذلك حتى يأتيك أمرى – وهو يريد إذا دخلوا المدينة أن يبعث عليهم أميرا من قِبَله ، ويأمر ابن ورس أن يمضى إلى مكة حتى يحاصر ابن الزبير ويقاتله – وخشِىَ ابن الزبير أن يكون المختار إنما يكيده ، فبعث من مكةَ إلى المدينة عباسَ بن سَهل بن سَعد فى جيش ، وقال له : إن رأيت القوم فى طاعتى فاقبل منهم ، وإلاَّ فكايِدْهم حتى تهلكهم ، فأقبل ابن سهل حتى لقى ابن ورس بالرَّقَم[1] ، فدعاه أن يسير معه لقتال جند ابن مروان بوادى القرى ، فأبى وقال : إنما أُمرتُ أن أسير حتى آتى المدينة ، فإذا نزلتها رأيت رأيى ، فكايَدَه ابن سهل حتى أخذه على غِرّة وقتله ، وأثخن أصحابَه وأوسعهم قتلا[2] . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٤)

---

(١) موضع بالمدينة .

(٢) وذلك أن عباس بن سهل لما وافى الرقم ، وجد ابن ورس على الماء قد عبى أصحابه تعبية القتال ، فدنا منهم فسلم عليهم ، ثم قال : اخل معى هاهنا نخلابه ، فقال له : رحمك الله ، ألست فى طاعة ابن الزبير؟ فقال له ابن ورس : بلى ، قال : فسر بنا إلى عدوه هذا الذى بوادى القرى ، فإن ابن الزبير حدثنى أنه إنما أشخصكم صاحبكم إليهم ، قال ابن ورس : ماأمرت بطاعتك ، إنما أمرت أن أسير إلى المدينة ، فإذا نزلتها رأيت رأيى ، قال له ابن سهل : فإن كنت فى طاعة ابن الزبير فقد أمرنى أن أسير بك وبأصحابك إلى عدونا الذين بوادى القرى ، فقال له ابن ورس : ما أمرت بطاعتك وما أنا بمتبعك دون أن أدخل المدينة، ثم أكتب إلى صاحبى فيأمرنى بأمره ، فلما رأى عباس بن سهل لجاجته عرف خلافه، فكره أن يعلمه أنه قد فطن له ، فقال : فرأيك أفضل ، اعمل بما بدالك ، فأما أنا فسائر إلى وادى القرى ، ثم جاء ابن سهل فنزل بالماء ، وبعث إلى ابن ورس بجزائر كانت معه (جمع جزور) فأهداها له ، وبعث إليه بدقيق وغنم مسلخة، وكان ابن ورس وأصحابه قد هلكوا جوعا، فبعث عباس بن سهل إلى كل عشرة منهم شاة. فذبحوها واشتغلوا بها واختلطوا على الماء ، وترك القوم تعبيتهم ، وأمن بعضهم بعضاً ، فلما رأى ابن سهل ماهم فيه من الشغل جمع من أصحابه نحواً من ألف رجل من ذوى البأس والنجدة، ثم أقبل نحو فسطاط ابن ورس، فلما رآهم ابن ورس مقبلين إليه نادى فى أصحابه. فلم يتواف إليه مائة رجل ، فاقتتلوا إلا شيئاً ليس بشىء حتى قتل ابن ورس وكثير من أصحابه .

١٣٤ — كتاب المختار إلى ابن الحنفية

فلما بلغ المختار أمرهم كتب إلى ابن الحنفية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فإنى كنت بعثتُ إليك جنداً ، ليُذِلُّوا لك الأعداء ، وليَحُوزوا لك البلادَ ، فساروا إليك حتى إذا أطَلُّوا على طَيْبَة[1] ، لقيَهم جندُ المُلْحِد[2] ، فخدعوهم بالله ، وغرُّوهم بعهد الله ، فلما اطمأنوا إليهم ، ووَثِقوا بذلك منهم ، وثَبوا عليهم فقتلوهم ، فإن رأيتَ أن أبعثَ إلى أهل المدينة مِن قِبَلى جيشاً كَثيفاً ، وتبعثَ إليهم من قبلك رُسُلا ، حتى يعلمَ أهلُ المدينة أنى فى طاعتك ، وإنما بعثتُ الجند إليهم عن أمرك ، فافعَلْ ، فإنك ستجد عُظمهم بحقكم أعْرَفَ ، وبكم - أهلَ البيت - أرْأفَ منهم بآل الزبير الظَّلَمة المُلْحِدِين ، والسلام عليك » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٥)

١٣٥ — رد ابن الحنفية على المختار

فكتب إليه ابن الحنفية :

« أما بعدُ : فإن كتابك لمَّا بلغنى قرأْتُه ، وفهِمت تعظيمَك لحقى ، وما تنوى به من سرورى ، وإن أحبَّ الأمور كلِّها إلىَّ ما أطيعَ اللهُ فيه ، فأطِعِ اللهَ ما استطعتَ فيما أعْلَنْتَ وأسْرَرْتَ ، واعلم أنى لو أردت القتال لوجدتُ الناس إلىّ سِراعًا ، والأعوانَ لى كثيرًا ، ولكنى أعتزِلهم ، وأصْبِرُ حتى يحكمَ اللهُ لى وهو خير الحاكمين[3] » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٥)

---

(١) المدينة المنورة . (٢) يريد ابن الزبير .

(٣) وكان محمد بن الحنفية قد أبى أن يبايع ابن الزبير ، إذ كره البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة ، وكان ابن الزبير يبغضه ويحسده على أيده وقوته ، فحبسه مع بضعة عشر رجلا من بنى هاشم منهم عبد الله بن عباس والحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فى سجن عارم ، وقال : لتبايعن أو لأحرقنكم ، وأعطى الله عهدا إن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ما توعدهم به ، وضرب لهم فى ذلك أجلا ، فكتب ابن الحنفية إلى المختار وأهل الكوفة =

١٣٦ — كتاب ابن الحنفية إلى الشيعة بالكوفة

وأُخْبِر ابن الحنفية بخبر نفر من غُلاة الشيعة بالكوفة، فكتب إلى الشيعة يحذِّرهم هؤلاء الغلاة:

« من محمد بن على إلى مَن بالكوفة من شِيعتنا، أما بعدُ: فاخرجوا إلى المجالس والمساجد، فاذكروا الله عَلَانية وسِرًّا، ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة، فإن خشِيتم على أنفسكم فاحْذَروا على دينكم الكذَّابين، وأكثِرُوا الصلاةَ والصيام والدعاء، فإنه ليس أحدٌ من الخلق يَمْلِك لأحد ضَرًّا ولا نفعاً إلا ما شاء الله، وكلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، والله قائم على كل نفس بما كَسَبَتْ، فاعمَلوا صالحا وقدِّموا لأنفسكم حسناً، ولا تكونوا من الغافلين، والسلام عليكم ».

* * *

ثم إن ابن الزبير عزل الحارث بن عبد الله عن البصرة، وولَّاها أخاه مصعب ابن الزبير (سنة ٦٧) وقَدِم على مصعب أشرافُ الكوفة، فسألوه أن يسير معهم إلى المختار، فسار إليه وقاتله، وانهزم أصحاب المختار، وقتل (فى رمضان سنة ٦٧ هـ).

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٥٣)

= يعلمهم حاله وحال من معه، وماتوعدهم به ابن الزبير من القتل والتحريق بالنار، ويسألهم ألا يخذلوه كما خذلوا الحسين وأهل بيته، فوجه إليه جماعة من أصحابه عليهم أبو عبدالله الجدلى، وكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار، حتى انتهوا إلى مكة، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم، وكان قد بقى من الأجل يومان، فكسروا سجن عارم واستخرجوا منه ابن الحنفية ومن معه، وقالوا له: خل بيننا وبين عدو الله ابن الزبير، فقال لهم: إنى لا أستحل القتال فى حرم الله، وخرج هو وأصحابه إلى شعب على.

— انظر تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٦ والكامل للمبرد ٢ : ١٦٨ والعقد الفريد ٢ : ٢٦٨ وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٤٨٧ ومروج الذهب ٢ : ١٠٠ —.

١٣٧ - كتاب عبد الله بن الزبير إلى عبد الله بن عباس

وروى المدائنى قال :

لما أخرج عبدُ الله بن الزبير عبدَ الله بن عباس من مكة إلى الطائف ، تلقّاه أهلها ، فقالوا : مَرْحَباً بابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنت واللهِ أحبُّ إلينا وأكرم علينا مِمَّن أخرجك ، هذه منازلنا تخيَّرْها ، فانزِلْ منها حيث أحببتَ ، فنزل مَنْزِلا ، فكان يجلس إليه أهلُ الطائف بعد الفجر وبعد العصر ، فيتكلم بينهم ، كان يَحْمد اللهَ ، ويذكر النبيّ صلى الله عليه وآله والخلفاء بعده ، ويقول : ذهبوا فلم يَدَعوا أمثالهم ، ولا أشباهَهم ، ولا مَن يُدانيهم ، ولكن بقِيَ أقوام يطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، ويَلْبَسون جُلود الضأن تحتها قلوبُ الذئاب والنمور ، ليظن الناسُ أنهم من الزاهدين فى الدنيا ، يُراءون الناس بأعمالهم ، ويُسْخطون اللهَ بسرائرهم ، فادْعُوا اللهَ أن يَقضِيَ لهذه الأمة بالخير والإحسان ، فيولِّيَ أمرَها خيارَها وأبرارها ، ويُهْلِك فُجّارها وأشرارها ، ارفعوا أيديكم إلى ربكم وسَلُوه ذلك ، فيفعلون ، وبلغ ذلك ابنَ الزبير ، فكتب إليه :

« أما بعدُ : فقد بلغنى أنك تجلس بالطائف العَصْرَين[١] ، فتُفْتِيهم بالجهل ، تَعيب أهلَ العقل والعلمِ ، وإن حِلْمى عليك ، واستدامتى فَيْئَك ، جَرَّآك علىَّ ، فاكْفُفْ - لا أبا لِغيرك - مِن غَرْبك[٢] ، وارْبَعْ على ظَلْعِك[٣] ، واعقِلْ إن كان

(١) العصران : الغداة والعشى ، ومنه حديث على رضى الله عنه « ذكرهم بأيام الله واجلس لهم العصرين » أى بكرة وعشيا ، وفى الحديث : « حافظ على العصرين » يريد صلاة الفجر وصلاة عصر سماها العصرين لأنهما يقعان فى طرفى العصرين وهما الليل والنهار ، والأشبه أنه غلب أحد الاسمين على الآخر ، كالعمرين لأبى بكر وعمر ، والقمرين للشمس والقمر .

(٢) الغرب : الحدة .

(٣) ربع كمنع : وقف وانتظر وتحبس ، وظلع البعير كمنع ظلعا : غمز فى مشيه ، ويقال : اربع على ظلعك : أى إنك ضعيف فانته عما لا تطيقه .

لك مَعقول[1] ، وأكرِمْ نفسك ، فإنك إن تُهِنها تجدْها على الناس أعظمَ هَوَانا ، ألم تسمعْ قول الشاعر :

فنفسَك أكرِمْها فإنك إن تَهُنْ   عليك فلن تَلْقَى لها الدهرَ مُكرِما

وإنى أقسم بالله لئن لم تنتهِ عما بلغنى عنك ، لتجِدَنَّ جانبي خَشِنا ، ولتجدنّنى إلى مايَرْدَعُك عنى عَجِلا فإن أشْفَى[2] بك شَقاؤكَ على الرَّدَى ، فلا تلُمْ إلا نفسك » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٤٨٧)

١٣٨ — رد ابن عباس عليه

فكتب إليه ابن عباس :

« أما بعدُ فقد بلغنى كتابك ، قلتَ : إنى أُفْتِى الناسَ بالجهل ، وإنما يفتى بالجهل مَن لم يعْرِفْ من العلم شيئاً ، وقد آتانى اللهُ من العلم مالم يُؤْتِكَ ، وذكرتَ أن حِلمك عنى واستدامتك فَيْئِى جرَّءانى عليك ، ثم قلت : اكفُفْ من غرْبك ، وارْبَعْ على ظَلْعِك ، وضربت لى الأمثال « أحاديث الضَّبُع[3] » متى رأيتنى لعُرامِك[4] هائباً ، ومِنْ حَدِّك نَاكِلا[5] ؟ وقلتَ : لئن لم تكفُف لتجدنّ جانبى خَشِنا ، فلا أبْقَى اللهُ عليك إن أبقيتَ ، ولا أرْعَى عليك إن أرعيتَ[6] ، فوالله لا أنتهى عن قول الحق ، وصفة أهل العدل والفضل ، وذمِّ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٤٨٨)

---

(١) معقول : عقل .   (٢) أشفى : أشرف .

(٣) فى الأمثال « أحاديث الضبع استها » يزعمون أن الضبع تتمرغ فى التراب ، ثم تقعى . « أقعى الكلب : جلس على استه » فتتغنى بما لا يفهمه أحد ، فتلك أحاديث استها ، وهو مثل يضرب للمخلط فى حديثه .

(٤) عرام الجيش : حدتهم وشدتهم وكثرتهم .

(٥) نكل عنه كضرب ونصر وعلم نكولا : نكص وجبن .

(٦) أرعى عليه : أبقى .

خلافة عبد الملك بن مروان

(سنة ٦٥ — ٨٦ هـ)

١٣٩ — كتاب عبد الملك إلى عمرو بن سعيد بن العاص

ولما خرج عبدالملك بن مَرْوان سنة ٦٩ هـ لقتال زُفَر بن الحارث الكِلَابى[١] بقَرْقِيسِياء[٢]، غلب عمرو بن سعيد بن العاص[٣] على دِمَشق، ودعا الناس إلى بيعته[٤]، وكتب عبد الملك إليه حين خرج عليه :

---

(١) وذلك أنه لما مات معاوية الثانى بايع أهل دمشق الضحاك بن قيس الفهرى على أن يصلى بهم ، ويقيم لهم أمرهم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ويعمل لنصرته سرا إذ كان بنو أمية بحضرته، وكذلك كان النعمان بن بشير الأنصارى وهو على حمص، وزفر بن الحرث الكلابى وهو على قنسرين، وناتل بن قيس وهو على فلسطين يدعون إلى بيعة ابن الزبير، ثم نشبت الحرب بين جيش الضحاك وجيش مروان ابن الحكم فى مرج راهط (سنة ٦٤ هـ) ودارت الدائرة على جيش الضحاك وقتل هو وعامة أصحابه وانهزم بقيتهم فتفرقوا وفر زفر بن الحرث هاربا إلى قرقيسيا فاجتمعت إليه قيس فرأسوه عليهم .

(٢) قرقيسياء بياءين ويقال بياء واحدة (قرقيساء) : بلد على الفرات .

(٣) هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الملقب بالأشدق لفصاحته ، ولاه معاوية مكة ، وولاه يزيد مكة والمدينة .

(٤) وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثانى ، وانحاز الضحاك بن قيس عن مروان بن الحكم واستمال الناس ودعا إلى ابن الزبير ، التقى مروان وعمرو بن سعيد بن العاص ، فقال عمرو لمروان هل لك فيما أقوله لك ؟ فهو خير لى ولك ، فقال مروان : وما هو ؟ قال : أدعو الناس إليك وآخذها لك على أن تكون لى من بعدك ، فقال مروان : لا ، بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية . فرضى عمرو بذلك ، ودعا الناس إلى بيعة مروان فأجابوا ، وبايع مروان بعده لخالد بن يزيد ، ولعمرو بن سعيد بعد خالد ، ثم مات مروان وخلفه عبد الملك . ولما اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق لقتال زفر بن الحارث سنة ٦٩ هـ وقيل لقتال مصعب بن الزبير سنة ٧٠ هـ — قال له عمرو : إنك تخرج إلى العراق وقد كان أبوك وعدنى هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك جاهدت معه ، وقد كان من بلائى مالم يخف عليك ، فاجعل لى هذا الأمر من بعدك ، فلم يجبه عبد الملك إلى شىء ، فلما خرج عبد الملك أغلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، — قيل : كان عبد الملك قد استخلفه عليها ، وقيل : إنه خرج مع عبد الملك ثم عاد إلى دمشق ليلا فغلب عليها — فكر عبد الملك راجعا إلى دمشق وحاصرها حتى صالح عمرا على أنه الخليفة بعده ففتح له دمشق ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتله .

« أما بعد : فإن رحمتى لك ، تَصْرِفنى عن الغضب عليك ، لِتمكُّن الخدْع منك ، وخِذْلان التوفيقِ إياك، نَهَضْتَ بأسبابٍ وهّمَتْك أطماعُك أن تَستفيدَ بها عزًّا ، وكنتَ جديرا ـ لو اعتدلتَ ـ أَنْ تدفعَ(١) بها ذُلاًّ ، ومَن رَحَلَ عنه حُسْنُ النظر ، واستوطَنَته الأمانى ، مَلَكَ الحَيْنُ(٢) تصريفَه ، واستترت عنه عواقِبُ أمره ، وعن قليل يتبيَّن مَن سَلَكَ سبيلَك ، ونَهض بمثل أسبابك ، أنه أسير غَفْلة ، وصريعُ خَدْع ، ومَغيضُ ندم ، والرَّحِمُ(٣) تحمِلُ على الصفح عنك ، مالم تَحلُلْ بك عواقبُ جهلك، وتَزْجُر عن الإيقاع بك ، وأنت إن ارتدعتَ كنت فى كَنَفٍ وسترٍ ، والسلام » .

وقال المسعودى : وكان فيما كتب إليه عبد الملك :

« إنك لَتُطْمِع نفسَك بالخلافة ، ولستَ لها بأهل » :

١٤٠ — رد عمرو بن سعيد على عبد الملك

فكتب إليه عمرو :

« استدراجُ النِّعم إياك أفادكَ البَغْىَ ، ورائحةُ القُدْرة أَوْرَثتك الغَفْلةَ ، زَجَرْتَ عما وافقتَ عليه ، وَندبتَ إلى ما تركتَ سبيله ، ولو كان ضَعْفُ الأسباب يُؤْيِس الطُّلاّب ، ما انْتقَل سلطانٌ ولا ذَلَّ عزيزٌ ، وعن قريب تتبيَّن : مَن أَسِير الغَفْلة ، وصَرِيع الخدع ، والرَّحِم تعطِف على الإبقاء عليك مع دفعْك عما غيرُك أقْوَمُ به منك ، والسلام » ،

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٩ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٦)

---

(١) فى الأصل « أن لاتدفع » وهو خطأ .

(٢) الحين: الهلاك . (٣) الرحم: القرابة.

حروب الخوارج الأزارقة

١٤١ — كتاب خالد بن عبد الله بن أسيد إلى عبد الملك بن مروان

ولما دانت العراق لعبد الملك بن مروان بعد مقتل مصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ، ولَّى على الكوفة أخاه بِشر بن مَرْوان، وولَّى على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد ابن أسيد[١]، وخرج خالد إلى الأهواز، وندب للناس رجلا يقاتل الأزارقة، فجعلوا يطلبون المهلَّب، فقال خالد: ذهب المهلب بحظ هذا المصر، إنى قد وليت أخى قتال الأزارقة، فولَّى أخاه عبد العزيز بن عبد الله، وجعل المهلَّبَ على خراج الأهواز، ومضى عبد العزيز فى ثلاثين ألفاً، فجعل يقول فى طريقه: يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب! فسيعلمون، ثم ناهض الأزارقة فكايدوه[٢] وهزموه، واتبعوا جنده يقتلونهم كيف شاءوا، وسَبَوا امرأته، ثم قتلوها[٣]، وبلغ خالداً خبر الهزيمة فكتب إلى عبد الملك بن مروان:

---

(١) هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ولاه عبد الملك البصرة سنة ٧١هـ وعزله عنها سنة ٧٤ هـ.

(٢) وذلك أنهم واقفوه ساعة ثم انهزموا عنه مكيدة، فاتبعهم، فقال له الناس: لا تتبعهم فإنا على غير تعبية فأبى، فلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا عقبة فاقتحمها وراءهم، والناس ينهونه ويأبى، وكان لهم فى بطن العقبة كمين، فلما صاروا وراءهم خرج عليهم الكمين، وانحاز عبد العزيز واتبعهم الخوارج يقتلونهم كيف شاءوا.

(٣) وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود، فسبى الخوارج النساء يومئذ، وكانت أم حفص ممن سبين، فأقاموها فى السوق حاسرة بادية المحاسن، فاعترضوها وقلبوها، وكانت من أكمل الناس كمالا وحسنا، فتزايدت فيها العرب والموالى، وغولى بها حتى بلغوها تسعين ألفا =

« أما بعد ، فإنى أُخبر أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ أنى بعثتُ عبد العزيز ابن عبد الله فى طلب الخوارج ، وأنهم لَقُوه بفَارس ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، فانهزم عبد العزيز لمَّا انهزم عنه الناس ، وقُتل مُقَاتل بن مِسْمَع[١] ، وقَدِم الفَلُّ[٢] إلى الأهوازِ ، فأحببتُ أنْ أُعلِمَ أمير المؤمنين ذلك ، ليأتينى رَأْيُه وأمْرُه أنزِل عنده إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٣)

١٤٢ — رد عبد الملك عليه

فكتب إليه عبد الملك بن مروان :

« أما بعدُ ، فقد قَدِم رسولك فى كتابك[٣] ، تُعلِمنى فيه بَعْثَك أخاك على قتال الخوارج ، وهزيمة من هُزِم ، وَقَتْل من قُتِل ، وسألتُ رسولك عن مكان المهلب ، فحدَّثنى أنه عامل لك على الأهواز ، فقبح الله رأيك ! حين تبعث أخاك أعرابيا من أهل مكة على القتال ، وتدع المهلب إلى جنبك يَجْبى الخراج ، وهو الميمون النَّقِيبة[٤] ، الحسنُ السياسة ، البصيرُ بالحرب ، المقاسى لها ، ابنها وابن أبنائها ، انظر أن تنهض بالناس ، حتى تستقبَلهم بالأهواز ومِنْ وراء الأهواز ، وقد بعثتُ إلى بِشْر أن يُمِدَّك بجيش من أهل الكوفة ، فإذا أنت لَقيتَ عدوَّك فلا تَعْمَل فيهم برأى ، حتى تُحْضِره المهلبَ وتستشيره فيه إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله » .

= فغار رجل من قومها « عبد القيس » وكان من رءوس الخوارج يقال له أبو الحديد العبدى ، فقال : تنحوا هكذا ، ما أرى هذه المشركة إلا قد فتنتكم ، فضرب عنقها ، فأخذوه إلى أميرهم قطرى بن الفجاءة فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا استهلك تسعين ألفا من بيت المال ، وقتل أمة من إماء المؤمنين ، فقال: يا أمير المؤمنين إنى رأيت هؤلاء تنازعوا عليها حتى ارتفعت الأصوات ، واحمرت الحدق ، فلم يبق إلا الخبط بالسيوف ، فرأيت أن تسعين ألفا فى جنب ماخشيت من الفتنة بين المسلمين هينة ، فقال قطرى : قد أصبت وأحسنت ، خلوا عنه ، عن من عيون الله أصابتها .

(١) وكان خالد بن عبد الله بعثه على جيش وألحقه بناحية عبد العزيز . (٢) أى المنهزمون .

(٣) فى هنا للمصاحبة كما فى قوله تعالى « قالَ ادْخُلُوا فى أُمَمٍ » .

(٤) النقيبة : النفس والمشورة .

فَشَقَّ عليه أن فيَّل[1] رأيَه فى بعثة أخيه وَتَرْكَ المهلب ، وفى أنه لم يرض رأيه خالصا حتى قال : أحضِره المهلبَ ، واستشره فيه . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٣)

١٤٣ — كتاب عبد الملك بن مروان إلى أخيه بشر

وكتب عبد الملك إلى أخيه بشر بن مروان :

« أما بعدُ فإنى قد كتبت إلى خالد بن عبد الله آمُرُه بالنهوض إلى الخوارج ، فسَرِّح إليه خمسةَ آلافِ رجل ، وابعث عليهم رجلا من قِبَلك ترضاه ، فإذا قضَوا غزَاتهم[2] تلك ، صرفتَهم إلى « الرَّىّ »[3] فقاتلوا عدوهم ، وكانوا فى مَسَالحهم[4] وجَبَوا فَيئَهُمْ ، حتى تأتِىَ أيامُ عَقِبهم ، فَتعْفِيَهم وتبعثَ آخرين مكانهم » .

فقطع على أهل الكوفة خمسة آلاف ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وقال : إذا قضيت غزَاتك هذه فانصرف إلى « الرّىّ » وكتب له عليها عهداً .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٣)

١٤٤ — كتاب خالد بن عبد الله بن أسيد إلى عبد الملك

وخرج خالد بأهل البصرة حتى قدم الأهواز ، وجاء عبد الرحمن بن الأشعث يبَعث[5] أهل الكوفة حتى وافاهم بالأهواز ، وجاءت الأزارقة حتى دنَوا من مدينة الأهواز ومن معسكر القوم ، فزحف إليهم خالد فرأَوا أمرا هالهم من عَدَد الناس وعُدَّتهم ، فانهزموا مولِّين ، وأَتبعهم خالد داودَ بن قَحْذَم فى جيش من أهل البصرة ، وانصرف هو إلى البصرة ، وكتب إلى عبد الملك بن مروان :

« أما بعدُ ، فإنى أُخبر أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ أنى خرجتُ إلى الأزارقة الذين مرَقوا من الدين ، وخرجوا من ولاية المسلمين ، فالتقينا بمدينة الأهواز ،

---

(١) فيل رأيه : قبحه وخطأه . (٢) الغزاة : اسم من غزا العدو غزوا .
(٣) مدينة كبيرة فى فارس وكانت قصبة بلاد الجبال . (٤) جمع مسلحة بالفتح ، وهى الثغر .
(٥) البعث ويحرك : الجيش .

فتناهَضْنا فاقتتلْنا كأشدِّ قتال كان فى الناس ، ثم إن الله أنزل نصره على المؤمنين والمسلمين، وضرب اللهُ وجوهَ أعدائه، فاتّبعهم المسلمون يقتلونهم ولا يُمنعون ولا يمتنعون، وأفاءَ اللهُ مافى عسكرهم على المسلمين ، ثم أتبَعْتُهم داودَ بن قَحْذَم، واللهُ ـ إن شاء الله ـ مُهْلِكهم ومستأصِلهم ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى: ٧ : ١٩٤)

١٤٥ — كتاب عبد الملك إلى أخيه بشر

فلما قَدِم هذا الكتاب على عبد الملك كتب إلى أخيه بشر :

« أما بعدُ ، فابعث من قِبَلك رجلا شجاعا بصيرًا بالحرب فى أربعة آلاف فارس ، فليسيروا إلى « فارس » فى طلب المارقة ، فإن خالداً كتب إلىَّ يخبرنى أنه قد بعث فى طلبهم داودَ بن قَحْذَم ، فمُر صاحبك الذى تَبعثُ أن لا يخالف داودَ بن قحذم إذا ما التقيا ، فإن اختلاف القوم بينهم عَوْنٌ لعدوهم عليهم، والسلام عليك » .

فبعث بشر عَتّاب بن وَرْقاء فى أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة ، فخرجوا حتى التَقَوا هم وداود بن قحذم بأرض فارس ، ثم اتبعوا القوم يطلبونهم حتى نَفَقت[1] خيول عامَّتهم ، وأصابهم الجهد والجوع ، ورجع عامّة ذينك الجيشين مُشاةً إلى الأهواز .
(تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٤)

هذه رواية الطبرى فى هذا الصَّدَد ، وروى أبو العباس المبرد فى الكامل كتابَ عبد الملك الذى ردَّ به على خالد بن عبد الله بن أسيد بصورة أخرى قال :

صورة أخرى لرد عبد الملك على خالد

وكتب خالد إلى عبد الملك بعُذْر عبد العزيز ، وقال للمهلَّب : ما تُرى عبدَ الملك صانعاً بى ؟ قال : يَعزِلك ، قال : أتُراه قاطِعًا رَحِمى ؟ قال : نعم ، أتته هزيمة أميّة أخيك

---
(١) ماتت .

من البَحْرين[١]، وتأتيه هزيمة أخيك عبد العزيز من فارس! فكتب عبد الملك إلى خالد:

« أما بعدُ ، فإني كنت حَدَدْتُ لك حَدًّا في أمر المهلب ، فلما ملكتَ أمرك نَبَذْتَ طاعتي واستبددت برأيك ، فولَّيتَ المهلَّبَ الجباية ، ووليتَ أخاك حرب الأزارقة ، فقَبح اللهُ هذا رأيا ! أتبعَثُ غلاما غِرًّا لم يجرِّب الحروب ، وتترك سيدا شجاعا مدبِّرا حازما قد مارس الحروب فَفَلَج[٢] ، تشغَلُه بالجباية ؟ أمَا لو كافأتُك على قدر ذنبك لَأتاك من نَكِيرى مَالاَ بَقِيَّةَ لك معه ، ولكن تذكرتُ رَحِمَك[٣] فلفَتَتْني عنك ، وقد جعلتُ عقوبتَك عزلَك ، والسلام » .

(الكامل للمبرد : ٢١٠ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٩٥)

١٤٦ — كتاب عبد الملك إلى أخيه بشر

قال أبو العباس : وولى بشرَ بن مروان وهو بالكوفة ، وكتب إليه :

« أما بعدُ ، فإنك أخو أمير المؤمنين يَجْمَعك وإياه مَرْوان بن الحكَم ، وإن خالِدًا لا مُجْتَمَع له مع أمير المؤمنين دون أُمَيَّة[٤] ، فانظر المهلب فَولِّه حَرْبَ الأزارقة ، فإنه سيِّد بَطَل مُجرَّبٌ ، فأَمْدِدْه من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجل ، والسلام » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١١ وشرح ابن أبي الحديد م١ : ص٣٩٥)

---

(١) وذلك أن أبا فديك الخارجي وهو من بني قيس بن ثعلبة غلب على البحرين سنة ٧٢ هـ وقتل نجدة بن عامر الحنفي (زعيم فرقة النجدات العاذرية من الخوارج)فاجتمع على خالد بن عبد الله نزول قطرى ابن الفجاءة (زعيم الأزارقة) الأهواز وأمر أبي فديك، فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف إلى أبي فديك فهزمه أبو فديك ، وأخذ جارية له فاتخذها لنفسه ، وسار أمية على فرس له حتى دخل البصرة في ثلاثة أيام فكتب خالد إلى عبد الملك بحاله وحال الأزارقة . (انظر تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٥) .

(٢) فاز وظفر .

(٣) الرحم : القرابة ، ولفتتني أي صرفتني وردتني ، وفي رواية ابن أبي الحديد « فكفتني عنك »

(٤) قدمنا أن خالدا هو ابن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وعبد الملك هو ابن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الخ

١٤٧ — كتاب عبد الملك إلى أخيه بشر

ونَعُد إلى رواية الطبرىّ ، قال :

« وفى سنة ٧٤ هـ عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة وولاها أخاه بِشْرَ ابن مروان ، فصارت ولايتها وولاية الكوفة إليه ، فَشَخَص بشر إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة عمرو بن حُرَيْث .

فلما صار بشر بالبصرة كتب عبد الملك إليه :

« أما بعدُ ، فابعث المهلبَ فى أهل مصره إلى الأزارقة ، ولْيَنْتخب من أهل مصرِه وجوهَهم وفُرسانَهم وأُولِى الفضل والتجربة منهم ، فإنه أعرفُ بهم ، وخَلِّه ورأْيَه فى الحرب ، فإنى أوثَقُ شىء بتجربته ونصيحته للمسلمين ، وابعث من أهل الكوفة بَعْثاً كثيفاً ، وابعث عليهم رجلا معروفاً شريفاً حَسِيبًا صَلِيبًا يُعْرَف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ، ثم أَنْهِضْ إليهم أهل المصرَين فليتبعوهم أىَّ وجهٍ ما توجَّهوا ، حتى يُبيدَهُمُ اللهُ ويستأصلهم ، والسلام عليك » .

فدعا بشر المهلب فأقرأه الكتاب وأمره أن ينتخب من شاء ، وشَقَّ على بشر أن إمْرَة المهلب جاءت من قِبَل عبد الملك ، فلا يستطيع أن يبعث غيره ، فأوغرتْ صدرَه عليه حتى كأنه كان له إليه ذنب ، ودعا بشر عبد الرحمن بن مِخْنف ، فبعثه على أهل الكوفة ، وأمره أن ينتخب فرسان الناس ووجوههم ، وأولى الفضل منهم والنجدة .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٧)

١٤٨ — كتاب خالد بن عبد الله بن أسيد إلى المرفضّين من الجند

وخرج المهلب بأهل البصرة حتى نزل رامَهُرْمُز فلقى بها الخوارج ، وأقبل عبد الرحمن بن مخنف بأهل الكوفة ، فلم يلبث الناس إلا عشراً[١] حتى أتاهم نَعْى بشر ابن مروان ، وتُوفِّى بالبصرة ، وكان قد استخلف خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فارفَضّ[٢] ناس كثير من أهل البصرة وأهل الكوفة ، فبلغ ذلك خالداً ، فكتب إلى الناس كتابا ، وبعث رسولاً يضرب وجوهَ الناس ويردّهم ، فقدِمَ بكتابه مَوْلًى له ، فقرأه على الناس وقد جُمعوا له ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من خالد بن عبد الله إلى من بلغه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإن الله كتب على عباده الجهادَ ، وفَرَض طاعةَ وُلاةِ الأمر ، فمن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، ومن ترك الجهادَ فى الله كان اللهُ عنه أغنَى ، ومن عَصَى وُلاةَ الأمر والقُوّامَ بالحق أسخط اللهَ عليه ، وكان قد استحق العقوبة فى بَشَرِه[٣] ، وعرّض نفسه لِاستفاءة[٤] مالِهِ ، وإلقاء عطائه ، والتسييرِ إلى أبعد الأرض وشر البُلدان .

أيها المسلمون : اعلموا على مَن اجترأتم ، ومَن عصَيتم ؟ إنه عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين الذى ليست فيه غَمِيزة[٥] ، ولا لأهل المعصية عنده رُخصة[٦] ، سَوْطُهُ على

---

(١) وفى رواية الكامل « إلا شهرا » .

(٢) تفرق ، قال المبرد : « فجعل الجند من أهل الكوفة يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز ، وأراد أهل البصرة الانسلال من المهلب فخطبهم فقال : إنكم لستم كأهل الكوفة ، إنما تذبون عن مصركم وأموالكم وحرمكم ، فأقام منهم قوم ، وتسلل منهم ناس كثير » .

(٣) البشر : ظاهر الجلد جمع بشرة أى استحق الجلد والضرب .

(٤) أى للاستيلاء عليه ، يقال : فاء الغنيمة واستفاءها .

(٥) يقال : فيه مغمز وغميزة : أى مطعن أو مطمع . (٦) الرخصة : التسهيل .

من عَصَى ، وعلى من خالف سيفُهُ ، فلا تجعلوا على أنفسكم سبيلا ، فإنى لم آلُكُمْ نصيحةً[١] .

عبادَ الله : ارجِعوا إلى مكَتَّبِكُمُ[٢] ، وطاعةِ خليفتكم ، ولا ترجِعوا عاصِين مخالفين فيأتيَكم ما تكرهون ، أقسم بالله لا أثقَف[٣] عاصياً بعد كتابى هذا إلا قتلتُه ، إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

فلما فرغ من قراءته لم يلتفتِ الناس إلى ما فِى كتابه . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٨)

١٤٩ — كتاب المرفضين إلى عمرو بن حريث

وأقبل فريق منهم حتى نزلوا قرية لآل الأشعث إلى جانب الكوفة ، وكتبوا إلى عمرو بن حريث :

« أما بعدُ : فإن الناس لَمَّا بلغهم وفاةُ الأمير ـ رحمةُ الله عليه ـ تفرقوا ، فلم يَبْقَ معنا أحد ، فأقبلْنا إلى الأمير وإلى مِصْرنا ، وأحبَبْنا ألا ندخل الكوفة إلا بإذن الأمير وعلمه » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٨)

١٥٠ — رد عمرو بن حريث عليهم

فكتب إليهم :

« أما بعدُ : فإنكم تركتم مكتّبكم وأقبلتم عاصين مخالفين ، فليس لكم عندنا إذْنٌ ولا أمان » .

فانتظروا حتى إذا كان الليل دخلوها بغير إذن ، فلم يزل المهلب فى عدد قليل حتى ولى الحجاج بن يوسف العراق (سنة ٧٥ هـ) . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٨)

---

(١) ألا يألو : قصر ، أى لم أقصر فى نصيحتكم .

(٢) ضبط فى الأصل كمقعد، وأرى أنه إما اسم فاعل من كتب بالتشديد، كتب الكتيبة: هيأها، والكتيبة : القطعة من الجيش مجتمعة ، أى ارجعوا إلى قائدكم ، وإما مصدر ميمى أو اسم مكان بمعنى اجتماعكم أو مكان اجتماعكم ، كتبهم فتكتبوا : أى جمعهم فتجمعوا .

(٣) ثقفه كسمعه : صادفه أو أخذه أو ظفر به أو أدركه .

١٥١ - كتاب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز

وروى ابن قُتَيبة فى الإمامة والسياسة أن بشر بن مَرْوان وَلِىَ البصرة أوّلا ، ثم ضمت إليه الكوفة ، قال :

لما أراد عبد الملك بن مروان أن يولّى أخاه بشر بن مروان على العراق، كتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وهو بمصر، وبشر معه يقود الجنود ، وكان يومئذ حديث السّن :

« إنى قد ولَّيتُ أخاك بشرا البصرةَ فأَشْخِص معه موسى بن نصير وزيرًا ومشيرًا، وقد بعثتُ إليك بديوان العراق فادفعه إلى موسى وأعلِمْه أنه المأخوذ بكل خَلَل وتقصير ».

فشَخَص بشر من مصر إلى العراق ، ومعه موسى بن نصير حتى نزل البصرة ، فلما نزلها دفع إلى موسى بن نصير خاتمه ، وتخلَّى عن جميع العمل ، حتى أتته ولاية الكوفة ، وقد ضُمَّت إليه مع البصرة . (الإمامة والسياسة ٢ : ٤٢)

١٥٢ - كتاب عبد الله بن عمر إلى عبد الملك بن مروان

وكان عبد الملك قد وجَّه الحجاج إلى الحجاز لقتال عبد الله بن الزبير فحاصره بمكة ، وما زال ابن الزبير يقاتل حتى قتل سنة ٧٣ ﻫ ، وبعث عبد الملك إلى الحجاج عهده بولاية الحجاز ، واليمن ، واليمامة ، وكتب عبد الله بن عمر إلى عبد الملك ببيعته لما قتل ابن الزبير ، وكان كتابه إليه يقول :

« لعبد الملك بن مَرْوان من عبد الله بن عمر ، سلام عليك ، فإنى أقررت لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبيعة نافع مولاى على مثل ما بايعتك عليه » . (العقد الفريد ٢ : ٢٦٦)

* * *

وروى صاحب صبح الأعشى هذا الكتاب قال :

كتب عبد الله بن عمر رضى الله عنهما إلى عبد الملك بن مَرْوان فى خلافته :

« أما بعدُ : لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن عمر ، سلام عليك ، فإنى أحمَد إليك اُلله الذى لا إله إلا هو ، وأمرى السمع والطاعة على كتاب الله ، وسنة نبيه فيما استطعت » . (صبح الأعشى ٦ : ٤٨٠)

١٥٣ — كتاب محمد بن الحنفية إلى عبد الملك بن مروان

وكتب محمد بن الحنفية ببيعته لما قتل ابن الزبير ، وكان فى كتابه :

« إنى اعتزلتُ الأمة ، عند اختلافها ، فقعدتُ فى البلد الحرام الذى مَن دَخَله كان آمِناً ، لأُحْرِزَ دينى ، وأمنعَ دمى ، وتركتُ الناس ، « قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شاَ كِلَتِهِ[1] فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً » وقد رأيتُ الناس قد اجتمعوا عليك ، ونحن عِصابة من أمّتنا لا نُفارق الجماعة ، وقد بعثت إليك منا رسولاً ليأخذ لنا منك مِيثاقًا ، ونحن أحق بذلك منك ، فإن أبَيْتَ فأرضُ الله واسِعةٌ ، والعاقبة للمتقين » . (العقد الفريد ٢ : ٢٦٢)

١٥٤ — رد عبد الملك على ابن الحنفية

فكتب إليه عبد الملك :

« قد بلغنى كتابك بما سألته من الميثاق لك وللعِصابة التى معك ، فلك عهدُ الله وميثاقُه أنْ لا تُهاجَ فى سلطاننا : غائباً ولا شاهداً ، ولا أحدٌ من أصحابك ، ما وَفَوا ببيعتهم ، فإن أحبَبْتَ المُقامَ بالحجاز فأقِمْ ، فلن نَدعَ صِلَتَك وبِرَّك ، وإن أحببتَ المُقامَ عندنا فاشخَصْ إلينا فلن ندعَ مواساتك ، ولَعَمْرِى لئن أَلجأناك إلى الذهاب

---

(١) الشاكلة : الطريقة والمذهب ، والنية .

فى الأرض خائفاً لقد ظلمناك وقطعْنا رَحِمَك ، فاخرج إلى الحجاج فبايِعْ ، فإنك أنت المحمودُ عندنا دِيناً ورأياً ، وخيرٌ من ابن الزبير ، وأَرْضَى وأتقَى » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٦٢)

١٥٥ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وكتب إلى الحجاج بن يوسف :

« لاتَعرِض لمُحمدٍ ولا لأَحدٍ مِنْ أَصحابِهِ » وكان فى كتابه :

« جَنِّبْنى دماءَ بنى عبد المطلب ، فليس فيها شفاءٌ من الحَرَب[1] ، وإنى رأيت بنى حَرْب[2] سُلِبوا مُلكَهم لمَّا قتلوا الحسينَ بن على » .

فلم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبيين فى أيامه[3] .

(العقد الفريد ٢ : ٢٦٣ ، ٢٥٥)

١٥٦ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يقول :

« إنى حُزت الحِجاز بشمالى ، وبقيت يمينى فارغة[4] — يعرِّض بالعراق — » فبعث إليه بعهده على العراق ، فوليه بعد بشر بن مروان .

(سرح العيون ص ١١٤)

١٥٧ — كتاب خالد بن أبان إلى موسى بن نصير

وكان عبد الملك قد أراد موسى بن نصير لأمر عَتَب عليه منه ، فكتب خالد بن أَبان من الشأم إلى موسى بن نصير :

---

(١) الحرب : شدة الغضب .

(٢) يعنى معاوية وعقبة « وهو معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية » .

(٣) وفى رواية المسعودى فى مروج الذهب ج ٢ : ص ١٠٩ :

« وكتب عبد الملك إلى الحجاج : « جنبنى دماء آل أبى طالب ، فإنى رأيت الملك استوحش من آل حرب حين سفكوا دماءهم » فكان الحجاج يتجنبها خوفا من زوال الملك عنهم ، لا خوفا من الخالق عز وجل» .

(٤) أخذ ذلك من زياد — انظر ص ٥٠ — .

« إنك معزول ، وقد وُجِّه إليك الحجاجُ بن يوسف ، وقد أُمِر فيك بأغْلَظِ أمر ، فالنجاةَ النجاةَ ، والوَحَى الوَحَى[1] ، فإما أن تَلْحَق بالفُرْس فتأمنَ ، وإما أن تَلْحَق بعبد العزيز بن مَرْوان مستجيراً به ، ولا تمكِّن ملعونَ ثَقِيفٍ من نفسك فيحكُمَ فيك » .

فلما أتاه الكتاب ركب النجائبَ ولَحَق بالشأم وبها يومئذ عبد العزيز بن مروان قد وَفَد بأموال مصر » . (الإمامة والسياسة ٢ : ٤٣)

١٥٨ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج من العراق :

« يا أمير المؤمنين ، إنه لاقَدْرَ لما اقتطعه موسى بن نصير من أموال العراق ، وليس بالعراق فابعث به إلىّ » .

وكانت لموسى يدٌ عظيمة عند عبد العزيز بن مروان فأدخله عبدالعزيز على عبد الملك ، فقرَّره عبدالملك بأنه اقتطع الفَيْء ، وتنصَّل موسى من تلك التُّهمة ، فأقسم عبد الملك لَيُغرِمَنّه ، فأعانه عبد العزيز بخمسين ألفاً ، وأدَّى خمسين ألفاً فى ثلاثة أشهر نجَّمَها[2] عليه » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٤٣)

١٥٩ — كتاب موسى بن نصير إلى عبد العزيز بن مروان

ورجع عبد العزيز بن مروان إلى مصر وسار موسى معه فكان من أشرف الناس عنده ، فأقام بها ما أقام حتى قَدِم حَسَّانُ بن النُّعْمان من إفريقية يريد الشام إلى عبد الملك وقد فتح له بها فتحاً ، فأجازه عبد الملك وزاده « بَرْقَةَ » وردَّه إلى إفريقية والياً ،

---

(١) الوحى : العجلة والإسراع ، ويمد .

(٢) نجم الدين : أداه نجوما جمع نجم كشمس ، وكانت العرب تؤقت بطلوع النجوم لأنهم ما كانوا يعرفون الحساب ، وإنما يحفظون أوقات السنة بالأنواء ، وكانوا يسمون الوقت الذى يحل فيه الأداء نجما مجوزا ، لأن الأداء لا يعرف إلا بالنجم ، ثم توسعوا حتى سموا الوظيفة نجما ، لوقوعها فى الأصل فى الوقت الذى يطلع فيه النجم ، واشتقوا منه فقالوا نجمت الدين إذا جعلته نجوما .

فأقبل حتى نزل مصر ، وبلغ عبد العزيز أن عبد الملك وَلاَّه برقةَ ، فبعث إليه وأراده على أن ينزل عنها فأبى فقال له : اقعد فى بيتك وسيُوَلَّى هذا الأمر من هو خير منك ، وأولى به منك فى تجربته ومعرفته وسياسته ، ويُغْنِي اللهُ أمير المؤمنين عنك ، وأخذ عهده ومزَّقه ، ودعا بموسى بن نصير فعَقَد له على إفريقية سنة ٧٩ هـ فقدِمها والياً عليها .

وكان بزَغْوان[١] قوم من البربر عليهم عظيم من عظمائهم ، فكانوا يُغِيرون على سَرْح[٢] المسلمين ويرصُدون غِرَّتهم - والذى بين زاغون وبين القَيْرَوان يوم إلى الليل - فوجَّه إليهم موسى خمسمائة فارس فقاتلوهم وهزمهم الله وقتل صاحبهم ، وفتحها الله على موسى ، فبلغ سَبْيُهم يومئذ عشرة آلاف رأس - وكان أول سبي دخل القيروان فى ولاية موسى - ثم وجه ابنه عبد الرحمن إلى بعض نواحيها فأتاه بمائة ألف رأس ، ثم وجه ابنه مروان فأتاه بمثلها ، فكان الخُمْس يومئذ ستين ألف رأس .

وكتب موسى بن نصير إلى عبد العزيز بن مروان بمصر « يخبره بالذى فتح الله عليه ، وأمكَنَ له ؛ ويُعْلِمه أن الخمس بلغ ثلاثين ألفاً » وكان ذلك وهما من الكاتب .

١٦٠ — رد عبد العزيز على موسى

فلما قرأ عبد العزيز الكتاب دعا الكاتب فقال له : وَيْحَكَ ، اقرأ هذا الكتاب ! فلما قرأه قال : هذا وهم من الكاتب فراجِعْه ، فكتب إليه عبد العزيز :

« إنه بلغنى كُتابك تذكُر فيه أنه قد بلغ خُمْسُ ما أفاء الله عليك ثلاثين ألف رأس ، فاستكثرتُ ذلك ، وظننتُ أن ذلك وهم من الكاتب ، فاكتب إليّ بعد ذلك على حقيقةٍ وَاحذَرِ الوَهْمَ » .

---

(١) زغوان : جبل بإفريقية بالقرب من تونس .

(٢) السرح : المال السائم .

١٦١ — رد موسى على عبد العزيز

فلما قَدِمَ الكتاب على موسى كتب إليه :

« بلغنى أن الأمير ـ أبقاه الله ـ يذكر أنه استكثر ما جاءه من العِدَّة التى أفاء الله علىَّ ، وأنه ظن أن ذلك وهم من الكاتب ، فقد كان ذلك وهماً على ما ظنَّه الأميرُ ، والخُمْس أيها الأمير ستون ألفًا ، حقًا ثابتًا بلا وهم » .

فلما أتى الكتاب إلى عبد العزيز وقرأه ، ملأه سروراً .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٦-٤)

١٦٢ — كتاب عبد الملك إلى عبد العزيز

وذكروا أن عبد العزيز بن مَرْوان لما عزل حَسَّان بن النعمان ، وولى موسى ابن نصير ، وفَتَح اللهُ لموسى ، بلغ ذلك عبد الملك بن مَرْوان ، فكره ذلك وأنكره ، ثم كره رَدَّ رأىِ عبد العزيز ، ثم هَمَّ بعزل موسى لسوء رأيه فيه ، ثم رأى أن لا يردَّ ماصنع عبد العزيز ، فكتب عبد الملك إلى عبد العزيز :

«أما بعدُ : فقد بلغ أميرَ المؤمنين ما كان من رأيك فى عَزْل حسان وتوليتك موسى مكانه ، وعَلِم الأمر الذى له عزَلْتَه ، وقد كنتُ أَنتظِرُ منك مثلها فى موسى ، وقد أمضى لك أمير المؤمنين من رأيك ما أمضيتَ وولايتِك من وَلَّيْتَ ، فاستوص بِحَسَّان خيراً فإنه ميمونُ الطائر ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٤٦)

١٦٣ — رد عبد العزيز على عبد الملك

فلما قدم الكتاب على عبد العزيز كتب إلى أخيه عبد الملك :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كتابُ أمير المؤمنين فى عزل حسان ، وتوليتى موسى ابن نصير ، وقد كان لِمثلِها منى منتظراً فى موسى ، ويُعلِمنى أنه قد أَمْضَى لى من رأيى

ما أمضيتُ : وولايتي مَن ولَّيتُ ، وقد علمتُ أن أمير المؤمنين يتفاءل بحسان لِلَّذِي فَتَحَ اللهُ على يديه ، ولم أعْدُ مع نظرى لأمير المؤمنين بأن عزلْتُ حسانَ وولَّيت موسى فى يُمْن طائره وحُسْن أثَره ، فأمَّا قولُ أمير المؤمنين « قد كنت أنتظِرها منك فى موسى » فلعَمْرِى لقد كنتُ لها فيه مُرْصِدا ، ولأمير المؤمنين أن يسبِق بها إليه منتظِرا ، حتى حَضَر أمرٌ جَهَدتُ فيه نفسى لأمير المؤمنين ولنفسى الرأى والنصيحة ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ٢: ٤٦)

١٦٤ — كتاب عبد العزيز إلى عبد الملك

وكتب عبد العزيز إلى عبد الملك :

« أما بعدُ : فإنى كنت وأنت يا أمير المؤمنين فى موسى وحسان ، كالمتراهِنَيْن أرسَلا فَرَسَيْهما إلى غايتهما ، فأتيَا معا ، وقد مُدَّت الغايةُ لأحدهما ، ولك عنده مَزِيدٌ إن شاء الله ، وقد جاءنى يا أمير المؤمنين كتاب من موسى ، وقد وجَّهْتُه إليك لِتقرأَه ، وتحمَدَ اللهَ عليه ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ٢ : ٤٧)

١٦٥ — رد عبد الملك على عبد العزيز

فكتب إليه عبد الملك :

« أما بعدُ : فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك ، وفَهِم المَثَل الذى مثَّلْتَه فى حَسَّان وموسى ، ويقول لك : عند أحدهما مزيدٌ ، وكُلٌّ قد عرَّفَ اللهُ على يده خيرا ونصرا ، وقد أجريْتَ وحدَك ، وكلُّ مُجْرٍ بالخلاء مسرور[1] ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ٢: ٤٧)

---

(١) هو مثل ، ورواه الميدانى فى مجمع الأمثال « كل مجر فى الخلاء يسر » قال ويروى : « كل مجر بخلاء مجيد » قال : ويقال أيضا : « كل مجر بخلاء سابق » وقال صاحب اللسان فى مادة «سرر» وقد سررته أسره . أى فرحته ، والمثل الذى جاء « كل مجر بالخلاء مسر » إنما جاء على توهم أسر.

١٦٦ – كتاب الحجاج إلى المهلب

ولما وَلِى الحجاج العراق، قَدِم الكوفةَ فخطَب أهلَها خطبته المشهورة ، واستنفرهم لقتال الخوارج مع المهلَّب ، وتوعَّد من تخلَّف، ثم خرج إلى البصرة ، فقام فيها بخطبة مثل التى قام بها فى أهل الكوفة ، وتوعدهم مثل وعيده إياهم، فتدفّق الناس على المهلب فقال: جاء الناس رجل ذَكَرٌ[١]، وكتب الحجاج إلى المهلب ، وإلى عبد الرحمن بن مِخْنَف

« أما بعدُ : إذا أتاكم كتابى هذا فناهِضوا الخوارجَ ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧: ٢١٥)

١٦٧ – كتاب الحجاج إلى المهلب

وكتب الحجاج إلى المهلب :

« أما بعدُ : فإن بِشْرًا – رحمه الله – اسْتَكْرَهَ[٢] نفسه عليك ، وأراك غِناه عنك، وأنا أُريك حاجتى إليك ، فأرِنى الجِدَّ فى قتال عدوك ، ومَن خِفْته على المعصية ممن قِبَلك فاقتُلْه ، فإنى قاتلٌ مَنْ قِبَلِى ، ومن كان عندى مِنْ وَلِىٍّ مَنْ هَربَ عنك فأَعْلِمْنِى مكانَه ، فإنى أرى أنْ آخُذَ الوَلِىَّ بالوَلِىِّ[٣] ، والسَّمِىَّ بالسَّمِىِّ »

١٦٨ – رد المهلب على الحجاج

فكتب إليه المهلب :

« ليس قِبَلِى إلا مُطيعٌ ، وإن الناس إذا خافوا العقوبةَ كبَّرُوا الذنب، وإذا أَمِنوا العقوبةَ صَغَّروا الذنب،وإذا يئسوا من العفو أكفَرَهم ذلك، فهَبْ لِى هؤلاء الذين سمَّيتَهم عُصاةً ، فإنما هم فُرْسان أبطال ، أرجو أن يقتل الله بهم العدوَّ ، ونادِمٌ[٤] على ذَنْبه ».

---

(١) أى قوى شجاع أبى .   (٢) أى حمل نفسه على كراهيتك .

(٣) ومن قبله زياد يقول فى خطبته البتراء : « وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى » وسميك: من باسمه اسمك ونظيرك .   (٤) معطوف على فرسان أبطال ، بمعنى الجمع : أى نادمون .

فلما رأى المهلب كثرة الناس عليه قال : اليومَ قوتل هذا العدو .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١٤ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٩٧)

١٦٩ — كتاب الحجاج إلى المهلب

وخرج المهلب فى آثار الخوارج ، ونشِب بينه وبينهم القتال ، فانكشفوا ، وقد كثر فيهم القتل والجِراح ، وكتب الحجاج إلى المهلب من قبل الوَقعة :

« أما بعدُ : فإنه بلغنى أنك أقبلتَ على جِباية الخَراج ، وتركْتَ قِتال العدو ، وإنى ولَّيتك وأنا أرى مكان عبد الله بن حَكِيم المُجاشِعِىّ ، وعَبَّادِ بن حُصَيْن الحَبَطِىّ ، واخترتك وأنت من أهل عُمَان ، ثم رجل من الأَزْد ، فالقَهُم يومَ كذا فى مكان كذا ، وإلاَّ أَشرَعْتُ[1] إليك صَدْرَ الرمح » :

فشاور بنيه فقالوا : إنه أمير ، فلا تَغلُظْ عليه فى الجواب :

١٧٠ — رد المهلب على الحجاج

فكتب إليه المهلب :

« وَرَدَ علىَّ كتابُك تزعُم أنى أقبلتُ على جباية الخَراج ، وتركتُ قتال العدوّ ، ومن عجَز عن جباية الخراج فهو عن قتال العدو أعْجَزُ ، وزعمتَ أنك ولَّيتنى وأنت ترى مكان عبد الله بن حَكِيم المُجَاشِعِىّ ، وعَبّاد بن حُصَيْن الحَبَطِىّ ، ولو وَلَّيتَهما لكانا مستحقَّين لذلك ، فى فضلهما وغَنائِهما[2] وبَطْشهما ، واخترتَنى وأنا رجل من الأزد ، ولعَمْرى إن شرا من الأزد لقبيلةٌ تنَازَعَها ثلاثُ قبائلَ لم تستقرَّ فى واحدةٍ منهن[3] ،

---

(١) أى سددت . (٢) كفايتهما .

(٣) يعنى قبيلة ثقيف قبيلة الحجاج فهى متنازعة بين هوازن وإياد وثمود ، وهاك كلمة عن نسبها : اختلف النسابون فى نسب ثقيف على ثلاثة أقوال :

فقال قوم إنهم من هوازن ، وهو القول الذى يزعمه الثقفيون ، قالوا إن جدهم ثقيفا هو ثقيف (واسمه قسى) بن منبة بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن غيلان بن مضر بن نزار =

. . . .

= ابن معد بن عدنان، وعلى هذا القول جمهور الناس. ويزعم آخرون أن ثقيفا من إياد بن نزار بن معد ابن عدنان ، ويقولون هو قسى بن منبه بن النبيت بن منصور بن يقدم بن أفصى بن دعمى بن إياد، وإن النخع أخوه لأبيه وأمه ، ثم افترقا ، فصار أحدهما فى عداد هوازن، والآخر فى عداد مذحج بن مالك بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، قالت أخت الأشتر وهو مالك بن لحرث النخعى تبكيه :

ابعد الأشتر النخعى نرجو	مكاثرة ونقطع بطن وادى
ونصحب مذحجا بإخاء صدق	وإن ننسب فنحن ذرا إياد
ثقيف عمنـــا وأبو . أبينا	وإخوتنا نزار أولو السداد

وروى أن المغيرة بن شعبة وهو والى الـكوفة صار إلى دير هند بنت النعمان بن المنذر فى الحيرة ، وهى فيه عمياء مترهبة ، فاستأذن عليها ، فقيل لها أمير هذه المدرة بالباب (والمدرة بالتحريك : المدينة) فقالت : قولوا له : أمن ولد جبلة بن الأيهم أنت ؟ قال : لا ، قالت أفمن ولد المنذر بن ماء السماء ؟ قال لا ، قالت : فمن أنت ؟ قال : المغيرة بن شعبة الثقفى ، قالت ، فمـا حاجتك ؟ قال :جئتك خاطبا ، قالت: لو كنت جئتنى لجمال أو لمال لأطلبتك ، (أى أعطيتك ما طلبت) ولـكنك أردت أن تتشرف بى فى المحافل فتقول: نـكحت ابنة النعمان بن المنذر ، وإلا فأى خير فى اجتماع أعور وعمياء ؟ (وكانت عينه قد ذهبت فى وقعة اليرموك ـ انظر ترجمته فى أسد الغابة) فبعث إليها : كيف كان أمركم ؟ فقالت: سأختصر لك الجواب : أمسينا وليس فى الأرض عربى إلا وهو يرغب إلينا ويرهبنا ، ثم أصبحنا وليس فى الأرض عربى إلا ونحن نرغب إليه ونرهبه، قال : فما كان أبوك يقول فى ثقيف ؟ قالت : اختصم إليه رجلان منهم أحدهما ينميها إلى إياد والآخر إلى بكر بن هوازن فقضى بها للإيادى ، وقال :

إن ثقيفا لم يكن هوازنا	ولم يناسب عامرا ومازنا

(يريد عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور ومازن بن منصور) فقال المغيرة : أما نحن فمن بكر بن هوازن . فليقل أبوك ما شاء ثم انصرف .

وقال قوم آخرون إن ثقيفا من بقايا ثمود من العرب القديمة التى بادت وانقرضت قيل : كان عبدا لأبى رغال (كـكتاب) وكان أصله من قوم نجوا من ثمود فانتمى بعد ذلك إلى قيس بن عيلان ، روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه مر بثقيف فتغامزوا به فرجع إليهم فقال لهم : يا عبيد أبى رغال إنما كان أبوكم عبدا له فهرب منه فثقفه (كسمع : أى ظفر به) بعد ذلك ، ثم انتمى إلى قيس ، وروى أيضا أن عليا قال على المنبر بالـكوفة ـ وذكر ثقيفا ـ « لقدهممت أن أضع على ثقيف الجزية ، لأن ثقيفا كان عبدا لصالح نبى الله عليه السلام ، وأنه سرحه إلى عامل له على الصدقة فبعث العامل معه بها ، فهرب واستوطن الحرم ، وإن أولى الناس بصالح محمد صلى الله عليهما وسلم » وسيرد عليك قريبا أن عبد الملك ابن مروان كتب فى إحدى رسائله إلى الحجاج يقول : « لقد جالت البصيرة فى ثقيف بصالح النبى صلى الله عليه وسلم، إذ ائتمنته على الصدقات ، وكان عبده،فهرب بها عنه»وقال شبيب بن يزيد الشيبانى الخارجى حين دخل الـكوفة فى عهد الحجاج سنة ٧٦ هـ :

عبد دعى من ثمود أصله	لا بل يقال أبو أبيهم يقدم

=

وزعمتَ أنى لم أَلْقَهم فى يوم كذا فى مكان كذا، أشرعتَ إلىَّ صدرَ الرمح، فلو فعلتَ لقلَبْتُ إليك ظَهْرَ المِجَنِّ[1] ، والسلام » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٩٧ ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٦)

١٧١ — كتاب الحجاج إلى المهلب

ووجَّه الحجاج البَرَاء بن قَبِيصَةَ إلى المهلب يستحثه فى مناجزة القوم وكتب إليه :

« إنك لتحبُّ بقاءهم لتأكل بهم » .

فقال المهلب لأصحابه: حرِّكوهم[2]، فشهِد البَراء من جَلَدهم وثباتهم ما أدهشه، فرجع إلى الحجاج ، فقال له : مَهْيَمْ[3]، قال : « رأيت أيها الأمير قومًا لا يعين عليهم إلا الله » .

١٧٢ — رد المهلب على الحجاج

وكتب المهلب جواب الحجاج :

« إنى منتظرٌ بهم إحدى ثلاثٍ : موت ذَريعٌ[4] ، أو جوع مُضِرٌ ، أو اختلاف من أهوائهم[5] » . (الكامل للمبرد ٢ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٩٨)

= (ويقدم كينصر من أبناء إياد وجد ثقيف — على رأى كما قدمنا) وقد قال الحجاج على المنبر: يزعمون أنا من بقايا ثمود فقد كذبهم الله بقوله : « وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى » وقال مرة أخرى : ولئن كنا من بقايا ثمود لما نجا مع صالح إلا خيارهم .

انظر شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٣٩٢ والكامل للمبرد ١ : ٢٢٤ ومروج الذهب ٢ : ٦٨ والأغانى ٤ : ٧٤ وتاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٣ والعقدالفريد ٣ : ٨ .

(١) المجن : الترس ، وقلب له ظهر المجن : كلمة تضرب مثلا لمن كان لصاحبه على مودة أو رعاية ثم حال عن ذلك ، أى أسقط الحياء وفعل ماشاء .

(٢) قال أبو العباس : « فخرج فرسان من أصحابه إليهم فخرج إليهم من الخوارج جمع ، فاقتتلوا إلى الليل ، فقال لهم الخوارج ، ويلكم ، أما تملون ؟ فقالوا : لا ، حتى تملوا . قالوا : فمن أنتم ؟ قالوا : تميم ، قالت الخوارج : ونحن بنو تميم ، فلما أمسوا افترقوا ، فلما كان الغد خرج عشرة من أصحاب المهلب ، وخرج إليهم عشرة من الخوارج ، فاحتفر كل واحد منهم حفيرة وأثبت قدمه فيها ، فكلما قتل رجل جاء رجل من أصحابه فاجتره ووقف مكانه حتى أعتموا، فقال لهم الخوارج : ارجعوا . فقالوا : بل ارجعوا أنتم ، فقالوا : ويلكم ، من أنتم ؟ فقالوا : تميم ، قالوا : ونحن تميم .

(٣) كلمة يمانية . استفهام معناه : ما الخبر وما الأمر . (٤) الموت الذريع : الفاشى .

(٥) وقد بذر المهلب بينهم بذور الشقاق والاختلاف حتى اضطرب أمرهم وانتكث فتلهم كما سنبينه بعد.

صورة أخرى لكتاب الحجاج إلى المهلب

وقال الطبرى فى هذا الصدد :

وبعث الحجاج إلى المهلَّب البَرَاء بن قَبِيصةَ وكتب إلى المهلب :

« أما بعدُ ، فإنك واللهِ لو شئتَ فيما أَرَى لقد اصْطَلمتَ[١] هذه الخارجةَ المارقةَ ، ولكنك تُحِبُّ طولَ بقائهم لتأكلَ الأرض حَوْلَك، وقد بعثتُ إليك البراء بنَ قبيصةَ لِيُنْهِضَكَ إليهِمْ فَانْهضْ إليهم إذا قَدِم عليك بجميع المسلمين ، ثم جاهِدْهم أشدَّ الجهاد ، وإياك والعِلَلَ والأباطيلَ[٢] والأمور التى ليست لك عندى بسائِغَةٍ ولا جائِزة ، والسلام[٣] » .

صورة أخرى لرد المهلب على الحجاج

فكتب المهلب إلى الحجاج :

« أما بعد : فقد أتانى كتابُ الأمير — أصلحه الله — واتِّهامُه إياى فى هذه الخارجة المارقة ، وأَمَرَنى الأمير بالنهوض إليهم ، وإشهادِ رسولِهِ ذلك ، وقد فعلت ، فليسأله عما رأى ، فأمَّا أنا فواللهِ لو كنت أقدرُ على استئصالهم ، أو إزالتهم عن مكانهم ثم أمسكت عن ذلك ، لقد غَشَشْتُ المسلمين ، وما وَفَيْتُ لأمير المؤمنين ، ولا نصحتُ

---

(١) اصطلمه : استأصله .

(٢) الأباطيل : جمع أبطولة بضم الهمزة ، أو جمع إبطالة بالكسر ، أو جمع باطل على غير قياس .

(٣) قال: فأخرج المهلب بنيه ، كل ابن له فى كتيبة ، وأخرج الناس على راياتهم ومصافهم وأخماسهم، وجاء البراء بن قبيصة فوقفه على تل قريب منهم حيث يراهم ، فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال، فيقتتلون أشد قتال رآه الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار ثم انصرفوا ، فجاء البراء إلى المهلب فقال له لا والله ما رأيت كبنيك فرسانا قط ، ولا كفرسانك من العرب فرسانا قط ،ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أصبر ولا أبأس ، أنت والله المعذور ، فرجع بالناس المهلب حتى ذا كان عند العصر خرج إليهم بالناس وبنيه فى كتائبهم فقاتلوه كقتالهم فى أول مرة ، حتى حجز الليل بينهم فانصرفوا عند المساء ، قال المهلب للبراء . كيف رأيت ؟ قال : رأيت قوما والله ما يعينك عليهم إلا الله ، فأحسن إلى البراء وأجازه وحمله وكساه وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثم انصرف إلى الحجاج فأتاه بعذر المهلب وأخبره بما رأى .

للأمير – أصلحه اُلله – فمعاذَ اُللهِ أن يكون هذا من رأيى ، ولا مما أَدِينُ اُللهَ به ، والسلام » .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٩)

١٧٣ – كتاب الحجاج إلى المهلب

ووجَّه الحجاج الجرَّاحَ بنَ عبد الله إلى المهلب يستبطئه فى مناجزة القوم ، وكتب إليه :

« أما بعدُ : فإنك جَبَيْتَ الخَراج بالعِلَل ، وتحصَّنْتَ بالخنادق ، وطاوَلْتَ القومَ ، وأنت أعزُّ ناصرا ، وأكثرُ عَدداً ، وما أظنُّ بك مع هذا مَعْصِيَةً ولا جُبْناً ولكنك اتخذتهم أُكْلاً[١] ، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالهم ، فناجِزْهم وإلا أنكرتَنى ، والسلام[٢] » .

١٧٤ – رد المهلب على الحجاج

فكتب المهلب إلى الحجاج .

« أتانى كتابُك تستبطِئنى فى لقاء القوم ، على أنك لا تظنُّ بى معصية ولا جُبنا ، وقد عاتبتَنى معاتبةَ الجبان ، وأوعدتنى وَعيدَ العاصى ، فاسأل الجرَّاحَ ، والسلام[٣] » .
(الكامل للمبرد ٢ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٩٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ١٤٧)

---

(١) الأكل كقفل وعنق : ما يؤكل والرزق والحظ من الدنيا .

(٢) فقال المهلب للجراح : يا أبا عقبة والله ما تركت حيلة إلا احتلتها ، ولا مكيدة إلا أعملتها ، وما العجب من إبطاء النصر وتراخى الظفر ، ولكن العجب أن يكون الرأى لمن يملكه دون من يبصره ، ثم ناهض الخوارج ثلاثة أيام يغاديهم القتال ، ولا يزالون كذلك إلى العصر ، وينصرف أصحابه وبهم قرح ، وبالخوارج قرح وقتل ، فقال له : قد أعذرت .

(٣) فلما قدم الجراح على الحجاج ، قال له : كيف رأيت أخاك ؟ قال : والله ما رأيت أيها الأمير مثله قط ، ولا ظننت أن أحدا يبقى على مثل ماهو عليه ، ولقد شهدت أصحابه أياما ثلاثة يغدون إلى الحرب ثم ينصرفون عنها ، وهم بها يتطاعنون بالرماح ، ويتجالدون بالسيوف ، ويتخابطون بالعمد ، ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئا ، رواح قوم تلك عادتهم وتجارتهم ، فقال الحجاج : لشد ما مدحته أبا عقبة ! قال : الحق أولى .

١٧٥ — كتاب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء

وكتب الحجّاج إلى عَتَّاب بن وَرْقاء الرِّياحىّ من بنى رِياح بن يَرْبوع ابن حَنظلة ، وهو والى أَصْبَهان « يأمره بالمسير إلى المهلب ، وأن يضم إليه جند عبد الرحمن ابن مِخْنف ، فكل بلد تدخلانه من فتوح أهل البصرة ، فالمهلب أمير الجماعة فيه ، وأنت على أهل الكوفة ، فإذا دخلتم بلداً فَتْحُه لأهل الكوفة فأنت أمير الجماعة ، والمهلب على أهل البصرة »

فقدم عتاب فى إحدى جُمادَيين من سنة ٧٦ على المهلب .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٠)

١٧٦ — كتاب المهلب إلى الحجاج

قال ابن نُباتة فى سَرْح العيون :

« وكتب الحجاج إلى المهلب يستبطئه فى مناجزة الأزارقة ويستعجزه ، فحبس المهلب رسولِ الحجاج أياما حتى رأى صنع الخوارج وجَلَدهم وثباتهم ، وكتب إلى الحجاج يقول :

« إن الشاهد يَرَى مالا يراه الغائب ، فإن كنت نَصَبْتَنى لحرب هؤلاء القوم ، على أن أدَبِّرها كما أرى ، فإن أمْكَنَتْنى فُرصةٌ انتهزتُها ، وإن لم تُمكنّى توقفتُ ، فأنا أُدبر ذلك بما يُصلحه ، وإن أردتَ منى أن أعمل وأنا حاضرٌ ، برأيك وأنت غائب ، فإن كان صوابا فلَكَ ، وإن كان خَطَأً فعلىّ ، فابعث مَن رأيتَ مكانى ، والسلام[1] » .

(سرح العيون ص ١٣٤)

---

(١) ورواية أبى الفرج الأصبهانى : « كتب الحجاج إلى المهلب يأمره بمناجزة الأزارقة ويستبطئه ويضعفه ويعجزه فى تأخيره أمرهم ومطاولته لهم ، فقال المهلب لرسوله : قل له إنما البلاء أن الأمر إلى من يملكه لا إلى من يعرفه ، فإن كنت نصبتنى لحرب هؤلاء القوم . . الخ » — الأغانى ١٣ : ٥٧ —

١٧٧ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وكتب المهلب من فوره إلى عبد الملك ، فكتب إليه عبد الملك :

« لا تعارض المهلَّبَ فيما يراه ، ولا تُعْجِلْه ، ودَعْه يدبر أمره » .

(الأغانى ١٣ : ٥٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٧)

١٧٨ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مَرْوان يُغلِّظ له أمرَ الخوارج مع قَطَرِى ، فكتب إليه عبد الملك :

« أمّا بعدُ ، فإنى أَحْمَدُ إليك السيفَ ، وأُوصِيك بما أوصى به البَكْرِىُّ زيدًا » .

فلم يفهم الحجاج ما عَنَاه عبد الملك . وقال لحاجبه : نادِ فى الناس : من أخبر الأمير بما أوصى به البكرى زيدا فله عشرة آلاف دِرْهم ، فورَد رجل من الحجاز يتظلم من بعض عماله ، فقال للحاجب : أنا أخبره ، فأدخله عليه فقال له : ماقال البكرىُّ لزيد ؟ قال : قال لابن عمه زيد : والشعر لموسى ابن جابر الحنفى :

أقول لزيدٍ لا تُتَرْتِرْ فإنهم ... يَرَون المنايا دون قتلِك أو قتلى [١]

فإن وضعوا حَرْبا فضَعْها ، وإن أبَوا ... فَشُبَّ وَقُودَ الحرب بالحطَب الجزْلِ [٢]

فإن عَضَّتِ الحربُ الضَّرُوسُ بنابِها ... فعُرْضةُ نار الحرب مثلُك أو مثلى [٣]

فقال الحجاج : صدق أمير المؤمنين ، عُرْضة نار الحرب مثلى أو مثله ، وصدق البكرى .

(مروج الذهب ٢ : ١٥٩ ، وذيل الأمالى ص ٧٣)

---

(١) الترترة بالتاء وبالثاء : إكثار الكلام وترديده ، والبربرة بالباء أيضا : كثرة الكلام والجلبة والصياح .

(٢) الجزل : الحطب اليابس ، أو الغليظ العظيم منه .

(٣) حرب ضروس : أكول عضوض ، وأصله من الناقة الضروس ، وهى السيئة الخلق العضوض لحالبها .

١٧٩ — كتاب الحجاج إلى المهلب

وكتب إلى المهلب :

« إن أمير المؤمنين أوصانى بما أوصى به البكرىُّ زيداً ، وأنا أوصيك به وبما أوصى به الحارثُ بن كعب[١] بنيه .

فأتى المهلب بوصيته ، فإذا فيها :

« يا بَنِىَّ كونوا جميعاً ولا تكونوا شَتّى[٢] فتفرَّقوا ، وبُزُّوا[٣] قبل أن تُبَزُّوا ، فموتٌ فى قوة وعز خيرٌ من حياة فى ذل وعجْز » .

فقال المهلب : صدق البكرى ، والحارث بن كعب .

(مروج الذهب ٢ : ١٥٩)

١٨٠ — كتاب أبى خالد القنانى إلى قطرى بن الفجاءة

وقال أبو العباس المبرِّد : من طريف أخبار الخوارج قول قَطَرى بن الفُجاءة المازِنىّ لأبى خالد القَنَانِىّ[٤] — وكان من قَعَد الخوارج — :

أبا خالدٍ يا انْفِرْ فلست بخالدٍ ... وما جعل الرحمن عُذْرًا لِقاعِدِ[٥]

أَتزعُمُ أن الخارجىَّ على الهُدَى ... وأنت مُقيمٌ بين لصٍّ وجاحِدِ ؟

فكتب إليه أبو خالد :

« لقد زاد الحياةَ إلىَّ حُبًّا ... بناتِى إنهن من الضِّعافِ

أُحاذِرُ أن يَرَيْن الفقر بعدى ... وأن يشربْن رَنْقًا بعد صافى[٦]

---

(١) هو أحد الجاهليين المعمرين .

(٢) أى متفرقين ، جمع شتيت .

(٣) بزه : سلبه وفى المثل : « من عز بز » أى من غلب سلب .

(٤) نسبة إلى قنان كسحاب : وهو جبل لأسد .

(٥) يا للتنبيه ، ونفر للقتال كضرب : ذهب .

(٦) الرنق : الكدر .

وأن يَعْرَيْنَ إن كَسِىَ الجوارى فتنبُو العَينُ عن كَرَمٍ عِجافِ (١)
ولولا ذاكَ قد سَوَّمت مُهْرِى وفى الرحمن للضُّعفاء كافى (٢)
أبانَا ، مَنْ لنا إن غِبْتَ عنا وصار الحىُّ بعدكَ فى اختلاف؟ »

(الـكامل للمبرد ٢ : ١٢١)

١٨١ — كتاب قطرى إلى سبرة بن الجعد

وروى المسعودى فى مروج الذهب أيضا قال :

واتخذ الحجاجُ سَبْرَةَ بن الجَعْد الشيْبانىّ سميرا ، فلم يك يطلب شيئا من الحديث إلا وجد عنده منه عِلْما ، وكان يَرَى رَأْى الخوارج من أصحاب قَطرِىّ بن الفُجاءة التميمى (والفُجاءة أمه ، وكانت من بنى شَيْبان ، وإنما هو رجل من تميم) وكان قطرى يومئذ يحارب المهلَّبَ ، فبلغ قطريًّا مكانُ سَبْرَةَ من الحْجاج ، نكتب إليه بأبيات منها :

لَشَتَّانَ ما بين ابنِ جَعْدٍ وبيننَا إذا نحن رُحْنا فى الحديد المُظاهَرِ (٣)
نُجاهِدُ فُرْسانَ المهلَّب ، كلُّنا صَبورٌ على وَقْعِ السيوف البواتِرِ
وراح يَجُرُّ الخزَّ عند أميره أميرٌ بتقْوَى ربِّه غيرُ آمِرِ
أَبا الجَعْد ، أين العِلْمُ والحِلْمُ والنُّهَى ومِيراثُ آباءٍ كِرامِ العناصِرِ (٥)
ألم تَرَ أن الموت لاشكَّ نازلٌ ولا بدَّ من بعثِ الأُلَى فى المقابر
حُفاةً عُراةً والترابُ لديهمُ فمن بين ذى ربح وآخَرَ خاسِرِ
فإن الذى قد نِلْتَ يَفْنَى ، وإنما حَياتُك فى الدنيا كوَقْعةِ طائرِ

---

(١) يقال: رجل كرم : أى كريم ، وكذا المؤنث والجمع لأنه مصدره ، وعجاف جمع عجفاء ، وهى المهزولة . (٢) سومت : أرسلت .

(٣) عنى بالحديد الدرع ، وظاهر الدرع : لأم بعضها على بعض ، وظاهر بين درعين : طابق وجمع ولبس إحداهما فوق الأخرى ، ومثله قول ورقاء بن زهير :

فشلت يمينى يوم أضرب خالدا ويمنعه منى الحديد المظاهر

(٤) النهى : العقل ، وهو يكون جمع نهية (كغرفة) أيضا ، وهى العقل .

فراجِعْ أبا جَعْدٍ ، ولا تكُ مُغْضِبًا على ظُلْمَةٍ أَعْشَتْ جميعَ النواظِرِ
وتُبْ تَوبةً تُهْدِى إليك شهادةً فإنك ذو ذنبٍ ولستَ بكافر
وسِرْ نحوَنا تلقَ الجِهادَ غنيمةً تُفِدْكَ ابتياعاً رابحًا غيْرَ خاسِر
هى الغايةُ القُصْوَى الرَّغِيبُ ثوابُها إذا نال فى الدنيا الغِنَى كلُّ تاجر[1]

فلما قرأ كتابه بكى ، وركب فرسه ، وأخذ سلاحه ، ولَحِق بقطرى ، وطلبه الحجاج فلم يقدر عليه .

١٨٢ — كتاب سبرة بن الجعد إلى الحجاج

ولم يَرُعِ الحجاجَ إلا كتاب قد بَدَر منه فيه شعرِ قطرى الذى كان كتب به إليه ، وفى أسفل الكتاب إلى الحجاج أبيات منها :

فمن مُبْلِغُ الحجَّاجِ أنَّ سَمِيرَه قَلَى كلَّ دينٍ غيرَ دينِ الخوارج[2] ؟
رأى الناسَ (إلا مَنْ رأى مثلَ رأيه) مَلاعِينَ تَرَّاكِينَ قَصْدَ المَخَارِج[3]
فأقبلتُ نحوَ اللهِ باللهِ واثقًا وما كُرْبتِى غيرُ الإلهِ بفارج
إلى عُصْبَةٍ أمَّا النهارَ فإنهم هم الأُسْدُ أُسْدُ الغِيلِ عند التهايُج[4]
وأمّا إذا ما الليل جَنَّ فإنهمْ قِيامٌ بأنواح النساء النواشِجِ[5]
ينادُون للتحكيم ، تاللهِ إنهم رأوا حُكْمَ عَمْرٍو كالرياح الهَوائِجِ[6]
وحُكْمَ ابنِ قيسٍ مثلَ ذاكَ فأُعْصِموا بحبلٍ شديد المَتْنِ ليس بناهِجِ[7]

---

(١) الرغيب ثوابها : أى المرغوب فى ثوابها .
(٢) قلاه كرماه ورضيه : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه .
(٣) القصد : استقامة الطريق . (٤) الغيل بالكسر : الشجر الكثير الملتف ، ويفتح .
(٥) جن الليل : أقبل . والنواشج : جمع ناشجة ، نشج الباكى كضرب نشيجا : غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب .
(٦) ينادون للتحكيم : كان شعار الخوارج : « لا حكم إلا لله » ولذا سموا « المحكمة » ، وعمرو : وهو عمرو بن العاص .
(٧) ابن قيس هو أبو موسى الأشعرى واسمه عبد الله بن قيس ، وأعصمه : هيأ له شيئا يعتصم به . ونهج الثوب والحبل مثلثة الهاء : بلى .

فطرح الحجاج هذا الكتاب إلى عَنْبَسَة بن سعيد ، فقال : هذا من سميرنا الشيبانى وهو من الخوارج ولا نعلم به ! .

(مروج الذهب ٢ : ١٣٨)

١٨٣ — كتاب الحجاج إلى قطرى بن الفجاءة

وروى أبو العباس المبرِّد فى الكامل قال :

قال الحجاج يوما لعَمائر[١] العرب ، وهم فى مجلسه : ما أحسب هذا المَزُونىّ[٢] يناصِحُنا فى حربنا — يعنى المهلَّبَ — والرأىُ مشترك ، فقالوا : الرأى للأمير — أصلحه الله — أن يكتب إلى ابن الفُجاءة بإطعامه بعض الأَرَضِينَ ، فإذا هو نَخَعَ[٣] بطاعته ، وأظهر الدعوة له ، سَهُلت الحيلةُ فيه ، فقال : وفَّقكم الله ، وكتب إلى ابن الفجاءة ، وأنفذه على يد الغَضْبان بن القَبَعْثَرَى الشَّيْبانى ، ونسخة الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة ، سلام عليك ، المُوَحَّد اللهُ ، والمصلَّى عليه محمد عليه السلام ، أما بعد ، فإنك كنت أعرابيا بَدَوِيًّا ، تستطعِم الكِسْرَةَ ، وتَخِفُّ إلى التمرة ، ثم خرجت تحاول ما ليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ، ومرَقتَ من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارجع عما أنت عليه بما زُيِّن لك ، وادْعُنى فقد آن لك » .

---

(١) العمائر : جمع عمارة بالفتح ويكسر ، وهى أصغر من القبيلة ، وطبقات النسب ست ، أعلاها : الشعب بالفتح ، وهو يجمع القبائل ، ثم القبيلة وتجمع العمائر ، ثم العمارة وتجمع البطون ، ثم البطن ويجمع الأفخاذ ، ثم الفخذ ، وتجمع الفصائل ، ثم الفصيلة ، فخزيمة مثلا شعب ، وكنانة قبيلة ، و قريش عمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة .

(٢) نسبة إلى مزون كصبور ، وهى قرية من قرى عمان (كغراب) باليمن ، كان يسكنها اليهود والملاحون ليس بها غيرهم ، وكان الفرس يسمون عمان المزون ، وكان أزد عمان — وهم رهط المهلب — يكرهون أن يسموا المزون .

(٣) نخع له بحقه كنمع : أقر (ونخع بالحق أيضا : أقر به وخضع له) .

فلما أوصل الغضبان الكتاب إلى قطرىّ: قال: يا غلام، أُزْبُر[1] هذه الصحيفة، فتلا عليه ما فيها، فتنهَّد قطرى الصُّعَداء[2]، فقال: يا غضبان ألفيتَنى محزونا، وأنشأ يقول:

فيا كَبِدًا من غير جوع ولا ظَمًا ... ووا كبدًا من وَجْدِ أم حَكيمِ

فلو شَهِدَتْنِي يوم دُولابَ أبصرتْ ... طِعانَ فتًى فى الحرب غير لئيمِ[3]

غَدَاةَ طَفَتْ عَلْماءِ بكرُ بن وائلٍ ... وعُجْنا صدورَ الخيل نحو تميمِ[4]

وكان بعبد القيس أَوَّلُ حَدِّنا ... وآبَ عَميدُ الأزد غيرَ ذميمِ

يعنى المهلب - وأم حكيم هذه: امرأة من الخوارج قُتِلَتْ بين يديه[5] - ثم قال: يا غلام اكتب:

١٨٤ - رد قطرى بن الفجاءة على الحجاج

« بسم الله الرحمن الرحيم، من قَطَرِىّ بن الفُجاءة إلى الحجاج بن يوسف، سلام على من اتَّبَع الهدى، ذكرتَ فى كتابك أنى كنت بدويا أستطعِمُ الكِسْرَة، وأبدُرُ[6] إلى التمرة، وبالله لقد قلتَ زُورا، بل الله بصَّرَنِى من دينه ما أعماك عنه،

---

(١) زبر الكتاب (وزبره أيضا) قرأه. (٢) الصعداء: تنفس طويل.

(٣) دولاب: قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ، وقعت فيها وقعة بين أهل البصرة بقيادة مسلم ابن عنيس وبين الأزارقة بقيادة نافع بن الأزرق، وقتل ابن عنيس وابن الأزرق فى المعركة (سنة ٦٥ هـ) انظر هامش ص ٩٧.

(٤) علماء: أى على الماء، قال المبرد « إن العرب إذا التقت فى مثل هذا الموضع لامان استجازوا حذف إحداهما استثقالا للتضعيف، لأن ما بقى دليل على ما حذف، وكذلك كل اسم من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة، فإنهم يجيزون معه حذف النون التى فى قولك بنو لقرب مخرج النون من اللام وذلك قولك فلان من بلحارث وبلعنبر وبلهجيم » - الكامل ٢ : ١٨٣ - وعجنا: عطفنا.

(٥) روى أبو الفرج الأصبهانى عن ميمون بن هرون قال: « حدثت أن امرأة من الخوارج كانت مع قطرى بن الفجاءة يقال لها أم حكيم، وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجها، وأحسنهم بدينهم تمسكا، وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجب إلى ذلك، فأخبرنى من شهدها أنها كانت تحمل على الناس وترتجز:

أحمل رأسا قد سئمت حمله ... وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عنى ثقله ؟

قال: وهم يفدونها بالآباء والأمهات، فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها - الأغانى ٦ : ٦.

(٦) بدر إليه: عجل إليه واستبق.

إذ أنت سائح فى الضَّلالة ، غَرِق فى غَمرات الكفر ، وذكرتَ أن الضرورة طالت بى فهلا برز لى من حزْبك مَن نال الشِّبَع ، واتكأ فاتَّدَع[١] ؟ أمَا واللهِ لئن أبرز اللهُ صَفْحَتك ، وأظهر لى صُلْعَتك[٢] لَتُنْكِرَنَّ شِبَعك ، ولتَعْلَمَنَّ أن مُقارعة الأبطال ، ليس كتسطير الأمثال » . (الكامل للمبرد ١ : ١٨٠)

وروى الجاحظ فى البيان والتبيين هذين الكتابين بصورة أخرى قال :

صورة أخرى لكتاب الحجاج إلى قطرى

كتب الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة :

« سلام عليك ، أما بعدُ ، فإنك مَرَقْت من الدين مُرُوقَ السهم من الرَّمِيَّة[٣] ، قد علمتَ ـ حيثُ تجرْثمتَ[٤] ذلك ـ أنَّك عاصٍ لله ولُولاة أمره ، غير أنك أعرابى جِلْف[٥] أُمِّىّ ، تستطعِم الكِسْرَة ، وتشتفى بالتَّمرة ، والأمورُ عليك حسرة ، خرجت لتناول شَبْعة ، فلَحِق بك طَغَامٌ[٦] صَلُوا بمثل ما صَلِيتَ به من العيش ، يَهُزُّون الرماح ، ويستنشِئون[٧] الرياح ، على خوف وجَهْد من أمورهم ، وما أصبحوا ينتظرون أعظمُ مما جَهِلوا معرفَته ، ثم أهلكهم اللهُ بنزْحَتَين والسلام » .

---

(١) اتدع وودع : سكن واستقر .
(٢) الصلعة بالضم والصلعة بالتحريك : موضع الصلع من الرأس .
(٣) الرمية مايرمى .
(٤) تجرثم الشىء : أخذ معظمه .
(٥) الجلف : الجافى . (٦) الطغام: أوغاد الناس ، وصلى النار وبها : قاسى حرها . والمعنى أنهم قاسوا من شظف العيش ماقاسيت .
(٧) أى يتشممونها ، والذئب يستنشىء الريح أى يتشممها ، ونشيت الريح غير مهموز أى شممتها ، والاستنشاء يهمز ولا يهمز ، ومنه فلان يستنشىء الأخبار : أى يبحث عنها ويتتبعها .

صورة أخرى لرد قطرى عليه

فأجابه قَطَرِىٌّ بن الفجاءة :

« من قطرى بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف ، سلام على الهُداة من الوُلاة الذين يَرْعَوْن حَرِيمَ اللّه ، ويَرهَبون نِقَمه ، فالحمد لله على ما أظهر من دينه ، وأظْلَع[1] به أهلَ السَّفالة ، وهَدَى به من الضلالة ، ونصر به عند استخفافك بحقه .

كتبتَ إلىّ تذكر أنى أعرابى جِلْف أمى ، أستطعم الكِسْرَة ، وأشتفى بالتمرة ، ولعمرى يا ابنَ أمِّ الحجاج إنك لميِّت فى جِبِلَّتك ، مُطْلَخِمٌ[2] فى طريقتك ، واهٍ فى وثيقتك ، لا تعرف اللّه ولا تجزع فى خطيئتك ، يئستَ واستيأستَ من ربك ، فالشيطان قرِينُك لا تجاذبه وِثاقَك[3] ، ولا تُنازعه خِناقَك[4] ، فالحمد لله الذى لو شاء أبرز لى صَفْحتك ، وأوضح لى طَلْعتك[5] ، فوالذى نفس قطرى بيده لعرفتَ أن مُقارعة الأبطال ليس كتصدير المقال ، مع أنى أرجو أن يُدْحِض اللّهُ حجتَك ، وأن يُمْتِعَنِى بمهجتك[6] .

(البيان والتبيين ٢ : ١٦٥)

١٨٥ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

قال الطبرى :

ولما صارت فارس كلها فى يَدَى المهلب ، بعث الحجاج عليها عماله[7] وأخذها من المهلب ، فبلغ ذلك عبد الملك ، فكتب إلى الحجاج :

---

(١) من طلع البعير كمنع: غمز فى مشيه .
(٢) اطلخم الرجل : تكبر، واطلخم الليل : أظلم .
(٣) الوثاق بالفتح ويكسر : مايشد به .
(٤) الخناق بالكسر : الحبل يخنق به .
(٥) الظاهر أنها « صلعتك » كما تقدم .
(٦) فى الأصل « مهجتك » ولكن الذى فى كتب اللغة أن الفعل يتعدى إلى الثانى بالباء ، يقال : أمتعه بالشىء ومتعه : ملاه إياه .
(٧) وقال المبرد : « وولى الحجاج كردما فارس ، فكتب المهلب إلى الحجاج يسأل أن يتجافى له عن إصطخر ودرا بجرد لأرزاق الجند ففعل ، وكان قطرى هدم مدينة إصطخر لأن أهلها كانوا يكاتبون المهلب بأخباره وأراد مثل ذلك بمدينة فسا فاشتراها منه آزاذ مرد بن الهربذ بمائة ألف درهم فلم يهدمها » — الكامل للمبرد ٢ : ٢٢٥ — .

« أما بعدُ فدَعْ بيد المهلب خراج جبال فارس، فإنه لابد للجيش من قوة، ولصاحب الجيش من معونة ، ودع له كُورة فَسَا وَدَرَا بَجِرْدَ[١] ، و كورة إصْطَخْرَ »

فتركهما للمهلب ، فبعث المهلب عليهما عماله ، فكانت له قوة على عدوه ومايصلحه.

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٩)

١٨٦ — كتاب المهلب إلى الحجاج

ولما وقع الاختلاف بين الأزارقة وخلعوا قَطَرِىَّ بن الفُجاءة ، ووَلَّوا عبد ربِّه الكبير[٢] ، كتب المهلب إلى الحجاج :

« أما بعدُ فإن الله قد ألقى بأسَ الخوارج بينهم ، فخلَعَ عُظْمُهم[٣] قَطَرِيًّا وبايعوا عبد ربه الكبير، وبقيَتْ عِصابةٌ منهم مع قطرى، فهم يقاتل بعضُهم بعضاً غُدُوًّا وعَشِيًّا[٤] ، وقد رجوتُ أن يكون ذلك من أمرهم سببَ هلاكهم إن شاء الله ، والسلام » .

١٨٧ — رد الحجاج على المهلب

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، فقد بلغنى كتابك تذكُرُ فيه اختلافَ الخوارج بينها ، فإذا أتاك كتابى هذا فناهِضْهم على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا، فتكون مُؤْنَتُهم[٥] عليك أشدَّ والسلام »

---

(١) درا بجرد : كورة بفارس ؛ وفسا : أكبر مدن تلك الكورة .

(٢) هكذا فى تاريخ الطبرى ، وفى الكامل للمبرد أنهم ولوا عبد ربه الصغير — ج ٢ : ص٢٢٦ — قال ابن أبى الحديد : « وكان عبدربه الصغير معلم كتاب ، وكان عبدربه الكبير بائع رمان، وكلاهما من موالى قيس بن ثعلبة » م ١ : ص ٤٠٣ .

ولما وهى أمر قطرى توجه إلى طبرستان ، فوجه الحجاج إليه سفيان بن الأبرد فى جيش من أهل الشأم، فسار فى طلبه حتى لحقوه فى شعب من شعاب طبرستان ، فقاتلوه فتفرق عنه أصحابه ، ووقع عن دابته فى أسفل الشعب ، فتدهدى حتى خر إلى أسفله ، وأتاه حيث تدهدى علج من أهل البلد ، فحدر عليه حجرا عظيما من فوقه ، فأصاب إحدى وركيه ، وصاح بالناس فجاءوا إليه فقتلوه سنة ٧٧ هـ .

(٣) عظم الأمر بالضم والفتح : معظمه .   (٤) أى أول النهار وآخره .

(٥) المؤنة : الثقل وفيها لغات : مئونة بفتح الميم كركوبة ، ومؤنة كغرفة ، ومونة كسورة .

١٨٨ — رد المهلب على الحجاج

فكتب إليه المهلب :

« أما بعد ، فقد بلغنى كتابُ الأمير ، وكلَّ مافيه قد فهمتُ ، ولستُ أرى أن أقاتلهم ما داموا يَقْتُل بعضُهم بعضا وينقُصُ بعضُهم عدَد بعض ، فإن تَمُّوا[١] على ذلك فهو الذى نريد ، وفيه هلاكُهم ، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رقَّق[٢] بعضُهم بعضا ، فأُناهِضُهم على تَفِئَة[٣] ذلك ، وهم أهونُ ما كانوا ، وأضعفُه شوكةً إن شاء الله والسلام »[٤] فكف عنه الحجاج .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٧)

---

(١) يقال : تم على الأمر وتم عليه بإظهار الإدغام : أى استمر عليه .

(٢) رققه : جعله رقيقا . والمعنى أضعف بعضهم بعضا .

(٣) على تفئة ذلك : أى على إثره ، وحكى فيه الهمز والبدل .

(٤) وهاك كلمة عما شجر بين الأزارقة من الخلاف والشقاق ، وكان بعض ذلك من كيد المهلب وعظيم دهائه . قال أبو العباس : « وكان سبب اختلافهم أن رجلا حدادا من الأزارقة كان يعمل نصالا مسمومة ، فيرمى بها أصحاب المهلب ، فرفع ذلك إلى المهلب ، فقال أنا أكفيكموه إن شاء الله فوجه رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرى ، فقال: ألق هذا الكتاب فى عسكر قطرى واحذر على نفسك ، وكان الحداد يقال له (أبزى) فضى الرسول ، وكان فى الكتاب: « أما بعد ، فإن نصالك قد وصلت إلى ، وقد وجهت إليك بألف درهم ، فاقبضها ، وزدنا من هذه النصال » فوقع الكتاب والدراهم إلى قطرى ، فدعا بأبزى ، فقال ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدرى ، قال : فهذه الدراهم ؟ قال : ما أعلم علمها ، فأمر به فقتل ، فجاءه عبد ربه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة فقال له : أقتلت رجلا على غير ثقة ولا تبين ! فقال له : ما حال هذه الدراهم ؟ قال : يجوز أن يكون أمرها كذبا ، ويجوز أن يكون حقا ، فقال له قطرى : قتل رجل فى صلاح الناس غير منكر ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحا . وليس للرعية أن تعترض عليه ، فتنكر له عبد ربه فى جماعة ولم يفارقوه ، فبلغ ذلك المهلب فدس إليه رجلا نصرانيا فقال له : إذا رأيت قطريا فاسجد له، فإذا نهاك فقل إنما سجدت لك ، ففعل النصرانى ، فقال له قطرى: إنما السجود لله ، فقال ما سجدت إلا لك ، فقال له رجل من الخوارج : قد عبدك من دون الله وتلا : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » فقال قطرى: إن هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم فما ضر ذلك عيسى شيئا ، فقام رجل من الخوارج إلى النصرانى فقتله ، فأنكر ذلك عليه وقال : أقتلت ذميا ، (وكانوا يوصون بالنصرانى خيرا ويقولون : احفظوا ذمة نبيكم) فاختلفت الكلمة . فبلغ ذلك المهلب، فوجه إليهم رجلا يسألهم عن شىء تقدم به إليه فأتاهم الرجل فقال أرأيتم رجلين =

. . . .

خرجا مهاجرين إليكم ، فمات أحدهما فى الطريق ، وبلغكم الآخر فامتحنتموه فلم يجز المحنة ما تقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أما الميت فؤمن من أهل الجنة ، وأما الآخر الذى لم يجز المحنة فكافر حتى يجيزها ، وقال قوم آخرون : بل هما كافران حتى يجيزا المحنة ، فكثر الاختلاف ، فخرج قطرى إلى حدود إصطخر فأقام شهرا والقوم فى اختلافهم . ثم أقبل ، فقال لهم صالح بن مخراق : ياقوم إنكم قد أقررتم أعين عدوكم ، وأطمعتموهم فيكم ، لما ظهر من اختلافكم، فعودوا إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة . وخرج عمرو القنا فنادى : يأيها المحلون ، هل لكم فى الطراد فقد طال العهد به ؟ فتهايج القوم وأسرع بعضهم إلى بعض »
الكامل للمبرد ٢ : ٢٢١ — وقال أيضا :

« فحاربهم المهلب حتى نفاهم إلى جيرفت (وهى مدينة كبيرة من أعيان مدن كرمان ، وكرمان إقليم بين فارس وسجستان) واتبعهم فنزل قريبا منهم واختلفت كلمتهم وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال اليشكرى اتهم بامرأة رجل حداد ، رأوه مرارا يدخل منزله بغير إذن . فأتوا قطريا فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عبيدة من الدين بحيث علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم، فقالوا: إنا لا نقاره على الفاحشة ، فقال : انصرفوا ، ثم بعث إلى عبيدة فأخبره وقال ، إنا لا نقار على الفاحشة ، فقال : بهتونى يا أمير المؤمنين (أى ادعوا على) ما لم أفعل) فما ترى ؟ قال : إنى جامع بينك وبينهم، فلا تخضع خضوع المذنب، ولا تتطاول تطاول البرىء، فجمع بينهم فتكلموا ، فقام عبيدة فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . . . الآيات »
فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه، وقالوا: استغفر لنا، ففعل، فقال لهم عبد ربه الصغير: والله لقد خدعكم، فبايع عبد ربه منهم ناس كثير لم يظهروا ولم يجدوا على عبيدة فى إقامة الحد ثبتا .

وكان قطرى قد استعمل رجلا من الدهاقين (جمع دهقان بكسر الدال وضمها وهو رئيس الإقليم وزعيم فلاحى العجم) فظهرت له أموال كثيرة فأتوا قطريا فقالوا : إن عمر بن الخطاب لم يكن يقار عماله على مثل هذا ، فقال قطرى . إنى استعملته وله ضياع وتجارات، فأوغر ذلك صدورهم ، وبلغ ذلك المهلب فقال : إن اختلافهم أشد عليهم منى .

وقالوا لقطرى : ألا تخرج بنا إلى عدونا ؟ فقال : لا ، ثم خرج ، فقالوا : قد كذب وارتد (وكانت الخوارج فى جميع أصنافها تبرأ من الكاذب، ويرى بعضهم أن الكذبة الخفيفة على سبيل المزاح شرك بالله) فاتبعوه يوما ، فأحس بالشر ، فدخل دارا مع جماعة من أصحابه ، فصاحوا به : ياذابة اخرج إلينا ، فخرج إليهم فقال : رجعتم بعدى كفارا ، فقالوا : أو لست دابة ! قال الله عز وجل : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » ولكنك قد كفرت بقولك: إنا قد رجعنا كفارا ، فتب إلى الله عز وجل ، فشاور عبيدة فقال : إن تبت لم يقبلوا منك ، ولكن قل : إنما استفهمت فقلت : أرجعتم بعدى كفارا ؟ فقال ذلك لهم ، فقبلوه منه فرجع إلى منزله .

وعزم أن يبايع المقعطر العبدى ، فكرهه القوم وأبوه فقال له صالح بن مخراق عنه وعن القوم : ابغ لنا غير المقعطر ، فقال قطرى : أرى طول العهد قد غيركم ، وأنتم بصدد عدوكم ، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنكم واستعدوا للقاء القوم ، فقال له صالح بن مخراق : إن الناس قبلنا ساموا عثمان بن عفان أن يعزل عنهم سعيد بن العاص (انظر الجزء الأول ص ٢٧٠) ففعل، ويجب على الإمام أن يعفى الرعية مما كرهت =

١٨٩ — كتاب الحجاج إلى المهلب

وكتب الحجاج إلى المهلب يستحثه مع عُبَيْدِ بن مَوْهَب، وفي الكتاب:

«أما بعدُ، فإنك تتراخَى عن الحرب، حتى يأتيك رُسُلِي، فيرجعون بعُذرك، وذلك أنك تُمسِك حتى تَبْرأَ الجراح، وَتُنْسَى القَتْلَى، ويَجِمَّ[1] الناس، ثم تلقاهم، فتحتمِل منهم مِثْلَ ما يحتملون منك من وَحْشَةِ القَتْلِ وَأَلَمِ الجراح، ولو كنت تلقاهم بذلك الجِدِّ لكان الداء قد حُسِمَ، والقَرْنُ[2] قد قُصِم، ولعمرى ما أنت والقومُ سَواء، لأن من ورائك رجالا، وأمامَك أموالا، وليس للقوم إلا ما معهم، ولا يُدْرَك الْوَجِيفُ بالدَّبِيب[3]، ولا الظَّفَر بالتَّعْذِير[4]».

= فأبى قطرى أن يعزله، فقال له القوم: إنا خلعناك وولينا عبد ربه الصغير، فانفصل إلى عبدربه أكثر من الشطر وجلهم الموالى والعجم» الكامل ٢ : ٢٢٥.

وقال الطبرى:

«وخرج رجل منهم كان عاملا لقطرى على ناحية من كرمان فى سرية لهم يدعى المقعطر من بنى ضبة فقتل رجلا قد كان ذا بأس من الخوارج ودخل منهم فى ولاية. فقتله المقعطر، فوثبت الخوارج إلى قطرى ذكروا له ذلك، وقالوا: أمكنا من الضبى فقتله بصاحبنا، فقال لهم: ما أرى أن أفعل، رجل تأول فأخطأ فى التأويل، ما أرى أن تقتلوه، وهو من ذوى الفضل منكم والسابقة فيكم، قالوا: بلى قال لهم: لا، فوقع الاختلاف بينهم، فولوا عبد ربه الكبير وخلعوا قطريا وبايع قطرياً منهم عصابة نحو من ربعهم أو خمسهم، فقاتلهم نحوا من شهر غدوة وعشية» — تاريخ الطبرى ٧ : ٢٧ —.

(١) أى يستريحوا من تعبهم ويعود إليهم نشاطهم، من جم الماء يجم بالضم والكسر جموما: أى كثر واجتمع، والبئر: تراجع ماؤها، والفرس جماما بالفتح: ترك الضراب فتجمم ماؤه، وجما وجماما: ترك فلم يركب فعفا من تعبه.

(٢) يصح أن يكون «القرن» بالفتح، وهو الجانب الأعلى من الرأس: أى قصمت قرن الأعداء كما يقال كسر شوكتهم، وأن يكون بالكسر وهو الكفء فى الشجاعة أو عام وهو الأظهر لما يشير إليه كلام المهلب الآتى.

(٣) الوجيف: ضرب من سير الخيل والإبل.

(٤) التعذير: التقصير فى الأمر.

فلما جاء المهلب هذا الكتاب قال لأصحابه: إن الله عز وجل قد أراحكم من أقران أربعة: قطرى ابن الفجاءة وصالح بن مخراق وعبيدة بن هلال وسعد الطلائع، وإنما بين أيديكم عبد ربه فى خشار من خشار الشيطان تقتلونهم إن شاء الله (والخشار والخشارة بضم الخاء: الردىء من كل شىء، وسفلة الناس) فكانوا يتغادون القتال ويتراوحون، فتصيبهم الجراح، ثم يتحاجزون، كأنما انصرفوا من مجلس كانوا يتحدثون فيه، فيضحك بعضهم إلى بعض، فقال عبيد بن موهب للمهلب: قد بان عذرك وأنا مخبر الأمير.

١٩٠ — رد المهلب على الحجاج

فكتب المهلب إليه :

« أما بعدُ ، فإنى لم أُعطِ رُسُلَكَ على قول الحق أجْراً ، ولم أحتَجْ منهم مع المشاهدة إلى تَلْقِينٍ ، ذكرتَ أنى أُجِمُّ[1] القومَ ، ولا بدَّ من راحة يستريح فيها الغالب ، ويحتال فيها المغلوبُ ، وذكرتَ أن فى ذلك الجمامِ ما يُنسِى القَتْلَى وَتَبْرَأُ منه الجراح ، وهيهاتَ أن يُنْسَى مابيننا وبينهم ، تأبَى ذلك قَتْلَى لم تُجَنّ[2] ، وقُرُوحٌ لم تتقرَّفْ ، ونحن والقوم على حالة وهم يرقُبون منا حالات ، إن طمِعوا حاربوا ، وإن مَلُّوا وقفوا ، وإن يئسوا انصرفوا ، وعلينا أن نقاتلهم إذا قاتلوا ، ونتحرَّزَ إذا وقفوا ، ونطلبَ إذا هَرَبوا ، فإن تركتَنى والرأىَ ، كان القرن مَقْصوما ، والداء بإذن الله محسوما ، وإن أعْجَلْتَنِى لم أُطِعْكَ ولم أَعْصِ ، وجعلتُ وجهى إلى بابك ، وأنا أعوذ بالله من سخط الله ومقت الناس » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٢٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ، ص ٤٠٣
ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٨ ، وصبح الأعشى ٦ : ٥٥٩)

١٩١ — كتاب المهلب إلى الحجاج

ولما تمت الغَلَبة للمهلب على الأزارقة ، وقُتِل آخر زعمائهم عبدُربه الصغير سنة ٧٨ هـ أوفد المهلب إلى الحجاج كَعْبَ بن مَعْدانَ الأشْقَرِىَّ ومُرَّةَ بن تَلِيد الأَزْدِىَّ ليخبراه بالفتح ، وكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الكافِى بالإسلام فَقْدَ ما سواه ، المعجِّل النِّقمة لمن بغاه ، الذى حَكَمَ بأن لاينقطعَ المزيدُ منه حتى ينقطع الشكرُ من عِباده[3] ، أما بعدُ :

---

(١) من أجم الماء : أى تركه يجتمع .

(٢) أجنه : كفنه ، أى قتلى دفنت دون أن تكفن ، وفى رواية « قتل من لم يجن » ، وتقرفت القرحة تقشرت ، وذلك إذا يبست : أى وقروح لم تبرأ ، وفى صبح الأعشى « لم تعرق » وهو تحريف .

(٣) وفى أدب الكتاب : « الذى يزيد من شكره ، ويرزق من كفره » .

فقد كان مِنْ أمرنا ما قد بَلَغَكَ[١] ، وكنا نحن وعدوُّنا على حالين مختلفَيْن . يسرُّنا منهم أكثرُ مما يسوءنا ، ويسوءهم منا أكثرُ مما يسرهم ، على اشتداد شوكتهم واجتماع كلمتهم ، وانزعاج القلوب لمخافتهم ، فقد كان عَلَنَ[٢] أَمْرُهم ، حتى ارتاعت له الفتاةُ ، ونُوِّم بذكرهم الرَّضيعُ ، وصَمَّ لخوفهم السَّميع ، فانتهزتُ منهم الفرصةَ فى وقت إمكانها ، وأدنيتُ السَّوادَ[٣] من السواد حتى تعارفت الوجوهُ ، فلم نزل كذلك حتى بَلَغ الكِتابُ[٤] أجله « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣٢ وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٧
وشرح العيون ص ١٣٥ وأدب الكتاب ص ٢٣٥)

١٩٢ — رد الحجاج على المهلب

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ فإن الله عز وجل قد فَعَلَ بالمسلمين خيرا ، وأراحهم من حَدِّ الجهاد ، وكنتَ أعلَمَ بما قِبَلك ، والحمد لله رب العالمين ، فإذا ورد عليك كتابى هذا ، فاقسم فى المجاهدين فَيْئَهم ، ونَفِّل[٥] النَّاسَ على قدر بَلائهم ، وفَضِّل من رأيتَ تفضيلَه ، وإن كانت بَقِيَتْ من القوم بقيَّة فخلِّف خيلا تقوم بإزائهم ، واستعمل على كِرْمَان[٦] من رأيتَ ، ووَلِّ الخيلَ شهما من ولدك ، ولا ترخِّصْ لأحدٍ فى اللِّحاق بمنزله دون أن تَقْدَم بهم علىَّ ، وعَجِّل القدومَ إن شاء الله » .

---

(١) وفيه : « فقد كان من أمرنا ماأغنت جملته عن تفصيله ، وكنا نحن وعدونا فى مدة هذا التنازع على حالتين . . . » .

(٢) علن الأمر كنصر وضرب وكرم وفرح علنا بالتحريك وعلانية واعتلن : ظهر .

(٣) السواد : العدد الكثير ، ومن الناس عامتهم .

(٤) وفى أدب الكتاب : « فانتهزت منهم الفرصة عند إمكانها ، بعد أن تنظرت وقت إبانها ، واستدعى النهل علله ، وبلغ الكتاب أجله ، فقطع . . . » .

(٥) النفل بالتحريك: الغنيمة ، ونفله النفل ونفله بالتشديد وأنفله : أعطاه إياه .

(٦) إقليم بين فارس وسجستان .

فولى المهلب ابنه يزيد كرمان ، وقَدِم على الحجاج فأجلسه إلى جانبه وأظهر إكرامه وبرّه ، وقال : يا أهل العراق أنتم عبيد المهلب .

وكان أُمَيَّة بن عبد الله بن خالد بن أَسِيد عاملا على خُراسان وسِجِسْتَان ، فعزله عبد الملك سنة ٧٨ هـ وجمع سلطانه للحجاج ، فبعث المهلَّبَ على خراسان ، وعُبيد الله ابن أبي بَكْرَةَ على سِجِسْتَان .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م١ : ص ٤٠٧ ، وسرح العيون ص ١٣٥)

حروب الخوارج الشبيبية

١٩٣ – كتاب شبيب بن يزيد إلى صالح بن مسرح

وفى سنة ٧٦ هـ تحرك صالح بن مُسَرِّح[1] زعيم فرقة الصالحية ـ إحدى فرق الخوارج الصُّفْرية[2] ـ وكان بِدَارَا[3] وأرضِ المَوْصِلِ والجزيرة ، له أصحاب يُقْرِئهم القرآن ، ويفقِّههم ، ويقصّ عليهم ، فحرَّضهم على الخروج محتجّا بأن الجَوْر قد فَشَا ، وأن العدل قد عَفَا ، وأن الوُلاة لا يزدادون إلا غُلُوًّا وعُتُوًّا ، وتباعُداً عن الحق وجُرْأَةً على الرب ودعاهم أن يستعدوا ويبعثوا إلى إخوانهم ليأتوهم وينظروا فيما هم صانعون ، فتراسَلَ أصحابه وتلاقَوْا ، فبينماهم فى ذلك إذْ قَدِم عليهم رسول بكتاب من شَبيب بن يزيد الشَّيْبانى إلى صالح بن مُسَرِّح ، وفيه :

« أما بعدُ ، فقد علمتُ أنك كنتَ أردتَ الشُّخُوصَ ، وقد كنتَ دعَوْتَنى إلى ذلك فاستجبْتُ لك ، فإن كان ذلك اليومَ من شأنك فأنت شيخ المسلمين ، ولن نَعْدِلَ بك منا أحداً ، وإن أردتَ تأخير ذلك اليومَ أعلَمْتَنى ، فإن الآجال غادية ورائحة، ولا آمَن أن تخترِمَنى[4] المنيّةُ ولَمَّا أجاهدِ الظالمين ، فيَالَه غَبْنا ، ويالَه فضلا متروكا ! جعلَنا الله وإياكَ ممن يريد بعمله اللهَ ورِضوانَه والنظرَ إلى وجهه ومرافقةَ الصالحين فى دار السلام ، والسلام عليك » .

---

(١) هو أحد بنى امرئ القيس .

(٢) الصفرية : فرقة من الفرق الرئيسية للخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصفر ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار، وقيل لأنهم نهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم فنسبوا إلى صفرة ألوانهم، وقال الأصمعى: الصواب الصفرية بالكسر ، قال : وخاصم رجل منهم صاحبه فى السجن فقال له : أنت والله صفر من الدين، فسموا الصفرية .

(٣) دارا : بلد بين نصيبين وماردين من أرض الجزيرة . (٤) اخترمته المنية : أخذته .

١٩٤ — رد صالح بن مسرح على شبيب

فكتب إليه صالح :

« أما بعدُ ، فقد كان كتابك وخَبَرُك أبطأ عنى حتى أهمَّنى (١) ذلك ، ثم إن امْرَأً من المسلمين نبَّأنى بنبأ مَخْرَجك ومَقْدَمك ، فنحمد الله على قضاء ربنا ، وقد قَدِمَ علىَّ رسولُك بكتابك ، فكلّ ما فيه قد فهمتُه ، ونحن فى جِهَازٍ واستعداد للخروج ، ولم يمنعنى من الخروج إلا انتظارُك ، فأقبلْ إلينا ثُمَّ اخرُجْ بنا متى أحببتَ ، فإنك ممن لايُسْتَغْنَى عن رأيه ، ولا تُقْضَى دونه الأمورُ ، والسلام عليك » .

وبلغ مَخْرَجُهم محمدَ بن مَرْوان وهو يومئذ أمير الجزيرة فبعث إليهم جيشاً بقيادة عَدِىّ بن عَدِىّ بن عُمَيْرة ، فهزمه صالح ونزل عسكره وحوَى مافيه ، فبعث إليهم محمد بن مروان جيشا آخر فقاتلهم فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصِل ، وبلغ ذلك الحجاجَ فسرّح إليهم جيشاً يقوده الحٰرثُ بن عُمَيْرة بن ذى المِشْعار ، فحاربهم وقُتِل صالح فى المعركة ، فبايع أصحابه شبيبَ بن يزيد (فسُمُّوا الشبيبيَّة) فحمل على جيش الحرث فهزمه ، وضارب الحرث حتى صُرِع واحتمله أصحابه وانهزموا وخلَّوا لهم العسكر وما فيه ومضَوا حتى نزلوا المدائن» .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٤٠٩)

١٩٥ — كتاب الحجاج إلى سفيان بن أبى العالية

وتجهَّز شَبِيب للخروج ، ومضى فى أدانِى أرض المَوْصِل ثم ارتفع نحو أَذْرَبِيجان ، فكتب الحجاج إلى سُفْيان بن أبى العالية الخَثْعَمِىّ — وكان أقبل فى خيل أُمِرَ أن يدخل بها طَبَرِسْتَان :

---

(١) أقلقنى .

« أما بعدُ ، فسِرْ حتى تنزلَ الدَّسْكَرَةَ[١] فيمن معك ، ثم أَقِمْ حتى يأتيَك جيشُ الحارث بن عُمَيرة الهَمْدَانىّ بن ذى المِشْعار وخيلُ المَناظِر[٢] ، ثم سِرْ إلى شبيب حتى تناجِزَه » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٤ ، وشرح ابن أبى الحديد ١ : ٤١١)

١٩٦ — كتاب سفيان بن أبى العالية إلى الحجاج

فأقبل سفيان حتى نزل الدَّسْكَرةَ ، ووافاه بها جيشُ الحارث بن عُمَيرة ، وكان على خيل المناظر سَوْرَةُ بن أَبْجَر التميمىّ ، فسار إليه وبعث إليه أَنْ لاتَبْرَحَ العسكرَ حتى آتيَك ، فعجِلَ سفيانُ فارتحل فى طلب شبيب فلَحِقه بخانِقِين[٣] فى سفح جبل ، وكاده شبيبُ[٤] فأوقع بجيشه الهزيمة، وقاتله سُفيان حتى خَرَّ بين القتلى وحُمِل مُرْتَثًّا[٥] ، وأُتِىَ به بابل مَهْرُوذ[٦] فنزل بها ، وكتب إلى الحجاج :

« أما بعدُ ، فإنى أُخْبِرُ الأميرَ — أصلحه الله — أنى اتَّبعْتُ هذه المارقةَ حتى لحِقْتُهُمْ بخانِقِين ، فقاتلتهم فضرب اللهُ وجوههم ونَصَرَنا عليهم ، فبينا نحن كذلك إذ أتاهم قوم كانوا غُيَّباً عنهم ، فحَملوا على الناس فهزموهم ، فنزلتُ فى رجال من أهل الدين والصبر فقاتَلْتُهُمْ حتى خَرَرْتُ بين القَتْلَى فحُمِلتُ مُرْتَثًّا ، فأُتِىَ بى بابل مَهْرُوذَ ، فهأَنا بها ، والجندُ الذين وجَّهَهم إلىّ الأميرُ وافَوا، إلا سَوْرةَ بن أَبْجَر، فإنه لم يأتِنى ولم يَشْهَدْ معى، حتى إذا مانزلتُ بابل مَهْرُوذَ أتانى يقول ما لا أعرف ويعتذر بغير العذر، والسلام » .

فلما قرأ الحجاج الكتاب قال: من صنع كما صنع هذا ، وأَبْلَى كما أبلى،فقد أحسن. (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٥)

---

(١) قرية كبيرة غربى بغداد .

(٢) المناظر جمع منظرة بالفتح : وهى المرقبة (موضع فى رأس جبل فيه رقيب ينظر العدو)

(٣) بلد بسواد بغداد .

(٤) وذلك أن شبيبا أصحر لهم ثم ارتفع عنهم حتى كأنه يكره لقاءه ، وقد أكمن له أخاه مصاد بن يزيد فى كمين معه ، فلما رأوه جمع أصحابه ثم مضى فى سفح الجبل مشرقا ، قالوا : هرب عدو الله فاتبعوه، فلما رأى شبيب أنهم قد جازوا الكمين عطف عليهم ، ولما رأى الكمين أن قد جازوهم خرجوا إليهم . فحمل عليهم شبيب من أمامهم ، وصاح بهم الكمين من ورائهم ، وكانت الهزيمة .

(٥) ارتث : حمل من المعركة رثيثا أى جريحا وبه رمق. (٦) بلد بسواد بغداد .

١٩٧ — رد الحجاج على ابن أبى العالية

ثم كتب إليه :

« أما بعدُ ، فقد أحسنتَ البَلاءَ ، وقضيتَ الذى عليك ، فإذا خَفَّ عنك الوجعُ فأقبِلْ مأجورا إلى أهلك والسلام » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٥)

١٩٨ — كتاب الحجاج إلى سورة بن أبجر

وكتب إلى سَوْرة بن أبجر :

« أما بعدُ ، فيابنَ أمِّ سَوْرة ما كنتَ خليقا أن تجترئ على ترك عهْدى ، وخِذْلان جندى ، فإذا أتاك كتابى فابعث رجلا ممن معك صَلِيباً ، إلى الخيل التى بالمدائن ، فلينتخِبْ منهم خَمْسمائة رجل ، ثم لْيَقْدَم بهم عليك ، ثم سِرْ بهم حتى تلقى هذه المارقةَ ، واحزِم فى أمرك ، وكِدْ عدوَّك ، فإن أفضل أمر الحرب حُسْن المكيدة ، والسلام » .

ففعل سورة ما أُمر به ولَقِيَ شبيباً ، فحمل عليه شبيب ودَحَره .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٥ وشرح ابن أبى الحديد م١ : ص ٤١١)

١٩٩ — كتاب الحجاج إلى الجزل بن سعيد

وقَدِم الفَلُّ على الحجاج فسَرَّح إليهم الجَزْلَ بن سعيد[١] ، فجعل يَتْبَعهم فلا يسير إلا على تَعْبِيَة ، ولا ينزل إلا على خَنْدق ، وكان شبيب يَدَعُه ويَضْرِب فى أرض جُوخَى[٢] وغيرها يكْسِرُ الخراج ، وطال ذلك على الحجاج ، فكتب إليه :

---

(١) وكان من كلماته الحكيمة أن قال له حين دعاه : « تيسر للخروج إلى هذه المارقة ، فإذا لقيتهم فلا تعجل عجلة الخرق ، ولا تحجم إحجام الوانى الفرق » .

(٢) جوخى بالضم والقصر وقد يفتح : كورة واسعة فى سواد بغداد .

« أما بعدُ ، فإنى بعثتك فى فُرسان أهلِ المِصْر ووجوهِ الناس(١) ، وأمرتُك باتباع هذه المارقة الضّالة المُضِلّة حتى تلقاها ، فلا تُقْلِعَ عنها حتى تقتلَها وتُفْنيَها ، فوجدتَ التَّعْريسَ(٢) فى القُرَى ، والتَّخييمَ فى الخنادق ، أهونَ عليك من المُضِىِّ لِمَا أمرتُك به من مناهضتهم ومناجزتهم والسلام » .

فشَقَّ ذلك على الجَزْل ، وأمر الناس بالسير ، فخرجوا فى طلب الخوارج جادِّين .

وبعث الحجاج سعيد بن مُجالد على ذلك الجيش وعَهِد إليه :

« إنْ لقيتَ المارقة فازحفْ إليهم ولا تُناظِرْهم ولا تُطاولْهم وواقِفْهم واستعن بالله عليهم ، ولا تصنعْ صَنِيعَ الجَزْلِ ، واطلبهم طلَبَ السبع ، وحِدْ عنهم حَيَدان الضَّبُع » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٤١٣)

٢٠٠ — كتاب الجزل بن سعيد إلى الحجاج

وجاء سعيد بن مجالد ، فأخرج الناس معه وجمع إليه خيول أهل العسكر ليقاتل شبيبا ، فنصح له الجزلُ ألّا يقاتله إلاّ فى جماعة الناس عامّة ، فأبَى ، فقال له : ليس لى فيما صنعتَ رأى ، أنا برىء من رأيك هذا ، سَمِع اللهُ ومَن حضر من المسلمين ، فقال هو رأيى ، إن أصبتُ فالله وفّقنى له ، وإن يكن غير صواب فأنتم منه بَراء ، وخرج للقاء شبيب ، فحمل عليهم شبيب فهزمهم وشدّ على سعيد فضرَبه فخرَّ ميتا ، وانهزم ذلك الجيش وقُتلوا كل قِتْلة حتى انتهوا إلى الجَزْل ، فقاتل الجَزْل قتالا شديداً حتى حُمِل من بين القتلى ، ونُقل إلى المدائن مُرْتَثًّا ، وَقَدِم فَلُّ أهل ذلك العسكر الكوفة .

---

(١) وذلك أن الجزل حين دعى للخروج قال للحجاج : أصلح الله الأمير ، لاتبعثن معى أحدا من أهل هذا الجند المفلول المهزوم ، فإن الرعب قد دخل قلوبهم ، وقد خشيت أن لاينفعك والمسلمين منهم أحد ، فقال له: فإن ذلك لك ولا أراك إلا قد أحسنت الرأى ووفقت ، وأمر فاختير له بعث آخر.

(٢) عرس القوم وأعرسوا : نزلوا فى آخر الليل للاستراحة .

وكتب الجزل إلى الحجاج :

« أما بعدُ : فإني أُخبِر الأمير - أصلحه الله - أني خرجتُ فيمن قِبَلى من الجند الذى وجَّهني فيه إلى عدوه ، وقد كنت حفظتُ عهدَ الأمير إلىَّ فيهم ورأيَه ، فكنت أحرج إليهم إذا رأيتُ الفرصةَ ، وأحبِسُ الناس عنهم إذا خشيتُ الوَرْطَة ، فلم أزل كذلك أُدبِّر الأمر وأَرفُق في التدبير ، ولقد أرادني العدوُّ بكل مكيدة ، فلم يُصِبْ مني غِرَّة ، حتى قَدِم علىَّ سعيد بن مجالد - رحمة الله عليه - ولقد أمرتُه بالتُّؤدة ونهيته عن العَجَلة ، وأمرته ألا يقاتلهم إلا في جماعة الناس عامَّة ، فعصاني وتعجَّل إليهم في الخيل ، فأشهدتُ عليه أهلَ المِصْرين أني برىء من رأيه الذى رأى ، وأني لا أهْوَى ما صنع ، فمضى فأُصيبَ ، تجاوز الله عنه ، ودَفع[1] الناسُ إلىّ فنزلتُ ودعوتهم إلىَّ ، ورفعتُ لهم رايتي ، وقاتلت حتى صُرِعْتُ ، فحَمَلني أصحابي من بين القتلى ، فما أفقْتُ إلا وأنا على أيديهم على رأس ميل من المعركة ، فأنا اليوم بالمدائن في جِراحة قد يموت الرجل من دونها وَيُعَافَى من مثلها ، فليسألِ الأميرُ - أصلحه الله - عن نصيحتي له ولجنده ، وعن مكايدتي عدوَّه ، وعن موقفي يوم البأس ، فإنه يستبين له عند ذلك أني قد صَدَقْته ونصحت له : والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٤١٣)

٢٠١ - رد الحجاج على الجزل بن سعيد

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، فقد أتاني كتابك وقرأته وفَهِمتُ كلَّ ما ذكرت فيه ، وقد صدَّقتك في كل ما وصفتَ به نفسَك ، من نصيحتك لأميرك ، وحِيطتك على أهل مصرك ، وشِدَّتِك على عدوك ، وقد فهمتُ ما ذكرتَ من أمر سعيد وعَجَلته إلى

---

(١) أي انتهوا إلى .

عدوه ، فقد رضيتُ عَجَلَتَه وتُؤَدَتَك ، فأمّا عجلته فإنها أفضَتْ به إلى الجنة،وأما تؤدتُك فإنها لم تدع الفرصة إذا أمْكَنَت ، وتَرْكُ الفرصة إذا لم تُمْكن حَزْمٌ ، وقد أصبتَ وأحسنت البلاء وأُجِرْتَ(١) ، وأنت عندى من أهل السمع والطاعة والنصيحة ، وقد لشْخَصْتُ إليك حَيَّان ابْنَ أبجر ليُدَاوِيَك ويعالج جِراحتك ، وبعثتُ إليك بألفَيْ درهم فأَنفِقْها فى حاجتك وما ينوبُك ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٤)

٢٠٢ — كتاب ماذر واسب إلى عروة بن المغيرة بن شعبة

وخرج الحجاج إلى البصرة واستخلف على الكوفة عُرْوة بن المُغيرة بن شُعبة ، فما شَعَر الناس بشىء حتى جاء كتاب من « ماذر واسب » دِهقَان « بابل مَهْرُوذ » وعظيمها إلى عروة بن المغيرة :

« إن تاجرا من تجار الأنبار من أهل بلادى أتانى فذكر أن شبيبًا يريد أن يدخل الكوفة فى أول هذا الشهر المستقبل ، فأحببتُ إعلامك ذلك لترى رأيك » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٤)

٢٠٣ — كتاب عروة بن المغيرة بن شعبة إلى الحجاج

فكتب عروة إلى الحجاج :

« إن شبيبا قد أقبل مسرعا يريد الكوفة ، فالعَجَلَ العَجَلَ » .

فَطَوى الحجاج المنازلَ ، واستبق هو وشبيب إلى الكوفة ، فنزلها الحجاج صلاةَ الظهر ، ونزل شبيب السَّبَخَة صلاة المغرب ، ثم دخلَ الكوفة حتى انتهى إلى السوق ،

---

(١) أى نلت الأجر ، أجره وآجره : جزاه .

وشد حتى ضرب باب القصر بعموده ، واقتحموا المسجد الأعظم . وقتلوا جماعة ممن صادفوهم ثم خرجوا منها[١] . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٢)

٢٠٤ — كتاب الحجاج إلى جند عبد الرحمن بن الأشعث

ودعا الحجاج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكِندى فقال له : انتخِب النّاس واُخرج فى طلب هذا العدوّ،فانتخب فُرسان الناس ووجوههم ، فلما أراد الحجاج إشخاصَهم كتب إليهم :

« أما بعدُ ، فقد اعتَدْتم عادةَ الأذِلاَّء ، ووَلَّيتمُ الدُّبُرَ يوم الزَّحْف ، وذلك دَأْبُ الكافرين ، وإنى قد صَفَحتُ عنكم مَرَّةً بعد مرة ، ومرة بعد مرة، وإنى أُقْسِم لكم بالله قَسَماً صادقا : لئن عُدتم لذلك لأُوقِعَنَّ بكم إيقاعا يكون أشَدَّ عليكم من هذا العدوّ الذى تهرُبُون منه فى بطون الأودية والشِّعاب[٢] ، وتستترون منه بأَثْناء[٣] الأنهار وَأَلْوَاذِ الجبال، نخاف مَن له مَعقول[٤] على نفسه ، ولم يجعل عليها سبيلا ، وقد أعذَرَ من أَنْذَرَ[٥] .

وقد أسمعتَ لو ناديت حيًّا ولكن لا حَيَاةَ لِمَن تُنادِى

والسلام عليكم » .

فخرج ابن الأشعث فى الناس نحو شبيب،فلما دنا منه ارتفع عنه شبيب،فسار ابن الأشعث فى طلبه، حتى إذا كان على التُّخُوم أقام وقال: إنما هو فى أرض الموصل فليُقَاتلوا عن بلادهم أو ليَدَعُوهُ . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٦)

---

(١) ووجه الحجاج زحر بن قيس فى جيش، وأمره أن يتبع شبيبا حتى يواقعه حيثما أدركه . وبلغ شبيبا مسيره إليه فأقبل نحوه فالتقيا، فقاتل زحر حتى صرع وانهزم أصحابه وعبأ الحجاج جيشا فيه سبعة أمراء، كل أمير على أصحابه وأمير الجميع زائدة بن قدامة ، ودارت رحى الحرب بينه وبين جيش شبيب ، وانجلت عن هزيمة جيش زائدة وقتله .

(٢) جمع شعب بالكسر :وهو الطريق فى الجبل، ومسيل الماء فى بطن أرض، أوما انفرج بين الجبلين

(٣) جمع ثنى بالكسر . وثنى النهر والوادى : منعطفه. والألواذ : جمع لوذ بالفتح وهو جانب الجبل ومنعطف الوادى .

(٤) معقول : عقل . (٥) أعذر : ثبت له عذر .

٢٠٥ — كتاب الحجاج إلى ابن الأشعث

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ : فاطلب شَبيباً واسلُكْ فى أثَره أين سَلَكَ حتى تدركَه فتقتُلَه أو تنفِيَه ، فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين ، والجندُ جندهُ ، والسلام » .

فخرج فى طلب شبيب ، وكان شبيب لا يصيب له غِرّةً ولا يصل إليه لشدة حذره منه[1] . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٧)

٢٠٦ — كتاب عثمان بن قطن إلى الحجاج

وأرسل شبيب إلى عبد الرحمن يسأله المُوادعةَ حتى تمضىَ أيام العيد (عيد الأضحى سنة ٧٦ هـ) فأجابه ، ولم يكن شىء أحبَّ إلى عبد الرحمن من المطاولة والموادعة ، فكتب عثمان بن قَطَن عامل المدائن إلى الحجاج :

« أما بعدُ فإنى أخبر الأمير — أصلحه الله — أن عبد الرحمن بن محمد قد حَفَر جُوخَى كلَّها خندقا واحدا ، وخَلَّى شبيبا وكَسَرَ خراجِها ، وهو يأكل أهلها والسلام » .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٩)

٢٠٧ — رد الحجاج على ابن قطن

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ : فقد فهِمتُ ما ذكرتَ لى عن عبد الرحمن ، وقد لَعَمْرى فعل ما ذكرتَ فسر إلى الناس فأنت أميرهم ، وعاجِل المارقةَ حتى تلقاهم فإن الله — إن شاء الله — ناصرك عليهم ، والسلام » .

---

(١) كان شبيب يدعه حتى إذا دنا منه بيته فيجده قد خندق على نفسه وحذر ، فيمضى ويدعه ، فيتبعه عبد الرحمن فإذا بلغه أنه قد تحمل وأنه يسير أقبل فى الخيل ، فإذا انتهى إليه وجده قد صف الخيل والرجال وأدنى الرامية ، فلا يصيب له غرة ولا له علة ، فيمضى ويدعه .

وبعث الحجاج إلى المدائن مُطَرِّف بن المُغيرة بن شُعبة ، وقَدِم عثمان بن قَطَن على ابن الأشعث ومن معه ، فخرج بهم للقاء شبيب ، فقتله شبيب وهزم جنده .

(تاريخ الطبرى ٧ — ٢٣٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ — ص ٤١٧)

٢٠٨ — كتاب مطرف بن المغيرة بن شعبة إلى الحجاج

وأقبل شبيب نحو المدائن ، فكتب مُطَرِّفٌ إلى الحجاج :

« أما بعدُ فإنى أخبر الأمير — أكرمه الله — أن شبيبا قد أقبل نحونا ، فإن رأى الأمير أن يُمِدَّنى برجال أضبط بهم المدائن فعلَ ، فإن المدائن باب الكوفة وحِصْنها » .

وفى رواية أخرى للطبرى أيضا أنه كتب إليه : « إن شبيباً قد أطل علىّ ، فابعث إلى المدائن بعثاً » فأمده الحجاج بما طلب .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٩ — ٢٥٩)

٢٠٩ — كتاب ماذرواسب إلى الحجاج

وجاء شبيب حتى نزل قناطر حُذَيفَة بن اليَمانِ ، فكتب ماذر واسب عظيم بابل مَهْرُوذ إلى الحجاج :

«أما بعدُ ، فإنى أخبر الأمير — أصلحه الله — أن شبيبا قد أقبل حتى نزل قناطر حُذَيفة ، ولا أدرى أين يريد » .

فقام الحجاج فى الناس فقال : « أيها الناس ، والله لتقَاتِلُنَّ عن بلادكم وعن فَيئكم ، أو لأَبعَثَنَّ إلى قوم هم أطوعُ وأسمع وأصبَر على اللَّأْواءِ[١] والغيظِ منكم ، فيقاتلون عدوَّكم ويأكلون فيئكم » .

فقاموا إليه من كل جانب فقالوا : نحن نقاتلهم ، ونُعتِب[٢] الأمير ، فليَنْدُبْنا إليهم فإنا حيث سَرَّه .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٣)

---

(١) الشدة . (٢) نرضى .

٢١٠ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان :

« أما بعدُ فإنى أخبر أمير المؤمنين — أكرمه اللهُ — أن شبيبا قد شارفَ المدائن ، وإنما يريد الكوفة ، وقد عَجَز أهل الكوفة عن قتاله فى مواطِنَ كثيرة ، فى كلّها يَقْتُل أمراءهم ويَفُلّ جنودَهم ، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يبعث إلىّ أهل الشأم ، فيقاتلوا عدوّهم ، ويأكلوا بلادهم فليفعل ، والسلام » .

فبعث إليه عبد الملك سُفْيان بن الأبرد الكلْبى فى أربعة آلاف ، وحبيب بن عبد الرحمن الحَكَمى فى ألفين .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٤٣ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ، ٤١٩)

٢١١ — كتاب الحجاج إلى جند الشام

وخاف الحجاج غارة شبيب على من أقبل إليه من أهل الشام ، فبعث إليهم رسولا بكتاب فيه :

« أما بعدُ ، فإذا حاذيتم هِيتَ[1] فدعُوا طريقَ الفُرات والأنبار ، وخذوا على عين التمر[2] حتى تَقْدَموا الكوفةَ إن شاء اللهُ ، وخذوا حِذْرَكم ، وعجِّلوا السير ، والسلام » .

وجهز الحجاج جيشا عظيما من أهل الكوفة ، واستقدم عَتّابَ بن وَرْقاء الرِّياحى — وكان مع المهلَّب بن أبى صُفرة على قتال الأزارقة — فبعثه على ذلك الجيش ، فسار عتاب لقتال شبيب ، وحمل عليه شبيب فتفرّق عنه كثير من أصحابه وخذلوه ، وثبت فى عِصابة قليلة صَبَرت معه وقاتل حتى قتل .

ثم قَدِم جيش الشام فَشدُّوا للحجاج ظهره ، فاستغنى بهم عن أهل الكوفة .

---

(١) بلدة على الفرات فوق الأنبار . (٢) بلدة قريبة من الأنبار .

وجدّ شبيب حتى دخل الكوفة دَخْلته الثانية ، ومعه زوجته غَزَالَة[1] — وقد كانت نذرت أن تصلى فى مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيهما البقرة وآل عِمران ففعلت — وتحصن الحجاج فى دار الإمارة ، ثم هبّ لمدافعة شبيب ، وخرج إليه بنفسه ، فانهزم شبيب وقتلت زوجته وانصرف عن الكوفة .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٤ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ٤١٩)

٢١٢ — كتاب الحجاج إلى الحكم بن أيوب

وأتبعه الحجاج جيشا يقوده سُفيان بن الأبرد ، وكتب إلى الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبى عَقِيل — وهو زوج ابنة الحجاج ، وعامله على البصرة — :

« أما بعدُ فابعث رجلا شجاعا شريفاً من أهل البصرة فى أربعة آلاف إلى شبيب ، ومُرْه فليَلْحَق بسفيان بن الأبرد ، وليَسْمَع له وليُطِع » .

فبعث إليه زياد بن عمرو العَتَكىّ فى أربعة آلاف ، فلم ينته إلى سفيان حتى التقى سفيان وشبيب على جسر دُجَيل[2] ، وحَمِى بينهما وَطِيس[3] القتال حتى جَنّ الليل، فقال شبيب لأصحابه : اعبُروا معاشِرَ المسلمين ، فإذا أصبحنا باكرْناهم ، فعبروا أمامه ، وزلّ حافر فرسه عن حرف السفينة فسقط فى الماء ، فقال : لِيَقْضِيَ ٱللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ، فارتمس[4] فى الماء ، ثم ارتفع فقال : ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ، وكان هلاكه سنة ٧٧ هـ .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٥٦)

---

(١) هكذا ذكر الطبرى وكذا المسعودى فى مروج الذهب ٢ : ١٤٠ فقالا : إن غزالة زوجته ، وذكر عبد القاهر البغدادى فى الفرق بين الفرق ص ٩٠ أن غزالة أمه وأن امرأته جهيزة ، وقال الفيروزابادى فى القاموس : وجهيزة امرأة حمقاء أم شبيب الخارجى ، وكان أبوه اشتراها من السبى فواقعها فحملت فتحرك الولد فقالت : فى بطنى شىء ينقز ، فقالوا : أحمق من جهيزة ، وكذلك ذكر صاحب اللسان والميدانى فى مجمع الأمثال .

(٢) نهر بالأهواز . (٣) الوطيس : التنور . (٤) انغمس .

٢١٢ — كتاب عمران بن حطان إلى الحجاج

وروى صاحب الأغانى قال :

« لما دخلت غَزَالةُ الحَرُورِيَّةُ[١] على الحجاج هى وشبيب الكوفةَ ، تحصَّن منها وأغلق عليه قَصْرَه ، فكتب إليه عِمْرَان بن حِطَّان[٢] — وقد كان الحجاج لج فى طلبه — قال :

أَسَدٌ علىَّ وفى الحروب نَعَامةٌ ... رَبْدَاء تجفُلُ من صَفِيرِ الصَّافِرِ[٣]

هَلاَّ بَرَزْتَ إلى غزالةَ فى الوغَى ... بل كان قلبُك فى جناحَىْ طائرِ

صَدَعَتْ غَزَالةُ قلبه بفوارس ... تركَتْ كتائبه كأمسِ الدَّابِرِ[٤]

ثم لَحِق بالشام فنزل على رَوْح بن زِنْباع » . (الأغانى ج ١٦ : ص ١٥٠)

---

(١) يسمى الخوارج بالحرورية نسبة إلى حروراء ، وهى قرية بظاهر الكوفة ، سماهم بذلك الإمام على كرم الله وجهه ، وذلك أنه لما رجع من صفين إلى الكوفة اعتزله جماعة ممن رأوا التحكيم ضلالا ونزلوا حروراء ، فسار إليهم وناظرهم فأفحمهم ، فرجع معه بعضهم ، فقال لهم على : ما نسميكم ؟ ثم قال أنتم الحرورية لاجتماعكم بحروراء ـ الكامل ٢ : ١٢٩ ـ .

(٢) أحد رءوس الخوارج الصفرية .

(٣) الربدة كجمرة : لون إلى الغبرة ، وهو أربد ، وهى ربداء وجفلت النعامة : كضرب وقعد وأجفلت : أسرعت وذهبت فى الأرض .

(٤) فى الأغانى « تركت مدابره » وقد وردت هذه الأبيات فى العقد الفريد ج ٣ : ص ١٧ ، وروايته للبيت الثالث :

صدعت غزالة جمعه بعساكر ... تركت كتائبه كأمس الدابر

فتنة مطرف بن المغيرة بن شعبة

٢١٤ – كتاب مطرف إلى أخيه حمزة

وفى سنة ٧٧ هـ خرج مَطَرِّف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج ، وخلع عبد الملك ابن مَرْوان ، ومضى فيمن بايعه من أصحابه حتى دَنَوا من هَمَذَان ، وكان أخوه حمزة بن المغيرة على همذان ـ فكره أن يدخلها فَيُتَّهَمَ أخوه عند الحجاج ، فتركها وأخذ ذات اليسار إلى ماه دينار ، وكتب إلى أخيه حمزة :

« أما بعدُ ، فإن النفقة قد كَثُرت ، والمُؤْنة قد اشْتَدَّت ، فأَمْدِدْ أخاك بما قَدَرت عليه من مال وسلاح » فسرّح إليه بمال وسلاح » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٣)

٢١٥ – كتاب مطرف إلى سويد بن سرحان الثقفى وبكير بن هرون البجلى

وكتب مطرف بن المغيرة إلى سُويد بن سِرْحان الثقفى ، وإلى بُكَيْر بن هرون البَجَلِيّ بالرىّ :

« أما بعدُ فإنا ندعوكم إلى كتاب الله وسُنّة نبيه ، وإلى جهاد من عَنَدَ[1] عن الحق ، واستأثَرَ بالفَيْءِ ، وترَكَ حُكم الكتاب ، فإذا ظَهَر الحقُّ ودُمِغ[2] الباطلُ ، وكانت كلمة الله هى العليا ، جَعَلْنا هذا الأمر شُورَى بين الأمة يرتضى المسلمون لأنفسهم

(١) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم : مال .

(٢) أصله من دمغه ، إذا كسر عظم دماغه، فالشجة دامغة : وهى التى تخسف الدماغ ولا حياة معها وفعله كمنع ونصر .

الرِّضَا ، فمَنْ قبِلَ هذا منا كان أخانا فى ديننا ، وَولِيَّنا[1] فى مَحْيَانا ومَمَاتنا ، ومَنْ رَدَّ علينا جاهَدْناه واستنصَرْنا اللهَ عليه ، فكفَى بنا عليه حُجّةً ، وكفَى بتركه الجهادَ فى سبيل الله غَبْناً ، وبمداهنة الظالمين فى أمر الله وَهْناً[2] ، إن اللهَ كتَبَ القِتال على المسلمين وَسَمّاه كُرْها[3] ، ولن يُنالَ رِضوانُ اللهِ إلا بالصبر على أمرِ الله ، وجهادِ أعداء الله فأجِيبوا ـ رَحِمَكم الله ـ إلى الحق ، وادْعُوا إليه مَنْ ترْجُون إجابته ، وعرِّفوه مالا يَعْرِفُه ، وَلْيُقْبِلْ إلىّ كلٌّ من رَأى رَأْينا ، وأجابَ دَعْوتنا ، ورأى عَدُوَّه عدوّنا ، أرشدَنا الله وإياكم ، وتاب علينا وعليكم ، ، إنه هو التواب الرحيم ، والسلام » .

فلما قدم الكتاب على ذينك الرجلين دَبّا فى رجال من أهل الرىّ ، ودعَوا من تابعهما ، ثم خرجوا سرا لا يُفطَن بهم حتى وافَوا مُطَرِّفا . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٦)

٢١٦ — كتاب البراء بن قبيصة إلى الحجاج

وكتب البَرَاء بن قَبيصَة ، وهو عامل الحجاج على أصْبَهان إليه :

« أما بعدُ ، فإن كان للأمير ـ أصلحه الله ـ حاجةٌ فى أصبهان ، وغير أصبهان ، فلْيَبْعَثْ إلى مُطَرِّف جيشا كثيفا يستأصِله ومن معه ، فإنه لاتزال عصابة قد انتفَجَت[4] له من بلدة من البُلدان ، حتى توافيَه بمكانه الذى هو به ، فإنه قد استكْثَفَ وكثُرَتبَعُهُ ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٤)

٢١٧ — رد الحجاج على البراء

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، إذا أتاك رسولى فعسْكِرْ بمن معك ، فإذا مَرَّ بك عَدِىُّ بن وَتّاد فاخرج معه فى أصحابك واسْمَع له وأطِعْ والسلام » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٤)

---

(١) الولى : المحب والصديق والنصير . (٢) الوهن : الضعف .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » .

(٤) أى ثارت ووثبت . وفى الأصل « انتفحت » وهو تصحيف .

٢١٨ — كتاب الحجاج إلى قيس بن سعد العجلى

وبلغ الحجاج ما أتاه حمزة بن المغيرة من إمداده أخاه بالمال والسلاح ، وكان قيس بن سعد العِجْلى يومئذ على شُرْطة حمزة ، ولبنى عِجْل وربيعة عَدَد بِهَمَذَانَ ، فبعث الحجاج إلى قيس بعهده على هَمَذان ، وكتب إليه أنْ :

« أوثِقْ حمزة بن المغيرة فى الحديد ، واحبِسْه قِبَلَك حتى يأتِيك أمرى » فأقرأه قيسٌ كتاب الحجاج إليه وأراه عَهْده ، فقال حمزة : سمعا وطاعة ، فأوثقه وحبسه فى السجن ، وتولى أمر هَمَذَانَ وبعث عماله عليها . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٥)

٢١٩ — كتاب قيس بن سعد إلى الحجاج

وكتب إلى الحجاج :

« أما بعد ، فإنى أخبر الأمير ـ أصلحه الله ـ أنى قد شَدَدْتُ حمزة بن المغيرة فى الحديد ، وحَبَسْتُه فى السجن ، وبعثْتُ عُمَّالى على الخراج ، ووضعت يدى فى الجِباية فإنْ رَأَى الأمير ـ أبقاه الله ـ أن يأذن لى فى المسير إلى مُطرِّف أذن لى ، حتى أجاهِدَهُ فى قومى ومَنْ أطاعنى من أهل بلادى ، فإنى أرجو أن يكون الجهادُ أعظم أجْراً من جباية الخراج ، والسلام » : (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٥)

٢٢٠ — كتاب الحجاج إلى عدى بن وتاد

وكتب الحجاج إلى عَدِىّ بن وَتَّاد الإيادى وهو على الرَّىّ :

« أما بعدُ ، فإذا قرأت كتابى هذا ، فانهَضْ بثلاثة أرباع من معك من أهل الرَّىِّ ثم أَقْبِلْ حتى تَمُرَّ بالبَراءِ بن قَبيصة بجَىَّ ، ثم سيرا جميعا ، فإذا التقيتما فأنت أمير الناس حتى يقتلَ اللهُ مُطَرِّفا ، فإذا كفى الله المؤمنين مُؤْنته ، فانصرف إلى عملك فى كَنَفٍ [1] من الله وكِلاءته [2] وستره » .

---

(١) أى فى حرزه وستره .   (٢) أى حراسته .

وفعل عدى ماأُمِر به وسارا حتى انتهى إلى جَىّ، ووافاه بها قَبيصة وسارا إلى مطرف، ثم نشِب القتال بين الفريقين، ودارت الدائرة على جيش مطرف فما زال يقاتل حتى قتل.

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٧)

٢٢١ — كتاب الحجاج إلى عدى بن وتاد

وكان على ميمنة جيش مُطَرِّف الحجاجُ بن جارية، فكتب الحجاج بن يوسف إلى عَدِىّ بن وتاد:

« أما بعدُ، فإنْ كان الله قتَل الحجاج بن جارية فبُعْداً له، فذاك ما أَهْوَى وأحِبُّ، وإن كان حيًّا فاطلبه قِبَلَك حتى تُوثِقَه، ثم سرِّح به إلىّ إن شاء الله، والسلام » .

فلم يزل الحجاج بن جارية خائفا حتى عُزِل عدى بن وتاد، وقَدِم خالد بن عَتَّاب ابن وَرْقاء، فكُلِّم فيه فآمنهُ. (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٨)

٢٢٢ — كتاب الحجاج إلى خالد بن عتاب

وروى أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى قال:

وكان الحجاج قد استعمل على الرَّىِّ خالد بن عَتَّاب الرِّياحى، وكانت أمه أمَّ وَلَدٍ، فكتب إليه الحجاج يُلَخِّن[1] أمه، ويقول: « يابن اللَّخْناء، أنت الذى هربتَ عن أبيك[2] حتى قتل » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٧)

٢٢٣ — رد خالد على الحجاج

وقد كان حلف أن لايسُبَّ أحد أمه إلا أجابه كائنا من كان، فكتب إليه خالد:

« كتبتَ إلىّ تلخِّننى، وتزعُم أنى فَرَرتُ عن أبى حتى قتل، ولعمرى لقد فررتُ عنه، ولكن بعد أن قُتِل، وحين لم أجد مقاتلا، ولكن أخبِرْنى عنك يابن اللخناء

---

(١) أى يسبها ويصفها باللخن بالتحريك « وهو قبح ريح الفرج » وأمه لخناء، ومن شتم العرب: يابن اللخناء، كأنهم يقولون يادنىء الأصل، أو يالئيم الأم.

(٢) هو عتاب بن ورقاء الرياحى وقد قتل وهو على حرب الخوارج الشبيبية — انظر ص ٢٠٢ .

المُسْتَفْرِمة[١] بعَجَم زَبيب الطائف، حين فررتَ أنت وأبوك يوم «الحرَّة»[٢] على جَمل ثقَالٍ[٣]، أيُّكما كان أمام صاحبه ؟ » .

فقرأ الحجاج الكتاب، وقال : صدق :

أنا الذى فَرَرْتُ يوم الحرَّهْ   ثم ثنَّيتُ كرَّةً بفرَّهْ

* والشيخُ لا يفِرُّ إلا مَرَّهْ[٤] *

ثم طلبه، وهرب خالد إلى الشام وسَلَّمَ بيت المال، ولم يأخذ منه شيئاً، وكتب الحجاج إلى عبد الملك بما كان منه، واستجار خالد بزُفَر بن الحرث الكِلابى فأجاره، فراجعه عبد الملك فى أمره، ثم أجاره .

(الأغانى ١٦ : ٤١)

---

(١) المفرم كشمس والفرمة كوردة والفرام ككتاب: دواء تتضيق به المرأة، فهى فرماء ومستفرمة، والعجم كسبب وغراب : نوى كل شىء .

(٢) انظر هامش ص ٩٧ .   (٣) أى بطىء .

(٤) جاء فى العقد الفريد (ج ٢ : ص ٢٥٧) أن الأنصار فى وقعة الحرة قدموا عبد الله بن حنظلة على أنفسهم، وقدمت قريش عبد الله بن مطيع، فلما هزمهم مسلم بن عقبة ودخل المدينة، هرب عبد الله ابن مطيع حتى لحق بمكة، فكان بها حتى قتل مع عبد الله بن الزبير فى أيام عبد الملك بن مروان، وجعل يقاتل أهل الشأم وهو يقول :

أنا الذى فررت يوم الحره   والشيخ لا يفر إلا مره

فاليوم أجزى كرة بفره   لا بأس بالكرة بعد الفره

فتنة ابن الأشعث

٢٢٤ — كتاب الحجاج إلى عبيد الله بن أبى بكرة

قدّمنا أن الحجاج وَلَّى عُبَيد الله بن أبى بَكْرة سِجِستانَ سنة ٧٨ هـ ، وكان رُتبيلُ ملك الترك مصالحا للعرب يدفع لهم خَراجا، وربما امتنع فلم يفعل، فبعث الحجاج إلى عبيد الله ابن أبى بكرة أن :

« ناجِزْه بمن معك من المسلمين ، فلا ترجِعْ حتى تستبيحَ أرْضَه ، وتهدِمَ قِلاعَه ، وتقتل مُقَاتِلتَه ، وتَسْبِىَ ذُرِّيته » .

فخرج بمن معه من المسلمين من أهل الكوفة وأهل البصرة، وكان على أهل الكوفة شُرَيح بن هانئ الحارثى ، وعلى أهل البصرة عبيد الله، وهو أمير الجماعة ،فمضى حتى وغَل فى بلاد رُتبيل، فأصاب من البقر والغنم والأموال ما شاء، وهَدَم قِلاعا وحصونا، وغلب على أرض من أرضهم كثيرة، والترك يخلُّون لهم عن أرض بعد أرض حتى أمعنوا فى بلادهم، فأخذوا عليهم العِقَابَ والشِّعابَ[1]، فَسُقِط فى أيدى المسلمين[2]، وظنوا أنْ قد هلكوا .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٨٢)

٢٢٥ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

فبعث ابن أبى بَكْرة إلى شُرَيح بن هانئ : إنى مُصالح القوم على أن أعطيَهم مالا ويُخَلُّوا بينى وبين الخروج، فأرسل إليهم فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، فقال له : إنك لاتصالحُ على شىء إلا حَسَبَه السلطان عليكم فى أعْطِيَاتكم ، فقال : لو مَنَعَنا العطاء

---

(١) العقاب جمع عقبة كرقبة ، وهى مرقى صعب من الجبال ، والشعاب جمع شعب بالكسر وهو الطريق فى الجبل وما انفرج بين الجبلين .

(٢) سقط فى يده وأسقط : ندم وتحير .

ما حَيِينا ، كان أهونَ علينا من هلا كنا ، نخالفه شريح ، ونادى : يا أهل الإسلام من أرادَ منكم الشهادة فإلىّ ، فاتبعه فُرسان الناس ، وأهل الحفاظِ ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلا ، وقاتل حتى قتل فى ناس من أصحابه ، ونجا من نجا ، نخرجوا من بلاد رتبيل ، وبلغ ذلك الحجاجَ فكتب إلى عبد الملك :

« أما بعدُ ، فإن جندَ أمير المؤمنين الذين بسِجِسْتانَ أصيبوا فلم ينج منهم إلا القليلُ وقد اجترأ العدوُّ بالذى أصابه على أهل الإسلام ، فدخلوا بلادهم ، وغَلَبوا على كل حصونهم وقصورهم ، وقد أردتُ أن أُوَجِّهَ إليهم جُنداً كثيفا من أهل المِصْرَينِ ، فأحببتُ أن أستَطلِعَ رأى أمير المؤمنين فى ذلك ، فإن رَأى لى بعثة ذلك الجند أمضَيْتُه ، وإن لم يَرَ ذلك فإن أمير المؤمنين أَوْلَى بجنده مع أنى أتخوَّفُ إن لم يأت رتبيلَ ومن معه من المشركين جندٌ كثيفٌ عاجلا ، أن يستولُوا على ذلك الفَرْجِ[1] كلِّه » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٨٢)

٢٢٦ — رد عبد الملك على الحجاج

فكتب إليه عبد الملك :

« أما بعدُ ، فقد أتانى كتابك تَذْكُرُ فيه مُصابَ المسلمين بسجستانَ ، وأولئك قومٌ كَتَبَ الله عليهم القتلَ فبَرَزُوا إلى مضاجعهم ، وعَلَى الله ثوابُهم ، وأما ما أردتَ أن يأتيَك فيه رأيى من توجيه الجنودِ وإمضائِها إلى ذلك الفَرْج الذى أُصيبَ فيه المسلمون أَوْ كَفِّها ، فإن رأيى فى ذلك أن تُمْضِيَ رأيَك راشِدا موفَّقا » .

فجهَّز الحجاج عشرين ألفَ رجل من أهل الكوفة، ومثلَهم من أهل البصرة، وجَدَّ فى ذلك وشمر ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، نخرج بهم حتى قَدِم سجستان سنة ٨٠ هـ . فجمع أهلها وخطَبَهم ، فقال : إن الأمير الحجاج ولَّانى ثغرَكم ،

---

(١) الفرج : الثغر وموضع المخافة .

وأمرنى بجهاد عدوكم الذى استباح بلادكم، وأباد خِياركم، فإياكم أن يتخلفَ منكم رجل فيُحلَّ بنفسه العقوبةَ، اخرجوا إلى مُعَسْكركم فعسْكِروا به مع الناس ».
فعَسْكَرَ الناس كلهم فى معسكرهم .

فبلغ ذلك رتبيل، فكتب إلى عبد الرحمن : يعتذر إليه من مُصاب المسلمين، ويخبره أنه كان لذلك كارها، وأنهم ألجئوه إلى قتالهم، ويسأله الصلح، ويَعْرِض عليه أن يقبل منه الخراج، فلم يُجبه، ولم يقبل منه .

ولم ينشَبْ عبد الرحمن أن سار فى الجنود إليه حتى دخل أول بلاده، وأخذ رتبيل يضم إليه جنده، ويدع له الأرض رُسْتاقا رُسْتاقا[1]، وحِصْنا حصنا، وطفِقَ ابن الأشعث كلما حوى بلداً بعث إليه عاملا، وبعث معه أعوانا، ووضع البُرُدَ[2] فيما بين كل بلد وبلد، وجعل الأرصاد عَلَى العِقاب والشِّعاب، ووضع المَسالِحَ[3] بكل مكان مَخُوف، حتى إذا حاز من أرضه أرضاً عظيمة، وملأ يديه من البقر والغنم والغنائم العظيمة، حبس الناس عن الوُغُول فى أرض رتبيل، وقال : نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم حتى نَجبيَها ونعرِفها، ويجترئ المسلمون عَلَى طرقها، ثم نتعاطى فى العام المقبل ما وراءها، ثم لم نزل ننتقِصهم فى كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتِلَهم آخرَ ذلك عَلَى كنوزهم وذراريّهم، وفى أقصى بلادهم ومُمتنع حصونهم، ثم لانزايلُ بلادهم حتى يهلكهم الله، ثم كتب إلى الحجاج بما فتح الله عليه من بلاد العدو، وبما صنع الله للمسلمين، وبهذا الرأى الذى رآه لهم .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣)

---

(١) الرستاق : الناحية التى هى طرف الإقليم، معرب .
(٢) جمع بريد .
(٣) جمع مسلحة، وهى القوم ذوو سلاح .

٢٢٧ — كتاب الحجاج إلى ابن الأشعث

فكتب إليه الحجاج جواب كتابه :

« أما بعدُ ، فإن كتابك أتانى ، وفهمتُ ما ذكرتَ فيهِ ، وكتابُكَ كتابُ امرئٍ يحب الهُدْنة ، ويستريح إلى الموادعة ، قد صانَع عدوا قليلا ذليلا ، قد أصابوا من المسلمين جُنداً كان بلاؤهم حَسَنا ، وغَناؤهم[1] فى الإسلام عظيما .

لَعَمْرُكَ يابنَ أمٍّ عبد الرحمن ، إنك حيثُ تَكُفُّ عن ذلك العدوّ بجندى وحَدِّى ، لَسَخِيُّ النفس عمن أُصيبَ من المسلمين ! ! إنى لم أَعْدُد رأيَكَ الذى زعمتَ أنك رأيته رَأْىَ مَكِيدةٍ ، ولكنى رأيتُ أنه لم يحمِلك عليه إلا ضَعْفُك والْتياثُ[2] رأيِك ، فامض لِمَا أمرتك به من الوغول فى أرضهم ، والهدمِ لحصونهم ، وقتل مُقاتِلتهم وسَبْى ذراريِّهم » .   (تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٢٢٨ — كتاب آخر من الحجاج إلى ابن الأشعث

ثم أردفه كتابا فيه :

« أما بعدُ ، فمُرْ مَن قِبَلك من المسلمين فَلْيَحْرُثوا وليقيموا ، فإنها دارهم حتى يفتحها اللهُ عليهم » .   (تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٢٢٩ — كتاب ثالث من الحجاج إليه

ثم أردفه كتابا آخر فيه :

« أما بعدُ ، فامضِ لِمَا أمرتك به من الوغول فى أرضهم ، وإلّا فإن إسحق بن محمد أخاك أميرُ الناس فخَلِّه وما وليتُه » .

---

(١) كفايتهم .   (٢) الالتياث : الاختلاط والالتفاف.

فدعا عبد الرحمن الناس إليه ، فقال لهم: قد كان من رأيى فيما بينكم وبين عدوّ كم رأىٌ استشرتُ فيه ذوى أحلامِكم وأُولى التجربة للحرب منكم ، فرضُوه لكم رأيا ، ورأوْه لكم فى العاجل والآجل صلاحا ، وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج ، فجاءنى منه كتابٌ يعجّزنى ، ويضعّفنى ، ويأمرنى بتعجيل الوُغُول بكم فى أرض العدو ، وهى البلاد التى هلك إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم أمضى إذا مَضَيتم ، وآبَى إذا أَبَيْتم » . فثار إليه الناس ، فقالوا : لا ، بل نأبَى على عدو الله ، ولا نسمع له ، ولا نطيع ، وقام خطباؤهم فسفَّهوا رأى الحجاج ، ونادَوا بخلعه ، ومبايعة عبد الرحمن ، فأجابهم الناس ، ووثبوا إلى عبد الرحمن فبايعوه على النُّصْرَةِ له ، والجهاد معه حتى ينفى الحجاج من أرض العراق ، وبعث عبد الرحمن إلى رتبيل فصالحه على أن ابن الأشعث إن ظهر فلا خَراجَ عليه أبداً ما بقِىَ ، وإن هزم فأراده ألجأه عنده ، وخرج من سجستان مقبلا إلى العراق ، فلما دخل الناس فارس اجتمع بعضهم إلى بعض ، فقالوا : إنا إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبد الملك ، فخلعوه إلا قليل منهم ، ووثبوا إلى عبد الرحمن فبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه ، وخلع أئمة الضلالة ، وجهاد المُحِلِّين . (تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٢٣٠ — كتب بين ابن الأشعث والحجاج وصاحب اليمن وعبد الملك

قال الطبرى :

فلما بلغ الحجاجَ خلعُه ، كتب إلى عبد الملك يُخبره خَبَرَ عبد الرحمن ويسأله أن يُعَجِّل بعثة الجنود إليه ، وبعث كتابه (أى كتاب عبد الرحمن) إلى عبد الملك يتمثّل فى آخره بهذه الأبيات ـ وهى للحارث بن وَعْلَة (الجَرْمِىّ) ـ :

سائِلْ مُجَاوِرَ جَرْمٍ هل جَنَيْتُ لهم ... حَرْبًا تُفَرِّق بين الجِيرةِ الخُلُطِ (١)

وهل سَمَوْتُ بِجَرَّار له لَجَبٌ ... جَمِّ الصَّواهِلِ بين الجَمِّ والفُرُط (٢)

وهل تركتُ نِساءَ الحيِّ ضاحِيَةً ... فى ساحةِ الدار يَسْتَوْقِدْن بالغُبُطِ (٣)

وقال أبو العباس المبرِّد فى الكامل :

وكتب صاحبُ اليمن إلى عبد الملك بن مَرْوان فى وقت محاربته ابن الأشعث : « إنى قد وَجَّهتُ إلى أمير المؤمنين بجارية اشتريتها بمال عظيم ، ولم يُرَ مِثلُها قطُّ » .

فلما دُخِلَ بها عليه رأى وجها جميلا ، وخَلْقا نبيلا ، فألقى إليها قَضيبا كان فى يده فنكَست لتأخذه ، فرأى منها جسما بَهَرَه ، فلما هَمَّ بها أعلَمَه الآذِنُ أن رسول الحجاج بالباب فأذِنَ له ، ونَحّى الجارية ، فأعطاه كتابا من عبد الرحمن فيه سطور أربعة يقول فيها :

سَائِلْ مُجَاوِرَ جَرْمٍ هَلْ جَنَيْتُ لها ... حَرْبًا تُزَيِّلُ بين الجيرة الخُلُطِ (٤)

وهل سموتُ بجَرَّار له لَجَبٌ ... جَمِّ الصواهِل بين الجَمِّ والفُرُط

وهل تركتُ نِساءَ الحيِّ ضاحِيَةً ... فى ساحةِ الدار يستوقِدْن بالغُبُطِ

وتحتها (بيت آخر على غير الرويّ من الأبيات الأُول ، وهو :)

قَتَلَ الملوكَ ، وصار تحت لوائه ... شَجَرُ العُرَا وعَرَاعِرُ الأقوامِ (٥)

---

(١) جرم : بطنان ، بطن فى قضاعة، والآخر فى طيء . والخلط جمع خليط ، وهو الشريك والقوم الذين أمرهم واحد ، والمخالط .

(٢) بجرار : أى بجيش جرار : واللجب : الجلبة والصياح ،جم الصواهل: أى جم الخيول الصواهل أى كثيرها . الجم والفرط : موضعان .

(٣) ضاحيةٌ : بارزة للشمس ، وربما كان « صاخبة » والغبط جمع غبيط : والغبيط : الرحل وهو للنساء يشد عليه الهودج وقوله : فىساحة الدار يستوقدن بالغبط ، قال المبرد : يقال فيه قولان متقاربان : أحدهما أنهن قد يئس من الرحيل فجعلن مراكبهن حطبا . هذا قول الأصمعى ، وقال غيره : بل قد منعهن الخوف من الاحتطاب .

(٤) تزيل : تفرق .

(٥) العرا بضم العين مقصورا : نبت ، والعراء بفتح العين ممدودا : وجه الأرض ، وعراعر الأقوام رءوسهم ، جمع عرعرة بضم العينين ، وعرعرة كل شىء أعلاه ، والبيت لمهلهل .

فكتب إليه عبد الملك كتابا ، وجعل فى طيِّه جوابا لابن الأشعث :

ما بالُ مَنْ أسْعَى لأَجْبُرَ عَظْمَه   حِفاظا وينوِى من سفاهته كَسْرِى (١)
أظُنُّ خطوبَ الدهْر بينى وبينهم   ستحمِلُهم منى على مَرْكَبٍ وَعْرِ
وإنى وإياهم كمن نَبَّــــه القطَا   ولو لم تُنَبَّهْ باتتِ الطَّيْرُ لا تَسْرِى
أَناةً وحِلْماً وانتظــــاراً بهم غداً   فما أنا بالوَانِى ولا الضَّرِعِ الغُمْرِ (٢)

ثم بات يقلِّب كف الجارية ، ويقول : ما أفَدْتُ فائدة أحبَّ إلىّ منك ، فتقول : فما لكَ يا أمير المؤمنين ، وما يمنعك ؟ فقال : يمنعنى ما قاله الأخطل ، لأنى إن خرجت منه كنت ألأمَ العرب :

قومٌ إذا حاربوا شَدُّوا مآزِرَهم   دُونَ النساء ولو باتت بأَطْهارِ

فما إليكِ سبيل ، أو يَحْكُمَ اللهُ بينى وبين عدوِّى عبد الرحمن بن الأشعث ، فلم يقربها حتى قُتِل عبد الرحمن » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٠ ، والكامل للمبرد ١ : ١٣٠)

٢٣١ — كتاب من ابن الأشعث إلى الحجاج

(كتبه ابن القِرِّية)

وروى ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة قال :

فلما أجمعَ عبد الرحمن على إظهار خلع الحجاج ، كتب إلى أيوب ابن القِرِّيّة التميمى ، وهو مع الحجاج فى عسكره خاصّ المنزلة منه ، يسأله أن يُصْدِر إليه رسالة إلى الحجاج ، يخلع فيها طاعة الحجاج ، فكتب له ابن القرِّية رسالة فيها :

---

(١) دخل الخرم هذا البيت — على رواية صاحب الكامل — وسيرد عليك فى باب التوقيعات فما بال . . . » .

(٢) ضرع إليه ويثلث : خضع وذل واستكان فهو ضارع ، وضرع ككتف وضروع كصبور وضرعة محركة ، وككرم : ضعف فهو ضرع محركة، والغمر : كشمس وقفل وسبب وكتف ومعظم : من لم يجرب الأمور .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الحجاج بن يوسف ، سلام على أهل طاعة الله وأوليائه الذين يَحْكُمُون بعَدله ، ويُوفُون بعَهْده ، ويجاهدون فى سبيله ، ويتورَّعون لِذِكْره ، ولا يَسْفِكون دَمًا حراما ، ولا يعطِّلون لِلرَّبِّ أحكاما ، ولا يَدْرُسون[١] له أعلاما ولا يتنكَّبُون النَّهْجَ[٢] ، ولا يُبْرِمُون السَّيِّئَ ، ولا يسارعون فى الغَيِّ ، ولا يُدَلِّلُون الفَجَرةَ ، ولا يتراضَوْن الجَوْرَةَ ، بل يتمكَّنون عند الاشتباه ، ويتراجعون عند الإساءة .

أما بعد ، فإنى أَحْمَد اللهَ حَمْدا بالغا فى رضاه ، منتهيا إلى الحق فى الأمور الحقيقة لله علينا ، وبعدُ فإن الله أَنْهَضنى لِمُصَاولتك ، وبعثنى لمناضلتك ، حين تحيَّرَتْ أمورك ، وتهتَّكَتْ سُتُورك ، فأصبحتَ عُرْيَانَ حَيْرانَ مَهِيناً لا تُوافِق وَفْقا ، ولا ترافِقُ رِفْقا ، ولا تلازِم صِدْقا ، أُؤَمِّل من الله الذى أَلْهَمَنى ذلك أن يُصيِّرك فى حِبالِك ، وأن يجىء بك فى القَرَن[٣] ، ويَسْحَبَك للذَّقَن ، ويُنْصِفَ منك مَن لم تُنْصِفْه من نفسك ، ويكون هلاكُك بيَدَىْ مَن اتَّهمتَه وعاديتَه ، فلعمرى لقد طالما تطاولتَ وتمكَّنْتَ وأخطأتَ ، وخِلْتَ أن لن تَبُور[٤] ، وأنت فى فَلَكِ المُلْك تدورُ ، وأظن مِصْداقَ ما أقولُ سَتَخْبُره عن قريب ، فسِرْ لأمرك ، ولاقِ عِصابةً خَلَعتك من حِبَالِها[٥] خَلْعها نِعالَها ، وَتَدَرَّعَت حَلاَلَهَا ، تدرُّعَها مِطَالَها[٦] ، لا يحذَرون منك جَهْدا ، ولا يَرْهَبون منك وعيدا ، يتأملون خَزَايَتَك ، ويتجرَّعون إمارتك ، عِطاشاً إلى دمك ، يستطعِمُون الله لَحْمَك[٧]

---

(١) درس الرسم كدخل : عفا ، ودرسته الريح ، لازم ومتعد .

(٢) النهج : الطريق الواضح ، وتنكبه : عدل عنه وتجنبه .

(٣) القرن : الحبل يقرن به البعيران . (٤) تهلك .

(٥) الحبال ، جمع حبل : وهو العهد والذمة والتواصل ، والمعنى : خلعتك من الحكم الذى عهد به إليك وهذه العبارة فى الأصل « ولاقعصابة خلقك من حيالها خلفها نعالها » وأراها محرفة .

(٦) المطل : مد الحديد وسبكه وطبعه وصوغه بيضة ، والمطيلة اسم الحديدة التى تمطل من البيضة ومن الزندة وجمعها مطال . (٧) أى يسألونه أن يطعمهم لحمك .

وايمُ اللهِ ليُناقِفنَّك[١] منهم الأبطالُ الذين بَيَّتهم[٢] فيما يحاولونك به على طاعة الله ، شَرَوا[٣] أنفسهم تقرُّبا إلى الله ، فأَغْضِ[٤] عن ذلك يابْنَ أم الحجاج ، فسنَحْمِل عليك إن شاء الله ، ولا حوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله ، والسلام على أهل طاعة الله » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٢٦)

٢٣٢ — رد الحجاج على ابن الأشعث

فلما قدم الكتاب على الحجاج قال : اكتب يا نافع ، وكان نافع مولاه وكاتبا بين يديه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف إلى عبد الرحمن بن الأشعث ، سلام على أهل النزوع عن الزَّيْغ وأسباب الرَّدَى[٥] ، لا إلى معادن السَّيِّئ ، والتقحُّم[٦] فى الغَيِّ ، فإنى أَحْمد اللهَ الذى خَلاَّك فى حَيْرتك ، إذ بَهتَك[٧] فى السيرة ، ووَهَّلك للضرورة ، حتى أَقْحَمَك أمورًا أخرجَك بها عن طاعته ، وجانَبْتَ وِلاَيته ، وعَسْكَرْتَ بها فى الكفر ، وذَهِلْت بها عن الشكر ، فلا تشكُر فى السَّرَّاء ، ولا تَصْبِر فى الضَّرَّاء أقبلْتَ مسْتَنًا[٨] بحَرِيم الحرّة ، تستوقِد الفِتنةَ لِتَصْلَى بحَرِّها ، وجلَبْتَ لغيرِك ضرها

---

(١) المناقفة والنقاف : المضاربة بالسيوف على الرءوس ، وفى الأصل « لينافقنك » وهو تصحيف

(٢) يريد بيت لهم : أى دبرت و كدت ، يقال بيت الأمر : دبره ليلا ، وبيت العدو : أوقع بهم ليلا

(٣) أى باعوا . (٤) أغضى عنه طرفه : سده أو صده .

(٥) نزع عن الأمر : كف وانتهى عنه ، وهذه العبارة فى الأصل « من النزيع وأسباب الرداء » وأرى أنها محرفة وصوابها ما ذكرت .

(٦) تقحم الأمر وفيه : رمى بنفسه فيه من غير روية .

(٧) بهته : حيره ، قال تعالى « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » . أى تحيرهم حين تفجؤهم بغتة ، وقال أيضا « فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ » . أى : انقطع وسكت متحيرا ، وبهته أيضا : أخذه بغتة ، ووهل كفرح فزع وجبن ، ووهله : أفزعه .

(٨) استن سنته : سار سيرته ، والحريم : الحرم ، أى إنك قد اتبعت سنة أهل الحرة فخرجت على ولى الأمر ونقضت عهد طاعته كما شقوا عصا الطاعة ليزيد (انظر ص ٨٠) .

وقلت : وَثاقُ[١] الاحتجاج ، ومبارزة الحجاج ، ألاَ بَلْ لأُمِّكَ الهبَلُ[٢] ، وعِزةِ ربِّك لَتُـكَبَّنَّ لِنَحْرِكَ ، و لَتُقْلَبَنّ لظهرِك ، ولتتَخَبَّطَنّ فريصتُك[٣] ، ولتُدْحَضَنَّ حُجّتُك، وليُذمَّنَّ مقامك، ولتُشَانَنَّ[٤] بِسِهامك ، كأنى بك تصيرُ إلى غيرِ مقبولٍ منك إلا السيفَ ، هَوْجا هوجا عند كَشْف الحربِ عن سَاقِها ، ومبارَزَةِ أبطالها ، والسلام على من أَنَابَ إلى الله ، وَسَمِع وأجاب » . (الإمامة والسياسة ٢ : ٢٨)

٢٣٣ — كتاب المهلب إلى عبد الرحمن بن الأشعث

وقد كان بلغ المهلَّبَ (وكان على خُراسان) شِقاقُ عبد الرحمن ، وهو بسجستان فكتب إليه :

« أما بعد ، فإنك وضعتَ رجلَك يابن محمد فى غَرْزِ[٥] طويلِ الغَىِّ على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أللهَ أللهَ فانظر لنفسك لاتُهْلِكْها ، ودماء المسلمين فلا تَسْفِكْها ، والجماعة فلا تُفَرِّقْها ، والبَيْعة فلا تَنْكُثْها ، فإن قُلتَ : أخَاف الناس على نفسى ، فاللهُ أحقُّ أن تخافه عليها من الناس ، فلا تعرِّضها لله فى سَفْك دمٍ ، ولا استحلال مُحرَّم ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

٢٣٤ — كتاب المهلب إلى الحجاج

قال الطبرى : وكتب المهلَّب إلى الحجاج :

« أما بعدُ : فإنّ أهلَ العراق قد أقبلوا إليك ، وهم مثلُ السَّيْل المُنْحَدر من عَلُ ، ليس شىء يَرُدُّه حتى ينتهىَ إلى قَرارِه ، وإن لأهل العراق شِرَّةً[٦] فى أوّل مَخْرَجهم،

(١) الوثاق : ما يشد به ويكسر ، والمعنى : شدة الاحتجاج .
(٢) هبلته أمه كفرح : ثكلته وفقدته . (٣) الفريصة : اللحمة بين الجنب والكتف .
(٤) فى الأصل « ولتشغلن » وأراه محرفا .
(٥) الغرز : ركاب من جلد .
(٦) أى نشاطا وحدة .

وَصَبَابَةً إلى أبنائهم ونسائهم ، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم، ويَشَمُّوا أولادهم، ثم واقِفْهم عندها ، فإن الله ناصِرُك عليهم إن شاء الله » .

فلما قرأ كتابه ، قال : فعل الله به وفعل ، لا والله ، مَالِى نَظَرَ ، ولكن لأبن عمِّه[1] نَصَحَ . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

وروى ابن نُباتة هذا الكتاب فى سَرْح العيون بصورة أطول ، قال :

وحُكِيَ أن عبد الرحمن بن الأشعث لما خرج على الحجاج بالجيش الذى كان بعثه معه إلى قتال رتبيل ، كاتب المهلَّبَ ، وهو بخراسان يدعوه إلى خلع الحجاج ، فقال المهلب : لا غدْرَ بعد سبعين سنة ، ثم كتب إلى الحجاج :

« أما بعدُ ، فإن أهل العراق مع ابن الأشعث قد أقبلوا إليك ، وهم مثلُ السيل المنحطِّ من أعلى إلى أسفل ، ليس يرده شىء حتى ينتهَى إلى قراره ، ولأهل العراق شِدَّة فى أول حربهم ، وبهم صَبابةٌ إلى نسائهم وأبنائهم ، فلا شىء يردهم دون أهليهم ، فلا تَستقبلهم وخَلِّ لهم السبيل حتى يأتوا البصرة ، فيُضاجعوا نساءهم ، ويتشَمَّوا أبناءهم ، فترقَّ قلوبهم ، ويُخلدوا إلى المُقام فى منازلهم ، ويتفرقوا عن ابن الأشعث ، فأوقِعْ بمن حاربك منهم ، فإن الله ناصرك عليهم » .

فلما قرأ الحجاج كتابه قال : وَيْلى على ابن المَزُونىّ ، والله مَالِى نَظَرَ ، وإنما نَظَر إلى ابن عمه ، ولم يقبل منه ذلك . (سرح العيون ١٣٧)

٢٣٥ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وتجهز الحجاج لِلِقاء ابن الأشعث ، وتتابعت إليه جنودُ الشأم ، فسار بهم حتى نزل « تُستَرَ »[2] ، وحَمَل ابن الأشعث عليهم فهزمهم ، فارتحل الحجاج إلى البصرة

---

(١) وذلك أن المهلب أزدى، وعبد الرحمن كندى، والأزد وكندة قبيلتان من كهلان بن سبأ من القحطانيين .

(٢) مدينة بالأهواز .

ونزل « الزّاوية »[١] وخلّى البصرة لأهل العراق فنزلوها ، وبايع ابنَ الأشعث على حرب الحجاج وخَلْعِ عبد الملك ، جميعُ أهلها ، ودارت رَحَى الحرب ، فانهزم أهل الشام فصَبَروا وصَدَقوا القتال حتى انتصروا ، وانهزم جيش ابن الأشعث ، فأقبل نحو الكوفة حتى دخلها فبايعه أهلها ، وأقبل الحجاج بجيوشه نحوها فنزل دَيْر قُرَّة ، فخرج ابن الأشعث إلى دَيْر الجَمَاجِم[٢] ، واجتمع أهل العراق جميعا على حرب الحجاج ، جَمَعَهم عليه بُغضهم وكراهيتهم له ، واشتد القتال بين الفريقين ، وأراد عبد الملك أن يترضّى أهل العراق ، فبعث يَعرِض عليهم عزْل الحجاج عنهم ، وأن ينزل ابن الأشعث أيَّ بلد من العراق شاء ، يكون عليه واليا ما دام حيا ، وكان عبد الملك واليا ، فلم يأت الحجاجَ أمر قطُّ كان أشدَّ عليه ، ولا أغيظَ له ، ولا أوجعَ لقلبه منه ، مخافةَ أن يقبلوا فيُعْزَل عنهم ، فكتب إلى عبد الملك :

« يا أميرَ المؤمنين ، والله لئن أعطيْتَ أهلَ العراق نزْعِي ، لايلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ولا يزيدُهم ذلك إلا جُرْأةً عليك ، ألَمْ ترَ وتسمعْ بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفّان ؟ فلما سألهم : ماير يدون ؟ قالوا : نزعَ سعيد ابن العاصِ[٣] فلما نزَعه لم تتمَّ لهم السَّنةُ حتى ساروا إليه فقتلوه ، إن الحديد بالحديد يُفْلَجُ[٤] ، خارَ[٥] الله لك فيما ارتأيت ، والسلام عليك » .

فأبى عبد الملك إلا عرْضَ ذلك على أهل العراق إرادةَ العافية من الحرب ، فجمعهم عبد الرحمن ، وحثَّهم أن ينتهزوا تلك الفرصة ، ويقبلوا ما عُرِضَ عليهم ، فأبَوا ورَكِبوا رءوسهم ، وقالوا : لا واللهِ لانقبل ، وأعادوا خلع عبد الملك ثانية ، وبَرَزوا للقتال ، فوقعت بينهم وبين الحجاج بدير الجماجم مواقع هائلة استمرت مائة يوم ، وانتهت بهزيمة ابن الأشعث وجنده (فى ١٤ من جمادى الآخرة سنة ٨٣) .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٦)

---

(١) موضع قرب البصرة . (٢) بظاهر الكوفة ، ودير قرة بإزائه .
(٣) انظر ص ٢٧١ من الجزء الأول .
(٤) أى يشق ويقطع . (٥) أى جعل لك فيه الخير .

٢٣٦ - كتاب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم

ولما انهزم الناس يوم دير الجماجم، قال الحجاج: اتركوهم فليتَبَدَّدوا ولا تتبعوهم، ونادى مناديه: مَن رَجَع فهو آمن، ومن لَحَق بقُتَيْبَة بن مُسْلِم بالرَّيّ فهو أمانُه، فلَحِق ناس كثير بقتيبة، وكان فيمن لِحَق به عامِرٌ الشَّعْبي[١]، فذكَرَ الحجَّاج الشَّعبيَّ يوما، فقال: أين هو؟ وما فعل؟ فقيل له: إنه لِحَق بقتيبة بالرَّيِّ، فكتب الحجاج إلى قتيبة:

« أما بعدُ، فابعث إلىّ بالشَّعبيِّ حين تنظر فى كتابى هذا، والسلام عليك »

فسُرِّح إليه، فلما دخل عليه اعتذر إليه، فقبِل منه الحجاج وعفا عنه:

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣١)

٢٣٧ - كتاب عبد الملك إلى الحجاج

ودخل الحجاج الكوفة بعد وقعة دير الجماجم، وأقبل الناس يبايعونه، وكان عبد الملك كتب إليه فى أسرى دير الجماجم: « أن يَعرِضهم على السيف، فمن أقرَّ منهم بالكفر بخروجه علينا فخلِّ سبيله، ومن زعم أنه مؤمن فاضرِبْ عنقه » فكان الحجاج لايبايعه أحد إلا قال له: أتشهد أنك قد كفرت؟ فإذا قال « نعم » بايعَه وإلا قتله[٢].

(العقدالفريد ١ : ١٥١ و ٣ : ٢٠، وتاريخ الطبرى ٨ : ٢٥)

---

(١) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) الشعبي - نسبة إلى شعب وهو بطن من همدان - وهو كوفى تابعى جليل القدر وافر العلم توفى سنة ١٠٥ هـ. وكانت أمه من سبى جلولاء.

(٢) وأتى بسعيد بن جبير (أحد كبار التابعين) فقال له: أنت سعيد بن جبير؟ قال: نعم، قال: لا، بل شقى بن كسير، قال: أمى أعلم باسمى منك قال، شقيت وشقيت أمك، قال: الشقاء لأهل النار، قال: أكافر أنت أم مؤمن؟ قال: ما كفرت بالله منذ آمنت به، قال: اضربوا عنقه.

وجاء إليه رجل من خثعم كان معتزلا الناس جميعا من وراء الفرات، فسأله عن حاله، فقال: مازلت معتزلا منتظرا أمر الناس حتى ظهرت (أى غلبت) فأتيتك لأبايعك مع الناس، فقال: أمتربص؟ أتشهد =

٢٣٨ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

ولما أسرف الحجاجُ فى قتل أسارَى دير الجماجم وأعطى الأموال، بلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه:

« أما بعدُ، فقد بلغَ أمير المؤمنين سَرَفُك فى سَفْك الدماء، وتبذيرُك فى الأموال، فى الباطل، ومنعُك الحقَّ، ولا يحتمِلُ أمير المؤمنين هاتين الخَصْلتين لأحد من الناس، وقد حَكمَ عليك أمير المؤمنين: فى الدماء، فى الخطَإِ الدِّية، وفى العَمْد القَوَدُ[1]، وفى الأموال رَدّها إلى مواضعها، ثم العَمَل فيها برأيه، فإنما أمير المؤمنين أمين الله، وسِيَّانَ عنده مَنْعُ حق وإعطاء باطلٍ، فإن كنت أردتَ الناس له فما أغناهم عنك، وإن كنت أردتَهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران: لِينٌ وشِدَّةٌ، فلا يُؤنِسَنّك إلا الطاعةُ، ولا يُوحشنَك إلا المعصية، وظُنَّ بأمير المؤمنين كلَّ شىء إلا احتمالَك على الخَطَإِ، وإذا أعطاك الظَّفَر على قوم فلا تقتلنَّ جانحا ولا أسيرا » وكتب فى أسفل كتابه:

إذا أنت لم تَطْلُبْ أمورا كَرِهْتَها ... وتطلب رضائى بالذى أنت طالبُهْ
وتخشَى الذى يخشاه مِثْلِىَ هاربا ... إلى اللهِ منه، ضَيَّع الدَّرَّ حالِبُه[2]
فإن تَرَ منى غفْلَةً قُرَشِيَّةً ... فيارُبَّما قد غَصَّ بالماء شاربه
وَإنْ تر منّى وثْبَةً أمَوِيَّةً ... فهذا وهذا كلُّ ذا أنا صاحِبُه

—أنك كافر؟ قال: بئس الرجل أنا إن كنت عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسى بالكفر، قال: إذن أقتلك، وضرب عنقه.

وأتى بشيخ وشاب فقال للشاب: أمؤمن أنت أم كافر؟ قال: بل كافر، قال: لكن الشيخ لا يرضى بالكفر، فقال له الشيخ: أعن نفسى تخادعنى ياحجاج؟ والله لو كان شىء أعظم من الكفر لرضيت به، فضحك الحجاج وخلى سبيلهما وفى رواية أخرى أنه أتى برجل فقال الحجاج: إنى أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر، فقال: أتخادعنى عن نفسى! أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذى الأوتاد، فضحك الحجاج وخلى سبيله.

(١) القود: القصاص.

(٢) الدر: اللبن.

فلا تَلْحَيَنِّى والحوادثُ جَمَّـــةٌ فإنك مَجْزِىٌّ بما أنت كاسِبُه[١]

ولا تعْدُ ما يأتيك منى ، وإن تعُدْ يقومُ بها يوما عليك نوادِبُه

ولا تدْفعَنْ للناس حقا علِمْتَه ولا تعطِيَنْ ما ليس لله جانبُه

(مروج الذهب ٢ . ١٣٦ ، وأدب الكتاب ص ٢٣٦)

٢٣٩ – رد الحجاج على عبد الملك

فلما قرأ الحجاج كتابه كتب إليه :

« أما بعدُ ، فقد أتانى كتابُ أمير المؤمنين يذكُر فيه سَرَفى فى الدماء ، وتبذيرى فى الأموال ، ولعَمْرِى ما بلغتُ فى عقوبة أهل المعصية ما هم أهلُه وما قضيْتُ حقَّ أهل الطاعة بما استحقُّوهُ ، فإن كان قَتْلى أولئك العُصَاةَ سَرَفا ، وإعطائى أولئك المطيعين تبذيراً ، فلْيُسَوِّغْنِى[٢] أمير المؤمنين ما سَلَف ، ولْيَحُدَّ لى فيه حدا أنتهى إليه إن شاء الله تعالى ، ولا قوة إلا بالله ، ووالله ما علىَّ من عَقلٍ[٣] ولا قَوَد ، ما أصبتُ القومَ خطأً فأفدِيَهم ، ولا أعطيتُهم إلا لك ، ولا قتلتُ إلا فيك ، وأما ما أنا مُنتظِرُه من أمرَيك ، فألْيَنُهُما عِدَةٌ ، وأعظمُهما مِحْنَةً ، فقد عبَّأت للعدةِ الجلاد ، وللمِحْنة الصبرَ .

وكتب فى أسفل كتابه :

إذا أنا لم أتبَعْ رِضاك وأتَّـــقى أذاكَ ، فيومِى لا تزُول كواكِبُهْ

وما لِامْرئٍ بعد الخليفةِ جُنَّةٌ تَقِيه من الأمر الذى هو كاسِبُه[٤]

أُسَالِمُ مَنْ سالمتَ من ذى قَرابةٍ ومَنْ لم تُسالِمْه فإنى محارِبُه

---

(١) فى الأصل « فلا تلمنى » ولكنه يخل بوزن البيت ، وأرى أنه محرف عن « فلا تلحينى » وهو بمعناه (٢) يقال : سوغه ما أصاب أى تركه له خالصا ، والمعنى : فليقرنى على ماقد فعلته، وفى أدب الكتاب : « فإن رأى أميرالمؤمنين أن يمضى لى سالفى ، ويأمرنى بما أحب فى مستأنفى،فعل إن شاء الله »

(٣) العقل : الدية . (٤) الجنة : الوقاية .

إذا قارفَ الحجاجُ منك خَطيئةً فقامَتْ عليه فى الصباح نَوادِبُهُ[١]
إذا أنا لم أُدْنِ الشفيق لنُصْحِهِ وأُقْصِى الذى تَسْرِى إلىَّ عقارِبه
فمن ذا الذى يرجو نَوالى ، ويتَّقِى مُصاوَلَتى ؟ والدهرُ جَمٌّ نوائبُه
فقِفْ بى على حَدٍّ الرضا لا أُجُوزُه مَدَى الدهر حتى يَرْجِعَ الدَّرَّ حالبُهْ[٢]
وإلاَّ فدَعْنِى والأمورَ ، فإننى شَفِيقٌ رَفيق أحْكَمَتْنِى تجارِبُه

فلما أنتهى كتابه إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صَوْلتى، ولن أعود لشىء يكرهه

(مروج الذهب ٢ : ١٣٧ ، وأدب الكتاب ص ٢٣٦)

٢٤٠ — كتب الحجاج إلى رتبيل

وما زال ابن الأشعث ينهزم من بلد إلى بلد حتى دخل بلاد رتبيل ، فأنزله عنده وأكرمه وعظّمه ، فكتب الحجاج إلى رتبيل :

« أما بعدُ : فإنى قد بعثتُ إليك عُمارةَ بن تميم[٣] فى ثلاثين ألفاً من أهل الشأم ، لم يخالفوا طاعةً ، ولم يخلعوا خليفة ، ولم يتّبعوا إمام ضَلالة ، يَجْرِى على كل رجل منهم فى كل شهر مائةُ درهم ، يستطعِمُون الحرب استطعاما ، يطلبون ابن الأشعث » .

فأبَى رتبيل أن يسلمه ، وتتابَعَتْ كُتُب الحجاج إليه فى ابن الأشعث أن :

« ابْعث به إلىّ ، وإلاَّ فوالذى لا إله إلا هو لأُوطِئَنَّ أرضك ألفَ ألفِ مقاتل » .

ثم عاهده الحجاج لَيَكُفَّنَّ الخراج عن أرضه سبع سنين على أن يدفع إليه ابن الأشعث فوجَّه به إليه ، فألقى ابن الأشعث نفسه من فوق قصر فمات ، فاحتزَّ رتبيل رأسه ،

---

(١) قارف الذنب : اقترفه ، وجملة قامت دعائية .

(٢) يرجع : يرد ، والدر : اللبن ، أى حتى يرد الحالب الدر فى الضرع وهو مستحيل ، والمعنى : لا أجوزه أبدا ، وفى الأمثال « حتى يرجع الدر فى الضرع » يضرب لما يستحيل كونه .

(٣) كان على سجستان .

وبعث به إلى الحجاج ، وكتب إليه : « أنه أخذ ثمانية عشر رجلا من أهل بيت عبد الرحمن » ، فكتب إليه :

« أن اضْرِب رِقابهم وابعث إليَّ برءوسهم » .

وكَرِه أن يؤتَى بهم إليه أحياء فيُطلب فيهم إلى عبد الملك ، فيترك منهم أحداً ، وكان ذلك سنة ٨٥ هـ . (تاريخ الطبرى ٨ : ٤٠)

٢٤١ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وروي أنه لما هزَم الحجّاج ابْنَ الأشعث ، كتب إليه عبد الملك :

« أما بعدُ : فما لكَ عندى مثل إلا قِدْحُ ابنِ مُقْبِل[١] »

٢٤٢ — كتاب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم

فلم يدْرِ الحجاج ما أراد ، فكتب إلى قُتَيْبة بن مُسْلِم الباهليّ — وكان عالمًا برواية الشعر — :

« إن ابن مُقْبِل من أهلِكَ ، وقد كتب إليّ أمير المؤمنين بكذا ، فعرِّفنى قِدْحَه » .

٢٤٣ — رد قتيبة على الحجاج

فكتب إليه قتيبة :

« إن هذا القِدْح فاز تسعين مرةً[٢] ، لم يَخِبْ فيها مرةً واحدة ، حتى ضُرب به المَثَل[٣] ، فقال ابن مقبل يَنْعته :

---

(١) هو تميم بن مقبل ، شاعر مخضرم ، والقدح : السهم الذى يستقسم به ، على عادة العرب فى الميسر

(٢) وفى سرح العيون « سبعين مرة » .

(٣) فقيل : « قدح ابن مقبل » .

خَرُوجٌ من الغُمَّى إذا صُكَّ صَكَّةً ... بَدَا والعُيونُ المستكِفَّةُ تَلْمَحُ[1]
مُفَدًّى ، مُؤَدًّى باليَدَيْن ، مُنَعَّمٌ ... خَليعُ قِدَاحٍ فائزٌ مُتَمَنِّحُ[2]
غدَا وهو مَجْدولٌ فراحَ كأنه ... من المَسِّ والتَّقليبِ بالكَفِّ أفطحُ[3]
إذا امْتَنَحَتْهُ من مَعَدٍّ قَبِيلةٌ ... غدَا ربُّه قبلَ المُفِيضين يَقْدَحُ[4]

(جمهرة الأمثال ٢ : ١٩ ، وسرح العيون ص ١٢٨)

٢٤٤ — كتاب الحجاج إلى المهلب

وولَّى الحجاجُ المهلَّبَ خُراسانَ سنة ٧٨ هـ كما قدمنا ، فلما كانت سنة ٨٠ هـ قطع المهلبُ نهر بَلْخ فنزل على « كَشّ » وأقام بها سنتين ، ثم صالح أهلها على فِدْية ، واتهم وهو بكش قومًا من مُضَر فحبسهم بها ، فلما قَفَل وصار صُلْح خلّاهم ، فكتب إليه الحجاج :

« إن كنتَ أصبتَ بحَبْسِهم فقد أخطأتَ فى تخليتهم ، وإن كنت أصبت بتخليتهم فقد ظلمتَهم إذ حبستَهم » .

فقال المهلَّب : « خفتهم فحبستهم ، فلما أَمِنْتُ خلَّيتهم » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣)

---

(١) الغمى : الشديدةمن شدائد الدهر لا يتجه لها ، ويقال : إنهم لفى غمى من أمرهم : إذا كانوا فى أمر ملتبس ، وفى الأصل « جمهرة الأمثال » العمى بالعين المهملة وهو تصحيف ، وصكه : ضربه . واستكففته استوضحته بأن تضع يدك على حاجبك كمن يستظل من الشمس ، واستكفوا حوله : أحاطوا به واجتمعوا حوله ينظرون إليه .

(٢) مؤدى باليدين : أى يحمل باليدين كلتيهما لا بيد واحدة ، اعتزازا به وتقديرا لفوزه ، والخليع القدح الفائز أولا (وهو أيضا قدح لا يفوز) وتمنحت المال : أطعمته غيرى ، وفى حديث أم زرع « وآكل فأتمنح » أى أطعم غيرى ، وهو تفعل من المنح : أى العطية ، فالمعنى أنه يمنح ويعطى من يستعيره تيمنا به .

(٣) الأفطح : العريض .

(٤) امتنحته : طلبت أن تمنحه أى استعارته ، وفى جمهرة الأمثال وسرح العيون « امتحنته » وهو تحريف ، والتصحيح عن لسان العرب ، جاء فيه « والمنيح (كـكريم) : قدح من قداح الميسر يؤثر بفوزه فيستعار بتيمن بفوزه ، وقيل : المنيح منها : الذى لا نصيب له ، وقد ذكر ابن مقبل القدح المستعار : الذى يتبرك بفوزه إذا امتنحته . . . . البيت » وأفاض القداح وبها ضرب بها ، والمعنى : أنهم إذا استعاروا هذا القدح غدا صاحبه يقدح النار لعمل اللحم قبل خروجه لثقته بفوزه .

٢٤٥ – كتاب المهلب إلى حريث بن قطبة

وقفَل المهلبُ من « كَشّ » وخلَّف حُرَيثَ بن قُطْبَةَ وقال له : إذا استوفيتَ الفِدية فردَّ عليهم الرَّهْن ، وقطع النهرَ فلما صارَ ببلخ أقام بها وكتب إلى حريث :

« إنى لست آمَنُ إن رَدَدْتَ عليهم الرُّهُنَ أن يُغيروا عليك ، فإذا قبضْتَ الفِدية فلا تُخلِّ الرُّهُنَ حتى تقدَم أرضَ بلخ » . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٨)

٢٤٦ – كتاب يزيد بن المهلب إلى الحجاج

وتوفى المهلب سنة ٨٢ هـ فولى الحجاج خراسان ابنَه يزيد ، وفى سنة ٨٤ هـ غزا يزيدُ « بَاذَغِيس[١] » فصالحه ملكها « نيزك » على أن يدفع إليه ما فى قلعته من الخزائن ، ويرتحل عنها بعياله[٢] ، وكتب يزيد إلى الحجاج بالفتح - وكانت كتب يزيد إلى الحجاج يكتبها يحيى بن يَعْمَر العَدْوانى - فكتب :

« إنّا لَقِينا العدوَّ ، فمنَحَنا اللهُ أكتافَهم ، فقتَلْنا طائفةً ، وأسَرْنا طائفةً ، ولَحِقَتْ طائفةٌ برءوس الجبال ، وعَراعِرِ[٣] الأودية ، وأهْضَام الغِيطَانِ ، وأثْناءِ الأنهار » .

وقال أبو العباس المبرِّد فى الكامل عقب شرحه : « وعراعر الأقوام » الواردة فى كتاب ابن الأشعث السابق :

ومن ذلك كتاب يزيد بن المهلَّب إلى الحجاج بن يوسف :

« وإن العدوَّ نزل بعُرْعُرة الجبل ، ونزلْنا بالحَضِيض[٤] » .

---

(١) ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة .

(٢) وفى ذلك يقول كعب بن معدان الأشقرى من قصيدة :

نفى نيزكا عن باذ غيس ، ونيزك ... بمنزلة أعيا الملوك اغتصابها

(٣) عراعر : جمع عرعرة بضم العينين ، وعرعرة كل شىء : أعلاه ، وأهضام : جمع هضم بالفتح ويكسر وهو المطمئن من الأرض ، وبطن الوادى وأسفله ، والغيطان جمع غائط : وهو المطمئن الواسع من الأرض ، وأثناء جمع ثنى بالكسر ، وثنى النهر : منعطفه .

(٤) الحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

ورواية الجاحظ فى البيان والتبيين :

« إنا لقِينا العدو . فقتلْنا طائفةً ، وأَسَرْنا طائفة ، ولَحِقت طائفة بعَرائر[1] الأودية، وأهضام الغيطان ، وبتنا بعُرْعُرة الجبل ، وبات العدو بحضيضه » .

فقال الحجاج : ما يزيدُ بأبى عُذْرة هذا الكلام[2] ، فمَن هناك؟ قيل : يحيى بن يَعْمَر ، فكتب إلى يزيد أن يُشْخِصه إليه[3] .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣٩ ، والكامل للمبرد ١ : ١٣٣ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠١)

٢٤٧ — كتب بين الحجاج وعبد الملك ويزيد والمفضل ابنى المهلب

وظهرت مَناقب يزيد وعَظُمت آثاره ، فحسده الحجاج وعمل على عزله ، ولم يكن يتخوف بعد ابن الأشعث غيرَه ، واتفق أن وفد الحجاج إلى عبد الملك ، ثم عاد إلى العراق فمرّ فى مُنْصَرَفه بدَير فنزله ، فقيل له : إن فى هذا الدير شيخا من أهل الكُتُب عالما ، فدعا به وسأله : أَتعلَمُ ما إلىّ ؟ قال : نعم ، قال : فمن يَلِيه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فوقع فى نفسه أنه يزيد بن المهلَّب ، وارتحل وهو وَجِل من قول الشيخ ،

(١) فسره الجاحظ فقال: « عرائر الأودية : أسافلها » ولم أجده فى كتاب اللغة ، والذى فى لسان العرب : « وعرا الوادى شاطئاه » مثنى « عر » كقفل ، ويلاحظ أنه لا يجمع قياسا على عرائر .

(٢) العذرة: البكارة ، وافتضاض الجارية ، يقال: فلان أبو عذر فلانة وأبو عذرتها: إذا كان افترعها وافتضها ، وما أنت بأبى عذرة هذا الكلام : أى لست بأول من افتضه .

(٣) فحمله يزيد على البريد فقدم عليه أفصح الناس ، فقال له : أين ولدت ؟ قال : بالأهواز ، قال فأنى لك هذه الفصاحة ؟ قال : حفظت كلام أبى وكان فصيحا ، قال : من هناك ؟ فأخبرنى : هل يلحن عنبسة بن سعيد ؟ قال : نعم كثيرا ، قال : ففلان ، قال : نعم ، قال : أتسمعنى ألحن ؟ قال : الأمير أفصح من ذلك ، فأعاد عليه القول وأقسم عليه ، فقال يحيى: نعم تلحن لحنا خفيا تزيد حرفا وتنقص حرفا ، وتجعل أن فى موضع إن ، وإن فى موضع أن ، قال: قد أجلتك ثلاثا ، فإن أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك، فرجع إلى خراسان .

ومما يتصل بذلك ما أورده ابن خلكان فى ترجمة الشعبى فى وفيات الأعيان ١ : ٢٤٤ قال« ويقال إن الحجاج قال له يوما : كم عطاءك فى السنة ؟ قال : ألفين ، قال : ويحك ! كم عطاؤك ؟ فقال : ألفان قال : كيف لحنت أولا ؟ قال : لحن الأمير فلحنت،فلما أعرب أعربت،وما أمكن أن يلحن الأمير وأعرب أنا ، فاستحسن ذلك منه وأجازه » .

وقَدِم فكتب إلى عبد الملك يستعفيه من العراق ، فكتب إليه :

« يابنَ أمِّ الحجاج قد علمتُ الذى تَغْزُو[1] ، وإنك تريد أن تعلم رأيى فيك ، ولعَمْرى إنى لأَرَى مَكانَ نافع بن عَلقَمة ، فالْهُ عن هذا حتى يأتى اللهُ بما هو آتٍ » .

وأَجمعَ الحجاج على عزل يزيد ، فلم يجد له شيئاً ، حتى قَدِمَ الخيار بن سَبْرَة — وكان من فُرسان المهلب ، وكان مع يزيد — فقال له الحجاج : أخبِرْنى عن يزيد ، قال : حَسَنُ الطاعة ، ليِّن السيرة ، قال : كَذَبت ، اُصدُقنِى عنه ، قال : اللهُ أجلُّ وأعظم ، قد أَسْرَج ولم يُلْجِمْ ، قال : صدقت ، ثم كتب إلى عبد الملك : يشير عليه بعزل يزيد بن المهلَّب ، ويخبره بطاعة آل المهلَّب لابن الزبير ، وأنه لا وفاءَ لهم .

فكتب إليه عبد الملك :

« إنى لا أرى نَقْصًا بآل المهلَّب طاعَتَهم لآل الزُّبَيْرِ ، بل أراه وفاءً منهم لهم ، وإن وفاءهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لى » .

فكتب إليه الحجاج يخوّفه غدرَهم لما أخبره به الشيخ .

فكتب إليه عبد الملك : « قد أكثرت فى يزيد وآلِ المهلَّب ، فسَمِّ لى رجلا يصلُحُ لخراسان » .

فسمَّى له مُجَّاعة بن سِعْر[2] السَّعْدى ـ ولم يكن يصلح ، وإنما جعل ذلك دهاء منه حتى لا يعرف ميله إلى قتيبة بن مسلم ـ .

فكتب إليه عبد الملك : « إنَّ رأيك الذى دعاك إلى استفساد آل المهلَّب ، هو الذى دعاك إلى مُجَّاعة بن سِعر ، فانظر لى رجلا صارما ماضيا لأمرك » .

---

(١) غزاه غزوا : أراده وطلبه وقصده ، ومنه ، مغزى الكلام : أى مقصده .

(٢) وفى سرح العيون « مسعر » .

فسمَّى له قتَيْبة بن مُسْلِم ، فـكتب إليه « ولِّه » .

وبلغ يزيد أن الحجاج عزله ، فقال لأهل بيته : مَنْ تَرَوْن الحجاجَ يُولِّى خراسانَ؟ قالوا : رجلا من ثقيف ، قال كلا ، ولـكنه يكتب إلى رجل منـكم بعهده ، فإذا قَدِمْتُ عليه عَزَلَه وولَّى رجلا من قيس ، وأخلِقْ بقُتَيْبَة .

فلما أذِن عبد الملك للحجاج فى عزل يزيد كره أن يكتب إليه بعزله، فـكتب إليه: « أن استخلِف المفضَّل وأقْبِلْ » .

فاستشار يزيد حُضينَ بن المنذر ، فقال له : أقِمْ واعتَلَّ ، فإن أمير المؤمنين حسَن الرأى فيك ، وإنما أُوتيتَ من الحجاج ، فإن أقمت ولم تعجَلْ رجوت أن يكتب إليه أن يُقرّ يزيد ، قال : إنا أهل بيت بُورِكَ لنا فى الطاعة ، وأنا أكره المعصية والخلاف ، فأخذ فى الجِهاز ، وأبطأ ذلك على الحجاج ، فـكتب إلى المفضَّل « إنى قد وليتك خراسان » :

فجعل المفضَّل يستحثّ يزيد ، فقال له يزيد : إن الحجاج لا يُقِرُّك بعدى ، وإنما دعاه إلى ماصنع مخافةَ أن أمتنع عليه ، قال: بل حسَدتنى ،قال يزيد: يابن بَهْلَة[1] أنا أحسُدُك ! ستعلَم ، وخرج يزيد فى ربيع الآخر سنة ٨٥ ، فعزل الحجاج المفضل ، وولَّى قُتَيْبة بن مُسْلِم .

وفى رواية أخرى أن الحجاج كتب إلى يزيد « أن اغزُ خُوارَزْم » .

فـكتب إليه : « أيها الأمير إنها قليلة السَّلَب[2] ، شديدة الـكَلَب » .

فـكتب إليه الحجاج : « استخلِفْ واقدَمْ » .

فـكتب إليه : « إنى أريد أن أغزوَ خُوارَزْم » .

---

(١) هى أم المفضل وأخيه عبد الملك وهى هندية ، ــ انظر تاريخ الطبرى ٨ : ٧٢ ــ وأما يزيد فأمه « رحمة » ــ انظر البيان والتبيين ٢ : ٦٧ والعقد الفريد ٢ : ١٥٥ .

(٢) السلب : ما يسلب ، والـكلب فى الأصل : سعار وداء شبه الجنون يصيب الـكلاب ، ويقال : دفعت عنه كلب فلان : أى شره وأذاه ، ومعناه هنا ما ينتاب المحاربين من المتاعب والشدائد .

فكتب إليه : « لاتغزُها فإنها كما وصفت »

فغزا ولم يطعه ، فصالحه أهل خوارزم وأصاب سَبْياً مما صالحوه ، وقفل فى الشتاء فاشتد عليهم البرد ، فأخذ الناس ثياب الأسرى فلَبِسوها ، فمات ذلك السبى من البرد ، فكتب إليه الحجاج أن « اقدَم » فقدِمَ .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٤٢ ، وشرح العيون ص١٢٤)

٢٤٨ — كتاب الحجاج إلى أعراب قطعوا الطريق

وبلغ الحجاجَ أن قوماً من الأعراب من عمرو بن تميم وحَنْظلة يفسدون الطريق ، فكتب إليهم :

« من الحجاج بن يوسف ، أما بعد فإنكم قد استخلصتم[1] الفتنةَ فلا عن حَقٍ تُقاتِلون ، ولا عن مُنكَرٍ تنهَوْنَ ، وايمُ الله إنى لأَهُمُّ أن يكون أوّلَ ما يَرِدُ عليكم من قِبَلى ، خَيلٌ تنسِفُ الطَّارِفَ والتالد[2] ، وتَدَعُ النِّساء أَيَامَى[3] ، والأبناء يَتامَى ، والديارَ خَرَاباً ، والسوادَ بياضاً ، فأيُّما رُفقةٍ[4] مَرَّت بأهل ماءٍ ، فأهلُ ذلك الماءِ ضامِنون لهاحتى تَصِيرَ إلى الماء الذى يَلِيه ، تَقْدِمة منى إليكم ،والسعيد من وُعِظ بغيره ، والسلام » .

فلما بلغهم كتابُه كَفُّوا عن الطريق .

(البيان والتبيين ١ : ٢١٢ ، والعقد الفريد ١ : ١٧)

---

(١) استخلصه لنفسه: استخصه ، وفى رواية العقد الفريد « قد استخففتم الفتنة » .

(٢) الطارف : المال المستحدث ، والتالد : المال القديم الأصلى الذى ولد عندك .

(٣) الأيامى : من لا أزواج لهم من الرجال والنساء ، الواحد منهما أيم كطيب ، سواء كان تزوج من قبل أو لم يتزوج ، وامرأة أيم بكرا كانت أو ثيبا .

(٤) الرفقة مثلثة : الجماعة ترافقهم فى سفرك ، والجمع رفاق .

٢٤٩ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مَرْوان :

« وبلغنى أن أمير المؤمنين عَطَسَ عَطْسَةً ، فشمَّتَه(١) قوم ، فقال : « يغفر الله لنا ولكم » ، فـ « يا لَيْتَنِى كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً » .

(الكامل للمبرد ١ : ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٣ : ٢٠)

٢٥٠ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان :

« أما بعدُ : فإنّا نُخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصِبْ أرضَنا وَابِلٌ(٢) منذُ كتبتُ أُخبرُه عن سُقْيا الله إيانا ، إلا ما بَلَّ وَجْهَ الأرض من الطَّشِّ(٣) والرَّشِّ والرَّذَاذِ ، حتى دَقِعَت(٤) الأرض واقشعرَّت واغبرَّت ، وثارَتْ فى نواحيها أعاصيرُ(٥) تَذْرُو دُقاقَ الأرض من ترابها ، وأمسكَ الفلاّحون بأيديهم ، من شدة الأرض واعْتِرازها(٦) وامتناعها ، وأرضُنا أرضٌ سريعٌ تغيُّرها ، وشِيكٌ(٧) تنكُّرُها ، سيِّئٌ ظنُّ أهلها عند قُحُوط المطر ، حتى أرسل الله بالقَبُول(٨) يوم الجمعة ، فأثارَتْ زِبْرِجا متقطِّعًا متمصِّرًا ،

---

(١) التشميت والتسميت : الدعاء للعاطس .

(٢) الوابل والوبل : المطر الشديد الضخم القطر .

(٣) الطش والطشيش : المطر الضعيف ، وهو فوق الرذاذ .

(٤) الدقعاء كحمراء : الأرض لا نبات بها ، والتراب ، ويقال : دقع الرجل كفرح وأدقع إذا لصق بالدقعاء فقرا ، والمعنى : قد صارت الأرض دقعاء جرداء خالية من الزرع . واقشعرت الأرض : تقبضت وتجمعت من المحل والجدب

(٥) الأعاصير : جمع إعصار بالكسر ، وهو الريح التى تهب من الأرض كالعمود نحو السماء ، وذرت الريح التراب تذره : أطارته وأذهبته ، والدقاق ، بالضم ، فتات كل شىء .

(٦) أى شدتها وصلابتها ، والذى فى كتب اللغة عرز الشىء واستعرز : اشتد وصلب وغلظ ، وتعرز عليه واستعرز ، استصعب .

(٧) أى سريع :

(٨) القبول : ريح الصبا . والزبرج : السحاب الرقيق فيه حمرة . ومتمصرا : أى قليلا متفرقا ، والشمال : الريح تهب من ناحية القطب .

ثم أعقبته الشِّمالُ يومَ السبت ، فطَحْطَحَت[1] عنه جَهامَه ، وألَّفَتْ متقطِّعه ، وجمَّعَ متمصِّرَه ، حتى انتضد[2] فاستوَى ، وطَمَى وطَحَى ، وكان جَوْنا مُرْثعِنًّا قريباً رَوَاعِدُه ، واعتدَّت عوائدُهُ بوابلٍ منهملٍ مُنْسَحِلٍ ، يَرْدَفُ[3] بعضُه بعضاً ، كلما أَرْدَفَ شُؤْبُوبٌ ارتدَفَتْه شآبيبُ ، لشدة وَقْعه فى العِرْض .

وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وهى ترمى بمثل قِطَع القُطْن ، قد ملأ اليَبَابَ[4] ، وسَدَّ الشِّعابَ ، وسقى منها كل ساقٍ ، «الحمد لله الذى أنزل غيثَه ، ونشر رحمته من بعد ما قَنَطوا ، وهو الولىُّ الحميدُ ، والسلام » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٥)

٢٥١ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يُشير عليه أن يستكتب محمد بن يزيد الأنصارى ، وكتب إليه :

« إن أردتَ رجلا مأموناً ، فاضلاً ، عاقلاً وَديعًا ، مُسْلِمًا ، كَتُوما تتخذه لنفسك ، وتَضَع عنده سِرّكَ ، وما لا تحبُّ أن يظهرَ ، فاتخذ محمد بن يزيد » .

فكتب إليه عبد الملك « احْمِلْه إلىّ » فحمَلَه فاتخذه عبد الملك كاتباً .

قال محمد : فلم يكن يأتيه كتاب إلا دفعه إلىّ ، ولا يستر شيئًا إلا أخبرنى به وكَتَمه الناسَ ، ولا يكتب إلى عامل من عماله إلا أعلَمَنيه » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٥٥)

---

(١) طحطح : فرق وبدد ، والجهام : السحاب الذى لا ماء فيه ، أو الذى قد هراق ماءه .

(٢) من نضد المتاع : إذا جعل بعضه فوق بعض ، وأنضاد السحاب : ماتراكم وتراكب منه ، وطمى البحر كرمى وعلا : امتلأ ، وطحى كسعى : انبسط ، والجون : الأسود (والأبيض أيضا) وارثعن المطر : ثبت وجاد ، وعوائده : رواجعه ، وسحل الماء : فانسحل : صبه فانصب .

(٣) ردفه كسمعه ونصره : تبعه كأردفه ، والشؤبوب : الدفعة من المطر ، وارتدفه : ردفه ، والعرض بالكسر : الوادى ، وفى الأصل « فى العراض » جمعا ، ولكن صاحب اللسان قال : وجمعه أعراض ، لا يجاوز » .

(٤) اليباب : الخراب ، والشعاب : جمع شعب بالكسر ، وهو الطريق فى الجبل ، ومسيل الماء فى بطن أرض ، أو ما انفرج بين الجبلين .

٢٥٢ — كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الملك

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الملك :

«أما بعدُ ، فإنك راعٍ ، وكل راعٍ مسئول عن رعيته ، حدَّثنى أنسُ بن مالك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « كُلُّ راعٍ مسئولٌ عن رعيته ، « اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَارَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا » .

فغضب عبد الملك حين بدأ باسمه ، فقيل له : إنه كان يفعل ذلك مع من قبلك ، فسكن غضبُ عبد الملك .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص: ٣٦)

٢٥٣ — كتاب عبد الملك إلى ابنه مسلمة

واستبطأ عبد الملك بن مروان ابنَه مَسْلَمَة فى مَسِيره إلى الروم ، فكتب إليه :

لِمَن الظَّعائِنُ سَيْرُهن تَزَحُّفُ ... سَيْرَ السَّفِينِ إذا تقاعسُ تُجْدَفُ[1]

٢٥٤ — رد مسلمة عليه

فلما قرأ مسلمة الكتاب كتب إليه :

ومستعجِبٍ مما يَرَى من أَناتِنا ... ولو زَبَنَتْه الحرب لم يَتَرَمْرَمِ[2]

(البيان والتبيين ٣ : ٩٦)

---

(١) تزحف : أى مشى فيه بطء وثقل حركة . والسفين ، جمع سفينة . تقاعس : تأخر . تجدف تسير بالمجداف .

(٢) زبنت الناقة حالبها كضرب : ضربته برجلها ودفعته فهى زبون بالفتح ، وزبنت الحرب الناس صدمتهم ودفعتهم على التشبيه بالناقة فهى زبون أيضا . وترمرم : تحرك للكلام ولم يتكلم. وقد روى أن معاوية كتب هذا البيت جوابا لكتاب جاءه من الوليد بن عقبة يستبطئه فى الطلب بدم عثمان ويحرضه على قتال على ، والبيت لأوس بن حجر — انظر الجزء الأول ص ٣٤٧ .

٢٥٥ — كتاب عبد الملك بن مروان إلى بعض ولده

وكتب عبد الملك بن مروان إلى بعض ولده — وقد خالفه فى شىء — :

« أما بعدُ ، فإنى أمرتك بأمرٍ فأتيتَ غيرَه ، ووصَّيتك بوصية فأبيتَ إلا عصيانها[١] ، وخِفتُ أنك بمنزلة الصبى الذى إذا أُمِرَ بشىء أباه ، وإذا نُهِىَ عَن شىء أتاه ، فيُحْتال له فيما ينفعه بأن يُنْهَى عنه ، وفيما يضرُّه بأن يُؤْمَر به ، ويا سَوْءَتى لمن هذه حاله ! والسلام » . (أدب الكتاب ص٢٣٦)

٢٥٦ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكان عُرْوة بن الزُّبَيْر عاملا على اليمن لعبد الملك بن مَرْوانَ ، فاتَّصَلَ به أن الحجاج مُجْمِعٌ على مطالبته بالأموال التى بيده وعَزْله عن عمله ، ففرَّ إلى عبد الملك ، وعاذَ به تخوفًا من الحجاج ، واستِدْفاعًا لِضَرَره وشَرِّه ، فلما بلغ ذلك الحجاجَ كتب إلى عبد الملك بن مَرْوان :

« أما بعدُ : فإن لواذَ[٢] المُعْتَرضين بك ، وحُلولَ الجانحين إلى المُكْث بساحتك ، واستِلانتَهم دَمَثَ[٣] أخلاقك ، وسَعَةَ عَفْوِك ، كالعارض[٤] المُبْرِق لأعدائه لا يَعْدَم له شائمًا[٥] ، رَجاءَ استمالةِ عفوك ، وإذا أُدنِيَ الناس بالصفح عن الجرائم ، كان ذلك تمرينًا لهم على إضاعة الحقوق مع كل ضَالّ ، والناسُ عَبِيدُ العصا ، هم على الشدة أشدّ استِباقًا منهم على اللِّين ، ولنا قِبَلَ عُرْوَة بن الزُّبير مالٌ من مال الله ، وفى استخراجه منه

---

(١) فى الأصل « إلا عصيته » وهو تحريف .

(٢) لاذبه لوذا ولواذا ولياذا ، لجأ إليه وعاذبه ، وفى الأصل « لوذان » ولم أجده فى كتب اللغة مصدرا ، وإنما الذى فيها ، « ويقال هو بلوذان كذا بفتح اللام وسكون الواو أى بناحية كذا » ومعناه هنا غير مناسب ولذا جعلته (لواذا) .

(٣) دمث دمثا كفرح فهو دمث : لان وسهل . والدماثة ، سهولة الخلق .

(٤) العارض : السحاب المعترض فى الأفق .

(٥) شام البرق : نظر إليه أين يقصد وأين يمطر ؟ .

قَطعٌ لِطَمَعِ غيره ، فليَبْعَثْ به أميرُ أمير المؤمنين إن رأى ذلك ، والسلام » .

فلما قرأ الكتاب ، بعثَ إلى عُرْوَةَ ، ثم قال له : إن كتاب الحجاج قد وَرَد فيك ، وقد أَبَى إلا إشْخَاصَكَ(١) إليه ، ثم قال لرسول الحجاج : شأْنَك به ، فالتفت إليه عُروةُ مُقبِلًا عليه ، وقال : أمَا واللهِ ما ذَلَّ وخَزِى مَن مات ، ولكن ذَلَّ وخَزِى مَنْ مَلَكْتموه ! واللهِ لئن كان المُلْكُ بجوازِ الأمر ونَفاذِ النَّهْى ، إن الحجاج لَسُلْطانٌ عليك ، يُنفِذُ أُمورَه دون أمورك ، إنك لَتُرِيد الأمرَ يَزِينُك عاجِلُه ، وَيَبْقَى لك أُكرومةً(٢) آجِلُه ، فيَجْذِبُك عنه ، ويلقاه دونك ، ليتولَّى من ذلك الحُكْمَ فيه ، فيَحْظَى بشرفِ عفوٍ إن كان ، أو بجُرْمِ عقوبةٍ إن كانت ، وما حارَبَك مَنْ حاربك إلا على أمرٍ هذا بَعْضُه .

فنظر فى كتاب الحجاج مرةً ، ورفع بصَرَه إلى عُرْوة تارةً ، ثم دعا بدَوَاة وقِرْطاس ، فكتب إليه :

٢٥٧ — رد عبد الملك على الحجاج

« أما بعدُ : فإن أمير المؤمنين رآك — مع ثِقَته بنصيحتك — خابطًا فى السِّياسة خَبْطَ عَشْواءِ(٣) الليل ، فإن رأيك الذى يُسَوِّل لك أن الناس عَبِيدُ العصا ، هو الذى أخرج رِجالاتِ العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أخْرَجْتَ العامة بعُنْفِ السياسة ، كانوا أوشكَ(٤) وُثُوبًا عليك عند الفُرْصة ، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعِى ولا هُداه ، إذا رجَوْا بذلك إدراكَ الثَّأْر منك ، وقد وَلِيَت العراقَ قبلَك ساسَةٌ ، وهم يومئذ أَحْمَى أنوفا ، وأقربُ من عَمْياءِ الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلحَ منك عليهم ، وللشِدَّة واللِّين أَهْلُون ، والإفراطُ فى العفو أفضل من الإفراط فى العقوبة ، والسلام » .

(العقد الفريد ٣ : ١٧)

---

(١) إرسالك . (٢) الأكرومة : فعل الكرم ، أفعولة من الكرم كأعجوبة من العجب .
(٣) العشواء : الناقة التى لا تبصر أمامها ، فهى تخبط بيديها كل شىء . (٤) أسرع .

٢٥٨ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وروى صاحب العقد الفريد قال :

حَدَّث سَعيد بن جُوَيْرِيَةَ قال : خرجَتْ خارجةٌ على الحجَّاج بن يوسف ، فأرسلَ إلى أنَسِ بن مالكٍ أن يخرج معه فأبى ، فكتب إليه يشتِمُهُ ، فكتب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مَرْوَانَ يشكوه ، وأدرج كتاب الحجاج فى جَوْفِ كتابه .

قال إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر : بعث إلىّ عبد الملك بن مَرْوان فى ساعةٍ لم يكن يَبْعَث إلىّ فى مِثْلِها ، فدخلتُ عليه ، وهو أشدُّ ما كان حَنَقا وغيظا ، فقال : ياإسمعيل ، ما أشدَّ علىّ أن تقول الرعيةُ : ضَعُف أميرُ المؤمنين ، وضاق ذَرْعُه فى رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، لا يقْبَلُ له حَسَنة ، ولا يتجاوَزُ له عن سيِّئة . فقلت : وما ذاكَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : أنَس بن مالك خادم رسول الله كتب إلىّ يَذْكُر أن الحجاج قد أضَرَّ به ، وأساء جواره ، وقد كتبت فى ذلك كتابين : كتابا إلى أنس بن مالك والآخر إلى الحجاج ، فاقبِضْهما ثم اخرج على البَريد ، فإذا وَرَدْتَ العراق فابدأْ بأنس بن مالك،فادفعله كتابى، وقل له : اشتدَّ على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج إليك ، ولن يأتىَ إليك أمرٌ تكرَهه إنْ شاء الله ، ثم ائتِ الحجاجَ فادفع إليه كتابَه وقل له : قد اغترَرْتَ بأمير المؤمنين غِرّةً لا أظنه يُخْطِئُك شرُّها ،ثم افهم ما يتكلم به ، وما يكون منه ، حتى تُفْهِمَنِى إياه إذا قَدِمْتَ علىّ إن شاء الله .

قال إسماعيل : فقبضت على الكتابين وخرجت على البريد ، حتى قَدِمْتُ العراقَ فبدأْتُ بأنس بن مالك فى منزله ، فدفعتُ إليه كتاب أمير المؤمنين ، وأبلغتهُ رسالتَه ، فدعا له وجَزَاه خيرًا ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ، قلت له : أبا حَمزة ، إن الحجاج عاملٌ ، ولو وُضِع لك فى جامِعَةٍ[1] لقَدَر أن يَضُرّك وينفعك . فأنا أُريد أن تصالحه

(١) الجامعة : القيد .

قال : ذٰلِكَ إليكَ . لا أخْرُج عن رأيك ، ثم أتيتُ الحجاج ، فلما رآنى رَحَّب بى وقال : والله لقد كُنْتُ أُحِبّ أن أراك فى بلدى هذا ، قلت : وأنا والله قد كنت أحبُّ أن أراك ، وأقْدَمَ عليك بغير الذى أُرسِلْتُ به إليك ، قال : وما ذاك ؟ قلتُ : فارقْتُ الخليفةَ وهو أغضبُ الناس عليك ، قال : ولِمَ ؟ قال : فدفعتُ إليه الكتاب ، فجعل يقرؤه وجَبِينُهُ يَعْرَق ، فيمسحه بيمينه ، ثم قال : اركب بنا إلى أنس بن مالك ، قلت له : لا تفعلْ ، فإنى سأتلطَّف به حتى يكونَ هوالذى يأتيك ـ وذلك لِلَّذى أشرتُ عليه من مصالحته ـ قال : فألقى كتاب أمير المؤمنين ، فإذا فيه :

* * *

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك بن مرْوان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعدُ : فإنك عَبْدٌ طَمَتْ(١) بِكَ الأمورُ فطغَيْتَ ، وعَلَوْتَ فيها حتى جُزْتَ قَدْرَكَ ، وعَدَوْتَ طَوْرَكَ(٢) ، وايمُ الله يابنَ المُسْتَفْرِمَة(٣) بِعَجَمِ زَبيب الطائف ، لَأَغْمِزَنَّكَ كبعض غَمَزَاتِ اللُّيُوثِ الثَّعالِبَ ، وَلَأَرْكُضَنَّكَ رَكْضَةً تَدْخُل منها فى وِجارِكَ(٤) ، اذكر مكاسِبَ آبائِك بالطائف ، إذ كانوا يَنْقُلون الحجــارة على أكتافهم ، وَيَحْفِرُون الآبار والمناهِلَ(٥) بأيديهم ، فقد نَسِيتَ ما كُنتَ عليه أنت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضَّرَاعة(٦) ، وقد بلغ أمير المؤمنين استطالةٌ منك على أَنَس ابن مالك خادمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جُرْأَةً منك على أمير المؤمنين ، وغِرّةً

---

(١) ورواية صبح الأعشى « علت » وهى بمعناها ، من طمى الماء إذا علا ، والنبت إذا طال: أى ارتقى منصبك فى الدولة فطغيت ، وفى غرر الخصائص « طفت » أى علت أيضاً .

(٢) أى وجاوزت حدك . (٣) انظر هامش ص ١٨٣ .

(٤) الوجار فى الأصل : جحر الضبع وغيرها ، وفى صبح الأعشى « فى وجعاء أمك » والوجعاء كحمراء : الدبر .

(٥) المناهل : جمع منهل كمقعد وهو المشرب ، وفى صبح الأعشى « والمناهر » جمع منهر كمقعد أيضا وهو موضع النهر .

(٦) الذل .

بمعرفة غِيَره ونِقْماته وسَطَواته على من خالفَ سبيلَه، وعَمَد إلى غير مَحَجَّته[1]، ونَزَل عند سَخْطته.

واظنُّك أردتَ أن تَرُوزَه[2] بها؛ لتعلم ما عنده من التغيير والنكير فيها، فإن سُوِّغْتها[3] مضيتَ قُدُما، وإن غَصَصْتَ بِهاَ ولَّيْتَ دُبُرًا، فعليك لعنةُ اللهِ من عَبْدٍ أخفشِ[4] العينين، أَصَكِّ الرِّجْلين، ممسُوح الجاعِرَتين، وايمُ اللهِ لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجْتَرَمْتَ منه جُرْمًا، وانتهكتَ له عِرْضًا فيما كتب به إلى أمير المؤمنين، لبعث إليك من يَسْحَبُك ظَهْرًا لِبطْنٍ، حتى ينتهى بك إلى أنسِ بن مالك، فَيَحْكُمَ فيك بما أحبَّ، ولن يَخْفَى على أمير المؤمنين نَبَؤُك[5]، ولِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

قال إسماعيل: فانطلقتُ إلى أنسٍ فلم أزلْ به حتى انطلق معى إلى الحجاج، فلما دخلْنا عليه قال: يَغفِر اللهُ لك أبا حَمْزَةَ، عَجِلْتَ باللائمة، وأغضبْتَ علينا أميرَ المؤمنين! ثم أخذ بيده، فأجلسه معه على السرير، فقال أنس: إنك كنت تزعم أنّا الأشرار! واللهُ سَمّانا الأنصار، وقلت: إنَّا من أبْخَل الناس! واللهُ يقولُ فينا: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[6]» وزعَمْتَ أنَّا أهلُ نِفاق! والله تعالى يقول فينا: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا». فكانَ المَخْرَجُ والمشتكَى فى ذلك

---

(١) المحجة: جادة الطريق، وفى العقد الفريد «محبته».

(٢) رازه روزا: جربه، وفى غرر الخصائص: «وركبت داهية دهماء أردت أن تروزنى بها، فإن سوغتكها مضيت قدما، وإن لم أفعل رجعت القهقرى».

(٣) يقال: سوغه ما أصاب: أى تركه له خالصا، والمعنى: فإن أقرك على ما قد فعلت.

(٤) وصف من الخفش بالتحريك: وهو ضيق فى العين وضعف فى البصر خلقة، والأصك: وصف من الصكك بالتحريك: وهو أن تضرب إحدى الركبتين الأخرى عند العدو فتؤثر فيها أثرا، ومصك أيضا كمقص، والجاعرتان: لحمتان تكتنفان أصل الذنب، وهما من الإنسان فى موضع رقمتى الحمار (ويقال للنكتتين السوداوين على عجز الحمار: الرقمتان).

(٥) وفى غرر الخصائص: فإذا أتاك كتابى هذا فكن لأنس أطوع من عبد لسيده، وإلا أصابك منى سهم مثكل، ولكل نبأ ... الخ».

(٦) الخصاصة: الحاجة والفقر.

إلى الله وإلى أمير المؤمنين ، فتولَّى من ذلك ما وَلاَّه الله ، وعرَفَ من حَتمنا ما جهلتَ ، وحفِظَ منا ما ضيَّعتَ ، وسيحكم فى ذلك ربٌّ هو أرضَى للمُرْضِى ، وأسخَط للمُسْخط ، وأقْدَر على الغِيَر فى يوم لا يشُوبُ الحقَّ عنده الباطلُ ، ولا النورَ الظلْمةُ ، ولا الهُدَى الضلالةُ ، وَٱللهِ لو أن اليهود أو النصارى رأت مَنْ خَدَمَ موسى بن عِمْرانَ أو عيسى ٱبن مريم يوما واحدا ، لرأتْ له مالم ترَوا لِى فى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سنين .

قال : فاعتذر إليه الحجاج وتَرَضَّاه حتى قَبِلَ عُذْره ، ورضى عنه ، وكتب بِرضاه وقبولِه عُذْرَه ، ولم يزل الحجاج له معظِّما هائبا له ، حتى هَلَكَ رضى ٱلله عنه .

٢٥٩ — رد الحجاج على عبدالملك

وكتب الحجاج إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عبد الملك بن مروان :

« أما بعد : أصلح الله أميرالمؤمنين وأبقاه ، وسهَّل حَظَّه وحاطَه[1] ولا أعدَمَناه ، فإن إسمعيل بن أبى المهاجر رسول أمير المؤمنين — أعزَّ الله نصرَه — قَدِم علىَّ بكتاب أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — وجعلنى من كل مكروهٍ فِداءهُ — يَذْكُر شَتْمى وتوبيخى بآبائى ، وتَعْييرى بما كان قبلَ نُزُول النعمة بِى من عند أميرالمؤمنين — أتمَّ الله نعمتَه عليه ، وإحسانَه إليه — ويذكر أمير المؤمنين — جعلنى الله فِداءَه — استطالةً منى على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جُرْأة على أمير المؤمنين ، وغِرَّةً بمعرفة غِيَره ونقِماته وسَطَواته على من خالف سبيله ، وعَمَد إلى غير مَحَجَّته ، ونزل عند سَخْطته ، وأمير المؤمنين — أصلحه الله — فى قرابته من محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إمامِ الهدى وخاتَمِ الأنبياء ، أحقُّ من أقال عَثْرَتى ، وعفا

(١) صانه وحفظه .

عن ذنبي ، وأمهلني ولم يعجلني عند هفوتي ، للذي جُبل عليه من كريم طبائعه ، وما قلّده الله من أمور عباده ، فرأيُ أمير المؤمنين ــ أصلحه الله ــ في تسكين روعتي ، وإفراج كُرْبتي ، فقد مُلئتُ رُعبًا وفرقًا[1] من سطوته ، وفُجاءة نقمته[2] ، وأميرُ المؤمنين ــ أقاله الله العثرات ، وتجاوز له عن السيئات ، وضاعف له الحسنات ، وأعلى له الدرجات ــ أحقُّ من صفح وعفا ، وتغمّد[3] وأبقى ، ولم يُشمِتْ بي عدوًّا مُكبًّا[4] ، ولا حسودًا مُضبًّا[5] ، ولم يُجرِّعني غُصصا ، والذي وصف أميرُ المؤمنين من صنيعته إليّ ، وتنويهه[6] بي ، بما أسند إليّ من عمله ، وأوطأني من رقاب رعيّته ، فصادقٌ فيه ، مَجزيٌّ بالشكر عليه ، والتوسُّل مني إليه بالولاية ، والتقرُّب له بالكفاية .

وقد عاين إسماعيل بن أبي المهاجر رسولُ أمير المؤمنين وحاملُ كتابه ، مِنْ نزولي عند مَسَرَّة أنس بن مالك ، وخضوعي عند كتاب أمير المؤمنين ، وإقلاقه إياي ، ودخوله بالمصيبة عليّ ، ما سيُعلِمه أميرَ المؤمنين ويشهد إليه ، فإن رأى أمير المؤمنين ــ طوّقني الله بشكره ، وأعانني على تأدية حقه ، وبلّغني إلى ما فيه موافقةُ مرضاته ، ومدَّ لي في أجله ، أن يأمر لي بكتاب مِنْ رضاه وسلامةِ صدره ، يُؤمِّنني به من سفك دمي ، ويردّ ما شرد من نومي ، ويطمئنُّ به قلبي ، فعل ، فقد ورد عليّ أمرٌ جليلٌ خَطْبُهُ ، عظيمٌ أمره ، شديدٌ عليّ كَرْبُهُ ، أسأل الله أن لا يُسْخِطَ أمير المؤمنين عليّ ، وأن يُنيله في حزمه ، وعزمه ، وسياسته ، وفراسته ، ومواليه ، وحشمه ، وعُمّاله ، وصنائعه ، ما يحمد به حُسْنَ رأيه ، وبُعد همته ، إنه وليُّ أمير المؤمنين ، والذابُّ عن سلطانه ، والصانع له في أمره ، والسلام » .

---

(١) خوفا . (٢) وفي صبح الأعشى « وقحمات نقماته » جمع قحمة بالضم وهي المهلكة .

(٣) تغمد فلانا وغمده بالتشديد : ستر ما كان منه .

(٤) مكبا : أي على التنقيب عن سيئاتي وارتقاب ماينوبني من الخطوب ، من أكب عليه إذا أقبل ولزم .

(٥) الضب بالفتح ويكسر : الغيظ والحقد ، وأضب : حمل الضب .

(٦) نوه فلان بفلان : إذا رفعه وطير به وقواه ، ومنه قوله :

ونوهت لي ذكرى وما كان خاملا ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

فحدّث إسماعيل أنه لما قرأ أمير المؤمنين الكتابَ ، قال : يا كاتبُ أفرِخْ رُوعَ[1] أبي محمد ، فكتب إليه بالرضا عنه .

(العقد الفريد ٣ : ١٤ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٨٩ و ٤٧٨ ، وغرر الخصائص الواضحة ص ٧٣)

رواية أخرى لكتاب عبدالملك

وروى أن الحجاج قال لِأنَس بن مالك حين دخل عليه في شأن ابنه عبد الله ـ وكان خرج مع ابن الأشعث ـ : لا مَرْحَباً بك ولا أهلا ، لَعَنَةَ الله عليك من شيخ جوّالٍ في الفتنة ـ مرّةً مع أبي تُراب[2] ، ومرةً مع ابن الأشعث ، والله لأقْلعَنّكَ قَلْعَ الصَّمْغَة[3] ، ولأجْزُرنَّكَ جَزْرَ الهُرْب[4] ، ولأعْصبنَّك عَصْبَ السَّلَمة[5] ، ولأجَرِّدَنَّكَ تجريدَ الضَّبِّ[6] » . قال أنس : مَن يَعْنِي الأميرُ ، أبقاهُ الله ؟ قال : إياك أعني ، أصَمّ اللهُ صَدَاكَ[7] .

قال : فكتب أنس بذلك إلى عبد الملك ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يابن المُسْتَفْرِمَةِ بِعَجَمِ الزَّبيب ، والله لقد هَمَمْتُ أن أرْكُلَكَ[8] برجلي رَكْلَةً تَهْوِي بها في نار جهنم ، وأضْغَمكَ[9] ضَغْمةً كبعض ضَغَماتِ

---

(١) الروع : القلب أو موضع الفزع منه ، وأفرخ روعه : أي هدأ قلبه وسكنه وأمنه .

(٢) كنية الإمام علي كرم الله وجهه .

(٣) قال الجاحظ في موضع آخر (ج ١ : ص ٢٠٠) : لأن الصمغة اليابسة إذا فرقت عن الشجرة انقلعت انقلاع الجلبة » (والجلبة بالضم : القشرة تعلو الجرح عند البرء) .

(٤) الهرب بالضم : ثرب البطن بالفتح ، وهو شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء .

(٥) السلمة : واحدة السلم ، وهو شجر كثير الشوك قال الجاحظ أيضا (ج ٣: ص ٢١) : «وذلك لأن الأشجار تعصب أغصانها ثم تخبط بالعصى لسقوط الورق وهشيم العيدان » .

(٦) قال صاحب اللسان في مادة جرد: « أي لأسلخنك سلخ الضب،لأنه إذا شوى جرد من جلده، ويروى : لأجردنك بتخفيف الراء وضمها » .

(٧) أصم الله صداه : أي أهلكه ، الصدى : الصوت الذى يسمعه المصوت عقيب صياحه يرده عليه الجبل أو المكان المرتفع العالي ، ثم استعير للهلاك ، لأنه إنما يجاوب الحى ، فإذا هلك الرجل صم صداه كأنه لا يسمع شيئا فيجيب عنه .

(٨) ركله : ضربه برجله . (٩) ضغمه كمنع عضه .

الليوثِ الثعالبَ ، وأخبطَك خَبْطَةً تودّ أنك زاحمتَ مخرَجك من بطن أمك ، قاتلك اللهُ[1] أُخَيفِشَ[2] العينين ، أصكّ الرجلين ، أَسْوَدَ الجاعِرَتين ، والسلام » .

(البيان والتبيين ١ : ٢٠٥ ، ومجمع الأمثال ٢ : ٨٩)

٢٦٠ - كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج

وروى صاحب العقد قال :

قال أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ : كان عبد الملك بن مروان سِنَانَ قريش وسيْفَها رأيا وحَزْما ، وعابِدَها قبل أن يُسْتَخْلَفَ وَرَعا وزُهْدًا ، فجلس يومًا فى خاصَّته فقبَضَ على لحيته فشمَّها مَلِيًّا ، ثم اجترّ نفَسَه ، ونَفَخ نفخةً أطالها ، ثم نظر فى وجوه القوم فقال : « ما أقولُ يوم ذِى المسألةِ عن أمر الحجاج ، وأُدْحِضَ المحتجُّ عَلَى العليم[3] بما طوَتْه الحُجُبُ ؟ أمَا إنّ تمليكى له قرَنَ بى لَوْعةً يَحُثُّها التّذكار ! كيف وقد علِمْتُ فتعامَيْتُ ، وسَمِعْتُ فتصامَمْتُ ، وحَمَله الكرام الكاتبون ! والله لكأنى آلفُ ذَا الطَّعْنَ على نفسى ، بعد أن نعَتِ الأيامُ بتصرُّفها أنفُسًا حقّقها الوعيدُ بتصَرُّم الزوال ، وما أبقَت الشُّبْهَةُ للباقى مُتعلَّقا ، وما هو إلا الغِلُّ الكامن ، والغِشُّ المندمِلُ من ذى النفس بحَوْبها[4] ، اللهم أنت لى أوسعُ ، غيرَ منتصِرٍ ولا مُعتذِر » يا كاتبُ ، هات الدَّواةَ والقِرْطاس ، فقعد كاتبه بين يديه وأملى عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك بن مَرْوان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعدُ ، فقد أصبحتُ بأمرك بَرِما[5] ، يُقْعِدنى الإشفاقُ ، ويُقيمنى الرجاء ، عجَزتُ فى دار السَّعة ، وتوسُّطِ الملك ، وحينَ المَهَل ، واجتماع الفِكَر ، ألتمِس العذرَ فى أمرك ،

---

(١) قاتله الله : قتله ، وقيل لعنه . وقيل عاداه . (٢) تصغير أخفش ، وقد تقدم معناه .

(٣) أدحضت حجته : أبطلتها . على العليم أى على الله العليم .

(٤) الحوباء روع القلب بضم الراء أى سواده ، قال الشاعر : « ونفس تجود بحوبائها » . والحوبا أيضا : النفس . (٥) برم به كفرح : ضجر .

فَأَنا لَعَمْرُ اللهِ فى دار الجزاء ، وعدمِ السلطان واشتغالِ النفس ، والركونِ إلى الذلة من نفسى ، والتوقع لما طُوِيَتْ عليه الصُّحُفُ ، أَعْجَزُ ، وقد كنت أشركتك فيما طوّقنى اللهُ حَمْلَه ، ولاثَ بحقوى[1] من أمانة الله فى هذا الخلق المَرْعِىّ ، فدُلِلْتَ منه على الحزم والجِدِّ فى إماتة بِدعةٍ ، وإنعاشِ سُنَّة ، فقعَدتَ عن تلك ، ونهضْتَ بما عانَدها[2] ، حتى صِرْتَ حُجَّةَ الغائب ، وعذرَ اللاعنِ والشاهد القائم .

فلعَن اللهُ أبا عَقيلٍ[3] وما نَجَلَ ، فألأَمُ والِدٍ ، وأخبَثُ نَسْلٍ ، فلعمرى ما ظلَمَكم الزمانُ ، ولا قَعدتْ بكم المَراتبُ ، لقد ألبَسْتكم مَلْبسَكم ، وأقعدتكم على رَوَابِى خِطَطِكم[4] ، وأحَلَّتكم على مَنَعتكم ، فمن حافرٍ وناقلٍ وماتِحٍ[5] للفلَواتِ القَفْرة المُتَفَيْهِقَةِ[6] ، ما تَقَدَّم فيكم الإسلامُ ، ولقد تأخرتم[7] ، وما الطائفُ منا ببعيدٍ يُجْهَل أهلُه ، ثم قمتَ بنفسك ، وطمَحْتَ بهِمَّتك ، وسَرَّك انتضاءُ[8] سيفك ،

---

(١) الحقو بالفتح ويكسر : الكشح ومعقد الإزار ، ولاث بحقوى : أى لف وعصب ، لاث الشىء لوثا : أداره مرتين كما تدار العمامة والإزار ، قال النابغة :

تلوث بعد افتضال البرد مئزرها لوثا على مثل دعص الوملة الهارى

(٢) خالفها وجانبها ، (٣) هو جد الحجاج، ذكر ابن خلكان فى وفيات الأعيان ـ ج١ : ص ١٢٣ ـ فى نسبه أنه الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل بن مسعود بن عامر . . . ـ انظر أيضاً سرح العيون ص ١١٢ ـ . ونجله : ولده .

(٤) الخطط جمع خطة بالكسر : وهى الأرق التى تنزلها ولم ينزلها نازل قبلك .

(٥) متح الماء : نزعه .

(٦) هكذا فى الأصل ، يريد المتسعة ، وتفيهق فى الكلام : توسع فيه ، مأخوذ من الفهق وهو الامتلاء ، كأنه ملأ به فمه ، وأرى أن صوابه « المنفهقة » من انفهق الشىء إذا اتسع ، ويقال أيضاً مفازة فيهق أى واسعة ، والفيهق : الواسع من كل شىء .

(٧) كانت ثقيف من القبائل التى تأخرت فى إجابة دعوة الإسلام ، وكانت ممن آذى النبى عليه الصلاة والسلام أبلغ الإيذاء . وذلك أنه لما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ما لم يمكنها نيله فى حياته ، فخرج عليه الصلاة والسلام إلى ثقيف بالطائف يرجو منهم أن يسلموا ويناصروه على قومه ، لأنهم أقرب الناس إلى مكذوله فيهم خؤولة ، وكلم رؤساءهم وساداتهم فيما جاءهم به ، فردوا عليه ردا قبيحا ولم ير منهم خيرا ، فطلب إليهم ألا يشيعوا ذلك عنه لئلا تعلم قريش فيشتد أذاهم له ، فلم يفعلوا بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم وراءه يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه ، وكان مولاه زيد بن حارثة يدرأ عنه ، وما زالوا على جاهليتهم حتى فتح رسول الله مكة سنة ٨ هـ ودخل العرب فى دين الله أفواجا ، فوفدت عليه ثقيف فى رمضان سنة ٩ هـ وأسلمت مع من أسلم . (٨) انتضى السيف : سله .

فاستخرَجك أميرُ المؤمنين من أعوان رَوْح بن زِنْباع وشُرَطه[1] ، وأنت على معاونته يومئذٍ محسودٌ ، فهَفَا أمير المؤمنين ـ واللهُ يُصلِحُ بالتوبة والغُفْران زلَّتَه ـ وكان ما لو لم يكن لكان خيرًا مما كان ، كلُّ ذلك من تجاسُرِك وتحامُلِك على المخالفة لرَأْى أمير المؤمنين ، فصَدعْتَ صَفاتَنا[2] ، وهَتَكْتَ حُجُبنا ، وبَسَطْتَ يديك تحفِنُ بهما

(١) الشرط: أعوان الولاة واحدها شرطة كغرف وغرفة ، وكان أول ما ظهر من أمر الحجاج أنه اتصل بروح بن زنباع الجذامى ، فكان فى عديد شرطته (وكان روح وزير عبد الملك ، وبمنزلة نائبه) ثم إن عبد الملك ، توجه إلى الجزيرة لقتال زفر بن الحارث الكلابى عندما عصى عليه بقرقيسياء كما قدمنا ، فشكا ما رأى من انحلال العسكر وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فقال له روح بن زنباع : يا أمير المؤمنين ، إن فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله ، وأنزلهم بنزوله ، يقال له الحجاج بن يوسف ، قال : فإنا قد قلدناه ذلك ، فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع ، فمر يوما بعد رحيل العسكر بجماعة من خواص غلمان روح فى خيمة يأكلون ، فقال لهم : ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ فسخروا منه إدلالا بمحلهم ومحل سيدهم . وقالوا له : انزل يابن اللخناء فكل معنا (واللخن بالتحريك : قبح ريح الفرج ، وامرأة لخناء ، ويقال اللخناء : التى لم تختن ، وهى من شتم العرب ، كأنهم يقولون : يادنىء الأصل ، أو يالئيم الأم) . فقال: هيهات ! ذهب ما هنالك ، وضرب بسيفه أطناب الخيمة فسقطت عليهم ، وأطلق فيها نارا فأحرقت أثاثهم عليهم ، وأمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر ، فدخل روح بن زنباع على عبد الملك باكيا ، فقال له : مالك ؟ فقال يا أمير المؤمنين ، الحجاج بن يوسف الذى كان فى عديد شرطتى ضرب عبيدى ، وأحرق فساطيطى ، قال : علىّ به . فلما دخل عليه ، قال : ماحملك على ما فعلت ؟ قال : ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين قال : ومن فعله ؟ قال : أنت والله فعلت ، إنما يدى يدك ، وسوطى سوطك ، أنت يا أمير المؤمنين أمرتنا بالاجتهاد فيما وليتنا ففعلنا ما أمرت ، وبهذه الفعلة يرتدع من بقى من أهل العسكر ، وما على أمير المؤمنين أن يخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ، ولا يكسرنى فيما قدمنى له ؟ فأعجب عبد الملك وقال : إن شرطيكم لجلد ، ثم أقره على ما هو عليه ، وتقدم الحجاج فى منزلته ، وكان ذلك أول ما عرف من كفايته .

ولما طال القتال والحصار بينه وبين زفر بن الحارث ، أرسل عبد الملك رجاء بن حيوة وجماعة منهم الحجاج إلى زفر بكتاب يدعوه إلى الصلح ، فأتوه بالكتاب وقد حضرت الصلاة ، فقام رجاء فصلى مع زفر ، وصلى الحجاج وحده ، فسئل عن ذلك ، فقال : لا أصلى مع منافق خارج على أمير المؤمنين وعن طاعته ، فسمع عبد الملك بذلك فزاد عجبا بالحجاج ورفع قدره ، وولاه بلدة تسمى « تبالة » ـ كسحابة ، بلد باليمن ـ وهى أول ماولى ، فخرج إليها فلما قرب سأل عنها ، فقيل : إنها وراء هذه الأكمة ، فقال : أف لبلدة تسترها أكمة فرجع عنها ، فقيل فى المثل : أهون من تبالة على الحجاج ـ انظر العقد الفريد ٣ : ٦ ، وسرح العيون ص ١١٣ ـ .

(٢) الصفاة : الحجر الصلد الضخم .

من كرائم[1] ذوى الحقوق اللازمة ، والأَرْحام الواشِجَة فى أوعيةِ ثقيف ، فاستغفر الله لذنبٍ ماله عُذْرٌ ، فائن استقال[2] أمير المؤمنين فيك الرأىَ ، لقد جالت البصيرةُ فى ثقيف بصالحِ النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ ائتمنه على الصَّدَقاتِ وكان عَبْدَه ، فهَرَبَ بها عنه[3] ، وما هو إلا اختيارٌ للثقة ، والمَطْلَبُ لمواضع الكفاية ، فقعد فيه الرجاء ، كما قعد بأمير المؤمنين فيما نَصَبَك له ، فكأَنَّ هذا أَلْبَسَ أمير المؤمنين ثوبَ العَزَاء ، ونهضَ بعُذره إلى استنشاق نَسيم الرَّوْح[4] ، فاعتزِلْ عَمَلَ أمير المؤمنين ، واظْعَنْ[5] عنه باللعنة اللازِمة ، والعقوبة النّاهِكَة[6] إن شاء الله ، إذا استحكم لأمير المؤمنين ما يحاولُ من رأيه ، والسلام » .

ودعا عبد الملك مولى له يقال له : نُباتة ، له لِسانٌ وفَضْلُ[7] رأى ، فناوله الكتابَ ، ثم قال له يا نباتة : العَجَلَ ثم العجل حتى تأتىَ العراقَ ، فضع هذا الكتاب فى يد الحجاج ، وترقَّبْ ما يكون منه ، فإذا جبُن عند قراءته واستيعابِ ما فيه فاقْلَعْه عن عمله وانقلِع معه حتى تأتى به ، وهدِّئ الناسَ حتى يأتيهم أمرى ، بما تَصِفُنى به فى حين انقلاعك ، من حُبِّى لهم والسلامة ، وَإِنْ هَشَّ للجواب ولم تكشِفْه أَرْنَبَةُ[8] الحَيْرَة ، فخُذْ منه ما يُجيب به ، وأقرِره على عمله ، ثم اعجَلْ علىَّ بجوابه .

قال نباتة : فخرجتُ قاصداً إلى العراق ، فضمَّتنى الصحارَى والفَيافِى[9] ، واحتوانى

---

(١) كرائم الأموال : خيارها التى تكرم عليك » والواشجة : الرحم المشتبكة ، وقد وشجت بك قرابته تشج كوعد .

(٢) أقال عثرته : رفعه من سقوطه ؛ واستقاله : طلب إليه أن يقيله ، والمعنى فائن طلب أمير المؤمنين إلى رأيه أن يقيلك من سقطتك ، أى أحسن بك الظن والتمس لك العذر فيما فعلت .

(٣) انظر هامش ص ١٤٧ .

(٤) الروح : الراحة . (٥) أى ارحل .

(٦) نهكه السلطان كسمعه : بالغ فى عقوبته . ويقال أنهكه عقوبة : أى أبلغ فى عقوبته .

(٧) الفضل : الزيادة .

(٨) الأرنبة : طرف الأنف ، وإضافتها إلى الحيرة : لأنها تتخلج وتهتز وقت الحيرة والدهش ، أو لأن من عادة بعض الناس عند الحيرة أن يطرق برأسه ويمر أصابعه على أرنبته ، وربما كان الأصل «أزبة» بفتح فسكون : أى شدة ، أو « أربة » بضم فسكون ، والأربة : العقدة التى لا تنحل حتى تحل حلا .

(٩) الفيافى جمع فيفاة بفتح الفاء : وهى المفازة .

القرّ[1] ، وأخذ منى السَّفرُ ، حتى وصلتُ ، فلما وَرَدْته ، أُدخلتُ عليه فى يوم ما يُحْظَر[2] فيه الخلقُ ، وعلىّ شُحوبُ مُضْنًى ، وقد توسّطَ خدَمَه من نواحيه ، وتَدَثَّر بمُطْرَف[3] خزٍّ أدْكنَ ، ولاثَ[4] به الناسُ من بين قائم وقاعد ، فلما نظر إلىّ — وكان لى عارفاً — قعد ثم تبسَّم تبسُّمَ الوَجِل ، ثم قال: أهلاً بك يا نباتةُ ، أهلا بمَوْلَى أمير المؤمنين ، لقد أثّر فيك سفرك ، وأعرِفُ أميرَ المؤمنين بك ضَنِينا ، فليت شعرى ما دهِمَك أو دَهِمَنى عنده ؟ قال : فسلَّمتُ وقعدتُ ، فسأل : ما حالُ أمير المؤمنين وخَوَله[5] ؟ ، فلما هدأ أخرجتُ له الكتابَ فناولته إياه ، فأخذه منى مسرعا ، ويده تُرْعَد ، ثم نظر فى وجوه الناس فما شعَرْتُ إلا وأنا معه ، ليس معنا ثالث ، وصار كل من يُطيف به من خدمه يلقاه خالياً ، لا يسمعون منا إلا الصوتَ ، ففكَّ الكتاب فقرَأه ، وجعل يتثاءب ويردِّد تثاؤُبه ، ويَسيل العرق على جبينه وصُدْغيه — على شدة البَرْد — من تحت قَلَنْسُوَته من شدة العَرَق ، وعلى رأسه عمامة خَزٍّ خضراء ، وجعل يشخَص إلىّ ببصره ساعة كالمتوهِّم ، ثم يعود إلى قراءة الكتاب ، ويلاحظُنى النظرَ كالمتفهِّم إلا أنه وَاجِم[6] ، ثم يعاود الكتابَ ، وإنى لأقول . ما أراه يُثبت حروفَه من شدة اضطراب يده ، حتى استقصى قراءتَه ، ثم مالت يده حتى وقع الكتاب على الفِراش ، ورجع إليه ذهنه ، فمسح العرق عن جبينه ، ثم قال متمثلا :

وَإِذَا المنيَّةُ أَنْشبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تميمةٍ لا تنفَعُ[7]

قَبُحَ واللهِ منا الحسَنُ يا نباتة ! وتَوَاكَلَتْنا عند أمير المؤمنين الألسُنُ ، وما هذا

---

(١) القر مثلث القاف : البرد .
(٢) أى ما يمنع ، وفى الأصل « يخطر » وأراه مصحفا .
(٣) تدثر بالثوب : اشتمل به ، والمطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام . وأدكن : وصف من الدكنة كحمرة : وهى لون إلى السواد .
(٤) أى التفوا واستداروا
(٥) الخول : الخدم والحشم
(٦) الواجم : العبوس المطرق لشدة الحزن ، وجم كوعد وجما ووجوما : سكت على غيظ .
(٧) التميمة : العوذة تعلق على الإنسان .

إلا سانحُ فِكْرة نمَّقَها مُرْصِدٌ[1] يَكْلَبُ بقصَّتِنا، مع حُسْنِ رأى أمير المؤمنين فينا، يا غلامُ، فتبادَرَ الغِلمانُ الصَّيْحَةَ فمُلِئَ علينا منهم المجلسُ، حتى دفّأتنى منهم الأنفاسُ، فقال: الدواةَ والقرطاسَ، فأُتِى بدواة وقرطاس، فكتب بيده، وما رفع القلمَ إلا مستمِدًّا حتى سَطَّر مثلَ خَدِّ الفرس، فلما فرغَ قال لى: يا نباتة، هل علمتَ ماجئتَ به، فنُسْمِعَك ما كتبْنا؟ قلت: لا، قال: إذن حَسْبُك منا مِثْلُه، ثم ناولنى الجواب، وأمر لى بجائزة فأجْزَلَ، وجرَّد لى كِساءً، ودعا لى بطعام فأكلتُ، ثم قال: نَكِلُك إلى ما أُمِرْتَ به من عجَلة أو توانٍ، وإنى لأحبُّ مقارَنَتَك والأُنْسَ برؤيتك، فقلت: كان معى قُفْلٌ مِفتاحُه عندك، ومفتاح قُفلك عندى، فَأَجَدْتُ لك الوافِيَةَ بالأَمْرَين، فأقفلتُ المكروهَ وفتحتُ العافيةَ، وما ساءنى ذلك، وما أُحِبُّ أن أزيدَك بيانا، وحَسْبُك منى استعجالُ القيام، ثم نهضتُ وقام مُوَدِّعًا لى، فالتَزَمَني وقال: بأبى أنت وأمى، رُبَّ لفظةٍ مسموعة[2]، ومحتقَرٍ نافع، فكن كما أظنّ، فخرجت مستقبلاً وجهى، حتى وردتُ أميرالمؤمنين، فوجدته منصرفا من صلاة العصر، فلما رآنى، قال: مااحتواك المضجعُ يا نباتة! فقلت: مَنْ خاف مِن وَجْه الصباح أَدْلَجَ[3] فسلِمْتُ وانتبذتُ[4] عنه، فتركنى حتى سَكَن جَأْشِى، ثم قال: مَهْيَم[5]، فدفعت إليه الكتابَ، فقرأه متبسما، فلما مضى فيه ضحِك حتى بَدَتْ له سِنٌّ سوداء، ثم استقصاه فانصرف إلىّ، فقال: كيف رأيتَ إشفاقَه؟ قال: فقصَصْتُ عليه ما رأيتُ منه، فقال: صلوات الله على الصادق الأمين «إن من البيان لسِحْراً» ثم قذف الكتاب إلىّ فقال: اقرأ، فقرأتُه فإذا فيه:

---

(١) يقال أرصده إذاقعدله على طريقه يرقبه، وأرصد له بالخير والشر: كافأه، وأرصد له الأمر: أعده، وكلب كفرح: سفه فأشبه الكلب الكلب.

(٢) فى الأصل «مسمومة» وأرى أنها محرفة، والصواب «مسموعة» كما يدل عليه مابعده وهو قوله «فكن كما أظن» يطلب إليه أن يذكره عند عبد الملك بكلمة طيبة رجاء أن يستمع لهـا.

(٣) أدلج: سار من أول الليل. (٤) أى تنحيت.

(٥) أى ما الأمر وماالخبر؟.

٣٦١ – رد الحجاج على عبد الملك

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أمير المؤمنين ، وخليفة ربِّ العالمين ، المؤيَّد بالولاية ، المعصوم من خَطَل[١] القول ، وزَلَل الفعل ، بكَفالة الله الواجبة لذوى أمره ، من عبدٍ اكتنفَته الزَّلّة ، ومدَّ به الصَّغار[٢] إلى وَخِيم المَرتَع ، ووَبيلِ المَكرَع[٣] من جائل قادح ، ومعتزّ فادح[٤] ، والسلام عليك ورحمة الله التى اتسمت فوَسِعَت ، وكان بها التقوى إلى أهلها قائداً ، فإنى أحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو راجياً لعطفك بعطفه[٥] .

أما بعد ، كان الله لك بالدَّعَةِ[٦] فى دار الزَّوال ، والأمنِ فى دار الزَّلزال ، فإنه من عَنَّت[٧] به فِكرتُك يا أمير المؤمنين مخصوصاً ، فما هو إلا سعيدٌ يُؤْثَر ، أو شقىٌّ يُوتَر[٨] ، وقد حَجَبنى عن نواظر السَّعْد لسانُ مُرْصِد ، ونافِسُه[٩] حَقِد ، انتهز[١٠] به الشيطانُ حين الفكرة ، فافتتح به أبوابَ الوِسْواس بما تحتويه الصدور ، فَواغوثاه ! باستعاذة أمير المؤمنين من رجيم ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ، واعتصاما بالتوكل على من خَصَّه بما أجزلَ له من قَسْمِ[١١] الإيمان وصادق السُّنَّة ، فقد أراد اللَّعينُ أن يَفتُق

---

(١) الخطل : المنطق الفاسد المضطرب ، وقد خطل فى كلامه كفرح .

(٢) الصغار : الذل . (٣) المكرع اسم مكان من كرع فى الماء كمنع : إذا تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء كما تفعل البهائم لأنها تدخل أكارعها فيه ، كنى بهذا وبما قبله عن سوء العاقبة

(٤) من جائل ، أى من عدو يجول ويدور عذمتى ، قادح : أى طاعن ذام ، ومعتز أى بجاهه ومنزلته لدى أمير المؤمنين . فادح : من فدحه إذا أثقله ، أى يثقلنى بما يفتريه على من الأباطيل .

(٥) فى الأصل « فإنى أحمد الله إليك — راجيا لعطفك بعطفه — الذى لا إله إلا هو » وقد أصلحته كما ترى وهو الأظهر عندى .

(٦) الدعة : الخفض والسعة فى العيش ، ودار الزوال : الدنيا ، ودار الزلزال : الآخرة .

(٧) عن : عرض ، والمراد : عن بفكرتك ، فقلب .

(٨) آثر إيثارا : فضله وقدمه . ووتره : أفزعه وأدركه بمكروه (٩) نفس عليه بخير كفرح حسد ، ونفس عليه الشىء نفاسة : لم يره أهلا له .

(١٠) المراد : اختلى به ، والوسواس مصدر وسوس كالوسوسة .

(١١) القسم : العطاء .

لأوليائه فَتْقا، نبَا عنه كيدُه، وكثُر عليه تحسُّرُه، بَلِيةٌ قرَعَ بها فِكْرَ أمير المؤمنين مُلَبِّسا[1] وكادِحًا ومُؤَرِّشا، ليفُلَّ من غَرْبه[2] الذى نصبنى، ويُصيبَ ثأراً لم يزل به مُؤْتَزًّا[3]، وأَذْكَرِه مامتَّ[4] به الأوائلُ قديما حتى لَحِقْتُ بمثله منهم، مِمَّا كُنْتُ أبْلُوه[5] من خِسَّة أقدار، ومزاولة أعمال، إلى أن وصَلْتُ ذلك بالتشرُّط لرَوْح ابن زِنْباع، وقد عَلِم أمير المؤمنين ـ بفضل ما اختار اللهُ له تبارك وتعالى من العِلْم المأثور الماضى ـ بأن الذى عيّر به القومَ مَصانِعُهم[6]، من أشدِّ ما كان يزاولهُ أهلُ القُدْمَة[7] الذين اجتبى اللهُ منهم، وقد اعتصموا وَامْتَعَضوا[8] من ذكر ما كان، وارتفعوا بما يكون، وما جَهِلَ أمير المؤمنين ـ ولِلْبيانِ مَوْقِعُه غَيْرَ محتجٍّ ولا مُتَعدٍّ[9] ـ أنَّ متابعةَ رَوْح بن زِنباع طريقٌ إلى الوسيلة لِمَنْ أراد مَنْ فوقه، وأن رَوْحا لم يُلْبِسنى العزمَ الذى به رفعنى أميرُ المؤمنين عن خوَله، وقد ألصَقَتْنى برَوْح بن زنباع هِمَّةٌ لم تزَلْ نواظِرُها ترمِى بى البعيدَ، وتُطالِعُ الأعلامَ، وقد أخذتُ أمير المؤمنين نصيبا اقتَسَمَه

---

(١) التلبيس: التخليط والتدليس، وفى الأصل «مباسا» وأراه محرفا إذ المبلس هو المتحير واليائس والساكت عند انقطاع حجته، والساكت من الحزن أو الخوف، وذلك غير مناسب هنا. كادحا: جاد ساعياً، والتأريش: التحريش والإفساد، أرش بين القوم: أفسد بينهم وحمل بعضهم على بعض.

(٢) الغرب: الحد.

(٣) من ائتزت القدر: إذا اشتد غليانها، وفى الأصل «موترا» وأراه محرفا.

(٤) أى ماتوسل. وفى الأصل «وأذكره قديما مامت به الأوائل» وقد أصلحته كما ترى.

(٥) أى أزاوله وأمارسه، وفى الأصل «حتى لحقت بمثله منهم وممن كنت أبلوه» وهو تحريف.

(٦) المصانع: جمع مصنعة: مايصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها، وقد تقدم فى كتاب عبدالملك إليه: «فمن حافر وناقل وماتح ...» وفى كتاب سابق: «اذكر مكاسب آبائك بالطائف، إذ كانوا ينقلون الحجارة على أكتافهم، ويحفرون الآبار والمناهل بأيديهم».

(٧) القدمة: السابقة فى الأمر كالقدم بالتحريك، يقال: لفلان قدم صدق، أى سابق خير وأثر حسن، ومنه قوله تعالى «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ» وكذلك القدمة. واجتبى: اصطفى واختار. (٨) أى غضبوا وشق عليهم.

(٩) غير محتج حال من البيان، وفى إسناده إلى البيان مجاز عقلى أى غير محتج صاحبه أو هو حال من المتكلم والجملة احتراس تأدبا فى مخاطبة عبد الملك، يعنى أنه يدلى ببيانه هذا فى غير احتجاج على أمير المؤمنين ولا تعد لحدود ما يجب عليه له من التوقير والتعظيم، وفى الأصل «ولا متعدد» وهو تحريف.

الإشفاقُ من سخطه ، والمواظبةُ على موافقته ، فما بقِىَ لنا بعد إلا صُبابةٌ[١] وإرْثٌ به تجولُ النفسُ ، وتَطْرِف[٢] النواظرُ ، ولقد سِرتُ بعين[٣] أمير المؤمنين سَيْرَ المثبِّط لمن يتلوه، المتطاولِ لمن يَقدُمُه ، غيرَ مُبتٍّ مُوجِفٍ[٤] ، ولا متثاقلٍ مُجحِف ، ففُتُّ الطالبَ ، ولحِقتُ الهاربَ ، حتى ثارت السُّنَّةُ[٥] ، وبادت البدعة ، وخَسِئَ الشيطانُ ، وحُمِلت الأديانُ إلى الجادَّة العظمى ، والطريقة المُثْلَى ، فهأنذا يا أمير المؤمنين نُصْبُ المسألة لمن رامنى، وقد عقَدْتُ الحُبْوَة[٦] ، وقرَنْتُ الوَظِيفَيْن لقائلٍ محتجّ ، أو لائمٍ ملتَجّ[٧] وأميرُ المؤمنين وَلِىُّ المظلوم، ومَعْقِلُ الخائف ، وستُظْهِر له المِحْنَةُ[٨] نبأَ أمرى، ولـكل نبأ مستقرٌّ ، ومَا حَفَنْتُ يا أمير المؤمنين فى أوعية ثقيف حتى رَوِى الظمآنُ ، وبَطِنَ الغَرْثانُ[٩] ، وغصَّتِ الأوعيةُ، وانقدَّتِ الأوكِيَةُ[١٠] فى آل مَرْوانَ ، فأخذَتْ ثقيف فَضْلاً[١١] صار لها، لولاهُمْ لَقَطَتْهُ السابلةُ ،ولقد كان ما أنـكره أمير المؤمنين مِنْ تحاملى وكان ما لو لم يكُن لعَظُم الخطبُ فوق ما كان ، وإن أمير المؤمنين لرابع أربعة :

---

(١) الصبابة : البقية اليسيرة تبقى فى الإناء من الشراب ، وفى الأصل « صابة » وهو تحريف والإرث : البقية من كل شىء . (٢) طرف البصر كضرب : تحرك .

(٣) أى بحيث يرانى ويعلم أمرى، المثبط : ثبطه عن الأمر: عوقه وبطأ به عنه، وفى الأصل «المتثبط» وهو تحريف ، وقدمه من باب نصر : تقدمه .

(٤) مبت ، من أبت بعيره : إذا أجهده وأتعبه فى السير حتى قطعه وصاحبه منبت أى منقطع عن أصحابه ، لأنه جد فى سيره حتى انبت أخيرا ، ومنه الحديث الشريف « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » وفى الأصل « غير متثبت » وهو تحريف . موجف ، وجف الفرس والبعير وجيفا : عدا ، وأوجفته : أعديته وهو العنق فى السير . وأجحف بالأمر : قارب الإخلال به .

(٥) ثارت : نهضت وهبت وعادت إلى ما كانت عليه . وخسئ : بعد وطرد .

(٦) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بثوب أو غيره، والاسم الحبوة بالـكسر ويضم،والوظيف: مقدم الساق ، والمعنى : قد تهيأت واستعددت لمن رام مساءلتى ونقاشى .

(٧) المراد به : لاج ، أى متماد فى الخصومة يأبى أن ينصرف عنها .

(٨) محنه : اختبره كامتحنه ، والاسم المحنة بالـكسر .

(٩) الغرثان : الجائع ، غرث كفرح : جاع ، والبطنة بالـكسر : امتلاء البطن من الطعام ، بطن كفرح بطنا وبطنة ، وبطن كـكرم : عظم بطنه .

(١٠) انقدت: انقطعت،والأوكية : جمع وكاء كـكتاب وهو رباط القربة وغيرها ، كنى بذلك عن امتلاء الأوعية واكتظاظها . (١١) أى ما زاد وفضل .

أحدهم ابنةُ[1] شُعَيبٍ النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ رَمَتْ بالظن غرَضَ اليقين ، تفرُّساً في النجيِّ[2] المصطفى بالرسالة ، فحقَّ لها فيه الرجاء ، وزالت شبهةُ الشك بالاختبار ، وقبلَها العزيزُ[3] في يوسف ، ثم الصِّديقُ[4] في الفاروق رحمة الله عليهما ، وأمير المؤمنين في الحجاج ، وما حسَدَ الشيطانُ يا أمير المؤمنين خاملا ، ولا شَرُف بغير سِجَافِكم[5] ، غِبطةٌ[6] يا أمير المؤمنين الرَّجيمُ أَدْبَرَ منها ، ولَه غُواةٌ ومِرْساةٌ[7] ، وقد قلْتَ

---

(١) هي صفوراء بنت شعيب زوج موسى عليهما السلام ، يعني أنها أشارت على أبيها أن يستأجر موسى قال تعالى في شأن موسى معها : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ، فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ، قَالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، قَالَتْ إِحْدَاهُمَا : يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ، قَالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » .

(٢) أي في موسى الذي ناجاه الله .

(٣) هو قطفير العزيز الذي كان على خزائن مصر يشير إلى ما كان من امرأته زليخا إذ راودت يوسف عن نفسه فأبى . فاتهمته بأنه أراد بها سوءا ، فسجن ثم حصحص الحق وظهرت براءته ، فجعله الملك على خزائن أرضه ، والقصة مشهورة ، ويقال إن قدوم يوسف عليه السلام مصر كان في عهد الأسرة السادسة عشرة مدة حكم الملوك الرعاة . ويقول المفسرون إن ملك مصر يومئذ كان الريان بن الوليد العمليق .

(٤) يشير إلى اختيار أبي بكر لعمر رضي الله عنهما لتولي الخلافة قبل موته .

(٥) السجاف بالكسر والسجف بالفتح والكسر : الستر ، والمعنى ولا شرف الخامل دون أن يكون في كنفكم ويستظل بظلكم . (٦) الغبطة : حسن الحال والمسرة .

(٧) المرساة : أنجر السفينة الذي ترسى به ، وهو أنجر ضخم (خشبات يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة) يشد بالحبال ويرسل في الماء فيمسك السفينة ويرسيها حتى لا تسير ، كنى بذلك عن شدة تمكن الشيطان من أوليائه أولئك الذين يدسون له عند الخليفة ويكيدون له .

حِيلته ، وَوَهَنَ[١] كيده يوم كَيتَ وكَيتَ ، ولا أظن أذْكَرَ لها من أمير المؤمنين ، ولقد سَمِعتُ لأمير المؤمنين فى صالح صلوات الله عليه ، وفى ثقيف مقالا هَجَم بى الرَّجاء لِعَدْلِه عليه ، بالحجَّةِ فى ردِّه بِمحْكَمَ التنزيل على لسان ابن عمه خاتَم النبيين وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم ، فقد أخبر عن الله عزّ وجل وحكاية غُرِّ المَلأ[٢] من قريش عند الاختيار والافتخار ، وقد نفخَ الشيطان فى مَنَاخِرهم ، فلم يَدْعُوا خَلْفَ ماقصدوا إليهمُواسِىَ[٣] ، « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ[٤] عَظِيمٍ » فوقع اختيارُهم ـ عند المباهاةِ بنَفْخة الـكِبْر وكِبْر الجاهلية ـ على الْوَليد ابن المغيرة المَخْزُومى وأبى مسعود[٥] الثقفى ، فصارا فى الافتخار بهما صِنْوَين[٦] ، ما أنـكر اجتماعَهما من الأمة مُنْـكِرٌ ، فى مَدِّ صوت القرآن ، ومبلِّغ الْوَحْى ، وإنْ كان ليقالُ للوليد فى الأمة يومئذ « رَيْحَانة قريش » ، وما ردَّ ذلك العزيز تعالى إلا بالرحمة الشاملة فى القَسم السابق ؛ فقال عز وجل : « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فى الحياةِ الدُّنْيَا » ، وما قَدَّمَتْنى يا أمير المؤمنين ثقيف فى الاحتجاج لها ، وَإنَّ لها مقالا رَحْبا ، ومعاندةً قديمةً ، إلا أن هذا من أيْسَر مايحتجُّ

---

(١) وهن : ضعف ، وفعله كوعد وورث وكرم ، وكيت وكيت ويكسر آخرهما : أى كذا وكذا .

(٢) الملأ : الجماعة . والغر : المشهورون ، جمع أغر .

(٣) المواساة : المشاركة ، والتسوية ، وأصلها الهمزة فقلبت واوا تخفيفا ، ويقال مايؤاسى فلان فلانا : أى مايشاركه ، وآسيته بنفسى : سويته (وآسيته بمالى : أنلته منه وجعلته فيه أسوة بكسر الهمزة وضمها أى قدوة) ، وفى الحديث : « ما أحد عندى أعظم يداً من أبى بكر ، آسانى بنفسه وماله » وقد تقدم فى الجزء الأول فى كتاب عمر إلى أبى موسى : « آس بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك » أى سوبينهم واجعل كل واحد منهم أسوة خصمه . وفى كتاب على عليه السلام « آس بينهم فى اللحظة والنظرة » فمعنى الجملة : أنهم حين اختيارهم لم يدعوا وراء ماقصدوا إليه محلا للتسوية بين من اختاروهم وبين غيرهم ، فاختاروا رجلين لايسوى بهما غيرهما ولايشاركهما أحد فى السودد ورفعة القدر ، وفى الأصل « موسى » وهو تحريف وصوابه « مواسى كما رأيت » .

(٤) مكة والطائف . (٥) هو عروة بن مسعود الثقفى .

(٦) إذا خرجت نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو ، والاثنان صنوان ، والجمع صنوان برفع النون .

به العبدُ المشفِقُ على سيده المغْضَب ، والأمرُ إلى أمير المؤمنين : عَزَلَ أم أقرَّ[1] ، وكلاهما عَدْلٌ متَّبَعٌ ، وصوابٌ مُعْتَدِلٌ ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله » .

قال نباتة : « فأتيت على الكتاب بمَحْضَر أمير المؤمنين عبد الملك ، فلما استوعبتُه سارَقْتُه النظَرَ من الهيبة منه ، فصادَفَ لحظى لحظَه ، فقال : اقطَعْه ولا تُعْلِمَن بما كان أحداً ، فلما مات عبد الملك فشا عنى الخبر بعد موته .

(العقد الفريد ١ : ٧٧)

٢٦٢ — كتاب الشعبي إلى الحجاج

وكتب الشَّعْبى إلى الحجاج يسأله حاجة فاعتلَّ عليه ، فكتب إليه الشعبى : « والله لاعَذَرْتُك وأنت والى العراق ، وابن عظيم[2] القَرْيَتَيْن » فقضَى حاجَتَهُ .

(العقد الفريد ٣ : ٨)

٢٦٣ — كتاب امرأة إلى زوجها

(وكان مع الحجاج يحضر طعامه وهى فى سوء حال)

روى أبو على القالى فى أماليه قال :

كان رجل من أهل الشام مع الحجاج يَحْضُر طعامه[1] ، فكتب إلى امرأته يُعلمها بذلك ، فكتبت إليه :

---

(١) فى الأصل « قر » وهو تحريف .

(٢) هو عروة بن مسعود الثقفى — انظر ص ٢٢٩ — وكان عروة جد الحجاج لأمه ، روى ابن خلكان فى ترجمته نقلا عن المسعودى أن أم الحجاج هى الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفى — انظر ج ١ : ص ١٢٣ — .

(٣) حدث ابن نباتة فى سرح العيون (ص ١١٨) عن كرم الحجاج قال :

« فأما كرمه ، فحكى أنه لما دخل المدينة فرق فى أهلها عشرة آلاف دينار ، ثم قال : أتيناكم وقد غاض المال لكثرة النوائب فاعذرونا ، فقال رجل : لاعذر الله من يعذرك ، وأنت أمير المصرين وابن عظيم القريتين ، فقال : صدقت ، واقترض أموالا من هناك من التجار فكان شيئا عظيما ، ولما ولى العراق كان يطعم فى كل يوم على ألف مائدة ، يجتمع على كل مائدة عشرة أنفس ، ويطاف به فى محفة (والمحفة كمخدة:

أيُهْدَى لِىَ القِرطاسُ ، والُخبزُ حاجتى ... وأنت على باب الأمير بَطين[١]
إذا غِبْتَ لم تذكُرْ صديقاً ولم تُقِمْ ... فأنت على ما فى يديك ضَنِين[٢]
فأنت كلكلب السوء جَوَّع أهلَه ... فيُهْزَلُ أهل البيت وهْوَ سمين

(الأمالى ٢ : ١٣٨)

٢٦٤ — كتاب البخترى بن أبى صفرة إلى أخيه المهلب

وروى أيضاً قال :

كان البَخْتَرِىُّ بن أبى صُفْرة من أكمل فِتْيان العرب جمالا وبيانا ونجدة وشعراً ، وكان بنو المهلب يَحْسُدونه لفضله ، فدسَّتْ إليه أمُّ ولدِ عُمارة بن قيس اليَحْمَدِى فراوَدَته عن نفسه فأبى ، فحملت عليه عُمارة حتى شكاه إلى المهلب ، وأكثر فى ذلك بنوه القولَ ، فعرَف ذلك فى وجه المهلَّب فكتب إليه :

جَفَوت امرأً لم يَنْبُ عما تُريدُه ... وكان إلى ما تشتهيه يُسارِعُ
تَمُوت حِفاظًا دونَ ضَيْمِك نَفْسُهُ ... وأنت إلى ما ساءه متطالِعُ
كأنى أخو ذنبٍ ، وما كنتُ مُذْنِبًا ... ولكنْ دهَتْنى السَّارياتُ الشَّبادِعُ[٣]

مركب كالهودج إلا أنها لا تقبب) على أيدى الرجال ، يشرف على القوم ، ويقول: يا أهل الشأم، اهشموا الخبز لئلا يعاد عليكم،وقيل كان فعله هذا خاصاً بأهل الشأم وكان يرسل الرسل إلى الناس لحضور الطعام، فكثر عليه ذلك فقال : أيها الناس رسلى إليكم الشمس،إذا طلعت فاحضروا للغداء،وإذا غربت فاحضروا للعشاء ، فكانوا يفعلون ذلك واستقل الناس يوما فقال : ما بال الناس قد قلوا ؟ فقام رجل وقال : ياأيها الأمير ، أنت أغنيت الناس فى بيوتهم عن الحضور إلى مائدتك ، فأعجبه ذلك وقال:اجلس بارك الله عليك »

وقال أبوالعباس المبرد فى الكامل (١ : ١٤٥) :

«وكان يطعم فى كل يوم على ألف مائدة ، على كل مائدة ثريد وجنب من شواء وسمكة طرية،ويطاف به فى محفة على تلك الموائد ليتفقد أمور الناس ، وعلى كل مائدة عشرة ، ثم يقول : ياأهل الشأم،اكسروا الخبز لئلا يعاد عليكم ، وكان له ساقيان أحدهما يسقى الماء والعسل ، والآخر يسقى اللبن » .

(١) بطن ككرم فهو بطين : عظم بطنه ، أى وأنت ممتلىء البطن من كثرة الطعام.

(٢) أى بخيل .

(٣) الشبادع : الدواهى والعقارب والنمائم ، جمع شبدعة وشبدع بكسر الشين والدال .

دَبَبْنَ (وقد نام الغَفُولُ) بِمَيْنِنا ... إليك إماءٌ مُومِساتٌ جَوَالِع[١]
فأوْقَدْن نيرانَ العَداوةِ بيننا ... جِهاراً، ولم تُسْدَدْ علىَّ المَطالِعُ
يَبْغِينَ أموراً لستُ ممَّن أشاؤها ... ولو جُعِلَت فى ساعِدَىَّ الجوامِع[٢]
أأصْبُو بعِرْس الجار أَنْ كان غائبا ... وتلك التى تستكُّ منها المسامع[٣]
فلستُ وربِّ البيت أصبُو بمثلها ... وربِّىَ راءٍ ما صَنَعْتُ وسامع
فإن تلك عِرْسُ اليَحْمَدِىِّ وأختُه ... تَمرَّنْ فلا قاهٍ أَلَيْسَ خالِع[٤]
يَبيت يُراعِى المومساتِ إذَا دَجَا الظلامُ، وجارُ البيتِ وَسْنانُ هاجِع[٥]
فما أنا ممن تَطَّبِيه خَرِيدةٌ ... ولو أنها بَدْرٌ من الأفق طالِع[٦]
وإنى لتنهانِى خَلائِقُ أربعٌ ... عن الفُحْش فيها للكريم رَوادِعُ
حَياءٌ وإسلامٌ وشَيْبٌ وعِفَّةٌ ... وما المرءُ إلا ماحَبَتْه الطبائع[٧]
وقد كنتُ فى عصر الشباب مُجانِباً ... صِبايَ، فأنَّى الآنَ والشيبُ شائع!
فلا تَقْطَعَنْ منى وشائجَ سُهْمَةٍ ... فلا يصلِ الأبناءُ ما أنت قاطع[٨]
وكافِحْ بأجرامى الهِياجَ إذا التظَى ... شِهابٌ من الموت المُحَرِّق لامِعُ
تُنَبِّهْ (وعَهدِ اللّهِ) منى مُشَيَّعا ... صبوراً على اللَّأْواء والموتُ كانِع[٩]

(الأمالى ٢ : ١٣٨)

---

(١) امرأة مومس ومومسة: فاجرة أو مجاهرة بالفجور «من الومس كوعد: وهو احتكاك الشىء بالشىء حتى ينجرد، وأومست: أمكنت من الومس». والجوالع: جمع جالعة، وهى التى قد ألقت عنها الحياء. جلعت: كفرح فهى جلعة وجالعة. (٢) الجوامع: جمع جامعة وهى الغل.

(٣) استكت المسامع: صمت وضاقت، وعرس الرجل: امرأته.

(٤) الأليس: الجرىء من كل شىء، وصف من الليس بالتحريك وهو الشجاعة، وخالع: أى قد خلع الحياء. (٥) دجا الليل: أظلم، وسنان: نائم، وصف من الوسن بالتحريك. والهجوع: النوم ليلا. (٦) أطباه: استماله، والخريدة والخريد والخرود: البكر لم تمس، والخفرة: الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة. (٧) حباه: منحه وأعطاه.

(٧) الوشائج: الأرحام المشتبكة المتصلة، جمع وشيجة، وهى مأخوذة من وشائج الرماح وهى عروقها والسهمة: القرابة.

(٩) اللأواء: الشدة، والموت. كانع: أى مستجمع للوثوب، من كنعت العقاب كمنع: ضمنت جناحيها للانقضاض.

٢٦٥ – رسالة الحسن البصرى إلى الحجاج

وقال أحمد بن يحيى المرتضى فى كتابه « المُنية والأمل » :

كتب الحجاج إلى الحسن البصرى : « بلغَنا عنك فى القَدَر شىء فا كتب إلينا » فكتب إليه رسالة طويلة نحن نذكر منها أطرافا :

منها قوله : « سلام عليك أما بعدُ : فإن الأمير أصبح فى قايلٍ مِن كثير مَضَوا ، والقايلُ من أهل الخير مَغْفولٌ عنهم ، وقد أدركْنا السَّلَفَ الذين قاموا لأمر الله ، واستَنُّوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم يُبْطِلوا حقّا ، ولا أَلْحَقوا بالربِّ تعالى إلا ما أَلْحَقَ بنفسه . ولا يحتجّون إلا بما يحتجّ اللهُ تعالى به على خلقه ، وقوله الحق « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيعْبُدُونِ » ولم يخلقهم لأمر ثم حال بينهم وبينه ، لأنه تعالى ليس بظَلَّام للعبيد ، ولم يكن أحد فى السَّلَف يذكر ذلك ولا يجادل فيه ، لأنهم كانوا على أمر واحد ، وإنما أحدثْنا الكلامَ فيه لمَّا أحدثَ الناسُ النَّكِرةَ له ، فلمَّا أحدث المُحْدِثون فى دينهم ما أحدثوه ، أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يُبطِلون به المُحْدَثاتِ ، ويحذِّرون به من المهلكات .

ومنها قوله : فافهم أيها الأمير ما أقوله ، فإن ما ينهَى الله عنه فليس منه ، لأنه لا يَرْضَى ما يُسْخِطه من العباد ، لأنه تعالى يقول : « وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ » فلو كان الكفرُ من قضائه وقدره لرضِيَ عمن عَمِلَه .

ومنها قوله : ولو كان الأمر كما قال المخطئون لما كان لمتقدِّمٍ حَمْدٌ لما عَمِل ، ولا على متأخرٍ لوم ، ولقال تعالى : « جزاء بما عملت أيديهم » ولم يقل : « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ومنها قوله : « إن أهل الجهل قالوا : إن الله يُضِل من يشاء ويَهدى من يشاء ، ولو نظروا إلى ما قبل الآية وما بعدها، لتبيَّن لهم أن الله تعالى لا يُضِل إلاَّ بتقدُّم الفسق

والكفر لقوله تعالى : « وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ » أى يحكم بضلالهم ، وقال : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ » . « وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ » .

ومنها قوله : واعلم أيها الأمير أن المخالفين لكتاب الله وعدله يقولون فى أمر دينهم بزَعْمهم على القضاء والقدر، ثم لا يَرْضَوْن فى أمر دنياهم إلاَّ بالاجتهاد والبحث والطلب والأخذ بالجزم فيه ، ولا يعملون فى أكثر دنياهم على القضاء والقدر .

ومنها قوله محتجا بقوله تعالى: « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا[1] » فلو كان هو الذى دَسَّاها لما خَيَّب نفسه ، تَعَالَى اللهُ عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيراً .

(المنية والأمل ص ١٢)

٢٦٦ — كتاب بشر بن مروان إلى أخيه عبد العزيز

وكتب بشر بن مَرْوان إلى أخيه عبد العزيز بن مروان يعتذر عن كتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لولا الهفوةُ لم أحتجْ إلى العذر ، ولم يكن لك فى قبوله منى الفَضل ، ولو احتَمَل الكتابُ أكثرَ مما ضَمَّنته لزِدْتُ فيه ، وبَقِيَّةُ[2] الأكابر على الأصاغر من شِيَم الأكارم ، ولقد أحسنَ مِسْكين الدارِمِيُّ حيث يقول:

أخاكَ أخاكَ إن من لا أخاَ له ... كساعٍ إلى الهَيْجا بغير سلاح[3]

وإنَّ ٱبن عمِّ المرء (فاعْلَمْ) جَناحُه ... وهل ينْهضُ البازى بغير جَناحِ ؟

(مفتاح الأفكار ص١٧٧)

٢٦٧ — كتب بين عبد الملك وأخيه عبد العزيز

وروى الطبرى قال :

كتب الحجاج إلى عبد الملك يُزَيِّن له بَيْعةَ الوليد ، وأوفد وَفْدًا فى ذلك عليهم

---

(١) زكاها : أى زكى النفس وطهرها من الذنوب، وأنماها بالعلم والعمل، دساها : نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق . (٢) أى إبقاء .

(٣) الهيجاء : الحرب .

عِمْرانُ بْنِ عِصَام العَنَزِيّ ، فقام عِمْرانُ خطيباً فتكلم وتكلم الوفد ، وحثّوا عبد الملك وسألوه ذلك .

ولما أراد عبد الملك أن يخلع أخاه عبد العزيز ويبايع لابنه الوليد ، كتب إلى أخيه :

« إنْ رأيتَ أنْ تصيِّرَ هذا الأمر لابْن أخيك »

فأَبَى ، فكتب إليه :

« فاجعلْها له من بَعدِك ، فإنه أعزُّ الخَلْقِ على أمير المؤمنين »

فكتب إليه عبد العزيز :

« إنى أرَى فى أبى بكر بن عبد العزيز ما تَرَى فى الْوَليد »

فقال عبد الملك : اللهم إن عبد العزيز قطعنى فاقْطَعْه ، فكتب إليه عبد الملك :

« احْمِل خَرَاجَ مصر » .

فكتب إليه عبد العزيز :

« يا أمير المؤمنين ، إنى وَإياك قد بلغنا سِنّاً لم يَبْلُغْها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلا ، وَ إنى لا أدرى ولا تدرى : أيُّنا يأتيه الموتُ أوَّلاً ؟ فإن رأيتَ أنْ لا تُغَثِّثَ[1] علىّ بقيَّةَ عمرى فافعل » .

فَرَقَّ له عبد الملك وقال : لعمرى لا أُغَثِّثُ عليه بقية عمره ، ثم إن عبد العزيز وافتَه منيّته (سنة ٨٥ هـ) فبايع عبدُ الملك لابنه الوليد ، ثم لسليمان من بعده ، وكتب ببيعته لهما إلى البُلدان .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٥٤)

---

(١) أى أن لا تفسد .

٢٦٨ – بين عبد الملك وهشام بن إسماعيل

« وكان عَامل عبد الملك على المدينة هِشام بن إسماعيل المخزومىٌّ ، فكتب إليه عبد الملك أن يدعو الناس لبيعة الوليد وسليمان ، فدعا الناس إلى البيعة فبايعوا ودعا سعيد ابن المُسَيَّب[١] أن يبايع لهما ، فأبى ، وقال : لا ،حتى أنظر ، فضربه هشام ستين سوطا وطاف به فى تُبَّان[٢] شعَرٍ وحبسه،وكتب إلى عبدالملك يخبره بخِلافه،وما كان من أمره :

فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع ، ويقول : « سعيدٌ وَٱللهِ كان أحوجَ أن تَصِلَ رَحِمَه[٣] من أن تضربه ، وإنا لَنعلمُ : ما عندَهُ من شقاقٍ ولا خلاف » .

هذا ما رواه الطبرى ، وروى اُبن خِلِّكان فى وَفَيَات الأعيان . قال : قال يحيى اُبن سعيد : كتب هشام بن إسمعيل والى المدينة إلى عبد الملك بن مَرْوَان :

« إن أهل المدينة قد أَطْبَقوا[٤] على البيعة الوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب » .

فكتب إليه أن :

« اعْرِضْه على السيف ، فإن مَضَى[٥] فاجْلِده خمسين جلدةً ، وطُفْ به أسواق المدينة » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٦٠ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٠٧)

---

(١) قال ابن خلكان فى ترجمته : « هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب بن عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشى المدنى أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وكان سيد التابعين من الطراز الأول ، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع،وكانت ولادته لسنتين مضتا من خلافة عمر رضى الله عنه ، وتوفى بالمدينة سنة إحدى وقيل اثنتين وقيل ثلاث وقيل أربع وقيل خمس وتسعين وقيل خمس ومائة للهجرة ، والمسيب بفتح الياء المشددة . وروى عنه أنه كان يقول بكسر الياء ويقول : سيب الله من يسيب أبى – ج ١ : ص ٢٠٦ – وروى ياقوت فى معجم البلدان قال . « لما مات العبادلة – عبد الله ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص – صار الفقه فى جميع البلدان إلى الموالى . فصار فقيه أهل مكة عطاء بن أبى رباح ، وفقيه أهل اليمن طاوس ، وفقيه أهل اليمامة يحيى بن أبى كثير ، وفقيه أهل البصرة الحسن البصرى ، وفقيه أهل الكوفة إبراهيم النخعى ، وفقيه أهل الشأم مكحول ، وفقيه أهل خراسان عطاء الخراسانى ، إلا المدينة فإن الله تعالى خصها بقرشى ، فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع سعيد بن المسيب » – انظر ج ٣ : ص ٤١٢ – .

(٢) التبان كرمان : سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط يكون للملاحين .

(٣) لأنه مخزومى مثله كما رأيت فى نسبه .

(٤) أى أجمعوا .

(٥) أى صمم وتشبث برأيه .

خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦ — ٩٦

٢٦٩ — كتاب الحجاج إلى الوليد

لما وَلِيَ الوليدُ بن عبد الملك الخلافة كتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، فإن اللهَ تعالى استقبَلَك يا أمير المؤمنين فى حَداثة سِنِّك بما لا أَعْلَمه استقبلَ به خليفةً قبلك ، من التمكين فى البلاد ، والملك للعباد ، والنصر على الأعداء ، فعليك بالإسلام فقوِّمْ أَوَدَه[1] وشرائِعَه وحُدودَه ، ودَعْ عنك محبةَ الناس وبغضهم وسُخْطهم ، فإنهم قلَّما يُؤتى الناسُ من خير وشر إلا أفشَوه فى ثلاثة أيام والسلام » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٤٢)

٢٧٠ — كتاب الحجاج إلى الوليد

وكتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج أنْ صِفْ لى سيرتك فكتب إليه :

« إنى أَيقَظْتُ رأيى وأَنَمْتُ هواى ، فَأَدْنيْتُ السَّيِّد المُطَاع فى قومه ، ووليْتُ الحرْبَ الحازمَ[2] فى أمره ، وقلّدتُ الخَراجَ الموفِّرَ لأمانته ، وقَسَمْتُ لكل خَصْم من نفسى قسما أُعطيه حظا من لطيف عنايتى ونظَرى ، وصرَفْتُ السيفَ إلى النَّطِف[3] المُسِىء ، والثَّوابَ إلى المُحْسِن البرىء ، فخاف المُرِيبُ صَوْلة العِقاب ، وتمسَّك المحسن بحظِّه من الثواب » .

(العقد الفريد ١ : ٨ و ٣ : ١٣)

---

(١) الأود : الاعوجاج ، وفعله كفرح .

(٢) وفى الجزء الأول من العقد «ووليت المجرب » .

(٣) النطف : الرجل المريب ، وإنه لنطف بهذا الأمر : أى متهم ، وفى الأصل : فى الجزء الأول « النصف » وفى الثالث « النطق » وكلتاهما محرفة .

٢٧١ — كتاب شريح إلى صديق له

ووقع بالكوفة وباء، فخرج الناس وتفرقوا فى النَّجَف، فكتب شُرَيْح[1] إلى صديق له خرج بخروج الناس:

«أما بعدُ، فإنك بالمكان الذى أنت فيه بِعَيْنِ مَنْ لا يُعْجِزُه هربٌ، ولا يفوته طَلَب، وإن المكان الذى خلَّفْتَ لا يُعجِّل لأحدٍ حِمَامَه، ولا يَظْلِمُه أيامَه، وإنا وإياك لَعَلَى بِساط واحد، وإن النجف من ذى قدرة لقريب».

(زهر الآداب ٣ : ٣٣٧)

٢٧٢ — كتاب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم

وولى الحجاج قُتَيْبَةَ بن مُسْلِم الباهلى خُرَاسان، فقَدِمَها سنة ٨٦ هـ — وغزا أخْرون وشُومان — وهما من طُخَارُستان[2] — وصالحه أهلها على فِدية أدَّوها إليه فقبلها، ثم قَفَل[3] إلى مَرْو، وخلَّف الجندَ، واستخلف عليهم أخاه صالح بن مسلم، فأخذوا طريق بَلْخ إلى مرو، وبلغ الحجاج، فكتب إليه يلومه ويعجِّز رأيه فى تخليفه الجندَ وكتب إليه:

«إذا غزوتَ فكن فى مقدَّم الناس، وإذا قفَلْتَ فكن فى أخْرَياتهم وسَاقَتِهِم[4]»

(تاريخ الطبرى ٨ : ٦٠)

٢٧٣ — بين الحجاج وقتيبة

قال الطبرى:

وغزا قُتَيْبة وَرْدانَ خُذَاه ملك بُخارَى سنة ٨٩هـ، فلم يُطِقْهُ، ولم يظفَر من البلد

---

(١) هو شريح بن الحارث قاضى الكوفة، توفى سنة ٨٧، اقرأ ص ٢٥٠، من الجزء الأول.

(٢) ناحية كبيرة شرقى خراسان على نهر جيجون. وقد ضبطها ابن خلكان هكذا — انظر وفيات الأعيان ١ : ٩٠ ترجمة بشار بن برد، وضبطها ياقوت فى معجم البلدان بفتح الطاء.

(٣) رجع. (٤) ساقة الجيش: مؤخره.

بشىء ، فرجع إلى مَرْو وكتب إلى الحجاج بذلك ، فكتب إليه الحجاج : أن صَوِّرْها لى ، فبعث إليه بصورتها ، فكتب إليه الحجاج أن : « ارجع إلى مَراغتك[1] ، فتُب إلى الله مما كان منك ، وأْتِها من مكان كذا وكذا » .

وقيل : كتب إليه الحجاج أن : « كِسْ بكِسَّ[2] ، وانسِفْ نَسَفَ[3] ، وَرِدْ وَرْدَانَ ، وإياك والتَّحْويطَ[4] ، ودَعْنى من بُنَيَّاتِ[5] الطريق » .

فخرج إلى بخارى سنة ٩٠ غازيا ، ففتحها وهزم جنود وردان خذاه ، ومن استنصرهم من السُّغْد والترك ومن حولهم .

ورجع قتيبة إلى مرو ، وكتب إلى الحجاج :

« إنى بعثت عبد الرحمن بن مُسْلِم ، ففتح الله على يديه » .

وكان قد شَهِدَ الفتح مولى للحجاج ، فقَدِم فأخبره الخبر ، فغضب الحجاج على قتيبة ، فاغتمّ لذلك ، فقال له الناس : ابعث وفدا من بنى تميم وأعطهم وأَرْضِهم يُخْبِروا الأمير أن الأمر على ما كتبتَ ، ففعل ، فلما قَدِمُوا على الحجاج صاح بهم وعابهم ، ودعا بالحجَّام بيده مِقْراض[6] ، فقال : لأقطعن ألسنتكم أو لتَصْدُقُنَّنى ، قالوا : الأمير قتيبة ، وبعث عليهم عبد الرحمن ، فالفتح للأمير ، والرأس الذى يكون على الناس ، فسكن الحجاج . (تاريخ الطبرى ٨ : ٦٧ ، ٦٩)

---

(١) المراغة : متمرغ الدابة ، أراد بها بخارى : أى أن يفتحها ويتخذها معقلا يتقلب فيه كما تتقلب الدابة فى مراغتها ، والمراغة أيضاً : الأتان التى لا تمتنع من الفحول ، كأنه يقول له إنها لا تستعصى عليك فى فتحها . (٢) الكيس : العقل والخفة والتوقد ، وفعله كضرب ، وكاسه يكيسه غلبه بالكياسة ، وكس : مدينة تقارب سمرقند .

(٣) نسف : مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند .

(٤) يقال : حوط حول الأمر : أى دار ، وأصله من حوط كرمه تحويطا : أى بنى حوله حائطا ، يعنى : إياك والدوران فى القول وكثرة المراجعة فيه (ويقال أيضاً : حاوطت فلانا محاوطة : إذا داورته فى أمر تريده منه وهو يأباه كأنك تحوطه ويحوطك) .

(٥) بنيات الطريق : الطرق الصغار تتشعب من الجادة ، أى اسلك الطريق العام المستقيم ولا تعرج فى المنحنيات والمنعطفات .

(٦) المقراض : المقص .

٢٧٤ — بين الوليد وعمر بن عبد العزيز

وفى سنة ٨٨ ﻫ بعث الوليد إلى عمر بن عبد العزيز — وكان عامله على المدينة — بكتاب يأمره بإدخال حُجَر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد رسول الله ، وأن يشترى مافى مؤخره ونواحيه حتى يكون مائتى ذراع فى مائتى ذراع ، ويقول له : « قَدِّم القِبْلة إن قَدَرْتَ — وأنت تقدر — لِمكان أخوالك ، فإنهم لايخالفونك ، فمن أبَى منهم فَمُرْ أهل المِصْر فليقوِّموا له قِيمةَ عَدْل ، ثم اهْدِم عليهم وادفع إليهم الأثمان ، فإن لك فى ذلك بسَلَف صدقٍ عمرَ وعثمانَ » .

فأقرأهم كتابَ الوليد، فأجاب القوم إلى الثمن فأعطاهم إياه، وأخذ فى هدم بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبناء المسجد، فلم يمكث إلا يسيرا حتى قدِم الفَعَلة، بعث بهم الوليد .

وفى هذه السنة أيضاً كتب الوليد إلى عمر فى تسهيل الثَّنايا[1] وحَفْر الآبار بالمدينة ، وخرجت كتبه إلى البلدان بذلك ، وكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله القَسرى بذلك — وكان على مكة — .

وكتب الوليد أيضا إلى عمر أن يعمل الفَوَّارة التى كانت عند دار يزيد بن عبد الملك ، فعمِلها عمر وأجرى ماءها ، فلما حج الوليد وقف عليها ، فنظر إلى بيت الماء والفوارة فأعجبته ، وأمر لها بقُوَّام يقومون عليها، وأن يسقى أهل المسجد منها ففعل ذلك.

(تاريخ الطبرى ٨ : ٦٥ ، ٦٦)

٢٧٥ — كتب بين الحجاج والوليد وسليمان ابنى عبد الملك

ولم يَجْتَزِئْ الحجاج بعزل يزيد بن المهلَّب عن خُراسان كما قدمنا ، بل حبسه هو وإخوته ، وأغرمهم ستة آلاف ألف وعذَّبهم[2] ، فأعملوا الحيلة فى الفِرار من سجنه

---

(١) جمع ثنية ، وهى الطريق فى الجبل .

(٢) وكان يزيد يصبر على عذابه صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقيل له : إنه رمى بنشابة

(سنة ٩٠ هـ) ففزِعَ الحجاج وذهبَ وَهْمُه أنهم ذهبوا قِبَل خراسان ، وكان يقول : إنى لأظنه يحدِّث نفسه بمثل الذى صنع ابنُ الأشعث ، وكتب إلى الوليد : يخبره بهَرَبهم وأنه لا يراهم أرادوا إلا خراسان ، وبعث البَرِيد إلى قُتَيبة بن مسلم يحذِّره قدومهم ، ويأمره أن يستعدَّ لهم ، ويعث إلى أمراء الثغور والكُوَر أن يرصُدوهم ويستمدوا لهم .

ومضى يزيد وإخوته حتى قَدِموا الشام ، فلاذوا بسليمان بن عبد الملك متعوِّذين به من أجارهم ، فكتب الحجاج إلى الوليد :

« إن آل المهلَّب خانوا مال الله ، وهرَبوا منى ، ولحقوا بسليمان بن عبد الملك أخى أمير المؤمنين ، وولىّ عَهْد المسلمين ، وإن أمير المؤمنين أعلى رأيا » .

فلما بلغ الوَليد مكانُه عند سليمان ، هوَّن عليه بعض ما كان فى نفسه ، وطار غضبا للمال الذى ذهب به ، وكتب إلى أخيه سليمان بذلك .

فكتب سليمان إلى الوليد :

« إن يزيد بن المهلَّب عندى ، وقد آمَنْتُه ، وإنما عليه ثلاثة آلاف ألفٍ ، كان الحجاج أغرمَهم ستة آلافِ ألف ، فأدَّوا ثلاثة آلاف ألف ، وبقى ثلاثةُ آلاف ألف ، فهى علىَّ » .

أو كتب إليه :

« ياأمير المؤمنين : إنى ما أجرْتُ يزيد بن المهلَّب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديما وحديثا ، ولم أُجِرْ عدوا لأمير المؤمنين ، وقد كان الحجاج قصده وعذَّبه وغرَّمه أربعة آلاف ألف درهم ظلماً ، ثم طالبه بثلاثة آلاف ألف درهم ، وقد سار إلىَّ واستجار بى فأجرته ، وأنا أغْرَمُ عنه هذه ثلاثة آلاف ألف الدرهم ، فإن رأى أمير المؤمنين

فثبت نصلها فى ساقه فهو لا يمسها شىء إلا صاح ، فإن حركت أدنى شىء سمعت صوته ، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه (أى تغمز شديدا) فلما فعل ذلك به صاح ، وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج ، فلما سمعت صياح يزيد صاحت وناحت فطلقها .

أَلاَّ يُخْزِيَنِي فى ضيفى فليفعل ، فإنه أهل الفضل والكرم » .

فكتب إليه الوليد :

« لا واُللهِ ، لا أُومنه حتى تبعث به إلىّ فى وَثاق(١) » .

فكتب إليه سليمان :

« ولَئِن أنا بعثت به إليك لَأَجيئنّ معه ، فأنشُدُكَ اُللهَ(٢) أن لا تفضَحَنى ولا تُخْفِرَنى(٣) » .

فكتب إليه الوليد : واُللهِ لئن جئتنى لا أُومنه » .

فقال يزيد : ابعثنى إليه ، فو الله ما أحب أن أُوقع بينك وبينه عداوة وحربا ، ابعث إليه بى وأرسل معى ابنك ، واكتب إليه بألطفِ ما قَدَرت عليه .

فأحضر سليمان اُبنه أيوب فقيَّده ودعا يزيد بن المهلَّب فقيَّده ، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغَلَّهما جميعا بِغُلَّين ، وأرسلهما إلى أخيه الوليد ، فدخلا عليه ، فلما رأى الوليد ابن أخيه فى سلسلة أطرق استحياء ، وقال : لَقد أسأْنا إلى أبى أيوب إذ بَلَغْنا به هذا المَبْلَغ ، ودفع الغلام كتاب أبيه إلى عمه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، نفسى فِدَاؤك ، لا تُخْفِر ذمة أبى وأنت أحقُّ من منعها ، ولا تقطع منا رجاءَ مَنْ رجا السلامةَ فى جوارنا لِمكاننا منك ، ولا تُذِلّ من رجا العز فى الانقطاع إلينا لعِزّنا بك » . وكان فى الكتاب :

« لعبد اُللهِ الوليد أمير المؤمنين من سليمان بن عبد الملك ، أما بعد : يا أمير المؤمنين ، فو اُللهِ إنْ كنتُ لأظنُّ — لو استجار بى عدو قد نابَذَكَ(٤) وجاهَدك فأنزلته وأجَرْته — أنك لا تُذِلّ جارى ولا تُخْفِر جوارى ، بل لم أُجِرْ إلا سامعا مطيعا حَسَنَ الْبَلاَء والأثر فى الإسلام هو وأبوه وأهل بيته ، وقد بعثت به إليك ، فإن كنتَ إنما

---

(١) الوثاق بالفتح ويكسر : مايشد به . (٢) أى أسألك بالله .

(٣) أخفره وخفر به كضرب : نقض عهده .

(٤) نابذه : خالفه وعصاه ، ونابذه الحرب كاشفه إياها وجاهره بها .

تَغزو[١] قطيعتى ، والإخفارَ لذمتى ، والإبلاغَ فى مساءتى ، فقد قدَرت إن أنت فعلت ، وأنا أُعيذك بالله من احتراد[٢] قطيعتى ، وانتهاكِ حُرْمتى ، وترك برِّى وصِلتى ، فوالله يا أمير المؤمنين ما تدرى ما بقائى وبقاؤك ، ولا متى يُفرِّق الموت بينى وبينك ، فإن استطاع أمير المؤمنين — أدام الله سروره — أن لا يأتىَ علينا أجلُ الوفاة إلا وهو لى واصلٌ ، وَلِحَقِّى مؤدٍّ ، وعن مَساءتى نازع[٣] ، فليفعلْ ، والله يا أمير المؤمنين ما أصبحت بشىء من أمر الدنيا ـ بعد تقوى الله فيها ـ بأسَرَّ منى برضاك وسرورك ، وإن رضاك مما ألتمسُ به رضوانَ الله ، فإن كنت يا أمير المؤمنين تريد يوما من الدهر مسرَّتى وصِلَتى وكرامتى وإعظام حقى ، فتجاوَزْ لى عن يزيد ، وكلُّ ما طلبتَه به فهو علىَّ » .

أو كتب إليه . « أما بعد ، يا أمير المؤمنين فقد وجَّهتُ إليك يزيدَ وابن أخيك أيوب بن سليمان ، ولقد هَمَمْتُ أن أكون ثالثهما ، فإن هممتَ يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك أُبْدَأْ بأيوبَ مِن قبله ، ثم اجعل يزيدَ ثانيا واجعلنى إذا شئت ثالثا ، والسلام » .

فلما قرأ كتابه قال : لقد شقَقنا[٤] على سليمان ، ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه ، وتكلم يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن يَنْسَ ذلك فلسنا ناسيه ، ومن يكفُر فلسنا كافريه ، وقد كان من بلائنا أهلَ البيت فى طاعتكم ، والطعنِ فى أعين أعدائكم ، فى المواطن العِظام فى المشارق والمغارب ، ما إنَّ المِنَّة علينا فيها عظيمة » . فقال له : اجلس فجلس ، فآمنه وكف عنه ، ورجع إلى سليمان ، وسعى إخوته فى المال الذى عليه .

---

(١) تقصد .

(٢) الاحتراد افتعال من الحرد (بالفتح) وهو القصد ، حرد كضرب : قصد ـ ولم تذكر كتب اللغة المزيد ـ وفى وفيات الأعيان « اختيار » . (٣) أى كاف .

(٤) شق عليه : أوقعه فى المشقة ، وفى قوله تعالى : (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ).

وكتب الوليد إلى الحجاج :

« إنى لم أصلْ إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان ، فا كففْ عنهم والهُ عن الكتاب إلىَّ فيهم » فلما رأى ذلك الحجاج كف عنهم .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٧٣ ، وثمرات الأوراق ص ٢٠٨ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٢٧٠)

٢٧٦ — كتاب الحجاج إلى قتيبة

وكتب الحجاج إلى قتيبة :

« إنى قد نظرتُ فى سِنِّى ، فإذا أنا قد بلغت خمسين سنةً ، وأنت نحوٌ منى فى السِّنِّ[1] ، وإنَّ امرأً قد سار نحو خمسين حِجَّةً[2] إلى مَوْرِدٍ، لقَمِنٌ[3] أن يُورِدَهُ » .

(الأغانى ١٨ : ١١٩ ، وسرح العيون ص١٢٢)

٢٧٧ — كتاب الحجاج إلى قتيبة

وكتب الحجاج إلى قتيبة :

« إنى قد طلقتُ بنت قَطَن الهلالية عن غير رِيبة ، فتزَوَّجْها » .

---

(١) وفى رواية الأغانى : « فاذا أنا ابن ثلاث وخمسين سنة ، وأنا وأنت لدة عام . . . » .

(٢) الحجة : السنة .

(٣) القمين كأمير ، والقمن ككتف وجبل : الخليق الجدير (والأخيرة لاتثنى ولا تجمع) قال أبو الفرج : فسمع هذا أبو التيمى فقال :

إذا ذهب القرن الذى أنت فيهم ... وخلفت فى قرن فأنت غريب

وإن امرأً قد سار خمسين حجة ... إلى منهل ، من ورده لقريب

وقال صاحب زهر الآداب (ج ٣ : ص ١١٧) « والبيت لأبى محمد التيمى ، أنشده دعبل ، قال : وتزعم الرواة أنه لأعرابى من بنى أسـد ، قال خلاد الأرقط : كنا على باب أبى عمرو بن العلاء ومعنا التيمى فذكرنا كتاب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم : « إنى وإياك لدتان، وإن امرأً قد سار خمسين حجة . . . » فانتشله التيمى فاجتلبه فى شعره » .

٢٧٨ – رد قتيبة على الحجاج

فكتب إليه قتيبة :

« ليس كلَّ مَطالِع الأمير أحبُّ أن أطلُعَ » .

فقال الحجاج . وَيل آمِّ(١) قتيبة ! إعجاباً بقوله . (سرح العيون ص ١٢٨)

٢٧٩ – كتاب الحجاج إلى قتيبة

وكتب الحجاج إلى قتيبة أن :

« ابعَثْ إلىَّ بالآدَمِ(٢) الجَعْدِىِّ الذى يُفهِمنى ويَفهَم عنى » .

فبعث إليه عُرَام(٣) بن شُتَيْر ، فقال الحجاج : « لِلّه دَرُّه(٤) ، ما كتبتُ إليه فى أمرٍ قطُّ إلا فهم عنى وعرَف ما أُريد » . (البيان والتبيين ١ : ٢٠٦)

٢٨٠ – كتاب الحجاج إلى قتيبة

وكتب الحجاج إلى قتيبة :

« أما بعد ، فإن وَكِيعَ بن حَسَّان كان بالبصرة ، ثم صار لصّا بِسِجِسْتان ، ثم صار

---

(١) انظر هامش ص ١١٩ .

(٢) الآدم : وصف من الأدمة بالضم وهى السمرة ، والجعدى : نسبة إلى جعد، ووجه جعد: مستدير قليل اللحم، وهو نسبة إلى الوصف، يؤيد هذا ماقبله وهو « الآدم » فهو يبغى أن يبين له صفاته الخلقية، وليس بمنسوب إلى بنى جعدة – وهم حى من العرب منهم النابغة الجعدى – لأن الذى عناه الحجاج وهو عرام بن شتير ، من بنى ضبة بن طابخة بن إلياس بن مضر ، أما بنو جعدة فهم من قيس عيلان بن مضر.

(٣) فى البيان والتبيين « غدام » وهو تحريف ، وإنما هو عرام ، قال صاحب القاموس : « وسموا عارما وكغراب وحمام » وقد ورد هذا الاسم فى تاريخ الطبرى « عرام بن شتير الضبى » ج ٨ : ص ٦٩ .

(٤) لله دره : كلمة تقال لمن يتعجب منه ، والدر : اللبن والمراد هنا اللبن الذى ارتضعه من ثدى أمه ، وأضيف إلى الله تعالى تشريفا ، أى أن اللبن الذى تغذى به يستحق أن ينسب إلى الله تعالى لشرفه وعظمه ، وقيل معناه : لله الثدى الذى أرضعه ، وهو قريب من سابقه ، والدر أيضا: العمل والنفس أى أن عمله عظيم جليل جدير به أن يضاف إلى الله تعالى ، أو أن نفسه شريفة كريمة كذلك .

إلى خُراسان ، فإذا أتاك كتابى هذا فاهْدِم بِناءه ، واحلُلْ فِناءه[١] .

وكان على شُرْطة قتيبة فعزله . (العقد الفريد ١ : ١٧)

٢٨١ - كتاب قتيبة إلى الحجاج ورده عليه

وكتب قتيبة إلى الحجاج : يشكو قِلَّةَ مَرْزِئَته[٢] من الطعام، وقلّةَ غِشْيانه النساءَ وحَصَرَه على المِنْبر ، فكتب إليه :

« استكثِرْ من الألوان لتُصيبَ من كل صَحْفةٍ شيئاً ، واستكثِرْ من الطَّرُوقةِ[٣] تجد بذلك قوةً على ما تُريد ، وأنْزِلِ الناس بمنزلة رجلٍ واحد من أهل بيتك وخاصّتك وارْمِ ببصرك أمامَك تبلُغ حاجتك » . (عيون الأخبار ٥ : ١٧٤)

٢٨٢ - كتاب الحجاج إلى الوليد

وتوفِّىَ محمد بن يوسف أخو الحجاج (سنة ٩١ هـ) وهو والى اليمن، فكتب الوليد إلى الحجاج يعزيه ، فكتب الحجاج جوابه :

« يا أمير المؤمنين ، ما التقيتُ أنا ومحمد مُنذُ كذا وكذا سنةً إلا عاما واحداً ، وما غاب عنى غَيبةً أنا لِقُرْبِ اللِّقاء فيها أَرْجَى من غَيْبته هذه فى دارٍ لا يتفرّق فيها مؤمنان » . (وفيات الأعيان ١ : ١٢٦)

٢٨٣ - كتاب الحجاج إلى الوليد

وكتب الحجاج إلى الوليد بعد وفاة أخيه محمد بن يوسف :

« أُخْبِرُ أمير المؤمنين - أكرمه الله - أنَّه أُصيبَ لمحمد بن يوسف خمسون

---

(١) فناء الدار : ما اتسع من أمامها ، ويقال : حل المكان وحل به .

(٢) رزأه مرزئة : أصاب منه .

(٣) الطروقة: الزوجة وأنثى الفحل ، يقال : ناقة طروقة الفحل ، للتى بلغت أن يضربها الفحل ، وكذلك المرأة ، ويقال للمتزوج : كيف وجدت طروقتك .

ومائةُ ألفِ دينارٍ ، فإن يكن أصابها من حِلِّها فرَحِمَه اللهُ ، وإن تكن من خيانة فلا رَحِمه الله » .

٢٨٤ — رد الوليد على الحجاج

فكتب إليه الوليد :

« أما بعدُ : فقد قرأ أمير المؤمنين كتابك فيما خلَّف محمدُ بن يوسف ، وإنما أصاب ذلك المالَ من تِجارة أحْلَلْناها له ، فتَرَحَّمْ عليه ، رَحِمه الله » .

(الكامل للمبرد ١ : ٢٤٨)

٢٨٥ — كتاب مسلمة بن عبد الملك إلى الوليد

وكتب مَسْلَمَة بن عبد الملك وهو غازٍ بقُسطنطينية إلى أخيه الوليد :

أَرِقتُ وصحراءُ الطُّوانَةِ بيننا ... لِبَرْق تلألأ نحو غَمْرَةَ يُلمَحُ[1]

أُزاوِلُ أمراً لم يكن لِيُطِيقَه ... من القوم إلا اللَّوْذَعِيُّ الصَّمَحْمَحُ[2]

(معجم البلدان ٦ : ٦٦)

٢٨٦ — كتاب سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج

وروى صاحب العقد الفريد قال :

كان سليمان بن عبد الملك يكتب إلى الحجاج فى أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كُتُبا فلا ينظر له فيها ، فكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من سليمان بن عبد المَلك إلى الحجاج بن يوسف ، سلامٌ على أهل الطاعة من عباد الله ، أما بعدُ : فإنك امرؤٌ مَهْتوكٌ عنه حِجابُ الحقِّ ، مُولَعٌ

(١) طوانة : بلد بثغور المصيصة (وهى من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم) .

(٢) اللوذعى : الخفيف الذكى الحديد الفؤاد ، والصمحمح : الرجل الشديد.

بما عليك لا لك ، مُنْصَرِفٌ عن منافعك ، تاركٌ لحظِّك ، مُستخِفٌّ بحق الله وحقِّ أوليائه ، لا ما سَلَفَ إليك من خيرٍ يَعْطِفك ، ولا ما عليك لا لك تَصْرِفه فى مُهِمَّةٍ من أمرك ، مَعْمُوهٌ[1] مُعْصَوصِرٌ[2] عن الحق اعصِيصَاراً ، لاتسكُتُ عن قبيح ، ولا ترعوِى عن إساءة ، ولا ترجُو لله وَقارًا ، حتى دُعِيتَ فاحِشا سَبَّابا ، فقِسْ شِبرَك بِفِتْرك ، واخرُز زمامَ نَعلٍ بِحَذْو[3] مثله قائم ، وايمُ اللهِ لئن أمكننى اللهُ منك لأدوسَنَّك دَوْسةً تَلينُ منها فَرائصُك ، ولأجعلنَّك شريداً فى الجبال ، تلوذُ بأطراف الشَّمال ، ولأُعلِّقنَّ الرُّوميَّة الحمْراء[4] بِثَدْيَيْها ، عَلِمَ اللهُ ذلك منى[5] وَقَضَى لى به عليّ ، فقِدْماً[6] غرَّتْك العافيةُ ، وانتحيْتَ[7] أعراضَ الرجال ، فإنك قَدَرْتَ فَبَذَخْتَ[8] ، وظفرْتَ فتعدَّيْتَ ، فُرَوْيدَك حتى تنظر كيف يكون مَصيرُك إن كانت بى وبك مُدةٌ أتعلَّق بها ، وإن تكن الأخرى ، فأرجو أن تئُولَ إلى مَذَلَّة ذليلة ، وخَزْية[9] طويلة ، ويجعل مَصِيرك فى الآخرة شرَّ مصير ، والسلام » .

(العقد الفريد ٣ : ١٦)

---

(١) عمه كفرح : تردد فى الضلالة وتحير لايهتدى لطريقه ومذهبه ، وفى كتب اللغة أن الوصف منه عمه كفرح وعامه ، ولم يرد فيها معموه ، إلا أن يقال هو مفعول بمعنى فاعل ، كما فى « حِجَابًا مَسْتُورًا » أى ساترا .

(٢) قال فى اللسان : « كل شىء منعته وحبسته فقد عصرته واعتصرته ، » فمعنى معصوصر عن الحق ممنوع محبوس عنه ، وهو اسم فاعل من اعصوصر ، وصيغة افعوعل من أبنية المبالغة كاعذوذب من عذب ، واحلولى من حلا — ولم تورد كتب اللغة هذه الكلمة — .

(٣) يقال حذا النعل بالنعل : أى قطعها وقدرها على مثالها .

(٤) يعنى بها زينب بنت يوسف أخت الحجاج كما يدل عن ذلك رد الحجاج الآتى ، يريد أنها تشبه الروم فى لونها ، قال فى اللسان : « والحمراء : العجم لبياضهم ، ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم ، وكانت العرب تقول للعجم الذين يكون البياض غالبا على ألوانهم مثل الروم والفرس ومن صاقبهم (أى قاربهم) إنهم الحمراء ، والعرب إذا قالوا فلان أبيض وفلانة بيضاء فمعناه الكرم فى الأخلاق لا لون الخلقة : أى طاهر نقى من العيوب ، وإذا قالوا فلان أحمر وفلانة حمراء عنت بياض اللون ، والعرب تسمى الموالى الحمراء » وقال أيضا : « والعرب تقول امرأة حمراء أى بيضاء » وفى الحديث « خذوا شطر دينكم من الحميراء » يعنى عائشة ، كان يقول لها أحيانا « ياحميراء » تصغير الحمراء يريد البيضاء » .

(٥) هذه الجملة فى قوة أقسم بعلم الله أو بالله العليم .

(٦) أى قديما .

(٧) أى قصدتها بالتمزيق والانتهاك .

(٨) بذخ كفرح بذخا بالتحريك : تكبر وعلا .

(٩) الخزية بفتح الخاء وكسرها : البلية يوقع فيها .

٢٨٧ ـ رد الحجاج على سليمان

فكتب إليه الحجاج :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف إلى سليمان بن عبد الملك ، سلامٌ على من اتبع الهُدى ، أما بعدُ ، فإنك كتبتَ إليَّ تذكُرُ أنى امرؤ مهتوكٌ عنى حجابُ الحق ، مُولَعٌ بما علىَّ لا لى ، منصرفٌ عن منافعى ، تاركٌ لحظى ، مستخِفٌّ بحق الله وحقِّ وَلِيِّ الحق ، وتذكر أنك ذو مُصاوَلة[١] ، وَلَعَمْرى إنك لَصَبى حديثُ السِّن ، تُعْذَرُ بقِلة عقلِك ، وحَداثةِ سنك ، ويرقُبُ فيك غيرُك .

فأمّا كتابُك إلىّ ، فلَعَمرى لقد ضَعُف فيه عقلُك ، واستخفّ به حِلمُك ، فلِلهِ أبوكَ ! أفلاَ انتصرتَ بقضاء الله دون قضائك ، ورجاء الله دون رجائك ، وأَمَتَّ غيظَك ، وأَمِنْتَ عدوَّك ، وستَرْتَ عنه تدبيرك ، ولم تُنَبِّهْه فيلتمسَ مِنْ مُكايدتك ماتلتمسُ مِنْ مكايدته ! ولكنك لم تَشِفّ[٢] بالأمور علما ، ولم تُرْزَق من أمرك حَزْما ، جَمَعْت أموراً دَلَّاكَ فيها الشيطانُ على أسوإ أمرك ، فكان الجفاءُ من خَليقتك ، والحمق من طبيعتك ، وأقبل بك الشيطان وَأَدْبَرَ ، وحَدّثك أنك لن تكون كاملا حتى تتعاطى ما يَعِيبك ، فتحَذْلقتْ[٣] حَنجرَتك لقوله ، واتسع جوانبُها لكذبه .

وأما قولك : لو ملَّكك اللهُ لعلقّتَ زينبَ ابنة يوسف بثديها ، فأرجو أن يُكرمها الله بهَوانك ، وأن لا يوفِّق ذلك لك إن كان ذلك من رأيك ، مع أنى أعرفُ أنك كتبتَ إلىّ والشيطانُ بين كتفيك ، فشرُّ مُملٍ عليك على شر كاتبٍ راض بالخسف[٤] ، فأَحْرِ بالحمق أن لا يدلَّك على هدى ، ولا يردكَ إلاَّ إلى رَدًى ، وتحلَّب[٥]

---

(١) صاوله مصاولة وصيالا : واثبه .

(٢) شف : زاد (ونقص أيضا) .

(٣) تحذلق : أظهر الحذق وادعى أكثر مما عنده ، والمراد تابعت الشيطان وأطعته .

(٤) الخسف: الذل والضيم ، يريد أنه أذل نفسه لأنه خضع لسلطان الشيطان . (٥) أى سال .

فُوكَ للخلافَة ، فأنت شامخ البَصَر طامح النظر ، تظن أنك حين تَمْلِكها ، لا تنقطع عنك مُدَّتها ، إنها لَلُقْطَة[1] الله ، أسألُ الله أن يُلهِمَك فيها الشكرَ ، مع أنى أرجو أن ترغبَ فيما رَغِب فيه أبوك وأخوك ، فأكونَ لك مِثلى لهما ، وإنْ نفخَ الشيطان فى مَنْخَرَيك[2] فهو أمر أراده الله نزعَه عنك ، وإخراجَه إلى من هو أكملُ بهمنك ، ولعمرى إنها النصيحة ، فإن تقبَلْهَا فمِثلُها قُبِل ، وإن تردَّها علىَّ اقتطعتُها دونك ، وأنا الحجاج » . (العقد الفريد ٣ : ١٦)

٢٨٨ — كتاب الحجاج إلى سليمان

وروى الجاحظ فى البيان والتبيين قال :

قَدِمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استُخْلِفَ ، فأمرهم بشتم الحجاج فقاموا يشتِمُونه ، فقال بعضهم : « إنَّ عدوَّ الله الحجاج كان عبداً زَبَّاباً[3] ، قنوَّر

---

(١) اللقطة : اسم الشىء الذى تجده ملقى فتأخذه ، يعنى أنها تصير إلى الله .

(٢) بفتح الميم والخاء وبكسرهما وضمهما وكمجلس .

(٣) بائع زبيب ، قيل إنه كان يبيع الزبيب بالطائف ، وذكروا أنه كان أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه بالطائف — ويسمى كليبا — وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلك دائر ... وآخر كالقمر الأزهر

يشير إلى خبز المعلمين ، فإنه مختلف فى الصغر والكبر على قدر بيوت الصبيان ، ويقول آخر :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف ... كما كان عبدا من عبيد إياد
زمان هو العبد المقر بذله ... يروح صبيان القرى ويغادى

« راحهم وروحهم : ذهب إليهم رواحا » ثم صار دباغا ، كما يدل على ذلك هجاء كعب الأشقرى له. وذلك أن المهلب بن أبى صفرة لما أطال قتال الأزارقة ، كتب إليه الحجاج يستبطئه ويضعفه ويعجزه فقال المهلب لرسوله : قل له إن الشاهد يرى مالا يرى الغائب . . الخ (انظر ص ١٥١) وقام كعب الأشقرى، وكان من جند المهلب ، فأنشد بحضرة رسول الحجاج أبياتا منها :

إن ابن يوسف غره من غزوكم ... خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ... ضاقت عليه رحيبة الأقطار
ورأى معاودة الدباغ غنيمة ... أيام كان محالف الإقتار

فبلغت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كعب الأشقرى إليه ، فأعلم المهلب كعبا بذلك =

ابن قنوّر[٢] ، لا نسبَ له فى العرب ، قال سليمان : أىّ شتم هذا ؟ إن عدوّ الله الحجاج كتب إلىّ :

« إنما أنت نُقطة من مِداد ، فإن رأيتَ فىّ ما رأى أبوك وأخوك كنتُ لك كما كنتُ لهما ، وإلاّ فأنا الحجاج وأنت النقطة ، فإن شئتُ محوتُك ، وإن شئتُ أثبتُّك » .

فالعنوه لعنه الله ، فأقبل الناس يلعنونه ، فقام ابن أبى بُرْدة بن أبى موسى الأشعرىّ فقال : « يا أمير المؤمنين إنا نُخبرك عن عدوِّ اللهِ بِعلْمٍ » . قال : هاتِ : قال : « كان عدوّ الله يتزيَّن تزيُّنَ المُومِسَة[١] ، ويصعَد المِنْبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عَمِل عَمَل الفَراعنة ، وأكذَبُ فى حديثه من الدَّجّال » . فقال سليمان لرجاء بن حَيْوَة : « هذا وأبيك الشتمُ ، لا ما تأتى به السِّفْلة[٢] » . (البيان والتبيين ١ : ٢١١)

٢٨٩ — بين عمر بن عبد العزيز والوليد والحجاج

وقال الطبرى :

وفى سنة ٩٣ هـ عُزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة ، وكان سبب ذلك أن عمر كتب إلى الوليد يخبره بعَسْف[٣] الحجاج أهلَ عمله بالعِراق واعتدائه عليهم وظلمه لهم بغير حق ولا جناية ، وبلغ ذلك الحجاجَ فاضطغَنَه على عمر ، وكتب إلى الوليد : « إن

= وأوفده من ليلته إلى عبد الملك ، وكتب إليه يستوهبه منه ، فقدم كعب على عبد الملك ، فاستنشده فأعجبه ماسمع منه . فأوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقسم عليه أن يعفو عنه ، فلما دخل كعب على الحجاج قال : إيه يا كعب ! « ورأى معاودة الدباغ غنيمة » ! فقال : أيها الأمير ، والله لقد وددت فى بعض ماشاهدته فى تلك الحروب وأزماتها وما يوردناه المهلب من خطرها ، أن أنجو منها وأكون حجاما أو حائكا ، فقال له الحجاج : أولى لك ، لولا قسم أمير المؤمنين لما نفعك ما أسمع ، فالحق بصاحبك . وبعض الرواة ينكر هذا القول ويقول هذه من أكاذيب الشعراء — انظر الأغانى ج ١٣ ص ٥٧ ، وسرح العيون ص١١٢ ، والعقد الفريد ٣ : ٦ — . (٢) القنور : الشرس الصعب من كل شىء ، وكسنور : العبد .

(١) امرأة مومس وموسة : فاجرة مجاهرة بالفجور .

(٢) سفلة الناس بكسر فسكون أو بفتح فكسر : أسافلهم وغوغاؤهم .

(٣) العسف : الظلم .

مَن قِبَلي من مُرّاق[1] أهل العراق، وأهل الشقاق، قد جَلَوا عن العراق، ولجئوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وَهْن[2] ».

فكتب الوليد إلى الحجاج: أن أشِرْ عليّ برجلين، فكتب إليه يشير عليه بعثمان ابن حيّان وخالد بن عبد الله، فولى خالداً مكة، وعثمانَ المدينة، وعزل عمر بن عبد العزيز.

(تاريخ الطبرى ٨ : ٩٠)

٢٩٠ — كتاب الحجاج إلى الوليد

وروى أبو على القالى فى الأمالى قال:

لما حضرتِ الحجاجَ الوفاةُ وأيقن بالموت، قال: أسْنِدُونِي، وأذِن للناس فدخلوا عليه، فذكر الموتَ وكَرْبه، واللّحدَ ووَحْشتَه، والدنيا وزوالَها، والآخرةَ وأهوالَها، وكثرةَ ذنوبه، وأنشأ يقول:

إن ذنبى وَزْنُ السموات والأر ... ض، وظنّى بخالِقِى أن يُحابِي

فلئن مَنّ بالرضا فهو ظنّى ... ولئن مَرّ بالكتاب عذابى

لم يكن ذاك منه ظُلما، وهل يَظْـ ... ـلِمُ رَبٌّ يُرْجَى لُحسْن المآب؟

ثم بكى وبكى جلساؤه ثم أمر الكاتب أن يكتب إلى الوليد بن عبد الملك ابن مروان:

« أما بعدُ: فقد كنتُ أرعَى غنمَك، أحُوطها[3] حِياطة الناصح الشفيق برعيّة مولاه، فجاء الأسد فبَطَش بالراعى، ومزّق المَرْعِيَّ كُلَّ مُمَزَّق، وقد نزل بمولاك ما نزل بأيُّوبَ الصابر، وأرجو أن يكون الجبّار أراد بعبده غُفراناً لخطاياه، وتكفيراً لما حَمَل من ذنوبه، ثم كتب فى آخر الكتاب:

(١) المراق: جمع مارق، وهم الخارجون عن الطاعة.

(٢) الوهن ويحرك: الضعف.

(٣) أصونها وأحفظها.

إذا ما لَقِيتُ الله عَنِّىَ راضياً ... فإنّ شفـاءَ النفس فيما هنالكِ

فحسبى بقاء الله مِن كل ميت ... وحسبى حَياةُ الله من كل هالكِ

لقد ذاق هذا الموتَ مَن كان قبلنا ... ونحن نذوق الموتَ من بعد ذلكِ

فإنْ مُتُّ فاذكُرْنى بذكرٍ محبّبٍ ... فقد كان جَمًّا فى رضاك مَسالِكى

وإلّا ففى دُبْرِ الصلاة بدعوة ... يُلَقّى بها المسجونُ فى نار مالك

عليك سلامُ الله حيا وميتا ... ومن بعد ما تَحيَا عتيقاً لمالِكِ

وكانت وفاته سنة ٩٥ هـ . (ذيل الأمالى ص ١٧٤)

٢٩١ — كتاب الوليد إلى قتيبة بن مسلم

وكان الحجاج قد بعث جيشا من العراق فَقَدِموا على قتيبة سنة ٩٥ هـ ، فغزا ، فلما كان بالشّاش(١) أتاه موت الحجاج فى شوال ، فغمّه ذلك وقَفَل راجعاً إلى مَرْو ، وفرق الناس نخلّف فى بخارى قوما ، ووجه قوما إلى كِسَّ ونَسَف ، ثم أتى مرو فأقام بها ، وأتاه كتاب الوليد :

« قد عرَف أميرُ المؤمنين بَلاءَكَ وجِدَّك فى جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافِعُكَ وصانعٌ بك كالذى يجب لك ، فأتْمِمْ(٢) مَغَازِيَك ، وانتظر ثواب ربك ، ولا تغيِّبْ عن أمير المؤمنين كتبك ، حتى كأنى أنظر إلى بلادك والثَّغْرِ الذى أنت به » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٩٦)

٢٩٢ — كتاب عروة بن الزبير إلى الوليد

وقال كعب العَبسىُّ لعُرْوة بن الزبير ، قد أذنبتُ ذنبا إلى الوليد بن عبد الملك ، وليس يُزِيل غضبه شىء ، فاكتب لى إليه ، فكتب إليه :

---

(١) كورة وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك . (٢) أى اجمع .

بسم الله الرحمن الرحيم ، لو لم يكن لكعب من قديم حُرْمته ، ما يغفِرُ له عظيم جَرِيرته[1] ، لوجَبَ أن لا تحْرِمَه التَّفَيُّؤَ[2] بظلِّ عفوكَ الذى تأمله القلوبُ ، ولا تعلَق به الذنوبُ ، وقد استشفع بى إليك فوَثِقْت له منك بعفو لا يخالطه سُخْط ، فحقِّقْ أمله فىَّ ، وصدِّق ثقتى فيك ، تجد الشكر وافيا بالنعمة » . (مفتاح الأفكار ص ١٩٤)

٢٩٣ — رد الوليد على عروة

فكتب إليه الوليد :

« قد شكرتُ رغبتَه إليك ، وعفوتُ عنه لمُعَوَّله عليك ، وله عندى ما يُحبُّ . فلا تقطعْ كتبك عنى فى أمثاله ، وفى سائر أمورك » .

٢٩٤ — كتاب ملك الروم إلى الوليد ورد الفرزدق عليه

ولما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم :

« إنك هدمت الكنيسة التى رأى أبوك تركها ، فإن كان حقا ، فقد خالفت أباك ، وإن كان باطلا فقد أخطأ أبوك » .

فلم يدر ما يجيبه به ، فكتب إلى الكوفة والبصرة وسائر البلدان أن يجيبوه فلم يجبه أحد . فوثب الفرزدق ، فقال أنا أبو فِراس ـ أصلح الله الأمير ـ قد رأيت رأيا فإن يلك حقا نخذه ، وإن يلك خطأً فمنّى ، قال الله عز وجل : « وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ[3] إِذْ نَفَشَتْ[4] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ[5] ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » فاستحسنه الوليد ، وكتب به إلى ملك الروم فلم يجبه .

(تهذيب تاريخ ابن عساكر ١ : ٢٠٢) .

---

(١) الجريرة : الجريمة . (٢) الفيء : ما كان شمسا فينسخه الظل ، وتفيأ فيه : تظلل .

(٣) أى فى الزرع ، وقيل فى كرم تدلت عناقيده .

(٤) أى انفلتت إليه ليلا فرعته بلا راع .

(٥) حكم داود لصاحب الحرث برقاب الغنم ، فقال سليمان : غير هذا أرفق بهما ، فأمر بدفع الغنم إلى أهل الحرث فينتفعون بألبانها وصوفها ونسلها والحرث إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود كما كان يترادان .

٢٩٥ — كتاب الوليد إلى أخيه سليمان

وروى أن الوليد بن عبد الملك اشتكى ، وَبَلَغَه قَوَارِصُ وتَقْرِيضٌ[١] من أخيه سليمان بن عبد الملك ، وتَمَنٍّ لموته لما له من العهد بعده ، فكتب إليه يَعْتِب عليه ، وفى آخر كتابه :

تَمَنَّى رجالٌ أنْ أَمُوتَ ، وإنْ أَمُتْ ... فتلك طريقٌ لستُ فيها بِأَوْحَدِ

وقد عَلِموا (لو ينفعُ العِلْمُ عندهم) ... لَئِنْ مُتُّ ما الداعى علىَّ بِمُخْلَدِ

مَنِيَّتُه تَجْرِى لوَقْتٍ وحَتفُهُ ... سَيَلْحَقُهُ يَوْمًا على غَيْرِ مَوْعِدِ

فقل للذى يَبْغِى خِلَافَ الذى مَضى ... تَهَيَّأْ لِأُخرى مِثْلِهَا فَكأَنْ قَدِ[٢]

٢٩٦ — رد سليمان على الوليد

فكتب إليه سليمان :

« قد فَهِمْت ما كَتَبَ به أميرُ المؤمنين ، فوالله لئن كنتُ تمنيتُ ذلك تَأميلاً لما يَخطُرُ فى النفس ، إنى لَأَوَّلُ لاحقٍ به ، وأولُ مَنْعِيٍّ إلى أهله ، فعَلام أتمنَّى مالا يَلْبَث مَن تَمَنَّاه إلا رَيْثما يَحُلُّ السَّفْرُ[٣] بمنزل ، ثم يَظْعَنون عنه ، وقد بلغ أميرَ المؤمنين مالم يظهر على لسانى ، ولم يُرَ فى وجهى ، ومتى سمع أمير المؤمنين من أهل

---

(١) القوارص من الكلام : التى تنغصك وتؤلمك ، والتقريض : الذم (والمدح أيضا ، ضد) .

(٢) ورواية مروج الذهب : وكتب فى كتابه هذه الأبيات :

تمنى رجال أن أموت ، وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

لعل الذى يرجو فنائى ويدعى ... به قبل موتى أن يكون هو الردى

فما موت من قد مات قبلى بضائرى ... ولا عيش من قد عاش بعدى بمخلدى

فقل للذى يرجو خلاف الذى مضى ... تزود لأخرى غيرها فكأن قد

منيته تجرى لوقت ، وحتفه ... سيلحقه يوما على غير موعد

(٣) السفر : جماعة المسافرين . ويظعنون : يرتحلون .

النميمة ، ومن لاَ رويَّةَ له ، أسرع ذاك فى فساد النيّات ، والقطعِ بين ذوى الأرحام والقرابات ، وكتب فى آخر كتابه :

وَمَنْ لا يغمِّضْ عينَه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يَمُت وهو عاتِبُ
ومن يتتَبعْ جاهِداً كُلّ عَثْرةٍ ... يَجدْها ، ولا يسْلَمْ له الدهرَ صاحِبُ

٢٩٧ — رد الوليد على سليمان

فكتب إليه الوليد :

« قد فهم أمير المؤمنين كتابك ، فما أحسنَ ما اعتذرتَ به ، وحَذَوْتَ عليه ، وأنت الصادق فى المقال ، الكامل فى الفعال ، وما شىء أشبهَ بك من اعتذارك ، وما شىء أبعدَ منك من الذى قيل فيك ، والسلام » .

« وقد روى أن هذا العَتْبَ كان بين يزيد بن عبد الملك ، وبين أخيه هشام كما سيجىء بعد » .

(ذيل الأمالى ص ٢٢٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٥٦)

خلافة سليمان بن عبد الملك

من سنة ٩٦ إلى سنة ٩٩

٢٩٨ – كتاب سليمان بن عبد الملك إلى عامله بالأردن

لما ولى سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامله بالأُرْدُنّ[(١)] :

« اجمع يدَىْ عَدِىّ بن الرِّقَاع[(٢)] إلى عُنُقه ، وابعث به إلىّ على قَتَب[(٣)] بلا وِطَاء ، ووكِّلْ به مَنْ يَنْخُس به » .

ففعل ذلك ، فلما انتهى إلى سليمان بن عبد الملك أُلقِى بين يديه إلقاءً لا رُوحَ فيه ، فتركه حتى ارتدّ إليه روحه ، ثم قال له : أنت أهل لما نزل بك ، ألست القائل فى الوليد :

مَعاذَ رَبِّىَ أَنْ نَبْقَى ونَفْقِدَه ... وأن نكون لراعٍ بعده تَبَعا

قال : لا واللهِ يا أمير المؤمنين ، ما هكذا قلت ، وإنما قلت :

معاذ ربىَ أن نبقَى ونَفقِدهم ... وأن نكون لراعٍ بعدهم تَبَعا

فنظر إليه سليمان واستضحك ، وأمر له بصلة وخلَّى سبيله .

(العقد الفريد ١ : ١٥٢)

---

(١) كورة بالشأم . (٢) هو عدى بن زيد بن مالك بن عدى بن الرقاع (ونسبه الناس إلى الرقاع وهو جد جده لشهرته) وكان شاعرا مقدما عند بنى أمية مداحا لهم خاصا بالوليد بن عبد الملك — انظر ترجمته فى الأغانى ج ٨ : ص ١٧٢ ، والشعر والشعراء ص ١٤٥ — .

(٣) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير . والوطاء ككتاب وسحاب : خلاف الغطاء .

٢٩٩ — كتب من قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك

روى الطبرى قال :

كان الوليد بن عبد الملك أراد أن يجعل ابنه عبد العزيز بن الوليد ولىَّ عهده ، ودَسَّ فى ذلك إلى القُوّاد والشعراء ، فبايعه على خَلْع سليمان الحجاجُ وقتيبةُ[1] ، ثم هلك الوليد وقام سليمان ، فخافه قتيبة وأشفق منه ، لأنه كان يسعى فى بَيْعة عبد العزيز بن الوليد مع الحجاج ، وخاف أن يُوَلِّىَ سليمانُ يَزيدَ بن المهلب خراسانَ .

فكتب إلى سليمان كتاباً : يهنئه بالخلافة ويعزّيه على الوليد ، ويُعْلِمه بَلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد ، وأنه له على مِثْل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يَعْزِله عن خراسان :

وكتب إليه كتاباً آخر : يُعلمه فيه فُتُوحَه ونِكايتَه وعِظَمَ قدره عند ملوك العجم ، وهَيْبَته فى صدورهم ، وعظم صوته فيهم ، ويذم المهلَّبَ وآل المهلب ، ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان لَيخلعَنّه .

وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه

وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من باهلة ، وقال له : ادفع إليه هذا الكتاب ، فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأه ثم ألقاه إليه ، فادفع إليه هذا الكتاب ، فإن قرأه وألقاه إلى يزيد ، فادفع إليه هذا الكتاب ، فإن قرأ الأول ولم يدفعه إلى يزيد فاحْتَبِس الكتابين الآخرين .

فقدِم رسول قتيبة فدخل على سليمان وعنده يزيدُ بن المهلب ، فدفع إليه الكتاب ،

---

(١) وروى الطبرى فى موضع آخر قال : كان الوليد وسليمان ولىي عهد عبد الملك فلما أفضى الأمر إلى الوليد أراد أن يبايع لابنه عبد العزيز ويخلع سليمان ، فأبى سليمان فأراده على أن يجعله له من بعده فأبى ، فعرض عليه أموالا كثيرة فأبى ، فكتب إلى عماله أن يبايعوا لعبد العزيز ، ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه أحد إلا الحجاج وقتيبة وخواص من الناس (ج ٨ : ص ٩٩) .

فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد ، فدفع إليه كتاباً آخر فقرأه ثم رمى به إلى يزيد،فأعطاه الكتاب الثالث فقرأه فتمعّر[1] لونُه ثم دعا بِطِين فختمه ثم أمسكه بيده .

وروى رواية أخرى قال :

كان فى الكتاب الأول وَقِيعةٌ فى يزيد بن المهلّب وذكر عذره وكفره وقلة شكره ، وكان فى الثانى ثناء على يزيد ، وفى الثالث : « لئن لم تقرّنى على ما كنتُ عليه وتؤمّنّى لأخلعنّك خلْعَ النّعْل ، ولأملأنّها عليك خيلا ورجالاً » :

وأضاف سليمان رسول قتيبة ثم دعا به فأعطاه صُرّةفيها دنانير فقال : هذه جائزتك، وهذا عهد صاحبك على خراسان فسِرْ ، وهذا رسولى معك بعهده ، وبعث معه رجلاً من عبد القيس ، فلما كان بحُلوان تلقّاهم الناسُ بخلع قتيبة لسليمان ، فرجع العَبدىّ ودفع العهد إلى رسول قتيبة وقد خَلَع واضطرب الأمر فدفع إليه عهده ، فاستشار إخوته فقالوا : لايثق بك سليمان بعد هذا ، فخلع سليمانَ ودعا الناس إلى خامه وكانت فتنة قتل فيها قتيبة (سنة ٩٦) . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠٢)

رواية أخرى

ويروى أنه لما بلغ قتيبة بن مسلم أن سليمان بن عبد الملك يريد عزله عن خراسان ، كتب إليه ثلاث صحائف ، وقال للرسول : ادفع إليه هذه ، فإن دفعها إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه هذه ، فإن شتمنى فادفع إليه الثالثة ، فلما سار الرسول إليه دفع له الكتاب الأول وإذا فيه :

« يا أميرَ المؤمنين إن من بلائى فى طاعة أبيك وأخيك كَيْتَ وكيت ... » فدفعه إلى يزيد ، فدفع إليه الرسول الكتاب الثانى ، وفيه يقول :

---

(١) تمعر وجهه: تغير غيظا .

« عجباً كيف تأمَنُ ابن رَحْمَة على أسرارك ، ولم يكن أبوه يأمنه على أمّهات أولاده!
— يعنى يزيد بن المهلب — » .

فشتم قتيبة ، وناول الكتاب ليزيد ، فدفع إليه الثالث ، وفيه :

« من قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد
فوالله لأوثِّقَنَّ لك آخِيَّةً[١] لا يَنْزِعها المُهْرُ الأَرِنُ[٢] » .

فقال سليمان: «عجِلنا على قتيبة ، جدِّدوا له عهداً على عمله ، ثم فسدت على قتيبة
بطانتُه فقتلوه فى خلافة سليمان » . (العقد الفريد ٢ : ٢٧٥ ، وسرح العيون ص ١٢٨)

٣٠٠ — كتاب يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك

واستعمل سليمانُ بن عبد الملك يزيدَ بن المهلب على العراق ، ثم ولّاه سنة ٩٧ هـ خُراسان :
وفى سنة ٩٨ فتح يزيد جُرْجانَ وطَبَرِسْتان ، وكتب بالفتح إلى سليمان
ابن عبد الملك :

« أما بعدُ ، فإن الله قد فتَح لأمير المؤمنين فتحاً عظيماً ، وصَنَع للمسلمين أحسن
الصُّنع ، فلِربنا الحمدُ على نِعَمه وإحسانه ، أظهرَ فى خلافة أمير المؤمنين على جُرْجان
وطَبَرِسْتان ، وقد أعْيا ذلك سابورَ ذا الأكتاف وكِسْرَى بن قُباذ وكسرى بن هُرْمُز ،
وأعيا الفاروقَ عمرَ بن الخطاب وعثمانَ بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله، حتى فتح اللهُ
ذلك لأمير المؤمنين ، كرامةً من الله له ، وزيادةً فى نعمه عليه ، وقد صار عندى من
خُمْس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كلٍّ ذى حقٍّ حقُّه من الفَيْء والغنيمة
ستةُ آلاف ألفٍ ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله[٣] » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٢٥)

---

(١) الآخية كآنية وتشدد: عروة تربط إلى وتد وتشد فيها الدابة.

(٢) أرن كفرح : نشط ، فهو أرن وأرون .

(٣) وقد قال له كاتبه المغيرة بن أبى قرة مولى بنى سدوس : « لا تكتب بتسمية مال ، فإنك من ذلك بين أمرين: إما استكثره فأمرك بحمله : وإما سخت نفسه لك به فسوغكه ، فتكلفت الهدية ، =

٣٠١ — ما قاضى عليه سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير

ولما فرغ موسى بن نُصير هو ومَوْلاه طارق بن زياد من فتح بلاد الأندلس ، قَدِم موسى إلى دِمَشقَ يحمل إلى الوليد ما أحرزه من الغنائم والأسلاب النفيسة ، وكان ذلك قُبيل وفاة الوَليد ، فوَجَد عليه سليمانُ بن عبد الملك ، وأفضَتْ إليه الخلافة فبعث إلى موسى وعذّبه ، ثم قاضاه على مال يفتدى به نفسه وخلَّى سبيله(١) ، وكانت نسخة القضية :

« هذا ما قاضَى عليه عبدُ الله سليمانُ أميرُ المؤمنين موسى بن نصير ، قاضاه على

= فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله ، فكأنى بك قد استغرقت ما سميت ولم يقع منه موقعا ، ويبقى المال الذى سميت مخلدا عندهم عليك فى دواوينهم ، فإن ولى وال بعده أخذك به ، وإن ولى من يتحامل عليك لم يرض منك بأضعافه ، فلا تمض كتابك ، ولكن اكتب بالفتح وسله القدوم ، فتشافهه بما أحببت مشافهة وتقصر ، فإنك إن تقصر عما أحببت أحرى من أن تكثر » فأبى يزيد وأمضى الكتاب .

وقد صدق حدس المغيرة ، فإن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة — وكان يبغض يزيد وأهل بيته ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم — دعا يزيد وسأله عن تلك الأموال التى كتب بها إلى سليمان ابن عبد الملك فقال : كنت من سليمان بالمكان الذى رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به (والتسميع : إزالة الخمول بنشر الذكر) وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى بشىء سمعت به ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجد فى أمرك إلا حبسك ، فاتق الله وأد ما قبلك ، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها ، وأمر به فحبس .

(١) وذلك أن موسى بن نصير قدم على الوليد وهو فى آخر شكايته التى توفى منها ، وكان سليمان بن عبد الملك بعث إلى موسى من لقيه فى الطريق قبل قدومه على الوليد يأمره بالتثبط فى مسيره وألا يعجل ، فإن الوليد بآخر رمقه ، فلما أتى موسى بالكتاب من سليمان وقرأه قال : حييت والله ما غدرت ، والله لا تربصت ولا تأخرت ولا تعجلت ، ولكنى أسير بسيرى فإن أوافه حيا لم أتخلف عنه . وإن عجلت منيته فأمره إلى الله ، فرجع الرسول إلى سليمان فأعلمه ، فقال : لئن ظفرت بموسى لأصلبنه أو لآتين على نفسه . وكان الوليد لما بلغه قدوم موسى واقترابه منه ، وجه إليه كتابا يأمره بالعجلة فى مسيره ، خوف أن تعجل به منيته قبل قدوم موسى عليه ، وإرادة أن يحرم سليمان ما جاء به ، وأقبل موسى حتى دخل على الوليد ، وقدم إليه الطرائف التى اجتلبها معه ، ولم يلبث الوليد أن مات وصارت الخلافة إلى سليمان ، فبعث إلى موسى فشتمه وتوعده وأقامه فى الشمس فى يوم صائف شديد الحر وكان كبير السن بادنا ، وكانت به نسمة (والنسمة محركة : الربو) فلما أصابه حر الشمس وأتعبه الوقوف هاجت به ، فارتفع نفسه وعظم بهره (والبهر بالضم : انقطاع النفس من الإعياء) وتصبب عرقه ، فما زال كذلك حتى سقط مغشيا عليه ، فكلمه عمر بن عبد العزيز فيه ، وضمه إليه يزيد بن المهلب ، وقاضاه سليمان على مال يدفعه إليه وخلى سبيله .

أربعة آلاف ألفِ دينار وثلاثين ألف دينار وخمسين ديناراً ، ذهبا طيِّبةً يؤدِّيها إلى أمير المؤمنين ، وقد قَبَضَ منها أميرُ المؤمنين مائة ألف ، وَبَقِي على موسى سائِرُ ذلك ، أجَّلَه أميرُ المؤمنين إلى سَيْرِ رَسول أمير المؤمنين إلى ابن موسى الذى بالأندلس ، يمكُثُ شهراً بالأندلس — وليس له أن يمكُثَ وراء ذلك يوما واحداً — حتى يُقْبِلَ راجعا بالمال ، إلا ما كان من إفريقِيَّة وما دونها ، وليس لموسى أن يتكثَّرَ بشىء ، مما كان عليه من العمل ، منذ استخلفَ الله أميرَ المؤمنين من ذِمَّة أو فىء أو أمانة ، فهو لأمير المؤمنين يأخذه ويقتضيه ، ولا يحسُبُهُ موسى من غَرَامته، فإن أدَّى موسى الذى سَمَّى أمير المؤمنين فى كتابه هذا من المال ، إلى ماقد سَمَّى أمير المؤمنين من الأَجَل ، فقد بَرِئَ موسى وبنوه وأهله ومواليه ، وليست عليهم تَبِعةٌ ولا طِلْبةٌ[1] فى المال ولا فى العمل ، يَقَرُّون حيث شاءوا ، وما كان قَبَضَ موسى أو بنوه من عمال موسى ، إلى قدوم رسول أمير المؤمنين إفريقيةَ ، فهو من الذى على موسى من المال ، يُحْسَب له من الذى عليه ، مالم يُقْبَض قبل وصول رسول أمير المؤمنين ، فليس منه فى شىء ، وقد خلَّى أميرُ المؤمنين بين موسى وبين أهله ومواليه ، ليس له ظُلْم أحدٍ منهم ، غير أن أمير المؤمنين لا يدفع إليه طارقا مولاه ، ولا شيئا من الذى قد أباه عليه أول يوم » .

شَهِد أيوب ابن أمير المؤمنين وداود ابن أمير المؤمنين وعمر بن عبد العزيز ، وعبد العزيز بن الوليد ، وسعيد بن خالد ، ويعيش بن سلامة ، وخالد بن الرَّيَّان ، وعمر ابن عبد الله ، ويحيى بن سعيد ، وعبد الله بن سعيد .

وكتبه جعفر بن عثمان فى جمادى سنة تسع وتسعين .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٦٦)

---

(١) أى مطالبة .

٣٠٢ — كتاب سليمان بن عبد الملك إلى نفر بإفريقية

وأقام موسى بن نصير مع سليمان بن عبد الملك يطلب رضاه حتى رضى عنه ، وآبنُهُ عبدُ الله بن موسى على إفريقيَّة وَطَنجَة والسُّوس ، وابنُهُ عبد العزيز على الأندلس ، فلما بلغ عبدَ العزيز الذى فعل سليمان بأبيه موسى، تكلَّمَ بكلام خفيف، حَمَلَتْهُ عليه حَمِيَّةٌ لِمَا صَنَع بأبيه ، على حُسْن بَلائه ، فنُميت [١] إلى سليمان ، فخاف سليمانُ أن يخلع .

فكتب إلى حبيب بن عبيد وابن وَعْلة التميمى وسعد بن عثمان بن ياسر وعمرو ابن زياد الْيَحْصِبِىّ وعمرو بن كثير وعمرو بن شُرَحْبيل ، كتب إلى كل رجل منهم كتابا : يُعْلمه بالذى بلغه عن عبد العزيز بن موسى وما همَّ به من الخلع ، وأنه قد كتب إلى عبد الله بن موسى يأمره بإشخاصهم إلى عبد العزيز ، وأعلمَهَ أنه إنما دعاه إلى ذلك الذى أحبَّ من مكانفتهم [٢] له ، لأنه بإزاء العدو ، وأعطاهم العهودَ أنَّ من قَتَلَه منهم فهو أميرٌ مكانه .

وكتب إليهم : « إنى قد بعثتُ لكم بكتاب إلى أهل الأندلس بالسمع والطاعة لكم وَالْعُذْر فى قتله ، فإذا وَلَّاكم أطرافه فأقرُّوا عهدى على مَنْ قِبَلكم من المسلمين ، ثم ارجعوا إليه حتى تقتلوه » .

٣٠٣ — كتاب سليمان إلى عبد الله بن موسى بن نصير

وكتب إلى عبد الله بن موسى :

« إنى نظرتُ ، فإذا عبدُ العزيز بإزاء عدوّ يحتاج فيه إلى الْغَنَاء [٣] وَالْبَلاء ، فسألَ أمير المؤمنين ، فَأُخْبِرَ أن معك رجالا منهم فلان وفلان ، فأَشْخِصهم إلى عبد العزيز ابن موسى .

---

(١) نمى الحديث ونماه : رفعه . (٢) المكانفة: المؤازرة والمعاونة .

(٣) الغناء : الكفاية .

٣٠٤ — كتاب سليمان إلى عبد العزيز بن موسى بن نصير

وكتب إلى عبد العزيز بن موسى :

« أما بعد فإن أمير المؤمنين عَلِم ما أنت بسبيله من العدوّ ، وحاجَتَك إلى الرجال أهل النِّكاية وَالْغَناء ، فَذُكِرَ له أنّ بإفريقية رجالا منهم ، فكتب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن موسى يأمره بإشخاصهم إليك ، فولِّهم أطرافك وثغورك ، واجعلهم أهل خاصتك » .

وأنفذ هؤلاء النفر ما أمرهم به سليمان ، فقتلوا عبد العزيز بن موسى وجاءوا إليه برأسه[١] . (الإمامة والسياسة ٢ : ٦٨)

٣٠٥ — كتاب عمر بن عبد العزيز الوراق إلى أبي بكر بن حزم

روى القالى فى الأمالى عن العُتْبِيِّ قال : كتب عمر بن عبد العزيز الورّاق رحمه الله

(١) لما قدم كتاب سليمان على عبد الله بن موسى بإفريقية أشخص القوم ، فخرجوا حتى قدموا على عبد العزيز بالأندلس بكتاب سليمان فى إلطافهم وإكرامهم ، فقربهم عبد العزيز وأكرمهم وحباهم ، وقال لهم : اختاروا أى نواحى وثغورى شئتم ، فضربوا الرأى فقالوا : إنكم إن فعلتم ما أنتم فاعلون ثم رجعتم إليه من أطرافه ، لم تأمنوا أن يميل معه عظم الناس ، ولكن أعملوا رأيكم فى الفتك به ، فأتوا عبد الله ابن عبد الرحمن الغافقى وكان سيد أهل الأندلس صلاحا وفضلا ، فأعلموه ثم أقرءوه كتاب سليمان . فقال لهم : لقد علمتم يد موسى عند جميعكم صغيركم وكبيركم ، وإنما بلغ أمير المؤمنين أمر كذب عليه فيه ، والرجل لم ينزع يدا من الطاعة ولم يخالف فيستوجب القتل ، وأنتم ترون وأمير المؤمنين لا يرى ، فأطيعونى ودعوا هذا الأمر ، فأبوا ومضوا على رأيهم . فأجمعوا على قتله وقتلوه وهو يصلى صلاة الصبح ، وأصبح الناس فأعظموا ذلك ، فأخرجوا كتاب سليمان بذلك ، فلم يقبله أهل الأندلس وولوا عليهم عبد الله بن عبد الرحمن الغافقى .

ولما ظن سليمان أن القوم قد دخلوا الأندلس وفعلوا ما كتب به إليهم ، عزل عبد الله بن موسى عن إفريقية وطنجة والسوس فى آخر سنة ٩٨ ، وأقبل هؤلاء حتى قدموا على سليمان برأس عبد العزيز ، ثم إن سليمان كشف عن أمر عبد العزيز ، فألفى ذلك باطلا ، وأن عبد العزيز لم يزل صحيح الطاعة مستقيم الطريقة ، فلما تحقق عنده باطل ما رفع إليه عنه ندم ، وأمر بالوفد فأخرجوا ، ولم ينظر فى شىء من حوائجهم ، وأهدر عن موسى بقية القضية التى كان قاضاه عليها .

إلى أبى بكر بن حَزْم[١] : « إن الطالِبين الذين أنجحُوا[٢] ، والتُّجَّارَ الذين ربحوا ، هم الذين اشترَوا الباقى الذى يدوم، بالفانى المذموم. فاغْتَبَطوا ببَيْعهم، وَأَحْمَدوا عاقبةَ أمرهم، فاللهَ اللهَ وبدنُكَ صحيح، وقلبُك مُرِيح[٣] ، قبل أن تنقضىَ أيامُك ، وينزلَ بك حِمَامُك فإن العيش الذى أنت فيه يتقلّصُ ظِلُّه ، ويفارقهُ أهله ، فالسعيدُ الموفَّقُ من أكل فى عاجله قَصْداً ، وقدَّم ليوم فقره ذُخْراً ، وخرج من الدنيا محموداً ، قد انقطع عنه عِلاجُ أمورها ، وصار إلى الجنة وسرورها » . (الأمالى ٢ : ١٨٧)

٣٠٦ — عهد سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز بالخلافة

وعَهِد سليمان بن عبد الملك بالخلافة من بعده إلى عمر بن عبد العزيز ، ثم إلى يزيد ابن عبد الملك ، وكتب بذلك كتابا بيده ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر ابن عبد العزيز ، إنى قد وليته الخلافة من بعدى ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ولا تختلِفوا فَيُطْمَعَ فيكم » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٤٨ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ١٢٩)

صورة أخرى

وروى ابن قتيبة هذا العهد بصورة أخرى ، وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عَهِدَ به عبدُ الله سليمانُ بن عبد الملك أميرُ المؤمنين وخليفةُ المسلمين ، عَهِد أنه يَشْهد لله عز وجَلَّ بالرُّبُوبيّة والْوَحْدَانية ، وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، بعثه إلى مُحْسِنِى عباده بَشيرا، وإلى مُذْنِبِيهم

(١) هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ، ولى المدينة من سنة ٩٦ إلى سنة ١٠٠ فى خلافة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز — انظر تاريخ الطبرى الجزء الثامن ، حوادث السنين من ٩٦ إلى ١٠٠ ، وصبح الأعشى ج ٤ : ص ٢٩٦ — .

(٢) أنجح الرجل : صار ذا نجح بالضم . (٣) أى ذو راحة .

نَذِيرا ، وأن الجنة والنار مخلوقتان حقًّا ، خَلَقَ الجنةَ رحمة لمن أطاعه ، والنارَ عذاباً لمن عصاه ، وأوجَبَ العفو جُوداً و كَرَماً لمن عفا عنه ، وَأَنَّ سليمان مُقِرٌّ على نفسه بما يَعْلَمُ اللهُ من ذنوبه ، وبما تعلَمه نفسهُ من معصية ربه ، مُوجِباً على نفسه استحقاق ما خَلَق من النقمة ، راجيا لنفسه ما خلق من الرحمة ، وَوَعد من العفو والمَغْفِرَة ، وأن المقاديرَ كُلَّها خيرها وشرَّها من الله[١] . وأنه هو الهادى ، لم يستطع أحد لمن خَلَق اللهُ لرحمته غَوايةً ، ولا لمن خَلَق لعَذابه هِدَايةً ، وأن الفتنة فى القبور بالسؤال عن دينه ونبيه الذى أرسِلَ إلى أمَّته ، لا مَنْجَى لمن خرج من الدنيا إلى الآخرة من هذه المسألة إلا لمن استثناه عز وجل فى علمه . وسليمانُ يسأل الله الكريم بواسع فضله ، وعظيم مَنِّه ، الثبات على الحق عند تلك المسألة ، والنجاةَ من هول تلك الفِتنة[٢] ، وَأَنَّ الميزان حق يَقين ، يضع المَوَازِينَ القِسْطَ[٣] ليوم القيامة ، فمَن ثَقُلَتْ مَوازِينُه فأُولئك هم المُفلِحون ، ومن خَفَّتْ موازينُه فأولئك هم الخاسرون ، وأنَّ حوض محمد صلى الله عليه وسلم يوم المحشَر والموقِف للعَرْض حق ، وأن عدد آنيته[٤] كنجوم السماء ، من شَرِب منه لم يظمَأْ أبداً ، وسليمان يسأل الله بواسع رحمتِه أنْ لا يَرُدَّه عن حوض نبيه عطشانَ ، وأن أبا بكر وعُمَرَ خير هذه الأمة بعد نبينا صلى الله عليه وسلم ، والله يَعلم بعدهما حيثُ الخيرُ وفيمن الخير من هذه الأمة ، وأن هذه الشهادة كلَّها المذكورةَ فى عهده هذا ، يعلَمُها الله من سِرِّهِ وإعلانه وعَقْدِ ضميره ، وأنه بها عبَدَ رَبَّه فى سالف أيامه وماضى عُمره ، وعليها أتاه يقينُ ربه ، وتوفَّاه أجلُه ، وعليها يُبْعَثُ بعد الموت إن شاء الله ، وأن سليمان كانت له بين هذه الشهادة

---

(١) وفى صبح الأعشى : « وأن المقادير كلها خيرها وشرها مقدورة بإرادته ، مكونة بتكوينه ، وأنه الهـادى ، فلا مغوى ولا مضل لمن هداه وخلقه لرحمته ، وأنه يفتن الميت فى قبره . . . » .

(٢) وفى صبح الأعشى : « الثبات على ما أسر وأعلن من معرفة حقه وحق نبيه عند مسألة رسله والنجاة من هول فتنة فتانيه ، وبشهد أن الميزان يوم القيامة حق يقين ، يزن سيئات المسيئين ، وحسنات المحسنين ، ليرى عبادة من عظيم قدرته ما أراده من الخير لعباده بمـا لم يكونوا يحتسبون ، وأن من ثقلت موازينه . . . » .

(٣) القسط : العدل ، مصدر وصف به للمبالغة .

(٤) الآنية والأوانى : جمع إناء .

بلايا وسيئات لم يكن له عنها مَحِيص[1] ولا دونها مُقَصَّر بالقَدَر السابق ، والعلم النافذ في مُحْكَمِ الوحى ، فإن يعفُ ويصفَح فذلك ما عُرِف منه قديما ، ونسب إليه حديثاً ، وتلك صفته التى وصفَ بها نفسه فى كتابه الصادق ، وكلامه الناطق ، وإن يعاقِبْ وينتقِم ، فبما قدَّمت يداه ، وما اللهُ بظَلَّامٍ للعبيد ، وأنى أُحرِّجُ[2] على من قرأ عهدى هذا وسَمِع مافيه من حكمة أن ينتهى إليه فى أمره ونهيِه ، بالله العظيم ، وبمحمد رسوله الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، وأن يَدَع الإِحَن المُضْغِنة[3] ويأخذ بالمكارم المُدْجِنَه[4] ويرفع يديه إلى السماء بالابتهال الصحيح ، والدعاء الصَّرِيح[5] ، يسأله العفو عنى والمغفرة لى والنجاة من فزعى والمسألة فى قبرى ، لعلّ الوَدُودَ أن يجعل منكم مُجابَ الدعوة بما علَىَّ من صَفْحه يعود ، إن شاء الله .

وأن ولىَّ عهدى فيكم وصاحبَ أمرى بعد موتى فى جندِى ورعيتى وخاصّتى وعامّتى وكلِّ مَنْ استخلفنى الله عليهِ واسترعانى النظرَ فيهِ الرجلُ الصالحُ عمر بن عبد العزيز ابن عمى لِمَا بلوتُ مِنْ باطن أمره وظاهره ، ورجوتُ الله بذلك ، وأردتُ رضاه ورحمته إنْ شاء الله ، ثم ليزيد بن عبد الملك مِنْ بعده ، فإنى ما رأيتُ منه إلا خيراً ، ولا اطَّلعتُ له على مكروه ، وصِغارُ ولدى وكبارهم إلى عمر ، إذ رجوتُ أَلَّا يأْلُوَهم رشداً وصلاحا ، والله خليفتى عليهم وعلى جماعة المؤمنين والمسلمين ، وهو أرحم الراحمين ، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله ، ومن أَبَى عَهْدِى هذا وخالف أمرى فالسيف ، ورجوت أن لا يخالفه أحد ، ومن خالفه فهو ضالٌّ مُضِلٌّ يُسْتَعْتَب[6] ، فإن أَعتبَ وإلّا فالسيف ، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله القديم الإحسان » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٨٠ ، وصبح الأعشى ٩ : ٣٦٠)

---

(١) فى صبح الأعشى : « لم يكن له عنها محيد ولا بد ، جرى بها المقدور من الرب ، النافذ إلى إتمام ماجد ، فإن يعف . . . » .

(٢) التحريج : التضييق .

(٣) الإحن : جمع إحنة ، وهى الحقد والمضغنة : المسببة للضغينة .

(٤) المدجنة : أى الثابتة الملازمة ، من أدجن إذا أقام فى بيته ولزمه .

(٥) وفى صبح الأعشى : « ويرفع يديه إلى الله بالضمير النصوح ، والدعاء الصحيح . والصفح الصريح . . . » .

(٦) أى تطلب إليه العتبى (كحبلى) وهى الرجوع عن الذنب والإساءة ، وأعتبنى فلان : ترك ما كنت أجد عليه من أجله ، ورجع إلى ما أرضانى عنه بعد إسخاطه إياى عليه .

خلافة عمر بن عبد العزيز

(سنة ٩٩ — ١٠١)

٣٠٧ — كتاب عدى بن أرطاة والى البصرة إلى عمر بن عبد العزيز

كتب عَدِىّ بن أرْطاة والى البصرة إلى عمر بن عبد العزيز :

«من عَدِى بن أرطاة ، أما بعدُ — أصلح اللهُ أمير المؤمنين — فإن قِبَلى أُناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالًا عظيما ، لستُ أرجو استخراجَه من أيديهم إلّا أن أَمَسّهم بشىء من العذاب ، فإن رَأَى أمير المؤمنين — أصلحه الله — أن يأذن لى فى ذلك أفعل[1] » .

٣٠٨ — رد عمر على كتابه

فأجابه عمر :

« أما بعدُ : فالعجبُ كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب بَشَر ، كأنّى لك جُنَّةٌ من عذاب الله ، وكأن رضاى عنك يُنجيك من سخط الله عز وجل[2] ، فانظر من قامت عليه بيِّنَةٌ عُدول فخُذه بما قامت عليه به البيِّنة ، ومن أقرَّ لك بشىء فخذه

(١) وفى كتاب الخراج : « أما بعد ، فإن أناسا قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمسهم شىء من العذاب » .

(٢) وفى كتاب الخراج بعد ذلك : « إذا أتاك كتابى هذا فمن أعطاك ما قبله عفوا وإلا فأحلفه فو الله لأن يلقوا الله . . . الخ » .

بما أقرّ به ، ومن أنكر فاستحلِفْه بالله العظيم وخلّ سبيله ، وايمُ الله لأن يلقَوا الله عز وجل بخياناتهم أحبُّ إلىَّ من أن ألقى الله بدمائهم والسلام » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨٣ ، وكتاب الخراج لأبى يوسف ص١٤٣)

٣٠٩- كتاب عدى بن أرطاة إليه

وكتب إليه عدى بن أرطاة :

يا أمير المؤمنين : إنى بأرض قد كَثُرت فيها النِّعَم ، حتى لقد أشفقْتُ على مَنْ قِبلى من المسلمين قلّةَ الشكر والضعف عنه » .

٣١٠ - رد عمر على كتابه

فكتب إليه عمر .

« إنى قد كنتُ أراكَ أعلمَ بالله ، إن الله لم يُنْعِم على عبد نعمةً فحمِدَ اللهَ عليها إلا كان حَمْدُه أفضلَ من نِعَمه ، لو كنتَ لاتعرفُ ذلك إلا فى كتاب الله المنزل ، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » . وقال الله تعالى : « وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » .

وأىُّ نعمة أفضل من دخول الجنة ؟ .

وفى رواية العقد :

فكتب إليه عمر رضى الله عنه :

« إن الله تعالى لم يُنْعم على قوم نعمةً فحمِدوه عليها إلا كان ما أعطَوه أكثر

مما أخذوه منه ، واعتبِرْ ذلك بقول الله تعالى : ولقد آتينا داود . . . . الآية » فأيُّ نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان ؟ » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص : ٢٣٧ ، والعقد الفريد ١ : ٨٥)

٣١١ — كتاب عدى بن أرطاة إليه

وكتب إليه عَدِىّ بن أَرْطاة :

« أما بعدُ : فإن الناس قد كثُروا فى الإسلام ، وخِفْتُ أن يقلّ الخراج » .

٣١٢ — رد عمر على كتابه

فكتب إليه عمر :

« فهِمتُ كتابك ، واُللهِ لَوَدِدْتُ أن الناس كلهم أسلموا حتى نكونَ أنا وأنت حَرَّاثَيْن نأكُل من كَسْب أيدينا » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٩)

٣١٣ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة :

« أما بعد : فاسأل الحسن بن أبى الحسن[1] : مامَنَعَ مَنْ قَبلنا من الأئمة أن يَحُولوا بين المَجُوس وبين ما يجمعون من النساء اللاتى لم يَجْمَعْهُنّ أحد من أهل المِلَل غيرهم » .

فسأل عدىٌّ الحسن ، فأخبره أن رسول اُلله صلى الله عليه وسلم قد قَبِل من مَجُوس أهل البحرين الجِزيةَ ، وأقرّهم على مجوسيتهم ، وعاملُ رسول اللّه صلى اُلله عليه وسلم العلاء بن الحَضْرَمى ، ثم أقرّهم أبو بكر ، ثم أقرّهم عمر بعد أبى بكر ، وأقرهم عثمان بعد عمر .

(كتاب الخراج ص ١٥٦)

---

(١) هو الحسن البصرى .

٣١٤ - كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة .

« أما بعدُ : فإنه بلغنى أن قوما إذا توضَّئوا رُفِعَتْ طِسَاس[1] من بين أيديهم قبل أن تمتلئْ ، وذلك من زِيِّ[2] الأعاجم أخذوه ، فإذا أتاك كتابى هذا ، فلا ترفعوا طَسْتا حتى يمتلئْ أو يُفْرَغ من آخر القوم » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨٧)

٣١٥ - كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إلى عدى بن أرطاة :

« أما بعدُ ، فإنى كتبتُ إليك بكتب كثيرة أرجو بذلك الخيرَ من الله تعالى والثوابَ عليه ، وأنهاك فيها عن أمور الحجاج بن يوسف ، وأرغَب عنها ، وعن اقتدائك بها ، فإن الحجاج كان بَلاَء وافَق خطيئةَ قومٍ بأعمالهم ، فبلغ الله عز وجل فى مدته ما أَحَبَّ من ذلك ، ثم انقطع ذلك وأقبلَتْ عافيةُ الله عزّ وجل ، فلو لم يكن ذلك إلا يوما واحداً أو جُمعةً واحدة ، كان ذلك عطاء من الله عز وجل ، ونهيْتُك عن فعله فى الصلاة ، فإنه كان يؤخرها تأخيرًا لا يَحِلُّ له ، ونهيتُك عن فعله فى الزكاة ، فإنه كان يأخذها من غير حَقِّها ، ثم يسىء مَواقعَها ، فاجتنِبْ ذلك منه ؛ واحذر العمل به فإن الله عزّ وجل قد أراح منه ، وطَهّر العباد والبلاد من شره ، والسلام » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨٨)

---

(١) يقال : طست وطس وطسة ، والأخير بفتح الطاء وكسرها والجمع طسوس وطساس وطسيس وطسات . (٢) الزى : الهيئة .

٣١٦ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« بلغنى أنك تستَنُّ بسُنَن الحجاج ، فلا تستَنَّ بسُنَنِه . فإنه كان يصلِّى الصلاة لغير وقتها ، ويأخذ الزكاة بغير حقها ، وكان لِمَا سوى ذلك أضيع » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨٨)

٣١٧ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« أما بعد : فإنى كُنتُ كتبتُ إلى عمرو بن عبد الله أن يقسِّم ما وَجَد بعُمانَ من عُشُور التمر والحَبِّ فى فقراء أهلها ، ومَن سَقَط إليها من أهل البادية ، ومن أضافَتْهُ إليها الحاجةُ والمَسْكَنَةُ وانقطاعُ السبيل ، فكتَبَ إلَىَّ أنه سأل عامِلَك قَبْلَه عن ذلك الطعام والتمر ، فذكر أنه قد باعه وحَمَل إليك ثمنه ، فارْدُدْ إلى عمرو ما كان حَمَل إليك عامِلُك على عُمانَ من ثمن التمر والحب ليضعه فى المواضع التى أمرْتُه بها ، ويصرِفه فيها إن شاء الله ، والسلام » .

(فتوح البلدان للبلاذرى ص ٨٥)

٣١٨ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« أما بعدُ : فإذا أتاك كتابى هذا فاستَتِب القَدَرية[١] مما دخلوا فيه ، فإن تابوا فخَلِّ سبيلهم ، وإلاَّ فانفِهم من ديار المسلمين » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص٦٨)

---

(١) القدرية : فرقة تنكر القدر ، وتغالى فى إثبات القدرة للإنسان ، وأول زعمائها معبد بن خالد الجهنى ، وكان ممن يجالس الحسن البصرى ، فسمم من يتعللون فى المعصية بالقدر ، فقام بالرد عليهم ، نافياً أن يكون القدر سالباً للاختيار فى أفعال العباد ، وتطرف فى الدفاع حتى قال عبارته المعروفة : « لا قدر والأمر أنف » بضمتين : أى يستأنف استئنافا من غير سابقة قضاء وقدر فسميت جماعته بالقدرية ، ولما بلغ ابن عمر تبرأ منه ومن أصحابه ، وقد قتله الحجاج لخروجه مع ابن الأشعث ، وقيل قتله لزندقته .

٣١٩ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« واعلم أن أحداً لا يستطيع إنفاذ قضايا ما بين الناس حتى لا يَبْقَى منها شىء ، لابُدَّ أن تستأخِرَ قضايا ليوم الحساب » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٩٤)

٣٢٠ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« أما بعدُ ، فإنى أذكِّرك ليلةً تَمَخَّضُ بالساعة ، فصباحُها القيامةُ ، فيالها من ليلةٍ ! وَيَالَه من صباحٍ كان على الكافرين عسيراً ! » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠٢)

٣٢١ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وجاء فى سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى :

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله :

« أما بعدُ ، فإذا دَعَتْك قدرتُك على الناس إلى ظلمهم ، فاذكُرْ قدرةَ الله عليك فى نَفادِ مَا تأتِى إليهم ، وبقاءِ ما يُؤتَى إليك » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠١)

وفى خبر آخر :

« أما بعدُ ، فإذا أمكنَتْك القدرةُ من ظلم العباد ، فاذكر قدرة الله عليك ، وذهاب ما تأتِى إليهم ، واعلم أنك ما تأتِى إليهم أمراً إلا كان زائِلا عنهم باقياً عليك ، وأن الله تعالى يأخذ للمظلوم من الظالم ، فمهما ظلمْتَ من أحد فلا تظلِمَنَّ مَن لا ينتصر عليك إلا بالله عزّ وجلّ » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٦)

وفى صبح الأعشى ، والعقد الفريد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى ابن أرطاة :

« أما بعدُ ، فإذا أمكنَتْك القدرةُ على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك ، واعلم أن مالك عند الله مثلُ ما لِلرَّعيَّة عندك » .

(صبح الأعشى ٦ : ٣٩١ ، والعقد الفريد ١ : ١٤)

وفى رواية أخرى للعقد :

« إذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق القادر عليك ، واعلم أن مالَك عند الله أكثر مما لك عند الناس » . (العقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

٣٢٢ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« أما بعدُ ، فإن الدنيا عَدوَّة أولياء الله ، أما أولياء الله فغَمَّتْهُمْ ، وأما أعداء الله فغرَّتهم » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص٢٢٢)

٣٢٣ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« أما بعدُ : فإنك غرَّرتنى بعمامتك السوداء ، ومجالستك القُرَّاء ، وإرسالك العمامةَ من ورائك ، وإنك أظهرتَ لى الخيرَ فأحسنتُ بك الظنَّ ، وقد أظهر اللهُ ما كنتم تكتمون ، والسلام » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠١)

٣٢٤ — كتابه إلى عدى بن أرطاة

وكتب إليه :

« أما بعدُ : فإنك لن تزالَ تُعنِّى[١] إلىَّ رجلا من المسلمين فى الحر والبرد يسألنى عن السُّنَّة ، كأنك إنما تُعظِمنى بذلك ، وايمُ اللهِ لحَسْبُك بالحَسَن[٢] ، فإذا أتاك كتابى هذا فسَلِ الحَسَن لى ولك وللمسلمين ، فرَحِم الله الحسن فإنه من الإسلام بمنزلٍ ومكان ولا تقرِئنَّه كتابى هذا » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠١)

٣٢٥ — كتابه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن والى الكوفة

ويروى أن بِلال بن أبى بُرْدة[٣] وَفَد على عمر بن عبد العزيز بخُناصِرَةَ ، فسَدِكَ[٤] بسارِيَةٍ من المسجد ، فجعل يصلِّى إليها ويُدِيم الصلاة ، فقال عمر بن عبد العزيز للعَلاء ابن المُغيرة بن البُنْدارِ : إن يكن سِرُّه هذا كعَلاَنِيَتِه ، فهو رجلُ أهلِ العراق غيرَ مُدافَعٍ ، فقال العَلاء : أنا آتيكَ بخَبَره ، فأتاه وهو يصلى بين المغرب والعِشاء ، فقال : اشفَعْ[٥] صلاتَك ، فإن لى إليك حاجةً ففعلَ ، فقال له العلاء : قد عرَفتَ حالى من أمير المؤمنين ، فإن أنا أشَرْتُ بك على ولاية العراق فما تجعَلُ لى ؟ قال : لك عُمالَتِى[٦] سَنَةً — وكان مبلغها عشرين ألفَ ألفِ درهم — قال : فاكتب لى بذلك ، فارقَدَّ[٧] بلالٌ إلى منزله ، فأتى بِدَواة وصحيفة ، فكتب له بذلك ، فأتى العلاءُ عُمَرَ بالكتاب ، فلما رآه كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرَّحمن بن زيد بن الخطاب — وكان والى الكوفة — :

---

(١) عناه : أتعبه . (٢) يعنى الحسن البصرى .

(٣) هو بلال بن أبى بردة عامر بن أبى موسى الأشعرى .

(٤) سدك به : لزمه ، والسارية . الأسطوانة من حجارة أو آجر وجمعها السوارى .

(٥) أى اجعلها شفعاً : أى ركعتين لا أربعاً والمراد خفف صلاتك وعجل .

(٦) العمالة مثلثة العين : أجر العامل . (٧) ارقد : أسرع .

« أما بعدُ : فإن بِلالاً غرَّنا بالله ، فَكِدْنا نغترّ ، فسبَكْناه فوجدناه خَبَثاً[١] كُلَّه ، والسلام » .

ويروى أنه كتب إلى عبد الحميد : « إذا ورد عليك كتابى هذا فلا تستعِنْ على عملك بأحدٍ من آلِ أبى موسى » . (الكامل للمبرد ١ : ٢١٧)

٣٢٦ — كتابه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن :

« كتبتَ إلىَّ تسألنى عن أناس من أهل الحِيرة ، يُسْلِمون من اليهود والنصارى والمجوس ، وعليهم جزية عظيمة ، وتستأذننى فى أخذ الجزية منهم ، وإن الله جَلَّ ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً إلى الإسلام ، ولم يبعثه جابياً ، فمن أسلم من أهل تلك المِلَل فعليه فى ماله الصَّدَقة ، ولا جزية عليه ، وميراثُه لذوى رَحِمه إذا كان منهم ، يتوارثون كما يتوارث أهل الإسلام ، وإن لم يكن له وارث فميراثه فى بيت مال المسلمين الذى يُقْسَم بين المسلمين ، وما أحدث من حدث ففى مال الله الذى يقسم بين المسلمين يُعْقَل[٢] عنه منه ، والسلام » . (كتاب الخراج ص ١٥٧)

٣٢٧ — كتابه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الحميد :

سلام عليك ، أما بعدُ : فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاءٌ وشِدَّة وجَوْرٌ فى أحكام الله وسننٌ خبيثة استنّها عليهم عُمَّال السوء ، وإنّ قِوام الدين العدل والإحسان ، فلا يكونن شىء أهم إليك من نفسك أن توطِّنها لطاعة الله ، فإنه لا قليلَ من الإثم ،

---

(١) خبث الحديد وغيره : ما نفاه الكير .

(٢) عقل عنه : أدى جنايته ، وعقل القتيل : وداه ، أى دفع ديته .

ولا تحمِلْ خَرابًا على عامر ، ولا عامرًا على خَراب ، وانظر الخَرابَ فإن أطاق شيئًا فخذ منه ما أطاق ، وأصْلِحْه حتى يَعْمُرَ[١] ، ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج ، في رِفْق وتسكينٍ لأهل الأرض ، ولا تأخُذَنَّ في الخراج إلا وزن سبعةٍ[٢] ليس فيها تِبْرٌ[٣] ولا أجورُ الضَّرَّابين ، ولا إذابة الفِضّة ، ولا هدية النيروز والمِهْرجان[٤] ، ولا ثمن الصُّحُف ، ولا أجور الفُيوج[٥] ، ولا أجور البيوت ، ولا دراهم النكاح ، ولا خراجَ على من أسلم من أهل الأرض ، فاتَّبِـع في ذلك أمري ، فإني قد ولَّيتك من ذلك ما ولَّاني اللهُ ، ولا تعجَلْ دوني بقطع ولا صَلْبٍ حتى تراجِعَني فيه ، وانظر من أراد من الذرِّيّة أن يحُجّ فعجِّلْ له مائة يحجّ بها والسلام .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٩ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٩٤ ، وكتاب الخراج ص١٠٢)

---

(١) عمر المكان كنصر وكرم وسمع .

(٢) وذلك أن الدراهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانت مختلفة،فمنها ما كان وزن عشرة دراهم منه على وزن عشرة مثاقيل ، ومنها ماوزن العشرة منه على وزن ستة مثاقيل ، ومنها ما وزن العشرة منه على وزن خمسة مثاقيل ، فاختلف أصحاب الأموال وعمال بيت المال ، فأراد الأولون أن يؤدوها من النوع الثالث، وأبى الآخرون أن يأخذوها إلا من النوع الأول، فجمع عمر رضى الله عنه الأنواع الثلاثة وأخذ ثلثها فكان سبعة ، فصار المعتبر من ذلك الوقت أن وزن عشرة دراهم سبعة مثاقيل فى كل المقدرات الشرعية، حتى فى الزكاة ونصاب السرقة والمهر وتقدير الديات ،منعا للخصومة فى المعاملة ـ انظر حاشية ابن عابدين على الدرج ٢: ص ٢٨ وشرح العناية على الهداية،وشرح فتح القدير ج١:ص٥٢١ وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٧١ .

(٣) فى الطبرى «ليس لها آيين» وهو تحريف، والصواب « تبر » كما فى كتاب الخراج لأبى يوسف وذلك لأن التبر أخف وزنا ، وأما الآيين فهو العادة . جاء فى شفاء الغليل ص ١٦ : الآيين ، العادة ، وأصل معناه السياسة المسيرة بين فرقة عظيمة ، أعجمى عربه المولدون . قال مهيار :

يجمع الخريت حولا أمره … وهو لم يأخذ لها آيينها

(راجع ديوان مهيار الديلمى ج ٤ : ص ١٣٢ ، والخريت كسكير: الدليل الحاذق ، والضمير فى لها يعود على «وفلاة» فى بيت سابق)وفى الكشاف فى قصة سليمان فى سورة النمل: أنه أشير على الإسكندر بالبيات فقال : ليس من آيين الملوك استراق الظفر ـ انظر ج ٢ : ص ١٤٧ .

(٤) النيروز : اسم أول يوم من السنة،وهو عند الفرس عند نزول الشمس أول الحمل،وعند القبط أول توت ، معرب نوروز أى اليوم الجديد ، والمهرجان : عيد للفرس عند نزول الشمس أول الميزان وهى مركبة من كلمتين : مهر ، وجان . ومعناها محبة الروح .

(٥) الفيوج جمع فيج بالفتح ، وهو رسول السلطان الذى يسعى بالكتب .

٣٢٨ — كتاب عبد الحميد بن عبد الرحمن إليه

وكتب عبد الحميد بن عبد الرحمن إلى عمر :

« إن رجلاً شتمك فأردتُ أن أقتله »

٣٢٩ — رد عمر عليه

فكتب إليه :

« لو قتلته لأَقَدْتُك[١] به ، فإنه لا يُقتل أحد يشتم أحداً إلا رجل شتم نبيًّا » .

(العقدالفريد ٢ : ٢٧٩)

٣٣٠ — كتابه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن

وروى صاحب العقد أيضاً قال :

وكان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن عامله على المدينة فى المظالم فيرادُّه فيها ، فكتب إليه :

« إنه يخيل لى أنى لو كتبتُ لك أن تُعطى رجلا شاةً[٢] لكتبتَ إلىَّ : أذكر أم أنثى ؟ ولو كتبت إليك بأحدهما ، لكتبت إلىَّ : أصغيرة أم كبيرة ؟ ولو كتبت بأحدهما ، لكتبت : أضائنة أم مِعْزى؟ فإذا كتبتُ إليك فنفِّذ ولا تردَّ علىَّ، والسلام »

(العقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

٣٣١ - كتابه إلى صالح بن عبد الرحمن وصاحبه

وكتب صالح بن عبد الرحمن[٣] وصاحبٌ له — وكانا قد ولاَّهما عمر شيئاً من أمر العراق — يَعْرِضان له أن الناس لا يُصْلِحُهُمْ إلا السيفُ ، فكتب إليهما :

---

(١) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به . (٢) الشاة الواحدة من الغنم للذكر والأنثى، أو يكون من الضأن والمعز والظباء والبقر والنعام وحمر الوحش ، والمرأة أيضاً .

(٣) هو مولى بنى تميم ، وكان على خراج العراق فى خلافة سليمان بن عبد الملك.

« خبيثَين من الخَبثِ[1] ، رديئين من الرَّدِىء ، تعرّضان لى بدماء المسلمين !
ما أحدٌ من الناس إلا ودماؤكما أهونُ علىَّ من دمه » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٠٩)

٣٣٢ — كتابه إلى ابن أبى الفرات

وقال مبشّر أو يزيد بن أبى الفُراتِ : كنت عاملا لعمر بن عبد العزيز ، فكنت أختِم على بَيَادِرِ[2] أهل الذّمة ، فجاءنى كتاب عمر بن عبد العزيز أن : « لا تفعل ، فإنه بلغنى أنها كانت من صنائع الحجاج ، وأنا أكرَه أن أتأسّى[3] به » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٨٠)

٣٣٣ — كتابه إلى ميمون بن مهران عامله بالجزيرة

واستعمل عمر بن عبد العزيز ميمون بن مِهْران على الجزيرة — على قضائها وعلى خَرَاجِها — فكتب إليه ميمون يستعفيه وقال : كَلَّفتَنى مالا أُطيق ، أَقْضِى بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق ! فكتب إليه :

« اجْبِ الخراجَ الطيِّب ، واقضِ بما استبانَ لك من الحق ، فإذا التبس عليك أمر فارفَعْه إلىّ ، فإن الناس لو كانوا إذا ثقُل عليهم أمرٌ تركوه ، ما قام لهم دين ولا دنيا » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٩ ، وكتاب الخراج ص ١٣٧)

وفى خبر آخر أن ميمون بن مهران كتب إليه يستعفيه من الخراج فكتب إليه عمر :

« يابن مِهْران ، إنى لم أكلِّفك بَغيا فى حكمك ولا فى جبايتك ، فاجْبِ ما جَبَيْتَ من الحلال ، ولا تجمع للمسلمين إلا الحلال الطيِّب » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٥)

---

(١) خبث الحديد وغيره : ما نفاه الكير .

(٢) بيادر جمع بيدر كصيرف ، وهو الموضع الذى تداس فيه الحبوب . (٣) أى أقتدى .

٣٣٤ — كتابه إلى أمير الجزيرة

وكتب إلى أمير الجزيرة ، فكان فيما كتب إليه :

« وكن لما ولاَّكَ الله أمرَه ناصحاً فيما تَنِيب عليهم من أمورهم ، ساتِراً لما استطعت من عَوْراتهم ، إلا شيئاً أبداه الله لا يصلح سَتْرُه ، وتُمْسِك نفسَك عنهم إذا غضبت وإذا رضيت ، حتى يكون ذلك فيما بينك وبينهم مستويا حسناً جميلا ، لا تبتغيَنَّ لِحقِّ أدَّيتَه إليهم ولا لخير سَدَّدتهم له ، منهم حظا ولا مِدْحة ، وليكن ذاك لمن لا يُعطِى الخيرَ إلا هو ، ولا يصرفُ السوءَ إلا هو ، واغتنِمْ كل يوم وليلة مَضَتْ عليك وأنت سالم » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٨)

٣٣٥ — كتابه إلى أمير الجزيرة

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أمير الجزيرة :

« أما بعدُ ، فإن ناسا من الناس قد التمسوا بعملِ الآخرة الدنيا ، وإنما مَصِيرهم ومَرْجِعهم إلى الله بعد الموت ، وقد بلغنى أن ناسا من القُصَّاصِ قد أحدثوا الصلاة على أمرائهم عِدْلَ[1] ما يصلُّون على النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاءك كتابى هذا فَمُر القُصَّاصَ فَلْيَجْعلوا صلاتهم على النبى صلى الله عليه وسلم خاصَّةً ، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامَّة ، ولْيَدَعُوا ما سِوَى ذلك ، والسلام » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٣٦)

٣٣٦ — كتابه إلى يحيى بن يحيى عامله بالموصل

عن يحيى بن يحيى الغَسَّانى قال :

لما ولاَّنى عمر بن عبد العزيز المَوْصِلَ ، قَدِمْتُها فوجدتها من أكثر البلاد سَرَقًا ونَقْبًا ، فكتبتُ إلى عمر أُعْلِمه حال البلد ، وأسأله آخُذُ الناس بالظِّنَّة وأضربهم على

---

(١) العدل : المثل والنظير .

التُّهَمَة ، أو آخُذُهم بالبيِّنة وما جرت عليه السُّنة ؟ فكتب إلىَّ أن : « خذ الناس بالبينة وما جرَت عليه السُّنَّة ، فإن لم يُصلِحْهُم الحقُّ فلا أَصْلَحَهم اللهُ » .

قال يحيي . ففعلت ذلك فما خرجتُ من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سَرَقا ونَقْبا . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٧)

٣٣٧ — كتابه إلى جماعة من الحرورية[1]

وقال يحيي بن يحيي الغَسَّانى أيضاً : بلغنى أن ناسا من الحَرُوريَّة جمعوا بناحية من المَوْصِل فكتبتُ إلى عمر بن عبد العزيز أُعْلِمه بذلك ، فكتب إلىَّ يأمرنى أنْ أرْسِلْ إلىّ منهم رجالا من أهل الجَدَل ، وأعطِهم رَهْناً وخذ منهم رهنا ، واحمِلهم على مراكب البريد إلىّ ، ففعلتُ ذلك ، فقدِموا عليه فلم يدع لهم حُجَّة إلا كسَرَها ، فقالوا . لسنا نُجيبُك حتى تكفِّر أهل بيتك وتلعنَهم وتتبرأ منهم ، فقال عمر : إن الله لم يجعلنى لَعَّانا ، ولكن إن أبقَ أنا وأنتم فسوف أَحمِلكم وإياهم على المَحَجَّة البيضاء ، فأبَوا أن يقبلوا ذلك منه ، فقال لهم عمر : إنه لايَسَعُكم فى دينكم إلا الصدق ، مُنْذُ كم دِنتُمْ الله بهذا الدين ؟ قالوا : منذ كذا وكذا سنةً ، قال : فهل لَعَنتم فِرعَوْنَ وتبرّأتم منه ؟ قالوا : لا ، قال : فكيف وَسِعكم تَرْكُه ؟ ألا يَسَعُنى تركُ أهل بيتى ، وقد كان فيهم المحسنُ والمسيء ، والمصيب والمخطئ ؟ قالوا : قد بلغنْا ما هاهنا ، فكتب إلىّ عمر أنْ خُذ مَنْ فى أيديهم من رهنك - يعنى ودع من فى يدك من رهنهم - وإن كان رأىُ القوم أن يَسيحوا فى البلاد على غير فساد على أهل الذِّمة ، ولا تناوُلِ أحدٍ من الأمة ، فليذهبُوا حيث شاءوا ، وإن هم تناولوا أحداً من المسلمين وأهل الذمة فحاكِمْهم إلى الله ، وكتب إليهم :

---

(١) الحرورية من أسماء الخوارج، سماهم بذلك الإمام على كرم الله وجهه، نسبة إلى حروراء - قرية بظاهر الكوفة - وكانوا قد نزلوها حين اعتزلوه بعد رجوعه من صفين .

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى العِصَابة الذين خرجوا ، أما بعدُ ، فإنى أحمَد إليكم الله الذى لا إله إلا هو أما بعدُ ، فإن الله يقول : أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » وإنى أذكِّرُكم الله أن تفعلوا كفعل كُبَرائكم « الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ[1] النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » أفبذَنبِي تخرجون من دينكم ، وتَسفِكون الدماء ، وتنتهكون المحارمَ ؟ ولو كانت ذنوبُ أبى بكر وعمر مُخرِجَةً رعيتَهما من دينهم كانت لهما ذنوب ، فقد كانت آباؤكم فى جماعتهم ، فلم يَنزِعُوا ، فما يَنزِعكم من المسلمين وأنتم بضعة وأربعون رجلا ؟ وإنى أقسم لكم بالله لو كنتم أبكارِى من ولدى فولَّيتم عما أدعوكم إليه من الحقِّ ، لدَفَقْتُ دماءكم ، ألتمس بذلك وَجهَ الله والدارَ الآخرة،فهذا النُّصحُ، فإن استغششتمونى فقديماً ما اسْتُغِشَّ الناصحون».

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٧٧)

٣٣٨ — كتابه إلى يحيي بن يحيي

فأبوا إلا القتال ، وحلَقوا رءوسهم ، وساروا إلى يحيي بن يحيي ، فأتاهم كتاب عُمَر ، ويحيي بن يحيي مُواقفهم للقتال .

« من عبد الله عُمَرَ أمير المؤمنين إلى يحيي بن يحيي :

أما بعدُ : فإنى ذكرتُ آية فى كتاب الله . « وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » . وإن من العُدوان قتلَ النساء والصبيان ، فلا تَقْتُلَنَّ امرأة ولا صبيا ، ولا تقتلن أسيراً ، ولا تطلُبن هاربا ، ولا تُجْهِزنّ على جريح إن شاء الله» .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٧٨)

---

(١) راءاه مراءاة ورئاءا : أراه خلاف ما هو عليه .

٣٣٩ — كتابه إلى أبى بكر بن حزم عامله بالمدينة

وكتب إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم ، عامله على المدينة :

« أمَّا بعدُ : فإنك كتبتَ إلى سليمان كُتُبا لم ينظُر فيها حتى قُبِض رَحِمَه الله ، وقد بُليتُ بجوابك فاسمعْ : كتبتَ إلى سليمان تذْكُر أنَّهُ يُقْطَع لعُمَّال المدينة من بيت مال المسلمين لِثَمَن شَمَعٍ[1] كانوا يستضيئون به حين يخرجُون إلى صلاة العِشاء وصلاة الفجر ، وتذكُر أنه قد نَفِدَ الذى كان يُستضاءُ به ، وتسأل أن يُقْطَع لك من ثمنه بمثل ما كان للعُمَّال ، وقد عَهِدْتُك وأنت تخرجُ من بيتك فى الليلة المُظْلِمة المَاطرة الوَحِلة بغير سِرَاج ، ولَعَمْرِى لأنت يومَئذٍ خيرٌ منك اليومَ والسلام » .

وفى رواية أخرى أنه كتب إليه :

« أما بعدُ فقد قرأتُ كتابك الذى كتبتَ به إلى سليمان بن عبد الملك ، وكنتُ المبتلَى بالنظر فيه دُونَه ، كتبتَ تسأله أن يقطعَ لك من الشَّمَع مِثلَ الذى كان يقطع لَمن قَبْلك وتذكر أن الشمع الذى قبلَك قد نفِدَ ، ولعمرى قد طالما رأيتُك تخرج من منزلك إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الليلة المظلمة الوَحِلة بغير ضِياء ، ولعمرى لأنت يَوْمَئذ خيرٌ منك اليوم ، والسلام عليك ، وكتبتَ تسأله أن يقطع لك شيئا من القراطيس مثل الذى كان يقطع لمن قبلك ، فأدِقَّ قلمك ، وَقَارِبْ بين سُطورك ، واجمع حوائجَك ، فإنى أكْرَهُ أن أُخْرِجَ من أموال المسلمين مالا ينتفعون به ، والسلام » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨١)

٣٤٠ — كتاب ابن حزم إليه

وكتب أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم إلى عمر بن عبد العزيز :

« سلام عليك ، أما بعدُ : فإن أشياخاً من الأنصار قد بلغوا أسْنانا ، ولم يبلغوا

(١) الشمع محركة وتسكين الميم مولد .

الشَّرَفَ من العَطاء ، فإنْ رَأى أميرُ المؤمنين أن يَبْلُغَ بهم الشرفَ من العطاء فليفعل » .

٣٤١ — كتاب ابن حزم إليه

وكتب إليه فى صحيفة أخرى :

« سلام عليك : أما بعدُ ، فإنَّ مَن كان قَبلى من أمراء المدينة يَجْرِى عليهم رزق من شَمَعه ، فإنْ رَأى أمير المؤمنين أن يأمر لى برزقٍ من شَمَعه فليفعل » .

٣٤٢ — كتاب ابن حزم إليه

وكتب إليه فى صحيفة أخرى :

« سلام عليك : أما بعدُ ، فإن بَنى عَدِىّ بن النّجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهدم مسجدهم ، فإنْ رَأى أمير المؤمنين أن يأمر لهم ببنائه فليفعل » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص٨٢)

٣٤٣ — رد عمر على كتب بن حزم

فأجابه عن هؤلاء الصحائف الثلاث بجواب واحد فى صحيفة واحدة :

« سلام عليك : أما بعدُ ، جاءنى كتابك تذكُر أن أشياخا من الأنصار قد بلغوا أسنانا ، ولم يبلغوا الشرف من العطاء ، وإنما الشرفُ شرفُ الآخرة فلا أعرِفنَّ ما كتبتَ به إلىَّ فى نحو هذا .

وجاءنى كتابك تذكُر أن من كان قَبْلَك من أمراء المدينة كان يَجْرِى عليهم رزق من شَمَعه ، ولعمرى يابن أُمِّ حَزْم لطالما مشيتَ إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الظُّلْمة ، لا يُمشَى بين يديك بالشَّمَع ، ولا يُوجِف[1] خلفَك أبناءُ المهاجرين والأنصار ، فارضَ لنفسك اليومَ ما كنت ترضَى به قبل اليوم .

---

(١) وجف الفرس والبعير : عدا ، وأوجفته : أعديته ،

وجاءنى كتابك تذكر أن بنى عدى بن النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهدم مسجدهم ، وقد كنت أحبُّ أنْ أخْرُجَ من الدنيا لم أضع حَجَراً على حجر ولا لَبِنة على لبنة ، فإذا أتاك كتابى هذا فابْنِه لهم بلَبِنٍ بناء قَصْداً[1] والسلام عليك » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨٣)

٣٤٤ — كتابه إلى ابن حزم

وكتب إلى أبى بكر بن حَزْم كتابا يقول فيه :

« إنى نظرتُ فى أمر « فَدَكَ[2] » فإذا هو لايَصْلُح ، فرأيتُ أن أردّها إلى

(١) القصد : ضد الإفراط كالاقتصاد .

(٢) فدك : قرية بخيبر فيها عين ونخل كثير ، بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سنة سبع صلحاً ، فكانت خالصة له ينفق ما يأتيه منها فى أبناء السبيل ، فلما قبض عليه الصلاة والسلام جاءت فاطمة رضى الله عنها أبا بكر رضى الله عنه تطلب ميراثها من أبيها ، وهو أرضه من فدك وسهمه من خيبر ، فقال لها أبو بكر : أما إنى سمعت رسول الله يقول : نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ما تركنا فهو صدقة ، إنما يأكل آل محمد من هذا المال ، وإنى والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته ، فهجرته فاطمة فلم تكلمه فى ذلك حتى ماتت ، وروى أنه قال لها سمعت رسول الله يقول: إنما هى طعمة أطعمنيها الله تعالى حياتى ، فإذا مت فهى بين المسلمين ، وروى أيضاً أنها قالت له : إن رسول الله جعل لى فدك فأعطنى إياها . وشهد لها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فسألها شاهدا آخر ، فشهدت لها أم أيمن مولاة رسول الله ، فقال : قد علمت يابنت رسول الله أنه لا يجوز إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين فانصرفت ، كما روى أيضاً أن فاطمة سألت أباها أن يهبها لها فأبى وقال: ما كان لك أن تسأليني وما كان لى أن أعطيك .

ثم أدى اجتهاد عمر بن الخطاب لما ولى الخلافة وفتحت الفتوح واتسعت على المسلمين أن يردها إلى ورثة رسول الله ، فكان على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب يتنازعان فيها ، فكان على يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلها فى حياته لفاطمة ، وكان العباس يأبى ذلك ويقول : هى ملك رسول الله وأنا وارثه ، فكانا يتخاصمان إلى عمر ، فيأبى أن يحكم بينهما ويقول : أنتما أعرف بشأنكما ، أما أنا فقد سلمتها إليكما ، وقيل إنه لما قبض عليه السلام فعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فى فدك مثل فعله من وضع ما يأتى منها فى أبناء السبيل .

فلما ولى معاوية ولى مروان بن الحكم المدينة ، فكتب إلى معاوية يطلب فدك ، فأقطعه إياها ، فكانت بيد مروان يبيع ثمرها كل سنة بعشرة آلاف درهم ، ثم نزع مروان فنزعها من يده ، فكانت بيد وكيله بالمدينة ، فلما ولى مروان المدينة المرة الأخيرة ، ردها عليه ، فأعطى ابنه عبد الملك نصفها وابنه عبد العزيز نصفها ، ثم صارت إلى الوليد وسليمان ابنى عبد الملك وإلى عمر بن عبد العزيز ، وطلب عمر إلى الوليد حصته فوهبها له ، وسأل سليمان حصته فوهبها له أيضاً . فاستجمعها عمر ، وولى الخلافة وما يقوم به وبعياله إلا هى =

ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان ، فاقبضها ووَلِّها رجلا يقوم فيها بالحق ، وسلام عليك » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١١٠)

٣٤٥ — كتابه إلى أمير مكة

وكتب إلى أمير مكة :

« لاتَدَعْ أهل مكة يأخذوا على بيوت مكة أجرا ، فإنه لايحلُّ لهم » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٤)

٣٤٦ — كتابه إلى عروة بن محمد عامله باليمن

وكتب إلى عُرْوة بن محمد عامله على اليمن :

« أما بعد ، فإنى أكتب إليك آمُركَ أن تردَّ على المسلمين مَظَالِمَهم ، وتراجعنى ، وأنت تعرِفُ بُعْدَ مسافةِ مابينى وبينك ، ولا تعرفُ أَخَذَاتِ الموتِ حتى لو كتبتُ

= تغل كل سنة عشرة آلاف أو أقل أو أكثر ، وما كان له مال أحب إليه منها ، فسأل عنها فأخبر بما كان من أمرها ، فخطب الناس وقص قصة فدك ثم قال : وإنى أشهدكم أنى قد رددتها إلى ما كانت عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وكتب إلى أبى بكر بن حزم الكتاب المذكور ، فكان يأخذ مالها فيخرجه فى أبناء السبيل .

وروى أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة يأمره برد فدك إلى ولد فاطمة رضى الله عنها ، فكانت فى أيديهم فى أيامه ، فلما ولى يزيد بن عبد الملك قبضها فلم تزل فى أيدى بنى أمية ، حتى ولى أبو العباس السفاح الخلافة ، فدفعها إلى الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فكان هو القيم عليها يفرقها فى بنى على بن أبى طالب ، فلما ولى المنصور وخرج عليه بنو لحسن قبضها عنهم ، فلما ولى المهدى الخلافة أعادها عليهم ، ثم قبضها منهم موسى الهادى ومن بعده إلى أيام المأمون ، فجاءه رسول بنى على بن أبى طالب فطالب بها فأمر أن يسجل لهم بها ، فكتب السجل وقرىء على المأمون فقام دعبل الشاعر فأنشد :

أصبح وجه الزمان قد ضحكا ‏ ‏ ‏ برد مأمون هاشم فدكا

فلما استخلف المتوكل ردها إلى ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » انظر معجم البلدان لياقوت الحموى ج ٦ : ص ٢٤٢ وتاريخ الطبرى ج ٣ : ص ٢٠٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١١٠ والعقد الفريد ج ٢ : ص ٢٧٩ وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٦ ، وفصلا طويلا فى شرح ابن أبى الحديد م ٤ من ص ٨٧ إلى ص ١٠٦ .

إليك : « اردُدْ على مسلم مَظْلِمَةً » لـكتبتَ إلىّ : أَرُدُّها عَفْرَاء[1] أو سوداء ؟ « انظر أن تردَّ على المسلمين مظالمهم ولا تراجعنى » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٧)

٣٤٧ـ كتابه إلى عامله باليمن

وبعث عمر بن عبد العزيز بآل أبى عَقيل ـ أهل بيت الحجَّاج ـ إلى صاحب اليمن وكتب إليه :

« أما بعدُ ، فإنى قد بعثتُ إليكم بآل أبى عَقيل ، وهم شَرُّ بيت فى العرب ، ففرِّقهم فى عملك على قَدْر هوانهم على الله ، وعلينا وعليك السلام » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص٩٠)

٣٤٨ـ كتاب وهب بن منبه إلى عمر

وكان وَهْب بن مُنَبِّه على بيت مال اليمن ، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز : « إنى فَقَدْتُ من بيت مال المسلمين ديناراً » .

٣٤٩ـ رد عمر على كتابه

فـكتب إليه :

« إنى لا أتَّهم دينك ولا أمانتك ، ولـكن أتَّهم تضييعك وتفريطك ، وأنا حَجِيجُ[2] المسلمين فى أموالهم ، ولِأَحَسهم عليك أن تحْلِفَ والسلام » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص٨٥)

---

(١) وصف من العفرة بالضم ، وهى بياض يعلوه حمرة .

(٢) أى القائم بحجتهم ، يقال : حاججته فأنا محاج وحجيج .

٣٥٠ — كتابه إلى والى حمص

وكتب إلى والى حِمْص :

« انظر إلى القوم الذين نَصَبوا أنفسهم للفِقْه ، وحبسوها فى المسجد عن طلب الدنيا ، فأعْطِ كلّ رجل منهم مائة دينار ، يستعينون بها على ماهم عليه، من بيت مال المسلمين ، حين يأتيك كتابى هذا ، وإن خَيْرَ الخير أَعْجَلُه ، والسلام عليك » .

وفى خبر آخر أنه كتب إليه أن : « مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يُغنيهم ، لئلا يَشْغَلَهم شيء عن تلاوة القرآن وما حَملوا من الأحاديث » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠٣)

٣٥١ — كتابه إلى عامله بإفريقية

وكتب إليه عامل إفريقية يشكو إليه الهَوامَّ والعقارب ، فكتب إليه :

« وما عَلَى أحدكم إذا أمسى وأصبح أن يقول ؟ : « وَمَا لَنَا أَنْ لَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٥)

٣٥٢ — كتابه إلى يزيد بن المهلب عامل خراسان

وكتب عمر بن عبد العزيز حين ولى الخلافة إلى يزيد بن المهلب :

« أما بعدُ ، فإن سليمان كان عبداً من عبيد الله ، أنعم الله عليه ، ثم قبضه واستخلفنى ، ويزيد بن عبد الملك من بعدى إن كان ، وإن الذى ولّانى الله من ذلك وقدّر لى ليس علىّ بهين ، ولو كانت رغبتى فى اتخاذ أزواج واعتقاد[١] أموال ، كان فى الذى أعطانى من ذلك ما قد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه ، وأنا أخاف فيما

---

(١) اعتقاد : اقتناء .

ابتليت به حساباً شديداً ومسألة غليظة ، إلا ما عافى الله ورحم ، وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك » .

فلما قدم الكتاب على يزيد بن المهلب ألقاه إلى أبى عيينة ، فلما قرأه قال : لستُ من عماله ، قال : ولِمَ ؟ قال ليس هذا كلام من مضى من أهل بيته ، وليس يريد أن يسلك مسلكهم ، فدعا الناس إلى البيعة فبايعوا ثم كتب عمر إلى يزيد : « استخلف على خراسان وأقبل » فاستخلف ابنه مخلداً » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٨)

٣٥٣ — كتاب الجراح بن عبد الله عامل خراسان إلى عمر بن عبد العزيز

وولّى عمر بن عبد العزيز الجرّاحَ بن عبدالله خُراسان كلَّها — حربَها وصلاتَها وما لَها — فلما قَدِمها كتب إلى عمر :

إنى قَدِمتُ خُراسانَ فوجدتُ قوماً قد أبطرَتهم الفتنةُ ، فهم يَنْزُون[1] فيها نَزْوا ، أحبُّ الأمور إليهم أن تعود ، ليمنعوا حقَّ الله عليهم ، فليس يكفُّهم إلا السَّيفُ والسَّوط ، وكَرِهت الإقدامَ على ذلك إلا بإذنك .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٤)

٣٥٤ — رد عمر عليه

فكتب إليه عمر :

« يابن أم الجراح : أنت أحْرَصُ على الفتنة منهم ، لا تضربَنَّ مؤمناً ولا معاهَدًا سوطًا إلا فى حقّ ، واحذَر القصاصَ ، فإنك صائرٌ إلى من يعلم خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ، وتقرأ كتابًا لا يُغادِرُ صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إلاّ أحصاها » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٤)

---

(١) نزا : وثب .

٣٥٥ - كتاب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بن عبد الله

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بن عبد الله :

إنه بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشًا أو سَرِيَّةً[1] ، قال : اغزُوا باسم الله ، وفى سبيل الله ، تقاتِلون مَن كَفَر بالله ، لاتَغُلُّوا[2] ولا تَغدِرُوا ولا تُمَثِّلُوا ولا تقتُلُوا امرأة ولا وَليداً » فإذا بَعثْتَ جَيْشاً أو سَرِيَّة فَمُرْهم بذلك .

(العقد الفريد ١ : ٤٠)

٣٥٦ - كتابه إلى الجراح

وكتب إلى الجرَّاح بن عبد الله :

« أما بعدُ ، فإنه بلغنى أنك كنت لِمَخْلَد بن يزيد بن المهلّب ولآل المهلّبِ أُمًّا فَرَشَتْ فأنامَت[3] » .

٣٥٧ - رد الجراح على كتابه

فكتب إليه الجراح :

« أما بعدُ ، يا أمير المؤمنين فإنك كتبت إلىَّ فى عهدك أَنْ لا أُوثِقَ أحداً من خلق الله وِثاقًا يمنعُ صلاة ، ولا أبسُط على أحد من خلق الله عذابًا ، فأنت يا أمير المؤمنين الأُمُّ التى فَرَشَتْ فأنامت ، لمخلد بن يزيد ولآل المهلب ولجميع رعيتك » .

فدعا مخلدا ، فقال : إن شئت أن تُقيم عندنا على حالك التى أنت عليها ، وإن شئت أن أُلحِقَك بأمير المؤمنين ، وَلا أَراه إلا خيرا لك ، قال : فألحِقْنى بأمير المؤمنين فدفعه إليه فأطلقه عمر بن عبد العزيز .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٦)

---

(١) السرية : من خمسة إلى ثلثمائة أو أربعمائة . (٢) غل كنصر وأغل : خان .

(٣) من أمثال العرب « أم فرشت فأنامت » وهو مثل يضرب فى بر الرجل بصاحبه .

٣٥٨ — كتابه إلى الجراح

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح :

« إنه بلغنى أنك قد استعملتَ عبد الله بن الأهتم ، وإن الله عزّ وجل لم يبارك لعبد الله ولا لأهل بيته فى العَمَل ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعزِله ، وإنه مع ذلك لَذُو قرابة لأمير المؤمنين ، وبلغنى أنك استعملت عُمَارة الطويل ، ولا حاجة لى بعُمارة ، ولا بضرب عمارة ، ولا برجل غَمَسَ يده فى دماء المسلمين ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعزِله ، وبلغنى أنك استعملت السَّيَال بن المُنْذِر ، وإنى لا أدرى ما سَيَالك هذا ؟ »

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٨٦ و ص ٩٦)

٣٥٩ — رد الجراح على كتابه

فكتب إليه الجراح :

« إنه جاءنى كتابك فى عبد الله ، وإنى استعملته يا أمير المؤمنين فأجْزَأَ[١] ثَغْرَه ، وهابَه عدوُّه ، وحمِده أهلُ عَمَله ، ولم يكن جزاؤه العزل ، وكتبتَ إلىّ فى عُمارة ، وإنه رجل قد شامّ[٢] الحرورية ، ثم رجع عن ذلك أحسنَ رجوع ، وتاب منه أحسن توبة » .

واعتذر إليه فى السَّيَال بعذر آخر فقبله . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٦)

٣٦٠ — كتابه إلى الجراح

وكتب عمر إلى الجراح :

« انظر من صَلَّى قِبلَك إلى القِبْلة فضع عنه الجزية » .

فسارع الناس إلى الإسلام ، فقيل للجراح : إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام ،

---

(١) أغناه وكفاه . (٢) أى قاربها ودنا منها .

وإنما فعلوا ذلك نفورا من الجزية ، فامتحِنْهم بالختان ، فكتب الجراح بذلك إلى عمر .

٣٦١ — كتابه إلى الجراح

فكتب إليه عمر :

« إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعيا ، ولم يبعثه خاتنا » .

وقال عمر : ابغُونى رجلا صَدُوقا أسأله عن خُراسان ، فقيل له : قد وجدتَه ، عليك بأبى مِجْلَز لاحق بن حُمَيد ، فكتب إلى الجراح أن : «أقبل واحمل أبا مجلز وخَلِّف على حرب خراسان عبد الرحمن بن نُعَيم الغامدىّ ، وعلى جزيتها عبد الله بن حبيب » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٤)

٣٦٢ — كتابه إلى أهل خراسان

فلما قَدِم الجراح عليه عزله عن خراسان ، وولّى عبد الرحمن بن نُعَيم الصلاة والحرب ، وولى عبد الرحمن القُشَيْرى الخراج ، وكتب إلى أهل خراسان :

« إنى استعملت عبد الرحمن بن نعيم على حربكم ، وعبد الرحمن بن عبد الله على خراجكم ، على غير معرفة منى بهما ولا اختيار ، إلا ما أُخبرت عنهما ، فإن كانا على ما تحبون فاحمدوا الله ، وإن كانا على غير ذلك فاستعينوا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٥)

٣٦٣ — كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم عامله بخراسان

وكتب إلى عبد الرحمن بن نعيم :

« أما بعدُ ، فكن عبداً ناصِحاً لله فى عباده ، ولا تأخُذْك فى الله لَوْمَةُ لائم ، فإن اللهَ أولى بك من الناس ، وحَقُّه عليك أعظم ، فلا تُوَلِّيَنَّ شيئاً من أمر المسلمين

إلا المعروفَ بالنصيحة لهم ، والتوفير عليهم ، وأداء الأمانة فيما استُرعىَ ، وإياك أن يكون ميلُك ميلا إلى غير الحق ، فإن الله لايخفى عليه خافية ، ولا تذهبَنّ عن الله مَذْهبًا ، فإنه لاملْجَأ من الله إلّا إليه » . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٥)

٣٦٤ — كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم

وكتب عمر إلى عبد الرحمن بن نعيم يأمره بإقفال مَن وراء النهر من المسلمين بذراريّهم ، فأبَوا وقالوا : لاتَسعنا « مرو » فكتب إلى عمر بذلك ، فكتب إليه عمر :

«اللهم إنى قد قضيتُ الذى علىّ ، فلا تَغْزُ بالمسلمين، فَحَسْبُهم الذى قد فتح الله عليهم» .
(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٩)

٣٦٥ — كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم

وكتب عمر إلى عبد الرحمن بن نعيم :

« إن العمل والعلم قريبان ، فكن عالما بالله عاملا له ، فإن أقوامًا عَلِموا ولم يعملوا ، فكان عِلْمهم عليهم وَبالا » . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٨)

٣٦٦ — كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم

وكتب إليه :

« أما بعدُ : فاعمَل عَمَلَ رجل يعلم أن الله لايُصْلح عمل المفسدين » .
(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٨)

٣٦٧ — كتابه إلى عقبة بن زرعة

وكتب إلى عُقْبة بن زُرعة الطائى ـ وكان قد ولّاه خراج خراسان بعد القُشَيرى ـ :

« إن للسلطان أركانا لايثبُتُ إلا بها ، فالوالى ركن ، والقاضى ركن ، وصاحب

بيت المال ركن ، والركن الرابع أنا ، وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إلىّ ولا أعظم عندى من ثغر خراسان ، فاستوعِب الخراجَ وأحْرِزْه فى غير ظلم ، فإن يكُ كَفافا لأعطياتهم فسبيلُ ذلك ، وإلّا فا كتب إلىّ حتى أحْمِلَ إليك الأموال فتوفرً لهم أعطياتِهم » .

فقَدِم عقبةُ فوجَد خراجَهم يَفْضُل عن أعطياتهم ، فكتب إلى عمر فأعْلَمه ، فكتب إليه عمر أن اقسِم الفَضل فى أهل الحاجة . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٩)

٣٦٨ - كتابه إلى سليمان بن أبى السَّرِىّ والى سمرقند

وكتب عمر إلى سليمان بن أبى السَّرِىّ عامله على سَمَرْقَنْد أن : « اعْمَلْ خاناتٍ فى بلادك ، فمن مَرَّ بك من المسلمين فاقْرُوهم(١) يوما وليلة ، وتعهَّدوا دوابّهم ، فمن كانت به عِلّة فاقْرُوه يومين وليلتين ، فإن كان منقطِعًا به فقَوُّوه بما يصل به إلى بلده » .

فلما أتاه كتاب عمر قال أهل سَمَرْقَنْدَ لسليمان : إن قُتَيْبة غدَر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدلَ والإنصاف فأْذَنْ لنا فليفِدْ منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظُلَامَتنا ، فإن كان لنا حق أُعْطِيناه ، فإن بنا إلى ذلك حاجة ، فأَذِنَ لهم فوجّهوا منهم قوما فقَدِموا على عمر .

٣٦٩ - كتابه إلى ابن أبى السرى

فكتب لهم عمر إلى سليمان بن أبى السرى :

« إن أهل سمرقند قد شكَوا إلىّ ظُلما أصابهم ، وتحامُلاً من قُتَيْبة عليهم ، حتى

---

(١) أى أضيفوهم .

أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابى فأجلس لهم القاضِيَ ، فَلْينظر فى أمرهم ، فإن قضَى لهم فأخرِجْهم إلى مُعَسْكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظَهَرَ عليهم قتيبة[1] » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٨)

٣٧٠ — كتابه إلى حيان بن شريح

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى حَيَّان بن شُرَيْح : أن : ضع الجزية عمن أسلم من أهل الذِّمّة ، فإن الله تبارك وتعالى قال : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وقال : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » .

٣٧١ — كتاب حيان بن شريح إليه

وكتب حيان بن شريح إلى عمر بن عبد العزيز :

« أما بعدُ ، فإن الإسلام قد أضَرَّ بالجزية حتى تسلّفْتُ من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممتُ بها عَطاء أهل الديوان ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » .

٣٧٢ — رده على حيان بن شريح

فكتب إليه عمر :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كتابك ، وقد ولَّيْتُك جندَ مصر وأنا عارف بضعفك ،

---

(١) فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضى ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديدا أو ظفرا عنوة ، فقال أهل السغد : بل نرضى بما كان ولا نجدد حربا وتراضوا بذلك ، فقال أهل الرأى : قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم ، فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ولا ندرى لمن يكون الظفر ، وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة فى المنازعة . فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٨)

وقد أمرتُ رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، قَبَّح اللهُ رأيك ، فإن اللهَ إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعَمْرِى لَعُمَرُ أشقى من أن يَدْخُلَ النَّاسُ كلهم الإسلام على يديه » .

(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى ١ : ٧٨)

٣٧٣ — كتابه إلى عماله

وكتب إلى عماله :

« إياكم أن تستعملوا على شىء من أعمالنا إلا أهلَ القرآن » فكتبوا إليه :

٣٧٤ — ردهم عليه

« يا أمير المؤمنين ، إنا استعْملنا أهل القرآن فوجدناهم خَوَنَةً » .

فكتب إليهم :

٣٧٥ — رده عليهم

« إياكم أن يبلغنى عنكم أنكم استعملتم على شىء من أعْمَالنا إلا أهلَ القرآن ، فإنه إن لم يكن عند أهل القرآن خير ، فغيرهم أحْرَى بأن لا يكون عندهم خير » .

٣٧٦ — كتابه إلى بعض عماله

وشُكِى عامل لعمر بن عبد العزيز إليه ، فكتب إليه عمر :

« يا أخى : أذكِّركَ طولَ سَهَرِ أهل النار فى النار مع خلود الأَبَد ، وإياكَ أن يُنْصَرَف بك من عند اُلله ، فيكون آخر الْعَهْدِ وانقطاع الرجاء » .

فلما قرأ الكتاب طوَى البلاد حتى قَدِم على عمر ، فقال له : ما أقْدَمك ؟ قال : خلعْتَ قلبى بكتابك ، لا أعود إلى ولاية أبدا حتى ألْقَى اُلله تعالى .

٣٧٧ - كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عُمَّاله :

« أما بعدُ : فاتَّقِ آللهَ فيمن وَليتَ أمره ، ولا تأمَنْ مَكْرَه في تأخير عُقوبته ، فإنه إنما يَعْجَلُ بالعقوبة مَنْ يخاف الفوتَ ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

(سيرة عمر لابن الجوزي ص ١٠٠)

٣٧٨ - كتابه إلى أحد عماله

وكتب إلى عامل له :

« اتق آلله ، فإن التقوى هي التي لا يُقْبَلُ غيرها ، ولا يُرْحَم إلا أهلُها ، ولا يُثَاب إلا عليها ، وإن الواعظين بها كثير ، والعاملين بها قليل » .

(سيرة عمر لابن الجوزي ص ٨٧ و ٢١٥)

٣٧٩ - كتابه إلى عماله

وكتب إلى عُمَّاله :

« اجتنبوا الأشغالَ عند حُضور الصَّلَوات ، فمن أضاعَها فهو لما سِواها من شرائع الإسلام أشدُّ تضييعا » . (سيرة عمر لابن الجوزي ص ١٠٢)

٣٨٠ - كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عُماله :

« اعمل للدنيا على قدر مُقَامك فيها ، واعمل للآخرة على قدرِ مُقَامك فيها » .

(سيرة عمر لابن الجوزي ص ١٠٢)

٣٨١ - كتابه إلى عماله

وكتب إلى عماله : « أن عاقبوا الناس على قدر ذنوبهم ، وإن بلغ ذلك سَوْطا واحداً ، وإياكم أن تبلغوا بأحد حَدًّا من حدود الله » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٧)

٣٨٢ - كتابه إلى زريق بن حيان

وعن زُرَيق بن حَيَّان - وكان على مَكْسِ مصر - أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه أن :

« انظر مَن مَرَّ عليك من المسلمين ، فخذ مما ظهر من أموالهم العَيْنَ ، ومما ظهر من التجارات من كل أربعين ديناراً ديناراً ، وما نقَصَ فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين ديناراً ، فإن نقَصَتْ تلك الدنانير فدَعْها ولا تأخذ منها شيئاً ، وإذا مرّ عليك أهل الذِّمة فخذ مما يُديرون من تجاراتهم من كل عشرين ديناراً ديناراً فما نقَص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ، ثم دَعْها فلا تأخذ منها شيئاً ، واكتب لهم كتابا بما تأخذ منهم إلى مثلها من الحَوْلِ » . (كتاب الخراج ص ١٦٣)

٣٨٣ - كتابه إلى جعفر بن برقان

وعن جعفر بن بُرْقان قال : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز :

« لا تدَعُنَّ فى سجونكم أحداً من المسلمين فى وَثاق[1] لا يستطيع أن يصلِّىَ قائما ، ولا تُبيتُنَّ فى قيد إلا رجلا مطلوبا بدَمٍ ، وأَجْرُوا عليهم من الصَّدَقة ما يُصْلِحهم فى طعامهم وأُدْمهم ، والسلام » . (كتاب الخراج ص ١٧٩)

---

(١) الوثاق : ما يشد به .

٣٨٤ — كتابه إلى ثابت بن ثوبان

وحدث عبد الرحمن بن ثابت بن ثُوبان عن أبيه قال : كنت عاملا لعمر بن عبد العزيز ، فكتبتُ إليه أن رجلا كان يهوديا فأسلم ، ثم تهوَّد ورجع عن الإسلام ، فكتب إليّ عمر أن :

« ادعُه إلى الإسلام ، فإن أسْلَمَ نخلِّ سبيله ، وإن أبى فادعُ بالخَشَبة فأضْجِعه عليها ، ثم ادعه ، فإن أبى فأَوْثِقه ، وضَع الحَرْبة على قلبه ، ثم ادعهُ ، فإن رجع فخلِّ سبيله ، وإن أبى فاقتله » .

ففعل ذلك به حتى وضع الحربة على قلبه ، فأسلم ، فخلَّى سبيله .

(كتاب الخراج ص ٢١٧)

٣٨٥ — كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عماله :

« أما بعد ، فكأنَّ العبادَ قد عادوا إلى الله ، ثم يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلوا ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ، فإنه لا مُعقِّبَ لِحُكْمِهِ ولا مُنازِعَ لأمرِهِ ، وإنى أوصيك بتقوى الله وأحُثُّك على الشكر فيما اصطنَعَ عندك من نِعَمه ، وآتاك من كرامته ، فإن نعمه يَمُدُّها شكرُه ، ويَقْطعُها كُفْرُه ، وأكثِرْ ذِكْرَ الموت الذى لاتدرى متى يغشاك ، فلاَ مَنَاصَ ولا فَوْتَ ، وأكْثِرِ ذِكْرَ يوم القيامة وشِدَّته ، فإن ذلك يدعوك إلى الزَّهادة فيما رَغِبْتَ فيه ، والرغبةِ فيما زهِدْتَ فيه ، ثم كن مما أوتيتَ من الدنيا على وَجَل ، فإن من لا يَحْذَرُ ذلك ولا يتخوَّفه تُوشِك الصَّرْعةُ أن تُدْرِكه فى الغَفْلة ، وأكثِر النظرَ فى عملك فى دنياك بالذى أُمِرْتَ به ، ثم اقتصِرْ عليه فإن فيه لَعَمْرِى شُغْلا عن دنياك ، ولن تُدرِكَ العلمَ حتى تُؤْثِرَه على الجهل ، ولا الحقَّ حتى تَذَرَ الباطلَ ، نسأل اُلله لنا ولك حُسْنَ معونته ، وأن يدفع عنا وعنك بأحسن دفاعه ، برحمته » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢١٨)

٣٨٦ - كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عماله :

« أوصيك بتقوى الله ، والاقتصادِ فى أمره ، واتباعِ سُنَّة رسوله ، وتركِ ما أحدثَ المُحْدِثون بعده مما قد جرت به سُنَّتُه وكُفوا مئونته . واعلم أنه لم يبتدع إنسان قطُّ بدعةً إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها ، وعِبْرَة فيها ، فعليك بلزوم السُّنة ، فإنها لك - بإذن الله - عِصمة . واعلم أن من سن سُنَّة قد علِمَ ما فى خلافها من الخطأ والزَّلل والتعمق والحمق ، فإن السابقين الماضين على علم توقَّفوا ، وببصر ناقدٍ كَفُّوا » .

وزاد بعض الرواة :

« وإنهم كانوا على كشف الأمور أقوى ، وما أحدث إلا من اتَّبع غيرَ سبيلهم ورَغِب بنفسه عنهم ، لقد قصّر دونهم أقوام فجَفَوا[١] ، وطَمَحَ عنهم آخرون فَغَلَوا[٢] » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨٧)

٣٨٧ - كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عماله :

« أما بعدُ ، فالزَم الحقَّ ، يُنزِلْك الحقُّ منازلَ أهلِ الحق ، يوم لا يُقضى بين الناس إلا بالحق وهم لا يُظلَمون » .

---

(١) جفا : تجافى ، أى فتجافوا عن طريق الحق والرشاد .

(٢) فى الأصل « فعلوا » وهو تصحيف وصوابه « فغلوا » يؤيده قوله قبل « وطمح عنهم » .

٣٨٨ — كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى عامل له :

« أما بعدُ : فلْتجِفَّ يداك من دماء المسلمين ، وبَطْنُك من أموالهم ، ولسانُك من أعراضهم ، فإذا فعلتَ ذلك فليس عليك سبيل ، « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٤)

٣٨٩ — كتاب بعض عماله إليه

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه :

« أما بعدُ ، فإن مدينتنا قد خَرِبت ، فإن يَرَ أميرُ المؤمنين أن يقطَعَ لنا مالا نَرُمُّها[1] به فَعَلَ » .

٣٩٠ — رد عمر على كتابه

فكتب إليه عمر :

« أما بعدُ ، فقد فَهِمت كتابَك ، وما ذكرتَ من أن مدينتكم قد خَرِبَت ، فإذا قرأْتَ كتابى هذا ، فَحَصِّنْها بالعدل ، وَنَقِّ طُرُقَها من الظلم ، فإنه مَرَمَّتها والسلام » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٩٠)

٣٩١ — كتاب بعض ولاته إليه

وَلما وَلِى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، كتب إليه بعضُ وُلاته :

« إن الناس لَمَّا سمِعوا بولايتك ، تسارعوا إلى أداء الزكاةِ زكاةِ الفِطْر ، فقد اجتمع من ذلك شىء كثير ، ولم أُحِبَّ أن أُحْدِث فيها شيئا حتى تكتب إلَىَّ برأيك » .

---

(١) رمه كضرب ونصر رما ومرمة : أصلحه .

٣٩٢ — رد عمر على كتابه

فكتب إليه عمر :

« لعمرِى ما وجدونى وَإياك على ما ظنُّوا ، وما حَبْسُك إياها إلى اليوم ؟ فأَخْرِجْهَا حين تَنْظُر فى كتابى » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨٥)

٣٩٣ — كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عماله :

« الموالى ثلاثة : مَوْلَى رَحِم ، ومولى عَتَاقة ، ومولى عَقْد ، فمولى الرحم يرث ويُورَث ، ومَوْلى العَتاقة يورث ولا يرث ، ومولى العَقْد لا يرث ولا يورث ، وميراثه لعَصَبته » .

٣٩٤ — كتابه إلى عماله

وكتب إلى عماله :

« مُرُوا من كان على غير الإسلام أن يضعوا العمائم ويلبَسُوا الأكسِية ، ولا يتشبَّهوا بشىء من الإسلام ، ولا تتركوا أحدا من الكُفَّار يستخدم أحداً من المسلمين » .

٣٩٥ — كتابه إلى عماله

وكتب إلى عماله :

مُرُوا من كان قِبَلكم فلا يَبْقَى أحد من أحرارهم ولا مماليكهم ، صغيراً ولا كبيراً ، ذكراً ولا أنثى ، إلاَّ أخرجَ عنه صدقةَ فِطْرِ رمضانَ : مُدَّيْن[1] من قمح ،

---

(١) المد : ملء كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومدهما . والصاع : أربع حفنات بكفى الرجل المعتدل : أى أربعة أمداد .

أو صاعاً من تمر ، أو قيمة ذلك نصف درهم ، فأمّا أهلُ العطاء فيؤخذ ذلك من أعطياتهم عن أنفسهم وعِيالاتهم ، واستعمِلوا على ذلك رجلين من أهل الأمانة ، يَقْبِضَان ما اجتمع من ذلك ، ثم يَقْسِمانه فى مَسْكَنة أهل الحاضِرة ، ولا يُقْسَم على أهل البادية » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

٣٩٦ – كتاب أحد عماله إليه

وكتب رجل من عمال عمر إلى عمر :

« إنا أُتِينا بساحرةٍ ، فألقيناها فى الماء ، فطفَت على الماء ، فما ترَى فيها ؟ » .

٣٩٧ – رد عمر عليه

فكتب إليه :

« لسنا من الماء فى شىء ، إن قامَتْ عليها بيِّنةٌ وإلَّا فَخَلِّ[1] سبيلها » .

(العقدالفريد ٢ : ٢٧)

٣٩٨ – كتابه إلى بعض عماله

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له :

« أما بعدُ : فلا تدعَنَّ صَليبا ظاهراً إلا كُسِر ومُحِق ، ولا يركبَنَّ يهودى ولا نصرانى على سَرْج ، وليركَبْ على إكاف[2] ولا ترْكبَنَّ امرأةٌ من نسائهم على رِحَالة[3] ، وليكن ركوبها على إكاف ، وتقدَّم فى ذلك تقدُّما بليغا ، وامنع مَنْ قِبلك فلا يلبس نصرانى قَباء ولا ثوبَ خزّ ولا عصْب[4] » .

---

(١) فى الأصل « وإلا خل » بإسقاط الفاء ولعله سهو من الناسخ أو الطابع .

(٢) إكاف الحمار ككتاب وغراب ووكافه : برذعته .

(٣) الرحالة : سرج من جلد لا خشب فيه كانوا يتخذونه للركض الشديد .

(٤) العصب : برود يمنية مخططة .

وقد ذُكر لى أن كثيرًا ممن قِبلك من النصارى قد راجعوا لُبْسَ العمائم، وتركوا المناطق[1] على أوساطهم، واتخذوا الجِمَامَ وَالْوَفْرَ[2] وتركوا التقصيص، ولعمرى لئن كان يُصنع ذلك فيما قِبَلك، إن ذلك بك لَضَعْف وعجز ومصانعة، وإنهم حين يراجعون ذلك لِيعلموا ما أنت، فانظر كل شيء نهيتَ عنه فاحْسِم[3] عنه مَن فَعله، والسلام» . (كتاب الخراج ص ١٥٢)

٣٩٩ — كتابه إلى عماله

وكتب إلى عماله :

«مَنْ بَلَغَ خَمْسَ عشرة سنةً فافرِضوا له فى المُقَاتِلة، ومن كان دون ذلك فافرضوا له فى الذرية» . (كتاب الخراج ص ٢٠٨)

٤٠٠ — كتاب لعمر

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل :

«أما بعدُ، فإنى أُوصِيك بتقوى الله وتقديم ما استطعتَ من مالك وما رَزَقَك اللهُ إلى دار قَرَارِك، فإنك واللهِ لكأنك قد ذُقْتَ الموت، وعايَنْتَ ما بعده بتصرُّفِ الليل والنهار، فإنهما سريعان فى طيِّ الأجل ونقصِ العمر، مستعِدَّانِ لمن بقِيَ بمثل الذى قد أصابا به مَن مَضَى، فنستغفِر الله لسيِّئ أعمالنا، ونعوذ بالله من مقْته إيانا على ما نَعِظُ به مما نقصِّر عنه» . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٠١، ٢١٥)

---

(١) المناطق جمع منطقة كمكنسة : وهى ما يشد به الوسط .

(٢) الجمام : جمع جمة بالضم، وهى ماسقط على المنكبين من شعر الرأس . والوفر : جمع وفرة بالفتح: وهى ماسال على الأذنين من الشعر، فالجمة أكثر من الوفرة .

(٣) أى اقطع .

٤٠١ — كتابه إلى أخ له

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أخ له :

« يا أخى ، إنك قد قطعتَ عُظْم السفر وبقِى أقلُّه ، فاذكر يا أخى المَصَادِر والمَوَارِدَ ، فقد أُوحِيَ إلى نبيك صلى الله عليه وسلم فى القرآن أنَّك من أهل الورود ، ولم يخبر أنك من أهل الصدور والخروج ، وإياك أن تغرُّكَ الدنيا ، فإن الدنيا دارُ مَن لا دار له ، ومالُ مَن لا مالَ له ، يا أخى إنَّ أَجَلَكَ قد دنا ، فكن وَصِيَّ نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك » .

٤٠٢ — كتابه إلى بعض أهل بيته

وكتب إلى بعض أهل بيته :

« أما بعدُ ، فإنك إن استشعرتَ ذِكْرَ الموتِ فى ليلك ونهارك بُغِّضَ إليك كُلُّ فانٍ ، وحُبِّبَ إليك كل باق ، والسلام » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٠٨)

٤٠٣ — كتابه إلى عمر بن عبد الله بن عتبة يعزيه

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن عبد الله بن عُتْبة يعزِّيه فى أبيه :

« أما بعدُ : فإنا قوم من أهل الآخرة سَكَنَّا الدنيا ، أمواتٌ أبناء أموات ، فالعجبُ كُلُّ العجب لِمَيِّت يكتب إلى ميِّت يعزِّيه عن ميت ، والسلام » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص٢٠٤)

٤٠٤ - كتابه إلى رجاء بن حيوة

وكتب إلى رجاء بن حيوة :

« أما بعدُ ، فإنه من أكثر مَن ذكر الموت اكتفى باليسير ، ومن علم أن الكلام عَمَل قلَّ كلامه إلا فيما ينفعه » .

(العقد الفريد ١ : ٣٠٠)

وروى الطبرى قال :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الشأم :

« سلام عليكم ورحمة الله ، أما بعدُ : فإنه من أكثر ذكر الموت قلَّ كلامه ، ومن عَلِم أن الموتَ حقٌّ رضِىَ اليسيرَ ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٩)

٤٠٥ - كتابه لأهل العلم

« أما بعدُ ، فآمُرُ أهلَ العلم أن ينشُرُوا العلم فى مساجدهم ، فإن السُّنَّة كانت قد أُمِيتَتْ » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٤)

٤٠٦ - كتابه إلى جنده

وبلغه عن جند له شىء ، فكتب إليهم :

« اَللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَارَيْبَ فِيهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٩٨)

٤٠٧ — كتابه إلى بعض الأجناد

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض الأجناد :

« أما بعدُ ، فإنى أوصيك بتقوى الله ولزوم طاعته ، والتمسُّكِ بأمره ، والمعاهدةِ على ما حَمَّلك اللهُ عزَّ وجلَّ من دينه ، واستحفَظَك من كتابه ، فإنَّ بتقوى الله عزَّ وجلَّ نجَاءَ أولياء الله عزَّ وجلَّ من سُخْطه ، وبها تَحِقُّ لهم ولايته ، وبها رافقوا أنبياءه ، وبها نَضُرَتْ وجوهُهم ، ونظروا إلى خالقهم ، وهى عِصْمة فى الدنيا من الفِتَن، وَالْمَخْرَجُ من كَرْب يوم القيامة ، ولن يَقْبَل مِمَّن بَقِيَ إلا مثلَ ما رضِيَ به ممن مضى، ولِمَن بَقِيَ عِبرةٌ فيمن مضى ، وسُنة الله عزَّ وجلَّ فيهم واحدة ، بادِرْ بنفسك قبل أن يُؤْخذ بكَظَمِك[١] ، ويُخْلَصَ إليك كما خُلِصَ إلى من كان قبلك ، فقد رأيتَ الناس كيف يموتون وكيف يتفرَّقون ؟ ورأيتَ الموتَ كيف يُعْجِل التائبَ عن توبته ، وذا الأمل عن أمله ، وذا السلطان عن سُلْطانه ؟ وكفى بالموت موعظةً بالغةً ، وشاغلا عن الدنيا ، ومُرغِّبا فى الآخرة ، فنعوذ باللهِ عزَّ وجلَّ من شر الموت وما بعده ، ونسأل اللهَ تعالى خيرَه وخيرَ ما بعده .

لا تطلُبَنَّ شيئًا من عرَض الدنيا بقولٍ ولا فعلٍ تخافُ أن يَضُرَّ بآخرتك ، ويُزْرِيَ بدينك ، وَيَمقُتَكَ عليه ربُّك ، واعلم أن القَدَر سيَجْرِى إليك برزقك ، وَيُوافِيك أُكُلُك[٢] من دنياك ، غيرَ مَزيدٍ فيه بِحَوْل منك ولا قوة ، ولا منقوص منه بضعفٍ ، إن ابتلاك الله بفقر فتعَفَّفْ فى فقرك ، وأَخبِتْ لقضاء ربك[٣] ، واعتبر بما قسم اللهُ لك من الإسلام ، وما زَوَى[٤] عنك من نعمة دنياك ، فإنَّ فى الإسلام خَلَفًا من الذهب والفضّة والدنيا الفانية . واعلم أنه لن يَضُرَّ عبداً صار إلى رضوان الله عزَّ وجلَّ

(١) الكظم : الحلق ، أو الفم . أو مخرج النفس .
(٢) الأكل كقفل وعنق : الرزق والحظ من الدنيا .
(٣) أخبت : خشع وتواضع . (٤) زواه : نحاه وأبعده .

وإلى الجنة ما أصابه فى الدنيا من فقر وَبلاء ، وأنه لن ينفعَ عبداً صار إلى سُخْط الله عزَّ وجلَّ وإلى النار ، ما أصاب فى الدنيا من نعمة وَرخاء ، ما يجدُ أهلُ الجنة مَسَّ مكروهٍ أصابهم فى الدنيا ، وما يجد أهلُ النار طعمَ لذة نَعِموا بها فى دنياهم ، كأن سائر ذلك لم يكن ، فمن كان راغبا فى الجنة وهاربا من النار ، فالآنَ فى هذه الأيام الخالية ، والتوبةُ مقبولةٌ ، والذنبُ مغفور ، قبل نَفادِ الأجل ، وانقضاء المدة ، وفَراغ من الله عز وجلَّ للثَّقَلَين[1] ليَدِينَهم بأعمالهم فى مَوْطِنٍ لاتُقبَل فيه الفِديةُ ، ولا تنفع فيه الحيلةُ ، تَبْرُز فيه الخفِيّاتُ ، وتَبْطُلُ فيه الشفاعات ، يَرِدُه الناسُ جميعًا بأعمالهم ، وينصرفون منه أَشتاتا[2] إلى منازلهم ، فَطُوبَى[3] يومئذٍ لِمَن أطاع الله عزَّ وجلَّ ، وَوَيل يومئذٍ لِمَن عَصَى الله عزَّ وجلَّ ، فإن ابتلاكَ الله بالغنى ، فاقتصِدْ فى غناك ، وضع لله نفسك ، وأدِّ لله عزَّ وجلَّ فرائضَ حقهِ من مالك ، وقلْ عند ذلك ما قال العبد الصالح : « هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ » . وإياكَ أن تفخرَ بطَولك[4] ، وأن تُعْجَب بنفسك ، أو يخيَّلَ إليك أن ما رُزِقْتَه لكرامتك على ربك عزَّ وجل ، وتفضيله إياك على غيرك ممن لم يُرْزَق مِثْلَ غِناك ، فإذا أنت أخطأتَ بابَ الشكر ، ونزلتَ منازلَ أهل الفقر ، وكنت ممن أطغاه الغنى ، وتعجَّل طيِّباتهِ فى الدنيا ، فإنى أعِظُك بهذا وإنى لكثير الإسراف على نفسى ، غير مُحْكِم لكثير من أمرى . ولو أن المرء لايعظ أخاه حتى يحكم نفسه ، ويعملَ فى الذى خلق له من عبادة ربه عزّ وجل ، إذَنْ لَتوا كَلَ الناسُ الخيرَ ، وإذَنْ لَرُفِع الأمر بالمعروف والنهى عن المُنكَر ، وإذَنْ لاستُحِلّت المحارمُ ، وقَلّ الواعظون والساعون لله عزّ وجل بالنصيحة فى الأرض » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٩١ و ص ٢٠٢ وص ٢١٢)

---

(١) الإنس والجن . ودانه : جزاه . (٢) متفرقين ، جمع شت بالفتح .

(٣) الخير ، والحسنى ، وشجرة فى الجنة . (٤) الطول : القدرة والغنى .

٤٠٨ — كتابه إلى نفر كذبوا بالقدر

وله كتاب إلى نفر كتبوا بالتكذيب بالقدر :

« أما بعدُ : فقد علِمتم أنَّ أهل السُّنة كانوا يقولون : الاعتصام بالسُّنة نجاة ، وسَيَنْقُص العلم نقصاً سريعا ، ومنه قول عمر بن الخطاب وهو يعظ : إنه لاعُذْر لأحد عَبَدَ اللهَ بعد البيِّنة بضلالة رَكِبَهَا حَسِبَهَا هُدًى ، ولا فى هُدًى تَرَكه حَسِبَه ضلالةً ، فقد تبيَّنَتِ الأمورُ ، وثَبَتَتِ الحُجَّةُ ، وانقطع العُذر ، فمن رغِب عن أنباء النُّبوَّة وما جاء به الكتاب ، تقطَّعَت من يده أسبابُ الهُدَى ، ولم يجد له عِصْمةً ينجو بها من الرَّدى » .

وبلغكم أنى أقول : إن الله قد علم ما العبادُ عاملون ، فأنكرتم ذلك ، وقد قال تعالى : « إِنَّا كاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » وقال : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » وزعمتم فى قول الله : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » أن المشيئة فى أى ذلك أحببتم : من ضلالٍ أو هدى ، والله يقول : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » فبمشيئته لهم شاءوا ، وقد حَرَصَت الرسل على هدى الناس جميعًا ، فما اهتدى إلا من هداه اللهُ وحَرَص إبليسُ على ضلالتهم جميعًا ، فما ضَلَّ منهم إلا مَن كان فى علم الله ضالاً ، وأنكرتم أن يكون سَبَق لأحد من الله ضلالةٌ أو هدى ، وأنكم الذين هديتم أنفسكم من دون الله ، وحَجَرْتموها[1] عن المعصية بغير قوة من الله ، ومَن زَعَم ذلك منكم فقد غلَا فى القول ، لأنه لو كان شيء لم يسبق فى علم الله وقدره ، لكان لله فى ملكه شريكٌ تَنفُذُ مشيئته فى الخلق دون الله ، والله يقول : « حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ » وسميتم نَفَاذ الله فى الخلق حَيْفًا ، وقد جاء الخبر « إن الله عزَّ وجلَّ

---

(١) الحجر : المنع .

خلق آدم فنثر ذُرّيته بين يديه ، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون ، وكتب أهل النار وما هم عاملون » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٦٨)

٤٠٩ — كتابه إلى أهل الموسم

وكتب إلى أهل الموسم :

« أما بعدُ : فإنى أُشْهِدُ اللّهَ وَأَبْرأُ إليه فى الشهر الحرام ، والبَلَد الحرام ، ويومَ الحجِّ الأكبر ، أنّى برىءٌ مِنْ ظُلْمِ مَنْ ظلَمكم ، وعُدْوانِ من اعتدى عليكم ، أن أكونَ أمرتُ بذلك أو رضيتُ أو تعمَّدته ، إلا أن يكون وَهْماً منى ، وأمراً خَفِىَ علىّ لم أتعمَّدْه ، وأرجو أن يكون ذلك موضوعا عنى ، مغفوراً لى ، إذا عُلِم منى الحرصُ والاجتهاد ، ألاَ وإنه لا إذنَ على مظلومٍ دونى ، وأنا مُعَوَّل كل مظلوم ، ألاَ وأىُّ عامل من عمالى رَغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة ، فلا طاعةَ له عليكم ، وقد صيرتُ أمْرَهُ إليكم ، حتى يراجِعَ الحق وهو ذَميمٌ ، ألاَ وإنه لا دُولةَ[1] بَيْنَ أغنيائكم ولا أَثَرةَ على فقرائكم فى شىء من فَيْئكم ، ألاَ وَأيُّما واردٍ ورد فى أمر يُصْلح اللّهُ به خاصّةً أو عامّةً ، فله ما بين مائة دينار إلى ثلثمائة دينار ، على قدر ما نوَى من الحِسْبة ، وتجشّم من المشقّة . فَرَحِمَ اللهُ امرأً لم يتعاظمه سفرٌ يُحْيِى اللهُ به حقا لمن وراءه ، ولولا أن أشْغَلكم عن مَنَاسِكِكم لرَسَمْتُ لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم ، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم ، فلا تحمَدوا غيرَه ، ولو وَكَلنى إلى نفسى كنت كغيرى ، والسلام عليكم » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٧٢)

---

(١) أى أن الفىء لايتداوله الأغنياء ولا يدور بينهم كما كان فى الجاهلية ، بل يعطى منه كل ذى حق حقه . يشير إلى قوله تعالى : « مَا أَفَاءَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » وفى الأصل « بيرأ غنيائكم » وهو تحريف .

٤١٠ — كتابه بشأن كسوة البيت الحرام

وكتبت الحجَبة إليه أن يأمر للبيت بِكُسْوة كما كان يفعل من كان قبله ، فكتب إليهم :

« إنى رأيتُ أن أجعل ذلك فى أكبادٍ جائعةٍ ، فإنه أولَى بذلك من البيت » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص٧٦)

٤١١ — كتابه إلى الأسارى بقسطنطينية

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأُسارَى بقُسْطَنْطِينية :

« أما بعد ، فإنكم تعُدُّون أنفسكم أسارى ، ولستم أسارى ، معاذَ اللهُ ، أنتم الحُبَساء[1] فى سبيل الله ، واعلموا أنى لست أقسِم شيئاً بين رعيتى إلا خَصَصْتُ أهلكم بأوفر ذلك وأطيَبه ، وقد بعثت إليكم خمسةَ دنانيرَ خمسة دنانير ، ولولا أنى خَشِيتُ إن زدتُكُم أن يحبِسَه عنكم طاغيةُ الروم لزِدتكم ، وقد بعثت إليكم فلان بن فلان يُفادِى صغيركم وكبيركم ، ذكركم وأنثاكم ، حُرَّكم ومملوككم بما يسأل ، فأَبْشِرُوا ثم أَبْشِرُوا » .

(الأغانى ٨ : ١٥١)

٤١٢ — رسالة عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار فى الأنبذة

« أما بعدُ : فإن الناس كان منهم فى هذا الشَّراب المحرّم أمْرٌ ساءت فيه رغبة كثير منهم ، حتى سَفَّه أحلامَهم ، وأذهب عقولَهم ، فاستُحِلّ به الدمُ الحرام ، وفَرجُ الحرائر ، وإن رجالا منهم مِمَّن يُصِيب ذلك الشَّرابَ يقولون : شَرِبنا طِلاءً[2]

(١) جمع حبيس : وهو المحبوس « والحبيس من الخيل أيضاً : الموقوف فى سبيل الله » .

(٢) الطلاء : ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه ، وبعض العرب يسمى الخمر الطلاء ، يريد بذلك تحسين اسمها لا أنها الطلاء بعينها . ولما كان عمر رضى الله عنه بالشأم قال له عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين إن أهل هذه البلاد يأتوننا بعصير قد عصروه وطبخوه قبل أن يغلى فيأتون به حلوا كأنه الرب قد طبخوه =

فلا بأس علينا فى شُربه ، ولعمرى إنَّ فيما قرأتُ مِما حرّم اللهُ بأسا ، وإن فى الأشربة التى أحلّ اللهُ من العَسَل والسَّويق[١] والنَّبيذ من الزبيب والتمر لَمَنْدوحةً[٢] عن الأشربة الحرام ، غير أن كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب فلا يُنْبذ إلا فى أسْقِية الأَدَم[٣] التى لازِفْتَ فيها ، ولا يُشرَب منها ما يُسْكِر ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن شرب ما جُعِل فى الجِرار والدُّبّاء[٤] والظروف المزَفَّتة ، وقال : « كل مسكر حرام » ، فاستغنُوا بما أُحِلّ لكم عما حُرِّم عليكم .

وقد أردتُ بالذى نهيتُ عنه من شرب الخمر ، وما ضارع الخمرَ من الطِّلاء ، وما جعل فى الدُّبّاء والجِرار والظروف المزَفتة وكل مسكر ، اتخاذَ[٥] الحجةَ عليكم ، فمن يُطع منكم فهو خير له ، ومن يخالِف إلى مانُهِىَ عنه نُعاقِبْهُ على العَلانية ، ويكفينا اللهُ ما أسَرَّ ، فإنه على كل شىء رقيب ، وَمَنِ استخفى بذلك عنا ، فإن الله أشد بأسا وأشد تنكيلا »

(العقد الفريد ٣ : ٣٣٧)

صورة أخرى

وجاء فى سيرة عمر بن عبد العزيز :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عَدِىّ بن أرطاة وأهل البصرة :

« أما بعدُ ، فإنه قد كان من الناس فى هذا الشراب أمرٌ ساءت فيه رغبتهم ،

= حتى ذهب ثلثاه ، وبقى الثلث ، فنظر إليه عمر وقال : لا أظن بهذا بأساً ، ذهب حرامه وبقى حلاله ثم قال: اشرب منه يا عمرو فلا بأس به ، وقال : كأن هذا طلاء الإبل فسمى يومئذ بالطلاء ، وكتب إلى عمار ابن ياسر كتابا يقول فيه «فمر من قبلك من المسلمين فليستعينوا به فى شرابهم» — انظر الجزء الأول ص١٧٧ .

(١) شراب يعمل من الحنطة والشعير. (٢) المندوحة : السعة . (٣) الأدم: الجلد .

(٤) جاء فى لسان العرب فى مادة « دبى » .

« وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه سلم: أنه نهى عن الدباء والحنتم (كجعفر) والنقير (بالفتح) وهى أوعيـــة كانوا ينتبذون فيها فكان النبيذ فيها يغلى سريعاً ويسكر ، فنهاهم عن الانتباذ فيها ، ثم رخص صلى الله عليه وسلم فى الانتباذ فيها ، بشرط أن يشربوا ما فيها وهو غير مسكر ، وتحريم الانتباذ فى هذه الظروف كان فى صدر الإسلام ، ثم نسخ وهو المذهب . وذهب مالك وأحمد إلى بقاء التحريم » .

(٥) فى الأصل محل هـذه الـكلمة « المار » وهو تحريف وصوابها « اتخاذ » كما ورد فى رواية ابن الجوزى التالية .

وغَشُوا فيه أموراً انتهكوها عند ذهاب عقولهم ، وَسَفَه أحلامهم بَلَغَتْ بهم الدمَ الحرام والفرجَ الحرام والمالَ الحرام . وقد أصبح جُلٌّ من يُصيب من ذلك الشراب يقول : شَرِبْنا شراباً لا بأس به ، ولعمرى إنّ ما حَمَلَ على هذه الأمور وضارعَ الحرامَ لَبأسٌ شديد ، وقد جعل الله عنه مَنْدُوحةً وسَعةً مِنْ أشربة كثيرة طيِّبة ليس فى الأنفُس منها جائحةٌ : الماء العذب الفُرات ، واللَّبن ، والعسل ، والسويق ، فمن انتبذ نبيذاً فلا ينبذه إلا فى أسقية الأَدَم التى لازفتَ فيها ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن نبيذ الجِرار والدُّبَّاء والظروف المزَفَّتة ، وكان يقول « كل مُسْكِر حرام » فاستغنُوا بما أحلّ الله عما حَرَّم ، فإنا من وجدناه يشرب شيئا من هذه بعد ما تقدَّمْنا إليه ، أَوْجَعْنَاه عقوبةً شديدةً ، ومن استخفَى فالله أَشَدُّ عقوبةً وَأَشَدُّ تنكيلاً ، وقد أردتُ بكتابى هذا اتخاذ الحجَّةِ عليكم اليومَ وفيما بعد اليوم ، أسأل اللهَ أن يزيدَ المهتدِيَ منا ومنكم هُدًى ، وأن يراجع بالمسىء منا ومنكم التوبةَ فى يُسْرٍ وعافية ، والسلام » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠١)

٤١٣ — كتابه إلى ابنه عبد الملك

وكتب عمر بن عبد العزيز فى العام الذى استُخْلف فيه إلى ابنه عبد الملك — وكان ابنه إذ ذاك بالمدينة — :

أما بعدُ ، فإنّ أحقّ من تعاهَدْتُ بالوصية والنصيحة بعد نفسى أنت ، وإنَّ أحقَّ من وَعَى ذلك وحَفِظَه عنى أنت ، إن الله — له الحمدُ — قد أحسن إلينا إحساناً كثيراً بالغا فى لَطيف أمرنا وعامّته ، وعلى الله إتمامُ ما غَبَر[1] من النعمة ، وإياه نسألُ العَوْنَ على شكرها ، فاذكُر فضلَ الله عليك وعلى أبيك ، ثم أعِنْ أباك على ما قَوِى عليه وعلى ماظننتَ أنّ عنده فيه عَجزاً عن العمل ، فيما أنعمَ به عليه وعليك فى ذلك ، فراع نفسك

---

(١) أى مابقى .

وشبابك وصحتك ، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله تحميداً وتسبيحاً وتهليلا فافعل ، فإن أحسن ما وصلت به حديثًا حسنا حمدُ الله وشكره ، وإنّ أحسن ما قطعت به حديثا سيئا حمد الله وذكره ، فلا تفتتن بما أنعم الله به عليك فما عسيت أن تقرِّظ به أباك بما ليس فيه ، وإن أباك كان بين ظهري[1] إخوته ، يفضّل عليه الكبير ، ويُدنى دونه الصغير ، وإن كان الله - وله الحمد - رزقني من والدي حبا جميلا كنت به راضيًا ، أرى ببرّه أفضلَ ولدِه عليه حقا ، حتى ولدت وولدتُ طائفة من إخوتك ، ولا أخرج بكم من المنزل الذى أنا فيه[2] » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٥٩)

٤١٤ - كتابه إلى ولى عهده يزيد بن عبد الملك

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى وليّ العهد من بعده :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبد الملك ، السلام عليك ، فإنى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ ، فإنى كتبت إليك وأنا دنِفٌ[3] من وجعى ، وقد علمتُ أنى مسئول عما وليتُ ، يحاسبنى عليه مليكُ الدنيا والآخرة ، ولست أستطيع أن أخفِيَ عليه من عملى شيئاً ، يقول تعالى فيما يقول : « فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ » فإن يرضَ عنى الرحيمُ ، فقد أفلحتُ ونجوت من الهوان الطويل ، وإن سخِط علىّ فيا وَيْحَ نفسى ! إلامَ أصيرُ ؟ أسأل الله الذى لا إله إلا هو أن يجيرنى من النار برحمته ، وأن يمُنَّ علىّ برضوانه والجنة ، وعليك بتقوى الله ، والرعيةَ الرعيةَ ، فإنك لن تبقَى بعدى إلا قليلا حتى تلحَقَ باللطيف الخبير والسلام » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٧٧)

---

(١) يقال هو بين ظهريهم وظهرانيهم وأظهرهم : أى وسطهم .

(٢) ورد بعد ماتقدم من هذا الكتاب :

« فمن كان راغباً فى الجنة وهاربا من النار فالآن والتوبة مقبولة ، والذنب مغفور ، قبل نفاذ الأجل وانقضاء العمل . . . الخ » وقد تقدم ذلك ، انظر كتابه إلى بعض الأجناد ص ٣٠٩ .

(٣) الدنف بالتحريك : المرض الملازم ، ودنف المريض كفرح : ثقل .

٤١٥ — كتابه إلى يزيد

وكتب إلى يزيد بن عبد الملك أيضًا :

« إياكَ أن تُدركك الصَّرْعَةُ عند الغِرَّة ، فلا تُقال العَثْرَةَ ، ولا تُمَكَّن من الرَّجْعة ، يحمَدك مَنْ خلَّفْتَ بما تركتَ ، ولا يَعْذِرك من تَقْدَم عليه بما اشتغلت به ، والسلام » .

٤١٦ — كتابه إلى يزيد

وكتب إليه :

« سلام الله وبركاته عليك ، فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ ، فإن سليمان بن عبد الملك كان عَبداً من عباد الله قبَضَهُ الله ، واستخلفنى وبايع لى من قِبَله ، وليزيد بن عبد الملك أن يكون من بعدى ، ولو كان الذى أنا فيه ، لِاتّخاذ أزواج أو اعتقاد[1] أموال ، كان الله قد بلغ بى أحسنَ ما بلغ بأحد من خلقه ، ولكنى أخاف حسابا شديداً ، ومَسْأَلَةً لطيفة[2] ، إلا ما أعان الله عليه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٧٨)

٤١٧ — كتابه إلى مؤدب ولده

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدِّب ولده :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سَهل مولاه :

أما بعد ، فإنى اخترتُك على عِلْمٍ منى بك لتأديب وَلَدِى ، فصرفتُهم إليك عن غيرك من مَوَالِىَّ وذوى الخاصة بى ، نخذهم[3] بالجفاء فهو أمْعَنُ لإقدامهم ، وترك

---

(١) اعتقد مالا : اقتناه . (٢) أى دقيقة من لطف ككرم إذا دق .

(٣) فى الأصل « لحدثهم » ورأى أن صوابه « فخذهم » .

الصُّحبة فإن عادَتَها تَكسِبُ[1] الغفلةَ ، وَقِلَّةَ الضحك فإن كثرته تُميت القلب ، وليكن أولَ ما يعتقدون من أدَبك بغض المَلَاهي التي بَدْؤُها من الشيطان ، وعاقِبتُها سُخْط الرحمن ، فإنه بلغني عن الثِّقات من أهل العلم أن حضورَ المَعَازِف[2] واستماعَ الأغاني واللَّهَج[3] بها يُنْبِتُ النِّفاق في القلب كما يُنبت العُشْبَ الماء ، ولعمري لَتوَقِّي ذلك بتركِ حضورِ تلك المواطن أيسرُ على ذي الذهن من الثبوت على النِّفاق في قلبه ، وهو حين يفارقها[4] لا يعتقد مما سمعت أذناه على شيء مما ينتفع به ، ولْيَفْتتح كلُّ غلامٍ منهم بجزء من القرآن يَتَثَبَّت في قراءته ، فإذا فَرَغ تناول قَوْسَه و نَبْله ، وخرج إلى الغَرَض حافيًا فرمى سبعة أرشاق[5] ، ثم انصرف إلى القائلة[6] ، فإن ابن مسعود رضي الله عنه كان يقول : « يا بَنِيَّ قِيلُوا ، فإن الشياطين لا تَقِيل » .

(سيرة عمر لابن الجوزي ص ٢٥٧)

٤١٨ — كتاب عمر بن الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز

ولما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز جعل لا يَدَعُ شَيْئًا مما كان في يده ويد أهل بيته من المظالم إلا رَدّها مَظْلِمَةً مَظْلِمَةً ، فبلغ ذلك عُمَرَ بن الوليد بن عبد الملك ، فكتب إليه :

« إنك أَزْرَيْتَ[7] على من كان قبلك من الخلفاء ، وَعِبْتَ عليهم ، وسِرْتَ بغير سيرتهم ، بُغْضًا لهم وشَنَآنًا[8] لمن بعدهم من أولادهم ، وقطعْتَ ما أمَرَ اللهُ به أن

---

(١) يقال : كسبه مالا وأكسبه إياه فكسبه هو .
(٢) المعازف : الملاهي كالعود والطنبور جمع معزف كمنبر ومكنسة .
(٣) لهج بالأمر : أغرى به فثابر عليه .
(٤) وفي رواية أخرى « حين لا يفارقها » والمعنى على كلتاهما صحيح .
(٥) الإرشاق جمع وشق بالكسر : وهو الوجه من الرمي .
(٦) القائلة : نصف النهار ، وقال قيلا وقائلة وقيلولة ومقيلا ومقالا : نام فيه .
(٧) زرى عليه كرمى زراية : عابه كأزرى ، لكنه قليل .
(٨) الشنآن : البغض .

يُوصَلَ ، إذ عَمَدْتَ إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتَها بيت المال جَوْرا وعُدْوانًا ، يابن عبد العزيز ، اتق اللهَ وراقِبْه إن شَطَطْتَ ، لم تطمئِنَّ على مِنْبَرك حتى خَصَصْتَ أولَ قَرابتك بالظلم والجَوْر ، فوالذى خص محمداً صلى الله عليه وسلم بما خَصَّه به ، لقد ازددتَ من الله بُعْدًا فى ولايتك هذه، إذ زعمتَ أنها عليك بَلاء ، فأَقْصِرْ بعض ميلك، واعلم بأنك بعَيْنِ جبَّار ، وفى قَبْضته ، ولن تُتْرَكَ على هذا » .

٤١٩ — رد عمر على كتابه

فلما قرأ عمر بن عبد العزيز كتابه كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد : السلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، أما بعدُ : فإنه بلغنى كتابك وسأجيبك بنحو منه :

أما أول شأنِك[1] يابن الوليد ، فإنَّ أُمَّك بُنَانةَ أَمَةَ السَّكُون[2]، كانت تطوف فى أسواق حِمْص وتدخل فى حَوانيتها ، ثم الله أعلَمُ بها ، اشتراها ذُبْيان بن ذُبْيان من فىء المسلمين ، فأهداها لأبيك ، فحملَتْ بك ، فبئس الحامل وبئس المحمول ، ثم نشأْتَ فكنت جَبَّاراً عنيداً .

تزعم أنى من الظالمين ، لأنى حرمتُك وأهلَ بيتك فىء الله عزّ وجلّ الذى هو حقُّ القرابة والمساكين والأرامل ، وإن أظلم منى وأَتْرَكَ لِعَهْدِ اللهِ من استعملك صبيًّا سفيهًا على جُند المسلمين تحكُمُ بينهم برأيك ، ولم تكن له فى ذلك نيَّة إلا حُبّ الوالد

---

(١) وفى البيان والتبيين « أما بعد فإنك كتبت تذكر أن عاملا أخذ مالك بالحمية ، وتزعم أنى من الظالمين . . . » .

(٢) اسم قبيلة من كندة كانت تسكن شمالى حضرموت ، وفى البيان والتبيين « فأنت عمر بن الوليد، وأمك صناجة تدخل دور حمص وتطوف فى حوانيتها » وامرأة صناجة (بفتح الصاد وتشديد النون) : تضرب بالصنج (بالفتح) وهو شىء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر، وآلة بأوتار يضرب بها ، والظاهر أنه يريد بصناجة الوصف لا العلم .

لولده ، فَوَيْلٌ لك وويل لأبيك ، ما أكثرَ خُصَماء كما يوم القيامة ! وكيف ينجو أبوك من خُصمائه ؟

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس[1] العرب ، يَسفِك الدم الحرام ، ويأخذ المال الحرام .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل قُرّةَ بن شَرِيك أعرابيًّا جافيًّا على مصر ، وأذِن له فى المَعَازِف واللهو والشرب .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهمًا فى الخمس .

فرُوَيدا يابن بنانة ، فلو التقت حَلْقَتا البِطان[2] وَرُدَّ الفىء إلى أهله ، لتفرغتُ لك ولأهل بيتك ، فوضعتكم على المَحَجَّة البيضاء ، فطالما تركتم الحق ، وأخذتم فى بُنَيَّات الطريق[3] ، ومن وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أكون رأيته : بَيْعُ رقبتك وقَسْم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل فإن لكل فيك حقًّا ، والسلام علينا ولا ينال سلامُ الله الظالمين » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ١٤٧ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

* * *

وفى خبر آخر أنه كتب إليه :

« إنَّ أظلم منى وأجوَر من وَلَّى عَبْدَ ثقيف العراقَ ، فحكم فى دمائهم وأموالهم ، وإن أظلم منى وأجور وأترك لعهد الله مَن ولَّى قُرَّةَ مصرَ جِلفًا جافيًا ، وإن أظلم منى وأجور وأترك لعهد الله من ولى عثمانَ بن حَيَّان الحجازَ فأنشد الأشعار على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أمك كانت تختلف إلى حوانيت حِمْص فاشتراها ذُبْيان

(١) وفى رواية ابن أبى الحديد « على خمسى العرب » .

(٢) البطان : حزام القتب ، وهو مثل يضرب عند بلوغ الشدة منتهاها .

(٣) بنيات الطريق : الطرق الصغار تتشعب من الجادة .

ابن ذبيان فبعث بها إلى أبيك ، فحملتْ بك فبئس الجنين ، وبئس المولود ، ثم وضعتْك جباراً شقياً ، لقد هممْتُ أن أبعث إليك من يحلق جمتك[1] ، فبئس الجمة » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص١١٣)

* * *

وفى خبر آخر أنه كتب إليه كتابا فيه :

« وقسم لك أبوك الخمس كله ، وإنما سهم أبيك كسهم رجل من المسلمين ، وفيه حق الله وحق الرسول وذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فما أكثر خصماء أبيك يوم القيامة ، فكيف ينجو من كثُر خصماؤه ؟ وإظهارك المعازفَ والمزاميرَ بدعة فى الإسلام ، لقد هممتُ أن أبعث إليك من يجزُّ جمّتك جمّة السوء » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١١٤)

٤٢٠ — كتابه حين توفى ابنه عبد الملك

« أما بعدُ ، فإن الله تبارك اسمُه ، وتعالى جدُّه[2] ، كتَب على خَلْقه حين خلقهم الموتَ ، وجَعل مَصيرهم إليه ، فقال جل ثناؤه فيما أنزل فى كتابه الصادق ، الذى حَفظه بعِلْمه ، وأَشهدَ ملائكته على حقّه : « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ » وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ » وقال تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وقال عزّ وجل : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » فالموت سبيلُ الناس فى الدنيا ، لم يكتب الله لمُحْسن ولا لمسىء فيها خُلودًا ، ولم يرضَ ما أعجبَ أهلَها ثواباً لأهل طاعته ، ولم يرض ببلائها عقوبةً لأهل معصيته ، فكل شىء منها أعجبَ أهلَها أو كَرِهوا منه شيئًا متروكٌ ، لذلك خُلِقَت منذُ خُلِقَتْ ، ولذلك سُكِنَتْ منذ سكنت

(١) الجمة: مجتمع شعر الرأس .   (٢) الجد : العظمة .

لِيَبْلُوَ[1] الله فيها عبادَه أيُّهم أَحْسَنُ عَمَلاً ؟ فمَنْ قَدِمَ عند خروجه من الدنيا إلى طاعة الله ورضوانه من أنبيائه وأئمة الهُدَى الذين أمَرَ الله نبيه أن يقتدى بهداهم ، خُلِّد فى دار الإقامة من فضله ، لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا لُغُوبٌ[2] ومن كانت مفارقتُه الدنيا إلى غيرهم وإلى غير منازلهم ، فقد قابل الشَّرَّ الطويل ، وأقام على مالا قِبَل له به ، وأسأل الله برحمته أن يُبقينا ما أبقانا فى الدنيا مُطيعين أمره ، مُتَّبِعين لكتابه ، وأن يُقْدِمنا إذا خرجنا من الدنيا إلى نبينا ومن أَمَر أن يُقْتَدَى بهداهم من المصطفَيْن الأخيار ، وأسأله برحمته أن يَقِينا أعمالَ السوء فى الدنيا ، والسيئاتِ يوم القيامة .

ثم إن عبد الملك ابن أمير المؤمنين كان عبد الله أحسنَ اللهُ إليه ، وأحسن إلى أبيه فيه ، أعاشه ما أحبَّ أن يُعيشَه ، ثم قَبَضه حين أحبَّ أن يَقبِضه ، وهو - فيما علِمْتُ - بالموت مُغْتَبِطٌ[3] يرجو من الله فيه رجاءً حسنًا ، وأعوذ بالله أن تكون لى محبةٌ فى شىء من الأمور تخالف محبةَ الله تعالى ، فإن ذلك لا يَصْلُح لى فى بَلائه[4] عندى ، وإحسانه إلىَّ ، ونعمته علىَّ .

وقد قلت عند ما كان فى سبيله : أحمد الله على ما رجوتُ به ثوابَ الله الحسنَ ، وموعودَه الصادقَ من المغفرة ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم لم أجد فى نفسى - والحمد لله - إلا خيراً من رِضًا بقضاء الله تعالى واحتسابٍ لما كان من المصيبة ، فحمِدْتُ الله على ما مضى وعلى ما بقى ، وعلى كل حال من أمر الدنيا والآخرة ، أحببْتُ أن أُعلِمكم بذلك وأكتب إليكم به فلا أعلمُ مما نِيحَ عليه فى شىء مما قِبَلكم ، ولا يجتمعْ على ذلك أحدٌ من الناس ، ولا رَخَّصْتُ فيه لقريب من الناس ولا بعيد ، والسلام . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٦٨)

* * *

(١) يبلو : يختبر . (٢) اللغوب : التعب والإعياء .
(٣) مسرور . (٤) أى نعمته .

وفى رواية صاحب العقد :

لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عماله :

« إن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله أحسن الله إليه وإلىّ فيه ، أعاشه ما شاء ، وقبَضه حين شاء ، وكان ما علمتُ من صالِحِى شَباب أهل بيته : قراءة للقرآن ، وتحرِّيا للخير ، وأعوذ بالله أن تكون له محبةٌ أخالف فيها محبةَ الله ، فإن ذلك لا يَحْسُن فى إحسانه إلىّ وتتَابُعِ نِعَمِهِ عَلَىّ ، ولأَعْلَمن ما بكت عليه باكيةٌ ، ولا ناحت عليه نائحة ، قد نهينا أهله الذين هم أحقُّ بالبكاء عليه » .

(العقد الفريد ٢ : ٣٥)

٤٢١ — كتابه إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سالم بن عبد الله :

سلام عليك ، فإنى أحْمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ ، فإن الله تبارك اسمه وتعالى جَدُّه ، ابتلانى بما ابتلانى به من أمركم ، من غير مَشُورة منى فيه ولا طلَب ، إلا قضاءً من الرحمن الرحيم ، فأَسْأَلُ الذى ابتلانى بما ابتلانى به من أمر عباده وبلاده أن يُحْسِن عوْنى وعاقبتى وعاقبةَ من وَلّانى أمرهم ، وأن يرزقنى منهم السمعَ والطاعةَ وحُسْن المؤازَرة ، وأن يرزقهم منى الرأفة والمَعْدِلَة ، وقد رأيت أنْ أسير فى الناس بسيرة عمر بن الخطاب[١] رضى الله عنه ، إن قَضَى اللهُ ذلك واستطعتُ إليه سبيلا ، فابعث إلىّ بكتب عمر وقضائه فى أهل القِبْلة[٢] وأهل العَهْد[٣] ، فإنى متبعٌ أثرَه وسائرٌ بسيرته إن شاء الله تعالى ، وأسألُ الله التوفيقَ لما يحبُّ ويرضى » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٧)

---

(١) وأم عمر بن عبد العزيز هى أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب .

(٢) أى المسلمين . (٣) أى الذميين .

٤٢٢ - رد سالم على كتاب عمر

فأجابه سالم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من سالم بن عبد الله بن عمر إلى عبد الله عمر أمير المؤمنين :

« سلامٌ عليك ، فإنى أَحْمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإن الله عزّ وجلّ خَلَق الدنيا لِمَا أراد أن يخلقها له ، فجعل لها مدةً قصيرة ، كأَنَّ ما بين أولها وآخرها ساعةً من نهار ، ثم قَضَى عليها وعلى أهلها الفَنَاء ، فقال : « كُلُّ شَيْء هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » لايقدِرُ أهلها منها يا عمر على شيء حتى تفارِقَهم ويفارقوها ، بعث بذلك رسولَه ، وأنزل كتابَه ، ضرب فى ذلك الأمثالَ ، وضربَ فيه الوعيدَ ، جعل دينه فى الأولين والآخرين دينا واحدا فلم يختلف رُسُلُه ، ولم يُبَدِّلْ قولُه ، ثم إنك يا عمرُ لست تَعدو أن تكون رجلا من بنى آدمَ ، يكفيك ما يكفى رجلا منهم ، من الطعام والشّراب ، فاجعل فَضْلَ ذلك فيما بينك وبين الربّ الذى تُوجِّه إليه شُكرَ النعم ، فإنك قد وَلِيت أمراً عظيما ، ليس يَلِي عليك أحدٌ دونَ الله عزّ وجل ، إن استطعتَ أن لاتخسَرَ نفسَك وأهلَك يومَ القيامة فافعل ، فإنه قد كان قبلك رجال عَمِلوا ما عملوا وأحْيَوا ما أحْيَوا من الباطل ، وأماتوا ما أماتوا من الحق ، حتى وُلِد فى ذلك رجال ونَشئوا فيه ، وظنوا أنها السُّنَّة ، فسَدُّوا على الناس أبواب الرّخاء ، فلم يسُدّوا منها بابا إلا فتح الله عليهم باب بَلاء ، فإن استطعتَ - ولا قوةَ إلا بالله - أن تفتح على الناس أبوابَ الرخاء فافعل ، فإنك لَنْ تفتح منها باباً إلا سدَّ اللهُ الكريم عنك بابَ بلاء ، ولا يَمْنعك مِن نَزْع عامل أن تقول لا أَجِدُ من يَكفينى عَمَله ، فإنك إذا كنت تنزِعُ لله ، وتستعمل لله ، أتاح الله لك أعوانا ، فأتاك بهم ، وإنما

قَدْرُ عَوْنِ الله إياك بِقَدْر نيتك ، فإن تمّت نيتّك تمّ عونُ الله الكريم إياك ، وإن قَصُرت نيتك قَصُرَ من الله العَوْنُ بحسب ذلك .

فإن استطعت أن تأتِيَ اللهَ يوم القيامة لا يَتْبَعَك أحد بظلم ، ويجيء من كان قبلك وهم غابطون لك بقلة أتباعك ، وأنت غير غابط لهم بكثرة أتباعهم ، فافعل ، ولا قوة إلا بالله ، فإنهم قد عاينوا هَوْلَ المطْلَع ، وعالجوا نَزْع الموت الذى كانوا منه يَفِرّون ، فانشقّتْ بطونُهم التى كانوا لايشبَعون بها ، وانفقأتْ أعينُهم التى كانت لا تنقطِع لذّتُها ، واندقّت رقابُهم فى التراب غيرَ مُوَسَّدِين ، بعد ما تَعْلَم من تَظَاهُرِ(١) الفُرُش والمَرافِق والسُّرُر والخَدَم ، فصاروا جِيَفًا فى بطون الأراضى تحت مِهادِها ، والله لو كانوا إلى جانب مِسْكين لتَأَذّى برِيحهم بعد إنفاق مالا يُحْصَى عليهم وعلى خواصِّهم من الطِّيب ، كل ذلك إسرافًا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ما أعظمَ الذى ابتليتَ به ، وأفظعَ الذى سِيقَ إليك من أمر هذه الأمة ! أهل العراق : وأهل العراق يكونوا من صدرك بمنزلة من لا فقْرَ بك إليه ، ولا غنى بك عنه ، أهل العراق أبرهم منك منزلة من لافقر بك إليه ولا غنى بك عنه فمن بعثْتَ من عملك إلى العراق ، فانهَه نهيا شديداً شبيهاً بالعقوبة عن أَخْذ الأموال وسَفْك الدماء إلا بحقّها ، المالَ المالَ ياعمر ، الدمَ الدمَ ياعمر ، فإنه لا نجاة لك من هول جَهَنَّمَ من عامل بلغَك ظُلْمُه ثم لم تغيِّره ، وانهَ مَن بعثْتَ من عمالك أن يعملوا بمعصية ، أو أن يحكموا بشُبْهة ، أو أن يحتكروا على المسلمين بَيْعًا ، فإنك إن اجترأتَ على ذلك أُتِى بك يوم القيامة ذليلا صغيراً ، وإن تجنبت عنه عرَفتَ راحتَه فى سمعك وبصرك وقلبك. ثم إنك كتبت إلىّ تسألنى أن أبعثَ إليك بكُتُب عمر وبقضائه فى أهل القبلة وفى أهل العهد ، وإن عمر رضى الله عنه عَمِل فى غير زَمانك ، وعمل بغير رجالك ، وإنك إن عملت فى زمانك على النحو الذى عَمِل عمرُ بن الخطاب فى زمانه بعد الذى

---

(١) يقال : ظاهر بين ثوبين ، إذا طابق بينهما ولبس أحدهما على الآخر ، وكأنه من التظاهر وهو التعاون والتساعد .

رأيتَ وبَلوتَ ، رجوتُ أن تكون أفضلَ عند الله منزلة من عمر بن الخطاب ، فَقُلْ كما قال العبد الصالح :

« وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » ، والسلام عليك » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٧)

٤٢٣ — كتاب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز
صفة الإمام العادل

ولما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن البصرى[1] أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعَلَ الإمامَ العادل قِوامَ كلِّ مائل ، وقَصْد[2] كلِّ جائر ، وصَلاحَ كل فاسد ، وقوّة كل ضعيف ، ونَصَفة[3] كل مظلوم ، ومَفزَعَ كل ملهوف . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتادُ لها أطيب المرْعَى ، ويَذُودُها عن مراتع الهَلَكَة ، ويَحْميها من السباع ، ويَكْنُفها من أذى الحرّ والقرّ[4] ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأبِ الحانِى على ولده ، يسعى لهم صِغاراً ويعلمهم كِباراً ، يكتسب لهم فى حياته . ويدَّخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البَرَّة الرَّفيقة بولدها ، حَمَلَتْه كُرها ، ووضعته كُرها ، ورَبَّته طفلًا ، تَسْهَر بسهره ، وتسكُن بسكونه ، تُرْضِعُه تارة ، وتَفْطِمه أخرى ، وتفرحُ بعافيته ، وتغتمُّ بشكايته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين وَصِيُّ اليتامى ، وَخَازِنُ المَساكِين يُرَبِّى صغيرهم ،

---

(١) هو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى ، وكان أبوه يسار من سبي ميسان ، (بلدة بأسفل البصرة) سباه المغيرة بن شعبة حين افتتحها فى عهد عمر بن الخطاب ، ثم صار يسار مولى لزيد ابن ثابت وعنه أخذ الحسن العلم وتفقه فى الدين ، وكانت أم الحسن وتسمى خيرة مولاة لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وفى بيتها ولد الحسن سنة ٢١ وقيل سنة ٢٢ بالمدينة المنورة ، ونشأ الحسن بوادى القرى وتلقى الفصاحة عن أعرابه ، وكان من سادات التابعين وكبرائهم ، بارعا فى الفقه ، معروفا بالورع والزهد والعبادة ، وهو شيخ واصل بن عطاء رأس المعتزلة . وكانت وفاته بالبصرة سنة ١١٠ هـ فى خلافة هشام .

(٢) هداية ورشاد . (٣) اسم من الإنصاف . (٤) مثلث القاف : البرد .

ويَمُون كبيرهم . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تَصْلُح الجوانحُ بصلاحه ، وتَفسُدُ بفساده . والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده يَسْمَع كلام الله ويُسْمِعهم ، وينظر إلى الله ويُرِيهم ، وينقادُ إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك اللهُ كعبد ائتمنه سيده ، واستحفَظه ماله وعياله ، فبدَّد المال ، وشَرَّد العيال ، فأفقرَ أهله ، وفرَّقَ ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدودَ ليزْجُر بها عَنِ الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها مَن يَلِيها؟ وأن الله أنزل القِصاصَ حَياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم مَن يقتصُّ لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلَّة أشياعِك عنده ، وأنصارِك عليه ، فتزوَّدْ له ، ولِما بعدَه من الفزَع الأكبر. واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزِلا غير منزلك الذى أنت فيه، يَطُول فيه ثَواؤك ، ويفارِقك أحِبَّاؤك ، ويُسْلِمونك فى قَعْره فَريدًا وحيداً ، فتزوّد له ما يَصْحَبُك يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْء مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيه ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . واذكر يا أمير المؤمنين إذَا بُعْثِرَ مافى القبور ، وحُصِّلَ مافى الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتابُ لَا يُغادِرُ صَغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، فالآنَ يا أمير المؤمنين وأنت فى مَهَل ، قبلَ حُلولِ الأجل وانقطاعِ الأمل ، لاتحْكُمْ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فى عِبَادِ اللهِ بحُكم الجاهلين ، ولا تسلُكْ بهم سبيلَ الظالمين ، ولا تسلِّط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لَايَرْقُبون فى مُؤْمِنٍ إلاًّ[1] ولا ذِمَّةَ ، فتبوءَ بأوزارك وأوزارٍ مع أوزارك ، وتحملَ أثقالَك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرّنك الذين يتنعمون بما فيه بُؤْسُك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طَيِّبَاتِكَ فى آخرتك . لاتنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدا ، وأنت مأسورٌ فى حَبائل الموت ، وموقوفٌ بين يدى الله فى مَجمَع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عَنَتِ[2] الوجوهُ للحى القيوم . إنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعِظَتى ما بَلَغَهُ أولو النُّهَى من قبلى فلَم آلُك[3] شفقةً

---

(١) عهدا . (٢) خضعت وذلت . (٣) لم أقصر .

ونصحا ، فأنزلْ كتابى إليك كَمُداوى حبيبه بسقيه الأدويةَ الكريهة ، لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

(العقد الفريد ١ : ١٢ ، والحسن البصرى لابن الجوزى ص٥٦)

٤٢٤ — رسالة الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله :

« أما بعدُ ، اعلم يا أمير المؤمنين أن الدنيا دار ظَعْن(١) ، وليست بدار إقامة ، وإنما أُهبِط إليها آدمُ من الجنة عُقوبةً ، وقد يحسب مَن لايدرى ما ثوابُ اللهِ أنها ثواب ، ومن لم يَدْرِ ما عقابُ الله أنها عقاب ، ولها فى كل حين صَرْعة، وليست صَرْعةٌ كصرعة هى تُهين مَن أكرمَها ، وتُذِل من أعزَّها ، وتَصْرَع من آثَرَها ، ولها فى كل حينٍ قَتْلَى ، فهى كالسّم يأكله من لايَعْرِفه وفيه حَتْفُه ، فالزادُ فيها ترْكُها ، والغِنى فيها فقْرُها ، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمُداوى جرْحَه : يصبِر على شدة الدواء ، مخافةَ طولِ البَلاء ويحتمى قليلا ، مخافةَ ما يكره طويلا ، فإن أهل الفضائل كانوا مَنطِقُهم فيها بالصواب ، ومَشْيُهم بالتواضُع ، ومَطْعَمهم الطيِّبُ من الرزق ، مُغمضى أبصارهم عن المَحارم ، نخوفُهم فى البرِّ كخوفهم فى البحر ، ودعاؤهم فى السَّرَّاء كدعائهم فى الضَّرَّاء ، لولا الآجالُ التى كتبَت لهم ، ماتقاوَتْ أرواحهم فى أجسادهم خوفا من العقاب ، وشوقا إلى الثواب ، عَظُم الخالق فى نفوسهم ، فصَغر المخلوقون فى أعينهم .

واعلم يا أمير المؤمنين أن التفكر يدعو إلى الخير والعمل به ، وأن الندم على الشر يدعو إلى تركه ، وليس ما يَفْنَى وإن كان كثيراً بأهْلٍ أن يُؤْثَرَ على ما يبقى وإن كان طلبه عزيزاً ، واحتمال المَئُونة المنقطعة التى تُعْقِب الراحَة الطويلة خيرٌ من تعجيل راحة منقطعة تُعقِب مئونةً باقية ، وندامة طويلة . فاحذر هذه الدنيا الصارعة الخاذلة

---

(١) ارتحال :

القاتلة التى قد تزَيَّنت بخُدَعها ، وفتَكَت بغرورها ، وخَدَعت بآمالها ، فأصبحت كالعروس المَجْلُوَّة ؛ فالعيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها وَالهة[1] ، والنفوس لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلهم قاتلة ، فلا الباقى بالماضِى مُعتبر ، ولا الآخِرُ لِمَا رأى مِنْ أثَرِها على الأول مُزْدَجِر ، ولا العارفُ بالله المصدق له حين أخبره عنها مُدَّكِر ، قد أبَتِ القلوبُ لَهَا إلا حُبّا ، وأبت النفوس لها إلا عِشقا ، ومن عَشِق شيئاً لم يُلْهَمْ غيرَه ، ولم يَعْقِل سواه ، مات فى طلبه ، وكان آثرَ الأشياء عنده فهما عاشقان طالبان مجتهدان ؛ فعاشِقٌ قد ظَفِرَ منها بحاجته فَأَغنَته ، وطغَى ونسِيَ ولَهَا ، فغفَل عن مبتدإ خَلْقه ، وضيَّع ما إليه معادُه ، فقلَّ فى الدنيا لُبثه حتى زالت عنه قَدَمُه ، وجاءته منيَّتُه على أسرِّ ما كان منها حالا وأطول ما كان فيها أمَلا ، فعظُم ندمه ، وكثُرت حَسْرَته ، مع مَا عالج من سَكْرَته ، فاجتمعت عليه سَكْرة الموت بِكَرْبته ، وَحَسْرَة الفَوت بغُصَّته ، فغيرُ موصوف مَا نزَلَ به . وآخر مَاتَ من قبل أن يظفَر منها بحاجته ، فمات بغمِّه وكَمَده ، ولم يدرك فيها مَا طَلَب ، ولم يُرح نفسه من التعب والنَّصَب ، فخرجا جميعاً بغَير زاد ، وقَدِمَا على غير مِهاد . فاحذَرْها يا أمير المؤمنين الحذَرَ كلَّه ، فإنما مثلها كمثل الحيّة ، لِيِّنٌ مَسُّها ، تقتل بسمّها ، فأعرِض عما يُعجبك فيها ، لقلة ما يَصْحَبك منها ، وضع عنك همومَها ، لِمَا قد أيقنتَ من فراقها ، واجعل شِدة مَا اشْتَدَّ منها رجاءَ مَا ترجو بعدها ، وكن - عند أسرِّ ما تكون فيها - أحذَر ما تكون لها ؛ فإن صاحب الدنيا كلما اطمأنَّ منها إلى سرور ، صَحِبَته من سرورها بما يسوءه ، وكلما ظَفِرَ منها بما يحب انقلبت عليه بما يَكْرَه ، فالسارُّ منها لأهلها غَارٌّ ، والنافع منها غدا ضارٌّ ، وقد وُصل الرخاء فيها بالبَلاء ، وجُعل البقاء فيها مُؤَدِّيا إلى الفناء ، فسرورُها بالحزن مَشُوبٌ ، والناعم فيها مسلوب .

---

(١) من الوله بالتحريك ، وهو ذهاب العقل من شدة الوجد .

فانظر يا أمير المؤمنين إليها نظَر الزاهد المفارق ، ولا تنظر نظر المبتلَى العاشق ، واعلم أنها تُزيل الثَّاوِيَ[1] الساكن ، وتَفجَع المُترَف فيها الآمِن ، ولا تَرْجِع ما تولَّى وأدبرَ ، ولا بدَّ ما هو آتٍ منها يُنتظر ، ولا يتبع ما صفا منها إلا كدر ، فاحذَرْها فإن أمانيّها كاذبة ، وآمالَها باطلة ، وعيشها نكد ، وصَفْوها كدر ، وأنت منها على خَطَر ، إما نعمة زائلة ، وإما بلية نازلة ، وإما مصيبة فادحة[2] ، وإما منيّة قاضية ، فلقد كدَّرتْ المعيشةَ لمن عقل ، فهو من نعيمها على خَطَر ، ومن بليّتها على حَذَر ، ومن المنية على يقين .

فلو كان الخالق تبارك وتعالى لم يُخْبر عنها بخبر ، ولم يضرب لها مَثَلا ، ولم يأمر فيها بزُهْد ، لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ، ونبّهت الغافل ، فكيف وقد جاء عن الله عزّ وجل منها زاجر ، وفيها واعظ ، فما لها عنده قَدْر ولا وزْن من الصِّغَر ، فلَهيَ عنده أصغر من حَصَاة فى الحصَى ، ومن مقدار نَواة فى النَّوَى ، ما خلق الله عزّ وجل فيما بلغنا أبغضَ إلى الله تعالى منها ، ما نَظَر إليها منذ خَلَقَها ، ولقد عُرِضت على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها ، لا يَنْقُصه ذلك عند الله جَناحَ بَعُوضة ، فأبى أن يقبلها ، وما منعه من القبول لها - مع مالا يَنقُصه الله شيئا مما عنده كما وعَدَه - إلا أنه عَلِمَ أن الله عزَّ وجلَّ أبغض شيئًا فأَبغضه ، وصغّر شَيئا فصغّره ، ولو قبلها كان الدليل على محبته قبوله إياها ، ولكنه كَرِه أن يخالِفَ أمْرَه ، أو يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مَليكه .

وكان فى آخر هذه الرسالة :

ولا تأمَنْ أن يكون هذا الكلام حُجَّة عليك ، نفعنى الله وإياك بالموعظة ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢١)

---

(١) الثاوى : المقيم . (٢) فدحه : أثقله .

٤٢٥ — كتاب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : اكتب إلىّ يا أبا سعيد بِذَمٍّ الدنيا فكتب إليه :

«أما بعدُ يا أمير المؤمنين، فإن الدنيا دار ظَعْنٍ وانتقال، ولَيست بدار إقامة على حال، وإنما أُنزِل إليها آدمُ عقوبةً ، فاحْذَرها ، فإن الراغب فيها تارك ، والغنى فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرَّضْ لها ، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجَدها تُذِلُّ مَنْ أعزها ، وتفرِّق مَنْ جَمَعَها ، فَهى كالسّمّ يأكله من لا يعرفه ، ويرغَبُ فيه من يَجْهَله ، وفيه والله حَتفُه ، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالداوى جِراحه ، يحتمى قليلا مخافةَ ما يَكْرَه طويلا ، الصبرُ على لأوائها[١] أيسرُ من احتمال بلائها ، واللبيبُ مَنْ حَذِرَها ولم يغترَّ بزينتها ، فإنها غدّارة ختّالة[٢] خدّاعة ، قد تعرضَتْ بآمالها ، وتزيّنَتْ لخُطّابها ، فهىَ كالعَروس ، العُيونُ إليها ناظِرة ، والقلوبُ عليها والهةٌ ، وهى — والذى بَعثَ محمدًا بالحق — لِأزواجها قاتِلةٌ ، فاتق يا أمير المؤمنين صَرْعَتَها ، واحذَر عَثْرَتها ، فالرّخاء فيها موصولٌ بالشدة والبلاء، والبقاء مُؤَدٍّ إلى الهَلَكة والفَناء .

واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيَّها كاذبة ، وآمالَها باطلة ، وصفوها كَدَر ، وعيشها نَكَد ، وتارِكها موفَّق ، والمتمسِّك بها هالك غَرِق ، والفطِن اللبيب من خاف ماخوَّفه الله ، وحَذِر ماحذَّره ، وقدَّر من دار الفناء إلى دار البقاء ، فعند الموت يأتيه اليقين ، الدنيا — والله يا أمير المؤمنين — دارُ عقوبة ، لَها يَجْمَع مَنْ لا عَقْلَ له ، وبها يغترُّ مَنْ لا عِلْمَ عنده ، والحازم اللبيبُ من كان فيها كالمُداوى جِراحه ، يصبرُ على مرارة الدواء لِمَا يرجو من العافية ، ويخاف من سُوء عاقبة الدار ، والدُّنيا — وايمُ الله يا أمير المؤمنين —

---

(١) اللأواء : الشدة .

(٢) خداعة .

حُلْم ، والآخرة يَقَظَة ، والمتوسِّط بينهما الموت ، والعبادُ فى أضْغاثِ أحلام ، وإنى قائل لك ياأمير المؤمنين ما قال الحكيم :

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذى عظيمة وَإلاَّ فإنى لا إخالُكَ ناجيا »[1]

ولما وصل كتابه إلى عمر بن عبد العزيز بكى وانتحب حتى رَحِمَه مَنْ كان عنده وقال : يرحم الله الحسن، فإنه لا يزَال يُوقِظنا من الرَّقْدَة ، وينبهنا من الغفلة ، وَلِلّهِ هو من مُشْفِق ما أنصحَه ! وواعظٍ ما أصدقَه وأفصحَه !

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤)

٤٢٦ — كتاب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز :

« وَصلَتْ مواعظُك النَّافعة فاشتفيتُ بها ، ولقد وصفتَ الدنيا بصفتها ، والعاقلُ من كان فيها على وَجَل ، فكأنّ كُلّ من كُتِبَ عليه الموتُ من أهلها قد مات ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته » .

فلما وصل كتابه إلى الحسن ، قال : لله أمير المؤمنين مِنْ قائلٍ حقا ، وقابلٍ وعظا ، لقد أعظم الله — جل ثناؤه — بولايته المِنَّةَ ، ورحم بسلطانه الأمةَ ، وجعله بركة ورحمة .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٥)

٤٢٧ — كتاب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز

وكتب إليه : « أما بعدُ ، فإن الهول الأعظم ، والأمر المطلوب أمامك ، ولا بُدَّ من مشاهدتك ذلك : إما بنجاة أو بعَطَب » .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٦)

---

(١) فى هذه الرسالة بعض مافى سابقتها ، وقد أوردت كليهما كما وردت .

٤٢٨ - كتاب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : اكتب إلىّ يا أبا سعيد بموعظة فأوجِز ، فكتب إليه :

« أما بعدُ يا أمير المؤمنين : فكأنّ الذى كان لم يكن ، وكأن الذى هو كائنٌ قد نزَل ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر - وإنْ أذاقك تعجيل مرارته - فلنِعم ما أعقبَك من طيب حلاوته ، وحُسْنِ عاقبتِه ، وأن الهَوى - وإن أذاقك طَعْمَ حَلاوته - فلبئس مَا أعقبك من مرارته وسوء عاقبته ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الفائز مَنْ حَرَص على السلامة فى دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فأُدخِلَ الجنةَ » .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤)

٤٢٩ - كتاب الحسن إلى عمر

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصرى « عِظْنى » فكتب إليه الحسن :

« أما بعدُ : يا أمير المؤمنين ، فكن للمِثْل من المسلمين أخا ، وللكبير ابناً ، وللصغير أبا ، وعاقِبْ كلَّ واحد منهم بذنبه على قدر جسمه ، ولا تضربَن لغضبك سَوطا واحداً فتدخُلَ النار[1] » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٤)

٤٣٠ - كتاب الحسن إلى عمر

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز :

« واعلم أن الهول الأعظم ، ومُفْظِعات الأمور أمامك لم يقطع منها بعد ، وأنه لابُدَّ واللهِ لك من مشاهدة ذلك ومعاينته ، إمّا بالسلامة والنجاة منه ، وإما بالعَطَب » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٤)

---

(١) ورد هذا القول فى سيرة عمر لابن الجوزى ص ١١ منسوبا الى محمد بن كعب القرظى .

٤٣١ — كتاب الحسن إلى عمر

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصرى « عظنى وأَوْجِزْ فكتب إليه :

« أما بعدُ ، فإن رأس ما هو مُصْلِحك ، ومُصْلَحٌ به على يدك : الزهد فى الدنيا » وإنما الزهد باليقين ، واليقين بالتفكر ، والتفكر بالاعتبار ، فإذا أنت تفكّرت فى الدنيا لم تجدها أهلا أن تبيع بها نفسَك ، ووجدت نفسَك أهلا أن تُكْرِمها بهوان الدنيا ، فإنما الدنيا دار بلاء ، ومنزل غَفْلة » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٤)

٤٣٢ — كتاب الحسن إلى عمر

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز :

« أما بعدُ ، فلو كان لك عُمْر نوح ، ومُلْك سليمان ، ويقين إبراهيم ، وحِكمة لُقْمان ، فإن أمامك هول الموت ، ومن ورائه داران ، إن أخطأَتْك هذه صرت إلى هذه » .

فبكى عمر بكاء شديداً .

وفى خبر آخر أن عمر كتب إلى فقهاء العراق أن يأتوه ، فاعتل الحسن بفَتْق فى بطنه ، وكتب إليه :

« يا أمير المؤمنين : إن استقمتَ استقاموا ، وإن مِلْت مالوا ، يا أمير المؤمنين ، لو أن لك عمرَ نوح ، وسلطان سليمان ، ويقين إبراهيم ، وحكمة لقمان ، ما كان لك بُدٌّ من أن تقتحم العَقَبة ، ومن وراء العقبة الجنة والنار ، من أخطأَتْه هذه دَخَل هذه » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٥)

٤٣٣ — كتاب الحسن إلى عمر

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز :

« أما بعد : يا أمير المؤمنين ، فإن طول البقاء إلى فناء ، فخذ من فنائك الذى لا يَبْقَى ، لبقائك الذى لا يَفْنَى ، والسلام » .

فلما قرأ عمر الكتاب بكى وقال : « نصح أبو سعيد وأوجَزَ » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٦)

٤٣٤ — كتاب الحسن إلى عمر

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز :

« سلام عليك أما بعد : فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل » .

(سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٦)

٤٣٥ — كتاب الحسن إلى عمر

وكتب إليه يعزيه فى ابنه عبد الملك :

« وعُوِّضْتَ أجرا من فقيدٍ ، فلا يكن فَقِيدُكَ لا يأتى ، وأجرُكَ يَذْهَبُ »

(العقد الفريد ٢ : ٣٣)

٤٣٦ — كتاب الحسن البصرى إلى عدى بن أرطاة

ولما وَلِىَ عدىٌّ بن أرطاة البصرة عزم على أن يُوَلِّى الحسنَ القضاء ، فهرب الحسن واستتر ، وكتب إليه :

« أما بعدُ : أيها الأميرُ فإن الكارِه للأمر غيرُ جَدير بقَضاء الواجب فيه ، وإن العامِلَ للعمل بغير نيَّة حَقِيقٌ أن لا يُعان عليه ، ولك فى المختارين للأمر الذى دعوتنى إليه

كفايةٌ وقناعةٌ ، وقَصْدُكَ إياهم وتعويلك عليهم أَوْفَى بك وأصون لعملك ، فإنه لا خيرَ في الاستعانة بمن لا يَرَى أن العمل الذى يُدْعَى إليه واجبٌ عليه ، وفرضٌ لازم له ، فعافِنِي أيها الأمير عافاكَ اللهُ ، وأَحْسِنِ إلىّ بترك التعرُّض لى، فإن الله لا يُضيع أجر من أحسن عملا » .

فعافاه وأكرمه ، وقال : والله ما كنتُ لِأَبْتَلِيَهُ بما يكرهه .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤)

٤٣٧ – كتاب الحسن البصرى إلى مكحول

وروى أن الحسن رضى الله عنه اتصل به أن مكحولا[1] تُوُفِّى ، فحزِن عليه ، وترحّم له ، ثم اتصل به بُطْلانُ ذلك ، فكتب إليه :

« أما بعدُ : – أبا عبد الله ، كان الله لنا ولك فى المَحْيا والممات ، وقضى لنا ولك بخير فى الدنيا والآخرة ، ويسّر لنا ولك حُسْن المآل والمنقلَب ، فإنه أتانا عنك ما رَاعَنا ثم أتى بعده ما أكذَبَه ، فلَعَمْرُ الله لقد سُرِرْنا ، وإن كان السرورُ بما سُرِرْنا به وَشِيكَ[2] الانقطاع ، ذاهباً عما قليل إلى الخَبَر الأول ، فهل أنت – عافاكَ الله ووفّقنا وإياكَ لصالح العمل – كرجل ذاق الموتَ ، وعاينَ ما بعده ، وسأل الرَّجْعة ، فأُجيب إليها ، وأُعْطِيَ ما سأل بعد أن عاين ما فاته ، فتأهَّبَ فى نقل جِهَازه إلى دار قَراره لا يَرَى أن له من ماله إلا ماقدّم أمامه ، ومِنْ عَمِله إلا ما كُتب له ثوابُه ، والسلام » .

(حسن البصرى لابن الجوزى ص ٦٥)

---

(١) هو مكحول بن عبد الله ، كان من سبى كابل ، وقدم إلى سعيد بن العاص فوهبه لامرأة من هذيل فأعتقته ، قال الزهرى : « العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، والشعبى بالكوفة ، والحسن البصرى بالبصرة ، ومكحول بالشأم » ولم يكن فى زمنه أبصر منه بالفتيا ، وسمع أنس بن مالك وغيره ، وهو معلم الأوزاعى ، وكان مقامه بدمشق ، وتوفى سنة ١١٨ هـ – انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ج ٢ : ص ١٢٢ – .

(٢) أى سريع .

٤٣٨ — كتاب طاوس بن كيسان إلى عمر بن عبد العزيز

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه طاوس[1] بن كَيْسان :

« إن أردت أن يكون عملُك خيرا كلَّه فاستعمِلْ أهل الخير » .

فقال عمر ، كفى بها موعظةً ! (وفيات الأعيان ١ : ٢٣٣)

٤٣٩ — كتاب طاوس إلى عمر بن عبد العزيز

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى طاوس ، يسأله عن بعض ما هو فيه فأجابه :

« سلام عليك يا أمير المؤمنين ، فإن الله عز وجل أنزل كتابا ، وأحل فيه حلالا ، وحرَّم فيه حراما ، وضَرَبَ فيه أمثالا ، وجعل بعضه مُحْكَمًا ، وبعضه متشابِها ، فأحِلَّ حلالَ الله ، وحرِّم حرام الله ، وتفكر فى أمثال الله ، واعمل بمُحْكَمه ، وآمِنْ بمتشابهه والسلام عليك » . (سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٢٦)

٤٤٠ — كتاب غيلان إلى عمر بن عبد العزيز

وروى صاحب المُنْية والأمل قال :

كتب غَيلان[2] إلى عمر بن عبد العزيز كتابا قال فيه :

---

(١) هو أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان الخولانى الهمدانى — من أبناء الفرس — وهو أحد الأعلام التابعين ، وكان فقيها جليل القدر نبيه الذكر ، توفى سنة ١٠٦ هـ .

(٢) فى المنية والأمل : « هو غيلان بن مسلم الدمشقى ، قال أبو القاسم هو غيلان بن مروان » وفى الملل والنحل ١ : ١٤٧ كما قال أبو القاسم ؛ وفى سرح العيون ص ٢٠١ « هو غيلان بن يونس القدرى الدمشقى ، كان أبوه مولى لعثمان بن عفان ، وغيلان أول من تكلم فى القدر ، وقيل أول من تكلم فى القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر ، وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى » وقتله هشام ابن عبد الملك فى خلافته لأنه كان فى خلافة عمر يطعن على بنى أمية ويرميهم بأنهم أئمة ظلمة ضلال ، فحقدها عليه هشام حتى تولى فطلبه فقتله ، وقيل إن هشاما أنكر عليه التكلم فى القدر ورأى منه اللجاج فى ذلك ، فبعث إلى الأوزاعى فحاجه فأخرسه ، فأمر به هشام فقتل ، ولعل السببين جميعا أفضيا إلى قتله .

« أبصرتَ يا عُمَر وما كِدتَ ، ونظرتَ وما كدتَ ، اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خَلَقا باليا ، ورَسْما عافياً ، فيا ميتُ بين الأموات لا ترى أثراً فتتّبع ، ولا تسمع صوتاً فتنتفع ، طَفِئ[1] أمرُ السُّنّة ، وظهرت البِدعة . أُخِيفَ العالِم فلا يتكلم ، ولا يُعْطَى الجاهل فيسأل ، وربما نَجَتِ الأمة بالإمام ، وربما هلكت بالإمام ، فانظر : أىُّ الإمامين أنت ، فإنه تعالى يقول : « وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » فهذا إمام هُدًى ومن اتبعه شريكان ، وأما الآخر ، فقد قال تعالى : « وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ » ، ولن تجد داعياً يقول : تعالَوا إلى النار ، إذن لايتبعه أحد ، لكن الدُّعاة إلى النار هم الدُّعاة إلى معاصى الله ، فهل وجدتَ يا عمر حكيما يَعيب ما يصنع ، أو يصنع ما يَعيب ، أو يعذِّب على ما قَضَى ، أو يقضى مايعذب عليه ؟ أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهُدَى ثم يضل عنه ، أم هل وجدت رحيما يكلِّف العباد فوق الطاقة ، أو يعذِّبهم على الطاعة ! أم هل وجدت عَدْلا يحمل الناس على الظلم والتظالم ؟ ، وهل وجدت صادقا يحمل الناس على الكذب أو التكاذب بينهم ! كفى ببيان هذا بيانا ، وبالعمى عنه عمى » فى كلام كثير .

فدعا عمر غيلان وقال : أعِنّى على ما أنا فيه ، فقال غيلان : ولِّنى بيعَ الخزائن وردَّ المظالم ، فولاه فكان يبيعها وينادى عليها ويقول : تعالَوا إلى متاع الخَوَنة ، تعالَوا إلى متاع الظَّلَمة ، تعالوا إلى متاع مَن خَلَفَ الرسول فى أمّته بغير سُنّته وسيرته .

(المنية والأمل ص ٦٦)

---

(١) طفئت النار : ذهب لهبها كانطفأت .

خلافة يزيد بن عبد الملك

(سنة ١٠١ — ١٠٥ هـ)

٤٤١ — كتابه إلى العمال

كتب يزيد بن عبد الملك إلى عمال عمر بن عبد العزيز :

« أما بعدُ ، فإن عُمَر كان مغروراً ، غررْتموه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيتُ كتبكم إليه فى انكسار الخراج والضَّريبة ، فإذا أتاكم كتابى هذا فدَعُوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلى طَبَقتهم[1] الأولى : أخْصبوا أم أجدبوا ، أحَبُّوا أم كَرِهوا ، حَيُوا أم ماتوا ، والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٨١)

٤٤٢ — كتابه إلى أخيه هشام

وروى أن يزيد بن عبد الملك بلغه أن أخاه هشاما يتنَقَّصه ـ وكان الخليفة بعده ـ فكتب إليه :

« إن مَثَلى ومثَلك كما قال الأول :

تَمَنَّى رجالٌ أنْ أموتَ ، وإنْ أمُتْ فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحَدِ

فما عيشُ مَن يرجو رَدَاىَ بِضائرى وما عيشُ مَن يرجو رَدَاىَ بِمُخْلدِ

فقلْ للذى يبغِى خِلافَ الذى مضى تجهَّز لأخرى مثلِها فكأَنْ قَدِ »[2]

---

(١) الطبق والطبقة : الحال . (٢) وفى رواية العقد الفريد :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

لعل الذى يبغى رداى ويرتجى به قبل موتى أن يكون هو الردى

٤٤٣ — رد هشام عليه

فكتب إليه هشام :

« إن مَثَلى ومَثَلك كما قال الأول :

ومن لا يغمِّضْ عينَه عن صديقه … وعن بعضِ ما فيه يَمُتْ وهو عاتب
ومن يتتبَّعْ جاهدًا كُلَّ عَثْرَةٍ … يجِدْها ، ولا يَسْلَمْ له الدهرَ صاحِبُ

٤٤٤ — رد يزيد على هشام

فكتب إليه يزيد:

« نحن مغتفِرون ما كان منك ، ومكذِّبون ما بَلَغنا عنك ، مع حفظ وصيَّة أبينا عبد الملك ، وما حَضَّ عليه من صلاح ذات البَيْنِ ، وإنى لأعلم أنك كما قال معن ابن أَوْس :

لَعَمْرُك ما أدْرِى (وإنى لأَوْجَل) … على أيِّنا تَعْدُو المَنيَّـةُ أولُ !
وإنى عَلَى أشياء منك تَرِيبُنى … قديمًا لَذُو صَفح على ذاك مُجْمِلُ
إذا سُؤْتَنى يومًا صَفَحتُ إلى غدٍ … ليُعْقِبَ يومًا منك آخرُ مُقْبِلُ
وإنى أخوك الدائمُ العهد ، لم أحُلْ … أَنَ اَبْزَاكَ خَصْمٌ أو نبابِك منزلُ[(1)]
أُحارِبُ مَن حاربتَ من ذى عداوة … وأَحبِسُ مالى إن غَرِمتَ فأَعْقِلُ[(2)]
سَتَقْطَعُ فى الدنيا إذا ما قطَعْتنى … يمينَك ، فانظر أىَّ كَفٍّ تبدَّلُ !
وكنتُ إذا ما صاحبٌ رَامَ ظِنَّتى … وبَدَّل سُوءًا بالذى كنتُ أفعلُ[(3)]
قَلَبْتُ له ظَهْرَ الْمِجَنِّ ، ولم أَدُمْ … على ذاك إلا رَيْثَمَا أتحـوَّلُ[(4)]

---

(١) أبزاه : قهره وبطش به ، ووصلت همزته للشعر . ونبا به منزله : لم يوافقه.

(٢) عقل عن فلان : غرم عنه جنايته ، وذلك إذا لزمته دية فأداها عنه .

(٣) الظنة : التهمة .

(٤) المجن : الترس ، ويقال : قلب له ظهر المجن ، وهى كلمة تضرب مثلا لمن كان لصاحبه على مودة أو رعاية ثم حال عن ذلك .

وفى الناس إن رَثَّتْ حِبالُك واصِلٌ ... وفى الأرض عن دَارِ القِلَى مُتحوَّلُ[1]

إذَا أنت لم تُنْصِفْ أخاك وَجدته ... على طَرَف الهِجْران إن كان يَعقِلُ

ويركبُ حَدّ السيفِ من أنْ تُضيمَه ... إذالم يكن عن شفْرةِ السيفِ مَزْحَلُ[2]

فلما جاءه الكتاب رَحَل هشام إليه ، فلم يَزَل فى جِواره إلى أن مات يزيدُ وهو معه فى عسكره مخافَةَ أهل البغى » .

(ذيل الأمالى ص ٢٢٤ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٨٢)

رواية أخرى

وروى المسعودى فى مروج الذهب قال :

وذُكِر أن يزيد بن عبد الملك بلغه أن أخاه هشام بن عبدالملك يتنقَّصه ويتمنَّى موته ويَعيب عليه لَهْوَه بالقَيْنات[3] ، فكتب إليه يزيد :

« أما بعدُ : فقد بلغنى استثقالُك حياتى ، واستبطاؤك موتى ، ولَعَمْرِى إنك بَعْدِى لَوَاهِى الجناحِ ، أَجْذَم الكَفِّ[4] ، وما استوجبتُ منك ما بلغنى عنك » .

فأجابه هشام :

« أما بعدُ : فإن أمير المؤمنين متى فرَّغ سَمْعَه لقول أهل الشَّنآن[5] وأعداء النعم ، يُوشِك أن يَقْدَح ذلك فى فساد ذات البَيْنِ وتقطُّعِ الأرحام ، وأميرُ المؤمنين - بفضله

---

(١) رث الحبل : بلى وأخلق ، والقلى : البغض .

(٢) مزحل اسم مكان ، من زحل عن مكانه كخضع إذا تنحى وتباعد ، وقد وردت هذه الأبيات فى ديوان الحماسة ، وفى خلالها :

كأنك تشفى منك داء مساءتى ... وسخطى وما فى ريبتى ما تعجل

وفى آخرها :

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد ... إليه بوجه آخر الدهر تقبل

(٣) القينة : الجارية المغنية أو أعم .

(٤) الواهى : الضعيف ، والأجذم : المقطوع اليد أو الذاهب الأنامل .

(٥) الشنآن : البغض .

وما جَعَلَه اللهُ أهلا له ـ أوْلَى أن يتغمَّد[1] ذنوبَ أهل الذنوب ، فأمّا أنا فمَعاذَ اللهِ أنْ أستثقِلَ حياتك ، أو أستبطئُ وفاتك » .

فكتب إليه :

« نحن مغتفِرون ما كان منك ، ومكذّبون ما بلَغَنا عنك، فاحفَظ وصيّة عبد الملك إيانا ، وقوله لنا فى ترك التّباغِى والتخاذُلِ ، وما أمَرَ به ، وحَضّ عليه من صلاح ذات البَيْن ، واجتماع الأهواء فهو خير لك وأمْلَك بك ، وإنى لأكتب إليك ، وأَعْلَمَ أنك كما قال الأول :

وإنى على أشياء منك تَريبنى . . . الخ » .

فلما أتى الكتاب هشاما ارتحل إليه ، فلم يزل فى جِواره مخافةَ أهل البغى والسِّعاية حتى مات يزيد . (مروج الذهب ٢ : ١٧٩)

---

(١) تغمده : ستر ما كان منه ، وفى الأصل « يتعمد » وهو تصحيف .

خلافة هشام بن عبد الملك

(سنة ١٠٥ — ١٢٥ هـ)

٤٤٥ — كتاب هشام إلى يوسف بن عمر الثقفى

قال حَمَّاد الراوية[١] :

كان انقطاعى إلى يزيد بن عبد الملك فى خلافته، فكان أخوه هشام يجفونى لذلك، فلما مات يزيدُ وأفْضَتِ الخلافة إلى هشام ، خِفْتُه فمكثت فى بيتى سنةً لا أخرج إلا لمن أثقُ به من إخوانى سرًّا ، فلمّا لم أسمع أحدا يذكرنى سنةً ، أَمِنْتُ فخرجت فصلَّيت الجمعة ، ثم جلست عند باب الفيل ، فإذا شُرْطيّان قد وقفا علىّ فقالا لى : يا حمادُ، أجِبِ الأمير يوسف بن عمر - وكان واليًا على العراق - فقلت فى نفسى : مِن هذا كنت أَحْذَر ! ثم قلت لهما : هل لكما أن تدعانى حتى آتى أهلى فأودِّعَهم وَداعَ من لا ينصرف إليهم أبدا ثم أسير معكما ؟ فقالا : ما إلى ذلك من سبيل ، فاستسلمتُ فى أيديهما وسِرْتُ إلى يوسف بن عمر وهو فى الإيوان الأحمر ، فسلَّمتُ عليه فردّ على السلام ، ورمى إلىَّ كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر ، أما بعد : فإذا قرأت كتابى هذا ، فابعَثْ إلى حَمَّاد الراوية مَن يأتيك به غيرَ مُرَوَّع ولا مُتَعْتَع[٢] ، وادفع له خمسمائة دينار وجَملا مَهْرِيّا[٣] يسير عليه اثنتى عشرة ليلة

(١) هو حماد بن ميسرة ، وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها، وكانت ملوك بنى أمية تقدمه وتؤثره وتستزيره ، فيفد عليهم وينادمهم ، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها ويجزلون صلته ، وهو من الموالى ، وتوفى سنة ١٥٥ هـ - انظر ترجمته فى الأغانى ووفيات الأعيان .

(٢) تعتعه : حركه بعنف ، أو أكرهه فى الأمر حتى قلق .

(٣) إبل مهرية : منسوبة إلى مهرة بن حيدان ، وهم حى عظيم .

إلى دمشق[١] » .

فأخذت الخمسمائة الدينار ، ونظرت فإذا جمل مَرْحُول[٢] ، فوضعت رجلى فى الغَرْز[٣] وسرت اثنتى عشرة ليلةً حتى وافيتُ باب هشام ، فاستأذنتُ فأذِن لى فدخلت عليه فسلمت ، فردَّ علىَّ ، واستدنانى فدنوت حتى قبَّلْت رجله ، وإذا جاريتان لم أر قبلهما مثلهما ، فى أُذُنَىْ كل واحدة منهما حَلْقتان من ذهب ، فيهما لؤلؤتان تتوقَّدان ، فقال لى : كيف أنت ياحماد ، وكيف حالك ؟ فقلت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : أتدرى : فيم بعثتُ إليك ؟ قلت لا ، قال : بعثت إليك لبيت خَطَر ببالى لم أدر من قاله، قلت : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال :

فَدَعَوا بالصَّبُوح يوما ، فجاءت قَيْنَةٌ فى يمينها إبريقُ[٤]

قلت : هذا يقوله عَدِىُّ بن زيد فى قصيدة له ، قال : فأنشِدْنيها ، فأنشدته إياها ، فطرب ثم قال : أحسنتَ والله ياحماد ، سل حوائجك ، قلت : إحدى الجاريتين قال : هما جميعاً لك بما عليهما وما لهما .

فأقام عنده مدة ثم وصَلَه بمائة ألف درهم .

(الأغانى ٥ : ١٥٨ ، وثمرات الأوراق ص٣٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٦٤)

---

(١) هكذا وردت الرواية ومنها ترى أن تلك القصة وقعت فى عهد ولاية يوسف بن عمر الثقفى على العراق ، وأنها كانت بعد تولى هشام الخلافة بسنة أى سنة ١٠٦ هـ (لأنه ولى الخلافة سنة ١٠٥) ولكن المعروف فى التاريخ أن يوسف بن عمر ولى العراق سنة ١٢٠ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله القسرى . قال الطبرى: « وفى سنة ١٠٥ عزل هشام بن عبد الملك عمر بن هبيرة عن العراق وما كان إليه من عمل المشرق (وكان على العراق وخراسان فى خلافة يزيد بن عبد الملك) وولى ذلك كله خالد بن عبد الله القسرى فى شوال » انظر ج ٨ : ص ١٨٠ — وقال : « وفى سنة ١٢٠ قدم يوسف بن عمر العراق واليا عليها» — انظر ج ٨: ص ٢٥٦ — ومن ذلك يتحقق أن ذلك الكتاب بعث به هشام إلى خالد بن عبدالله القسرى لا إلى يوسف بن عمر الثقفى .

(٢) رحل البعير كمنع : حط عليه الرحل .

(٣) ركاب من جلد .

(٤) الصبوح : شراب الصبح ، والقينة : الجارية .

٤٤٦ - كتاب حماد الراوية إلى بعض الرؤساء

وكتب حمّادُ الراويةُ إلى بعض الأشراف الرؤساء، قال:

إنَّ لى حاجةً ، فرأْيك فيها لَكَ نَفْسِى فِدًا من الأَوْصابِ[1]

وَهْىَ ليست مما يُبَلِّغُه غيرى، ولا يستطيعُها فى كتابِ

غيرَ أنى أقولُها حينَ ألقا ك رُوَيْدًا، أُسِرُّها فى حجاب

٤٤٧ - رد كتاب حماد

فكتب إليه الرجل:

«اكتب إلىّ بحاجتك، ولا تُشَهِّرْنى[2] بشعرك».

٤٤٨ - رد حماد

فكتب إليه حماد:

إننى عاشِقٌ لِجُبّتِك الدَّكْناء[3] عِشْقًا قد حال دون الشَّرابِ

فاكْسِنيها (فَدَتْك نفسى وأهلى) أتباهى بها على الأصحابِ

ولك اللهُ والأمانةُ أنْ أجعلَها عُمْرَها أميرَ ثيابى

فبعث إليه بها.

وقد رُوِيت هذه القصة لِمُطِيع بن إياس.

(الأغانى ٥ : ١٦١)

---

(١) الأوصاب: جمع وصب بالتحريك وهو المرض.

(٢) الشهرة بالضم: ظهور الشىء فى شنعة، وقد شهره كمنعه وشهره واشتهره.

(٣) وصف من الدكنة بالضم: وهى لون إلى السواد، وفعله كفرح.

٤٤٩ — كتاب حماد إلى صديق له

وأهدى حماد إلى صديق له غلاما وكتب إليه :

« قد بعثتُ إليك غلاما تتعلم عليه كَظم الغيظ » .

(الأغانى ٥ : ١٦١)

٤٥٠ — كتاب أشرس بن عبد الله إلى ابن أبى العمرطة

وفى سنة ١١٠ هـ وجَّه أشْرَسُ بن عبد الله السُّلَمِىّ(١) عاملُ خُراسان أبا الصَّيْداء صالح بن طَرِيف إلى مَنْ وراء النهر ليدعوهم إلى الإسلام ، فشخَصَ إلى سَمَرْقَند ، وعليها الحسن بن أبى العَمَرَّطَة الكِندى ، فدعا أبو الصيداء أهلَ سمرقند ومن حولها إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية ، فسارع الناس إلى الإسلام ، وانكسر الخراج ، فكتب أشرس إلى ابن أبى العمرّطة : « إن فى الخراج قوةً للمسلمين ، وقد بلغنى أن أهل السُّغْدِ وأشباههم لم يُسْلِموا رغبةً ، وإنما دخلوا فى الإسلام تعوُّذاً من الجزية ، فانظر مَن اختَتَن ، وأقامَ الفرائض ، وحَسُن إسلامهُ ، وقرأ سُورةً من القرآن ، فارفع عنه خراجَه » . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٩٦)

٤٥١ — كتاب عاصم بن عبد الله إلى هشام

وكتب عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالى(٢) عامل خُراسان إلى هشام ابن عبد الملك :

« أما بعدُ : يا أمير المؤمنين فإن الرَّائد(٣) لا يَكْذِبُ أهلَه ، وقد كان من أمْر

(١) ولاه هشام بن عبد الملك خراسان سنة ١٠٩ بعد عزل أسد بن عبد الله القسرى أخى خالد القسرى .

(٢) عزل هشام أشرس بن عبد الله عن خراسان سنة ١١١ ، وولاها الجنيد بن عبدالرحمن المزنى وتوفى الجنيد سنة ١١٦ فخلفه عليها عاصم بن عبد الله، ثم عزل عنها سنة ١١٧ ووليها أسد بن عبد الله.

(٣) الرائد : المرسل فى طلب الكلأ .

أمير المؤمنين إلىَّ ما يَحِقُّ به علىَّ نصيحتُه . وإن خراسانَ لاتصلُح إلا أن تُضَمَّ إلى صاحب العراق ، فتكونَ مَوادُّها ومنافعها ومَعُونتها فى الأحداث والنوائب من قريب، لِتَبَاعُدِ أمير المؤمنين عنها ، وتباطُؤِ غِياثِه عنها » .

فعزله هشام وضم خراسان إلى خالد بن عبد الله، فولّاها خالدٌ أخاه أسد بن عبد الله.

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٢٢)

٤٥٢ - رسالة هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله القسرى

قال أبو العباس المبرِّد :

وكان سبب هذه الرسالة إفراط خالدٍ[١] فى الدَّالَّة[٢] على هشام ، وأنه أخذ ابنَ حَسَّان النَّبَطِىّ[٣] فضربه بالسِّياط ، وكان يقال له سُهَيْلٌ ، فبعَثَ بقميصه إلى أبيه ، وفيه آثار الدم ، فأدخله أبوه إلى هشام ، مع ما قد أوغرَ صدرَ هشامٍ عليه من إفراط الدَّالَّة، واحتجان الأموال[٤] ، وكُفْرِ ما أسداه إليه من تَوْلِيَته إياه العِراقَ .

فكتب هشام إلى خالد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فقد بلغ أميرَ المؤمنين عنك أمرٌ لم يحتمِلْه لك إلا لما أحبَّ مِنْ رَبِّ[٥] الصنيعة قِبَلَك ، واستتمامِ معروفِهِ عندك ، وكان أميرالمؤمنين أحقَّ مَنِ استصلحَ مافَسَد عليه منك ، فإن تعُدْ لمثل مقالتك[٦] ، وما بلغَ أميرَ المؤمنين

---

(١) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز بن عامر بن عبد الله بن عبد شمس بن عمغمة ابن جرير بن شق بن صعب الكاهن المشهور، ولاه الوليد بن عبد الملك مكة سنة ٨٩، وولاه هشام العراق سنة ١٠٥ ثم عزله عنها سنة ١٢٠ ، وولاها يوسف بن عمر الثقفى .

(٢) أدل عليه : وثق بمحبته فأفرط عليه ، والاسم الدالة .

(٣) حسان النبطى : هو مولى هشام ووكيله فى ضياعه فى العراق كما سيرد فى الرسالة .

(٤) احتجن المال : ضمه واحتواه واختص به لنفسه .

(٥) رب الصنيعة كنصر ، وربها : نماها وزادها وأتمها وأصلحها .

(٦) أى قوله « والله مازادتنى ولاية العراق شرفا . . . » وسيرد فى الرسالة .

عنك ، رأى فى معاجَلَتِكَ بالعقوبةِ رَأيه . إن النِّعْمَة إذا طالت بالعبد مُمْتَدَّةً أَبْطَرَتْه ، فأساء حَمْلَ الكرامة ، واستقلَّ العافِيَةَ ، ونسَب ما فى يديه إلى حِيلته وحَسَبه وبَيْتِهِ وَرَهْطِهِ وعشيرته ، فإذا نزلَتْ به الغِيَر[١] ، وانكشطَتْ عنه عَمَايَةُ الغَىِّ والسُّلطان ، ذَلَّ مُنقاداً ، وندِم حَسِيرا ، وتمكَّن منه عدوُّه قادرا عليه ، قاهِرًا له ، ولو أراد أميرالمؤمنين إفسادَكَ ، لَجمَعَ بينك وبين من شَهِد فَلَتاتِ خَطَلِك ، وعظيمَ زَلَلِكَ ، حيث تقول لِجُلَسَائِكَ: «وَاللهِ مازادتنى ولايةُ العراق شرَفا ، ولا وَلاَّنِى أميرُ المؤمنين شيئًا لم يكن مَنْ قبلى ممن هو دونى يَلِى مِثلَه » ولعَمْرى لو ابتُلِيتَ ببعض مَقَاوِم[٢] الحجّاج فى أهل العراق فى تلك المَضايِق التى لقِىَ ، لَعلِمْتَ أنك رجل من بَجيلة[٣] ، فقد خرج عليك أربعون رجلا فغَلَبُوك على بيت مالِك وخَزائنك، حتى قلت:أَطْعِمُونى[٤] ماء ! دَهَشا وَبَعَلاً[٥] وجُبْنا ، فما استطعتهم إلا بأَمَانٍ ، ثم أَخْفَرْتَ[٦] ذِمّتكَ ؛ منهم رَزِين وأصحابه ، ولعمرى أنْ لو حاول أمير المؤمنين مكافأتَكَ بخَطَلِك فى مجلسِكَ ، وجُحُودِكَ فضلَه إليك ، وتصغير ما أنعم به عليكَ ، فَحَلَّ العُقْدَة ، وَنَقَضَ الصَّنِيعَةَ ، وردَّك إلى منزلةٍ أنت أهلُها ، كنتَ لذلك مستحِقًّا .

---

(١) الغير : حوادث الدهر . وانكشطت : ذهبت وانكشفت .

(٢) مقاوم : جمع مقام بالفتح .

(٣) يلقب خالد بن عبد الله بالقسرى نسبة إلى قسر بن عبقر وهى بطن من بجيلة،وسيأتى أن هشاما كتب إليه من رسالة يقول : « كيف لا تكون إمرة العراق لك شرفا ، وأنت من بجيلة القليلة الذليلة ؟».

(٤) وذلك أنه خرج عليه المغيرة بن سعيد بالكوفة سنة ١١٩ فى عشرين أو أربعين رجلا : وعرف بذلك وهو على المنبر فدهش وتحير فقال : أطعمونى ماء .

(٥) بعل بالأمر كفرح : دهش وفرق وبرم فلم يدر مايصنع .

(٦) أى غدرت ونقضت عهدك ، وذلك أنه أمر بأطنان قصب ونفط فأحضرا (والأطنان جمع طن بالضم وهو الحزمة من القصب) ثم أمر المغيرة أن يتناول طنا فكع عنه (أى ضعف) وتأنى ، وصبت السياط على رأسه ؛ فتناول طنا فاحتضنه فشد عليه ، ثم صب عليه وعلى الطن نفط ، ثم ألهبت فيهما النار فاحترقا ، وكذا فعل بأصحابه — انظر تاريخ الطبرى ج ٨ : ص ٢٤١ .

فهذا جَدُّكَ يَزيدُ بن أَسَدٍ قد حشد(١) مع معاوية فى يوم صِفِّين . وعرَّض له دينه ودَمَه، فما اصطنَع(٢) إلا عنده ، ولا وَلاَّه ما اصطنع إليك أميرُ المؤمنين ووَلاَّكَ ، وقِبَله من أهل اليمن وبيوتاتهم مَنْ قَبيله أكرمُ من قبيلتك : من كِنْدَةَ وغَسَّان وآل ذى يَزَنٍ وذى كَلاَعٍ وذى رُعَيْنٍ ، فى نُظَرائهم من بيوتات قومهم ، كلُّهم أكرمُ أوَّليَّةً ، وأشرفُ إسلاماً من آل عبد الله بن يزيد(٣) :

ثم آثرَكَ أميرُ المؤمنين بولاية العراق ، بلا بيتٍ رفيعٍ ، ولا شرف قديم ، وهذه البيوتاتُ تَعلُوكَ وتَغمُرُكَ وتُسكِنكَ(٤) وتتقدمك فى المحافل والمجامع عند بَدْأة الأمور وأبواب الخلفاء .

ولولا ما أحَب أمير المؤمنين من رَدِّ غَرْبِك(٥) لعاجَلَك بالتى كنت أهلَها ، وإنها منك لقَريبٌ مَأخَذُها ، سريعٌ مكروهُها ، فيها — إن أبقى اللهُ أمير المؤمنين — زوالُ نِعَمِه عنك ، وحُلولُ نِقَمه بك ، فيما ضَيَّعتَ وارتكبتَ بالعِراق ، من استعانتك بالمَجُوس والنصارى ، وتَوْليَتِهِم رقابَ المسلمين(٦) وجِبْوَةَ(٧) خَراجهم ، وتسلُّطهم

---

(١) حشد القوم : خفوا فى التعاون ، أودعوا فأجابوا مسرعين . أو اجتمعوا لأمر واحد ، وكان يزيد بن أسد من شيعة معاوية ، وقد قام فى أهل الشام يوم صفين فخطبهم خطبة ، يحرضهم فيها على القتال — انظر جمهرة خطب العرب ج ١ : ص٣٤٣ — وقد قدمنا فى الجزء الأول من جمهرة رسائل العرب أن عثمان حين حصر كتب إلى معاوية يستنجده، وأبطأ أمره عليه ، فكتب إلى يزيد بن أسد فسار إليه فى ناس، كثير من أهل الشام حتى إذا كانوا بوادى القرى بلغهم قتل عثمان فرجعوا .

(٢) اصطنع عنده صنيعة : اتخذها .

(٣) أى من أبيك .

(٤) أى تفقدك الحركة فلا تستطيع مساماتها .

(٥) الغرب : الحد .

(٦) كان خالد متهما فى دينه . روى صاحب الأغانى قال : « وكان زنديقا أمه نصرانية . فكان يولى النصارى والمجوس على المسلمين ، ويأمرهم بامتهانهم وضربهم » وكان أهل الذمة يشترون الجوارى المسلمات ويطئونهن ، فيطلق لهم ذلك ولا يغير عليهم » وقال : « وكانت أمه رومية نصرانية وهبها عبد الملك لأبيه ، فبنى لها كنيسة فى ظهر قبلة المسجد الجامع بالكوفة ، فكان إذا أراد المؤذن فى المسجد أن يؤذن ضرب لها بالناقوس ، وإذا قام الخطيب على المنبر رفع النصارى أصواتهم بقراءتهم » — انظر ١٩ : ص ٥٩ — .

(٧) جبى الخراج كسعى ورمى جبوة وجبا وجباوة وجباية بكسرهن ، وجبا بالفتح .

عليهم، نَزَعَ بك إلى ذلك عِرْقُ سوءٍ فيهم مِن التي قامَتْ عنك[١] فبئس الجنينُ أنت يا عُدَىَّ[٢] نفسه .

وإن الله عزّ وجل لَمَّا رأى إحسانَ أمير المؤمنين إليك ، وسوء قيامِك بشكره ، قَلَبَ قلبَه فأسخطه عليك حتى قَبُحَت أمورُك عنده ، وآيَسَه من شكرك ما ظهر من كُفْرِك النِّعمةَ عندك، فأصبحتَ تنتظر سقوط النعمةِ، وزوال الكرامة، وحُلولَ الخزْى، فتأهَّبْ لنوازل عقوبة اللهِ بكَ، فإن الله عليك أَوْجَدُ[٣]، ولِما عملتَ أَكْرَهُ فقد أصبحْتَ وذنوبُك عند أمير المؤمنين أعظَمُ من أن يُبَكِّتَكَ[٤] إلا راتِبًا بين يديه ، وعنده مَنْ يُقَرِّرك[٥] بها ذَنبًا ذَنبًا ، وَيُبَكِّتك بما أتيتَ أمراً أمراً ، فقد نسيتَه وأحصاه اللهُ عليك .

ولقد كان لأمير المؤمنين زاجرٌ عنك فيما عرَفك به من التسرُّع إلى حَماقتكَ ، فى غير واحدةٍ ، منها القرشىُّ الّذى تناولته بالحجاز ظالمًا ، فضربَك اللهُ بالسَّوْطِ الذى ضربتَه[٦] به، مُفْتَضِحا على رُءوس رعيَّتك ، ولعل أمير المؤمنين يَعُودُ لك بمِثْلِ ذلك ، فإن يفعلْ فأهلُه أنت ، وإن يصفَحْ فأهله هو .

---

(١) كنى به عن أمه .

(٢) مصغر عدو ، والتصغير للتحقير .

(٣) أوجد : أغضب ، أفعل تفضيل من الموجدة ، وهى الغضب .

(٤) التبكيت : التقريع ، وراتبا : أى ماثلا قائما بين يديه ، من رتب كدخل إذا ثبت قائما .

(٥) تقول : أقر فلان بالحق أى اعترف به ، وقررته بالحق حتى أقر به .

(٦) روى صاحب الأغانى (١٩ : ٦٠) قال : « كان خالد بن عبدالله أميرا على مكة ، فأمر رأس الحجبة أن يفتح له الباب وهو ينظر ، فأبى فضربه مائة سوط ، فخرج الشيبى إلى سليمان بن عبد الملك يشكوه ، فصادف الفرزدق بالباب ، فاسترفده (أى استعانه) فلما أذن للناس ودخلا ، شكا الشيبى ما لحقه من خالد ، ووثب الفرزدق فأنشأ يقول :

سلوا خالدا (لا أكرم الله خالدا) متى وليت قسر قريشا تدينها ؟
أقبل رسول الله أم ذاك بعده ؟ فتلك قريش قد أغث سمينها
رجونا هداه (لا هدى الله خالدا) فما أمه بالأم يهدى جنينها

فحمى سليمان وأمر بقطع يد خالد ، وكان يزيد بن المهلب عنده ، فما زال يفديه ويقبل يده حتى أمر بضربه مائة سوط » وللفرزدق فيه أهاج منها قوله :

وكيف يؤم المسلمين ، وأمه تدين بأن الله ليس بواحد

ومن ذلك ذِكرُكَ زَمْزَمَ ، وهى سُقْيا الله وكَرَامَتُه لِعَبْدِ المُطَّلِب[١] ، وهذا الحَىَّ من قُرَيْشٍ ، تُسَمِّيها أُمَّ جِعَار[٢] فلا سَقاكَ اللهُ من حَوْضِ رسوله ، وجعل شَرَّكما لِخَيرِكما الفِداء[٣] ، ووالله أَنْ لو لم يستَدْلِلْ أمير المؤمنين على ضعف نَحَائِزِك[٤] ، وسُوء تدبيرك ، إلا بفَسَالة دخائلك : وبطانتك وعُمَّالك .

والغالِبةُ عليك جاريتُك الرائِفَة[٥] بائعةُ الفهودِ ، ومستعمِلَةُ الرجال ، مع ما أتلفتَ من مال الله فى « المُبَارَك[٦] » فإنك ادعيتَ أنك أنفقتَ عليه اثنى عشر ألف ألفِ دِرهمٍ ، والله لو كنتَ من ولد عبد الملك بن مَرْوان ، ما احتمل لك أميرُ المؤمنين ما أفسدتَ من مال الله ، وضَيَّعتَ من أمور المسلمين ، وسَلَّطْتَ من وُلاة السوء على جميع أهل كُوَر عملِك ، تجمَعُ إليك الدَّهاقِينُ[٧] هدَايَا النَّيْرُوزِ والمِهْرَجان ، حابِسًا لأكثره ، رافِعا لأقلّه ، مع تخابُثِ مَساوِيك التى قد أخَّر أميرُ المؤمنين تقريرك بها .

ومُناصَبَتُك أميرَ المؤمنين فى مَوْلاه حَسَّان ، ووكيله فى ضِياعه وأحْوازه

---

(١) يعنى عبد المطلب بن هاشم جد النبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى حفر زمزم .

(٢) أم جعار : الضبع ، لكثرة جعرها (بالفتح) وهو نجوها ، قال فى الأغانى : « وكان يسمى زمزم أم الجعلان » بالكسر جمع جعل بضم ففتح وهو دويبة كالخنفساء ، يريد أنها نتنة خبيثة الرائحة ، وكان الوليد حفر بئرا بين ثنية ذى طوى (موضع قرب مكة) وثنية الحجون (بالفتح : جبل مشرف بمكة) فكان خالد ينقل ماءها فيوضع فى حوض إلى جنب زمزم ليعرف فضله على زمزم ، وخطب يوما على منبر مكة فقال : « إن إبراهيم خليل الله استسقى ربه ، فسقاه ملحا أجاجا ، واستسقاه الخليفة فسقاه عذبا فراتا » ــ انظر تاريخ الطبرى ٨ : ٦٧ ، والأغانى ١٩ : ٦٠ ــ وفى شرح العيون ص ٢٠٥ إنه قال : «قد جئتكم بماء العاذبة ، لاتشبه ماء أم الخنافس » يعنى زمزم .

(٣) أخذه من قول حسان بن ثابت يمدح النبى صلى الله عليه وسلم ويهجو أبا سفيان قبل إسلامه :

هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

(٤) النحائز : جمع نحيزة كطبيعة وزنا ومعنى ، وفسل ككرم وعلم وعنى فسالة وفسولة فهو فسل كضخم ، أى رذل لامروءة له ، وجواب لو محذوف أى لكفاه ذلك .

(٥) راف البدوى يريف ، أتى الريف ، وهى أرض فيها زرع وخصب .

(٦) المبارك : نهر بالبصرة احتفره خالد لهشام ، ومما قاله فيه الفرزدق :

وأهلكت مال الله فى غير حقه ... على النهر المشئوم غير المبارك

(٧) الدهاقين : جمع دهقان بالكسر والضم ، زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم ، معرب .

فى العراق ، وإقدامُك على ابنه بما أَقْدَمْكَ به ، وسيكونُ لأمير المؤمنين فى ذلك نَبأ إن لم يَعْفُ عنك ، ولـكنه يظن أن الله طالِبُك بأمور أتيتها ، غيرُ تارك لتـكشيفك عنها .

وحملك الأموالَ ناقِصَةً عن وظائفِها[1] التى جباها عُمَر بن هُبَيْرَة .

وتوجيهك أخاك أَسداً إلى خُراسان مُظْهِرًا الْعَصَبِيَّةَ بها ، مُتحامِلاً على هذا الحىِّ من مُضَرَ[2] ، قد أتَتْ أميرَ المؤمنين ـ بتصغيره بهم ، واحتقارِه لهم ، وركوبه إياهم ـ الثقاتُ ، ناسِيًا لحديث زَرْنَبَ وقِصَص الْهَجَرِيِّين ، كيف كانت فى أسد بن كُرْزٍ[3] ، فاذا خلَوْتَ أو توسّطْتَ مَلأً فاعرِفْ نفسك ، وخَفْ راجعَ البغىِ عليك ، وعاجلاتِ النِّقَم

---

(١) أى مقدراتها ، جمع وظيفة ، وهى مايقدر لك من رزق فى زمان معين ، وعمر بن هبيرة هو والى العراق قبل خالد .

(٢) قدمنا أن هشاما استعمل خالد بن عبد الله على العراق وخراسان ، فولى خالد أخاه أسدا على خراسان ، فتعصب أسد حتى أفسد الناس ، وضرب نصر بن سيار ونفرا معه من مضر بالسياط ، أخرج كتابا فقرأه على الناس ، فيه ذكر نصر بن سيار عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحر وغيرهم فدعاهم فأنبهم، فلم يتكلم منهم أحد ، فتـكلم سورة فذكر حاله وطاعته ومناصحته ، وأنه ليس ينبغى له أن يقبل قول عدو مبطل ، وأن يجمع بينهم وبين من قرفهم بالباطل ، فلم يقبل قوله ، وأمر بهم فجردوا وضربوا ، وحلقهم بعد الضرب ووجههم إلى خالد وكتب إليه أنهم أرادوا ، الوثوب عليه ، فلما تعصب أسد وأفسد الناس بالعصبية كتب هشام إلى خالد : اعزل أخاك ، فعزله (سنة ١٠٩) ـ انظر تاريخ الطبرى ٨ : ١٩٢ .

(٣) روى صاحب الأغانى (ج ١٩ : ص ٥٧) قال : « كان كرز بن عامر جـد خالد آبقا عن مواليه عبد القيس من هجر (بالتحريك : بلد باليمن) ويقال إن أصله من يهود تيماء ، وكان أبق ، فظفرت به عبد شمس فكان فيهم عند عمعمة بن شق الـكاهن ، ثم وهبوه لقوم من طهية فكان عندهم حتى أدرك وهرب فأخذته بنو أسد بن خزيمة فـكان فيهم وتزوج مولاة لهم ، يقال لهـا زرنب ، ويقال : إنها كانت بغيا ، فأصابها فولدت له أسد بن كرز ، سماه باسم أسد بن خزيمة لرقة كانت فيهم ثم أعتقوه ، ثم إن قسرا من أهل هجر مروا به فعرفوه ، فلما رجعوا إلى هجر أخذوا فداءه وصاروا إلى مواليه ، فلم يزل فيهم حتى خرج معهم فى تجارة إلى الطائف ، فلما رأى دار بجيلة أعجبته فاشترى نفسه وابنه ، فجاء فنزل فيهم فأقام مدة ، ثم ادعى إليهم ، وعاونه على ذلك حى من أحمس يقال لهم بنو منبه ، فنفاهم أبو عامر ذو الرقعة وهو ابن عبد شمس بن جوين بن شق ، فنزل كرز فى بنى سحمة هاربا من ذى الرقعة ثم وثب على ابن عم للقتال ابن مالك السحمى فقتله وهرب إلى البحرين مع التجار فأقام مدة ثم مات ، ونشأ ابنه يزيد بن أسـد يدعى بجيلة ولا تلحقه إلى أن مات » .

فيك[١] ، واعلم أن ما بعدَ كتاب أمير المؤمنين هذا أشدُّ عليك وأفسدُ لك ، وَقِبَلَ أمير المؤمنين خَلَفٌ منك كثيرٌ فى أحسابهم وبيوتاتهم وأديانهم ، وفيهم عِوَضٌ منك ، واللهُ من وراء ذلك » .

وكتب عبد الله بن سالم سنة تسع عشرة ومائة .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٩٧)

٤٥٣ — كتاب هشام إلى خالد القسرى

وروى الطبرى قال :

وقيل إنما أغضب هشامًا على خالد أن رجلاً من قريش[٢] دخل على خالد فاستخفَّ به وعضه بلسانه ، فكتب إلى هشام يشكوه .

فكتب هشام إلى خالد :

أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين — وإن كان أطلقَ لك يدَكَ ورأْيك فيمن استرعاه أمْرَه ، واستحفَظَك عليه ، لِلَّذى رَجَا من كِفايتك ، ووَثِقَ به من حُسْن تدبيرك — لم يُفْرِشْك[٣] غُرَّةَ أهلِ بيته ، لِتطَأَهُ بقدَمك ، ولا تُحِدَّ إليه بَصرَك ، فكيف بك وقد بَسَطْتَ على غُرَّتهم بالعراق لسانَك بالتوبيخ ؟ تريد بذلك تصغيرَ خَطَرِه[٤] واحتقارَ قَدْره ، زعمتَ بالنَّصَفَة[٥] منه حتى أخرجك ذلك إلى الإغلاط فى اللفظ عليه

---

(١) عن خالد بن صفوان قال : « لم تزل أفعال خالد به حتى عزله هشام وعذبه ، وقتل ابنه يزيد بن خالد ، فرأيت فى رجله شريطا قد شد به والصبيان يجرونه ، فدخلت إلى هشام يوما فحدثته وأطلت فتنفس ثم قال : يا خالد : رب خالد كان أحب إلى قربا وألذ عندى حديثا منك ، يعنى خالدا القسرى ، قال فانتهزتها ورجوت أن أشفع فتكون لى عند خالد يد ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، فما يمنعك من استئناف الصنيعة ؟ فقد أدبته بما فرط منه ، فقال : هيهات ! إن خالدا أوجف فأعجف ، وأدل فأمل ، وأفرط فى الإساءة فأفرطنا فى المكافأة فحلم الأديم ، ونغل الجرح ، وبلغ السيل الزبى ، والحزام الطبيين فلم يبق فيه مستصلح ، ولا للصنيعة عنده موضع . عد إلى حديثك — الأغانى ٩ : ٦٣ — .

(٢) المفهوم مما سيرد بعد أنه ابن عمرو بن سعيد بن العاص .

(٣) يقال فرش فلانا بساطا وأفرشه وفرشه : إذا بسطه له ، والمعنى : لم يسلطك ويبسط نفوذك عليه وفى الأصل « لم يفترشك » وهو تحريف ، (وافترش البساط : وطئه) ، وفلان غرة قومه : أى سيدهم .

(٤) الخطر : القدر . (٥) النصفة : اسم من الإنصاف .

فى مَجْلِس العامّة ، غير مُتَحَلْحِل[1] له حين رأيتَه مُقْبلا - عن صدر مِهادك ، الذى مَهّد له اللهُ ، وفى قومك مَن يَعلوك بحَسَبه ، ويَغمُرك بأَوّليّتِه ، فنِلْتَ مِهادَك بما رفع به آلُ عَمْرٍو من ضَعَتِك خاصّةً ، مُساوِين بك فروعَ غُرَر القبائل وقُرُومَها[2] قِبَلَ أمير المؤمنين ، حتى حَلَلْتَ هَضْبةً أصبحتَ تنحو[3] بها عليهم مفتخِرًا ، هذا إن لم يُدَهْده[4] بك قلّةُ شكرك متحطمًا وَقِيذًا ، فهلاّ - يابن مُجَرِّشة[5] قومك - أعظمْتَ رَجُلَهُمْ عليك داخلاً ، ووسّعت مجلسَه إذ رأيتَه إليك مُقبلا ، وتجافَيْتَ له عن صَدْرِ فراشك مكرِّما ، ثم فاوَضْتَه مُقْبلا عليه ببشرك إكرامًا لأمير المؤمنين ، فإذا اطمأن به مجلِسُه نازَعْتَه بِحَيِّ السِّرار[6] ، مُعْظِما لقرابته ، عارفا لحقه ! فهو سِنُّ البيتَيْن ونابُهم[7] ، وابن شيخ آل أبى العاص وحَرْبٍ وغُرّتُهم ، وبالله يُقسِم أميرُ المؤمنين لك لولا ما تقدَّمَ من حُرْمتك ، وما يَكْرَهُ من شماتة عدوك بك ، لوَضَع منك ما رَفَع ، حتى يرُدّكَ إلى حال تَفْقِدُ بها أهلَ الحوائجِ بعراقك ، وتَزاحُمَ المواكب ببابك ، وما أقْرَبَنى من أن أجعلك تابعًا لمن كان لك تَبَعًا ، فانهَضْ على أىِّ حالٍ ألفاكَ رسولُ أمير المؤمنين وكتابُه ، من ليل أو نهار ، ماشيًا على قدمَيْك بمن معك

---

(١) أى غير متزحزح ، يقال : حلحله : إذا أزاله عن موضعه وحركه فتحلحل ، والمهاد: الفراش .

(٢) القروم: جمع قرم بالفتح : وهو السيد ، والفروع : جمع فرع ، وفرع كل شىء: أعلاه، ومن القوم : شريفهم .

(٣) معناه تطل وتشرف ، يقال نحا بصره إليه : أى صرفه ، ونحا : مال على أحد شقيه .

(٤) دهده الحجر فتدهده ، ودهداه فتدهدى : دحرجه فتدحرج ، والوقيذ : الصريع ، وقذه : صرعه وسكنه وغلبه وتركه عليلا .

(٥) المجرشة : الماشطة ، يقال جرش رأسه بالمشط وجرشه إذا حكه حتى تستبين هبريته ، وجرش الجلد : إذا دلكه ليملاس .

(٦) السرار: المسارة، مصدر سار، وحيى : ذو حياء، وحى السرار من إضافة الصفة إلى الموصوف أى السرار الحيى ، والمعنى : جادلته وناقشته فى سرار مقرون بالحياء والاحتشام .

(٧) يقال : فلان ناب قومه ، أى سيدهم ، قال الشاعر :

كنت لهم فى الحدثان نابا أنفى العدا وضيغما وثابا

انظر أساس البلاغة .

من خَوَلك[١]، حتى تقف على باب ابن عمرو صاغرًا مستأْذِنا عليه متنصلا إليه، أذن لك أو مَنَعَك، فإن حرَّكته عواطِفُ رحمةٍ احتملك، وإن احتمَلْته أَنفَةٌ وحَمِيَّة من دخولك عليه، فقفْ ببابه حَوْلاً غير مُتَحَلْحِل ولا زائل، ثم أَمْرُك بعدُ إليه، عزَل أو ولَّى، انتصر أو عَفا، فلعَنَك اللهُ من متَّكَلٍ عليه بالثقة، ما أكثَرَ هفواتِك! وأقذَعَ[٢] لأهل الشرف ألفاظَك، التى لا تزال تبلُغُ أميرَ المؤمنين، مِنْ إقدامك بها عَلَى مَنْ هو أولَى بما أنت فيه من ولاية مِصْرَى العراق، وأقدَمُ وأقوَمُ، وقد كتب أميرُالمؤمنين إلى ابن عمِّه بما كتب به إليك من إنكاره عليك لِيَرَى فى العفو عنك، والسُّخْط عليك رأيَه، مُفَوِّضا ذلك إليه، مبسوطة فيه يدُه محموداً عند أمير المؤمنين، على أيِّهما آتَى إليك موفَّقًا إن شاء الله تعالى ». (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٥٠)

٤٥٤ — كتاب هشام إلى ابن عمرو

وكتابه إلى ابن عمرو:

« أما بعدُ: فقد بلغَ أميرَ المؤمنين كتابُك، وفَهِم ما ذكرتَ من بَسْطِ خالدٍ عليك لسانَه فى مجلس العامّة، محتقراً لقَدْرِك، مُسْتَصْغِرًا لقرابتك من أمير المؤمنين، وعواطِفِ رَحِمه عليك[٣]، وإمساكِك عنه تعظيما لأمير المؤمنين وسلطانه، وتمسُّكا بوثائق عِصَم[٤] طاعته، مع مُؤْلِم ما تداخَلَك من قبائح ألفاظِه، وشرارةِ مَنْطِقه، وإكْبابِه[٥] عليك، عند إطْراقك عنه، مُرَوِّيا فيما أطلَق أميرُ المؤمنين من لسانه، وأطال من عِنانه، ورَفَعَ من ضَعَته، ونوَّه من خُمُوله، وكذلك أنتم آل سعيد فى مثلِها

(١) الخول: الحاشية، وصاغراً: ذليلا.
(٢) القذع محركة: الخنا والفحش والقذر، وقذعه كمنعه: رماه بالفحش وسوء القول كأقذعه.
(٣) أى ورحمه التى تعطفه عليك، والرحم: القرابة، « وإمساكك » معطوف على « بسط ».
(٤) عصم: جمع عصمة بالكسر، وهى مايعتصم به من عقد وسبب، أو هى عصم بضمتين جمع عصام بالكسر، وهو الحبل تشد به القربة، ورباط كل شىء.
(٥) الشرارة: مصدر كالشر. وكبّ عليه: حمل وكر. وروى فى الأمر: نظر وفكر.

عند هَذْر الذُّنابَى[١] وطائِشَةِ أحْلامها ، صُمُتٌ من غير إفحام ، بل بأحلامٍ تُخِفُّ الجبال[٢] وزْنا .

وقد حَمِد أميرُ المؤمنين تعظيمَك إياه ، وتوقيرَك سُلطانَه ، وشُكرَهُ ، وقد جعل أمرَ خالدٍ إليك ، فى عَزْلك إيَّاه أو إقراره ، فإن عزلْتَه أمضى عَزْلَك إياه ، وإن أقررتَه فتلك مِنَّة لك عليه ، لا يشكرك أمير المؤمنين فيها ، وقد كتب إليه أمير المؤمنين بما يَطْرُد عنه سِنَة[٣] الهاجِع عند وصوله إليه يأمره بإتيانك راجلا، على أيَّةِ حال صادَفَه كِتابُ أمير المؤمنين ، وألفاه رسولُه الموجَّه إليه من ليله أو نهاره ، حتى يقفَ ببابك ، أذِنْتَ له أو حَجَبْته ، أقْرَرْته أو عزَلْته ، وتقدَّمَ أمير المؤمنين إلى رسوله فى ضَرْبه بين يديك على رأسه عشرين سوطا ، إلا أن تَكْرَهَ أن يناله ذلك بسببك لِحُرْمة خدمته ، فأيَّهما رأيتَ إمضاءَهُ كان لأمير المؤمنين — فى برِّك وعُظْمِ حُرْمتك وقرابتك ، وصِلَةِ رحمك — مُوافِقا ، وإليه حبيبا ، فيما ينوى من قضاء حق آل أبى العاص وسعيد ، فكاتِبْ أميرَ المؤمنين فيما بدا لك مبتدئًا ومُجيبا ، ومحادِثًا وطالبًا ما عسى أن يُنزِل بك أهلُك من أهل بيت أمير المؤمنين ، من حوائجهم التى تَقْعُد بهم الحِشْمَةُ عن تناوُلها من قِبَله ، لِبُعْد دارهم عنه ، وقلَّة إمكان الخروج لإنزالها به ، غيرَ محتشِم من أمير المؤمنين ولا مستوحِشٍ من تَكْرارها عليه ، على قدر قرابتهم وأديانهم وأنسابهم ، مستمنحًا ومُستَرفِدًا[٤] وطالبًا مستزيدًا ، تجِدْ أمير المؤمنين إليك سريعًا بالبِرِّ ، لما يحاول من صِلَة قرابتهم ، وقضاء حقوقهم ، وبالله يستعين أمير المؤمنين على ماينوِى ، وإليه يرغب فى العون على قضاء حقِّ قرابته ، وعليه يتوكل، وبه يَثِق ، واللهُ وليُّه ومولاه ،والسلام».

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٥١)

---

(١) هذر فى كلامه : كضرب ونصر هذرا وتهذارا : هذى، والهذر محركة: سقط الكلام. والذنابى: أذناب الناس وسفلتهم . والأحلام : : العقول جمع حلم بالكسر .

(٢) أى تخف وزن الجبال ، أى يخف وزن الجبال إذا وزنت بها . وفى الأصل « تحف بالجبال » وأراه محرفا .

(٣) السنة : النعاس . (٤) الاسترفاد : الاستعانة .

٤٥٥ — كتاب هشام إلى خالد

وذُكِر أنه كتب إلى هشام كتاباً غاظه ، فكتب إليه هشام :

« يابن أمّ خالد ، قد بلغنى أنك تقول : « ما ولاية العراق لى بشرف » فيابن اللَّخْناء[1] : كيف لا تكون إمْرَةُ العراق لك شرفا ، وأنت من بجِلَةَ القليلة الذليلة ؟ أَمَا وَاللهِ إنى لأظن أن أول من يأتيك صغير من قريش يشُدُّ يدبك إلى عنقك » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٥١)

٤٥٦ — كتاب هشام إلى خالد

وذُكر أن هشاماً كتب إليه :

« قد بلغنى قولك : « إن خالد بن عبد الله بن يزيد بن أَسَد بن كُرْز ، ما أنا[2] بأشرفِ الخمسة » أمَا واللهِ لأرُدَّنَّك إلى بَغلتِك وَطَيْلَسانك[3] الفَيْرُوزى » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٥٢)

---

(١) انظر هامش ص ٢٢١ .

(٢) أى ما أنا مع عظم قدرى ورفعة مكانتى .

(٣) الطيلسان : ضرب من الأكسية الفارسية ، معرب .

وذكروا أنه بلغ هشاما أنه قال مابنى يزيد بن خالد بدون مسلمة بن هشام، فكان ذلك سبب عزله إياه عن العراق ، وقيل : إن خالداً كان كثيرا ما يذكر هشاما فيقول : ابن الحمقاء ، وكانت أم هشام تستحمق « وهى عائشة بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة ، أمرها أهلها ألا تكلم عبد الملك حتى تلد ، وكانت تثنى الوسائد وتركب الوسادة وتزجرها كأنها دابة ، وتشترى الكندر (كبرقم : اللبان بالضم) فتمضغه وتعمل منه تماثيل ، وتضع التماثيل على الوسائد وقد سمت كل تمثال باسم جارية ، وتنادى: يافلانة ، ويافلانة ، فطلقها عبد الملك لحمقها ، وسار عبد الملك إلى مصعب فقتله ، فلما قتله بلغه مولد هشام ، فسماه منصوراً ، يتفاءل بذلك ، وسمته أمه باسم أبيها هشام ، فلم ينكر ذلك عبد الملك » وقيل إن هشاما قدم عليه رجل من أهل الشام . فقال : إنى سمعت خالدا ذكر أمير المؤمنين بما لا تنطلق به الشفتان ، قال: قال الأحول ؟ قال : لا ، بل قال أشد من ذلك ، قال : فما هو ؟ قال : لا أقوله أبدا ، فلم يزل يبلغه عنه ما يكره حتى تغير له وعزله» انظر الأغانى ١٩ : ٦٠ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ١٨٠ ، ٨ : ٢٥١ .

٤٥٧ – كتاب هشام إلى خالد

وروى الطبرى قال :

وكان هشام إذا أراد أمراً أمر الأَبْرَش فكتب به إلى خالد ، فكتب الأبرش :

« إنه بلغ أميرَ المؤمنين أن عبد الرحمن بن ثُوَيْبٍ الضِّنِّى – ضِنَّة سعد إخوة عُذْرة بن سعد – قام إليك فقال : يا خالد ، إنى لأحبُّك لعشر خِصال : إن الله كريم وأنت كريم ، والله جوَاد وأنت جوَاد ، والله رحيم وأنت رحيم ، والله حليم وأنت حليم ، حتى عد عشراً ، وأميرُ المؤمنين يُقْسِم بالله : لئن تحقَّقَ عنده ذلك ليستحلَّنَّ دمك ، فاكتب إلىّ بالأمر على وَجْهه ، لأخبرَ به أمير المؤمنين » .

٤٥٨ – رد خالد عليه

فكتب إليه خالد :

« إن ذلك المجلس كان أكثر أهلا من أن يجوز لأحد من أهل البغى والفجور أن يحرِّفَ ما كان فيه إلى غيره ، فأَمّ إلىّ عبد الرحمن بن ثويب ، فقال : « يا خالد : إنى لأحبك لعشر خصال : إن الله كريم يحب كل كريم ، والله يحبُّك ، وأنا أحبُّك لحبّ الله إياك ، حتى عدد عشر خصال » ، ولكن أعظم من ذلك قيام ابن شقِىّ الحِمْيَرى إلى أمير المؤمنين ، وقوله يا أمير المؤمنين : خليفتُك فى أهلك أكرم عليك أم رسولك ؟ فقال أمير المؤمنين بل خليفتى فى أهلى ، فقال ابن شقى : فأنت خليفة الله ومحمد رسوله – صلى الله عليه وسلم – ولَعَمْرى لَضلالةُ رجل من بَجيلة إن ضلّ أهونُ على العامَّة والخاصَّة من ضلال أمير المؤمنين » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٩ ، ووفيات الأعيان ١ : ١٦٩٠)

٤٥٩ - كتاب عقال بن شبة إلى خالد بن عبد الله القسرى

وكتب عَقَّال بن شَبَّةَ إلى خالد بن عبد الله القَسْرى فى شفاعة :

« إن الله انتجَبَك[١] من جوْهرة كَرَم ، ومَنْبِتِ شَرَف ، وقَسَم لك خَطَرا[٢] شَهَرته العربُ ، وتحدَّثتْ به الحاضِرةُ والباديةُ ، وأعان خطَرَك بقُدْرةٍ مبسوطةٍ ، ومَنْزِلَةٍ ملحوظة ، فجميعُ أكفائك من جماهير العرب يعرِفُ فضلَك ، ويسُرُّه ماحار[٣] الله لك ، وليس كلُّهم أداله[٤] الزمانُ ، ولا ساعَدَه الحظُّ ، وأحقُّ مَن تعطَّفَ على أهل البيوتاتِ ، وعادَ لهم بما يَبْقَى له ذكرُه ، ويحسُنُ به نَشْرُه ، مثلُك ، وقد وجَّهتُ إليك فلانا ، وهو من دِنْية[٥] قرابتى ، وذوى الهيئة من أُسرتى ، وعرَفَ معروفَك ، وأحببتُ أن تُلبِسه نعمتك ، وتصْرِفَه إلىّ وقد أودعتنى وإياه ماتجده باقياً على النَّشْر ، جميلا فى الغِبِّ[٦] » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٠)

٤٦٠ - كتاب هشام إلى يوسف بن عمر الثقفى

وفى سنة ١٢٠ هـ كتب هشام إلى يوسف بن عُمَر الثَّقَفى[٧] - وهو على اليمن - أن : « سر إلى العراق ، فقد ولَّيْتُكَ إياه ، وإياك أن يَعْلَمَ بذاك أحد ، وخذ ابن النَّصرانية[٨] وعُمَّاله فاشْفِنى منهم » .

---

(١) انتجبه : اختاره . (٢) الخطر : القدر .

(٣) خار الله لك فى الأمر : جعل لك فيه الخير . (٤) أداله نصره وأعانه .

(٥) يقال : هو ابن عمى دنية بكسر الدال ، ودنيا بكسرها وضمها : أى لحا .

(٦) الغب : العاقبة .

(٧) هو يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود الثقفى ، وهو ابن ابن عم الحجاج - يجتمعان فى الحكم بن أبى عقيل - ولاه هشام اليمن سنة ١٠٦ هـ ، فلم يزل والياً بها حتى كتب إليه سنة ١٢٠ هـ بولايته على العراق ، فلما ولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك أقره على ولاية العراق حتى قتل سنة ١٢٧ هـ . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٢ : ٣٦٠ .

(٨) يعني خالدا القسرى .

فقَدِم يُوسف العراقَ ، فأخذ خالداً وعُمَّاله وحَبَسه وحاسبه وعذَّبه ، ثم قتله[١] في خلافة الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ هـ .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٥٣ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٦٠)

٤٦١ — بين يوسف بن عمر وهشام

وروى الطبرى قال :

لما قَدِمَ يُوسف بن عمر العراق قال : أشيروا على برجل أُوَلِّيه خُراسانَ ، فسَمَّوْا له جماعة ، فكتب بأسمائهم إلى هشام ، وأَطْرَى القَيْسِيَّة ، وجعل آخِرَ من كتب اسمه نصر بن سَيَّار الكِنانىّ ، فقال هشام : ما بالُ الكنانىِّ آخرهم ! وكان فى كتاب يُوسف إليه : « يا أمير المؤمنين : نصرٌ بخُراسان قليل العشيرة » فكتب إليه هشام :

« قد فهِمْتُ كتابك وإطراءك القَيْسِيَّة ، وذكرتَ نصراً وقلة عشيرته ، فكيف يقلُّ مَنْ أنا عشيرَتُه ؟ ولكنك تقيَّسْتَ علىّ ، وأنا مُتَخَنْدِف[٢] عليك ، ابعث

---

(١) حدث رجل شهد قتله قال : شهدت خالدا حين أتى به يوسف ، فدعا بعود فوضع على قدميه ، ثم قامت عليه الرجال حتى كسرت قدماه ، فوالله ما تكلم ولا عبس ثم على ساقيه حتى كسرتا ، ثم على فخذيه ، ثم على حقويه ، ثم على صدره ، حتى مات ، فوالله ما تكلم ولا عبس — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ٢١ ، وانظر أيضاً وفيات الأعيان ١ : ١٧٠ .

(٢) جميع قبائل مضر بن نزار يجمعها قيس وخندف ، وذلك أن مضر ولد إلياس والناس (وهو عيلان) فولد عيلان : قيس بن عيلان ، وولد إلياس : عمرا (وهو مدركة) وعامرا (وهو طابخة) وعميرا (وهو قمعة بالتحريك) وأمهم خندف كزبرج وهى ليلى بنت حلوان بن عمران ، فجميع ولد إلياس بن مضر من خندف ، ولذلك يقال لهم خندف لأنها أمهم وإليها ينسبون ، ومن بطون خندف كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، ومن بطون كنانة : قريش وهم بنو النضر بن كنانة ، (ولا يغيب عنك أن هشام بن عبد الملك من بنى أمية ، وأن بنى أمية من قريش) ومن بطون كنانة أيضاً : بنو جندع (كبرقع) ابن ليث بن بكر بن عبد مناة ، ومن بنى جندع نصر بن سيار — انظر العقد الفريد ج ٢ : ص ٤٧ — وقد صاغ هشام فى كتابه من قيس وخندف الكلمتين : « تقيست ومتخندف » والمعنى : أنك ملت إلى جانب القيسية وأطريتهم ، وأنا أؤيد الخندفية وأرجح كفتهم وأتخير الأمير منهم .

بعهد نصر ، فلم يقِلَّ مَن عَشِيرَتَه أميرُ المؤمنين ، بَلْهَ[1] ما أن تميماً أكثر أهل خراسان » .

وأتى نصراً عهدُه فى رجب من سنة ١٢٠ هـ .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٠٨)

٤٦٢ - بين يوسف بن عمر وهشام

وروى أيضاً قال :

« قدِمَ زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومحمد بن عمر بن على ابن أبى طالب ، وداود بن على بن عبد الله بن عباس ، على خالد بن عبد الله وهو على العراق ، فأجازهم ورجعوا إلى المدينة ، فلما وَلِيَ يوسف بن عمر كتب إلى هشام : « بأسمائهم وبما أجازهم به » وكتب يذكر : « أن خالداً ابتاع من زيد بن على أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار ، ثم ردَّ الأرضَ عليه » .

فكتب هشام إلى عامل المدينة - وهو خاله إبراهيم بن هشام - : « أن يُسرِّحهم إليه » ففعل ، فسألهم هشام ، فأقرُّوا بالجائزة وأنكروا ما سوى ذلك ، فسأل زيداً عن الأرض فأنكرها ، وحلفوا لهشام فصدَّقهم .

وفى رواية أخرى أن يزيد بن خالد القَسْرى ادَّعى مالًا قِبَل جماعة منهم مَنْ أسلَفْنا ذِكْرهم ، فكتب فيهم يوسف بن عمر إلى هشام ، فبعث هشام إليهم ، فذكر لهم ما كتب به يوسف بن عمر إليه مما ادَّعى قِبَلَهم يزيدُ بن خالد فأنكروا ، فقال لهم هشام : فإنا باعثون بكم إليه يجمع بينكم وبينه ، ودعا كاتبه فكتب إلى يوسف :

---

(١) بله معناها على ، أى على أن تميما أكثر أهل خراسان ، أى وفوق ماذكرته فإن تميما . . . الخ وذكر النحويون أن بله تستعمل اسم فعل بمعنى اترك فينصب ما بعدها بالمفعولية ، ومصدرا بمعنى الترك فيجر ما بعدها بالإضافة ، واسم استفهام بمعنى كيف فتكون خبرا مقدما ويرفع ما بعدها على الابتداء . وتميم هم بنو تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر : يعنى هشام أن نصر بن سيار الكنانى ليس بقليل العشيرة كما ذكر يوسف بن عمر ، إذ أن تميما - وهم من ولد إلياس جد كنانة - أكثر أهل خراسان .

« أما بعدُ ، فإذا قَدِم عليك فلان وفلان ، فاجمع بينهم وبين يزيد بن خالد القَسْرى فإن هم أقرُّوا بما ادَّعَى عليهم ، فسرِّحْ بهم إلىَّ ، وإن هم أنكروا فسَلْه بيِّنَةً ، فإن هو لم يُقِم البينة فاستحلِفْهم بعد العَصْر بالله الذى لا إله إلا هو : ما استودَعَهم يزيدُ ابن خالد القسرى وديعةً ، ولا له قِبَلهم شىء ، ثم خلِّ سبيلهم » .

فقالوا : جزاكَ الله والرَّحِمَ خيراً ، لقد حَكَمْتَ بالعدل ، وسرَّح بهم إلى يوسف ، فسألهم عن المال فأنكروا جميعاً ، فأخرج إليهم يزيدَ بن خالد فجَمَع بينه وبينهم ، وقال له : هذا زيد بن على ، وهذا محمد بن عمر بن على ، وهذا فلان وفلان الذين كنت ادّعيت عليهم ما ادَّعيتَ ، فقال : مالى قِبَلهم قليلٌ ولا كثير ، فقال يوسف : أفَبِى تَهْزَأ ، أم بأمير المؤمنين ؟ فعذّبه يومئذ عذابا ظن أنه قد قتله ، ثم أخرجهم إلى المسجد بعد صلاة العصر فاستحلفهم فحلَفوا له ، فلم يقتدِرْ عند القوم على شىء ، فكتب إلى هشام يُعْلِمه الحال ، فكتب إليه هشام أنِ استَحْلِفهم وخلِّ سبيلهم ، فخلَّى عنهم فخرجوا فلَحِقوا بالمدينة ، وأقام زيد بن علىّ بالكوفة » . (تاريخ الطبرى ٨: ٢٦٠)

٤٦٣ — كتاب هشام إلى يوسف بن عمر

وكتب هشام إلى يوسف بن عمر أن : « أشخِصْ زيداً إلى بلده ، فإنه لا يُقِيم ببلد غيره فيدعو أهلَه إلا أجابوه » .

فأشخَصَه ، فلما كان بالثَّعْلَبية[1] أو القادسية ، لحِقه أهلُ الكوفة ، فحرَّضوه عَلَى الخروج ، وأعطَوه المواثيقَ والأيمان المغلَّظَة ليَنْصُرُنَّهُ ، وما زالوا به حتى ردوه إلى الكوفة[2] ، فرجع إليها فاستخفى ، ثم خرج على يوسف بن عمر فقُتِل وصلب بالكُناسة سنة ١٢١ هـ » . (تاريخ الطبرى ٨: ٢٦٥)

(١) الثعلبية : من منازل طريق مكة من الكوفة .

(٢) وقد قالوا له: أين تذهب عنا ومعك مائة ألف رجل من أهل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم غدا وليس قبلك من أهل الشام إلا عدة قليلة ، لو أن قبيلة من قبائلنا نصبت لهم لكفتهم باذن الله تعالى ، فننشدك الله لما رجعت ، وكانوا يقولون: إنا لنرجو أن تكون المنصور وأن يكون هذا الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية =

٤٦٤ — كتاب عبد الله بن الحسن إلى زيد بن على

وكتب عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب إلى زيد بن على :

« يابن عمٍّ، إن أهل الكوفة نُفُخ[1] العَلانِية، خُورُ السريرة، هُرُج[2] فى الرخاء، جُزُع فى اللقاء، تَقْدُمهم[3] ألسنتهم، ولا تشايعهم قلوبهم، لا يَبيتون بعُدَّة فى الأحداث، ولا يَنُوءون[4] بدولة مَرْجُوَّة، ولقد تواتَرَتْ إلىَّ كتبهم بدَعْوتهم، فصَمِمْتُ عن ندائهم، وألبسْتُ قلبى غِشاءً[5] عن ذكرهم، يأساً منهم، واطِّراحا لهم، وما لهم مَثَلٌ إلا ما قال علىّ بن أبى طالب : « إن أُهمِلتمُ خُضتم، وإن حُورِبتم خُرْتم، وإن اجتمع الناس على إمام طَعَنْتم، وإن أجبتم إلى مشاقَّةٍ[6] نَكَصْتُم » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٦٥)

= وروى أنه كان قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة، وخرج بهم على يوسف فلما استحر القتال، بينهما قالوا لزيد: إنا ننصرك على أعدائك، بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر، اللذين ظلما جدك على بن أبى طالب، فقال زيد: إنى لا أقول فيهما إلا خيرا، وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيرا، وإنما خرجت على بنى أمية الذين قاتلوا جدى الحسين، وأغاروا على المدينة يوم الحرة، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار، ففارقوه عند ذلك، حتى قال لهم: رفضتمونى، ومن يومئذ سموا رافضة، وثبت معه مائتا رجل، وقاتلوا جند يوسف بن عمر حتى قتلوا عن آخرهم، وقتل زيد ثم نبش من قبره وصلب بالكناسة (محلة بالكوفة) ثم أحرق، وهرب ابنه يحيى بن زيد إلى خراسان وخرج بناحية الجوزجان كما سيأتى — انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٥، وتاريخ الطبرى ٨ : ٢٦٣ .

(١) شاب نفخ وجارية نفخ بضمتين : ملأتهما نفخة الشباب والخائر والخوار : الضعيف، وسهم خوار وخئور : ضعيف، قال فى اللسان ويجمع خوار على خور على غير قياس، وشاهد الخور جمع خوار قول الطرماح :

أنا ابن حماة المجد من آل مالك   إذا جعلت خور الرجال تهيع

(٢) هرج : جمع هروج مبالغة من هارج، والهرج بالفتح : الفتنة والاختلاط وجزع: جمع جزوع.

(٣) قدمهم كنصر : تقدمهم .

(٤) ناء بالحمل : نهض مثقلا .   (٥) الغشاء : الغطاء .

(٦) المشاقة والشقاق : الخلاف والعداوة. والمعني وإن أجبتم إلى قتال ذوي مشاقة .

٤٦٥ - كتاب هشام إلى يوسف بن عمر

وكتب هشام إلى يوسف بن عمر فى أمر زيد بن على :

« أما بعدُ ، فقد علمتَ بحال أهل الكوفة ، فى حبِّهم أهلَ هذا البيت ، ووَضْعِهم إياهم فى غير مواضعهم ، لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعَتَهم ، ووظَّفوا[١] عليهم شرائِعَ دينهم ، ونَحَلُوهم[٢] عِلْمَ ماهو كائن ،حتى حَمَلوهم من تفريق الجماعة على حال استخفُّوهم فيها إلى الخروج .

وقد قَدِم زيد بن علىّ على أمير المؤمنين فى خُصومة عمر بن الوليد ، ففَصَل أمير المؤمنين بينهما ، ورأى رجلا جَدِلا لَسِنا خليقا بتمويه[٣] الكلام وصوغِه ، واجترارِ الرجال بحلاوةِ لسانِه ، وبكثرة مخارجه فى حُجَجه ، وما يُدْلِى به عند لَدَد[٤] الخصام من السَّطْوة على الخصْم بالقوة الحادَّة لنيل الفَلْج[٥] .

فعجِّلْ إشخاصه إلى الحجاز ولا تُخَلِّه والمُقامَ قِبلك ، فإنه إن أعاره القومُ أسماعَهم، فحَشاها من لين لفظه ، وحَلاوة مَنطِقه ، مع ما يُدْلِى به من القرابة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَجَدهم مُيَّلًا إليه ، غيرَ مُتَّئِدةٍ قلوبهم ، ولا ساكنةٍ أحلامُهم ، ولا مَصُونةٍ عندهم أديانُهم ، وبعضُ التحامُلِ عليه - فيه أذًى له - وإخراجُه وتركُه - مع السلامة للجميع ، والحَقْنِ للدماء ، والأَمْنِ للفُرْقة - أحبُّ إلىّ من أمرٍ فيه سفكُ

(١) الوظيفة : مايقدر من عمل ورزق وطعام وغير ذلك ،ووظف عليه العمل توظيفاً: قدره،والمعنى قصروا عليهم شرائع الدين ومعرفة أحكامه. (٢) نحله الشيء كمنعه : نسبه إليه .

(٣) قول مموه أى مزخرف ، أو ممزوج من الحق والباطل ، وأصله من موه الشيء تمويها إذا طلاه بفضة أو ذهب وتحت ذلك نحاس أو حديد .

(٤) اللدد : شدة الخصومة .

(٥) الفلج : الفوز والظفر . وروى أن زيدا لما قدم على هشام ، قال له هشام : لقد بلغنى يازيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها،ولست هناك لأنك ابن أمة،قال زيد:فقد كان إسماعيل بن إبراهيم ابن أمة، وأخوه إسحاق ابن صريحة مثلك ، فأخرج الله عز وجل من صلب إسماعيل خير ولد آدم محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأخرج من صلب إسحاق القردة والخنازير وعبدة الطاغوت،فعندها قال له: قم،فقال :إذن لاترانى إلا حيث تكره - انظر البيان والتبيين ١ : ١٦٩ وتاريخ الطبرى ٨ : ٢٦٣ ، والعقد الفريد ٢ : ٣٠٠ .

دمائهم ، وانتشارُ[١] كلمتهم ، وقَطْعُ نسلهم ، والجماعةُ حَبْلُ الله المتين ، ودينُ الله القَويم ، وعُرْوته الوُثْقَى ، فادعُ إليك أشراف أهلِ المِصر ، وأوْعِدْهم العقوبةَ فى الأبشار[٢] ، واستصفاءَ[٣] ، الأموال ، فإنَّ مَنْ له عَقْد أو عهد منهم سيُبطِئُ عنه ، ولا يخفُّ معه إلا الرَّعاع وأهل السَّواد ، ومن تُنهِضه الحاجةُ استلذاذا للفتنةِ ، وأولئك ممن يستعبد إبليسَ وهو يستعبدهم ، فبَادِهِم[٤] بالوعيد ، وأَعْضِضْهم[٥] بسَوطك ، وجرِّد عليهم سيفَك ، وأَخِفِ الأشراف قبل الأوساط ، والأوساطَ قبَل السِّفلة .

واعلم أنك قائم على باب أُلفة ، وداعٍ إلى طاعة ، وحاضٌّ على جماعة ، ومشمِّرٌ لدين الله ، فلا تستوحِش لكثرتهم ، واجعل مَعْقِلك[٦] الذى تأْوِى إليه ، وصَغْوك[٧] الذى تخرج منه ، الثقةَ بربك ، والغضبَ لدينك ، والمحاماة عن الجماعة ، ومناصَبَةَ[٨] مَنْ أراد كَسْرَ هذا الباب الذى أمرهم الله بالدخول فيه والتَّشاحِّ[٩] عليه ، فإن أمير المؤمنين قد أعذر إليه[١٠] ، وقضَى من ذِمامه ، فليس له مَنْزَى[١١] إلى ادِّعاءِ حق هو له ظَلَمه من نصيب نفسِه أو فَىْء أو صِلَة لذى قُرْبى ، إلا الذى خاف أميرُ المؤمنين من حمل بادرة السِّفلةِ على الذى عسى أن يكونوا به أشقَى وأضلَّ ، ولهم أمرٌ ، ولأمير المؤمنين أعزَّ وأسهلَ إلى حِياطة الدين والذَّبِّ[١٢] عنه ، فإنه لا يحبُّ أن يرى فى أمته حالا

---

(١) أى تفرق .

(٢) البشرة بالتحريك : ظاهر الجلد ، والجمع بشر ، وجمع الجمع أبشار .

(٣) استصفى المال : أخذ منه صفوه . (٤) أى جاهرهم .

(٥) فى كتب اللغة أنه متعد إلى الثانى بنفسه ، يقال : أعضضته الشيء : جعلته يعضه وأعضضته سيفى : ضربته به . (٦) المعقل : الملجأ .

(٧) يقال : صغوه معك بالفتح والكسر : أى ميله معك ، والمعنى اجعل شعارك .

(٨) ناصبه الحرب ، والعداوة : أظهرها له وأقامها .

(٩) أى والحرص ، يقال : تشاحا على الأمر : لا يريدان أن يفوتهما ، وتشاح القوم فى الأمر : شح بعضهم على بعض حذرفوته .

(١٠) إليه أى إلى زيد بن على . وأعذر : صار ذا عذر ، والذمام : الحق والحرمة .

(١١) مفعل من نزا ينزو إذا وثب . (١٢) أى والدفع .

متفاوتاً نكالاً لهم[1] مُفْنيا، فهو يستديم النَّظِرة[2]، ويتأنَّى[3] للرشاد، ويجتنبهم على المخاوف، ويستجرُّهم إلى المَراشِد، ويَعْدِل بهم عن المهالك، فِعْلَ الوالد الشفيق على ولده، والراعى الحَدِب[4] على رعيته.

واعلم أن من حُجَّتك عليهم، فى استحقاق نصر الله لك عند معاندتهم، توفيتَك أطماعَهم، وأعطيةَ ذُرِّيتهم، ونَهْيَك جندك أن ينزلوا حَرِيَمهم ودُورهم، فانتهز رضا الله فيما أنت بسبيله، فإنه ليس ذنب أسرعَ تعجيلَ[5] عقوبةٍ مِن بغى، وقد أوقعهم الشيطان، وَدَلَّاهم[6] فيه، ودلهم عليه، والعصمةُ بتارك البغى أولَى، فأميرُ المؤمنين يستعين الله عليهم وعلى غيرهم من رعيته، ويسأل إلهه ومولاه ووليَّه أن يُصْلح منهم ما كان فاسداً، وأن يُسْرع بهم إلى النجاة والفوز، إنه سميع قريب».

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٦٦)

٤٦٦ - كتاب سالم بن هشام إلى يوسف بن عمر

وكتب سالم بن هشام إلى يوسف بن عمر حين قتل زيد بن على رحمة الله عليه:

«قد بلغ أمير المؤمنين كتابُك بما أَبْلَى[7] اللهُ فى مِدْرَهِ السّوء، وأنه لمّا عضّتهم الحربُ، وآلمهم الحديدُ، عاذوا بالمسجد الجامع، قد أكذبَ اللهُ ظنونَهم، وخَذَلَ مُخرِجَهم، وقتل إمامَ ضلالتهم، وحفِظَ لأمير المؤمنين ما ضيَّعوا من حقه، وحاط[8] له ما أباحوا من الغَدْر فيه، وقد رَأى أميرُ المؤمنين أن يجعل مِنْ شكرِ الله على نعمِه،

---

(١) يقال: نكل به تنكيلا: أى صنع به صنيعاً يحذر غيره، والاسم النكال.
(٢) النظرة: التأخير، وأنظره: أخره.
(٣) تأتى للأمر: ترفق وأتاه من وجهه.
(٤) حدب عليه كفرح: عطف. (٥) أى إلى تعجيل.
(٦) أى أوقعهم أيضاً.
(٧) الإبلاء: الإنعام والإحسان، والمدره: المقدم فى اللسان واليد عند الخصومة والقتال، والمراد به زيد بن على.
(٨) حاطه يحوطه: حرسه وصانه.

الصَّفحَ عنهم ، و تَغَمُّدَ[1] جُرْمِهم ، وأن يَعُمَّهم مِنْ عَدْله بما يردُّ الجاهِلَ عن جهله ، والغوىّ عن غَوايته ، ويعلمون مكانه من الله ، واستجابته لعِزِّه ونصره ، وأنه الخليفة المُتَّقِى ، والإمام المتألِّف ، وأنه يقدِّم العفوَ فى الطاعة ، على الحُجَّة فى العقوبة ، والحِسْبةَ فى الاستصلاح ، عن القوة فى التأييد ، فأَمْسِك عنهم بيدك، فإن أمير المؤمنين قد وهبَ ذلك كلَّه لله ، وَرَجا به ما ليس ضائعا عنده من ثوابه .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٠)

٤٦٧ - كتاب يوسف بن عمر إلى هشام

وحبس يوسف بن عمر حين قَدِم العراق خالد بن عبد الله القَسْرى كما قدمنا ، فأقام خالد فى مَحبِسه ثمانية عشر شهرًا[2] ، ثم كتب إليه هشـــام يأمره بتخلية سبيله (فى شوال سنة ١٢١ هـ) .

فخرج خالد ومعه جماعة من أهله ، حتى أتى القرية ، وهى بإزاء باب الرُّصافة[3] ، فأقام بها إلى صفر سنة ١٢٢ هـ ، لا يأذن لهم هشام فى القدوم عليه ، وخرج زيد بن على على يوسف بن عمر فقُتل ، فكتب يوسف إلى هشام :

---

(١) تغمده : ستره ، وفى الأصل « وتغمد حرمهم » وهو تصحيف .

(٢) وروى أن يوسف بن عمر استأذن هشاما فى إطلاق يده على خالد وتعذيبه ، فلم يأذن له ، حتى أكثر عليه ، واعتل عليه بانكسار الخراج وذهاب الأموال ، فأذن له مرة واحدة ، وبعث حرسيا يشهد ذلك ، وحلف لئن أتى على خالد أجله وهو فى يده ليقتلنه ، فدعا به يوسف ، فجلس على دكان بالحيرة ، وحضر الناس وبسط عليه العذاب فلم يكلمه واحدة ، حتى شتمه يوسف ، فقال : يابن الكاهن يعنى شق بن صعب الكاهن ، فقال له خالد : إنك لأحمق ، تعيرنى بشرفى ! ولكنك يابن السباء ، إنما كان أبوك سباء خمر - يعنى يبيع الخمر - ثم رده إلى حبسه - تاريخ الطبرى ٩ : ١٧ .

وقيل إن يوسف لما قدم العراق حبس خالدا وضربه ثلاثين سوطاً ، فكتب هشام إلى يوسف : أعطى الله عهدا لئن شاكت خالدا شوكة لأضربن عنقك ، فخلوا سبيله بثقله وعياله ، فأتى الشام - وفيات الأعيان ٢ : ٣٦٢ .

(٣) هى رصافة الشأم ، رصافة هشام بن عبد الملك غربى الرقة ، بينهما أربعة فراسخ ، على طرف البرية ، بناها هشام لما وقع الطاعون بالشأم ، وكان يسكنها فى الصيف (وأما رصافة بغداد ففى الجانب الشرقى من بغداد بناها المهدى سنة ١٥٩) .

« إن أهل هذا البيت من بنى عمكم قد كانوا هلكوا جوعا ، حتى كانت هِمَّة أحدهم قُوت عياله ، فلما وَلِى خالد العراق أعطاهم الأموال ، فقَوُوا بها حتى تاقت أنفسهم إلى طلب الخلافة ، وما خرج زيد إلا عن رَأْى خالد ، والدليل على ذلك نزول خالد بالقرية على مَدْرَجَة العراق يَسْتَنْشِى[١] أخباره » .

وكان يوسف قد أمر الرسول بتصديق ما كتب به ففعل ، فقال له هشام : كذبت وكذب مَنْ أرسلك ، ومهما اتهمنا خالدًا فلسنا نتَّهمه فى طاعة ، وأمر به فُوجِئَت[٢] عنقه وبلغ الخبر خالدًا فسار حتى نزل دمشق .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٨ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٦٢)

٤٦٨ — كتاب يوسف بن عمر إلى هشام

ولما طالت ولاية نصر بن سيار ودانت له خراسان ، كتب يوسف بن عمر إلى هشام ــ حسدًا له ــ :

« إن خراسان دَبِرَةٌ دبرة[٣] ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يضمها إلى العراق ، فأُسَرِّحَ إليها الحكَم بن الصَّلْت ، فإنه كان مع الجُنَيد[٤] ووَلِىَ جَسِيم أعمالهم ، فأُعْمِرَ بلاد أمير المؤمنين بالحكم ، وأنا باعث بالحكم بن الصلت إلى أمير المؤمنين ، فإنه أَدِيبٌ أَرِيب[٥] ، ونصيحتُه لأمير المؤمنين مثل نصيحتنا ومودتنا أهلَ البيت » .

٤٦٩ — رد هشام على يوسف

وقَدِم الحكم على هشام بخَراج العراق ، فرأى له جمالا وبيانا ، فكتب إلى يوسف :

---

(١) المدرجة : المذهب والمسلك ، واستنشا الأخبار : تتبعها . (٢) أى ضربت .

(٣) الدبرة بالتحريك : قرحة الدابة ، ودبرت كفرح فهى دبرة كفرحة ، يريد أنها موطن للقلاقل والفتن . (٤) هو الجنيد بن عبد الرحمن ، وقد تقدم أنه ولى خراسان سنة ١١١ هـ .

(٥) أى عاقل ، أرب إربا كصغر صغرا وأرابة ككرامة فهو أريب وأرب كفرح .

« إن الحكم قَدِم ، وهو على ما وصفتَ ، وفيما قِبَلك له سَعَةٌ ، وخَلِّ الكِنانِيَّ وعَمَلَه » وكان ذلك سنة ١٢٣ هـ . (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٧٩)

وكتب يُوسف إلى هشام أيضاً يذكر كِبَر نصر وضعفه ، ويذكر له سَلْمَ بن قُتَيبة ، فكتب إليه هشام : « أَلْهُ عن ذكر الكِنانِيِّ » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٧٩ – ٢٨٠)

٤٧٠ – كتاب أحد عمال يوسف بن عمر إليه

وقال سِماك بن حرب : بعث إلى يُوسف بن عمر ، وهو أمير العراق ، أن عاملا لى كتب إلىَّ :

« إنى قد زرعت لك كل خَقٍّ وَلَقٍّ » :

فما هما ؟ فقلت : إن الخَقَّ ما اطمأن من الأرض ، واللَّقَّ ما ارتفع منها[1] .

(وفيات الأعيان ٢ : ٢٦٣)

٤٧١ – كتاب رجل من حمص إلى هشام

وجاء فى العقد الفريد :

روى الهَيْثم بن عَدِىّ قال : كان سعيد بن هشام بن عبد الملك عاملا لأبيه على حِمْص ، وكان يُرْمَى بالنساء والشراب ، فقَدِم حمصىٌّ لهشام ، فلقِيَه أبو جَعْد الطائى فى طريق ، فقال له : هل ترى أن أُعطيَك هذه الفرس ، فإنى لا أعلم بمكانٍ مِثْلِهاَ ؟ على أن تبلغَ هذا الكتابَ أمير المؤمنين ، ليس فيه حاجة بمسألة دينار ولا درهم ، فأخذها وأخذ الكتاب ، فلما قَدِم على هشام سأله : ما قِصَّةُ هذا الفرس[2] ؟ فأخبره فقال : هاتِ الكتاب فإذا فيه :

أَبلِغْ إليك أميرَ المؤمنين ، فقد ... أَمْدَدتنــــا بأميرٍ ليس عِنِّينا
طَوْرًا يُخَالِفُ عَمْرًا فى حَليلتِــــه ... وعند ساحتِه يُسْقَى الطِّلَا دِينا[3]

---

(١) وفى كتب اللغة : الحق : الشق فى الأرض ، والغدير اليابس إذا جف ، وشبه حفرة غامضة فى الأرض ، واللق : الصدع فى الأرض ، أو كل أرض ضيقة مستطيلة ، قال صاحب اللسان : ومنه كتاب عبد الملك إلى الحجاج « لاتدع خقا ولالقا إلازرعته» وضبطهما ابن خلكان بضم الخاء واللام ، ولكنهما فى كتب اللغة بالفتح .

(٢) الفرس . للذكر والأنثى ، أو هى فرسة . (٣) الطلاء : الخمر .

فلما قرأ الكتاب بعث إلى سعيد فأشخصه ، فلما قَدِم عليه عَلاه بالخَيْزُرانة ، وقال : يابن الخبيثة ، تَزنى وأنت ابن أمير المؤمنين ! وَيْلَكَ ! أَعَجَزْتَ أن تفجُر فجور قريش ، أوَ تدرى ما فجورُ قريش لا أمّ لك ؟ قتل هذا وأخذ مال هذا ، والله لا تَلِي لى عملا حتى تموت ، فما وَلِىَ له عملا حتى مات . (العقد الفريد ٢ : ٢٨٤)

٤٧٢ — كتاب سليمان بن هشام إلى أبيه

وكتب سليمان بن هشام إلى أبيه هشام بن عبد الملك :

« أن بَغْلتى قد عجَزتْ عنّى ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لى بدابّةٍ فَعَلَ » .

٤٧٣ — رد هشام عليه

فكتب إليه :

« قد فهِم أميرُ المؤمنين كتابك ، وما ذكرتَ من ضعف دابّتك ، وقد ظَنّ أمير المؤمنين أن ذلك من قلّة تعهُّدك لِعَلَفها ، وأن علَفَها يضيع ، فتعهّدْ دابتك فى القيام عليها بنفسك ، ويَرَى أميرُ المؤمنين رأيه فى حُمْلاَنك[1] » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٨٥)

٤٧٤ — كتاب بعض عمال هشام إليه

وكتب إليه بعض عُمّاله :

« إنى قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بسلّة دُرَاقِن[2] ، فليكتب إلىّ أمير المؤمنين بوصولها » .

---

(١) أى فى حملك ، حمله حملا (بالفتح) وحملانا .

(٢) الدراقن ، وقد تشدد الراء : المشمش والخوخ ، شامية .

٤٧٥ — رد هشام عليه

فكتب إليه :

« قد وَصَلَ إلى أمير المؤمنين الدراقنُ الذى بعثتَ به ، فأعْجَبَه ، فَزِدْ أمير المؤمنين منه ، واستَوْثِقْ من الوِعَاء » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٨٦)

٤٧٦ — كتابه إلى بعض عماله

وكتب إلى بعض عماله :

« قد وصَلَتِ الكَمْأَةُ التى بعثتَ بها إلى أمير المؤمنين ، وهى أربعون ، وقد تغيَّرَ بعضُها ، ولم تُؤتَ فى ذلك إلاَّ من حَشْوِها ، فإذا بعثتَ إلى أمير المؤمنين منها شيئاً ، فَأَجِدْ حَشْوَها فى الظَّرف الذى تجعلها فيه بالرَّمْل ، حتى لا تضطرِبَ ، ولا يصيبَ بعضُها بعضا » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٨٦)

٤٧٧ — كتاب سالم إلى بعض إخوانه

وكتب سالم[١] إلى بعض إخوانه :

« أما بعدُ ، فقد أصبحتُ عظيم الشكر لِمَا سَلَفَ إلَيَّ منك ، جسيم الرجاء فيما بَقِيَ لى عندك ، قد جعل الله مستقبلَ رجائى منك عَوْنا لى على شكرك ، وجعل ما سَلَفَ إلَيَّ منك عونا على مُؤْتَنَف الرجاءِ فيك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٩)

---

(١) ويكنى أبا العلاء ، كاتب هشام بن عبد الملك ، وكان ختن عبد الحميد بن يحيى الكاتب (والختن بالتحريك : الصهر ، وكل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ) وكان أحد الفصحاء البلغاء ، وقد نقل من رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر — انظر الفهرست لابن النديم ص ١٧١ .

٤٧٨ – كتابه فى الاعتذار

وكتب سالم فى الاعتذار :

« أمتَعَك اللهُ وأمتعَ بك ، لولا أنه إذا ضاق علىَّ المَخْرَجُ لك ، وَسِعَك عُذرى ، بَسَطْتُ لسانَ لائمتى فى تركك لائمتى فيما خالف هواكَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٩)

٤٧٩ – كتاب عبد الحميد بن يحيى عن هشام إلى يوسف بن عمر

وكتب عبد الحميد بن يحيى [١] عن هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر وهو باليمن ، فى السلامة :

« فإن أمير المؤمنين كتب إليك ، وهو فى نعمة الله عليه ، وبَلائه عنده : فى وَلَده ، وأهلِ لُحمته [٢] ، والخاصِّ من أموره والعامِّ ، والجنودِ ، والقواصى ، والثغورِ ، والدَّهْماءِ [٣] من المسلمين ، على مالم يزَل وَلِى النعم يتولاه من أمير المؤمنين ، حافظا له فيه ، مُكرِما له بالحياطة لِمَا ألهمه الله فيه من أمر رعيته على أعظمِ وأحسن وأكمل

(١) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد، مولى بنى عامر بن لؤى بن غالب ، وهو من أهل الشأم ، وكان أول أمره معلم صبية يتنقل فى البلدان ، ثم اتصل بمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية أيام ولايته أرمينية قبل استخلافه ، وصحبه وكتب له وانقطع إليه. فلما جاء الأمر بالخلافة سجد مروان وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان : لم لم تسجد ؟ فقال : ولم أسجد ؟ على أن كنت معنا فطرت عنا ؟ يعنى الخلافة ، فقال : إذن تطير معى ، قال : الآن طاب السجود وسجد وكان كاتب مروان طول خلافته .
وكان شيخه فى الكتابة سالما أبا العلاء (مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه) وبرع عبد الحميد فى الكتابة ، حتى ضرب به المثل فى البلاغة ، فقيل : « فتحت الرسائل بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد » وهو الذى سهل سبيل البلاغة فى الترسل، وأول من أطال الرسائل، واستعمل التحميدات المطولة فى فصول الكتب ، وعنه أخذ المترسلون ، ولآثاره اقتفوا ، وقد استعمل فى بعض كتبه الإيجاز البليغ، وفى بعضها الإسهاب المفرط، على ما يقتضيه الحال (انظر رسالته عن مروان إلى ابنه عبد الله وستأتى) قال ابن النديم: ومجموع رسائله نحو ألف ورقة ، وتوفى سنة ١٣٢ هـ (٢) اللحمة : القرابة .
(٣) الدهماء : جماعة الناس.

ما كان يَحُوطه فيه ، ويذُبُّ له عنه ، والله محمود مشكور إليه فيه مرغوب .

أحبَّ أمير المؤمنين — لِعلْمه بسرورك به — أن يكتب إليك بذلك ، لتحمَدَ الله عليه ، وتشكره به ، فإن الشكر من الله بأحسن المواضع ، وأعظم المنازل ، فازْدَد منه تَزْدَدْ به ، وحافظ عليه تُحْفَظ به، وارغب فيه يُهْدِ إليك مزيدَ الخير ، ونفائس المواهب ، وبقاء النِّعم ، فاقرأ على من قِبَلَك كتابَ أمير المؤمنين إليك ، ليُسرَّ به جندُك ورعِيتك ، ومن حَمّله الله النعمَ بأمير المؤمنين ، ليَحْمَدوا ربهم على مارزق اللهُ عبادَه من سلامة أمير المؤمنين فى بدنه ، ورأفتِه بهم ، واعتنائه بأمورهم ، فإن زيادة الله تعلو شكر الشاكرين ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٦)

٤٨٠ — كتاب عبد الحميد عن مروان إلى هشام

وكتب عن مروان بن محمد إلى هشام بن عبد الملك يعزيه بامرأة من حَظَايَاه :

« إن الله تعالى أمتعَ أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته متاعا مَدَّهُ إلى أجل مُسَمّى ، فلما تَمَّتْ له مواهبُ الله وعارِيّته[1] ، قَبَض إليه العَارِيَّة ، ثم أعطى أميرَ المؤمنين من الشكر عند بقائها ، والصبرِ عند ذهابها ، أنفَسَ منها فى المنقَلَب ، وأرجَحَ فى الميزان ، وأسْنَى[2] فى العِوَض ، فالحمد لله رب العالمين ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » . (سرح العيون ص ١٦٤)

٤٨١ — كتابه عن مروان إلى هشام

وكتب عبد الحميد أيضا عن مروان بن محمد إلى هشام بن عبد الملك يعزيه عن مولودين ، هلك أحدهما وبقِيَ الآخر :

« الشكرُ على النِّعمة ، والصبرُ على النكْبة ، وتأديةُ الحق فى ميسور الأمور

---

(١) العارية مشددة وقد تخفف . (٢) أرفع ، من السناء ، وهو الرفعة .

ومصورها ، ومحبوبها ومكروهها ، مَن استعمله كان شُكْرُ الله أَوْلَى به مِنْ صبره ، فيُوجِبُ له بالشكر على النعمة المزيدَ ، وبالصبر على المصيبة الأجرَ ، بما أدَّى من الحق فى نفسه ، واقتدى به أهلُ دهرِه » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٦)

٤٨٢ — رسالة عبد الحميد فى وصف الإخاء

ولعبد الحميد فى وصف الإخاء :

« فإن أَوْلَى ما اعتزَم عليه ذوو الإخاء ، وتواصل عليه[١] أهلُ المَوَدَّات ، ما دعا أسبابَه صدقُ التقوى ، وبُنِيَتْ دعائمُه على أساس البرِّ ، ثم أَنهدَ البناءَ حَرِيزُ التواصُل[٢] وشيَّده مستعذَبُ العِشْرَة ، فادَّعَم قويّاً ، وصفا مُونِقا[٣] وَأَخْلَصَتْهُ المِقَةُ[٤] مُنْعطِفَةً ، وسَكَنَتْ به القلوبُ أنيسةً ، وسَمَتْ من مُواصَلته الهِمَمُ مستعلِيةً عن كل زائغ معتاق[٥] ومَخُوف عارِض يخترِمُ مُسْكَةَ الإخاء ، ويحتزّ مَرْبُوبَ[٦] المِقة ، ضَنًّا بما استعذبوا من محمود وثائقه ، وازدياداً فيما تمطَّقوا به من حلاوة جَناه[٧] فإذا استحْكَم لهم مَذْخُورُ الصَّفاء بثَباتِ أواخِيه[٨] ، وظهورِ أعلامِه ، ومَحْصول مُخْتَبَره ، وثِقة مَوَدِّه ، كان سرورهم باعتلاقه[٩] ، وابتهاجُهم بوِجْدانه[١٠] ، وإنماؤُهم[١١] صِلتَه ، وَبَذْلُهم رِعَايَتَه ، وحياطتُهم محمودَهُ ، بحيث نالوا من معرفة حُظْوَتِه ، واستولَوا عليه

(١) فى الأصل « وتوصل إليه » .

(٢) فى الأصل « ثم انهد البنامرين التواصل » وهو تحريف : ونهد كمنع : ارتفع ، وأنهده : رفعه ، والحريز : الحصين . (٣) أى معجبا .

(٤) المقة : المحبة ، ومقه كورثه : أحبه ، وفى الأصل « وبخاصه » وهو تحريف وقد أصلحته كما ترى .

(٥) الزائغ : المـائل ، والمعتاق : المعوق ، عاقه وعوقه واعتاقه : ثبطه وصرفه .

(٦) المسكة بالضم : ما يتمسك به ، ورب المعروف والصنيعة وربهما : نماها وزادها وأتمها ، ويحتز : يقطع . وفى الأصل « ويختار » وأراه محرفا . والضن : البخل .

(٧) التمطق : التذوق ، والجنى : العسل

(٨) الأواخى : جمع آخية بتخفيف الياء فيهما ، والأواخى جمع آخية بتشديدها فيهما : عروة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة . (٩) أى بالتعلق به . (١٠) أى بوجوده .

(١١) فى الأصل « وإنمـا هم » وهو تحريف .

من مَزِيّة كرمه ، وتعرّفوا من ذخيرة عائِدته[1] ، ومأمونِ حِفاظه ، وكشفَ لهم عن نفسه ، مُظهِرًا أعلامَه ، مُبْديا دفينَتَه ، طارِحا قِناعَ سِرِّه ، مُعْلِناً مكنونَ ضميره ، فى نأى الدار ، وجدان[2] المجتمع ، بإظهار ما استتر من المحاسن ، وبثّ فى الحِقَب[3] من المكارم ، قياما لهم بالنُّصْرة ، وحِياطاً للموَدَّة ، وترغيبا فى العِشرة ، فكان أكهفَ[4] لجَأ ، وأحرزَ حِصْن ، وأحصف جُنَّة[5] وأعونَ ظهير ، وأبقَى ذخيرة ، وأعظم فائدة ، وأشرف كَنز ، وأفخر صنيعة ، وآنَق منظر ، وأينع زهرة ، أكثر الأشياء رَيْعا[6] وأنماها وَصْلا ، وأمدّها سَبَبا ، وأقواها أَيْدا ، وأحلاها ذوقا ، وأدْعَمها ثباتا ، وأرساها ركنا ، لايدخل مستحقّها سآمةُ مَلال ، ولا كَلال مِهنة[7] ، ولا تثبيط وَنْية ، ولا ضَعف خوَر ، لنزول بائقة ، أو طُروق طارقة ، من عوارض الأقدار ، وحوادث الزمان ، بل مُواسيا فى إزَمِها[8] ، متورِّطا غَمَراتِ قُحَمِها ، متدرِّعا هائلَ بوائِقها ، مستلحِماً نَواظِرَ مَقاطِعِها[9] ، حتى تَصيرَ به الأقدارُ إلى تناهِيها ، ويَبْلُغَ به القضاء مقدارَه ، غير منّان بالنصرة ، ولا بَرِمٍ[10] بالتعب ؛ يرى تَعَبَه غُنْمًا ،

---

(١) العائدة . المعروف والصلة والمنفعة .

(٢) كذا فى الأصل ، والمعنى عليه غير ظاهر .

(٣) الحقب : جمع حقبة بالكسر ، وهى من الدهر مدة لاوقت لها ، والسنة .

(٤) الكهف واللجأ بالتحريك والملجأ والموئل والوزر والملاذ والمعقل : واحد ، ومعنى أكهف : أمنع وأحصن .

(٥) الجنة : كل ماوقى ، وحصف عقله ككرم فهو حصيف: أى محكم العقل جيد الرأى ، وأحصف الأمر . أحكمه ، والحبل : أحكم فتله ، وربما كان الأصل « وأحصن » . والظهير : المعين ، وأنق الشىء كفرح : راع حسنه وأعجب ، فهو أنيق أى حسن معجب .

(٦) راع يريع ريعاً : نما وزاد وزكا . والأيد : القوة .

(٧) المهنة بالكسر والفتح والتحريك وككلمة: الحذق بالخدمة والعمل ، ويقال: افعل ذلك بلا ونية: أى بلا توان ، والبائقة : الداهية ، والجمع بوائق .

(٨) الأزمة بالفتح ويحرك: الشدة ، والجمع أزم بالفتح وإزم كعنب ، والورطة : الهلكة (بالتحريك) وكل أمر تعسر النجاة منه . وتورط فيه : وقع ، والغمرة بالفتح : الشدة ، والقحم جمع قحمة بالضم : وهى المهلكة . (٩) يقال : استلحم الطريدة أى تبعها ، ونواظر جمع ناظرة ، والمعنى متتبعا مقاطعها التى تنظره وترتقبه .

(١٠) برم بالأمر كفرح : ضجر وسئم ، وفى الأصل «غير منان النصرة ولابرم التعب» وهو تحريف .

وَنصبَه دَعَةً ، وَكَلَفه[1] فائدة ، وعَمَله مقصرًا ، وسعيه مفرِّطا ، واجتهاده مضيعا ، عَِدْل[2] الولد فى بِرِّه ، والوالدِ فى شفَقَته ، والأخ فى نُصرته ، والجار فى حفظه ، والذُّخر فى مِلكه ، فأين المَعْدَلُ عن مثله ؟ أو كيف الإصابةُ لشِبهه ؟ أو أنَّى عِوَضٌ مِنْ فَقْده ؟ جمَعَنا اللهُ وإياك على طاعته ، وألَّفنا بمَحَابِّه ، وجعل أُخُوَّتَنا فى ذاته .

قد حَدَدْتُ لك أى أخِى الإخاء متشعِّبا ، ووصفتُه لك مُخَاصًا[3] ، وانتهيتُ بك إلى غاية أهلِ العقل منه ، وما تواصَلَ أهل الرأى عليه ، ودعا إليه الإخاء من نفسه ، مُنتَطِقًا[4] به ، ضامنا له ما فرط فى ذلك تقصير من أهله ، وداخله تضييعٌ مِنْ حَمَلَتِه ، أو حاطه إحكام ، وكنفَه حِفاظ مِن رُعاته .

وافانى كتابُك بما سألتَ من ذلك ، وعَقلِى مَحْصورٌ ، ورأْيى منقسِم ، وذِهنى فيما يتأهَّب به الأميرُ لقتال عدوٍّ الله[5] من خزَر التُّرْك ، واختلافِ رُسُله إلى جبال اللّانِ والطَّبَرَانِ وما والاها ، بنوافِذِ أمْرِه ، ومَخَارِج رَأْيه ، فأنا مُصِيخٌ[6] السمع

---

(١) كلف لأمر كفرح كلفا وتكلفه : تجشمه على مشقة ، والكلفة بالضم : ما تكلفت من أمر

(٢) العدل بالفتح والكسر والعديل : المثل والنظير .

(٣) أى خالصاً من الدنس .

(٤) انتطق بالنطاق : شده فى وسطه ، وكنفه : حفظه وصانه.

(٥) فى الأصل « يتأهب به الأمير ... والله من خزر الترك ... الخ » وقد تممته بما ترى كما يقتضيه سياق الكلام ، والأمير المعنىّ هنا هو مروان بن محمد وكان هشام بن عبد الملك ولاه أرمينية وأذربيجان سنة ١١٤هـ (انظر تاريخ الطبرى ٨ : ٢١٧) واستمر واليا عليها إلى أن تقلد الخلافة ، وكان عبد الحميد متصلا بمروان قبل استخلافه منقطعاً إليه كما قدمنا فى ترجمته ، والخزر : اسم جيل من الترك كانوا يسكنون على السواحل الشمالية والغربية من بحر الخزر (بحر طبرستان ، وهو بحر قزوين) ، واللان : بلاد واسعة فى طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورون للخزر (وباب الأبواب : مدينة على الشاطىء الغربى لبحر الخزر) والطبران : جنوبى بحر الخزر ، وكان هشام قد ولى أرمينية قبل مروان الجراح بن عبد الله الحكمى سنة ١١١هـ ، وفى سنة ١١٢ سار الترك من اللان فلقيهم الجراح فيمن معه من أهل الشأم وأذربيجان ، فلم يتتام إليه جيشه ، فاستشهد الجراح ومن كان معه — انظر تاريخ الطبرى ٨ : ٢٠٥ .

(٦) أصاخ له : استمع .

لِلَفْظه ، عَقِل[١] العقلِ عن سوَى أمره ، مُحْتَضِر[٢] الذِّهن فى تدبيرهم ، ذَهِلُ[٣] القلب عن تَفنِين القول وتَشْعِيب الكلام فى تَصْنيف طبقاتِ الرجال ، ومن أين دَخَل عليهم نقصُ الإخاء ، وكيفَ خانَهم مُونِقُ[٤] الصَّفاء ، وقد صَرَّحْتُ لك عن رأى ذوى الصَّفاء ، وكشفتُ لك خِباءَ الإخاء ، وجَمَعْتُ لك إلْفَ[٥] مودَّةِ أهل الحِجا ، فتلَقَّ ما وصَفْتُ لك بقلب فَهِمٍ عَقُولٍ ذى مِيزة يَقْظَانَ ، وذهنٍ جامعٍ ذى ثقافةٍ رَاعٍ[٦] ، أحضرَكَ الله عِصْمَةَ التوفيق ، وسَدَّدك الله لإصابة الرشد ، ومكَّن لك صِدْقَ العزيمة ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٨)

٤٨٣ — كتاب الوليد بن يزيد بن عبد الملك إلى هشام

وكان يزيدُ بن عبد الملك بن مَرْوان عَقَد الخلافة لابنه الوليد بعد أخيه هشام ابن عبد الملك[٧] ، ووَلِىَ هشامٌ وهو للوليد مُكرِّم مُعظِّم مُقرِّب ، فلم يزل ذلك من أمرهما ، حتى ظهر من الوليد بن يزيد مُجُون ، وشَرِب الشرابَ ، وحَمَله على ذلك عبدُ الصَّمد بن عبد الأعلى الشَّيبانى — وكان مُؤَدِّب الوليد ، وكان فيما يقال زنديقا — وبدا للناس منه تهاوُن بالدين و ستخْفاف به ، وبلغ ذلك هشاما فطمِع فى خلعه والبيعة لابنه مَسْلَمة بن هشام ، وأراده على ذلك فأبى ، فقال له : اجعلها له من بعدك فأبى ، فتنكَّر له هشام وأضرّ به وعمِل سِرًّا فى البيعة لابنه فأجابه قوم .

---

(١) عقله كضربه : حبسه ، وعقل الشىء بمعنى تدبره وفهمه ، من ذاك ، لأنه يقيده ويحبسه ، وهو من باب ضرب أيضاً ، قال صاحب المصباح : « وعقلت الشىء من باب ضرب : تدبرته ، وعقل يعقل من باب تعب لغة » فقوله « عقل » صفة من عقل كتعب أى معقول العقل أى محبوسه ، وربما كان الأصل « عقيل » بمعنى معقول كجريح وأسير . (٢) حضر واحتضر : ضد غاب ، أى حاضر الذهن .

(٣) ذهل عنه ، نسيه وغفل عنه ، وبابه قطع ، وكفرح لغة .

(٤) أنقه الشىء : أعجبه.

(٥) ألفه كعلمه إلفا بالكسر والفتح . (٦) أى حافظ .

(٧) وذلك أن الوليد يوم عقد له أبوه يزيد الخلافة كان ابن إحدى عشرة سنة فلم يمت يزيد حتى بلغ الوليد خمس عشرة سنة ، فندم يزيد على استخلافه هشاما أخاه بعد ، وكان إذا نظر إلى ابنه الوليد قال: الله بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك .

وتمادَى الوليد فى الشراب وطلب اللّذات فأفرط ، فقال له هشام : وَيْحَكَ ياوليد ! واللهِ ما أدرى : أعَلَى الإسلام أنت أم لا ؟ ما تدَع شيئاً من المنكر إلا أتيته غير متحاشٍ ولا مستَتِرٍ به ، فكتب إليه الوليد :

« يأيُّها السائلُ عن ديننا   نحن على دين أبى شاكِرِ
نشربُها صِرْفاً وممزوجةً   بالسُّخْن أحيانا وبالفاتِرِ »

فغضب هشام على ابنه مسلمة ـ وكان يُكْنَى أبا شاكر ـ وقال له : يعيِّرنى بك الوليد ، وأنا أرشِّحك للخلافة ! فالزم الأدبَ ، واحضُر الجماعة ، وولاه الموسم سنة ١١٩ هـ فأظهر النُّسْك والوَقَار واللِّين ، وقسَّمَ بمكة والمدينة أموالا .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٨٩ ، والأغانى ٢ : ٧٦)

٤٨٤ ـ كتاب أبى شاكر مسلمة بن هشام إلى خالد القسرى

وقال خالد بن عبد الله القَسْرى : أنا برىء من خليفةٍ يُكْنَى أبا شاكر ، فغضب مسلمة بن هشام على خالد ، فلما مات أسد بن عبد الله أخو خالد سنة ١٢٠ كتب أبو شاكر إلى خالد بِشعرٍ هجا به نَوْفَلٌ خالداً وأخاه أسداً حين مات :

« أراحَ من خالدٍ وأهلَكَهُ   ربٌّ أراحَ العبادَ من أسَدِ
أمَّا أبوه فكان مُؤْتَشَباً   عَبْداً لئيما لِأَعْبُدٍ قُفُدِ »[1]

وبعث الطُّومار[2] مع رسول على البريد إلى خالد ، فظنَّ أنه عزّاه عن أخيهِ ، ففضَّ الخاتَم ، فلم يرَ فى الطومار غيرَ الهجاء ، فقال : ما رأيت كاليوم تعزيةً !

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٨٩)

---

(١) هو مؤتشب بالفتح : أى غير صريح فى نسبه ، وقفد : جمع أقفد ، والعبد الأقفد : الكز اليدين والرجلين القصير الأصابع (والكز : وصف من الكزازة بالفتح وهى اليبس والانقباض) والأقفد : المسترخى العنق أو الغليظة ، ومن يمشى على صدور قدميه من قبل الأصابع ، ولا تبلغ عقباه الأرض ، ومن يرى مقدم رجليه من مؤخرهما من خلف ، وفعله كفرح .

(٢) الطومار : الصحيفة .

٤٨٥ - كتاب هشام إلى الوليد

وكان هشام يَعيب الوليد ويتنقَّصه وكَثُرَ عبثُه به وبأصحابه وتقصيرُه به ، فلما رأى ذلك الوليد خرج ، وخرج معه ناس من خاصَّته ومَوَاليه ، فنزل بالأَزْرَق[١] ، وخلَّف كاتِبَه عِيَاضَ بن مُسْلِمٍ بالرُّصافة[٢] ، فقال له : اكتب إلىّ مايحدُث قِبلكم ، وأخرَج معه عبد الصمد بن عبد الأعلى ، فشربوا يوما ، فلما أخذ فيهم الشرابُ ، قال الوليد لعبد الصمد : يا أبا وَهْب قل أبياتا ، فقال أبياتا منها :

لَعَلَّ الوليدَ دنا مُلْكُهُ ... فَأَمْسَى إليه قد اسْتَجْمَعا[٣]

وكنا نُؤَمِّل فى ملكه ... كَتَأْمِيلِ ذى الجَدْب أن يُمْرِعا[٤]

عَقَدْنا له مُحْكَماتِ الأمو ... ر طَوْعا فكان لها مَوْضِعا

ورُوِى الشعر فبلغ هشاما ، فقطع عن الوليد ما كان يُجْرِى عليه ، وكتب إلى الوليد :

« بلغنى عنك أنك اتخذتَ عبدَ الصَّمَد خِدْنا[٥] ومُحدِّثا ونَديما ، وقد حقَّق ذلك عندى ما بلغَنى عنك ، ولم أُبرِّئْك من سوء ، فأَخْرِج عبد الصمد مذموما مَدْحوراً[٦] » .

فأخرجه الوليد ، وكتب إلى هشام يُعْلِمه بإخراجه ، واعتذر إليه مما بلغه من منادمته ، وسأله أن يأذن لابن سُهَيْل فى الخروج إليه - وكان ابن سهيل من أهل اليمن ، وقد وَلِىَ دِمَشْقَ غيرَ مرّة ، وكان من خاصَّة الوليد - فضرب هشام ابنَ سهيل وسيَّره ،

---

(١) الأزرق : ماء فى طريق حاج الشأم دون تيماء وتيماء بالفتح : بليد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى ، على طريق حاج الشأم ودمشق .

(٢) انظر ص ٣٦٥ .

(٣) يقال : اجتمع وجامع وتجمع واستجمع .

(٤) أى أن يصيب مكانا مريعا ، والمريع كخصيب وزنا ومعنى .

(٥) الخدن والخدين : الصاحب .

(٦) الدحر : الطرد والإبعاد .

وأخذ عياضَ بن مسلم كاتب الوليد — وبلغه أنه يكتب بالأخبار إلى الوليد — فضربه ضربا مُبَرِّحا وألبسه المُسُوح[1] (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٠)

٤٨٦ — كتاب الوليد إلى هشام

وبلغ ذلك الوليد[2] فكتب إلى هشام :

« لقد بلَغنى الذى أحدَثَ أميرُ المؤمنين : مِنْ قَطْعِ ما قَطَعَ عنى ، ومَحْوِ ما مَحَا من أصحابى وحُرَمى[3] وأهلى ، ولم أكن أخافُ أن يبتلِيَ اللهُ أميرَ المؤمنين بذلك ، ولا أُبالِي به منه ، فإن يكن ابن سُهَيْل كان منه ما كانٍ ، فيَحْسَبُ العَيْرُ[4] أن يكون قدرَ الذِّئب ، ولم يَبْلُغ صَنِيعى[5] فى ابن سهيل واستصلاحه ، وكتابى إلى أمير المؤمنين فيه كُنْهَ[6] ما بلغ أميرُ المؤمنين من قطيعتى ، فإن يكن ذلك لِشىء فى نفس أمير المؤمنين علىَّ ، فقد سبَّب اللهُ لى من العهد ، وكتَبَ لى من العُمر ، وقَسَم لى من الرزق ، مالا يقدرُ أحد دون الله عَلَى قطع شىء منه دون مُدَّته ، ولا صرفِ شىء عن مَوَاقِعِه ، فقَدَرُ اللهِ يَجْرِى بمقاديره ، فيما أَحَبَّ الناسُ أو كَرِهوا ، ولا تأخيرَ لعاجِله ، ولا تعجيلَ لآجِله ، فالناسُ بين ذلك يقترفون الآثام على نفوسهم من الله ، أو يستوجبون الأجورَ عليه ، وأميرُ المؤمنين أحقُّ أُمَّتِه بالبَصَر بذلك ، والحفظِ له ، واللهُ الموفِّق لأمير المؤمنين لحُسْنِ القضاء له فى الأمور » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٠)

---

(١) المسوح : جمع مسح بالكسر ، وهو ثوب من الشعر غليظ .

(٢) وقد قال الوليد عند ذلك : « من يثق بالناس ، ومن يصطنع المعروف ؟ هذا الأحول المشئوم قدمه أبى على أهل بيته ، فصيره ولى عهده ، ثم يصنع بى ماترون ، لايعلم أن لى فى أحد هوى إلا عبث به ، كتب إلى أن أخرج عبد الصمد فأخرجته ، وكتبت إليه أن يأذن لابن سهيل فى الخروج إلى فضربه وسيره وقد علم رأيى فيه ، وقد علم انقطاع عياض بن مسلم إلى ، وتحرمه بى ، ومكانه منى ، وأنه كاتبى ، فضربه وحبسه . يضارنى بذلك ، اللهم أجرنى منه » .

(٣) الحرم جمع حرمة : وهى ما لايحل انتهاكه .

(٤) العير : الحمار وغلب على الوحشى .

(٥) فى الأصل «من صنيعى» ولا موضع لمن هنا .

(٦) كنه الشىء : جوهره وغايته وقدره .

٤٨٧ - رد هشام على الوليد

فكتب هشام إلى الوليد :

« قد فَهِمَ أمير المؤمنين ما كتبتَ به ، مِنْ قَطْعِ ما قطَع عنك وغيرِ ذلك ، وأمير المؤمنين يستغفِرُ اللهَ من إجرائه ما كان يُجْرِى عليك ، وأميرُ المؤمنين أخوفُ على نفسه من اقتراف المآثم عليها فى الذى كان يُجْرِى عليك منه فى الذى أحْدَث من قَطْعِ ما قَطَع ومَحْوِ ما محا من صَحابتك ، لِأَمْرين: أمَّا أحدُهما فإيثارُ أمير المؤمنين إياك بما كان يُجْرِى عليك ، وهو يَعْلَمُ وَضْعَك له وإنفاقَكَهُ فى غير سبيله ، وأما الآخرُ فإثباتُ صَحابتك وإدْرارُ أرزاقهم عليهم ، لاينالهُم ما ينالُ المسلمين فى كل عام من مكروهٍ عند قطعِ البُعُوث ، وهم معك تَجُول بهم فى سَفَهك ، ولَأَميرُ المؤمنين أحْرَى فى نفسه للتقصير فى القَتْرِ[١] عليك ، منه للاعتداء عليك فيها ، مع أن الله قد بصَّرَ[٢] أميرَ المؤمنين فى قَطْعِ ما قَطَع عنك من ذلك ما يرجو به تكفيرَ ما يتخوَّف مما سَلَف فيه منه .

وأمَّا ابنُ سهيل ، فلَعَمْرى لئن كان نزَل منك بما نزَل ، وكان أهْلًا أنْ تُسَرَّ فيه أو تُساء ، ما جَعَله اللهُ كذلك ، وهل زاد ابنُ سهيل - لِلهِ أبُوك - على أن كان مُغَنِّيا زَفَّانا[٣] قد بَلَغ فى السَّفَه غايتَه ؟ وليس ابنُ سهيل مع ذلك بِشَرٍّ ممن تستصحبُه فى الأمور التى يُكْرِم أميرُ المؤمنين نفسَه عن ذكرها ، مما كنتَ لَعمرُ اللهِ أهلا للتوبيخ به ، ولَئِن كان أميرُ المؤمنين على ظَنِّك به فى الحِرْص على فسادك ،

---

(١) قتر عليه كنصر وضرب ، وقتر : ضيق فى النفقة ، والمعنى : ولأمير المؤمنين أحرى بأن ننسب للتقصير بك والقتر عليك (لما تجول فيه من سفهك) من أن ينسب للاعتداء عليك ، وضمير « فيها » يعود على « نفسه » .

(٢) أى عرفه وجعله يبصر مايرجو به تكفير مايتخوف...الخ، وفى الأصل «نصر» وأراه مصحفا

(٣) الزفان : الرقاص ، من زفن كضرب : أى رقص .

إنك إذن بغير إلّ[١] ، عن هوَى أمير المؤمنين من ذلك .

وأما ما ذكرتَ مما سبَّبَ اللهُ لك ، فإن الله قد ابتدأ أميرَ المؤمنين بذلك واصطفاه ، واللهُ بالغُ أمره ، لقد أصبح أمير المؤمنين ، وهوَ على اليقين من ربه ، أنَّه لا يَملك لنفسه فيما أعطاه من كرامته ضَرًّا ولا نفعا ، وأن الله وَلِيُّ ذلك منه ، وأنه لابُد له من مُزايَلَته ، واللهُ أرأفُ بعباده وأرحمُ من أن يولِّيَ أمرَهم غيرَ الرَّضِيِّ له منهم ، وإن أمير المؤمنين من حسن ظنه بربه لَعلَى أحْسَنِ الرجاء أن يوليِّه تسبيبَ ذلك لمن هو أهلُه فى الرِّضا له به ولهم ، فإن بلاءَ[٢] الله عند أمير المؤمنين أعظمُ من أن يَبْلُغَه ذكرُه أو يُؤَدِّيَه شكرُهُ إلاَّ بعونٍ منه ، ولئن كان قُدِّر لأمير المؤمنين تعجيلُ وفاةٍ ، إن فى الذى هو مُفْضٍ إليه إن شاء الله من كرامة الله لَخلَفًا من الدنيا .

ولعمرى إن كتابك إلى أمير المؤمنين بما كتبتَ به لَغيرُ مستنكَر من سَفَهك وحُمْقك ، فارْبَعْ على نفسِك من غُلَوائها ، وارْقأْ على ظَلْعِك[٣] ، فإن لله سَطَوَاتٍ وَغِيَرًا ، يُصيبُ بذلك من يشاء ، وَيَأْذَنُ فيه لمن يشاء ، ممن شاء الله ، وأمير المؤمنين يسأل الله العِصمةَ والتوفيق لأَحبِّ الأمور إليه وأرضاها له .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩١)

---

(١) الإل : العهد . أقول : وربما كان الأصل « لغير آل » أى مقصر ، من ألا يألو إذا قصر ، والمعنى : لئن كنت تظن أن أمير المؤمنين حريص على الإساءة إليك ، إن ظنك هذا لايخطىء مايهواه أمير المؤمنين من ذلك ، يريد بهذا أن يصارحه بأنه يهوى إساءته ويستريح إليها .

(٢) أى نعمته .

(٣) ربع كمنع : وقف وانتظر وتحبس ، ورقأ فى الدرجة كمنع وفرح ورقى : صعد ، وظلع كمنع : غمز فى مشيه ، ويقال : اربع عليك أو على نفسك و على ظلعك ، أى إنك ضعيف فانته عما لاتطيقه ، وارق على ظلعك ، وارقأ على ظلعك مهموزا : أى ارفق بنفسك ولا تحمل عليها أكثر مما تطيق — لأن الراقى فى سلم إذا كان ظالعا ترفق بنفسه — أو أصلح أمرك أولا وكف واسكت على مافيك من العيب وأبصر نقصك وعجزك .

٤٨٨ — رد الوليد على هشام

فكتب الوليد إلى هشام :

رأيتك تَبني جاهِدًا في قَطيعتي ... فلو كنتَ ذا إِرْبٍ لَهَدَّمْتَ ما تبنى [(١)]

تُثيرُ على الباقين مَجْنَى ضَغينةٍ ... فوَيْلٌ لَهُمْ إن مُتُّ من شرِّ ما تَجْني [(٢)]

كأنى بهم والليتُ أفضلُ قولِهِمْ ... أَلَا لَيْتَنا ، والليتُ إذ ذاك لا يُغنِي [(٣)]

كَفَرْتَ يداً من مُنْعِمٍ لو شكرتَها ... جزاكَ بها الرَّحْمَنُ ذو الفضلِ والمَنِّ

فلم يزل الوليد مقيما فى تلك البرِّية حتى مات هشام .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٢ ، والفخرى ص ١١٩)

---

(١) الإرب : العقل .

(٢) وفى رواية الفخرى :

أراك على الباقين تجنى ضغينة ... فياويحهم إن مت من شرما تجنى

(٣) ليت حرف تمن ، وقد استعملها هنا استعمال المصـــدر بمعنى التمنى فأدخل عليها أل ، وفى رواية الفخرى :

كأنى بهم يوما ، وأكثر قولهم : ... « ألا ليت أنا »حين« ياليت»لا يغنى

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

(سنة ١٢٥ — ١٢٦ هـ)

٤٨٩ — كتاب مروان بن محمد إلى الوليد

ووَلِي الوليدُ الخلافة ، وجاءته بَيْعَته من الآفاق ، وكتب إليه العمال وجاءته الوفود .

وكتب إليه مَرْوان بن محمد[(١)] — وكان على أَرْمِينِيَة وأَذْرَبِيجَان — :

« بَارَكَ اللهُ لأمير المؤمنين فيما أصارَه إليه ، من ولاية عباده ، ووِراثة بلاده ، وكان مِن تَغَشِّى[(٢)] غَمْرَةِ سَكْرَةِ الولايةِ ما حَمَل هشاما على ما حاول من تصغير ما عظَّمَ اللهُ من حقِّ أمير المؤمنين ، ورامَ من الأمر المستَصْعَب عليه[(٣)] ، الذى أجابه إليه المَدْخولون[(٤)] فى آرائهم وأديانهم ، فوجدوا ما طمِعَ فيه مستصعَبا ، وزاحمته

---

(١) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ويلقب الجعدى ، لأن الجعد بن درهم مولى بنى الحكم كان يعلمه فنسب إليه ، ويروى أن أم مروان كانت أمة وكان الجعد أخاها ، ويلقب أيضاً بالحمار قالوا لصبره فى الحرب ، وقد ولاه هشام بن عبد الملك أرمينية وأذربيجان ، ثم ولى الخلافة سنة ١٢٧ وهو آخر خلفاء بنى أمية .

(٢) غشيه الأمر غشيانا (بكسر غين المصدر) وتغشاه تغشيا ، والغمرة : الزحمة ، وغمرة كل شىء : منهمكه (أى الانهماك فيه) ويقال : هو فى غمرة من لهو وشبيبة وسكر ، وهو يضرب فى غمرة اللهو ، والمعنى أنه قد غمره اللهو وغطاه ، وأصل الغمرة : الماء الكثير .

(٣) قدمنا أن هشاما طمع فى خلع الوليد من الخلافة ، وعمل سرا فى البيعة لابنه مسلمة ، وقد أجابه قوم ، فكان ممن أجابه خالاه محمد وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل المخزومى وبنو القعقاع بن خليد العبسى وغيرهم من خاصته .

(٤) المدخول : من فى عقله دخل بالتحريك : أى فساد .

الأقدارُ بأشدّ مَنا كِبِها[١] ، وكان أمير المؤمنين بمكانٍ من الله حاطه[٢] فيه ، حتى أزّره بأكرمِ مَناطِقِ الخلافة ، فقام بما رآه الله له أهلا ، ونَهَضَ مستقِلاّ[٣] بِما حمل منها ، مُثْبتَةً ولايتهُ في سابق الزُّبُر[٤] بالأجَل المسمَّى ، خصَّه الله بها على خَلْقه ، وهو يرَى حالاتِهم ، فقلَّده طوْقَها ، ورَمَى إليه بأزِمَّة الخلافة وعِصَم[٥] الأمور .

فالحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين لخلافته ، ووثائق عرُى دينه ، وَذبَّ له عما كاده فيه الظالمون ، فرَفَعَه ووَضَعَهم ، فمن أقام على تلك الخسيسة من الأمور ، أَوْبَق[٦] نفسه ، وأسْخَط ربّه ، ومن عدَّلَته التوبةُ نازِعا[٧] عن الباطل إلى الحق وجدَ اللهَ توّابا رحيما .

أَخْبِرُ أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ أنِّى عند ما أُنتَهى إلىَّ من قيامه بولاية خلافة الله ، نهضتُ إلى مِنْبرى علىَّ سَيْفان ، مستعد بهما لأهل الغِشِّ ، حتى أعلمتُ مَن قِبَلى ما امتنَّ الله به عليهم من ولاية أمير المؤمنين فاسْتَبْشَروا لذلك ، وقالوا : لم تأتِنا ولايةُ خليفةٍ كانت آمالُنا فيها أعظَم ، ولا هى لنا أسَرُّ ، من ولاية أمير المؤمنين ، وقد بسطتُ يدى لبَيعتك فجدَّدْتُها ووكَّدتُها بوثائق العهود ، وتَرْدادِ المواثيق ، وبغليظ الأيمان ، فكلُّهم حسُنَتْ إجابتهم وطاعتهم ، فأَثِبْهم يا أمير المؤمنين بطاعتهم من مال الله الذى آتاك ، فإنك أجودهم جُودا ، وأبسَطُهم يداً ، وقد انتظروك راجين فضلَكَ قِبَلهم ، بالرُّحْم[٨] الذى استرحموك ، وزِدْهم زيادةً تفضُلُ بها مَنْ قَبْلك ، حتى يظهر بذلك فضلُك عليهم على رعيتك .

---

(١) معناه أنها لم تنله مأربه ، والمناكب : جمع منكب كمجلس .

(٢) حاطه . حفظه وصانه ، أزره : ألبسه الإزار ، والمناطق : جمع منطقة كمكنسة ، وهى مايشد به الوسط ، والمعنى : قواه بالخلافة .

(٣) استقل الشيء : حمله ورفعه كقله وأقله .

(٤) الزبر : جمع زبور كصبور وهو الكتاب . (٥) انظر هامش ص ٣٥٣ .

(٦) أى أهلك . (٧) نزع عنه كضرب : كف عنه وانتهى .

(٨) الرحم كقفل وعنق ، والرحمة والمرحمة : الرقة والتعطف .

ولولا ما أحاول من سَدِّ الثَّغْرِ[١] الذى أنا بِه ، لخفتُ أن يحملنى الشوق إلى أمير المؤمنين أنْ أَسْتَخْلِفَ رجلا ، على غير أمره ، وأقْدَمَ لمعاينة أمير المؤمنين ، فإنها لايَعْدِلها[٢] عندى عادِلُ نعمةٍ وإن عظُمَتْ ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأْذَنَ لى فى المسير إليه ، لأشافِهَه بأمورٍ كَرِهْتُ الكتابَ بها فَعَل » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٣)

٤٩٠ — كتاب الوليد إلى الأمصار بالبيعة لابنيه

وفى سنة ١٢٥ هـ عَقَد الوليد بن يزيد لابنيه: الحكَم وعثمان البيعةَ من بعده ، وجَعَلهما وليَّىْ عهده ، وجعل الحكم مقدما على عثمان ، وكتب بذلك إلى الأمصار ، وكانت نسخة الكتاب :

« أما بعدُ ، فإن الله تبارَكَتْ أسماؤه ، وجَلَّ ثناؤه ، وتعالَى ذِكْرُه ، اختار الإسلام دينا لنفسه ، وجعَلَهُ خير خِيرته مِنْ خَلْقِهِ ، ثم اصْطَفَى من الملائكة رُسُلا ، ومن الناس ، فبعثَهم به وأمرهم به ، وكان بينهم وبين مَنْ مَضَى من الأمم ، وخَلاَ[٣] من القرون قَرْنًا فقَرْنًا ، يدعُون إلى التى هى أحسنُ ، ويَهْدُون إلى صراط مستقيم ، حتى انتهت كرامةُ الله فى نُبُوَّته إلى محمد صلوات الله عليه ، على حين دُرُوسٍ[٤] من العلم ، وعَمًى من الناس ، وتشتيتٍ من الهوى ، وتفرُّقٍ من السُّبُل ، وطُموس من أعلام الحق ، فأبان اللهُ به الهُدَى ، وكشف به العَمَى ، واستَنقذَ به من الضَّلالة والرَّدَى ، وأنهجَ[٥] به الدينَ ، وجعَله رحمةً للعالمين ، وختَم به وَحْيَه ، وجمعَ له ما أكرمَ به الأنبياء قبله ، وقفَّى به على آثارهم ، مصدِّقا لما نزل معهم ، ومُهَيْمِنا[٦] عليه ، وداعيا

---

(١) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان .

(٢) أى لايوازنها .

(٣) خلا : مضى . (٤) درس الأثر : امحى .

(٥) أى أوضح ، وورد هذا الفعل لازما متعديا بمعنى وضح وأوضح ، وكذا نهج كمنع ، وفى الأصل « وأبهج » بالباء وهو تصحيف . (٦) هيمن عليه : صار رقيبا عليه وحافظا .

إليه ، وآمِرًا به ، حتى كان مَنْ أجابه من أمته ، ودخل فى الدين الذى أكرمهم الله به ، مصدقين لما سَلَفَ من أنبياء الله ، فيما يكذِّبهم فيه قومُهم ، منتصِحين لهم فيما يُنْهو نه[1] ذَابِّين لحُرَمِهم عما كانوا منتَهِكين ، معظِّمين منها لما كانوا مُصغِّرين ، فليس من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحدٌ كان يُسْمَع لِأحد من أنبياء الله فيما بعثه الله به مكذِّبا ، ولا عليه فى ذلك طاعنا ، ولا له مُؤذيا ، بتَسْفيهٍ له أو ردٍّ عليه ، إذ جَحَدَ[2] لما أنزل الله عليه معه ، فلم يبق كافر إلا استحلَّ بذلك دمَهُ ، وَقَطَعَ الأسبابَ التى كانت بينه وبينه ، وإن كانوا آباءهم أو أبناءهم أو عشيرتهم ، ثم استخلف خلفاءه على مِنهاج نبوَّته ، حين قَبَض نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، وخَتَم به وحيهُ ، لإنفاذ حُكمه ، وإقامة سنَّته وحدوده ، والأخذ بفرائضه وحقوقه ، تأييداً بهم للإسلام ، وتشييداً بهم لعُراه ، وتقويةً بهم لقُوى حبله ، ودَفْعا بهم عن حَرِيمه ، وعدلا بهم بين عباده ، وإصلاحا بهم لبلاده ، فإنه تبارك وتعالى يقول : « وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَلٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » . فتتابعَ خلفاء الله على ما أورثهم الله عليه من أمر أنبيائه ، واستخلفهم عليه منه ، لا يتعرَّض لحقهم أحد إلا صَرَعَه الله ، ولا يفارِقُ جماعتَهم أحدٌ إلا أهلكه اللهُ ، ولا يستخِفُّ بولايتهم ويتَّهم قضاء الله فيهم أحد إلا أمكنهمُ اللهُ منه ، وسلَّطهم عليه ، وجعله نَكالا وموعظة لغيره ، وكذلك صُنْع الله بمن فارق الطاعةَ ، التى أمَر بلزومها ، والأخذِ بها ، والأَثَرةِ لها[3] ، والتى قامت بها السمٰوات والأرض ، قال الله تبارك وتعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » . وقال عز ذكره : « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

---

(١) أنهى الشىء : أبلغه .
(٢) المعنى : إذ أنه لو فعل ذلك لجحد ما أنزل الله عليه .
(٣) أى الإيثار والتفضيل لها .

يُفسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُونَ » .

فبالخلافة أبقى اللهُ مَنْ أبقَى فى الأرض من عباده ، وإليها صَيَّره ، وبطاعة مَن ولاَّه إياها سَعِد من أَلهَمَها ونصرها ، فإن الله عز وجل عَلِمَ أنْ لا قِوامَ لشيء ولا صلاحَ له إلا بالطاعة التى يحفظ الله بها حَقَّه ، ويُمضِى بها أمره ، ويُنكِّل[1] بها عن معاصيه ، ويُوقِف عن محارمه ، ويذُبُّ عن حُرُماته ، فمن أخذ بحظِّه منها كان لله وليًّا ، ولأمره مطيعا ، ولرُشْده مصيبا ، ولعاجل الخير وآجله مخصوصا ، ومن تركها ورغِبَ عنها ، وحادَّ[2] الله فيها أضاع نصيبَه ، وعَصَى رَبَّه ، وخسِرَ دنياه وآخرته ، وكان مِمَّن غلبَتْ عليه الشِّقوة ، واستحوذت عليه الأمورُ الغاويةُ التى تُورِد أهلها أفظعَ المَشارِع[3] ، وتقودهم إلى شر المَصَارِع ، فيما يُحِلُّ اللهُ بهم فى الدنيا من الذلة والنِّقمة ، ويُصَيِّرُهم فيما عندهم[4] من العذاب والحسرة .

والطاعةُ رأسُ هذا الأمر ، وذُرْوتُه وسَنامه ، وذِمامُه ومِلاكه ، وعِصْمته وقِوامه ، بعد كلمة الإخلاص[5] التى ميَّز اللهُ بها بين العباد ، وبالطاعة نال المفلحون من الله منازِلَهم ، واستوجبوا عليه ثوابَهم ، وفى المعصية ما يَحِلُّ بغيرهم من نِقماته ، ويُصيبهم ويَحِقُّ عليهم من سُخْطه وعذابه[6] ، وَيَنْزِل بالطاعةِ والإضاعةِ لها والخروجِ منها والإدبارِ عنها والتبدُّل بها ، أهلَكَ اللهُ مَن ضَلَّ وَعَتا[7] ، وَعَمِى وغَلا ، وفارَقَ مناهِجَ البِرِّ والتقوى ، فالْزَموا طاعةَ الله فيما عَرا كم ونالكم وألَمَّ بكم من الأمور ، وناصِحوها ، واستوثِقُوا عليها ، وسَارِعوا إليها ، وخالِصوها ، وابتغُوا القُرْبة إلى الله

---

(١) أنكله عن حاجته : دفعه عنها . (٢) أى غاضبه وخالفه .

(٣) المشارع : جمع مشرعة بالفتح ، وهى مورد الشاربة .

(٤) هكذا فى الأصل ، والأظهر أن صوابه « فيما أعد لهم من العذاب والحسرة » أى فى الآخرة .

(٥) كلمة الإخلاص كلمة التوحيد .

(٦) فى الأصل : وفى المعصية مما يحل بغيرهم من نقماته ، وتصيبهم عليه ، ويحق من سخطه وعذابه الخ » وأرى أن هذه العبارة مضاربة وقد أصلحتها كما ترى . (٧) عتا : استكبر وجاوز الحد .

بها ، فإنكم قد رأيتم مواقعَ قضاء الله لأهلها فى إعلائه إياهم ، وإفلاجه[1] حُجَّتَهم ، ودَفْعِه باطِلَ من حادَّهم وناوأهم[2] وساماهم ، وأراد إطفاءَ نورِ الله الذى معهم ، وخُبِّرْتم مع ذلك ما يصير إليه أهلُ المعصية من التوبيخ لهم ، والتقصير بهم ، حتى يَئُولَ أمرُهم إلى تَبارٍ[3] وصَغار ، وذِلّة وبوار ، وفى ذلك - لِمن كان رأىٌ وموعِظَةٌ - عِبرةٌ ينتفع بواضِحِها ، ويتمسّك بِحُظُوتِها[4] ، ويعرف خِيرة قضاء الله لأهلها .

ثم إن الله - وله الحمدُ والمنُّ والفضلُ - هَدَى الأمةَ لِأفضل الأمور عاقِبةً لها ، فى حَقْنِ دمائها ، والتِئام أُلْفتِها ، واجتماعِ كلمتِها ، واعتدالِ عَمُودها ، وإصلاح دَهْمائها[5] وَذَخَر النعمةَ عليها فى دنياها ، بعد خلافته التى جعلها لهم نِظاما ، ولِأمرهم قِواما ، وهو العهدُ الذى أَلْهَمَ اللهُ خلفاءه توكيده ، والنظرَ للمسلمين فى جسيم أمرهم فيه ، ليكونَ لهم - عند ما يَحْدُث بخلفائهم - ثِقةً فى المَفْزَع ، ومُلْتَجأً فى الأمر ، ولَمًّا للشَّعَث[6] ، وصلاحا لذات البَيْن ، وتثبيتا لأرجاء الإسلام ، وقَطْعا لِنَزَغاتِ الشيطان ، فيما يتطلّع إليه أولياؤه ، ويُوَثِّبهم عليه مِنْ تَلَف هذا الدين ، وانصداعِ شَعْب[7] أهله ، واختلافهم فيما جَمَعهم الله عليه منه ، فلا يُريهم الله فى ذلك إلا ما ساءهم ، وأَكْذَبَ أمانيَّهم ، ويجدون الله قد أحكم - بما قضى لأوليائه من ذلك - عَقْدَ أمورهم ، ونَفَى عنهم من أراد فيها إدغالا[8] ، أو بها إغلالا ، أو لِمَا شدَّد اللهُ منها توهِينا[9] ، أو فيما تولّى الله منها اعتِمادا ، فأكمل الله بها لخلفائه وحزبه البرِّ ، الذين أودعَهُمْ طاعتَه ، أحسنَ الذى عوَّدهُمْ ، وسبَّب لهُم مِن إعزازه وإكرامه ، وإعلائه وتمكينه ، فَأَمْرُ هذا العهد

---

(١) أفلج الله حجته : نصرها وأظهرها .

(٢) ناوأه : عاداه ، وساماه : باراه فى السمو .

(٣) التبار والبوار : الهلاك . والصغار : الذل .

(٤) الحظوة بالضم والكسر : المكانة .

(٥) الدهماء : جماعة الناس ، وذخره : أعده لوقت الحاجة إليه .

(٦) الشعث . الانتشار والتفرق .

(٧) انصداع : انشقاق ، والشعب : الجمع .

(٨) الدغل بالتحريك : دخل فى الأمر مفسد ، وأدغل فى الأمر : أدخل ما يفسده ، والإغلال : الخيانة ،

(٩) التوهين الإضعاف .

من تمام الإسلام، وكمال ما استوجبَ اللهُ على أهله من المِنَن العِظام، ومما جعل اللهُ فيه - لِمَن أجْرَاه على يديه ، وقضى به على لسانه ، ووفَّقه لمن وَلَّاه هذا الأمر - عنده أفضلَ الذُّخر ، وعند المسلمين أحسنَ الأثَر ، فيما يُؤْثِر بهم من منفعته ، ويتسع لهم من أَمْنه ، ويستندون إليه من عِزِّه ، ويدخلون فيه من وَزَره[1] ، الذى يجعل الله لهم به مَنْعَة ، وَيُحْرِزهُم به من كل مَهْلكة ، وَيَجْمَعُهم به من كل فُرقة ، وَيقْمَع به أهلَ النفاق ، وَيعْصِمُهم به من كل اختلاف وشقاق .

فاحَمدوا اللهَ ربَّكم الرءوف بكم ، الصانِعَ لكم فى أموركم ، على الذى دلّكم عليه من هذا العهد ، الذى جعله لكم سَكَناً[2] ومُعَوَّلا ، تطمئنُّون إليه وتستظلُّون فى أفنانه[3] ويَسْتنهِج[4] لكم به مَثْنَى أعناقكم ، وسَمْت وجوهكم ، ومُلْتقَى نواصِيكم فى أمر دينكم ودنياكم ، فإن لذلك خَطَرًا[5] عظيما من النعمة ، وإن فيه من الله بَلاءً حسنا فى سَعَة العافية ، يعرِفُه ذوو الألباب والنِّيَّات ، المُرَيِّئون[6] من أعمالهم فى العواقب، والعارفون مَنَار مَناهِج الرُّشد ، فأنتم حقيقُون بشكر الله فيما حَفِظ به دينَكم وَأَمْرَ جماعتِكم من ذلك ، جَديرون بمعرفة كُنْه واجب حَقِّه فيه وحَمْدِه على الذى عَزَم لكم منه ، فلتكن منزلةُ ذلك منكم ، وفضيلتُه فى أنفسكم ، على قدر حُسْن بَلاء الله عندكم فيه ، إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

ثم إن أميرالمؤمنين لم يكن منذُ استخلَفه اللهُ، بشىء من الأمور أَشَدَّ اهتماماًوعناية، منه بهذا العَهد ، لِعِلْمه بمنزلته من أمر المسلمين ، وما أراهم الله فيه من الأمور التى

---

(١) الوزر : الملجأ .

(٢) السكن : مايسكن إليه .

(٣) الأفنان : جمع فنن بالتحريك ، وهو الغصن .

(٤) استنهج الطريق : صار نهجا أى طريقا واضحا ، ومعنى مثنى أعناقكم أى الجهة التى تثنون إليها أعناقكم، إن ذهبتم يمنة أو يسرة ، والسمت : الطريق. والنواصى : جمع ناصية،وهى شعر مقدم الرأس، والمعنى : اجتماعكم للنظر فى أموركم .

(٥) الخطر : القدر . والبلاء : النعمة .

(٦) رتأ فىالأمر تريئة ، وروأ فيه تروئة وترويئا : نظر فيه وتعقبه ولم يعجل بجواب .

يغبطون بها ، ويُكرمهم فيما يَقضى لهم ، ويختار له ولهم فيه جُهْده ويَستقضى له ولهم فيه إلهَه ووليَّه الذى بيده الحكم ، وعنده الغيبُ ، وهو على كل شىء قدير ، ويسأله أن يُعينه من ذلك على الذى هو أرشدُ له خاصّةً ، وللمسلمين عامّة ، فرأى أمير المؤمنين أن يَعْهَد لكم عَهْداً بعد عهد ، تكونون فيه على مِثل الذى كان عليه مَنْ كان قبلكم ، فى مُهْلَةٍ من انفساح الأمل ، وطُمأنينة النفس ، وصَلاح ذاتِ البَيْن ، وعَلِم موضِعَ الأمرِ الذى جعله الله لأهله عِصْمة ونجاة ، وصلاحا وحياة ، ولكل منافق وفاسق يحبّ تَلَفَ هذا الدين وفسادَ أهله ، وَقْما[1] وخَسارًا وقَدْعًا ، فوَلّى أميرُ المؤمنين ذلك الحكَمَ ابنَ أمير المؤمنين وعثمان ابنَ أمير المؤمنين من بعده ، وهما ممن يرجو أمير المؤمنين أن يكون الله خَلَقه لذلك ، وصاغه له ، وأكمَلَ فيه أحسنَ مناقِبِ مَن كان يوليِّه إياه ، فى وَفاءِ الرأى ، وصِحّة الدين، وجَزالة المُروءة ، والمعرفة بصالح الأمور ، ولم يَأْلُكم[2] أميرُ المؤمنين ولا نفسَه فى ذلك اجتهاداً وخيراً .

فبايِعوا للحَكَم ابن أمير المؤمنين باسم الله وبَرَكته ، ولأخيه من بعده على السمع والطاعة ، واحتسِبوا فى ذلك أحسن ما كان الله يريكم ويُبْليكم[3] ويعوِّدكم ويعرفكم فى أشباهه فيما مضى من اليُسْر الواسع ، والخير العام ، والفضل العظيم ، الذى أصبحتم فى رجائه وخَفْضه ، وأمنِه ونعمته وسلامته وعِصْمته ، فهو الأمر الذى استبطأتموه واستسرعتم[4] إليه ، وحَمِدتم الله على إمضائه إياه وقضائه لكم ، وأحدثتم فيه شكراً ، ورأيتموه لكم حَظّاً تستبقونه ، وتُجْهدون أنفسَكم فى أداء حق الله عليكم ، فإنه قد سبق لكم فى ذلك من نِعَم الله وكرامته وحُسْن قَسْمه ما أنتم حقيقون أن تكونَ رغبتكم فيه وحَدَبُكم[5] عليه ، على قدر الذى أبلاكم الله وصَنَع لكم منه .

---

(١) وقمه كوعده وقما : قهره وأذله ، وقدعه كمنعه : كفه .

(٢) ألا كمدا : قصر ، يقال : فلان لا يألوك نصحا ، أى لا يقصر فى نصحك .

(٣) الإبلاء : الإنعام والإحسان .

(٤) أى وأسرعتم إليه ، ولم تورد كتب اللغة هذه الصيغة .

(٥) أى وعطفكم .

وأمير المؤمنين مع ذلك ، إن حَدَث بواحد من وليّيْ عهده حَدَث ، أولَى بأن يجعلَ مكانه ، وبالمنزل الذى كان به ، مَنْ أحبَّ أن يجعل من أمته أو ولده ، ويقدِّمه بين يدَى الباقى منهما إن شاء ، أو أن يؤخِّره بعده ، فاعلموا ذلك وافهموه ، نسأل الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم أن يبارك لأمير المؤمنين ولكم ، فى الذى قَضَى به على لسانه من ذلك وَقَدَّر منه ، وأن يجعل عاقبته عافيةً وسرورًا وغِبْطة ، فإن ذلك بيده ولا يملكه إلا هو ، ولا يُرْغَبُ فيه إلا إليه ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

وكتب سَمَّال يوم الثلاثاء لثمان بقين من رجب سنة خمس وعشرين ومائة .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٤)

٤٩١ — كتاب يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار

وكان ممن كتب إليه بذلك يوسف بن عمر ، وهو عامل الوليد يومئذ على العراق ، وكتب بذلك يوسف إلى نصر بن سيار عامل خراسان ، وكانت نسخة الكتاب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف بن عمر إلى نصر بن سَيَّار :

أما بعد ، فإنى بعثتُ إليك نسخةَ كتاب أمير المؤمنين ، الذى كتب به إلى مَنْ قِبَلى ، الذى ولَّى الحَكَمَ ابن أمير المؤمنين ، وعثمان ابن أمير المؤمنين من العهد بعده ، مع عَقَّال ابن شَبَّة التميمى وعبد الملك القَيْنى ، وأمرتُهما بالكلام فى ذلك ، وإذا قَدِما عليك فاجمع لقراءة كتاب أمير المؤمنين الناسَ ، وَمُرْهم فليَحْشِدوا[1] له ، وقم فيهم بالذى كتبَ أميرُ المؤمنين ، فإذا فرغتَ فَقُمْ بقراءة الكتاب ، وَأْذَنْ لمن أراد أن يقوم بخطبة ، ثم بايِع الناسَ لهما على اسم الله وبَرَكته ، وخذ عليهم بالمواثيق ، على الذى نسختُ لك فى آخر كتابى هذا ، الذى نسخَ لنا أمير المؤمنين فى كتابه ؛ فافهمه وبايع عليه ، نسأل

---

(١) حشد القوم : اجتمعوا لأمر واحد كأحشدوا واحتشدوا وتحاشدوا .

اللهَ أن يبارك لأمير المؤمنين ورعيته فى الذى قَضَىَ لهم على لسان أمير المؤمنين ، وأن يُصْلِحَ الحكَمَ وعثمان ، ويبارك لنا فيهما ، والسلام عليك » .

وكتب النضر يوم الخميس للنصف من شعبان سنة خمس وعشرين ومائة .

ويلى ذلك صيغة البيعة وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : تبايع لعبد الله الوليد أمير المؤمنين ، والحكَم ابن أمير المؤمنين إن كان من بعده ، وعثمانَ ابنِ أمير المؤمنين إن كان بعد الحَكَمِ ، على السمع والطاعة ، وَإنْ حَدَثَ بواحد منهما حَدَثٌ ، فأمير المؤمنين أَمْلَكُ فى ولده ورعيته ، يقدِّمُ من أحبّ ، ويُؤَخِّرُ من أحبّ ، عليك بذلك عهد الله وميثاقه » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٤)

٤٩٢ — كتاب الوليد إلى يوسف بن عمر

وفى سنة ١٢٥ ﻫ خرج يحيى بن زيد بن علىّ بالجُوزَجان[١] يطلب الخلافة فقُتل ، وبلغ خبره الوليد بن يزيد ، فكتب إلى يوسف بن عمر :

« إذا أتاك كتابى هذا ، فانظر عِجْلَ العراق فَأَحْرِقه ، ثم انْسِفْهُ فى اليمِّ نَسْفا » .

فأمر يوسف خَرَاشَ بن حَوْشَب[٢] فأنزله من جِذعه وأحرقه بالنار ، ثم رضَّه فجعله فى قَوْصَرّة[٣] ، ثم جعله فى سفينة ، ثم ذرَّاه فى الفُرات . (تاريخ الطبرى ٨ : ٣٠١)

---

(١) الجوز جان : اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان .

(٢) هو خراش بن حوشب بن يزيد الشيبانى ، كان على شرط يوسف بن عمر ، وهو الذى نبش قبر زيد بن على وصلبه ، وفيه يقول الشاعر :

ياخراش بن حوشب أنت أشقى الورى غدا

انظر تاريخ الطبرى ٨ : ٢٧٨ —

(٣) القوصرة بتخفيف الراء وتشديدها : وعاء للتمر من قصب .

٤٩٣ ـ كتاب الوليد إلى يوسف بن عمر

وكتب الوليد إلى يوسف بن عمر :

« إنك قد كنتَ كتبتَ إلى أمير المؤمنين تَذْكُرُ تخريبَ ابن النّصرانية[١] البلادَ ، وقد كنتَ ـ على ما ذكرتَ من ذلك ـ تحمِلُ إلى هشام ما تحمل ، وقد ينبغى أن تكون قد عمَرْتَ البلادَ ، حتى رَدَدْتَها إلى ما كانت عليه ، فاشْخَصْ إلى أمير المؤمنين ، فصدِّقْ ظنَّه بك فيما تحمِلُ إليه لعِمارتك البلادَ ، ولِيَعْرِفَ أميرُ المؤمنين فضلَك على غيرك ، لِمَا جعل الله بينك وبين أمير المؤمنين من القَرابة ، فإنك خالُه[٢] وأحقُّ الناس بالتوفير عليه ، ولِمَا قد علمتَ مما أمر به أميرُ المؤمنين لأهل الشأم وغيرهم من الزيادة فى أَعْطِياتهم[٣] ، وما وصَلَ به أهلَ بيته ، لِطُول جَفْوة هشام إياهم ، حتى أَضَرَّ ذلك ببيوت الأموال » .

فخرج يوسف واستخلف ابن عمه يُوسف بن محمد ، وحمل من الأموال والأمتعة والآنية ما لم يُحْمَلْ من العراق مثلُه[٤] .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٤ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٦٤)

---

(١) يعنى خالد بن عبد الله القسرى .

(٢) وذلك أن أم الوليد هى أم الحجاج بنت محمد بن يوسف ، فهى بنت أخى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وقد تقدم لك أن يوسف بن عمر ابن ابن عم الحجاج .

(٣) وذلك أن الوليد لما ولى الخلافة زاد الناس جميعا فى العطاء عشرة عشرة ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشأم خاصة ، وزاد من وفد إليه من أهل بيته فى جوائزهم الضعف انظر تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٣ ـ .

(٤) وكان الوليد أراد خالد بن عبد الله على البيعة لابنيه فأبى ، فقال له قوم من أهله : أرادك أمير المؤمنين على البيعة لابنيه فأبيت ! فقال : ويحكم كيف أبايع من لا أصلى خلفه ولا أقبل شهادته ؟ قالوا فالوليد تقبل شهادته مع مجونه وفسقه ، قال : أمر الوليد أمر غائب عنى ولا أعلمه يقينا ، إنما هى أخبار الناس ، فغضب الوليد على خالد ، وأراد الوليد الحج فخاف خالد أن يفتكوا به فى الطريق ، فأتاه فقال : يا أمير المؤمنين ، أخر الحج العام . فقال : ولم ؟ فلم يخبره فأمر بحبسه وأن يستأدى ما عليه من أموال العراق ، فلما قدم يوسف بن عمر على الوليد قرر يوسف مع أبان بن عبد الرحمن النميرى أن يشترى خالدا بأربعين ألف ألف درهم ، فقال الوليد ليوسف : ارجع إلى عملك ، فقال أبان له : ادفع إلى خالدا وأدفع إليك أربعين =

٤٩٤ ـ كتاب الوليد إلى يوسف بن عمر

وروى صاحب الأغانى قال :

كتب الوليد بن يزيد إلى يُوسف بن عمر :

« أما بعدُ ، فإذا قرَأْتَ كتابى هذا ، فَسَرِّحْ إلىّ حَمّاداً الراويةَ على ما أحَبَّ من دوابِّ البريد ، وأعطِه عشرة آلاف درهم يتهيَّأ بها » .

ففعل يُوسف ما أُمِر به ، وخرج حَمّاد إلى الوليد ، فاستأذن عليه فأذن له ثم قال : أنشدنى :

أَمِنَ المَنُون وريبها تتوَجَّعُ ؟ والدهر ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعِ [١]

فأنشده إياها حتى أتى على آخرها . (الأغانى ٢ : ٦٣)

٤٩٥ ـ كتاب نصر بن سيار إلى الوليد

وروى أيضا قال :

لَمّا ظَهَرَتِ المسَوِّدَةُ [٢] بخُراسان ، كتب نصر بن سَيّار إلى الوليد يستمده ، فتشاغَل عنه ، فكتب إليه كتابا ، وكتب فى أسفله يقول :

ألف ألف درهم ، قال الوليد : ومن يضمن عنك ؟ قال : يوسف ، قال : أتضمن عنه ؟ قال يوسف: بل ادفعه إلى فأنا أستأديه خمسين ألف ألف درهم ، فدفعه إليه ، فحمله فى محمل بغير وطاء ، وقدم به العراق فقتله كما تقدم .

(١) البيت مطلع قصيدة لأبى ذؤيب الهذلى يرثى بها أولاده ، وقد هلكوا بالطاعون فى عام واحد وكانوا عشرة ، وهو شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم ومات سنة ٢٦ هـ ، والمنون : المنية ، مؤنث وكأنها اسم فاعل من المن وهو القطع ، لأنها تقطع الأعمار ، المنون : الدهر ، والريب : صرف الدهر وأعتبه : أرضاه .

(٢) المسودة : هم أصحاب الدولة العباسية وكانوا يلبسون الثياب السود، وكان مما أنكره العباسيون ببغداد على المأمون فى خلافته أنه وهو فى خراسان أمرالناس بخلع لباس السواد ولبس الخضرة ، هذا إلى أنه عهد بالخلافة لعلى بن موسى الرضا ، فنقموا منه تغيير لباس آبائه وأجداده ونقله الخلافة من البيت العباسى إلى البيت العلوى ، وخلعوه وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدى ، فلما سار المأمون إلى بغداد وهرب إبراهيم، دخل البلد فتلقاه العباسيون وكلموه فى ترك لباس الخضرة والعود إلى السواد. وخاطبته =

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جمرٍ وَأَحْرِ بأن يكون له ضِرَامُ[١]
فإن النَّارَ بالعُودَين تُذْكَى وَإنَّ الحربَ مَبْدَؤُها الكلام[٢]
فقلتُ من التعجُّب : ليت شِعْرى أأَيقَاظٌ أُمَيَّــــةُ أم نيام ؟[٣]

٤٩٦ — رد الوليد على نصر

فكتب إليه الوليد :

« قد أقطعتُك خراسانَ ، فاعمَلْ لنفسِك أَوْدَعْ ، فإنى مشغول عنك بابن سُرَيْجٍ ومَعْبَد والغَرِيض[٤] » . (الأغانى ٦ : ١٢٤)

٤٩٧ — كتاب مروان بن محمد إلى سعيد ابن عبد الملك بن مروان

وبلغ مروانَ بن محمد بأَرمِينِيَة أن يزيد بن الوليد بن عبد الملك يُؤَلِّب[٥] الناس ، ويدعو إلى خلع الوليد[٦] ، فكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان يأمره أن ينهى

فى ذلك زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن عباس — وكان بنو العباس يعظمونها — فأجابها المأمون وأمر الناس بالعود إلى لباس السواد » ويقابل المسودة : المبيضة بكسر الياء وهم فرقة من الثنوية ، سموا بذلك لتبييضهم ثيابهم ، وهم أصحاب المقنع » الذى ظهر فى خلافة المهدى ، وادعى الألوهية ، وكان يقول بالتناسخ ، وأن الله خلق آدم فتحول فى صورته ، ثم فى صورة نوح ، وهكذا إلى أبى مسلم الخراسانى ، وسمى نفسه هاشماً ، وبايعه خلق من ضلال الناس ، وكانوا يسجدون إلى ناحيته أين كانوا من البلاد ، ويقولون فى الحرب : ياهاشم أعنا — انظر الفخرى (ص ١٦٢ و ١٩٨) ولسان العرب فى مادة « بيض » (٨ : ٢٩٧) .

(١) الخلل : الفرجة بين الشيئين ، والجمع خلال كجبل وجبال ، وومض البرق كوعد : لمع لمعاخفيا ، والضرام : اشتعال النار . (٢) أذكى النار : أوقدها .

(٣) وسيرد عليك بعد أن هذا الكتاب كتبه ابن سيار إلى مروان بن محمد .

(٤) كان ثلاثتهم من حذاق المغنين فى العصر الأموى .

(٥) أى يحرض .

(٦) وذلك أن الوليد قد ظهر منه قبل خلافته خلاعة ومجانة وتهاون بالدين واستخفاف به كما قدمنا لك ؛ فلما أفضت إليه الخلافة لم يزدد من الذى كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق إلا تماديا وجدا ، فثقل ذلك على رعيته وجنده فكرهوا أمره ، وكان من أعظم ماجنى على نفسه =

الناس ويكفهم ـ وكان سعيد يتألّه[1] ـ :

« إن الله جَعَل لكل أهل بيتٍ أركانا يعتمدون عليها ، ويتّقون بها المَخاوفَ ، وأنت بحمد ربك رُكْنٌ من أركان أهل بيتك ، وقد بَلَغَنى أن قوماً من سفهاء أهل بيتك قدا استقنّوا أمراً ، إن تَمّت لهم رَوِيّتُهم فيه على ما أجمعوا عليه من نقضِ بَيْعتهم ، استفتحوا بابا لن يُغْلِقَه الله عنهم ، حتى تُسْفَك دماءٌ كثيرة منهم ، وأنا مشتغِلٌ بأعظم ثغور المسلمين فَرْجا[2] ، ولو جَمَعَتْنى[3] وإياهم لرَمَمْتُ فسادَ أمرهم بيدى ولسانى ، ولَخِفْتُ اللهَ فى تركِ ذلك ، لِعِلْمى ما فى عواقبِ الفُرقة من فسادِ الدين والدنيا ، وأنه لن ينتقل سلطانُ قومٍ قطُّ إلا فى تشتيتِ كلمتهم، وأن كلمتهم إذا تشوّشَت[4] طمِعَ فيهم عدوُّهم ، وأنت أقربُ إليهم منى ، فاحْتَلْ لِعِلْمِ ذلك بإظهار المتابعة لهم ، فإذا صِرتَ إلى علم ذلك ، فتهدَّدْهم بإظهار أسرارهم ، وخُذهم بلسانك ،

ـ حتى أورثه ذلك هلاكه ـ إفساده على نفسه بنى عميه : ولد هشام بن عبد الملك وولدالوليد بن عبد الملك، من ذلك أنه اشتد على بنى هشام ، فضرب سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته ، وغربه إلى عمان فحبسه بها ، فلم يزل بها محبوساً حتى قتل الوليد، وأخذ جارية كانت لآل الوليد فكلمه عمر بن الوليد فيها ، فقال : لا أردها ، فقال : إذن تكثر الصواهل حول عسكرك ، ورماه بنوهشام وبنو الوليد بالكفر والزندقة وغشيان أمهات أولاد أبيه ، وكان أشدهم فيه قولا يزيد بن الوليد بن عبدالملك ، وكان الناس إلى قوله أميل ، لأنه كان يظهر النسك ويتواضع، ويقول ما يسعنا الرضا بالوليد ، حتى حمل الناس على الفتك به، هذا إلى إفساده على نفسه اليمانية وهم عظم جند أهل الشأم ،واضطغانهم عليه لما صنع بخالد بن عبدالله القسرى، فأتت اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على البيعة ، وأتى يزيد أخاه العباس فأخبره وشاوره وعاب الوليد، فقال له العباس : مهلا يايزيد ، نإن فى نقض عهدالله فساد الدين والدنيا ، ودب يزيدفى الناس فبايعوه سرا، وعاود أخاه العباس فشاوره فى ذلك ، فزجره العباس وقال : إن عدت لمثل هذا لأشدنك وثاقا وأحملنك إلى أمير المؤمنين ، وجعل يزيد يعد العدة حتى وثب على الوليد فقتله .

(١) التأله : التنسك والتعبد . (٢) الفرج : الثغر وموضع المخافة .

(٣) فاعل جمعتنى مفهوم من المقام ، أى فرصة أو بلدة مثلا .

(٤) قال الجوهرى فى الصحاح : التشويش : التخليط ، وقد تشوش عليه الأمر »وفى لسان العرب: « وأما التشويش فقال أبو منصور : إنه لا أصل له فى العربيّة ، وإنه من كلام المولدين ، وأصله التهويش وهو التخليط » وفى القاموس : والتشويش والمشوش والتشوش كلها لحن ، ووهم الجوهرى ، والصواب التهويش والمهوش والتهوش » . وأقول : ربما كانت هذه الكلمة فى الأصل » تشتتت » لقوله قبل: « إلا فى تشتيت كلمتهم » ثم حرفت فى النسخ أو الطبع .

وخوِّفهم العواقبَ لعلّ اللهَ أن يردَّ إليهم ما قد عَزَب عنهم من دينهم وعقولهم، فإن فيما سَعَوْا فيه تغييرَ النِّعم، وذهابَ الدولة.

فعاجلِ الأمرَ، وَحَبْلُ الأُلْفة مشدود، والناسُ سُكون[1]، والثُّغور محفوظة، فإن للجماعة دَوْلةً من الفُرقة، وللسَّعة دافعا من الفقر، وللعدد مُنْتَقِصا، ودولُ الليالى مختلفةٌ على أهل الدنيا، والتقلبُ مع الزيادة والنقصان، وقد امتدت بنا أهلَ البيت متتابعاتٌ من النعم، قد يُعْنَى بها جميعُ الأمم، وأعداء النعم، وأهلُ الحسد لأهلها، وبحَسَدِ إبليسَ خرجَ آدمُ من الجنة.

وقد أَمَل القوم فى الفتنة أَمَلاً لعلّ أنفسهم تهلِكُ دون ما أملوا، ولكل أهل بيت مَشَائِيمُ يغيِّرُ اللهُ النِّعْمة بهم، فأعاذك الله من ذلك، واجعلنى من أمرهم على علم، حَفِظ الله لك دينك، وأخرجك مما أدخلك فيه، وغلَّب لك نفسك على رشدك[2] ».

فأعظَمَ سعيدٌ ذلك، وبعث بكتابه إلى العباس، فدعا العباس يزيدَ فعَذله وتهدَّده، فحذِره يزيدُ وقال: يا أخى أخاف أن يكون بعضُ من حَسَدنا هذه النعمةَ مِنْ عدونا أراد أن يُغرِيَ بيننا، وحَلَف له أنه لم يفعل، فصدقه.

(تاريخ الطبرى ٩ : ٧)

(١) سكون: جمع ساكن، كحضور وجلوس وقعود جمع حاضر وجالس وقاعد.

(٢) معناه: وجعل نفسك غالبة ومالكة لرشدك، أي ملكك رشدك وجعله مواتيا لك وطوع أمرك، وربما كان الأصل « وغلب لك رشدك على نفسك » أي على هواك، وعكسه الناسخ أو الطابع.

خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(سـنة ١٢٦ هـ)

٤٩٨ — كتابه إلى مروان بن محمد

وكتب يزيد بن الوليد بن عبد الملك المعروف بالناقص[1] إلى مَرْوَانَ بن محمد بالجزيرة ، وقد بلغه عنه تلَكُّؤٌ في بيعته :

« أما بعدُ : فإني أراكَ تُقَدِّمُ في البيعة رجلًا وتؤَخِّر أخرى ، فإذا أتاكَ كتابي هذا فاعتمِدْ على أيِّهما شئتَ ، والسلام » .

فأتته بيعته .

(صبح الأعشى ٦ : ٣٩١ ، والعقد الفريد ١ : ١٧ ، ٢ : ٢٩٢ ، والمنظوم والمنثور ١٣ : ٣٣٠)

٤٩٩ — كتاب منصور بن جمهور إلى سليمان بن سليم

وعَزَلَ يزيدُ بن الوليد يوسفَ بن عمر عن العراق ، وولَّاها منصورَ بن جُمْهور ، فسار إلى العراق ، حتى إذا كان بالْجَمْع كتب إلى سليمان بن سليم بن كَيْسان كتاباً وهو :

« أما بعدُ ، فإنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَابِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ

---

(١) اختلف في علة تلقيبه بذلك ، فقيل إنما قيل له الناقص لفرط كماله (العقد الفريد ١ : ١٧) فهو على هذا من باب التسمية بالأضداد ، وقيل : إنما قيل يزيد الناقص ، لنقصه الناس الزيادة التي زادهموها الوليد بن يزيد في أعطياتهم — انظر هامش ص ٢٩٢ . فلمـا ولي يزيد نقص الناس تلك الزيادة ، ورد أعطياتهم إلى ما كانت عليه أيام هشام بن عبد الملك ، وقيل إن أول من سماه بهذا الاسم مروان بن محمد (تاريخ الطبري ج ٩ : ص ٢٢ ، ٤٦) وقيل : لأنه نقص من أعطيات أهل الحجاز ما كان قد زادهم الوليد (الفخري ص ١٢٠) وقيل لأنه نقص بعض الجند من أرزاقهم (مروج الذهب ٢ : ١٩٠) والناقص على هذه الأقوال من نقص المتعدي ، وقيل: لنقصان كان في أصابع رجليه (حياة الحيوان للدميري ١ : ١٠٦) وهو على هذا من نقص اللازم .

بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ، وإن الوليد بن يزيد بَدَّل نعمة الله كفراً ، فسفك الدماء : فسَفَك اللهُ دَمه ، وعَجَّله إلى النار ، وولَّى خِلافتَه مَنْ هو خير منه ، وأحسنُ هَدْيا : يزيدَ بن الوليد ، وقد بايعه الناس ، وولَّى على العراق الحارث بن العباس بن الوليد ، ووجَّهنى العباس لآخذ يوسف وعُمَّاله ، وقد نزل الأبيض ورائى على مَرْحَلَتين ، فخذ يُوسف وعماله ، لا يَفُوتَنَّك منهم أحد ، فاحبسهم قِبلك ، وإياك أن تُخالِفَ فيحِلَّ بك وبأهل بيتك مالا قِبَل لك به ، فاختر لنفسك أَوْدَعْ » .

وقيل إنه لَمّا كان بعَين التَّمْر كتب إلى من بالحيرة من قواد أهل الشأم يخبرهم بقتل الوليد ويأمرهم بأخذ يوسف وعماله ، وبعث بالكتب كلها إلى سليمان بن سليم ابن كيسان ، وأمره أن يفرِّقها على القوّاد ، فأمسكها سُليمان ودَخل على يُوسف ، فأقرأه كتاب منصور إليه ، وسَهَّلَ له طريق الْهرَب فهَرب إلى الْبَلْقَاء ، ثم قبض عليه وقتل[1] سنة ١٢٧ هـ تاريخ الطبرى ٩ : ٢٨)

٥٠٠ — كتاب يزيد إلى أهل العراق

ولما وجَّه يزيدُ بن الوليد منصور بن جُمْهور إلى العراق كتب إلى أهل العراق كتاباً فيه مَساوِى الوليد ، فكان مما كتب به :

(١) لما هرب يوسف بن عمر سلك طريق السماوة حتى أتى البلقاء (وهى كورة بين الشام ووادى القرى)فاستخفى بها وكان أهله مقيمين فيها ، ونمى خبره إلى يزيد بن الوليد، فوجه فى طلبه محمد بن سعيد الكلبى فى جماعة من الفرسان ، فأحاطوا بداره بالبلقاء، ومازالوا يفتشون عنه فلا يجدونه، وكان يوسف قد لبس لبسة النساء، وجلس مع نسائه وبناته ، ففتشوهن فظفر به مع النساء، فجاء به فى وثاق ،فحبسه يزيد مع الغلامين : الحكم وعثمان ابنى الوليد بن يزيد — وكان يزيد قد حبسهما عند قتله أباهما —فأقام يوسف فى السجن حتى مات يزيد (فى ذى الحجة سنة ١٢٦ هـ) وولى الخلافة أخوه إبراهيم بن الوليد (وكانت ولايته أربعة أشهر ، وقيل سبعين يوما) ولبث يوسف فى السجن مدة ولاية إبراهيم،فلما ظهر أمرمروان ابن محمدوالتقى عسكره وعسكر إبراهيم ، هرب عسكر إبراهيم ، وقدم مروان الشأم وقرب من دمشق ، فخافت جماعة إبراهيم أن يدخل مروان دمشق فيخرج الحكم وعثمان ابنا الوليد من السجن، ويجعل لهما الأمر، فلا يستبقيا أحدا ممن أعان على قتل أبيهما ، فأجمع رأيهم على قتلهما ، وتولى ذلك يزيد بن خالد بن عبدالله القسرى فبعث أبا الأسدمولى أبيه فى عدة من أصحابه،فدخلوا السجن، وشدخوا الغلامين بالعمد ،وأخرجوا يوسف بن عمر فضربوا عنقه — انتقاما منه لخالد القسرى والد يزيد — ولما قتل أخذوا رأسه عن جسده ، وشدوا فى رجليه حبلا ، فجعل الصبيان يجرونه فى شوارع دمشق .

« إن الله اختار الإسلامَ ديناً ، وارتضاه وطَهَّره ، وافترض فيه حقوقاً أَمَرَ بها ، ونَهَى عن أمورٍ حَرَّمها ، ابتلاءً[1] لعباده فى طاعتهم ومعصيتهم ، فأكملَ فيه كلَّ مَنْقَبَةِ[2] خير ، وجسيم فَضْل ، ثم تولاَّه فكان له حافظاً ، ولأهله المقيمين حُدُودَه وَلِيًّا ، يَحُوطهم ويعرِّفهم بفضل الإسلام ، فلم يكرم الله بالخلافة أحداً يأخذ بأمر الله وينتهى إليه ، فيُناويه أحدٌ بميثاق ، أو يحاول[3] صَرْف ماحَباه اللهُ به ، أو ينكث ناكثٌ إلا كان كيدُه الأوهنَ ، ومكرُه الأبورَ ، حتى يُتمّ اللهُ ما أعطاه ، ويدَّخر له أجْرَهُ ومَثُوبته ، ويجعل عدوَّه الأضلَّ سبيلا ، الأخْسَرَ عملاً ، فتناسختْ[4] خلفاء اللهِ وُلاةُ دينه ، قاضِينَ فيه بحُكمه ، متبعين فيه لكِتابه ، فكانت لهم بذلك من ولايته ونُصْرته ما تمّت به النعم عليهم ، قد رضى الله بهم لها حتى تُوفِّى هشام .

ثم أَفْضَى الأمرُ إلى عدوِّ الله الوليد ، المنتهكِ للمَحارِم التى لا يأتى مِثْلَهَا مُسْلِم ، ولا يُقدِم عليها كافر ، تكرُّمًا عن غِشْيَان مِثلها ، فلما استفاض ذلك منه واستَعْلَن ، واشتدَّ فيه البلاء ، وسُفِك فيه الدماء ، وأُخِذت الأموال بغير حقها مع أمورٍ فاحشة لم يكن اللهُ لِيُخَلّيَ العاملين بها إلا قليلا ، سِرْتُ إليه مع انتظار مراجَعته ، وإعذار إلى الله وإلى المسلمين ، مُنْكِراً لعمله وما اجترأ عليه من معاصى الله ، متوَخِّيا من الله إتمامَ الذى نَوَيْتُ ، من اعتدال عَمُود الدين والأخذ فى أهله بما هو رِضاً ، حتى أتيتُ جُندا وقد وَغِرَتْ[5] صدورُهم على عدو الله ، لِمَا رَأَوا من عمله ، فإن عدوَّ الله لم يكن يَرَى من شرائع الإسلام شيئًا إلا أراد تبديلَه ، والعَمَلَ فيه بغير ما أنزل اللهُ ، وكان ذلك منه شائعا شامِلا ، عُرْيانَ لم يجعل الله فيه سِتراً ، ولا لأحد فيه شكاًّ ، فذكرتُ لهم الذى نَقِمْتُ وخِفت ، من فسادِ الدين والدنيا ، وحَضَضْتُهم على تلافى دينهم

---

(١) أى اختبارا . (٢) المنقبة المفخرة . (٣) فى الأصل « أو بحاول » وهو تحريف، وحباه : أعطاه ومنحه . (٤) أى تعاقبوا وتداولوا ، تناسخت الأشياء : تداولت فكان بعضها مكان بعض .

(٥) وغر صدره : امتلأ غيظا .

والمحاماةِ عنه ، وهم فى ذلك مستريبون ، قد خافوا أن يكونوا قد أبقَوْا أنفسهم بما قاموا عليه إلى أن دعوتُهم إلى تغييره فأسرعوا الإجابة .

فابتعث الله منهم بعثًا يخبرهم من أُولِي الدين والرضا ، وبعثتُ عليهم عبد العزيز ابن الحجاج بن عبد الملك ، حتى لقيَ عدوَّ الله إلى جانب قرية يقال لها البَخْراء ، فدعوه إلى أن يكون الأمر شُورَى ينظر المسلمون لأنفسهم مَنْ يقلِّدونه ممن اتفقوا عليه ، فلم يُجِب عدوُّ الله إلى ذلك ، وأبَى إلا تتابُعا فى ضَلالته ، فبَدَرهم الحْمْلَةَ جهالةً بالله ، فوجدَ اللهَ عزيزاً حكيما ، وأخْذَهُ أليما شديداً ، فقتله اللهُ على سُوء عمله وعُصْبته ممن صاحبوه من بطانته الخبيثة ، لايبلغون عشرة ، ودخلَ من كان معه سواهم فى الحق الذى دُعُوا إليه، فأطفأَ الله جمْرَته ، وأراح العبادَ منه ، فبُعْداً له ولمن كان على طريقته .

أحْبَبتُ أن أُعلمَكم ذلك وأُعْجَلَ به إليكم ، لِتَحْمَدوا الله وتشكروه ، فإنكم قد أصبحتم اليوم على أمثل(١) حالِكم ، إذ وُلاتُكم خيارُكم ، والعدلُ مبسوطٌ لكم ، لايُسَارُ فيكم بخلافه ، فأكْثِرُوا على ذلك حَمْدَ ربكم، وبايِعوا منصورَ بن جُمهور فقد ارتضيتهُ لكم ، على أن عليكم عهد الله وميثاقَه ، وأعظم ما عُهِد وعُقِد على أحد من خلقه لَتَسْمعُنَّ وتطيعنَّ لى ولمن استخلفتُه من بعدى ، ممن اتفقَتْ عليه الأمة ، ولكم علىَّ مثلُ ذلك : لَأَعْمَلَنَّ فيكم بأمر الله وسنةِ نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأتبعَ سبيلَ مَنْ سَلَفَ من خياركم ، نسأل الله رَبَّنَا وولِيَّنا أحسنَ توفيقِه وخيرَ قضائه » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣١)

٥٠١ — كتاب مروان بن محمد إلى الغمر بن يزيد

وكتب مَرْوان بن محمد إلى الغَمْر بن يزيد يأمره أن يطلب بدم أخيه الوليد ابن يزيد .

---

(١) أمثل : أفضل ، والمثالة كنباهة : الفضل وفعله ككرم .

« أما بعدُ : فإن هذه الخلافةَ مِنَ الله على مناهجِ نبوّةِ رُسُله ، وإقامة شرائع دينه ، أكرمهم اللهُ بما قلّدهم ، يُعِزُّهم ويُعزُّ من يعزهم ، والحَيْنُ[(١)] على من ناوأهم فابتغى غيرَ سبيلهم ، فلم يزالوا أهلَ رعايةٍ لِمَا استودَعَهم اللهُ منها ، يقوم بحقّها ناهضٌ بعد ناهض ، بأنصارٍ لها من المسلمين ، وكان أهلُ الشأم أحسنَ خَلْقِه فيه طاعةً ، وأذَبَّه عن حُرَمِه ، وأوفاه بعهده ، وأشدّه نكايةً فى مارقٍ مخالفٍ ناكثٍ ناكبٍ[(٢)] عن الحق ، فاستدرّتْ نِعمةُ الله عليهم ، قد عَمَرَ بهم الإسلامُ ، وكُبِتَ[(٣)] بهم الشِّركُ وأهلُه ، وقد نكثوا أمرَ الله ، وحاولوا نكثَ العهود ، وقام بذلك مَنْ أشعلَ ضِرَامَها ، وإن كانت القلوبُ عنهُ نافِرَةً ، والمطلوبون بدم الخليفة وِلايةٌ[(٤)] من بنى أمية ، فإنّ دَمَهُ غير ضائع ، وإن سكنَتْ بهم الفتنةُ ، وَالْتَأَمَتِ الأمورُ ، فأمرٌ أرادَه اللهُ لامَرَدَّ له .

قد كتبتَ بحالك فيما أبرموا وما تَرَى ، فإنى مُطْرِقٌ إلى أن أرَى غِيَرًا[(٥)] فَأَسْطُوَ بانتقام ، وأنتقِمَ لدين الله المَبْتُول[(٦)] ، وفرائضه المتروكةِ مجانَةً ، ومعى قومٌ أسكنَ اللهُ طاعتى قلوبهم ، أهلُ إقدام إلى ماقدِمْتُ بهم عليه ، ولهم نُظَرَاء ، صدورهُم مُتْرَعَةٌ[(٧)] مُمتلِئة ، لو يجدون مَنزِعا[(٨)] ، ولِلنِّقمة دولةٌ تأتى من الله ، ووقت مُوَكَّل ،

---

(١) الحين : الهلاك والمحنة .

(٢) نكب عنه كنصر وفرح : عدل كنكب وتنكب .

(٣) كبته : صرعه وأخزاه وكسره وأذله ورده بغيظه .

(٤) الولاية : الإمارة والسلطان ، والمعنى ذوو ولاية أى أمراء من بنى أمية ، وقد تقدم أن البعث الذى وجهه يزيد لقتل الوليد كان عليه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك .

(٥) غير الدهر : حوادثه المغيرة . (٦) أى المقطوع غير الموصول ، من بتله كنصر وضرب إذا قطعه . (٧) أى ممتلئة .

(٨) المنزع : الموضع الذى يصعد فيه الدلو إذا نزع من البئر فذلك الهواء هو المنزع ـ انظر لسان العرب ١٦ : ٢١١ فى مادة بين ـ والمعنى : لو يجدون مجالا وفرصة للانتقام .

ولم أشبه محمداً ولا مَرْوانَ[1] ـ غَيْرَ إنْ رأيتُ غِيَرا ـ إن لم أُشَمِّرْ للقَدَرية[2] إزارى ، وأضرِبْهُم بسيفى جارحا وطاعنا ، يَرْمى قضاءُ الله فى ذلك حيث أخذ ، أو يرمى فى عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه ، وما إطراقى إلّا لما أنتظِرُ مِمّا يأتينى عنك ، فلا تَهِنْ عن ثأرك بأخيك ، فإن الله جارُكَ وكافيك ، وكَفَى بالله طالباً ونصيراً » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣٤)

٥٠٢ — كتاب يزيد بالأمان للحارث بن سريج

وعزل يزيد بن الوليد منصور بن جمهور عن العراق ، وولّاها عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز (فى شوال سنة ١٢٦ هـ) فلما قدم عبد الله العراق كتب إلى نصر ابن سيار بعهده على خراسان .

وخرج خالد بن زياد من أهل التِّرْمِذ[3] وخالد بن عمرو مولى بنى عامر إلى يزيد ابن الوليد ، فسألاه أمانا للحارث بن سُرَيج (وكان قد خرج على بنى أمية ، ونشِبت الحربُ بينهُ وبين عاصم بن عبد الله الهلالىّ والى خراسان[4] سنة ١١٦ هـ ، ثم أقام هو وأصحابه ببلاد الترك) فكتب يزيد له :

---

(١) يقول : لست لأبى « محمد » ولا لجدى « مروان » إن لم أشمر للقدرية إزارى إلا إن حالت دون ذلك الغير .

(٢) قدمنا لك (فى ص ٣٩٠) كلمة عن مذهب القدرية ، وقيل إن يزيد بن الوليد كان قدريا ـ انظر تاريخ الطبرى ٩ : ٤٦ والفخرى ص ١٢٠ ـ وروى الطبرى أيضاً قال : « كان منصور بن جمهور أعرابيا جافيا غيلانيا ولم يكن من أهل الدين ، وإنما صار مع يزيد لرأيه فى الغيلانية وحمية لقتل خالد ... الخ » ـ تاريخ الطبرى ٩ : ٢٨ ـ وقد تقدمت لك كلمة عن غيلان فى ص ٣٣٥ ، وكانت المعتزلة يسمون القدرية ، لأنهم وافقوا القدرية فى مذهبهم ، وترى صاحب « الفرق بين الفرق » يسميهم فيقول : « القدرية المعتزلة عن الحق » ـ انظر ص ٩٣ فيه ـ وقال المسعودى فى مروج الذهب ٢ : ١٩٠ : « وكان يزيد بن الوليد يذهب إلى قول المعتزلة وما يذهبون إليه . . . الخ ، ويقول أيضا ـ ٢ : ١٩٣ » « وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع سابقة من المعتزلة وغيرهم على الوليد بن يزيد . . . » .

(٣) مدينة مشهورة على نهر جيحون . (٤) انظر تاريخ الطبرى ٨ : ٢١٩ ـ ٢٢٨ .

« أما بعدُ ، فإنا غضبْنا لله إذ عُطِّلَت حدودُهُ ، وبُلِغ بعباده كل مَبْلغ ، وسُفِكت الدماء بغير حِلِّهَا ، وأُخِذت الأموالُ بغير حقها ، فأردْنا أن نعمل فى هذه الأمة بكتاب الله جل وعز وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولا قوةَ إلا بالله ، فقد أوضَحْنا لك عن ذات أنفسنا ، فأقبِلْ آمِنا أنت ومن معك ، فإنكم إخواننا وأعواننا ، وقد كتبتُ إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بردِّ ما كان اصطُفِىَ من أموالكم وذراريِّكم » .

فقَدِما الكوفةَ على ابن عمر ، ثم مضيا إلى مَرْو فدفعا كتاب يزيد إلى نصر بن سيار ، فردَّ ما كان أُخِذَ لهم مما قُدِر عليه ، ثم نَفَذا إلى الحارث فأقبل يريد مَرْو .

٥٠٣ — كتاب منصور بن عمر إلى ابن سيار

وقدم الحارث سَمَرْقَنْد ، وعليها منصور بن عمر ، فلم يتلقَّه وقال : أَلِحُسْن بلائه ! وكتب إلى نصر يستأذنه فى الحارث أن يَثِب به ، فأيُّهما قَتَل صاحبه فإلى الجنة أو إلى النار ، وكتب إليه :

« لئن قَدِم الحارثُ على الأمير ، وقد ضَرَّ ببنى أمية فى سلطانهم ، وهو وَالغٌ(١) فى دمٍ بعد دمٍ ؛ قد طَوَى كَشْحًا(٢) عن الدنيا ، بعد أن كان فى سلطانهم أقْرَاهم(٣) لضيفٍ ، وأشَدَّهم بأساً ، وأنفذَهم ، غارةً فى الترك ، لَيُفَرِّقَن عليك بنى تميم » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٤٣)

---

(١) من ولغ الكلب فى الإناء : إذا شرب مافيه بأطراف لسانه ، أو أدخل لسانه فيه حركه .

(٢) الكشح : مابين الخاصرة إلى الضلع الخلف ،وطوى كشحه عنه: قطعه . (٣) أكرمهم .

خلافة مروان بن محمد

(سـنة ١٢٧ — ١٣٢ هـ)

٥٠٤ — كتابه إلى بعض الخوارج

وكتب مَرْوان بن محمد رسالة إلى بعض الخوارج يتهدّد ويتوعد فيها :

« أما بعدُ ، فإنك كتبتَ إلىّ كتاب امرئ جائر عن الحق ، متورِّط العقل ، متعرِّض للحَيْن والرَّدَى[١] ، متسكِّع فى الجهالة ، مُتَسكِّمه[٢] فى الضلالة ، مارق من الدين ، مفارِقٍ جماعةَ المسلمين ، قد بَطِرَ العافيةَ والإحسان ، واستحكمتْ عليه رِبَقُ[٣] الشيطان ، تمنّى ما تمنّى أشياعُه من الطُّغْيان ، فقبِلَ من الشيطان أمنيَّتَه ، وأمكنَه من رُمَّته ، وأسلم إليه مَقاليدَه ، فحمَلَه على مَرْكَب صَعْب ، فركّبَ عليه الرِّباقَ ، وشدَّ منه الخُناقَ[٤] ، فهو يسوقه أشدَّ السِّياق ، وعلاه ظَهْرا ، وملأه غَدرا ، وأسلمه [إلى الخوف من بعد][٥] أمنه ، وكذلك يفعلُ الله بالظالمين ، ويستدرِجُهم من حيثُ لا يعلمون .

فانظر ــ لا نظر الله لك[٦] ــ إلى موقع تلك الصفة منك ، فإنك لا طاقةَ لك بجدٍّنا

---

(١) الحين : الهلاك ، وكذا الردى .

(٢) تسكع : تمادى فى الباطل، ومشى متعسفا ، وتسكع فى أمره: لم يهتد لوجهته ، وفى الأصل «متسع» وأراه محرفا . والمتسكه والسكامه : من يركب رأسه لايدرى أين يتوجه .

(٣) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرا تشد به البهم ، كل عروة ربقة والجمع ربق كعنب ورباق كجبال وأرباق ، والرمة بالضم ويكسر : قطعة من حبل ، والمعنى : وأمكنه من قياده : والمقاليد جمع مقلاد وهو المفتاح كالمقلد . (٤) الخناق بالكسر والضم : الحلق ، وبالكسر : الحبل يخنق به .

(٥) مابين القوسين بياض بالأصل وقد تممته كما ترى . (٦) فى الأصل « ولا نظر بك » وأراه محرفا .

حين يَحمِلُ عليك الفرْسَان[١] ، وتتعاوَرُكَ القنَا والطّعَان ، فتنفذُكَ الأسِنّةُ ، وتُجلِبُ عليك الأعنّة ، وتُحيط بك الكتائبُ ، ويأتيك المَوتُ من كل جانب .

وأمّا قولك إلىّ فى كتابك : « سَيرِدُ عليك الجُرْدُ ، عليها المُرْدُ[٢] » فَسَيرِدُ عليك من أولياء الله المقرّبين ، وحِزْبه الغالبين ، الكهولُ ، على الخيل الفُحُول ، كأنها الوُعُول ، طِوال السِّبَال[٣] ، كأنهم أُشْرِبَتْ وُجُوهُهم الجِرْبالَ ، رجالهم هم الرجال ، ليس منهم إلا سَابِق نَاشِبٌ[٤] ، وكالِب محارب ، قد أحكمَتْه التجارِبُ ، وقام على سَاق ، وشرِب كلّ مُرّة المَذَاق ، لايُوَلُّون الأَدبارَ ، ولا يكرُّون على الفِرار ، قد ضَرُوا[٥] بضَرْب الهَامِ ، وغادَوُا الكَرّ والإقدام ، ليسوا بذوى فَرٍّ ولا إحجام ، ينفذُون فى الزُّحُوف ، وَيجترُون على الحُتُوف ، ويباشرون السيوفَ ، ويضربون ضربَ الأُسُود ، ويثِبُون وَثْبَ الفُهود ، وليس منهم إلا بازِلٌ[٦] يتخَطَّلُ ، قد برَكَ على كَلْكله ، كأنما أُشْرِبَتْ وجُوهُهم نقيعَ الحَنْظَلِ ، قد رامُوا الحروبَ وعاوَدوها ، ومضَغَتهم ومضغوها ، فليس منهم إلا إليها طَرِبٌ ، وعلى لقائها حَرِب[٧] ، لايرُوعهم ما يَرُوع الفتيان ، ولا يصدُّهم الموت عن لقاء الأقران ، ولا يروعهم ما يروع الغمْرُ[٨] الجبان ، حين يَكْشَفُ الكُماةُ[٩] ، ويُكرَه النزالُ ، فعند ذلك يُسْلِمك الجُرْدُ ،

---

(١) فى الأصل « فإنك لاطاقة لك بأحد أن من يحتمل عليك الفرسان » وهو تحريف وقد أصلحته كما ترى ، والحد : البأس ، وتتعاورك : تتداولك ، والقنا : الرماح . (٢) فرس أجرد : قصير الشعر رقيقه ، وجمعه جرد ، وشاب أمرد : طر شاربه ولم تنبت لحيته ، وجمعه مرد ، وفى الأصل « سيرد عليك الحرة عليها المراة » وهو تحريف . (٣) السبال جمع سبلة بالتحريك : وهى ماعلى الشفة العليا من الشعر يجمع الشاربين وما بينهما ، والجربال : صبغ أحمر ، والخمر .

(٤) ناشب ، من نشب فيه كفرح : إذا علق به ، وكالب ، من كلب كفرح أيضا إذا اشتد .

(٥) ضرى به كرضى : تعوده ولهج به ، والهام : الرءوس ، والزحوف جمع زحف بالفتح: وهو الجيش يزحفون إلى العدو ، وغاداه : باكره .

(٦) البازل : الجمل فى تاسع سنيه ، والرجل الكامل فى تجربته ، وتخطل فى مشيته : تبختر ، والكلكل : الصدر . (٧) حرب كفرح : كلب واشتد غضبه .

(٨) الغمر بالفتح والضم والتحريك وككتف : من لم يجرب الأمور .

(٩) كشف الرجل كفرح : انهزم ، والأكشف : الذى ينهزم فى الحرب ولا يثبت ، والكماة جمع كمى كغنى : وهو الشجاع المتغطى بسلاحه .

ويَنكشف عنك المُرْدُ ، فإن شئتَ فسِرْ ، وإن شئت فقَرَّ ، ولا أرَى الإقامة لك إلا رَيْثَ أن يأتيَك ما أوعِدُك [فإني وإياك كالزجاجة والحَجَر : إن وقع عليها رَضَّها ، وإن وقَعتْ عليه فَضَّها[1]] فَا تَمِرْ أمرَك ، فإنك غيرُ مُكَذَّب ، ولا نَاكص[2] ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٠ ، ونثر الدرر ٣ : ٢٥٦)

٥٠٥ — رسالة عبد الحميد بن يحيي الكاتب عن مروان إلى ابنه عبد الله بن مروان

وكتب عبد الحميد بن يحيي الكاتب عن مَرْوان بن محمد إلى ابنه عبد الله بن مَرْوان ، حين وجَّهه لمحاربة الضحّاك بن قيس الشَّيْباني الخارجي[3] :

« أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين ـ عند ما اعتزم عليه ، من توجيهك إلى عدوِّ الله الجِلف الجافِي الأعرابي المتسكِّع[4] في حَيْرَة الجهالة ، وظُلَمِ الفتنة ، ومَهاوِي الهَلَكة ، ورَعاعِه الذين عاثوا[5] في أرض الله فسادا ، وانتهكوا حُرْمَةَ الإسلام استخفافا ، وبدَّلوا نِعَمَ الله كفراً ، واستحلُّوا دماء أهل سِلْمه جَهْلا ـ أَحَبَّ أن يَعْهَدَ إليك في لطائف[6] أمورك ، وعوامِّ شئونك ، ودخائلِ أحوالك ، ومُضْطَرَف[7] تنقُّلك ، عَهْداً يُحمِّلك فيه أدَبَهُ ، ويَشْرَع لك به عِظته ، وإن كنتَ ـ والحمدُ لله ـ من دين الله وخلافته

---

(١) لم يرد في نثر الدرر من هذه الرسالة إلا مابين القوسين .

(٢) نكص عن الأمر : أحجم ورجع .

(٣) خرج الضحاك سنة ١٢٧ هـ وغلب على الكوفة ، ثم استولى على الموصل وكورها سنة ١٢٨ هـ ، وبلغ مروان خبره وهو محاصر حمص مشتغل بقتال أهلها ، فكتب إلى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة ، يأمره أن يسير فيمن معه إلى نصيبين ليشغل الضحاك عن توسط الجزيرة ، فشخص عبد الله إلى نصيبين وهو في نحو من سبعة آلاف أو ثمانية ، وسار إليه الضحاك من الموصل فقاتله ، فلم يكن لعبدالله قوة لكثرة من مع الضحاك ، إذ قيل إنه كان في عشرين ومائة ألف ، ثم إن مروان سار إليه فالتقيا بأرض كفرتوثا من أعمال ماردين فقاتله ، وأحدقت بهم خيول مروان فألحوا عليهم حتى قتلوهم ، وبعث مروان برأس الضحاك إلى مدائن الجزيرة فطيف به فيها ـ انظر تاريخ الطبري ٩ : ٧٦ .

(٤) تسكع : مشى مشياً متعسفا ، وتمادى في الباطل . (٥) أفسدوا .

(٦) جمع لطيف وهو الدقيق ، لطف ككرم صفرودف .

(٧) اصطرف ، تصرف في طلب الكسب . وفي المنظوم والمنثور « ومضطرب » من اضطرب : أي تحرك وهو افتعل من ضرب في الأرض : إذا خرج تاجرا أو غازيا ، أو سار فيها في ابتغاء الرزق .

بحيث اصطنعك[١] اللهُ لوِلاية العهد ، مختصّا لك بذلك دون لُحمتك[٢] وبنى أبيك .

ولولا ما أمَرَ الله تعالى به دالاًّ عليه ، وتقدّمت فيه الحكماء آمِرين به : من تقديم العِظَة ، والتذكير لأهل المعرفة ، وإن كانوا أُولى سابقةٍ فى الفضل ، وخِصِّيصاء فى العلم[٣] لاعتَمَد أميرُ المؤمنين منك على اصْطناعِ الله إياك ، وتفضيله لك بما رآك أهلَه فى محلِّك من أمير المؤمنين ، وسَبْقِك إلى رغائب أخلاقه ، وانتزاعِك محمودَ شِيَمه ، واستيلائك على مَشابِهِ تدبيره .

ولو كان المُؤَدِّبون أخذوا العلمَ من عند أنفسهم ، ولُقِّنوه إلْهامًا من تِلقائهم ، ولم يتعلَّموا شيئًا من عند غيرهم ، لنَحَلْناهُم[٤] عِلْمَ الغيب ، ووضعناهم بمنزِلَة خالقهم[٥] المستأْثِرِ بعلم الغيب عنهم بوَحْدانيته وفَرْدانيته فى إلْهِيَّته ، احتجابًا منهم لِتَعَقُّبِ فى حُكْمِهِ ، وتثبُّتٍ فى سلطانه ، وتنفيذِ إرادته على سابق مشيئته ، ولكنَّ العالِمَ الموفَّق للخير ، المخصوصَ بالفضلِ ، المحبُوَّ بمزية العلم وصَفوته ، أدركَهُ مُعانًا عليه بلُطْفِ بحثه ، وإذلالِ كَنَفِه ، وصِحّة فهمه ، وهَجْرِ سآمَتِه .

وقد تقدَّم أمير المؤمنين إليك ، آخِذاً بالحجَّة عليك ، مُؤَدّيا حقّ الله الواجبَ عليه فى إرشادك وقضاءِ حقك ، وما ينظُر به الوالدُ المَعْنِيُّ الشفيقُ لِوَلَدِه ، وأمير المؤمنين يرجو أن يُنزِّهك اللهُ عن كل قبيح يَهَشُّ[٦] له طَمِعٌ ، وأن يعصِمَك من كل مكروهٍ حاقَ بأحد ، وأن يحصِّنك من كل آفةٍ استولت على امرئٍ فى دين أو خُلُق ، وأن يبلِّغه

---

(١) أى اختارك . (٢) اللحمة : القرابة .

(٣) فى المنظوم والمنثور (بعد إصلاح ما فيه) : « ولولا ما أمر الله به دالا عليه بتقدمة المعرفة لمن كانوا أولى سابقة فى الدين وخصيصى فى العلم » وخصه بالشىء خصا (بالفتح) وخصوصاً وخصوصية (بالفتح والضم) وخصيصى (بالكسر والقصر ويمد) وخصية (بالفتح والتشديد) وتخصة : فضله .

(٤) أى لنسبنا إليهم . (٥) فى صبح الأعشى : « ووضعناهم بمنزلة قصر بها عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته فى فردانيته وسابق لا هوتيته » .

(٦) هش (من بابى تعب وضرب) هشاشة وهشاشا : إذا خف إليه وارتاح له ونشط ، وهو به هش بش ، والطمع : الطامع .

فيك أحسَنَ مالم يزل يُعوّدُه ويُريه من آثار نعمةِ الله عليك ، ساميةً بك إلى ذُروه الشرف ، مُتَبَحْبِحَةً[١] بك بَسْطَةَ الـكرم ، لائحةً بك فى أزهرِ مَعالى الأدب ، مُورِثةً لك أَنْفَسَ ذخائر العزِّ ، والله يَسْتَخْلِفُ عليك أمير المؤمنين ، ويسألُ حِياطَتَك ، وأن يعصِمَك من زَيْغ الهوى ، ويُحْضِرَكَ داعِىَ التوفيق ، مُعانا على الإرشاد فيه ، فإنه لا يُعين على الخير ، ولا يوفِّق له إلا هو .

اعلم أنَّ للحكمة مَسالِكَ تُفْضِى مَضَايِقُ أوائِلِها - بِمَنْ أَمَّها سالِـكا ، ورَكِبَ أخطارَها[٢] قاصِداً إلى سَعَة عاقبتها ، وأَمْنِ سَرْحِها[٣] ، وشَرَف عزها ، وأنها لا تُعارُ بِسُخْف الخفَّة ، ولا تَنْشَأُ بتفريط الغَفلة ، ولا يَتعدَّى فيها بامرئٍ حَدُّه[٤] ، وربما أظهرت بَسْطَةُ الغَى مستورَ العيب ، وقد تلقّتْك أخلاقُ الحـكمة من كل جهة بفضلها ، من غير تَعَبِ البحث فى طلبها ، ولا تَطاوُلٍ لِنَالِ ذروتها[٥] ، بل تأثلْتَ[٦] منها أكرمَ نَبعاتها ، واستَخْلَصْتَ منها أَعْتَقَ[٧] جواهرها ، ثم سَمَوْتَ[٨] إلى لُبَاب مُصَاصِها ، وأحرَزْتَ مُنْفِسَ[٩] ذخائرها ، فاقتَعِد[١٠] ما أحرزْتَ ، ونافِسْ فيما أَصَبْتَ.

---

(١) تبحبح : تمـكن فى المقام والحلول ، وتبحبح الدار : توسطها . وفى المنظوم والمنثور « ومنجحة لك بسطة الـكرم » .

(٢) فى المنظوم والمنثور : « وركب أخبارها » .

(٣) السرح : فناء الدار . (٤) وفى المنظوم والمنثور : « وأنها لا تعاف سخف الخفة ،ولا تسى بتفريط الغفلة ، ولا يتعدى فيها بأمن حد وهو تحريف » .

(٥) فى المنظوم والمنثور « ولا متطاول المنال لذروتها » وفى صبح الأعشى « ولا متطاول لمناولة ذروتها » وقد ضبط « متطاول » بكسر الواو بصيغة اسم الفاعل ، والأنسب أن يكون بفتح الواو على أنه مصدر ميمى ، لعطفه على مصدر وهو « تعب » وربمـا كان الأصل « ولا تطاول » بصيغة المصدر كما أوردته . (٦) تأثل المـال : اكتسبه . والنبع : شجر تتخذ منه القسى ، وتتخذ من أغصانه السهام ، الواحدة نبعة . وفى المنظوم والمنثور « أكرم معانيها » .

(٧) من العتق بالـكسر ، وهو الـكرم والجمال .

(٨) فى المنظوم والمنثور « ثم شمرت » ، ولباب كل شىء ولبه بالضم : خالصه ،والمصاص : خالص كل شىء أيضا . (٩) نفس الشىء بالضم فهو نفيس ونافس : رفع وصار مرغوبا فيه ، وأنفس فهو منفس : صار نفيسا ، وأمر منفوس فيه : أى مرغوب فيه .

(١٠) اقتعد الدابة : ركبها ، والمعنى تمسك به واحرص عليه .

واعلم أن احتواءك على ذلك ، وَسَبْقَك إليه بإخلاص تقوى الله فى جميع أمورك مُؤْثِرًا بها ، وإضمار طاعته مُنطويا عليها[١] ، وإعظام ما أنعم اللهُ به عليك شاكرا له ، مُرتبطا فيه للمزيد ، بحُسْن الحياطة له ، والذَّبِّ عنه من أن تدخلك منه سآمةُ مَلال ، أو غفلةُ ضياع ، أو سِنَةُ تهاوُن ، أو جهالةُ معرفة ، فإن ذلك أحقُّ ما بُدِئَ به ونُظِر فيه ، معتمِدًا عليه بالقوّة والآلة والعُدّة ، والانفراد به من الأصحاب والحامّة[٢] ، فتمسَّكْ به لاجئًا إليه ، واعتمدْ عليه مُؤْثِرًا له ، والتجئْ إلى كَنَفِه متحيِّزًا إليه[٣] ، فإنه أبلغُ ما طُلِبَ به رضا الله ، وأنجحُه مسألةً ، وأجزلُه ثوابا ، وأعْوَدُه نفعاً[٤] ، وأعمّه صلاحا ؛ أرشدك اللهُ لحظِّك ، وفهّمك سَدادَه ، وأخذ بقلبك إلى محموده .

ثم اجعل لله فى كل صباحٍ يُنعِم عليك ببلوغه ، ويُظهِر منك السلامةُ فى إشراقه ، من نفسك نصيبًا تجعله لله ، شكرا عَلَى إبلاغه إياك يومَك ذلك بصحة جَوارحَ ، وعافية بدنٍ ، وسُبُوغِ[٥] نعم ، وظُهور كَرامةٍ ، وأن تقرأ فيه من كتاب الله عز وجل جزءًا تُردِّد رأيك فى آيه[٦] ، وتُزيِّن[٧] لفظك بقراءته ، وتُحْضِره عقلَك ناظِرًا فى مُحْكَمه ، وَتتفهّمه متفكرًا فى متشابِهه ، فإن فى القرآن شفاء القلوب من أمراضها ، وجِلاء وَساوِسِ الشيطان وسَفاسِفه[٨] ، وضياءَ مَعالِم النور — تِبْيانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

ثم تعهّدْ نفسَك بمجاهدة هواك ، فإنه مِغْلاقُ الحسَنات ، ومِفتاحُ السيئات ، وخَصْم العقل .

---

(١) وفى المنظوم والمنثور « واصطبار طاعته » .
(٢) الحامة : خاصة الرجل من أهله وولده .
(٣) وفى المنظوم والمنثور « والتجئ إلى كنهه متحرزا به » .
(٤) وفيه « وأعوده سعيا » ويقال هذا أعود : أى أنفع ، والعائدة : المنفعة .
(٥) أى اتساعها .
(٦) آى جمع آية ، وفى المنظوم والمنثور « فى أدبه » .
(٧) وفى صبح الأعشى « وترتل » والأولى أنسب .
(٨) السفساف بالفتح : الردىء من كل شىء ، وفى صبح الأعشى «وصعاصعه» ، وفى هامشه : «جمع صعصع» بالفتح ، وهو طائر يصيد الجنادب ، شبه وسوسة الشيطان به ، والرواية الأولى أظهر .

واعلم أن كلَّ أهوائِك[١] لك عدوٌّ يحاولُ هلَكتَك ، ويَعترض غفْلتَك ، لأنها خدَع إبليس ، وحبائل[٢] مَكْره ، ومَصايدُ مَكيدته ، فاحذَرْها مُجانبًا لها ، وتوقَّها مُحترسًا منها ، واستعِذْ بالله عز وجل من شرها ، وجاهِدْها إذا تناصَرتْ عليك ، بعزمٍ صادق لا وَنْيَـةَ[٣] فيه ، وحزمٍ نافذٍ لا مَثْنَوِيَّةَ[٤] لرأيك بعد إصداره عليك ، وَصدقٍ غالبٍ لا مَطمعَ فى تكذيبه ، ومَضاءةٍ صارمة لا أناةَ[٥] معها ، ونيةٍ صحيحةٍ لاخلَجَةَ شكٍّ فيها ، فإن ذلك ظِهْرِىٌّ[٦] صِدقٍ لك على ردعها عنك ، وقمْعها دون ما تتطلَّع إليه منك ، وهى واقية لك سَخْطةَ ربك ، داعية إليك رضا العامة عنك ، ساتِرة عليك عيبَ من دونك ، فازْدَنْ بها متحلِّيا[٧] ، وأصِبْ بأخلاقكَ مواضعَها الحميدةَ منها ، وتوَقَّ عليها الآفةَ التى تقتطعك عن بلوغها.وتقصِّرُ بك دون شأوها[٨]، فإن المَئُونة[٩] إنما اشتدَّتْ مستَصْعِبةً[١٠] وفَدَحتْ باهظةً أهلَ الطَّلَب لأخلاق أهل الكَرَم ، المنتحِلين سُموَّ القَدْر ، بجَهالة مواضِع ذَميم الأخلاق ومحمودِها ، حتى فرَّط أهلُ التقصير فى بعض أمورهم ، فدخلَتْ عليهم الآفاتُ من جهاتٍ أمِنُوها ، فنُسِبُوا إلى التفريط ، ورَضُوا بذَلِّ المنزِل ، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل ، عَمِهين[١١] عن دَرَج الشرف ، ساقطين دُون منزلَةِ أهل الحِجَا ، فحاوِلْ بلوغَ غاياتِها مُحْرِزاً لها بسَبْق الطلب

---

(١) فى المنظوم والمنثور « كل أعدائك » وهو تحريف .

(٢) فى صبح الأعشى « وخواتل مكره » أى وخوادع ، من الختل وهو الخداع .

(٣) يقال : افعل ذلك بلاونية : أى بلاتوان .

(٤) يقال : حلف فلان يمينا ليس فيها مثنوية ولا ثنيا « بالضم » ولا ثنوى « بالفتح » ولا ثنية « كبقية » أى استثناء .

(٥) أى لاتؤدة فيها ، تأنى فى الأمر ، تمكث ولم يعجل ، والاسم منه أناة، وخلجة: اسم من تخالج فى صدرى منه شىء أى شككت فيه ، وأصل الاختلاج الحركة والاضطراب

(٦) أصل ذلك البعير الظهرى: وهو العدة للحاجة إن احتيج إليه ، نسب إلى الظهر على غير قياس .

(٧) وفى المنظوم والمنثور « ملتحفا » .

(٨) الشأو : الغاية ، وفى المنظوم والمنثور « ساميها » .

(٩) من قوله « فإن المئونة . . . » إلى قوله « أهل الحجا » ساقط من المنظوم والمنثور .

(١٠) استصعب الأمر : صار صعبا ، وفدحه الأمر : أثقله ، وكذا بهظه .

(١١) من العمه بالتحريك ، وهوالتحير والتردد .

إلى إصابة الموضع ، مُحَصِّنا أعمالك من العُجْب ، فإنه رأسُ الْهَوَى ، وأوّل الغَواية ، ومَقَاد الْمَلَكَةِ ، حارساً أخلاقَكَ من الآفات المتصلة بِمَسَاوِي العادات وذميم إيثارِها[١] ، من حيثُ أتتِ الغَفلةُ ، وانتشر الضَّياعُ ، وَدَخَلَ الوهَنُ ، فتوَقَّ غُلُوبَ[٢] الآفاتِ على عقلك ، فإنّ شواهدَ الحقّ ستُظْهِرُ بأماراتها تصديقَ رأيك عند ذوي النُّهَى ، وحالَ الرأي وفَحْص النظر ، فاجتنِبْ لنفسك محمودَ الذِّكر ، وبَاقِيَ لِسَانِ الصدق ، بالحَذَر لما تقدَّم إليك فيه أميرُ المؤمنين ، متحرِّزاً من دُخول الآفات عليك ، من حيثُ أَمْنُك وقلةُ ثِقتَك بمُحكَمها .

من ذلك أن تملِكَ أمورَكَ بالقَصْد ، وتُدَارِيَ جُندكَ بالإحسان ، وتصون سِرّك بالكِتمان ، وتُدَاوِيَ حِقْدكَ بالإنصاف ، وتذَلِّلَ نفسَك بالعدل ، وتحصِّن عيوبَك بتقويم أَوَدِك[٣] ، وتمنع عقلك من دُخولِ الآفاتِ عليه بالعُجْب المُرْدِي ، وأناتَك فوَقِّها المَلاَلَ وفَوتَ العمل ، ومَضَاءَتَكَ[٤] فدرِّعْها رَوِيَّةَ النظر واكنُفْها بأناةِ الحِلم ، وخَلَوَاتِك فاحرُسها من الغَفلة واعتماد الراحة ، وصَمْتَك فانفِ عنه عِيَّ اللفظ ، وخَفْ فيه سُوءَ القالَة[٥] واستماعَك فأَرْعِه حُسْنَ التفهُّم ، وقوِّه بإشهادِ الفِكْر ، وعطاءَك فامْهَد له[٦] بُيُوتاتِ الشرف وذوي الحَسَب ، وتحرَّزْ فيه من السَّرَف واستطالَة البَذْخ[٧] وامتنانِ الصَّنِيعة ، وحَياءَك فامْنَعه من الخَجَلِ وبَلاَدَةِ الحَصَر[٨] ، وحِلْمَك فَزَعْه[٩] عن التهاون ، وأَحْضِرْهُ قوةَ الشَّكِيمة ، وعقُوبتَك فقصِّر بها عن الإفراط ، وتعمَّدْ بها أهلَ الاستحقاق ، وعَفْوَكَ فلا تُدْخِلْه تعطيلَ الحقُوق ، وخذ به واجبَ

---

(١) وفى صبح الأعشى : المتصلة « بمساوى الألقاب وذميم تنابزها » والتنابز . والتعاير والتداعى بالأنباز ، وهى الألقاب جمع نبز بالتحريك وهو اللقب .

(٢) لم يرد هذا المصدر فى كتب اللغة ،   (٣) الأود : الاعوجاج .

(٤) فى المنثور والمنظوم « ومصابك » وهو تحريف .

(٥) القول فى الخير ، والقال والقيل والقالة فى الشر .

(٦) من مهد المهد للصبى إذا هيأه وبسطه ، والمعنى : فضعه فى بيوتات الشرف .

(٧) الكبر .   (٨) العى .   (٩) وزعه : كوضعه : كفه ، والشكيمة : الأنفة .

المفترض ، وأَقِمْ به أَوَدَ الدين ، واستِئناسك فامنع منه البَذَاء وسُوءَ المُنافنة[١] ، وتعهّدك أمورك فحُدَّه أوقاتا ، وقدِّره ساعاتٍ لا تستفرِغُ قوّتك ، ولا تستدعِى سآمَتَك ، وعزَماتِك فانفِ عنها عَجَلَةَ الرأى ولَجَاجة الإقدام ، وفرَحاتِك فاشكُمْها[٢] عن البَطَرَ ، وقيِّدها عن الزَّهْو ، ورَوْعاتِك فحُطْهَا من دَهَشِ الرأى واستسلام الخضُوع ، وحَذَراتِك فاصرِفها عن الجُبْن ، واعمِدْ بها للحزم ، وَرَجاءك فقيِّده بخوفِ الفائت ، وامنعه من أمْنِ الطَّلَب .

هذه جَوامِع خِلالٍ ، دَخَّالُ النقص منها واصِلٌ إلى العقل بلطائفِ أُبَنِه ، وتصاريفِ حَوِيله[٣] ، فأَحكِمْها عارفا بها ، وتقدَّمْ فى الحفظ لها ، معتزماً على الأخذ بمَراشِدِها ، والانتهاء منها إلى حيثُ بلغَتْ بك عِظَةُ أمير المؤمنين وأدبُه إن شاء الله .

ثم لتكن بطانتُك وجُلساؤك فى خَلَواتك ، ودُخَلاؤك فى سِرِّك ، أهلَ الفِقه والوَرَع من خاصَّة أهل بيتك ، وعامّةُ قُوّادك مِمَّن قد حنَّكته السِّنُّ بتصاريف الأمور وخَبَطَتْه فِصَالُها بين فَراسِنِ[٤] البُزَّلِ منها ، وقلَّبته الأمورُ فى فنونِها ، ورَكِبَ أطوارَها ، عارِفًا بمَحاسِنِ الأمور ، ومَواضِعِ الرأىِ ، وعَيْنِ المَشورة ، مأمونَ النصيحة ، مَطوِىَّ الضمير على الطاعة .

---

(١) بذؤ الرجل ويثلث بذاء وبذاءة : سفه وأفحش فى منطقه ، وثافنه : جالسه ، وفى صبح الأعشى « وسوء المناقشة » نقث فلانا بالكلام: آذاه .

(٢) شكم الفرس كنصر : وضع الشكيمة فى فيه ، والشكيمة من اللجام : الحديدة المعترضة فى فم الفرس ، والمعنى فامنعها .

(٣) الأبن جمع أبنة بالضم : وهى العيب ، والحويل والحول كشمس وعنب : الحيلة والاحتيال ، وفى المنظوم والمنثور : « هذه جوامع دخال النقص .... » .

(٤) فراسن جمع فرسن كزبرج ، والفرسن للبعير كالحافر للدابة ، والبازل : الجمل فى تاسع سنيه (وليس بعده سن تسمى) وجمعه بزل ككتب وركع وبوازل ، والبازل أيضا: الرجل الكامل فى تجربة ، والفصال جمع فصيل : وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

ثم أحضِرهم من نفسك وَقاراً يَستدعى لك منهم الهَيْبةَ ، واستئناسا يَعطِف إليك منهم المودّةَ ، وإنصاتا[1] يفُلُّ إفاضَتَهم عندك بما تَكرَه أن يُنشَرَ عنك من سَخافة الرأى ، وضياع الحزمِ ، ولا يغلِبَنَّ عليك هواك فيَصرِفَك عن الرأى ، ويقتطعك دون الفكر .

وتعلَّمْ أنك وإنْ خَلَوْتَ بسرٍّ ، فألقيْتَ دونَه سُتورَك ، وأغلَقْتَ عليه أبوابك ، فذلك لا مَحالَةَ مكشوفٌ لِلعامّة ، ظاهرٌ عنك ـ وإن استترت بِرُبّما ولَعلّ ، وما أُرَى إذاعة ذلك وأعلم[2] ـ بما يَرَون من حالات مَنْ ينقطع به فى تلك المواطن ، فتقدَّمْ فى إحكام ذلك مِنْ نفسِك وسَدِّ خَلَلِهِ عنك ، فإنه ليس أحدٌ أسرَعَ إليه سُوءِ القالة ، وَلَغَطُ العامّة بخير أو شر ، ممن كان فى مثل حالك ومكانك الذى أصبحتَ به من دين الله ، والأملِ المرجوّ المنتظر فيك ، وإياك أن يُغمِزَ[3] فيك أحد من حامّتك وبطانة خدمك بضَعْفة يجد بها مَساغاً إلى النطق عندك بما لا يَعتَزِلُكَ عيبُهُ ، ولا تخلُو من لائمته ، ولا تأمَنُ سُوءِ الأُحدُوثة فيه ، ولا يرخُصُ سوء القالَة به إن نَجَم ظاهراً وعَلَنَ باديا[4] ، ولن يجترِئوا على تلك عندك إلّا أنْ يَرَوا منك إصغاء إليها ، وقَبولا لها ، وترخيصا لهم فى الإفاضة بها .

ثم إيّاك أن يُفاضَ عندك بشىء من الفُكاهاتِ والحكاياتِ والمُزاحِ والمَضاحِكِ التى يَستَخِفُّ بها أهلُ البطالة ، ويتسرّع نحوها ذَوُو الجهالة ، ويجدُ فيها أهلُ الحسَد مقالا لعيْبٍ يُذيعُونه[5] ، ولطَعْنٍ فى حق يَجْحَدونه ، مع مافى ذلك من نَقْصِ الرأى ، وَدَرَنِ العِرْضِ ، وهدْمِ الشرف ، وتأثيل[6] الغفلة ، وقوّةِ طباعِ السُّوء الكامنةِ

---

(١) وفى المنظوم والمنثور « وإنصافا يغل أقاصيهم له عنك بما تكره أن ينتشر عنك . .الخ ».

(٢) أرى بالضم أى أظن ، وأعلم معطوف عليه أى وما أعلم . والمعنى وإن استترت وراء هذه الألفاظ . (٣) أغمز فى فلان : عابه وصغره ، واغتمزه طعن عليه أيضا .

(٤) نجم كنصر : ظهر ، وعلن كنصر وضرب وكرم وفرح : ظهر أيضا .

(٥) وفى المنظوم والمنثور « يدفعونه » . (٦) أى تأصيل وتمكين ، والحجر الصلد : أى الصلب الأملس .

فى بنى آدمَ كُمُونَ النّارِ فى الحجر الصَّلْدِ ، فإذا قُدِحَ لاحَ شَرَرُه ، وتلهَّبَ وَمِيضُه ووَقَد تضرُّمُه ، وليست فى أحد ، أقوى سَطوةً ، وأظهرَ توقُّدًا ، وأعلى كُمُونا ، وأسرعَ إليه بالعَيْبِ ، وتطرُّقِ الشَّيْن ، منها لمن كان فى مِثْل سِنِّك من أَغْفالِ[1] الرجال وذوى العُنْفُوان فى الحداثة ، الذين لم تقع عليهم سِماتُ الأمور ، ناطقًا عليهم لائحُها ، ظاهراً عليهم وَسْمُهَا ، ولم تَمْحَضهم[2] شهامَتها ، مُظهِرةً للعامة فضلَهم ، مُذيعةً حُسْنَ الذِّكر عنهم ، ولم يبلُغ بهم الصِّيتُ فى الحُنْكة مستَمَعا[3] يَدْفَعُونَ به عن أنفسهم نواطِقَ أَلْسُنِ أهل البغى ، ومواد أبصارِ أهل الحسد .

ثم تعهَّدْ من نفسك لطيفَ عيبٍ لازمٍ لكثير من أهل السلطان والقُدرة من إبْطَارِ الذَّرْع[4] ونَخْوة الشرف والتِّيه وعَيْب الصَّلَفِ ، فإنها تُسرع بهم إلى فساد رأيهم ، وتهجينِ[5] عقولهم فى مواطنَ جَمَّة ، وأنحاء مصطَرِفة ، منها قِلةُ اقتدارهم على ضبط أنفسهم فى مواكبهم ومسايرتهم العامَّةَ ، فمن مُقَلْقِلٍ شخصَه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله ، تزدهيه الخِفَّةُ ، ويُبْطِره إجلابُ[6] الرجال حوْلَه ، ومن مُقْبِلٍ فى موكِبه على مُدَاعبَة مُسايره بالمُفاكهَة[7] له والتضاحُك إليه ، والإيجاف[8] فى السير مَرِحا ، وتحريكِ الجوارح متسرِّعا ، يَخال أن ذلك أسرعُ له وأحثُّ[9] لمطيَّته ،

---

(١) أغفال جمع غفل كقفل وهو من لم يجرب الأمور ، وعنفوان الشباب : أوله .

(٢) من محضه الود وأمحضه : أى أخلصه .

(٣) فى المنظوم والمنثور « ولم يبلغ بهم الصمت فى الحركة مستمعان » وهو تحريف ، والصلف : مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا ،

(٤) فى المنظوم والمنثور « من أقطار الدرع » وفى صبح الأعشى « من أبطال الدرع » وفى مفتاح الأفكار « من أبطال البدع » وأرى أن ذلك تحريف ، والصواب « من إبطار الذرع » ومعناه من الذرع : أى القوة المبطرة : أى الداعية إلى البطر ، كما يدل عليه سياق الكلام.

(٥) التهجين : التقبيح .

(٦) الجلب والجلبة بالتحريك : اختلاط الأصوت ، وقد جلبوا كنصر وضرب وأجلبوا وجلبوا .

(٧) فى المنظوم والمنثور « بالمصاحبة له » والأولى أنسب وأولى .

(٨) وجف الفرس : عدا ، وأوجفه : أعداه ، والمرح بالتحريك : شدة الفرح والنشاط ، وفى المنظوم والمنثور « مهرجا » .

(٩) وفيه « وأخف » .

فلتَحسُن فى ذلك هيئتك ، ولتَجمُل فيه دَعَتُك[١] ، وَلْيَقِلّ على مُسايِرِك[٢] إقبالُك ، إلاّ وأنت مُطْرِق النظر ، غير مُلتفِتٍ إلى محدِّثٍ ، ولا مقبل عليه بوجهك فى موكبك لمحادثته ، ولا مُوجِفٍ[٣] فى السير ، مُتقلقِلٍ لجوارحك بالتحريك والاستنهاض ، فإن حُسْنَ مسايرة الوالى واتِّدَاعَه[٤] فى تلك الحالة دليلٌ على كثير من غُيُوب أمره ومستتر أحواله .

واعلم أن أقواما سَيُسْرِعون إليك بالسِّعاية ، ويأتونك من قِبَل النَّصيحة[٥] ، ويستميلونَك بإظهار الشَّفقةِ ، ويستَدْعُونك بالإغراءِ والشُّبْهة ، ويُوطِئُونَك عِشْوةَ[٦] الحَيْرة ، ليجعلوك لهم ذَريعةً إلى استئـكال العامّة ، بموضِعِهم منك فى القَبول منهم ، والتصديق لهم على من قَرَفُوه[٧] بتُهَمَة ، أو أسرعوا بك فى أمره إلى الظِّنّة ، فلا يَصِلَنَّ إلى مشافهتك ساعٍ بشُبْهة ، ولا معروفٌ بتُهَمة ، ولا منسوبٌ إلى بدعة ، فيُعَرِّضَك لإيتاغِ[٨] دينك ، ويَحْمِلَك على رعيّتك بما لاحقيقةَ له عندك ، ويُلْحِمَك[٩] أعراضَ قومٍ لاعِلْمَ لك بدَخْلهم ، إلا بما أقدم به عليهم ساعياً ، وأظهرَ لك منهم منْتَصِحا .

وليكن صاحب شُرْطتك ، ومن أحببتَ أن يتولّى ذلك من قُوّادِك ، إليه إنهاءُ[١٠] ذلك ، وهُو المنصُوب لأولئك ، والمستمعُ لأقاويلهم ، والفاحِصُ عن نصائحهم ، ثم ليُنْهِ ذلك إليك على مايُرْفَع إليه منه ، لتأْمُرَه بأمرك فيه ، وتَقِفَه على

---

(١) وفيه « ولتحمل فيه رعيتك » وهو تحريف . (٢) وفيه « على مسائلك » .

(٣) وفيه « ولا مخفف » . (٤) الاتداع : السكون والاستقرار . وفى المنظوم والمنثور « وابتداعه » وهو تحريف . (٥) وفى صبح الأعشى « ويأتونك على وجه النصيحة » .

(٦) العشوة مثلث العين: ركوب الأمرعلى غير بيان ،وهو يستأ كل الضعفاء: أى يأخذ أموالهم .

(٧) قرفه كضربه : اتهمه ، والظنة : التهمة. (٨) أوتغ دينه بالإثم إيتاغا : أفسده ، وفى المنظوم والمنثور « فيعرضك لإيباغ دينك » .

(٩) ألحمه : أطعمه اللحم . ودخل الرجل بالكسر والفتح : نيته ومذهبه ، والدخل بالفتح ويحرك : العيب والريبة .

(١٠) وفى صبح الأعشى : « وليكن صاحب شرطتك المتولى لإنهاء ذلك المنصوب لأولئك ... »

رأيك ، من غير أن يَظهَر ذلك للعامّة ؛ فإن كان صَوَابا نالتك حُظْوَتُه[1] ، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل ، أو فَرْطة سعَى بها كاذب ، فنالت الساعِيَ[2] منهما أو المظلوم عقُوبة ، وبَدَر[3] مِن واليك إليه نَكال ، لم يُعْصَبْ ذلك الخطأ بك ، ولم تُنْسَب إلى تفريط ، وخَلَوْتَ من مَوْضع الذم فيه[4] ، مُحْضِرًا إليه ذهنَك وصَوَابَ رأيك .

وتَقَدَّمْ إلى من تُوَلِّى ذلك الأمرَ وتعتمِد عليه فيه ، أن لا يُقْدِمَ على شيء ناظراً فيه ، ولا يحاولَ أخذَ أحد طارقا له ، ولا يعاقبَ أحداً مُنكِّلا به ، ولا يُخَلِّيَ سبيل أحد صافحا عنه ، لإصحار[5] براءته ، وصِحَّة طريقته ، حتى يرفَعَ إليك أمرَه ، ويُنهى إليك قضيته ، على جهة الصدق ، ومَنْحَى الحق ، ويقين الخبر ، فإن رأيْتَ عليه سبيلا لَمحبَس[6] ؛ أو مجازا لعقُوبة ، أمَرْتَه بتولِّى ذلك من غير إدخاله عليك ، ولا مشافهةٍ لك منه ، فكان المتولِّيَ لذلك ، ولم يجْرِ على يديك مكروه رأى ، ولا غِلْظَةُ عقُوبة ، وإن وجدتَ إلى العفو عنه سبيلا ، أو كان مما قُرِفَ به خَلِيًّا ، كنتَ أنت المتولِّى للإنعام عليه بتخْلِية سَبيله ، والصفح عنه بإطلاق أمره ، فتَوليتَ أجرَ ذلك واستحققتَ ذُخْره ، وأنطقتَ لسانه بشكرك ، وطَوَّقتَ قوْمَه حَمْدَك ؛ وأوجبتَ عليهم حَقَّك ؛ فقَرنت بين خَصْلتين ، وأحرزْتَ حُظْوتين : ثوابَ الله فى الآخرة[7] ، ومحمود الذكر فى العاجلة .

---

(١) وفيه « نالتك خيرته » . (٢) وفى المنظوم والمنثور « فنالت الباغى منها » .

(٣) بدر أى سبق ، ولم يعصب : أى لم يقرن ولم يلصق .

(٤) بعد هذا فى المنظوم والمنثور « فافهم ذلك وتقدم إلى من تولى فلا يقدم على شيء ... الخ » .

(٥) أى لوضوح براءته ، من أصحر الرجل إذا برز إلى الصحراء ، وفى حديث على « فأصحر لعدوك وامض على بصيرتك » أى كن من أمره على أمر واضح منكشف .

(٦) أى لحبس وهو مصدر ميمى .

(٧) وفى المنظوم والمنثور « فتوليت أجر ذلك وذخره ونطق لسانه بشكرك فقرنت خصلتين : ثواب الله ــ الخ » .

ثم إياكَ وأنْ يصلَ إليكَ أحد من جُندكَ وجُلَسائِكَ وخاصَّتِكَ وبِطانتِكَ بمسألة يَكشِفها لك ، أو حاجةٍ يَبدَهُكَ[1] بطلبها ، حتى يرْفعَها قبل ذلك إلى كاتبكَ الذى أهدَفْتَه[2] لذلك ، ونصبتَه له ، فيَعرِضَها عليك ، مُنْهيا لها على جهة الصدق عنها ، وتكونَ على معرفةٍ من قدْرِها ، فإن أردتَ إسعافَه بها ، ونجاحَ ما سألَ منها ، أذِنْتَ له فى طَلَبها ، باسِطًا له كَنَفَكَ ، مُقْبِلاً عليه بوجهك ، مع ظهُور سرورك بما سألك ، وفُسْحةِ رأى ، وبَسْطَةِ ذَرْعٍ ، وطِيبِ نفس ، وإن كرِهتَ قضاء حاجته ، وأحببتَ ردَّه عن طَلِبته[3] ، وثقُل عليكَ إجابتُه إليها وإسعافُه بها ، أمرتَ كاتبَكَ فصَفَحه[4] عنها ، ومَنَعه من مُواجَهتك بها ، نخفَّتْ عليكَ فى ذلك المئُونةُ ، وحسُن لك الذكرُ ، ولم يُنْشر عنك تجهُّمُ[5] الردِّ ، ويَنَلْك سوء القالةِ فى المنع ، وحمِل على كاتبك فى ذلك لائِمةٌ[6] أنت منها برِىء الساحة .

وكذلك فليكُن رأيُك وأمرُكَ فيمَن طرَأَ عليك من الوُفُود ، وأتاك من الرُّسل ، فلا يصلَنَّ أحدٌ منهم إلا بعد وُصُول علمه إليك ، وعِلْمِ ما قَدِمَ له عليك ، وجهةِ ما هو مكلِّمُك به ، وقَدْرِ ماهو سائِلُك إياه إذا هو وَصَلَ إليك ، فأصدرتَ رأيَك فى حوائجه[7] وأجَلْتَ فكرك فى أمره ، واخترتَ مُعتزِمًا على إرادتك فى جوابه[8] ، وأنفَذتَ مَصْدورَ رَوِيَّتك فى مرجوع مسألته ، قبل دخوله عليك ، وعلمه بوصول حاله إليك ، فرفَعْتَ عنك مَئُونة البديهة ، وأرخيتَ عن نفسك خِناقَ[9] الرويَّة ، وأقدَمْتَ على ردِّ جوابه بعد النظر وإجالةِ الفكر فيه ، فإنْ دخَلَ إليك أحد

(١) بدهه بالأمر كمنعه : استقبله به مفاجأة . (٢) أراد : نصبته كالهدف .

(٣) الطلبة : ما طلبته . (٤) صفح السائل وأصفحه : رده .

(٥) تجهمه وتجهم له : استقبله بوجه كريه ، وهذه الجملة وما بعدها ساقطة من المنظوم والمنثور.

(٦) اللائمة : اللوم .

(٧) فى المنظوم والمنثور « فى جوابه » . (٨) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور .

(٩) الخناق : الحبل يخنق به .

منهم فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتبك ، وطوى عنه حاجته قِبلك ، دفعته عنك دفعاً جميلاً ، ومنعته جوابك منعاً وديعاً[١] ، ثم أمرت حاجبك بإظهار الجفوة له والغلظة عليه ، ومنعه من الوصول إليك ، فإنّ ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب ، صارفاً عنك مئونتها ، ومسهّلا عليك مستصعبها[٢] ، إن شاء الله .

احذر تضييع رأيك ، وإهمالك أدبك في مسالك الرضا والغضب ، واعتوارها[٣] إياك ، فلا يزدهينّك إفراط عُجب تستخفك روائعه[٤] ، ويستهويك منظره ، ولا يبدرنّ منك ذلك خطأً ونزق خفّة لمكروه إن حلّ بك أو حادث إن طرأ عليك ، وليكن لك من نفسك ظهريٌّ ملجأً تتحرّز به من آفات الردى ، وتستعهده[٥] في مهمٍّ نازل ، وتتعقّب به أمورك في التدبير ، فإن احتجت إلى مادّة من عقلك ، ورويّة من فكرك ، أو انبساط من منطقك ، كان انحيازك إلى ظهريّك مُزدادا مما أحببت الامتياح منه[٦] والامتيار ، وإن استدبرت[٧] من أمورك بوادرُ جهل ، أو مضى زلل ، أو معاندةُ حق ، أو خطلُ تدبير ، كان ما احتجنت[٨] من رأيك عذرا لك عند نفسك ، وظهريا قويًّا على ردّ ما كرهت ، وتخفيفا لمؤنة الباغين عليك في القالة وانتشار الذكر ، وحصنا من غلوب الآفات عليك ، واستعلائها على أخلاقك .

وامنع أهلَ بطانتك وخاصّة خدمك وعامّة رعيّتك من استلحام[٩] أعراض

---

(١) في المنظوم والمنثور « منعا ودفعا » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور . (٣) أي تداولها .

(٤) جمع رائع ، من راعه الشيء إذا أعجبه ، واستهواه ، استماله .

(٥) استعهد فلانا من نفسه : ضمنه حوادث نفسه ، وفي صبح الأعشى « وتستعضده » وفي كتب اللغة : اعتضد به : استعان به ، أقول والاستعضاد كالاستعانة : أي تتخذه عضدا لك .

(٦) امتاح : استقى ، وامتار لأهله : جلب لهم الميرة بالكسر أي الطعام .

(٧) هكذا في الأصول التي نقلت منها ، ولعل صوابه « أدبرت » بمعنى وقعت ولا يستطاع تلافيها ، ويستأنس لذلك بقوله بعد « أو مضى زلل » أو صوابه ابتدرت أي ابتدرتك بوادر جهل ، وابتدره الأمر عاجله ، والبادرة : مايبدر من حدتك في الغضب من قول أوفعل .

(٨) من احتجن المال : أي ضمه واحتواه . (٩) معناه أكل لحومهم بالغيبة ، وفي كتب اللغة استلحم الطريدة : تبعها ، واستلحم الطريق : ركب أوسعه واتبعه .

الناس عندك بالغِيبة ، والتقرب إليك بالسِّعاية ، والإغراء من بعض ببعض ، والنَّميمة إليك بشيء من أحوالهم المستَتِرَة عنك ، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهَب الشفقة ، فإن ذلك أبلغُ بك سُموًا إلى مَنال الشرف ، وأعونُ لك على محمود الذكر ، وأطلقُ لعِنان الفضل ، فى جزالة الرأى ، وشرفِ الهمّة ، وقوة التدبير .

وأملك نفسك عن الانبساطِ فى الضحك والانفِهاق[1] ، وعن القُطوب بإظهار الغَضَب وتنحُّلِه ، فإن ذلك ضَعْفٌ عن ملك سَوْرة[2] الجهل ، وخروج من انتحال أُسم الفضل ، وليكن ضحكك تبسُّما أو كَشْرًا[3] فى أحايينِ ذلك وأوقاته ، وعند كل رائعٍ مستخِفٍّ مُطْرِب[4] ، وقُطُوبُك إطراقا فى مواضع ذلك وأحواله ، بلا عَجَلة إلى السَّطْوة ، ولا إسراعٍ إلى الطِّيَرَة ، دون أن يكنُفَها رويَّةُ الحلم ، وتملُّكَ عليها بادرةُ الجهل .

إذا كنت فى مجلس مَلائك وحيثُ حضورُ العامة مجلسَك ، فإياك والرميَ ببصرك إلى خاصٍّ من قوّادك ، أو ذى أُثْرَة[5] عندك من حَشَمك ، وليكن نظرك مقسوما فى الجميع ، وإعارتُك[6] سَمْعَك ذا الحديث بِدَعَةٍ هادئة ووقارٍ حَسَن ، وحضور فَهْمٍ مستجمِعٍ ، وقلة تضجُّرٍ بالمحدِّثِ ، ثم لا يَبْرَحُ وجهُك إلى بعض قُوّادك وحرَسك متوجِّها بنظر ركين ، وتفقُّدٍ مَحْضٍ ، فإن وَجَّه إليك أحد منهم نظره مُحَدِّقا[7] ، أو رماكَ ببصره مُلحًّا ، فاخفِضْ عنه إطراقًا جميلا باتِّداع[8] وسكون ، وإياك والتسرعَ فى الإطراق ، والخِفَّةَ فى تصريف النظر ، والإلحاحَ عَلَى من قصد إليك فى مخاطبته إياكَ رامِقًا بنظره .

---

(١) انفهق الشىء : اتسع ، وقطب كضرب قطبا وقطوبا . زوى ما بين عينيه وكلح كقطب ، وانتحل قول غيره وتنحل : ادعاه لنفسه . (٢) ملك مثلث الميم مصدر ملك ، وسورة الجهل : حدته . (٣) كشر عن أسنانه كضرب كشرا : أبدى ، يكون فى الضحك وغيره ، وفى المنظوم والمنثور « أو كبرا » وهو تحريف .

(٤) وفيه « وعند كل رأى ملين ومستخف مطرب » وهو تحريف .

(٥) ذى أثرة بالضم والكسر وأثرة بالتحريك : أى من اختصصته بفضلك وقدمته .

(٦) أعاره سمعه : أصغى إليه ، وفى صبح الأعشى ومفتاح الأفكار « وإراعتك » وهو تحريف .

(٧) حدق إليه بالنظر : شدد النظر إليه ، وفى المنظوم والمنثور « محدثا » .

(٨) وفيه « بإبداع » وهو تحريف .

واْعلم أن تصفُّحَك وجوهَ جُلَسَائِكَ ، وتفقُّدك مجالِسَ قُوَّادِكَ[١] ، من قوّة التدبير، وشَهامة القلب ، وذكاء الفِطْنةِ ، وانتباه السِّنَة ، فتفقَّدْ ذلك عارفاً بمن حَضَرَكَ وغاب عنك ، عالماً بمواضعهم من مجلسك ، ثم اغدُ بهم عن ذلك ، سائلا لهم عن أشغالهم التى مَنعتْهم من حضور مجلسك ، وعاقتْهم بالتخلُّفِ عنك إن شاء الله .

إن كان أحد من حَشَمك وأعوانك تَثقُ منه بغَيب ضَمير ، وتعرِفُ منه لِين طَاعةٍ ، وتُشْرِف منه على صِحّة رأى ، وتأمنه عَلَى مَشُورتك ، فإياك والإقبالَ عليه فى كل حادث يَرِد عليك ، والتوجُّهَ نحوَه بنظرك عند طَوارِق ذلك ، وأن تُرِيَه أو أحداً من أهل مجلسك أنَّ بِكَ إليه حاجةً مُوحِشة، وأنْ ليس بك عَنْهُ غِنًى فى التدبير ، أو أنك لا تَقْضِى دونَه رأيا ، إشراكا منك له فى رويّتِك ، وإدخالا منك له فى مَشورتك واضطراراً منك إلى رأيه فى الأمر يَعْرُوكَ[٢] ، فإن ذلك من دخائل العيوب التى ينتشر بها سوء القالَة عن نُظرائك ، فانفِها عن نفسك خائفا لاعْتِلاَقِها[٣] ذِكرَكَ ، واحجُبْها عن رَوِيّتك، قاطِعاً أطماعَ أوليائك عن مثلها عندك ، أو غُلُوِّهم عليها منك

واْعلم أن للمشورة موضعَ الخَلوة وانفرادَ النظر ، ولِكل[٤] أمر غاية تحيط بحدودِه وتجمَعُ مَعالِمَهُ ، فابغِها مُحْرِزا لها ، ورُمْها طالبا لنيلها[٥] ، وإياك والقصورَ عن غايتها ، أو العجزَ عن دَرْكها ، أو التفريطَ فى طلبها إن شاء الله تعالى .

إياك والإغرامَ[٦] بكثرة السؤال عن حديثٍ مَّا أعجبَك ، أو أمرٍ مّا أزدهاكَ ، أو القطعَ لحديثِ مَنْ أرادك بحديثه حتى تنقُضَه عليه بالخَوضِ فى غيره ، أو المسألة عما ليس منه ، فإن ذلك عند العامة منسوبٌ إلى سُوءِ الفهم ، وقِصَرِ الأدب عن تناول

---

(١) وفى المنظوم والمنثور « واعلم أن تصفحك وجوه قوادك ، من قوة التدبير ، وشهامة القلب ، فتفقد ذلك ... » . (٢) أى يعتريك وينزل بك ، وفى المنظوم والمنثور « واضطرارا إلى رأيه » .

(٣) اعتلقه : تعلق به ، وفى المنظوم والمنثور « لاعتقالها ذكرك » .

(٤) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور . (٥) فيه «طالباً لسانها، وإياك والقصور عن غايتها والإفراط فى طلبها » . (٦) أغرم بالشىء : أولع به .

محاسن الأمور والمعرفة بمساوئها، ولكن أنصِتْ لمحدِّثك، وأرْعِهِ سمعَك، حتى يعلمَ أنكَ قد فهِمتَ حديثه، وأحطْتَ معرفةً بقوله، فإن أردت إجابته فمن معرفةٍ بحاجته وبعد علم بطَلِبته، وإلاَّ كنتَ عند انقضاء كلامه كالمتعلِّل[١] من حديثه بالتبسُّم والإغضاء، فأَجْزى[٢] عليك الجواب، وقطَع عنك ألسُنَ العَتْبِ.

إياك وأن يَظْهرَ منك تبرُّم بطُول مجلسك، وتضجُّرٌ ممَّنْ حضَرَكَ، وعليك بالتثبُّت عند سوْرة الغضب، وحَمِيّة الأَنف، ومَلاَل الصبر فى الأمر تستعجل به، والعملِ تأمُرُ بإنفاذه، فإن ذلك سُخْف شأن[٣]، وَخِفَّةٌ مُرْدية، وجَهالة بادية، وعليك بثُبوتِ المنطقِ، ووَقارِ المجْلس، وسُكون الريح، والرفْضِ لحَشْو الكلام، والترك لفضوله، والإغْرَامِ[٤] بالزيادات فى منطقك، والترديد للفظك من نحو: اسمع، وافهم عنى، ويا هَنَاه[٥]، وألا ترى. أو ما يُلْهَج به من هذه الفضول المقصِّرة بأهل العقل، الشائنة لذوى الحجا فى المنطق[٦]، المنسوبة إليهم بالعِىِّ، المُردية لهم فى الذِّكر.

وخِصَالٌ من مَعَايب الملوك، والسُوقَةُ عنها غَبِيَّةُ النظر[٧] إلاَّ مَنْ عرَفها من أهل الأدب، وقلَّما حامِلٌ لَهَا، مُضْطلِع[٨] بها، صابر على ثِقْلها، آخذٌ لنفسه

---

(١) فى صبح الأعشى «كالمتعجب».

(٢) مسهل عن أجزأ: أى أغنى.

(٣) فى المنظوم والمنثور «سخف سائر».

(٤) معطوف على فضوله: أى وعليك بالترك للإغرام بالزيادات الخ».

(٥) هن: كلمة يكنى بها عن اسم الإنسان، فإذا ناديت مذكرا بغير التصريح باسمه قلت: ياهن أقبل، ولك أن تدخل فيه الهاء فتقول ياهنه (بفتح النون وسكون الهاء) كما تقول له وماليه، ولك أن تشبع الحركة فتتولد الألف فتقول ياهناه أقبل (وتزاد الألف والهاء فى آخره فى النداء خاصة) وهذه الهاء تصيرتاء فى الوصل، وتضم على تقدير أنها آخر الإسم وتكسر لاجتماع الساكنين، ولك أن تقول ياهناه أقبل بهاء مضمومة، وفى المنظوم والمنثور «من نحو اسمع أو اعجل أو ألا ترى».

(٦) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور.

(٧) فيه «والسوقة عيبها عند النظر» وهو تحريف.

(٨) أى قوى على احتمالها، والثقل: الحمل الثقيل.

بجَوَامِعِها ، فانفِها عن نفسك بالتحفظ منها ، واملكْ عليها اعتيادك[1] إياها معتذيا بها، منها كثرةُ التنخُّم والتبصُّق والتنخُّع والثُّؤَباء والتمطِّى والجُشاء وتحريك القدَم وتنقيض الأصابع والعبث بالوجه واللحية والشارب والمِخصَرة وذُؤابة السيف ، والإيماضُ بالنظر والإشارةُ بالطرْف إلى أحد من خدمك بأمر إن أردتَه ، والسِّرارُ فى مجلسك ، والاستعجالُ فى طَعْمك وشُرْبك ، وليكن طَعْمُكَ مُتَّدِعا[2]، وشربُكَ أنفاسا، وجَرْعُكَ مَصًّا ، وإياكَ والتسرعَ إلى الأَيمانِ فيما صغُر أو كبُرَ من الأمور ، والشتيمة بقول : يا هَنَاهُ[3] ، أو الغميزة[4] لأحد من خدمك وخاصَّتك ، بتسويغهم مُقَارفَةَ الفسوق بحيثُ يحضَرُكَ أو دارُكَ وفِناؤُكَ ، فإن ذلك كله مما يقبُح ذكره ، ويسوء موقعُ القول فيه ، وتُحْمَلُ عليك مَعايبُه ، وينالك شَيْنُه ، ويُنْشَرُ عنك سوءُ نبَثه ، فاعرِف ذلك متوقِّيا له، واحذرْهُ مُجانبا لسوء عاقبته .

استكثِرْ من فوائد الخير ، فإنها تَنْشُر المَحْمَدة ، وتُقيل العَثْرة ، واصطبِر على كَظْم الغيظِ ، فإنه يُورِثُ الراحة[5] ، ويُؤَمِّن الساحَةَ ، وتعهَّد العامَّةَ بمعرفة دَخْلهم ، وتبطُّن[6] أحوالهم ، واستِثارة دفائنهم ، حتى تكون منها على مَرْأى العَيْن ، ويقين الخِبْرة ، فتُنعشَ عديمَهم ، وتَجبُرَ كَسيرهم ، وتُقيمَ أَوَدَهم ، وتعلِّمَ جاهلهم ، وتستصلِح

---

(١) فى المنظوم والمنثور « واملك عنها اعتقادك معيبا بها بكثرة التنخم والتبزق والتنحنح والتثاؤب والجشاء والتمطى وتنقيض الأصابع وتحريكها والعبث باللحية والشارب... الخ» وتنخم : دفع بشىء من صدره أو أنفه، وبصق وبسق وبزق واحد ،والبصاق والبساق والبزاق كذلك ، وتنخع: رمى نخامته ـ والنخامة والنخاعة بالضم : مايخرج من الصدر أو من الخيشوم ، والثؤباء : التثاؤب ، قال مصحح القاموس : ونقل صاحب المبرز عن ابن مسحل « أنه يقال ثوباء بالضم فالسكون» نقله الفهرى وغيره ، وهو غريب » والجشاء : اسم من التجشؤ وهو تنفس المعدة ، وفى كتب اللغة: أنقض أصابعه : ضرب بها لتصوت،أقول: ونقض المضعف كأنقض المهموز ، والمخصرة : عصا صغيرة يشير بها الملك إذا خاطب ، وذؤابة السيف : علاقة قائمة ، وأومض : سارق النظر وأشار إشارة خفية، والسرار: المسارة،وطعمه كسمعه طعماوطعاما.

(٢) وفى المنظوم والمنثور « مبتدعا » وهو تحريف .

(٣) فى صبح الأعشى « يقول : يابن الهناة » وفى المنظوم والمنثور « بابن الهيبة » .

(٤) معناها هنا الإطماع ، يقال فى هذا الأمر غميزة ومغمز : أى مطمع (أو مطعن أيضا) .

(٥) فى المنظوم والمنثور « يورث العز » . (٦) فيه « وينظر أحوالهم » .

فاسدهم ، فإن ذلك من نعلك بهم يُورِثك العِزّةَ ، ويقدّمك فى الفضل ، ويُبقى لك لِسانَ صِدْق فى العاقبة[١] ، ويُحْرِز لك ثوابَ الآخرة ، ويردُّ عليك عواطِفَهم المستغفِرة منك ، وقلوبَهم المتنحيَّة[٢] عنك .

قِس[٣] بين منازل أهل الفضل فى الدين والحِجا والرأى والعقل والتدبير والصِّيتِ فى العامة ، وبين منازل أهل النَّقص فى طَبَقات الفضل وأحواله ، والخمولِ عند مُباهاةِ النسب[٤] ، وانظر بصُحبة أيِّهم تنالُ من مودّته الجميلَ ، وتستجْمع لك أقاويل العامّة على التفضيل ، وتبلُغُ درجة الشرف فى أحوالك المتصرّفة بك ، فاعتَمد عليهم مُدْخِلا لهم فى أمرك ، وآثِرْهم بمجالستك لهم مستمعا منهم ، وإياك وتضييعَهم مُفرِّطا ، وإهمالَهم مضيِّعا .

هذه جوامعُ خِصال قد لخّصَها لك أميرُ المؤمنين مفسِّرا ، وجمع لك شَوَاذَّها[٥] مُؤَلِّفا ، وأهداها إليك مُرْشِدا ، فقِفْ عند أوامرها ، وتَناهَ عنْ زواجرها ، وتثبَّتْ فى مجامِعها ، وخذ بِوَثائقِ عُراها ، تسلَمْ من مَعاطِب الرَّدَى ، وتَنَلْ أَنْفَسَ الحظوظ ، ورغيبَ[٦] الشرف ، وأعلى دَرَج الذِّكر ، وتُؤَثِّلْ سَطْوَةَ العز[٧] ، واللهَ يسأل لك أميرُ المؤمنين حُسْنَ الإرشاد ، وتتابُعَ المَزِيد ، وبلوغ الأمل ، وأن يجعل عاقبَةَ ذلك بِكَ إلى غِبْطةٍ يسوِّغُك إياها ، وعافيةٍ يُحِلُّك أكنافها ، ونعمةٍ يُلهِمك شكرها ، فإنه الموفِّق للخير ، والمُعين على الإرشاد ، منه تمامُ الصالحات ، وهو مُؤْتِى الحسنات ، عنده مفاتيحُ الخَيرِ وبيده الملك ، وهو على كل شىء قدير .

---

(١) فيه « فى العامة » . (٢) فيه « المستجنة » . (٣) فيه « فبين » .
(٤) فيه «والجمود عند مناها بأهل الحسب ونظر فصيحة أمهم تنال مودة الجميع » والعبارة محرفة .
(٥) فيه « شواهدها » والأولى أصح وأنسب لقوله « مؤلفا » .
(٦) فيه « ومزية الشرف » والرغيب : المرغوب فيه .
(٧) وردت هذه الجملة فى صبح الأعشى ، هكذا « وتأثل سطر العز » مع علامة توقف ، وقد صلحتها كما ترى ، وأثله : أصله وقواه .

فإذا أفضيتَ نحوَ عدُوِّك ، واعتزمتَ على لقائهم ، وأخذتَ أُهْبَةَ قتالِهم ، فاجعل دِعَامَتَكَ التى تلجأ إليها ، وثِقَتَك التى تأمُلُ النجاةَ بها ، ورُكْنَكَ الذى ترتجى به مَنالة الظفرِ ، وتَكتهِف[1] به لِمَالِقِ الحذَرِ ، تقوَى الله عز وجل ، مستَشْعِراً لها بمراقبته ، والاعتصام بِطاعته ، متبِعا لأمره ، مجتنباً لسُخطه ، محتذيا سُنَّته ، والتوقِّىَ لمعاصيه فى تعطيل حدوده ، وتعدِّى شرائعه ، متوكِّلا عليه فيما صَمَدْتَ[2] له، واثقاً بنصره فيما توجَّهْتَ نحوه ، متبرِّئاً من الحوْل والقوة فيما نالك من ظفر ، وتلقَّاكَ من عز ، راغبا فيما أهاب[3] بك أميرُ المؤمنين إليه من فضل الجهاد ، ورَمَى بك إليه ، محمودَ الصبر فيه عند الله عز وجل من قتال عدوِّ الله للمسلمين ، أكْلَبِه[4] عليهم ، وأظهره عداوةً لَهُم ، وأفدَحِه ثِقلاً لعامَّتهم ، وآخَذِه بِرِبْقِهم[5] ، وأعلاه عليهم بغيا ، وأظهَرِه فيهم فسقا وجوْرًا ، وأشدِّه على فيئهم الذى أصاره الله لهم[6] وفتحَه عليهم مئونة وكَلاًّ[7] والله المستعان عليهم ، والمستَنصر على جماعتهم ، عليه يتوكل أميرُ المؤمنين ، وإياه يستصرخُ عليهم ، وإليه يفوِّض أمرَه ، وكفى بالله وليًّا وناصراً ومعينا ، وهو القوى العزيز .

ثم خُذْ مَنْ معك من تُبَّاعك[8] وجُنْدِك بكفٍّ مَعَرَّتِهم ، وردِّ مُشْتعِلِى جَورهم[9] ، وإحكامِ خَلَلِهم ، وضَمِّ منتشِر قَوَاصِيهم ، ولَمِّ شَعَثِ أطرافهم ،

---

(١) معناه : وتتحصن به ، واشتقاقه من الكهف وهو الوزر والملجأ ، يقال : فلان كهف أهله أى ملجأ لهم . (٢) صمده وصمد إليه قصده ، ومنه الصمد بالتحريك : أى السيد الذى يصمد إليه فى الحوائج .

(٣) أهاب به : دعاه ، من أهاب بالإبل ، إذا دعاها بقوله : هاب هاب.

(٤) أى أشدهم عليه وآذاهم له يقال: كلب الدهر كفرح كلبا بالتحريك: إذا ألح عليهم ، واشتد، وكلب الشتاء : إشتد أيضاً ، ودفعت عنك كلب فلان : أى شره وأذاه .

(٥) الرق بالكسر : حبل فيه عدة عرى تشد به البهم ، كل عروة ربقة بالكسر والفتح .

(٦) فى المنظوم والمنثور « أصاده الله لهم مئونة » وما بعد ذلك ساقط .

(٧) الكل : الثقل .

(٨) تباع جمع تابع ، وفى المنظوم والمنثور « من تبعك » .

(٩) فى صبح الأعشى « ورد مشتعل جهلهم ، وإحكام ضياع عملهم » .

وخُذهم[١] بمن مرُّوا به من أهل ذمتك وملّتك بحُسن السّيرة ، وعفّة الطُّعْمة ، وَدَعَةِ الوقار ، وهَدْى الدَّعَة ، وجَمامِ[٢] النفس ، مُحْكما ذلك منهم ، متفقّداً لهم فيه تفقُّدَك إياه من نفسك .

ثم اصمُد[٣] لعدوّك المتسمّى بالإسلام خارجاً من جماعة أهله ، المنتحل ولاية الدين مستحِلاً لدماء أوليائه ، طاعِناً عليهم ، راغباً عن سُنَّتهم ، مفارقا لِشرائعهم ، يَبْغيهم الغَوائلَ ، وينْصِبُ[٤] لهم المكايدَ ، أضْرَمُ حِقْداً عليهم ، وأرْصَدُ عداوةً لهم ، وأطلَبُ لِغِرّات فُرَصِهم من التُّرك[٥] وأمم الشِّرك وطَوَاغِي المِلَل ، يدعُو إلى المعصية والفُرْقة والمرُوق من دين الله إلى الفتنة ، مخترِعاً بهَواه الأدْيانَ المنتحَلَة، والبِدَع المتفرِّقة ، خَساراً وتخسيراً ، وضلالا وإضلالا ، بغير هُدًى من الله ولا بيان ، ساء ما كَسَبَتْ يداه، وما الله بِظَلّامٍ للعَبيد، وساءَ ماسوَّلَتْ له نفسُه الأمَّارَةُ بالسوء ، والله من ورائه بالمِرْصاد ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنقَلِبُون .

حَصِّنْ[٦] جندك ، واشكُمْ نفسَك بطاعة الله فى مجاهدة أعدائه ، وارْجُ نصره ، وتنجَّزْ موعودَه ، متقدِّما فى طَلَب ثوابه على جهادهم ، معتَزِما فى ابتغاء الوسيلة إليه على لقائهم ، فإنَّ طاعتَك إياه فيهم ، ومُراقبتَك له ، ورجاءَك نَصْره ، مسهِّلٌ لك وُعُورَه[٧] ، وعاصِمُك من كل سُبَّة[٨] ، ومنجيك من كل هُوَّة ، وناعِشُك[٩] من كل صَرْعة، ومُقيلُك من كل كَبْوة ، ودارئٌ[١٠] عنك كلَّ شُبْهة ، ومُذْهِبٌ عنك لَطخَةَ

---

(١) فيه « وتقييدهم عمن مروا به » . (٢) فيه « وجام المستجم » والجمام : الراحة،وجمماؤه واستجم : كثر واجتمع . (٣) ورد هذا الفعل فى لسان العرب من باب ضرب ، وفى مختار الصحاح من باب نصر .

(٤) وهذا الفعل أيضاً ورد فى اللسان ومختار الصحاح والمصباح من باب ضرب وفى القاموس « ونصبه المرض ينصبه بالكسر : أوجعه ، والشيء وضعه ورفعه » وعلى هامشه « أى ونصب الشيء من باب كتب فليس من باب ماقبله » قاله الشيخ نصر ، فتأمل .

(٥) وفى المنظوم والمنثور « وأرصد عداوة لهم من الترك . الخ » .

(٦) فى المنظوم والمنثور « حض جندك » . (٧) وفيه « وعوده » وهو تحريف .

(٨) وفيه «سيئة» . (٩) يقال : نعشه الله كمنعه وأنعشه ونعشه : أى رفعه . (١٠) أى دافع .

كلِّ شك ، ومُقوِّيك بكل أيدٍ[1] ومَكيدة ، ومُعِزُّك فى كل مُعتَرَك[2] قتالٍ ، ومؤيِّدك فى كل مَجمَع لقاء ، وَكالِئُك عند كلِّ فتنةٍ مُغْشِية[3] ، وحافظك[4] من كل شبْهة مُرْدِية ، واللهُ وليُّك وَوَلىُّ أميرالمؤمنين فيك ، والمستخلَف على جندك ومن معك[5] .

اعلم أن الظَّفَر ظَفَرَان : أحدهما ـ وهو أعمُّ منفعةً ، وأبلغُ فى حُسْنِ الذكر قالةً ، وأحْوَطُه سلامةً وأتمُّه عافيةً ، وأعودُه[6] عاقبةً ، وأحسن فى الأمور مَوْرِدا ، وأعلاه فى الفضل[7] شرفا ، وأصحُّه فى الروية[8] حَزْما ، وَأَسْلَمُه عند العامّة مَصْدراً ـ ما نِيلَ بسلامة الجنود ، وَحُسْن الحيلة ، ولُطْفِ المَكيدة ، وَيُمْنِ النَّقيبة[9] ، واستنزالِ طاعة ذوى الصُّدوف[10] ، بغير إخطار[11] الجيوش فى وَقْدَة جَمْرة الحرب ، ومنازلة[12] الفُرْسان فى معْتَرَكِ الموت ، وإن ساعدك الحظُّ ، ونالك مزيّة السعادة فى الشرف ، ففى مُخاطرة التَّلَف مكروهُ المصائب ، ومضاضُ السيوف ، وألَمُ الجراح ، وقِصَاصُ الحروب وسجَالها[13] بمُغَاورة أبطالها ، على أنك لا تدرى لأىِّ الفريقين

(١) الأيد : القوة ، آديئيد : اشتد وقوى .

(٢) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور .

(٣) وهذه أيضاً ، وكلأه كمنعه كلأً بالفتح وكلاءة وكلاء بالكسر: حرسه وحفظه ، ومغشية أى مغطية للأبصار ، يقال غشى الله على بصره وأغشى ، ومنه قوله تعالى: (فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) أو هى (مغسية) بالسين من أغسى الليل إذا أظلم : أى فتنة مدلهمة سوداء ، أو هى « معشية » بالعين أى تعشى البصر فلا يهتدى إلى طريق الخلاص منها .

(٤) وفى صبح الأعشى « وحائطك » أى سندك .

(٥) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور . (٦) هذه ساقطة من صبح الأعشى .

(٧) ساقطة من المنظوم والمنثور . (٨) فى المنظوم والمنثور «فى الرواية» « وأسهله» وهو تحريف . (٩) النقيبة : النفس . (١٠) ساقطة فى المنظوم والمنثور ، وصدف عنه: أعرض.

(١١) معناه إيقاعهم فى الخطر .

(١٢) فى صبح الأعشى « ومبارزة » وفيه « وإن ساعدتك طلوق الظفر » والظاهر أنه « وإن ساعدك » بدون تاء التأنيث ، والطلوق معناه الانطلاق ، يقال : أطلقت الناقة فطلقت أى حل عقالها ، وأطلقت الإبل إلى الماء حتى طلقت (كنصر) طلقا وطلوقا أى توجهت إلى الماء .

(١٣) يقال : الحرب بينهم سجال : أى نصرتها متداولة بينهم ، وأصلها من السجل بالفتح وهو الدلو العظيمة مملوءة : أى سجل منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء ، والمغاورة مفاعلة من الإغارة ، وفى حديث قيس بن عاصم « كنت أغاورهم فى الجاهلية » أى أغير عليهم ويغيرون علىّ ، وتغاور القوم : أغار بعضهم على بعض .

يكون الظفرُ فى البَديهة ، ومَنِ المغلوبُ بالدَّولة[١] ؟ ولعلك أن تكون المطلوبَ بالتمحيص ، فحاوِل إصابةَ أبلغهما فى سلامة جُندك ورعيَّتك ، وأشهرِهما صيتا فى بدوِّ تدبيرك ورأيك[٢] ، وأجمَعِهما لِألفة وَلِيِّك وعدوِّك ، وأعونِهما على صلاح رعيَّتك وأهْلِ ملتك ، وأقواهما شكيمةً فى حزمك ، وأبعدِهما من وصْم عزمك ، وأعلَقِهما بزمام النجاة فى آخرتك[٣] ، وأجزَلِهما ثوابا عند ربك ، وابدأ بالإعذار إلى عدوك ، والدُّعاءِ لَهُم إلى مراجعة الطاعة ، وأمر الجماعة ، وعِزِّ[٤] الألفة ، آخذا بالحجة عليهم ، متقدما بالإنذار لهم ، باسطاً أمانَك لمن لجأ إليك منهم ، داعياً لَهُم بألْيَن لفظك[٥] ، وألطف حِيَلك ، متعطِّفاً برأفتك عليهم ، مترفِّقاً بهم فى دعائك ، ومُشْفِقا عليهم من غَلَبة الغَواية لَهُم ، وإحاطةِ الهَلَكة بهم ، مُنْفِذاً رسلَك إليهم بعد الإنذار ، تَعِدُهم إعطاء كل رغبةٍ يَهَشُّ إليها طَمَعَهُم فى موافقة الحق ، وبَسْطَ كلِّ أمانٍ سألوه لأنفسهم ومَنْ معهم ومن تَبِعهم ، موطِّناً نفسك فيما تبسُطُ لَهُم من ذلك على الوفاء بوعدكَ ، والصبرِ على ما أعطيتَهم من وَثائقِ عهدك ، قابلاً توبةَ نازِعهم[٦] عن الضلالة ، ومراجعةَ مسيئِهم إلى الطاعة ، مُرْصِداً للمُنْحاز إلى فِئة المسلمين وَجماعتِهم إجابةً إلى ما دعوته إليه ، وبَصَّرته إياه من حقِّك وطاعتك ، بفضل المنزلة ، وإكرام المَثْوَى ، وتشريف الجاه[٧] وَلْيَظْهَرْ من أثرك عليه وإحسانك إليه ما يرغَبُ فى مثله الصَّادِفُ عنك ، المُصِرُّ على خلافك ومعصيتك ، ويدعُو إلى الاعتِلاق بحَبْل النجاة ، وما هو أَملَكُ به فى الاعتصام عاجلاً ، وأنجَى له من العقاب آجلاً ، وأحوطُ على دينه ومُهْجَته بدْءا وعاقبةً ، فإن ذلك مما تَستَدعِي به من الله عزَّ وجل نَصْرَهُ عليهم ، وتعتضِدُ[٨] به فى تَقْدِمة الحُجَّة إليهم ، مُعْذِراً ومُنْذِراً إن شاء الله .

---

(١) الدولة فى الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى ، يقال : كانت لنا عليهم الدولة : أى الغلبة والنصرة . (٢) وفى المنظوم والمنثور « فى بدى رأيك » . (٣) ساقطة من المنظوم والمنثور.
(٤) فيه « وعرى الألفة » . (٥) فيه « لطفك » . (٦) نزع عن الأمر : كف .
(٧) وفيه « الحال » . (٨) فيه « وتعتصم » .

ثم أذْكِ[1] عيونك على عدوِّك ، مُتَطَلِّعًا لِعِلْمِ أحوالهم التى يتقلَّبون فيها، ومنازِلهِم التى هم بها ، ومطامِعِهم التى قد مَدُّوا أعناقهم نحوها، وأىُّ الأمور أَدْعَى لهم إلى الصلح، وأقوَدُها لِرِضاهم إلى العافية ، وأسهَلُها لاستنزال طاعتهم[2] ، ومن أىِّ الوُجوه مَأْتاهم. أمِنْ قِبل الشدة والمنافرة والمَكيدة والمُباعدة والإرهاب والإيعاد، أو الترغيبِ والإطماع؟ متثبِّتاً[3] فى أمرك ، متخيِّرا فى رَوِيَّتك، مستَمْسِكاً من رأيك، مستَشيرا لذوى النصيحة، الذين قد حنَّكتهم السِّنُّ ، وخَبَطتهم التجرِبة[4] ، ونَجَّذَتْهم[5] الحروبُ ، مُتَشَزِّناً[6] فى حربك ، آخِذا بالحزم فى سُوء الظن ، مُعِدًّا للحَذَر ، محترساً من الغِرَّة ، كأنكَ - فى مَسيرِكَ كلِّه ونزُولِك أجْمَعَ[7] - مُواقِفٌ لعدوك رَأْىَ عَيْنٍ ، تنتظِرُ حَمَلاتِهم ، وتتخوَّف كَرَّاتِهم[8] ، مُعِدًّا أقوى مكايدك ، وأوهَبَ عَتادِك[9] ، وَأَنْكَأَ جِدِّك ، وأَجَدَّ تشميرِك ، معظِّماً أمر عدوك لأعظَمَ مما بَلَغَك ، حَذَراً يكاد يُفرِط ، لِتَعُدَّ له من الاحتراس عظيما ، ومن المكيدة قَويا ، من غير أن يَفْتَأَك[10] ذلك عن إحكام أمورك ، وتدبير رأيك ، وإصدار رويتك ، والتأهب لما يَحْزُبُك[11] ، مصغِّراً له بعد استِشعار الحذر ، واضطِمار[12] الحزم، وإعمال الرويّة ، وإعداد الأُهْبة ، فإن أَلفيتَ عدوَّك كَليلَ

---

(١) أذكى عليه العيون أرسل عليه الطلائع .

(٢) هذه ساقطة من المنظوم والمنثور . (٣) فيه « مستنا » وهو تحريف .

(٤) فيه « الذين قد حنكتهم التجربة » . وحنكته السن : أحكمته التجارب .

(٥) رجل منجذ : جرّب الأمور وعرفها وأحكمها .

(٦) تشزن للرمى والأمر : استعد له ، وتشزن له : انتصب له فى الخصومة وغيرها.

(٧) فى المنظوم والمنثور « كأنك منزل كله ومنازلك جمع » وهو تحريف .

(٨) فيه « غاراتهم » .

(٩) العتاد : العدة ، ونكأ العدو ونكاه ونكى فيه نكاية: قتل وجرح، وفى المنظوم والمنثور « معدا أقوى مكيدتك ، وأجد تشميرك ، وأرهب عتادك ، معظما لأمر عدوك لأكثرهما . . . يفرط تبعة له من الاحتراس عظيما من المكيدة قويا من غير ... الخ » وهو تحريف .

(١٠) فتأه : سكنه وكسره ، وفتأ القدر : سكن غليانها .

(١١) حزبه الأمر: اشتد عليه ، وفى المنظوم والمنثور « والتأهب لحربك مصغ له » وهو تحريف

(١٢) افتعال من الإضمار ، وفى المنظوم والمنثور « واطمان الحزم » .

الحدِّ ، وقْم الحزم[١] ، نَضِيض[٢] الوَفْر ، لم يضرّك ما اعْتَدَدْتَ له من قوة، وأخذت له من حزم ، ولم يزِدْك ذلك إلا جُرأةً عليه ، وتسرُّعا إلى لقائه ، وإن ألفيتَه متوقِّد الجمْرِ[٣] مستَكْثِفَ الجَمْعِ ، قَوِىَّ التَّبَع ، مُسْتَعْلِىَ سَوْرة الجهل ، مَعَه من أعوان الفتنة وَتَبَع إبليسَ من يُوقِد لَهَبَ الفتنة مسعِّرا ، ويتقدم إلى لقاء أبطالها متسرِّعا ، كنتَ لِأَخْذِك بالحزم ، واستعدادِك بالقوة ، غيرَ مُهِين الجند ، ولا مفرِّط فى الرأى ، ولا متلهِّفٍ على إضاعة تدبير، ولا محتاج إلى الإعداد ، وعجَلةِ التأهُّب مبادرةً تُدْهِشك، وخوفا يُقلْقِلُك ، ومتى تغترَّ بترقيق المرقِّقين[٤] ، وتأخذ بالهُوَيْنَى فى أمر عدوك لتصغير المصغِّرين ، ينتَشِر عليك رأيك ، ويكون فيه انتقاضُ[٥] أمرك ، ووهَنُ تدبيرك ، وإهمالُ الحزم فى جندك، وتضييعٌ له ، وَهُوَ ممكن الإصحار، رَحْبُ المَطْلَب ، قوى العِصْمة، فسيح المضْطَرب ، مع مايدخُلُ رعيَّتك من الاغترار والغفلة عن إحكام أحراسهم[٦] ، وضَبْط مرا كزهم ، لما يَرَوْن فيه من استِنامتِك[٧] إلى الغِرَّة ، ورُكُونك إلى الأمن، وتهاوُنك بالتدبير ، فيعود ذلك عليك فى انتشار الأطراف، وضياع الأحكام، ودُخولِ الوهن ، بما لايُستقالُ محذورُه ، ولا يُدفَع مَخُوفُه .

احفَظ من عُيونك وَجَواسِيسك ما يأتونك به من أخبار عدوِّك ، وإياك ومعاقبةَ أحدٍ منهم على خَبَر إن أتاك به اتَّهمته فيه ، أو سُؤْتَ به ظنا ، وأتاك غيرُهُ بخلافه ، أو أن تُكذِّبَه فيه فتردَّه عليه ، ولعله أن يكُون قد مَحَضَك النصيحةَ وصدَقك الخبر ،

---

(١) وقم مصدر بمعنى المفعول أى موقوم الحزم أى مقهوره، من وقم الدابة إذا جذب عنانها لتكف، ووقمه : قهره وكسره وأذله ، وفى المنظوم والمنثور « وكم النجوم » وهو تحريف .

(٢) نضيض : قليل ، يقال : رجل نضيض اللحم أى قليله ، ونض الماء كضرب : سال قليلا قليلا أو خرج رشحا ، والنضيض : الماء القليل ، والوفر من المال والمتاع : الكثير الواسع ، أى قليل العدة .

(٣) فى صبح الأعشى « متوقد الحرب » .

(٤) رققه وأرقه : ضد غلظه أى جعله رقيقا ضئيلا ، وفى المنظوم والمنثور « ومتى تعزم على ترقيق التوقير » وهو تحريف .

(٥) الانتقاض : الانتكاث . (٦) فيه « عن إحكام أسرارهم » .

(٧) استنام إليه : سكن واطمأن .

وكذبك الأولُ ، أو خرج جاسوسُك الأولُ متقدما قبل وصُول هذا من عند عدوك . وقد أبرمُوا لك أمراً ، وحاولوا لك مَكيدةً ، وأرادوا[١] منك غِرَّة ، فازدلفوا[٢] إليك فى الأُهْبة ، ثم انتقض بهم رأيُهُم ، واختلف عنهم جماعتهم ، فأوردوا[٣] رأيا ، وأحدثوا مكيدة ، وأظهروا قُوة ، وضربوا مَوْعِدا ، وأَمُّوا مَسْلَكا لِمَدَدٍ[٤] أتاهم ، أو قوةٍ حدثَتْ لَهُم ، أو بصيرة فى ضَلَالة شغلتهُم ، فالأحوال بهم متنقِّلة فى الساعات ، وطَوَارق الحادثاتِ ، ولكن الْبَسهم[٥] جميعا على الانتصاح ، وارْضَخْ لهُم المطامِعَ[٦] فإنك لن تستَعْبِدَهم بمثلها ، وعِدْهم جزَالةَ المثاوِبِ[٧] فى غير ما استِنامةٍ منك إلى ترقيقهم أمْرَ عدوك ، والاغترار إلى ما يأتونك[٨] به ، دون أن تُعْمِل رويَّتك فى الأخذ بالحزم ، والاستكثار من العُدَّة ، واجعلهم أوثقَ مَنْ تقدر عليه ، وآمَنَ مَنْ تَسْكُنُ إلى ناحيتِه ، ليكُون ما يُبْرِم عدوُّك فى كل يوم وليلة عندك ، إن استطعت ذلك ، فتنقُضَ عليهم برأيك وتدبيرك ما أبرمُوا[٩] ، وتأتيهم من حيث أمِنُوا[١٠] وتأخذ لَهُم أُهْبة ما عليه أقدمُوا[١١] ، وتستعد لهُم بمثل ما حَذِروا .

واعلم أن جواسيسك وعيونك رُبَّما صَدَقوك ، وربما غشوك ، وربما كانوا لك وعليك ، فنَصَحوا لك وغشوا عدوك ، وغشوك ونصحوا عدوك ، وكثيراً ما يَصْدُقونك ويَصْدُقونه ، فلا تَبدُرَنَّ منك فَرْطةُ عقوبةٍ إلى أحد منهم ، وَلا تَعْجَلْ بسوء الظن

(١) فيه « وازدادوا » وهو تحريف .

(٢) أى اقتربوا وتقدموا ، ومحل هذه الجملة فى المنظوم والمنثور « وإن دفعوا إليك فى الأمر » وصوابه « واندفعوا » . (٣) فى صبح الأعشى « فأرادوا » .

(٤) فى المنظوم والمنثور « لعدد » .

(٥) أى خالطهم وعاملهم والضمير للجواسيس . لابسه : خالطه .

(٦) رضخ له من ماله : أعطاه ، والرضيخة : العطية ، وقيل : العطية المقاربة . وقيل القليلة ، وفى المنظوم والمنثور « وأن صح لهم المطامع » وهو تحريف .

(٧) جمع مثوبة بالفتح وهى الثواب .

(٨) وفيه « والاغترار بما لم يأتوك به » .

(٩) وفيه « مالم يرموا » ورم الشىء كنصر وضرب : أصلحه .

(١٠) فيه « من حيث أقدموا » . (١١) ساقطة من المنظوم والمنثور .

إلى من اتَّهمتَه على ذلك ، واستنزِل نصائحهم بالمِياحَة والمَنالة[١] ، وابسُط من آمالهم فيك ، من غير أن تُرِىَ أحداً منهم أنك أخذتَ من قوله أخْذَ العامل به والمتَّبعِ له ، أو عمِلتَ على رأيه عمَلَ الصادِرِ عنه ، أو رَدَدْته عليه ردَّ المكذِّب به ، المتهم له ، المستخِفِّ بما أتاك منه فتُفْسِدَ بذلك نصيحته ، وتستدعِىَ غشَّه ، وتجترَّ عداوته ، واحذَر أن يُعْرَفوا فى عسكرك ، أو يشار إليهم بالأصابع . وليكن منزِلُهم على كاتب رسائلك . وأمين سِرِّك . ويكون هو الموجِّه لهم . وَالمُدْخِلُ عليك مَن أردتَ مُشافَهَته منهم .

واعلم أن لِعدُوِّك فى عسكرك عيوناً راصدة . وجواسيسَ كامنة[٢] . وأنه لن يقع رأيُه عن مكيدتك بمثل ما تكايده[٣] به ، ويحتال لك كاحتيالك له . ويُعِدُّ لك كإعْدَادِك له فيما تزاوله منه . ويحاوِلُك كمحاولتك إياه فيما تقارِعُه عنه[٤] . فاحْذَر أنْ يشْهَر رجل من جواسيسك فى عسكرك . فيَبْلُغ ذلك عدوَّك . ويعرف موضعه . فيُعِدُّ له المَراصِدَ . ويحْتال له بالمكايد ، فإن ظَفِر به فأظهر عقوبته . كسَرَ ذلك ثِقاتِ عيونك وخَذَلهم[٥] عن تطلُّب الأخبار من معادِنها . واستقصائها من عيونها واستعذاب اجتنائها من ينابيعها[٦] . حتى يصيروا إلى أخْذِها مما عَرَض[٧] من غير الثِّقة ولا المعاينة لَقطاً لها[٨] بالأخبار الكاذبة . وَالأحاديث المُرْجَفة .

واحذر أن يَعرِفَ بعضُ عيونِك بعضا ، فإنك لا تأْمَنُ تواطُؤَهم عليك ، ومُمالأَتَهم[٩]

---

(١) المياحة والميح : الإعطاء ، وفعله كضرب ، وهذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور.

(٢) وفى صبح الأعشى « متجسسة » .

(٣) وفى المنظوم والمنثور « وأن رأيه فى مكيدتك مثل ماتكايده به » .

(٤) المقارعة . المضاربة ، ومن قوله « فيما تزاوله منه ... » إلى قوله « تقارعه عنه » ساقط فى المنظوم والمنثور .

(٥) وفيه « وحوله » وصوابه «وحولهم » .

(٦) وهذه الجملة ساقطة منه . (٧) فيه « عن عرض » .

(٨) فيه « ولا معاينة لنطا لها » وهو تحريف .

(٩) مالأه : شايعه وساعده .

عدوَّكَ ، واجتماعَهم على غشِك ، وتطابُقَهم على كذبك ، وإصفاقَهم[١] على خيانتك ، وأن يُورِّط بعضُهم بعضا عند عدوك ، فأَحْكِم أمْرَهم فإنهم رأسُ مكيدتك ، وقِوامُ تدبيرك ، وعليهم مَدارُ حربك ، وهو أول ظفَرِك ، فاعْمَلْ على حَسب ذلك ، وحيثُ رجاؤُكَ[٢] به ، تنَلْ أمَلَكَ من عدوك ، وقُوتَك على قتاله ، واحتيالَكَ لإصابة غِرّاته[٣] وانتهازِ فُرَصه إن شاء الله .

فإذا أحْكَمْتَ ذلك وتقدَّمْتَ فى إتقانه، واستظهرتَ بالله وعوْنه ، فولِّ شُرْطَتَك وأمرَ عسكرك أوثقَ قُوّادك عندك ، وأظهرهم[٤] نصيحةً ، وأنفذَهم بصيرةً فى طاعتك، وأقوامَهم شكيمةً فى أمرك ، وأمضاهم صَرِيمةً[٥] ، وَأصْدَقَهُمْ عفافا ، وأجْزَأهم غَناءً[٦] ، وأكفاهم أمانةً ، وأصحَّهم ضميراً ، وأرضاهم فى العامة دينا ، وأحمَدهم عند الجماعة[٧] خُلقا، وَأعْطَفَهُمْ على كافّتهم رأفةً ، وأحسنَهم لهم نظاراً ، وأشدَّهم فى دين الله وحقِّه صلابةً ، ثم فوِّضْ إليه مقوِّيا له ، وابسُط من أمَله ، مُظهِرًا عنه الرضا ، حامِدًا منه الابتلاء ، وليكن عالما بمراكز الجنود ، بَصيرا بتقدُّمِ المنازل ، مجرِّبا ، ذا رأى وتَجْرِبة وحزم فى المكيدة، له نَباهةٌ فى الذِّكر ، وصِيتٌ فى الولاية ، معروفَ البيت، مشهورَ الحسَب، وتقدَّمْ إليه فى ضَبط مُعسكَره ، وإذكاء أحراسه فى آناء ليله ونهاره ، ثمَّ حَذِّره أن يكون منه إذْنٌ لجنوده فى الانتشار والاضطراب والتقدم لطلائعك[٨] ، فتُصَاب لَهُم غِرَّة يجترئُ بها عدوُّك عليك ، وَيُسْرِع إقداما إليك ، ويكسِر من إيادِ[٩] جندك ،

(١) أصفقوا عليه : أطبقوا واجتمعوا .

(٢) فى المنظوم والمنثور « وجنب رجاءك به نيل أملك » وهو تحريف .

(٣) هذه ساقطة منه . (٤) فيه « وآمنهم نصيحة ، وأقدمهم بصيرة » . (٥) الصريمة العزيمة.

(٦) يقال : أجزأت عنك مجزأ فلان ومجزأته بفتح الميم وتضم فيهما ، وأغنيت عنك غناءه بفتح الغين ومغناه ومغنانه بفتح الميم وتضم فيهما : أى كفيت كفايته .

(٧) وفيه « وأرضاهم صبرا . وأحمدهم خلقا ، وأعطفهم على جماعتهم رأفة » .

(٨) فيه « للطائم » وهو تحريف .

(٩) وفيه « من أفئدة جنودك » والإياد ككتاب : ما أيد به من شىء أى قوى ، والمعقل والكنف الجبل الحصين .

ويُوهِنُ من قوتهم ، فإن إصابة[1] عدوِّك الرجلَ الواحد من جندك وعبيدك مُطمِـع لهم فيك، مقوٍّ لهم على شَحْذِ أتباعِهم عليك ، وتصغيرهم أمْرَك ، وتوهِينهم تدبيرك ، فحْذَره ذلك وتقدَّم إليه فيه ، ولا يكونن منه إفراطٌ فى التضييق عليهم ، والحصْرِ لهم ، فيعُمَّهم أَزْلُه[2] ، ويشمَلَهم ضَنْـكه ، ويسوء عليه حالهُم[3] ، وتشتد به المؤنة عليهم ، وتخبُث له ظنونهم ، وليكن موضعُ إنزاله إياهم ضامًّا لجماعتهم ، مستديرا بهم جامعا لهم[4] ، ولا يكون منبسطا منتشرا متبدِّدا ، فيشُقَّ ذلك على أصحاب الأحراس ، وتـكون فيهِ النُّهْزة[5] للعدو ، والبُعدُ من المـادَّة ، إن طَرَق طارقٌ فى فَجَآت الليل وَبَغتاته، وَأَوْعِزْ إليه فى أحراسه ، وتقدَّمْ[6] إليه فيهم كأشدِّ التقدُّم ، وأبلغِ الإيعاز ، وَمُرْه فليُوَلِّ عليهم رجلا ركينا مجرِّبا جَرِىءَ الإقدامِ ذا كىَ[7] الصَّرامة ، جَلْدَ الجوارح ، بصيراً بمواضع أحراسه . غيرَ مصانعَ ولا مشفعٍ للناس فى التنحى إلى الرفاهية والسَّعة. وتقدُّمِ العسكر أو التأخر عنه . فإن ذلك مِما يُضْعِف الوالىَ ويُوهِنه . لِاسْتِنامته إلى مَنْ ولّاه ذلك . وأمِنَه به على جيشه .

واعلم أنَّ مواضع الأحراس من معسكرك . ومكانَها من جندك . بحيثُ الغَناء والردُّ عليهم ، والحفظُ لهم . والـكِلاءةُ لمن بغتَهم طارقا.أو أرادهم مُخاتِلا. ومَراصِدُها المُنْسَلِّ منها . والآبقَ[8] من أرِقَّائهم وَأَعْبُدهم . وحِفْظُها من العيون والجواسيس من عدوهم . واحذر أن تَضرِبَ على يديه أو تشـكُمَه عن الصَّرامة . بمؤامرتك[9] فى كل

---

(١) فى صبح الأعشى « فإن الصوت فى إصابة عدوك الرجل .. . الخ » .

(٢) الأزل : الضيق والشدة . (٣) وفى صبح الأعشى « وتسوء عليهم حاله » .

(٤) فى المنظوم والمنثور « مستديرا ضاما جامعاً ، ولا يكون منتشرا ممتدا » .

(٥) النهزة : الفرصة .

(٦) من هنا إلى قوله « وأبلغ الإيعاز » ساقط من المنظوم والمنثور .

(٧) أى مشتعل . من ذكت النار إذا اشتـد لهبها ، وفى المنظوم والمنثور « زكى الصرامة » وهو تحريف . (٨) الآبق : الهارب .

(٩) المؤامرة : المشاورة . وفى المنظوم والمنثور « على الصرامة لمواصرتك » وهو تحريف .

أمرٍ حادثٍ وطارئٍ . إلا فى المُهِمّ النازل والحَدَث العام . فإنك إذا فعلت ذلك به ، دعوته إلى نصحك . واستوليت على مَحْضِ[1] ضميره فى طاعتك . وأجهدَ نفسه فى تزيينك[2] . وأعمَلَ رأيه فى بلوغ موافقتك وإعانتك[3] . وكان ثِقتك ورِدْأك[4] وقوتك ودِعامتك . وتفرغتَ أنت لمكايدة عدوك . مُرِيحا نفسك من هَمّ ذلك والعناية به . مُلقِياً عنك مُؤنةً باهظةً . وكُلفة[5] فادحة . إن شاء الله .

ثم اعلم أن القضاء من الله بمكانٍ ليس به شىء من الأحكام : ولا بمِثل[6] محلِّه أحد من الوُلاة . لما يجرى على يديه من مَغَاليظ الأحكام ومَجَارى الحدود . فليكن مَنْ تُولِّيه القضاء فى عسكرك مِنْ ذوى الخَيْرِ فى القَناعة والعَفاف والنَّزاهة والفَهم والوقار والعِصْمة والوَرَع . والبَصرِ بوُجوه القضايا ومَواقِعها . قد حنّكته السن . وأيّدته[7] التجربةُ . وأحكمتْه الأمُور . ممن لا يتصنّع للولاية . ويستعدّ للهُزْءَة ويجترئ على المحاباة فى الحكم . والمداهنةِ فى القضاء . عدْلَ الأمانة . عفيفَ الطُّعْمة[8] . حسن الإنصات[9] فَهِمَ القلب . وَرِعَ الضمير . متخشِّعَ السَّمْت[10] . بادِىَ[11] الوقار . مُحتسِبا[12] للخير . ثم أجْرِ عليه ما يكفيه ويسعه ويُصْلِحُهُ ، وفرِّغه لما حَمَّلته وأعِنْه على ما ولَّيتَهُ ، فإنك قد عرّضته لِهَلَكَةِ الدنيا وبَوَار[13] الآخرة ، أو شرفِ العاجلة وحُظْوَة الآجلة ، إن حَسُنَت نيَّتُه ، وصَدَقَتْ رويته ، وصحّت سريرتُه ، وسلَّطَ حُكْمَ الله على رعيته ، مُطْلِقاً عِنانَه[14] ، منفِّذاً قضاء الله فى خلقه ؛ عاملا بسنّته فى شرائعه ، آخِذاً بحُدُوده

(١) فى صبح الأعشى « على محصول ضميره » .

(٢) فى الأصل : « ترتيبك » . (٣) هذه الجملة ساقطة من المنظوم والمنثور .

(٤) الردء : العون ، وفيه « وزينك » .

(٥) فيه « وسلفة » وهو تحريف . (٦) فيه « بمثله » . (٧) أى قوته

(٨) الطعمة : المأكلة . (٩) وفى صبح الأعشى « الإنصاف » .

(١٠) السمت : هيئة أهل الخير . (١١) فى المنظوم والمنثور « هادى الوقار » .

(١٢) احتسب به أجرا عند الله : اعتده ينوى به وجه الله .

(١٣) فى المنظوم والمنثور « وثواب الآخرة » وهو تحريف .

(١٤) ساقطة من المنظوم والمنثور .

وفرائضه ، واعلم أنه من جُندكَ ومُعَسكركَ بحيثُ ولايتُك وفى الموضعِ الجاريةِ أحكامُه[١] عليهم ، النافذةِ أقضيتُه بينهم ، فاعرف مَن توليه ذلك وتُسْنِدُه إليه إن شاء الله .

ثم تقدّم فى طلائعك ، فإنها أولُ مكيدتك ، ورأسُ حربِكَ ، ودِعامة أمرِك ، فانتخِبْ لها من كل قادَة وصَحابة : رِجالًا ذوى نَجْدَة وبأس ، وصَرَامة وخُبرة ، حُماةً كُفاةً ، قد صَلُوا[٢] بالحرب، وتذاوقوا سِجالَها، وشَرِبوا أمرارَ كُئوسها ، وتجرَّعوا غُصَصَ دِرَّتها[٣] وزَبَنَتْهم[٤] بتكرار عواطفها ، وحمَلتهم على أصعب مَرَاكبها ، وذلَّلتهم بثِقافِ أَوَدِها[٥] ، ثم انتقِهم[٦] على عَيْنك ، واعرِضْ كُراعهم[٧] بنفسك ، وتوخَّ فى انتقائك ظُهورَ الجلد ، وشهامة الخُلُق ، وكمالَ الآلة[٨] ، وإياك أن تَقبَلَ من دوابهم إلا إناث الخيول مَهلوبةً[٩] ، فإنها أسرع طلباً وأنجى مَهرَباً ، وألين مَعطَفًا[١٠] ، وأبعد فى اللُّحوق غايةً ، وأصبَرُ فى معترَكِ الأبطال إقداما ، وخُذهم[١١] من السلاح بأبدان الدُّروع ، ماذِيّةِ الحديد ، شاكَّة[١٢] النَّسْج ، مقاربة الحِلَق ، متلاحِمة المسامير وأسْوُقَ الحديد ، مُموَّهَة الرُّكَب ، مُحْكَمَة الطَّبْع[١٣] ، خفيفة الصَّوْغ ،

---

(١) فى صبح الأعشى « بحيث ولايتك ، الجارية أحكامه الخ » .

(٢) صلى النار وبها : قاسى حرها . (٣) الدرة : اللبن .

(٤) أى دفعتهم ، وفى المنظوم والمنثور « وزبنتهم بتكرارها » .

(٥) هذه الجملة ساقطة منه ، والثقاف : ماتسوى به الرماح .

(٦) فيه « ثم اتبعتهم » وهو تحريف . (٧) الكراع . اسم يجمع الخيل .

(٨) فيه « وسماحة الخلق » وفيه أيضا « وجمال الآلة » .

(٩) الأهلب : الذنب المنقطع ، والذى لاشعر عليه (والكثير الشعر ، ضد) .

(١٠) ساقطة من المنظوم والمنثور .

(١١) فى المنظوم والمنثور « ونجذهم » وهو تحريف ، والأبدان جمع بدن بالتحريك : وهو الدرع من الزرد ، قيل هى الدرع القصيرة على قدر الجسد ، وقيل هى الدرع عامة ، والإضافة فيه على حد « حق اليقين ، وحب الحصيد » من إضافة الشيء إلى ما بمعناه لاختلاف اللفظين ، والماذى والمادية : الدرع اللينة السهلة .

(١٢) الشك: الاتصال واللصوق، والمعنى محكمة النسج، والحلق بكسر الحاء وفتحها: جمع حلقة بالفتح وتسكين اللام ، وأسوق جمع ساق . (١٣) من طبع السيف والدرهم : أى عملهما .

وسَوَاعِدَ طَبْعُها هِنْدِىٌّ ، وصَوْغُها فارِسِىٌّ ، رقاقُ المَعَاطِفِ بِأَكُفٍّ وافيةٍ [١] ، وعملٍ مُحْكَمٍ ، وَيَلَقُ [٢] البِيْضِ مُذْهَبةٌ و مُجَرَّدة ، فارسيَّة الصَّوغ ، خالصةُ الجوهر ، سابغة [٣] الملبس ، واقية الجُنَن [٤] ، مستديرة الطَّبْعِ ، مُبْهَمَة السَّرْد [٥] ، وافية الوزن ، كَتَرِيكِ [٦] النعامِ فى الصَّنْعة ، واستدارةِ التَّقبيب ، واستواءِ الصَّوغ [٧] مُعْلَمَة بأصناف الحرير وألوان الصِّبغ ، فإنها أهيَبُ لعدوهم ، وأفَتُّ [٨] لِأَعضاد مَنْ لقِيَهم ، والمُعْلِمُ [٩] مخشِىٌّ محذور له بديهةٌ رادعة [١٠] ، وهَيْبة هائلة [١١] ، معهم السيوفُ الهندية ، وذُكورُ [١٢] البيض اليمانية ، رقاقُ الشَّفَرات ، مسمُومة الشحذ غير كَليلة الحدِّ [١٣] ، مُشَطَّبة الضرائب [١٤] ، معتدلة الجواهر ، صافية الصفائح ، لم يَدْخلها وَهْنُ الطَّبْع ، ولا عابَها أَمْتُ [١٥] الصَّوغ ،

---

(١) فى صبح الأعشى « واقية » .

(٢) اليلق : الأبيض من كل شىء والبيضة من السلاح سميت بذلك لأنها على شكل بيضة النعام ، وفى صبح الأعشى « ويلمق البيض » واليلمق كجعفر : القباء ، والأولى أنسب .

(٣) درع سابغة : تامة طويلة .

(٤) الجنن : جمع جنة بالضم ، وهى ما استترت به من سلاح ، وفى المنظوم والمنثور « وافية اللين »

(٥) سرد الدرع : نسجها ، وهو تداخل الحلق بعضها فى بعض . والمبهم : المصمت .

(٦) التريك والترائك : جمع تريكة كسفينة ، وهى البيضة بعد أن يخرج منها الفرخ ، أو يخص بالنعام

(٧) قوله « واستدارة التقبيب ، واستواء الصوغ » ساقط من المنظوم والمنثور .

(٨) فت فى ساعده وفى عضده : أضعفه .

(٩) أعلم الفرس : علق عليها صوفا ملونا فى الحرب ، وأعلم نفسه . وسمها بسيمى الحرب كعلمها

(١٠) فى المنظوم والمنثور « وادعه » وهو تحريف .

(١١) هذه ساقطة منه .

(١٢) الذكر بالتحريك : أيبس الحديد وأجوده . والشفرة : حد السيف .

(١٣) فى المنظوم والمنثور « مسنونة الشحذ ، غير كليلة الحد » وفى صبح الأعشى ومفتاح الأفكار « مسنونة الشحذ » فقط ، وأراه محرفا ، وصوابه كما أوردته وستتكرر الأولى فى أواخر الرسالة وشحذ السكين : أحدّها .

(١٤) سيف مشطب ومشطوب : فيه شطب ، وشطب السيف بضم الشين والطاء وفتحها وشطوبه : طرائقه التى فى متنه ، جمع شطبة كالمة وهمزة ورفعة ، والضرائب جمع ضريبة : وهى ما ضربته بالسيف وربما سمى السيف نفسه ضريبة وهو المراد هنا .

(١٥) الأمت : الضعف والوهن والعوج والاختلاف فى الشىء .

ولا شانها خِفَّه الوزنْ ، ولا فَدَح حامِلَها بُهُورُ[١] الثِّقَل ، قد أَشْرَعُوا لُدْنَ القَنا[٢] ، طِوَال الهَوادِي ؛ مُقَوَّمات الأَوَد[٣] ، زُرْق الأسنّة ، مستوية الثَّعالِب[٤] ، وَمِيضُها متوقِّد ، وسِنْخُها[٥] متلهب ، مَعَاقِصُ عُقَدِها منحُوتة[٦] ، وَوُصُومُ[٧] أَوَدِها مقوَّمة ، وأحبابُها مختلفة ، وكُعُوبُها جَعْدة[٨] ، وعُقَدُها حُبُكة[٩] ، شَطْبَة الأسنان[١٠] ، مُحْكَمة الجِلاء[١١] ، مُمَوَّهة الأطرافَ ، مستَحدة الجَنَبات ، دِقاقُ الأطراف ، ليس فيها التِواء أَوَد ، ولا أَمْتُ وَصْم ؛ ولا بها مَسقط عَيْب ، ولا عنها وُقُوع أُمْنِيَّة ،مُسْتَحْقِبي[١٢] كنائِنِ النَّبل وقِسِيّ الشَّوْحط والنَّبع ، أعرابيَّة التَّعقيب[١٣] ، رُوميَّة النُّصُول ، مسمومة

---

(١) فدحه : أثقله ، والبهور والبهر بالفتح : التكليف فوق الطاقة .

(٢) شرع الرمح وأشرعه : سدده ، والقنا : الرماح ، جمع قناة ، ولدن بالضم جمع لدن بالفتح : وهو اللين من كل شيء ، والهادية من كل شيء أوله وما تقدم منه ، والهادية والهادى : العنق لأنها تتقدم على البدن ، والجمع هواد . (٣) ساقطة من المنظوم والمنثور .

(٤) جمع ثعلب : وهو طرف الرمح الداخل فى جبة السنان .

(٥) سنخ النصل : الحديدة التى تدخل فى رأس السهم ، وفى المنظوم والمنثور ومفتاح الأفكار « وشحذها متلهب » .

(٦) معاقص ، جمع معقص كمنزل ،اسم مكان من العقص ، وأصله :لى الشعر وإدخال أطرافه فى أصوله ، والمعنى أن عقدها مستوية محكمة البرى ، بدليل قوله بعد « ووصوم أودها متومة » (وأما تفسيرها بأنها جمع معقص كمنبر : وهو السهم المعوج ، وما ينكسر نصله فيبقى سنخه فى السهم فيخرج ويضرب حتى يطول ، فلا يستقيم به المعنى) .

(٧) وصوم : جمع وصم بالفتح ، وهو العقدة فى العود والعيب .

(٨) كعوب : جمع كعب بالفتح ، وهو من القصب ، والقنا : الأنبوبة بين العقدتين ، وقيل هو عقدة مابين الأنبوبين ، وجعدة : أى قوية متينة ، يقال ناقة جعدة : أى مجتمعة الخلق شديدة ورجل جعد : أى مجتمع شديد .

(٩) الحبكة : الحبل يشد به على الوسط ، والمعنى على التشبيه أى وعقدها محكمة قوية ، أو هى حبيكة من الحبك وهو الشد والإحكام وتحسين أثر الصنعة فى الثوب ، حبكه كنصر وضرب فهو حبيك ومحبوك .

(١٠) أى طويلة. الشطب من الرجال والخيل : الطويل الحسن الخلق ، وفى مفتاح الأفكار «سبطة» أى طويلة أيضا . (١١) هذه ساقطة من صبح الأعشى .

(١٢) استحقبه واحتقبه: احتمله ، والكنائن :جمع كنانة بالكسر ، وهى جعبة السهام بفتح الجيم ، والشوحط : شجر تتخذ منه القسى ، أو ضرب من النبع ، والنبع : شجر تتخذ منه القسى أيضا ، وتتخذ من أغصانه السهام .

(١٣) العقب بالتحريك : العصب الذى تعمل منه الأوتار ، وعقب السهم والقوس عقبا بالفتح : لوى شيئا من العقب عليه .

الصَّوْغ ، ولتكن سهامُها على خَمْس قبضَات سوى النُّصول[1] ، فإنها أبلغ فى الغاية ، وأنفَذُ فى الدروع، وأشَكُّ[2] فى الحديد،سامِطِين حقائِبَهم على مُتون خيولهم، مستخِفِّين من الآلة والأمتعة والزاد ، إلّا ما لا غَناء بهم عنه .

واحذر أن تَكِلَ مباشرةَ عَرْضهم وانتخابهم إلى أحد من أعوانك أو كُتَّابك فإنك إن وَكَلْته إليهم أضَعتَ مَواضِعَ الحزم ، وفرَّطت حيثُ الرأىُ ، ووقَفْتَ دون عَزم الروية[3] ، ودخل عملَك ضياعُ الوَهْن ، وخَلصَ إليك عيبُ المحاباة ، ونالَه فسادُ المداهَنة ، وغلَبَ عليه من لايصلُح أن يكون طَليعةً للمسلمين ، ولا عُدَّة ولا حِصْنا يدَّرِئُون به، ويَكتَهِفُون بموضعه[4] . واعلم أن الطلائع حصونُ المسلمين وعيونهم ، وهم أول مَكيدتك ، وعُروَة أمرك ، وزمام حربك ، فليكن اعتناؤك بهم وانتقاؤك إياهم[5] بحيثُ هم مِن مُهِمِّ عملك ، ومكيدةِ حربك ، ثم انتخِبْ للولاية عليهم رجلا بعيد الصَّوْت[6] ، مشهور الاِسم ، ظاهر الفضل[7] ، نبيهَ الذِّكر ، له فى العدوِّ وَقَعات معروفات ، وأيامٌ طِوال وصَوْلات متقدِّمات ، قد عُرِفَت نِكايتُه ، وحُذِرتْ شوكتُه ، وَهِيبَ صوتُه ، وتُنُكِّبَ لِقاؤه ، أمينَ السَّريرة ، ناصحَ الجيب[8] ، قد بلَوْتَ منه مايُسْكِنك إلى ناحيته ، من لين الطَّاعة[9]، وخالصِ المودَّة ، ورَكانة[10] الصَّرامة ، وغُلوب الشَّهامة ، واستجماعِ القوة ، وحَصافة التدبير ، ثم تقدَّمْ إليه فى حسن

---

(١) من قوله « مسمومة إلى سوى النصول » ساقط من المنظوم والمنثور » .

(٢) أى أدخلا ، وسمط الشىء كضرب ونصر : علقه .

(٣) فى المنظوم والمنثور « دون الحزم » . (٤) فيه « ويكتفون » .

(٥) هذه ساقطة منه . (٦) الصوت والصيت والصات : الذكر الحسن .

(٧) فيه « مشهور الفضل » .

(٨) الجيب : طوق القميص ، وفلان ناصح الجيب يعنى بذلك قلبه وصدره : أى أمين ، وفيه « ناصح الغيب » . (٩) فيه « من لين طباعه » .

(١٠) فى صبح الأعشى « وركانة الصرامة » وركن إليه ركونا وركانة : سكن إليه ومال والمعنى يركن إليه فى الشدة .

سياستهم ، واستنزال طاعتهم ، واجتلاب مودتهم ، واستعذاب[١] ضمائرهم ، وأَجْرِ عليهم وعليه أرزاقاً تسَعُهم ، وتمُد من أطماعهم ، سوى أرزاقهم فى العامة ، فإن ذلك من القوة لك عليهم ، والاستنامةِ إلى ما قِبَلهم .

واعلم أنهم فى أهمّ الأماكن لك ، وأعظمِها غَناء عنك وعمّن معك ، وأقمعِها كَبْتاً لمحادِّك ، وأشجاها غيظاً لعدوك[٢] ، ومَنْ يكُن فى الثقة ، والجَلَد ، والبأس ، والطاعة ، والقوة ، والنصيحة ، والعُدَّة والنَّجدة ، حيثُ وَصَف لك أمير المؤمنين وأمَرَك[٣] بهِ ، يَضعْ عنك مَئُونة الهَمّ ، ويُرْخِ من خِناقك[٤] رَوْعَ الخوف ، وتلتجئْ إلى أمْرٍ مَنيع[٥] ، وظهر قوى ، ورأى حازم ، تأمَنُ به فجآتِ عدوك ، وغِرّاتِ بَغَتاتِهم ، وطوارقَ أحداثهم[٦] ، ويصير إليك عِلْمُ أحوالهم ومتقدمات خيولهم ، فانتخِبْهم رَأْيَ عَيْن ، وقوِّهم بما يُصلحهم من المَنالات والأطماع والأرزاق ، واجعلهم منك بالمنزل الذى هُم به من مَحارِزِ علاقتك[٧] ، وحَصـــانة كُهُوفك ، وقوة سَيَّارة عسكرك .

وإياك أن تُدْخل فيهم أحداً بشفاعة ، أو تحتَمِله على هَوَادةٍ ، أو تقدِّمه لأُثْرة ، أو أن يكون مع أحد منهم بَغْلٌ نَفَل[٨] ، أو فَضْل مِنْ ظَهْر ، أو ثَقَل فادح ، فتشتد عليهم مُؤْنة أنفسهم ، وَيدْخُلهم كَلالُ السَّآمة فيما يعالجون من أثقالهم ، وَيشتغلون به عن عدوهم ، إن دَهِمَهم منه رائع[٩] ، أو فَجأهم منه طليعةٌ ، فتفقَّدْ ذلك مُحْكِماً له ،

---

(١) من استعذب القوم ماءهم: إذا استقوه عذبا ، والمعنى استمالة ضمائرهم واستهواؤها ، وفى المنظوم والمنثور « واستعداد » وهو تحريف .

(٢) فى المنظوم والمنثور « وأقمعها كبتا ، وأشجى لعدوك » وفيها تحريف .

(٣) وفيه «ومتى يكون فى البأس والثقة والجلد والطاعة والقوة والنصيحة حيث وصفت لك وأمرتك به تضع عنك ... الخ » .

(٤) الخناق بالكسر والضم : الحلق .

(٥) فيه «إلى أمر متين» «وأمر حازم» .

(٦) قوله « وغرات بغتاتهم، وطوارق فى أحداثهم» ساقط من المنظوم والمنثور .

(٧) وحرزه : حفظه ، أو هو إبدال والأصل حرسه .

(٨) النفل والنافلة : الزيادة ، كذلك ، والثقل : متاع المسافر .

(٩) أى أمر رائع .

وَتقدَّمْ فيه آخذاً بالحزم فى إمضائه ، أرشدك الله لإصابة الحظ ، وَوفّقك ليُمْن التدبير ، وَقَصَد بك لأسهل الرأى وَأعْوَدِه نفعا فى العاجِل وَالآجِل ، وأ كْبَتِه لعدوك وَأشجاه لهم ، وَأرْدَعِه لعَادِيَتهم[1] .

وَلِّ دَرّاجَةَ[2] عسكرك وَإخراجَ أهلِه إلى مَصَافِّهم وَمرا كِزهم رجُلا من أهل بيوتات الشرف ، محمودَ الخِبْرة ، معروفَ النجدة . ذا سِنٍّ وَتجربة ، لِيِّن الطاعة ، قديم النصيحة ، مأمونَ السريرة ، له بصيرةٌ فى الحق نافذة تقدِّمه ، وَنيَّة صادقة عن الإدهانِ[3] تحجُزه ، وَاضمُمْ إليه عِدَّةَ نَفَر من ثِقَاتِ جندك وذوى أسنانهم يكونون شُرْطَةَ معه ، ثم تقدَّم إليه فى إخراج المصافّ ، وَ إقامة الأحراس ، وَإذكاءِ العيون ، وَحفظِ الأطراف ، وشدة الحذَر ، وَمُرْه فليضَع القُوادَ بأنفسهم مع أصحابهم فى مصَافِّهم ، كلَّ قائد بإزاء موضعه ، وحيثُ مَنزِلُه ، قد شُدَّ[4] ما بينه وبين صاحبه بالرِّماح[5] شارعةً ، والتِّراسِ مَوضُونة[6] والرجالِ راصدةً ، ذا كِيَةَ الأحراس ، وَجِلَةَ الرَّوعِ ، خائفةً طوَارِقَ العدو وبيَاتَه[7] ، ثم مُرْه فليُخرِج كلَّ ليلة قائداً فى أصحابه أو عِدَّةٍ منهم إن كانوا كثيراً ، على غَلْوة[8] أو غلوتين من عسكرك ، منتَبِذاً[9] عنك ، مُحيطا بمنزلك ، ذا كِيةً أحراسُه ، قَلِقَةَ التردُّد ، مُفرِطةَ الحذَر ، مُعِدَّةً للرَّوع ، متأهِّبةً للقتال ، آخذةً على أطراف العسكر وَنواحيه ، متفرقين فى اختلافهم كُرْدُوسا كُرْدُوسا[10] ، يستقبلُ بعضُهم بعضا فى الاختلاف ، وَيَكْسَعُ تالٍ[11] متقدِّماً فى التردد

---

(١) من قوله « وقصد بك ... إلى قوله وأردعه لعاديتهم » ساقط من المنظوم والمنثور .

(٢) دراجة عسكرك كقوله قبل «سيارة عسكرك» من درج كنصر: أى مشى، والمصاف جمع مصف وهو موضع الصف . (٣) الإدهان : الغش وإظهار خلاف ما يضمر . (٤) فى المنظوم والمنثور «قد سد»

(٥) شرعت الرماح كقطع : تسددت ، فهى شارعة وشوارع ، وشرعها وأشرعها فهى مشروعة ومشرعة . (٦) وضن الشيء كوعد فهو موضون ووضين : ثنى بعضه على بعض وضاعفه ونضده .

(٧) بيت العدو : أوقع بهم ليلا . (٨) الغلوة : رمية سهم أبعد ما يقدر عليه » قيل هى ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة. (٩) قوله « منتبذا عنك » ساقط من المنظوم والمنثور وانتبذ عنه : تنحى .

(١٠) الكردوس : القطعة العظيمة من الخيل ، وكردس القائد خيله : جعلها كتيبة كتيبة .

(١١) كسعه كمنعه : ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه .

وَاجعل ذلك بين قوادك وأهل عسكرك نُوَباً معروفة ، وَحِصَصا مفروضة ، لاتُعْرِ[1] منها مُزْدَلِفا منك بمودَّة ، ولا تتحاملْ فيه على أحدٍ بمَوْجِدةٍ ، إن شاء الله تعالى .

فوِّض إلى أمراء أجنادك وقوّاد خيلك أمورَ أصحابهم ، والأَخذَ على قافية[2] أيديهم ، رِياضةً منك لهم على السمع والطاعة لأمرائهم ، والاتباعِ لأمرهم ، والوقوفِ عند نهيهم ، وَتقدَّم إلى أمراء الأجناد فى النوائب التى ألزمْتَهم إياها ، والأعمال التى استَنْجَدتَهم لها ، وَالأسلحةِ والكُرَاعِ التى كتَبْتَها عليهم ، واحْذَر اعتلالَ أحد من قوادكَ عليك بما يَحُول بينك وبين تأديب جندكَ ، وتقويمهم لطاعتك ، وَقَمْعهم عن الإخلال بمراكزهم لشىء مما وُكِّلوا به من أعمالهم ، فإن ذلك مَفسدة للجند ، مَفْثَأَةٌ للقوّاد عن الجِد والإيثار للمناصَحَة[3] ، والتقدم فى الأحكام .

واُعلم أن فى استخفافهم بقُوّادهم ، وتضييعهم أمْرَ رؤسائهم ، دخولا للضَّياع عَلَى أعمالك ، واستخفافا بأمركَ الذى يأْتَمرون به ، ورأيك الذى ترْتئى ، وأوعِزْ إلى القوّاد أن لايُقْدِم أحدٌ منهم عَلَى عقوبة أحَـدٍ من أصحابه إلاَّ عُقُوبَةَ تأْديب وَتقويمَ مَيْل ، وتثقيفَ أَوَد ، فأمّا عقوبةٌ تبلُغُ تَلَفَ المُهَجِ وإقامة حَدٍّ فى قَطْعٍ ، أو إفراطٌ فى ضرب ، أو أخْذُ مال ، أو عقوبة فى شَعَر[4] ، فلا يَلِيَنَّ ذلك من جندكَ أحدٌ غيرُكَ ، أو صاحبُ شُرْطتك ، بأمركَ ، وعن رأيك ، وإذنك ، ومتى لم تذلّل الجند لقوادهم ؟ وتُضرِعهم[5] لأمرائهم ، تُوجِبْ عليك لهم الحجّة بتضييعٍ — إن كان منهم — لأمرك ، أو خَلَلٍ — إن تهاونوا به — من عملك ، أو عَجْز — إن فَرَط منهم — فى شىء وكَّلتهم به أو أسندته إليهم ، ولا تجدُ إلى الإقدام عليهم باللوم وعَضٍّ العقوبة مجَازا

---

(١) أى لاتخل ، وفى المنظوم والمنثور « لايعد منه » وهو تحريف .

(٢) قافية الرأس : مؤخره ، وقيل وسطه ، وقافية كل شىء آخره ، ومنه قافية بيت الشعر .

(٣) مفثأة : مفعلة من فثأه إذا سكنه وكسره ، وفثأ القدر : سكن غليانها ، وفى المنظوم والمنثور « فإن ذلك مفسدة للجند ، معى للقواد عن الجد والمناصحة » ومعى : معجز .

(٤) أى جلد على شعر الجسد ، وفى المنظوم والمنثور « فى سفر » وهو تحريف .

(٥) أى تذلل.

تصل به إلى تعنيفهم ، بتفريطك فى تذليل أصحابهم له ، وإفسادِكَ إياهم عليك وعليهم، فانظر فى ذلك نظراً مُحْكَما ، وتقدَّم فيه برفقك تقدُّماً بليغا، وإياك أن يَدْخُل حزمَك وهن ، أو يشوب عزمَك إيثار ، أو يخلط رأيَك ضَياعٌ ، والله يستودع أميرُ المؤمنين نفسَك ودِينَك[1] .

إذا كنتَ من عدوك عَلَى مسافة دانِية ، وسَنَنٍ[2] لقاء مُختصرٍ ، وكان من عسكرك مُقْترِبا ، قد شامَتْ[3] طلائعُك مُقدَّماتِ ضَلالته ، وحُماةَ فِتْنته ، فتأهَّبْ أُهْبَةَ المناجِز ، وأعِدَّ إعدادَ الحذِر ، وكتِّبْ خيولَك ، وعَبِّ جُنودك ، وإياكَ والمسيرَ إلا فى مقدِّمة ومَيْمَنة ومَيْسَرَة وساقة[4] ، قد شهَروا الأسلحةَ ، ونشَروا البُنود[5] والأعلام ، وعرِّف جندك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم ، قد أخذوا أُهْبة القتال ، واستعدوا للقِّاء ، مُلتجئين[6] إلى مواقفهم ، عارفين بمواضعهم فى مسيرهم ومعسكرهم ، وليكن ترحُّلهم وتنزُّلهم على راياتهم وأعلامهم ومراكزهم ، قد عرَّفَ كلُّ قائد منهم أصحابَه مواقفَهم ، من الميمنة والميسرة والقلب والسَّاقة والطَّليعة ، لازمين لها ، غيرَ مُخلِّينَ بما استنجدتَهم له ، ولا متهاونين بما أهَبْتَ بهم إليه ، حتى تكون عساكرك فى كل مَنهَل تصل إليه ، ومسافة تجتازها[7] ، كأنها عسكر واحد فى اجتماعها على العدوّ وأخذِها بالحزم ، ومَسيرها على راياتها ، ونزولها على مراكزها ، ومعرفتها بمواضعها ، إن أضلَّتْ دابة موضِعَها ، عَرَف أهلُ العسكر : مِنْ أى المراكز هى ؟ ومَنْ صاحِبُها ؟ وفى أى المحل حلولُه منها ؟ فرُدَّت إليه هدايةً معروفةً بسَمْتِ صاحب قيادتها[8] ، فإن

---

(١) فى المنظوم والمنثور « وإياك أن يدخل حزمك وهن أو عزمك أمارا من رأيك ضياع والله أستودع دينا فى نفسك » وهو تحريف. (٢) السنن : الطريق .

(٣) نظرت ، وأصله من شام البرق : إذا نظر إليه أين يقصد وأين يمطر .

(٤) الساقة : مؤخرة الجيش . (٥) البنود جمع بند بالفتح وهو العلم الكبير .

(٦) فى المنظوم والمنثور « ملحين » وهو تحريف .

(٧) فى صبح الأعشى والمنظوم والمنثور « تختارها » وهو تصحيف ، وفى مفتاح الأفكار « ومفازة تجتازها » . (٨) وفى المنظوم والمنثور « هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها » .

تقدُّمك فى ذلك ، وإحكامك له ، طارحٌ عن جندك مَئُونةَ الطلب ، وعنايةَ المسرفة ، وابتغاء الضَّالَّة .

ثم اجعل عَلَى ساقَتِك أوثقَ أهل عسكرك فى نفسك صَرامةً ونَفاذاً ، ورِضاً فى العامة ، وإنصافا من نفسه للرعية ، وأخذا بالحق فى المَعْدَلة ، مستشعِرا تقوى الله وطاعتَه ، آخِذا بهَدْيك وأدبك ، واقفا عند أمرك ونهيك ، مُعْتزِما على مناصحتك وتزيينك ، نظيرا لك فى الحال ، وشبيها بك فى الشَّرَف ، وعَدِيلا فى الموضع ، ومقاربا فى الصِّيت[1] ، ثم أَكْثِفْ[2] معه الجَمْعَ ، وأيِّدْه بالقوةِ ، وقوِّه بالظهر ، وأعِنْه بالأموال ، واعمِدْه[3] بالسلاح ، ومُرْه بالعطف عَلَى ذوى الضعف من جندك ، ومن أَزْحَفَتْ[4] به دابته ، وأصابَتْه نَكْبة من مَرَضٍ أو رُجْلة[5] أو آفة ، من غير أن يأذن لأحد منهم فى التنحِّى عن عسكره ، أو التخلّف بعد ترحُّله ، إلا لمجهودٍ سُقما ، أو لمطروقٍ بآفة جائحةٍ ، ثم تقدَّمْ إليه محذِّرا ، ومُرْه زاجِرا ، وانْهَه مُغْلِظا ، فى الشدةِ عَلَى من مَرَّ به مُنصرفا عن معسكرك من جندك بغَيْرِ جَوازِك ، شادًّا لهم أَسْرًا ، ومُوقِرَهم[6] حديدا ، ومعاقِبَهم مُوجِعاً ، ومُوَجِّهَهم إليك فتنْهَكَهم[7] عقوبةً ، وتجعَلَهم لغيرهم من جندك عِظَةً .

واعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع مَنْ تَسْكُن إليه ، واثقا بنصيحته ، عارفا ببصيرته[8] ، قد بلَوتَ منه أمانةً تُسْكِنك إليه ، وصرامةً تُؤْمِنك مَهانَتَه ، ونفاذاً فى أمرك يُرْخِى عنك خِناقَ الخوف فى إضاعته ، لم يأمن أمير المؤمنين تسلّلَ الجند عنك

(١) فى صبح الأعشى « فى السب » والأولى أنسب .

(٢) أى اجعله كثيفا ، وفى المنظوم والمنثور « اكشف » وهو تحريف .

(٣) عمده كضرب : أقامه بعماد : أى قوه بالسلاح ، وفى المنظوم والمنثور « واغمره » .

(٤) أزحف البعير : أعيا ، وفيه « ومن رخفت » ورخف العجين كنصر وفرح وكرم : استرخى

(٥) رجل الرجل كفرح فهو راجل ورجلان : إذا لم يكن له ظهر يركبه .

(٦) أوقره : أثقله .

(٧) نهكه عقوبة كسمعه وأنهكه : بالغ فى عقوبته . (٨) هذه ساقطة من صبح الأعشى .

لِوَاذاً[1] ، وَرَفْضَهم مراكزَهُم ، وإخلالَهُم بمواضعهم، وتخلُّفهم عن أعمالهم ، آمنين تغييرَ ذلك عليهم ، والشدةَ عَلَى من اجترمه[2] منهُم ، فأوشَكَ ذلك فى وَهْنك ، وخذَل من قوتك ، وقلّل من كثرتك .

اجعل خلفَ ساقتك رجلاً من وجوه قوّادك ، جَلِيداً ماضياً ، عفيفاً صارماً ، شَهْمَ الرأى ، شديدَ الحذر ، شَكِيمَ القوة ، غير مُداهن فى عقوبة ، ولا مَهِين[3] فى قوة ، فى خمسين فارساً من خيلك ، يَحْشُر إليك جندكَ ، ويُلْحِق بك من يتخلّف عنك ، بعد الإبلاغ فى عقوبتهم ، والنَّهْك لهم ، والتنكيل بهم ، وليكن بِعَقْوَتك[4] فى المنزل الذى ترتحل عنه ، والمَنْهل الذى تتقوّض منه ، مُفْرِطاً فى النقض له ، والتتَبع لمن تخلف عنك به ، مشتدا فى أهل المنزل وساكِنه بالتقدّم ، مُوعِزا إليهم فى إزعاج الجند عن منازلهم وإخراجهم من مكامِنهم ، وإيعادِ العقوبة المُوجِعة والنَّكالِ المُبْسِل[5] فى الأشعَارِ والأبْشَارِ ، واستصفاء الأموال ، وهدم العَقَار ، لمن آوى منهُم أحدا ، أو ستَر موضعَه ، وأخفَى مَحلَّه ، وحذِّره عقوبتَك إياه فى الترخيص لأحد ، والمحاباة لذى قرابة والاختِصاص بذلك لذى أثَرة وهوادة ، وليَكُن فرسانه منتخبين فى القوة ، معروفين بالنجدة ، عليهم سوابغُ الدروع ، دونها شِعار الحشو وجُبَب الإسْتِجنان[6] ، متقلدين سيوفَهُم ، سامِطين كنائنهم ، مستعدِّينَ لهَيْج ٍ أن يبْدَههم ، أو كَمِين أن يظْهرَ لهُم وَإياكَ أن تقبلَ فى دوابهم إلا فرسا قويا ، أو برْذَوْنا وَثِيجا[7] ، فإن ذلك من أقوى القوة

---

(١) بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج ، أو يلوذ بأحد فينطلق معه كأنه تابعه ، وهو منصوب على الحال مصدر بمعنى اسم الفاعل .

(٢) فى المنظوم والمنثور « على من اخترمه منهم ما ... ذلك فى وهنك ، وأحدل من قوتك » .

(٣) المهين : الضعيف الحقير . (٤) العقوة : الساحة وماحول الدار والمحلة .

(٥) أبسله : أسلمه للتهلكة، وفى المنظوم والمنثور « والنكاء المبسل فى الأشعار واصفا الأموال » وهو تحريف ، واستصفى ماله : أخذ منه صفوه .

(٦) استجن : استتر ، وفى المنظوم والمنثور « وحبب الاستحبات » وهو تحريف .

(٧) البراذين من الخيل : ما كان من غير نتاج العرب ، والوثيج : المكتنز ، وقد وثج ككرم وثاجة .

لهُم ، وَأعون الظهير[١] على عدوهم ، إن شاء الله .

ليكن رحيلُك إبَّانًا[٢] وَاحدا ، وَوقتا معلوما ، لتَخِفَّ المئونة بذلك على جندك ، ويعلَموا أوانَ رحيلهِم ، فيقدِّموا فيما يريدون من معالجة أطعمتِهم ، وأعلافِ دوابِّهم ، وتسكُنَ أفئدتهُم إلى الوقت الذى وقفُوا عليه . ويطمئن ذوو الرأى[٣] إلى إبان الرحيل ومتى يكن رحيلك مختلفا ، تعظُم المؤُنةُ عليك وعَلَى جُندكَ ، ويُخلُّوا بمراكزهم[٤] ، ولا يزال ذوو السَّفَه والنَّزَق يترحّلون بالإرْجاف[٥] ، وينزلون بالتوهُّم ، حتى لا ينتفع ذو رأى بنوم ولا طُمَأنينة .

إياكَ أن تُظهِر استقلالا ، أو تنادى[٦] برحيل من منزِل تكون فيه ، حتى تأمرَ صاحبَ تعبِئتك بالوقوف بأصحابه على معسكرك ، أخذا بفوَّهة جَنَبَتَيه[٧] بأسلحتهم ، عُدَّةً لأمر إن حضر ، أو مفاجأةٍ من طليعةٍ للعدو إن رأت منكم نُهْزَةً ، أو لَمَحت عندكم غِرَّة ، ثم مُر الناس بالرحيل ، وَخيلُك وَاقفةٌ ، وأُهْبَتُك مُعَدَّة ، وَجُنَّتُك وَاقية ، حتى إذا استقْللتم[٨] من معسكركم ، وَتوجَّهتم من منزلكم ، سرتم على تعبيتكم ، بِسكُون ريح ، وَهُدُوِّ حَمْلة ، وَحُسْن دَعَة .

فإذا انتهيتَ إلى منهَل أردتَ نزوله ، أو همَمْت بالمعسكر به ، فإياكَ ونزولَه إلا بعد العلم بأهله ، وَالمعرِفة بمرَافقه ، وَمُرْ صاحب طليعتك أن يعرِف[٩] لك أحوالَه ، وَيَسْتثير لك علم دفينه ، وَيستَبْطِنَ علم أموره ، ثم يُنْهيها إليك على ما صارت إليه لِتعلَم : كيف احتمالُه لعسكرك ؟ وَكيف ماؤه وأعْلافه[١٠] ، وكيف موضعُ عسكرك منه ؟ وهل لك

(١) فى صبح الأعشى « وأعون الظهرى » وقد تقدم معناه .

(٢) أى وقتا . (٣) فى المنظوم والمنثور « ذوا ... إبان الرحيل » .

(٤) هذه الجملة ساقطة من صبح الأعشى .

(٥) النزق : الطيش والخفة ، وأرجف القوم فى الشىء وبه إرجافا : أكثروا من الأخبار السيئة واختلاق الأقوال الكاذبة حتى يضطرب الناس منها (٦) فى المنظوم والمنثور « إياك أن تنادى » .

(٧) فى صبح الأعشى « آخذا بجنبتى فوهته » . (٨) استقل القوم : ذهبوا وارتحلوا .

(٩) فى المنظوم والمنثور « إلا بعد العلم أن يعرف لك أحواله أو يسبر علم دفينه » .

(١٠) فيه « وكيف مأواه وأعلانه» وهو تحريف .

ـ إنْ أردت مُقاما به ، أو مُطاولةَ عدوك وَمكايدته فيه ـ قوةُ تَحمْلك ، ومددٌ يأتيه ، فإنك إن لم تفعل ذلك لم تأمن أن تَهجُم على منزل يُعْجزك وَيُزْعِجُكَ منه ضِيقُ مكانه، وقلة مياهه ، وَانقطاعُ موادّه ، إن أردت بعدوك مكيدة ، أو احتجت من أمرِهم إلى مطاولة ، فإن ارتحلتَ منه كنت غرَضا لعدوك ؛ ولم تجد إلى المحاربة والأخطار سبيلا ، وَإن أقمتَ به أقمتَ على مشقة وحَصْر ، وفى أزل وضيق ، فاعرف ذلك وَتقدَّم فيه .

فإذا أردت نزولا أمرتَ صاحب الخيل التى وكّلت بالناس(١) ، فوقفت خيله ، متنحيّة من معسكرك ، عُدّةً لأمرٍ إن غالك(٢) ، ومَفْزَعا لبديهة إن راعتْك ، فقد أمِنْت بحمد الله وقوته(٣) فَجْأةَ عدوك ، وعرَفت موقعها من حِرْزك(٤) ، حتى يأخذ الناس منازلَهم ، وتُوضَع الأثقال مواضِعَها ، ويأتيك خبر طلائعك ، وتُخرِجُ دَبَّابَتَك(٥) من معسكرك دَرَّاجَةً ودُبَّابا(٦) مُحِيطَيْن بعسكرك ، وعُدَّةً لك إن احتجت إليهم ؛ وليكن دُبَّاب جندك أهلَ جَلَدٍ وقوة ، قائدا أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم ، فى كل ليلة ويوم ، نُوَبا بينهم ، فإذا غرَبَت الشمس ، ووَجَب(٧) نورها ، أخرج إليهم صاحب تعبئتك أَبْدالَهم ، عَسَساً بالليل فى أقربَ مِن مواضع دَبَّابى النهار ، يتعاوَرُ ذلك قوادُك جميعاً ، بلا محاباة لأحد منهم فيه ولا إدهان إن شاء الله .

إياك أن يكون منزلك إلا فى خندق وحِصنٍ تأمَن به بَياتَ عدوك ، وتستنيمُ فيه إلى الحزم من مكيدتك ، إذا وُضِعت الأثقالُ ، وحُطَّت أبنيةُ أهل العسكر ، لم يُمْدَد طُنُب(٨) ، وَلم يُرْفَع خِباء ، ولم يُنْصَب بناء ، حتى تَقْطَعَ لكل قائد ذَرْعًا معلوما من

---

(١) فى المنظوم والمنثور « التى رحلت الناس » .

(٢) فيه «إن راعك» . (٣) فيه قد أمنت بإذن الله وحوله . (٤) فيه « من حربك » .

(٥) المراد بالدبابة هنا . الجماعة التى تدب حول الجيش لحراسته ، من دب كضرب إذا مشى على هينته وقد تقدم فى هذه الرسالة نظيرها وهى سيارة من سار ، ودراجة من درج ، وليس المراد بها الآلة التى تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقبون وهم فى جوفها ، كما فسرت بذلك .

(٦) دبابا : جمع داب كعذال جمع عاذل . (٧) غاب .

(٨) وفيه « لم يمد خباء ولم تنصب بناء » والطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت .

الأرض بقَدر أصحابه ، فيحتفِرو ه عليهم خندقا ، يُطيفونه بعد ذلك بخَنَادق الحسَك[١]، طارحين لها دون اشتجار الرماح[٢] ، ونَصْبِ التِّرَسَة ، لها بابان قد وكَّلتَ بحفظ كل باب منهما رجلا من قوادك ، فى مائة رجُل من أصحابه ، فإذا فُرغ من الخندق كان ذانك القائدان بمن معهما من أصحابهما أهل ذلك المركز، وموضعَ تلك الخيل ، وكانوا هُم البوابين والأحراسَ لذَينك الموضعين[٣] ، قد كفَوهما وضبطوهما ، وأُعفُوا من أعمال العسكر ومكروهِه غيرِهما .

واعلم أنك إذا كنت على خَندق أمِنْتَ[٤] بإذن الله وقوته طَوَارقَ عدوّك وبَغتاتِهم ، فإن رامُوا تلك منك ، كنتَ قد أحكمتَ ذلك وأخذتَ بالحزم فيه ، وتقدمتَ فى الإعداد له ، ورتَقْتَ مَخُوفَ الفَتْق منه ، وإن تكن العافية[٥] استحقَبْتَ حَمدَ الله عليها ، وارتبطتَ شكرهُ بها ، ولم يَضرُرْكَ أَخْذُكَ بالحزم ، لأن كل كُلْفةٍ ونَصَب ومَئُونةِ إنفاقٍ ومشقَّةِ عملٍ ، مع السَّلامة ، غُنْم وغير خَطَر بالعاقبة ، إن شاء الله .

فإن ابتُليتَ ببَيات عدوك ، أو طَرَقك رائعا[٦] فى ليلك ، فَلْيُلْفِكَ حَذِرا مُعِدا مشمِّرا عنْ ساقك ، حاسِرا عن ذراعك ، مُتَشَزِّنا لحربك ، قد تقدَّمتْ درّاجتك

---

(١) الحسك : نبات له شوك صلب ، ويعمل من الحديد أداة للحرب على مثال شوكه فيلقى حول العسكر ، ويسمى باسمه (وهذا هو المراد هنا) أى الأسلاك الشائكة .

(٢) اشتجار الرماح : تشابكها فى الطعان .

(٣) فى المنظوم والمنثور بعد ذلك « فدالى الرفاهة والسمة وتقدم العسكر أو التأخر عنه ،فإن ذلك مما يضعف الوالى ويوهنه لاستنامته إلى من ولاه ذلك ، وأمنه به على جيشه » وفى أول العبارة تحريف وقد تقدمت فى صفحة ٤٣٣ وموضعها هنالك ، وقوله « قد كفوهما ... إلى غيرهما » ساقط منه .

(٤) فيه « واعلم أنك إذ ... أمنت بإذن الله طوارق ... » .

(٥) من قوله « وإن تكن العاقبة ... إلى بالعافية » ساقط من المنظوم والمنثور ، وفى مفتاح الأفكار « استحقبت » بالباء أى احتملت ، وفى صبح الأعشى « استحقيت » .

(٦) أى مفزعا لك ، من راعه إذا أفزعه ، وفى المنظوم والمنثور « أو طرقك رائعا فى ... حذرا معدا مشمرا عن ساقك مستترا لحربك » وفيها نقص وتحريف .

إلى مواضعها ، على ما وصف[1] لك أمير المؤمنين ودبابتك فى أوقاتها التى قدّر لك ، وطلائعك حيث أمرك ، وجندك على ما عبّأ لك ، قد خطرت عليهم بنفسك ، وتقدّمت إلى جندك إن طرقهم طارقٌ ، أو فاجأهم عدو ، ألّا يتكلّم أحد منهم رافعا صوته بالتكبير ، مُغرقا فى الإجلاب ، مُعلِنا بالإرهاب لأهل[2] الناحية التى يقع بها العدوّ طارقا ، وليُشرعوا رماحهم مادّين[3] لها فى وجوههم ، ويرشقونهم بالنّبل مُكتنّين[4] بترستهم ، لازمين لمراكزهم ، غير مُزيلى[5] قدمٍ عن موضعها ، ولا متجاوزين[6] إلى غير مركزهم ، وليُكبّروا ثلاث تكبيرات متواليات ، وسائرُ الجند هادون ، لتعرف موضع[7] عدوك من معسكرك ، فتُمِدّ أهل تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشرطتك ، ومَن انتخبت قبل ذلك عُدّةً للشدائد بحضرتك ، وتدسّ إليهم النُّشّاب والرماح .

وإياك أن يَشهَروا سيفا يتجالدون به ، وتقدّم إليهم أنْ لا يكون قتالهم فى تلك المواضع لمن طرقهم إلا بالرماح ، مُسنِدين لها إلى صدورهم ، والنُّشّابِ راشقين به وجوههم ، قد ألبدوا[8] بالتّرسة ، واستجنّوا بالبَيْضِ ، وألقوا عليهم سوابغ الدروع وجباب الحشو ، فإنْ صدّ العدو عنهم حاملين على ناحية أخرى ، كبّر أهلُ تلك الناحية التى يقع فيها كفعل الناحية الأولى[9] ، وبقيّة العسكر سُكوتٌ ، والناحيةُ التى صدّ عنها العدو لازمةٌ لمراكزها مُنتطِقة الهدو ، ساكنة الريح[10] ، ثم عمِلت فى تقويتهم وإمدادهم بمثل صنيعك بإخوانهم .

---

(١) فيه « على ماوصفت لك ... التى قدرت لك » وفيها نقص .

(٢) فيه « مغرورا فى إجلاب ، معلنا للإعراب إلا أهل الناحية » وهو تحريف .

(٣) فى صبح الأعشى « ناشبين بها » .

(٤) فى المنظوم والمنثور « ملبدين » وفى صبح الأعشى مكتنين بأترستهم وفى « هامشه » قال ابن السكيت لا يقال أترسة وزان أرغفة ، وإنما جمع الترس ترسة وتروس وتراس وربما قيل أتراس .

(٥) قوله « غير مزيلى ... » ساقط من المنظوم والمنثور . (٦) فيه « ولا منحازين » .

(٧) قوله « لتعرف موضع ... » ساقط منه . (٨) أى لصقوا بها .

(٩) فيه « كبر أهل تلك الناحية الأولى » . (١٠) قوله « منتطقة ... إلى الريح » ساقط منه .

وإياك أن تُخمِد نارَ رِواقك[1] ، وإذا وقع العدو فى معسكرك ، فأجْجها ساعِرا لها ، وأَوْقِدْهَا حَطَبا جزْلا ، يعرف بها أهل العسكر مكانَك وموضِعَ رواقك ، فيَسْكُن نافِرُ قلوبهم ، ويقوَى واهِن قوتهم ، ويشتدَّ مُنْخَذِلُ ظهورِهِم ، ولا يَرْجُمون بك الظنون ، ويجعلون لك آراء السُّوء ، ويُرْجِفُونَ بك آناءَ الخوفِ[2] ، وذلك من فعلك رادٌّ عدُوَّك بغيظه ، لم يستقْلِلْ منك ظُفرا[3] ، ولم يبلُغْ من نكايتك سرورا إن شاء الله .

فإن انصرف عنك عدوُّكَ ، ونَكَلَ عن الإصابة من جندك ، وكانت بخيلك قوةٌ على طلبه ، أو كانت لك من فُرسانك خيلٌ مُعَدَّة ، وكتيبة منتخَبة ، وقدَرْتَ أن تركَبَ بهم أكْساءهم[4] ، وتحمِلَهم على سَنَنهم ، فأتبِعهم جريدةَ[5] خيلٍ عليها الثقاتُ من فُرْسانك ، وأولو النجدة من حُماتك ، فإنك ترْهِق[6] عدوك ، وقد أَمِنَ بياتَك ، وشُغِل بكلاله عن التحرُّز منك ، والأخذِ بأبواب معسكره ، والضبط لِمَحارسه عليك مُوهَنَةً حُماتُهم ، لَغِبَةً[7] أبطالُهم . لما ألْقَوْكم عليه من التَّشمير والجد قد عقَرَ[8] اللهُ فيهِم . وأصاب منهُم ؛ وجرح من مُقاتِلَتِهِم ، وكسَرَ من أمانيِّ ضَلالهم وَرَدَّ من مستعلى جِماحِهِمْ .

وتقدَّمْ إلى من توجِّهه فى طلبهم ، وتُتْبعه أكساءهم، أن يكونوا وهم فى سُكُونِ الريح ، وقلة الرَّفَثِ[9] ، وكثرة التسبيح والتهليل ، واستنصار الله عزّ وجل بقلوبهم

---

(١) الرواق : بيت كالفسطاط .

(٢) فى المنظوم والمنثور « ولا يرجفون فيك بالظنون ، ويجيلون لك آراء السوء ، وذلك من فعلك . . . الخ » .

(٣) فيه « ولم يستقل منك بظفر » ويقال : استقل غربه : أى كسره .

(٤) الأكساء : الأدبار جمع كسء بالضم ، وكسء كل شيء : مؤخره .

(٥) الجريدة : خيل لارجالة فيها . (٦) أرهقه عسرا : كلفه إياه ، وحمله على مالا يطيقه .

(٧) وصف من اللغوب ، وهو التعب والإعياء .

(٨) عقر البعير : ضرب قوائمه بالسيف وهو قائم ، والمعنى قد اندحروا وهزموا .

(٩) الرفث : الفحش .

وألسنتهم سِرًّا وجهْرا ، بلا َلجَب ضجّة ، ولا ارتفاع ضوضاء ، دون أن يَرِدوا على مطلَبهم ، وينتهزوا فُرصتهم ، ثُمَّ لَيشْهَرُوا السِّلاحَ ، وَينتَضُوا السُّيُوفَ ، فَإِنَّ لَها هَيبَةً رائِعةً ، وَبَديهَةً مَخُوفَةً ، لا يقُوم لها فى بُهْمَة[١] الليل وحِنْدِسه إلا البطلُ المحارِب ، وذو البصيرةِ المحامى ، والمستميتُ المقاتل ، وقليلٌ ماهُم عند تلك الحميَّة ، وفى ذلك المَوضع[٢] .

ليكن أولَ ما تتقدم بهِ فى التهيؤ لعدوك ، والاستعداد للقائه ، انتخا'بك من فُرسان عسكرك ، وحُماة جندك ، ذوى البأس والحُنْكة ، والجلدِ[٣] ، والصَّرامة ممن قد اعتاد طِرادَ الكُماة[٤] ، وكَشَر[٥] عن ناجذِه فى الحرب ، وَقام علَى ساقٍ فى منازلة الأقران ، ثَقِفَ الفُرُوسية[٦] ، مستجمعَ القوة ، مُسْتَحْصِدَ المَرِيرة[٧] صَبورا على أهْوَال الليل ، عارفًا بمَناهِزِ الفُرَص ، لم تُمْهِنه[٨] الحُنْكة ضعفا ، ولا بلغت به السن كَلالا[٩] ولا أسكَرتْه غِرَّة الحداثة جهلا ، ولا أبطرَته نجدة الأغمار[١٠] صَلَفا ، جريئا على مخاطرة التلف ، مُقْدما على ادِّراع الموتِ ، مكابرًا لمرهُوب[١١] الهَوْلِ ، متقحِّما مخشِيَّ الحُتُوف ، خائضاً غَمَراتِ المهالك ، برأيٍ يؤيِّده الحزمُ ونيَّة لا يخالجها الشكُّ ، وأهواء مجتمعة ، وقلوب مؤتَلِفة[١٢] ، عارفين بفضل الطاعة وَعزِّها وشرفها ، وَحيثُ محلُّ أهلها من التأييد والظفَرِ والتمكين ، ثم اعرِضهم رأْىَ عَيْنٍ على كُراعهم وأسلحتِهم ، ولتكُن دوابُّهم إناثَ عِتاقِ الخيل ، وأسلحتُهم سوَابغَ الدُّروع وَكمالَ آلة المحارِب ،

(١) البهمة : السواد ، والحندس : الظلمة والليل المظلم .
(٢) فى المنظوم والمنثور « عند تلك المواضع » .
(٣) فيه « والجد » . (٤) الكماة جمع كمىّ كغنى . وهو الشجاع : المتكمى فى سلاحه : أى المتغطى المتستر بالدرع والبيضة . (٥) الناجذ : أقصى الأضراس ، وكشر عن أسنانه : أبدى .
(٦) فيه « سقف الفراسة » وهو تحريف .
(٧) المريرة : العزيمة ، وأصلها الحبل الشديد الفتل ، واستحصد الحبل : استحكم .
(٨) أمهنه : أضعفه . (٩) فيه « دلالا » .
(١٠) الأغمار . جمع غمر كشمس وقفل وسبب وكتف ، وهو من لم يجرب الأمور ، ومغمر أيضا كمعظم . (١١) وفى صبح الأعشى « لمهيب » .
(١٢) وفى المنظوم والمنثور « موسعة » .

متقلدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجوهر وصافى الحديد ، المتخيرة من معادن الأجناس ، هندية الحديد أو تبتية[١] ، يمانية الطبع ، رقاق المضارب ، مسمومة[٢] الشحذ ، مشطبة الضريبة ، ملبدين بالترسة الفارسية . صينية التعقيب ، مغلمة ، المقابض بحلق الحديد ، أنحاؤها مربعة ، ومخارزها بالتجليد مضاعفة ، ومحملها[٣] مستخف ، وكنائن النبل وجعاب القسى قد استحقبوها ، وقسى الشريان[٤] والنبع ، أعرابية الصنعة ، مختلفة الأجناس ، محكمة العمل ، مقومة التثقيف[٥] ، ونصول النبل مسمومة ، وعملها مصيصى[٦] ، وتركيبها عراقى ، وترييشها بدوى ، مختلفة الصوغ فى الطبع ، شتى الأعمال فى التشطيب والتجنيح والاستدارة[٧] ، ولتكن الفارسية مقلوبة المقابض ، منبسطة السية[٨] سهلة الانعطاف ، مقربة الانحناء ، ممكنة الرمى ، واسعة الأسهم ، فرضها[٩] سهلة الورود ، ومعاطفها غير مقتربة[١٠] المواتاة .

ثم ول على كل مائة رجل منهم رجلا من أهل خاصتك وثقاتك ونصحائك ، له صيت فى الرياسة ، وقدم فى السابقة ، وأولية فى المشايعة[١١] ، وتقدم إليه فى ضبطهم وكف معرتهم[١٢] ، واستنزال نصائحهم ، واستعداد طاعتهم ، واستخلاص ضمائرهم ، وتعاهد كراعهم وأسلحتهم ، معفيا لهم من النوائب التى تلزم أهل العسكر وعامة

---

(١) نسبة إلى التبت ، وهى الجزء الجنوبى الغربى من الصين ، وهذه الكلمة ساقطة من صبح الأعشى ، وفى المنظوم والمنثور « أو بتنية » وهو تحريف .

(٢) وفيه « مستوية » وهو تحريف . (٣) المحمل : علاقة السيف .

(٤) الشريان بالفتح ويكسر : شجر للقسى .

(٥) هذه ساقطة من المنظوم والمنثور . (٦) وهذه أيضا ساقطة منه ، والمصيصة : بلد بالشام.

(٧) وفيه « فى التشطيب والاستزادة » وفيها نقص وتحريف .

(٨) سية القوس : ماعطف من طرفيها ، وفيه « السنة » .

(٩) الفرض: جمع فرضة كغرفة ، والفرضة من النهر : ثلمة يستقى منها ، ومن البحر: محط السفن.

(١٠) فيه « معنوية » وهو تحريف .

(١١) من قوله « له صيت — إلى فى المشايعة » ساقط منه .

(١٢) وهذه الكلمة أيضا ساقطة منه .

جندك ، واجعلهم عُدَّة لأمرٍ إنْ حَزَبك[١] أو طارقٍ إن أتاك[٢] . ومُرْهم أن يكونوا على أُهْبة مُعَدَّة ، وحَذَرٍ نافٍ لسِنَةِ الغَفْلة عنهم[٣] ، فإنك لاتدرى : أىَّ الساعات من ليلك ونهارك تكون إليهم حاجتك؟ فليكونوا كرجل واحدٍ فى التَّشمير والتَّرادُف[٤] وسُرعة الإجابة فإنك عسَيْتَ أن لاتجدَ عند جماعة جندك فى مثل تلك الرَّوْعة والمباغتة — إن احتجتَ إلى ذلك منهم — مَعُونةً كافيةً . ولا أُهْبة مُعَدَّة . بل ذلك كذلك . فليكن هٰؤلاء القومُ الذين تنتخِبُ عُدَّتَك . وقوّتك . بُعُوثا قد وظَّفْتَها[٥] على القواد الذين ولَّيتَهم أمورهم . فسمَّيْتَ أوّلا . وثانيا . وثالثاً . ورابعاً . وخامساً إلى عشرة : فإن اكتفَيتَ فيما يَبْدَهُك ويَطرُقك ببَعْث واحد. كان مُعدًّا لم تحتج إلى انتخابهم[٦] فى ساعتك تلك . فقطِّعْ البعثَ عليهم عند مايُرْهِقك . وإن احتجت إلى اثنين أو ثلاثة وجّهتَ منهم إرادتَكَ أو ماترَى قوتَك[٧] . إن شاء الله .

وكِّلْ بخزائنك ودواوينك رجلًا ناصحاً أميناً[٨] ذا وَرَع حاجز . ودين فاضل . وطاعة خالصة . وأمانة صادقة[٩] . واجعل معه خيلًا يكون مَسِيرُها ومنزلها وترحُّلها مع خزائنك وحولها . وتقدَّمْ إليه فى حفظها . والتوقِّى[١٠] عليها . واتِّهام كلّ من تُسْنِدُ إليه شيئاً منها على إضاعته والتهاوُن به ، والشدةِ على من دنا منها فى مسير ، أو ضامَّها فى منزل ، أو خالَطها فى مَنْهَل[١١] ، وليكن عامَّةُ الجند والجيش — إلا من استخلَصْتَ[١٢] المسير معها — متنحِّين عنها ، مُجانِبين لها فى المسير والمنزل، فإنه ربما كانت

(١) فيه « إن فاجأك » وحزبه الأمر : اشتد عليه .

(٢) فيه « أو طارق بيتك » . (٣) فيه « وحذرهم ، فإنك لاتدرى ... » .

(٤) فيه «والترادف » وهو تحريف .

(٥) فيه محل قوله « فليكن ... إلى قد وظفتها » « فاذكرها ولى الذين نبحث عدتك وقوتك تقويا قد قطعتها على القواد » وهو تحريف .

(٦) فيه « امتحانهم فى ساعتهم » وهو تحريف .

(٧) هذه الجملة ساقطة منه . (٨) فيه « رجلا أمينا صالحا » .

(٩) قوله « وطاعة ... إلى صادقة » ساقطة منه .

(١٠) فيه « والتوقى عليها واتهام من يسند إليه شيئاً منها » .

(١١) هذه الجملة ساقطة منه . (١٢) فيه « استصلحت » .

الجولةُ ، وحَدَثتْ الفزْعة ، فإن لم يكن للخزائن مِمّن يُوَكّل بها أهلُ حفظٍ لها وذَبٌّ عنها . وحِياطَة دونها . وقوّة على من أراد انتهابها[1] . أسرعَ الجندُ إليها . وتداعَوا نحوها . حتى يكاد يترامى ذلك بهم إلى انتهاب العسكر . واضطراب الفتنة ، فإن أهل الفتن وسُوء السيرة كثير ، وإنما همّتهم الشر ، فإياك وأن يكون لأحد فى خزائنك ودواوينك وبيوت أموالك مَطْمَع . أو يجد سبيلا إلى اغتيالها ومَرْزَئَتِها[2] ، إن شاء الله .

اعلم أن أحسن مكيدتك أثراً فى العامة . وأبعدها صيتاً فى حُسْن القالة . مانِلْتَ الظفر فيه بحزم الروية . وحسْن السيرة[3] ، ولطف الحيلة ، فلتكن رويّتك فى ذلك وحرصك على إصابته بالحيل ، لا بالقتال وأخْطار التلف ، وادسُسْ إلى عدوك، وكاتِبْ رءوسَهم وقادتهم ، وعِدْهم المَنالاتِ ، ومَنِّهم الولاياتِ ، وسوِّغْهم التُّراث[4] وضَعْ عنهم الإحَنَ[5] ، واقطع أعناقهم بالمطامع ، واستدْعهم بالمَثاوِب[6] واملأْ قلوبَهم بالترهيب ، إن أمكنتك منهم الدوائرُ ، وأصارتهم[7] إليك الرَّواجعُ وادعُهم إلى الوثوب بصاحبهم أو اعتزاله إن لم يكن لهم بالوثوب عليه طاقة ، ولا عليك[8] أن تطرَحَ إلى بعضهم كُتُبا كأنها جَوابات كُتُبٍ لهم إليك ، وتكتب على ألسنتهم كتباً إليك تدفعها إليهم ، وتَحْمِلُ بها صاحبَهُم عليهم ، وتُنْزِلُهُم عنده بمنزلَة التُّهَمة ومحل الظِّنّة[9] فلعلّ مَكِيدتك فى ذلك أن يكون فيها افتراقُ كلمتهم ، وتشتيتُ جماعتِهم ، وَإحَنُ[10] قلُوبهم ، وسوء الظن من واليهم بهم ، فيُوحِشهم منه خوفُهُم

---

(١) من قوله « وحياطة ... إلى انتهابها » ساقط منه .

(٢) فيه « ومريتها » ورزأه ماله كجعل وعلم رزءا ومرزئة . أصاب منه شيئا .

(٣) فيه « بحسن الروية وحسن التدبير » .

(٤) فيه « التراب » وهو تصحيف .

(٥) الإحن: جمع إحنة بالكسر : وهى الحقد . (٦) هذه الجملة ساقطة منه .

(٧) فيه « وأصاربهم » وهو تصحيف .

(٨) أى ولا حرج عليك . (٩) قوله « ومحل الظنة » ساقط منه .

(١٠) فيه « واحش » وهو تحريف .

إياه على أنفسهم إذا أيقنوا باتهامه[١] إياهم ، فإن بَسَط يدَه بقتلهم ، وأولغ سيفه فى دمائهم ، وأسرع الوثوبَ بهم ، أشْعَرَهُم جميعا الخوفَ ، وشمِلهم الرعبُ ودعاهُم إليك الْهَرب ، فتهافتوا نحوكَ بالنصيحة ، وأمُّوكَ بالطلب[٢] وإن كان متأنِّيا محتملا ، رجوتَ أن تستميلَ إليك بعضهم ، وتستدعىَ بالطمع ذوى الشَّرَهِ[٣] منهم ، وتنال بذلك ما تحبُّ من أخبارهم إن شاء الله .

إذا تدانى الصَّفَّان ، وتواقف الجَمْعَان ، واحتضَرت الحرب ، وعبَّأْتَ أصحابك لقتال عدوهم ، فأكثِر من قول : لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله ، والتوكل على اللّٰه عز وجل ، والتفويض إليه ، ومسألَتِه توفيقَك وإرشادك ، وأن يعزم لك على الرشد المنجِى[٤] ، والعصمَة الكالِئَة ، والحِيَاطة الشاملة .

ومُرْ جندكَ بالصمت وقلة التلفُّت عند المُصَاولَة[٥] ، وكثرةِ التكبير فى نفوسهم ، والتسبيح بضمائرهم ، وألّا يُظْهروا تكبيرا إلا فى الكَرَّات والحَمَلات ، وعند كل زُلْفة يزدَلِفونها ، فَأَمَّا وهم وقوفٌ فإن ذٰلك من الفشل والجبن ولْيَذكروا اللّٰه فى أنفسهم ، ويسألوه نصرَهم وإعزازَهم[٦] وليُكثِروا من قَوْل : لا حول ولا قُوَّة إلا باللّٰه العلى العظيم ، حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل ، اللهم انصرنا على عدوكَ وعدونا الباغى ، واكْفِنَا شوكته المستحِدَّة ، وأيِّدنا بملائكتك الغالبين ، واعْصِمْنَا بعونك من الفَشَل والعجز ، إنك أرحم الراحمين .

وليكن فى عسكَرِكَ مكبِّرون بالليل والنهار قبل المُواقتة ، وقوم مَوقوفون[٧] يحُضُّونَهُم على القتال ، ويحرِّضونَهم على عدوهِم ، ويَصِفون لَهُم منازِل الشهداء وثوابَهُم

---

(١) فيه « بأنها مناياهم » وهو تحريف .

(٢) هذه الجملة ساقطة منه . (٣) فيه « ذوى الشر » وهو تحريف .

(٤) هذه الكلمة ساقطة منه ، وفيه « والحيطة » وهو تحريف .

(٥) فيه « وقلة التلفت إلى المشار له » . (٦) قوله « وليذكروا ... إلى وإعزازهم » ساقط منه .

(٧) فيه « قبل المواقعة يطوفون عليهم يحضونهم » .

ويذكرونهم الجنة ودرجاتها، ونعيم أهلها[١] وسكانها، ويقولون: اذكروا الله يذكركم، واستنصروه ينصركم، والتجئوا إليه يمنعكم[٢]، وإن استطعت أن تكون أنت المباشر لتعبئة جندك، ووضعهم مواضعهم من راياتك[٣]، ومعك رجال من ثقات فرسانك ذوو سن وتجربة ونجدة على التعبئة التى أمير المؤمنين واصفها لك فى آخر كتابه هذا فافعل إن شاء الله تعالى.

أيدك الله بالنصر، وغلب لك على القوة، وأعانك على الرشد، وعصمك من الزيغ، وأوجب لمن استشهد[٤] معك ثواب الشهداء، ومنازل الأصفياء، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب سنة تسع وعشرين ومائة[٥].

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢: ٢٠١، وصبح الأعشى ١٠: ١٩٥، ومفتاح الأفكار ص ٢٣٠)

٥٠٦ — رسالة عبد الحميد إلى الكتاب

وكتب عبد الحميد رسالة إلى الكتّاب يوصيهم فيها، قال:

« أما بعد، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرّمين، أصنافا، وإن كانوا فى الحقيقة سواء، وصرّفهم فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات، إلى أسباب معايشهم[٦]، وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشر الكتّاب فى أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءة[٧] والعلم والرواية[٨]،

---

(١) فيه « ويذكرونهم الجنة ورخاء أهلها وسكانها ». (٢) هذه الجملة ساقطة منه.

(٣) فى صبح الأعشى « من رأيك » وهو تحريف.

(٤) استشهد بالبناء للمجهول: قتل فى سبيل الله.

(٥) قدمنا فى أول هذه الرسالة أن قتال عبد الله بن مروان وأبيه مع الضحاك بن قيس كان سنة ١٢٨ هـ. وقال الطبرى: وقيل إن الضحاك إنما قتل سنة ١٢٩ هـ — انظر تاريخ الطبرى ٦: ٧٧

(٦) فى مقدمة ابن خلدون « معاشهم ». (٧) فيها « والمروءات ».

(٨) فيها « والرزانة ».

بكم تنتظِمُ للخلافة مَحاسِنُهَا ، وتستقيمُ أمُورها ، وبنصائحكم يُصْلح اللهُ للخلق سلطانَهم وتعمرُ بلادهم[١] ، لايستغنى المَلِكُ عنكم ، ولا يُوجد كافٍ إلا منكم ، فَمَوْقِعُكم من الملوك مَوْقِعَ أسماعِهِم التى بها يَسْمَعُون ، وأبصارهم التى بها يُبْصِرون ، وألسنتِهِم التى بها يَنطقون ، وأيديهم التى بها يَبْطِشون ، فَأَمْتَعكم اللهُ بما خصَّكم من فضل صناعتكم ، ولا نَزَع عنكم ما أضْفاه[٢] من النعمة عليكم .

وليس أحدٌ من أهل الصناعات كلِّها ، أحوجَ إلى اجْتماع خِلال الخير المحمودة ، وخِصال الفضل المذكورةِ المعدودةِ ، منكم أيُّها الكتَّاب إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صِفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبُه الذى يَثِق به فى مُهمات أموره . أن يكُون حليما فى موضع الحِلْمِ ، فهيماً فى موضع الحُكم ، مِقْدَاما فى موضع الإقدام ، مِحْجاما فى موضع الإحجام ، مُؤْثِراً للعفاف ، والعدلِ والإنصاف ، كَتُوما للأسرار ، وفيًّا عند الشدائد ، عَالما بما يأتى من النوازِل ، يَضَع الأمورَ مواضِعَها ، والطوارقَ أماكنَهَا ، قد نَظَر فى كل فنٍّ من فنون العلم فأحْكَمه فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يَكْتفِى به ، يعرف بغريزةِ عقله ، وحُسْن أدبه ، وفضل تجربته ، ما يَرِدُ عليه قبلَ وُروده ، وعَاقبةَ مايَصْدُر عنه قبل صُدوره ، فيُعِدُّ لكل أمر عُدَّته وعَتَادَه[٣] ، ويُهَيِّئُ لكل وجهٍ هيئتَه وعَادته .

فتنافَسُوا يا معشر الكتاب ، فى صنوف الآداب ، وتفقَّهوا فى الدين ؛ وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربيَّة ، فإنها ثِقَافُ[٤] ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط ؛ فإنه حِلْيَة كتبكم ، وارْوُوا الأشعار ، واعرِفوا غريبَهَا ومعانيَها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسِيَرَها ، فإن ذلك مُعِينٌ لكم على ماتسموا إليه هِمَمُكم ، ولا تضيِّعوا النظر فى الحساب ، فإنه قِوامُ كُتَّاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع :

---

(١) فيها « بلدانهم » .   (٢) أسبغه .

(٣) العتاد : العدة .   (٤) الثقاف فى الأصل : ماتسوى به الرماح .

سَنِيِّها[1] ودَنيّها ، وسَفْسَافِ[2] الأمور ومحاقِرها ، فإنها مَذَلَّة للرِّقاب ، مَفْسَدَة للكُتَّاب ، ونَزِّهوا صناعتكم عن الدَّناءات[3] ، وَارْبَئُوا[4] بأنفسكم عن السِّعاية والنميمة ، وما فيه أهلُ الجهالات ، وإياكم والكِبْرَ وَالصَّلَف[5] وَالْعَظَمَةَ ، فإنها عداوة مُجتلَبة من غير إِحْنَة ، وتحابُّوا فى الله عزّ وجل فى صناعتكم ، وتواصَوا عليها بالذى هو أليقُ بأهل الفضل والعدل والنُّبل من سَلَفكم .

وإن نَبَا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسُوه ، حتى يَرْجِع إليه حالُه ، ويثُوب[6] إليه أمره ، وإن أقعدَ أحدَكم الكِبَرُ عن مكسبه ولقاء إخوانه . فزُوروه وعظِّموه ، وشاوِروه ، واستظهِرُوا[7] بفضل تجربته ، وقِدَمِ[8] معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظْهَرَ به ليوم حاجته إليه ، أحفَظَ[9] منه على ولده وأَخيه ، فإن عرَضَتْ فى الشغل مَحْمَدَة ، فلا يُضِيفها[10] إلا إلى صاحبه ، وإن عرَضَتْ مَذَمَّة فَلْيَحْمِلها هو من دونه ، وَلْيَحْذر السَّقْطة والزَّلَّة ، وَالمَلَلَ عند تغير الحال ، فإن العيبَ إليكم معشَرَ الكتاب . أسرعُ منه إلى القرّاء . وهو لكم أفسدُ منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صَحِبَه الرجلُ[11] يَبْذُلُ له من نفسه ما يجب له عليه من حقِّه . فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره. واحتماله وصبره[12]. ونصيحته وكتمان سره ، وتدبيرِ أمره، ماهو جَزاءُ لحقه ، ويصدِّق ذلك بفعاله[13] عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى مالديه .

فاستَشْعِروا ذلكم ـ وفقكم الله ـ من أنفسكم فى حالة الرَّخاء والشدة ، والحِرمان والمُواساة والإحسان ، والسَّرَّاء والضَّرَّاء ، فنِعْمت الشِّيمةُ هذه لمن وُسِمَ بها، من أهل

---

(١) أى رفيعها . (٢) الردىء من كل شىء .
(٣) فى المقدمة «الدناءة» . (٤) ربأ: علا وارتفع. (٥) فيها « والسخف » .
(٦) يرجع. (٧) تقووا. (٨) فيها « وقديم » . (٩) فيها « أحوط » .
(١٠) فيها « فلا يصرفها » . (١١) فيها « إذا صحبه من يبذل له » .
(١٢) فيها « وخيره » . (١٣) فيها «تبعاً له» وهو تحريف .

هذه الصناعة الشريفة ، فإذا وُلِّيَ الرجلُ منكم ، أو صُيِّرَ إليه من أمر خَلْقِ الله وعِياله أمْرٌ ، فليراقِبْ الله عز وجل ، وليُؤْثِرْ طاعته وليكن على الضعيف رفيقا ، وللمظلوم مُنصِفا ، فإن الخَلقَ عِيالُ الله ، وأحبُّهم إليه أرفقُهم بعياله ، ثم ليكن بالعَدْل حاكما ، وللأشراف مُكرِما ، وللفَيْء مُوفِّرا ، وللبلاد عامراً وللرَّعية متألِّفا ، وعن إيذائهم متخلفاً ، وليكن فى مجلسه متواضعاً حليما ، وفى سِجِلَّات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقا ، وإذا صَحِب أحدُكم رجلا فليَختبر خلائقه ، فإذا عرَف حَسَنَها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقه من الحسَن ، واحتال لصَرْفه عما يَهْواه من القبيح ، بألطف حيلة وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها ، التَمَسَ معرفة أخلاقها ، فإن كانت رَمُوحا[1] لم يَهِجْها إذا رَكِبَها ، وإن كانت شَبُوبا[2] اتَّقاها من قِبَل يديها ، وإن خاف منها شُرُودا توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حَرُونا قَمَع برفق هواها فى طريقها ، فإن استمرت عَطَفَها يسيراً ، فيَسْلَس له قِيادها ، وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعامَلهم ، وجرَّبهم[3] وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يُحاوِرُه من الناس ويناظِره ، ويَفْهَم عنه أو يخاف سَطْوَته ، أولَى بالرِّفق بصاحبه ، ومداراته ، وتقويم أَوَده ، من سائس البهيمة التى لا تُحِير[4] جوابا ، ولا تَعْرِف صوابا ، ولا تفهم خِطابا ، إلا بقدر ما يُصَيِّرها إليه صاحبُها الراكب عليها ، ألاَ فأمْعِنوا[5] — رحمكم الله — فى النظر ، وأعمِلوا فيه ما أمكنكم من الرويَّة والفكر ، تأمَنوا[6] بإذن الله ممن صَحِبْتموه النَّبْوَة ، والاستثقال والجفوة ، ويصير منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) رمحه الفرس كمنع : رفسه . (٢) شب الفرس كضرب ونصر: رفع يديه ، وفى المقدمة « من بين يديها » . (٣) وفى صبح الأعشى « وخدمهم » . (٤) أى لا ترد .

(٥) فيها « فارفقوا » . (٦) تأمنوا : مجزوم فى جواب الأمر : أو بعبارة أخرى جواب لشرط محذوف مع فعل الشرط أى « إن تعملوا ... تأمنوا » ومن ثم يجوز فى « ويصير » ثلاثة أوجه : الجزم والنصب والرفع كما هو مشهور ، فقول بعضهم : « ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ » مردود.

ولا يجاوزَنَّ الرجل منكم ـ فى هيئة مجلسه ، ومَلْبَسه ومَرْكَبه ، ومَطْعمه ومشربه ، وبِنائه[١] ، وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره ـ قدرَ حقه ، فإنكم ـ مع ما فضّلكم الله به من شرف صنعتكم ـ خَدَمةٌ لا تُحَمَّلون فى خدمتكم على التقصير، وحَفَظَةٌ لا تُحتمل منكم أفعالُ التضييع والتبذير ، واستعينوا على عفافكم بالقَصْد فى كل ماذكرتُه لكم ، وقَصَصْتُه عليكم ، واحذروا متالِفَ السَّرَفِ ، وسوء عاقبة التَّرَف ، فإنهما يُعْقبان الفقر ، ويُذلاَّن الرقاب ، ويفْضَحان أهلهما ، ولا سيما الكتّاب وأرباب الآداب ، وللأمور أشباهٌ ، وبعضها دليل على بعض ، فاستدِلُّوا على مُؤْتَنَف[٢] أعمالكم ، بما سَبَقَتْ إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضَحَها مَحَجَّةً ، وأصدقها حُجَّة ، وأحمدها عاقبة .

واعلموا أن للتدبير آفةً مُتْلِفة ، وهى الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته[٣] ، فَلْيَقْصِد الرجل منكم فى مجلسه قَصْدَ الكافى من منطِقه ، وَلْيُوجز فى ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بمجامع حُجَجِه ، فإن ذلك مصلحة لفعله ، ومَدْفعة للتشاغل عن إكثاره ، ولْيَضْرَع إلى الله فى صلة توفيقه ، وإمداده بتسديده ، مخافة وقوعه فى الغلط المُضِرّ ببدنه وعقله وَأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظانٌّ ، أو قال قائل : إن الذى بَرَز من جميل صنعته ، وقوة حركته ، إنما هو بفضل حِيلته ، وحُسْن تدبيره ، فقد تعرض بظنه[٤] أو مقالته إلى أن يَكِلَه اللهُ عز وجل إلى نفسه ، فيصيرَ منها إلى غير كافٍ ، وذلك على من تأمّله غيرُ خاف .

ولا يقلْ أحد منكم إنه أبْصَرُ بالأمور ، وَأَحمَلُ لعبْء التدبير ، من مُرَافقِه فى صناعته ، ومُصاحِبِهِ فى خدمته ، فإن أعقلَ الرجلين عند ذوى الألباب ، مَن رَمَى

(١) قد يكون المراد به مسكنه الذى يبنيه ، وقد يكون المراد زفافه ، من بنى على أهله وبها بناء . وابتنى : زفها .

(٢) مبتدأ . (٣) فيها « عمله ورويته » . (٤) فيها « بحسن ظنه .

بالعُجْبِ وراءَ ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقلُ منـه ، وأحْمَدُ[١] فى طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضلَ نعم الله جلّ ثناؤه ، من غير اغترارٍ برأيه ، ولا تزْكِية لنفسه ، ولا تـكاثُرٍ على أخيه أو نظيره ، وصاحبه وعَشِيره ، وحمدُ اللهِ واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظَمته ، والتذلّل لعزّته ، والتحدّث بنعمته .

وأنا أقول فى كتابى هذا ما سبَقَ به المثل : « من يلزم النصيحة[٢] يلزمه العمل » وهو جَوْهر هذا الـكتاب ، وغُرّة كلامه ، بعد الذى فيه من ذكر الله عزّ وجل ، فلذلك جعلته آخِرَه ، وتمَّمْته به ، تولاّنا الله وإياكم يا معشر الطَّلَبة والـكَتَبة ، بما يتولّى به من سبَقَ علمُه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده ، والسلام عليـكم ورحمة الله وبركاته » .

(صبح الأعشى ١ : ٨٥ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٢٧٥ ، وكتاب الوزراء والـكتاب ص ٧٠)

٥٠٧ — رسالة عبد الحميد فى الشطرنج

« أما بعدُ : فإن الله شرَعَ دينه بإنهاج[٣] سُبُله ، وإيضاحِ مَعالمه بإظهار فرائضه ، وبعَثَ رسله إلى خَلْقه دلالةً لهم على رُبُوبيَّته ، واحتجاجاً عليهم برسالاته ، وتقدُّما إليهم بإنذاره ووَعِيده ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وسلم وَحْيَه ، وقفَّى به رسله ، واُبتعثه لإحياء دينه الدارس[٤] ، مرتضياً له على حينَ انطمسَتِ الأعلام مختفيةً ، وتشتّتَتِ السُّبُلُ متفرقة ، وَعفَتْ آثار الدين دارسةً ، وسطع رَهَجُ[٥] الفتن ، واعتلى قَتَامُ الظُّلْم ، واستنهد[٦]

---

(١) فيها « وأجمل » . (٢) فى نسخة من صبح الأعشى «الصحة» وذكر الجاحظ فى البيان والتبيين (٢ : ٤٦) قال : ومن كلام الأحنف السائر فى أيدى الناس « الزم الصحة يلزمك العمل » .

(٣) أنهج : أوضح (ووضح أيضا) وكذا نهج كمنع تستعمل بالمعنيين .

(٤) درس الأثر كدخل : عفا وامحى . (٥) الرهج بالفتح وبالتحريك : الغبار ، وكذا القتام

(٦) فى كتب اللغة : نهد الرجل : نهض ، وليس فيها الصيغة المزيدة .

الشرك ، وأسدف[1] الكفر ، وظهر أولياء الشيطان ، لطموس الأعلام ، ونطق زعيم الباطل ؛ لسكتة الحق ، واستطرق[2] الجَوْرُ ، واستنكح الصدوف عن الحق ، واقمطرّ سَلْهَبُ[3] الفتنةِ ، واستضرم[4] لقاحُها ، وطبّقت الأرضَ ظلمةُ كفر وغبابة فساد ، فصدَع[5] بالحق مأمورا ، وبلّغ الرسالة معصوما ، ونصح الإسلام وأهله ، دالاً لهم على المَرَاشِد ، وقائداً لهم إلى الهداية ، ومُنيرًا لهم أعلام الحق ، ضاحيةً[6] ، مُوشداً لهم إلى استفتاح باب الرحمة ، وإعلان عُرْوة النجاة ، موضّحاً لهم سُبُل الغواية[7] ، زاجرًا لهم عن طريق الضلالة ، محذّرا لهم الهَلَكة ، مُوعِزاً إليهم في التَّقدِمة[8] ، ضاربا لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشَون ، وما إليه يسارعون ويطلبون ، صابرًا نفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترغيب والترهيب ، حريصا عليهم ، متحنّنا على كافّتهم ، عزيزًا عليه عَنَتُهم[9] ، رءوفا بهم رحيما ، تقدّمه شفقتُه عليهم وعنايتُه برشدهم ، إلى تجريد الطلب إلى ربه ، فيما فيه بقاء النعمةِ عليهم ، وسلامةُ أديانهم ، وتخفيفُ أواصِر[10] الأوزار عنهم ، حتى قَبَضه الله إليه صلى الله عليه وسلم ناصحاً مُتنصّحاً[11] ، أميناً مأموناً ، قد بلّغ الرسالة ، وأدّى النصيحة ، وقام بالحق ، وعَدّل عمود الدين . حتى اعتدل ميلُه ، وأذلّ الشركَ وأهلَه ، وأنجز الله له وعدَه ، وأراه صِدْقَ أسبابه في إكماله للمسلمين دينَه ، واستقامة سنّته فيهم ، وظهورِ شرائعه عليهم ، قد أبان لهم مُوبِقات[12] الأعمال ، ومُفْظِعات الذنوب ، ومُهْبِطات الأوزار ، وظُلَم

(١) أسدف الليل : أظلم. (٢) استطرقه فحلا : طلب منه أن يعيره إياه ليطرق إبله ، وطرق الفحل الناقة : قعا عليها وضربها ، ومعنى استطرق هنا : استفاض وفشا ، واستنكح المرأة : نكحها . والصدوف : الإعراض . (٣) قطر: اشتد ، والسلهب : الطويل من الخيل والناس .

(٤) في كتب اللغة : استضرم النار : أوقدها ، فاضطرمت وانضرمت ، وطبقه : غطاه .

(٥) صدع به : جهر . (٦) أي واضحة ظاهرة ، من ضحا إذا برز للشمس .

(٧) أي موضحا لهم ما فيها من الضرر والأذى ليتنكبوا عنها .

(٨) أي في أن يقدموا العمل الصالح. (٩) العنت: الوقوع في أمر شاق.

(١٠) الأواصر . جمع آصرة ، وهي حبل صغير يشد به أسفل الخباء .

(١١) التنصح: كثرة النصح ، ومنه قول أكثم بن صيفي « إياكم وكثرة التنصح فإنه يورث التهمة» .

(١٢) أي مهلكات ، من أوبقه أي أهلكه ، وفظع الأمر ككرم وأفظع : اشتدت شناعته وجاوز المقدار في ذلك ، ومهبطات الأوزار : أي الأوزار التي تهبط صاحبها وتحط قدره .

الشُّبُهات ، وما يدعو إليه نُقصان الأديان ، وتستهويهم به الغَوايات ، وأوضح لهم أعلام الحق ، ومنازل المراشد ، وطرق الهدى ، وأبواب النجاة ، ومعاقِلَ العِصْمة ، غير مدَّخِرٍ لهم نُصْحاً ، ولا مُبْتَغٍ فى إرشادهم غُنْماً .

فكان مما قدَّم إليهم فيه نَهْيَه ، وأعلمهم سوء عاقبته ، وحذَّرهم إصرَه[1] وأوعزَ إليهم ناهيا وواعظا وزاجرا ، الاعتكاف على هذه التماثيل من الشِّطْرَنج[2] ، والمواصلة عليها ؛ لما فى ذلك من عظيم الإثم ، ومُوبِق الوِزر ، مع مَشْغَلَتِها عن طلب المعاش ، وإضرارها بالعقول ، ومنعها من حضور الصَّلوات فى مواقيتها مع جميع المسلمين .

وقد بلغ أميرَ المؤمنين أن ناساً ممن قِبَلك من أهل الإسلام قد ألْهَجَهُم[3] الشيطان بها ، وجَمعهم عليها ، وألَّف بينهم فيها ، فهم مُعْتَكِفون عليها من لَدُن صبحهم إلى مُمْساهم[4] ، مُلْهِيةً لهم عن الصلوات ، شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بِسُنَن دينهم ، وافْتُرِض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مُداعَبتهم فيها ، وسُوءِ لفظهم عليها ، وإن ذلك من فعلهم ظاهرٌ فى الأندية والمجالس ، غير مُنْكَر ولا معيب ، ولا مستفظع عند أهل الفقه ، وذوى الوَرَع والأديان والأسنان منهم ، فأكبرَ أمير المؤمنين ذلك وأعظمه ، وكَرِهه واستكبره ، وعلم أن الشيطان عندما يئس من بلوغ إرادته فى معاصى

---

(١) الإصر : الذنب . (٢) جاء فى المصباح « الشطرنج معرب ،قيل بالفتح وقيل بالكسر وهو المختار قال ابن الجواليقى فى كتاب ما تلحن فيه العامة : « ومما يكسر والعامة تفتحه أو تضمه الشطرنج بكسر الشين ، قالوا وإنما كسر ليكون نظير الأوزان العربية مثل جردحل ، إذ ليس فى الأبنية العربية فعلل بالفتح حتى يحمل عليه » ـ والجردحل : الوادى ـ وجاء فى شفاء الغليل « قال الحريرى بفتح الشين والقياس كسرها لأنهم لم يقولوا فعلل بفتح الفاء ، وقيل إن ابن القطاع نقله عن سيبويه ومثل له ببرطح ، وهو حزام الدابة ، ويقال بالسين والتين والمعروف فيه الفتح ، وقال الواحدى : الكسر أحسن ليكون كجردحل ، وقيل هو عربى من المشاطرة لأن لكل شطرا ومنهم من جعله أشطرا ، والصحيح أنه معرب صدرنك أى مائة حيلة ، والمقصود التكثير ، وقيل معرب شدرنج أى من اشتغل به ذهب عناؤه باطلا » أقول : والقول بعربيته إنما هو من تمحل بعض الفقهاء اللغويين ؛ وتحيلهم فى صبغ الكلمات الأعجمية بصبغ عربى .

(٣) أى أغراهم بها ، من لهج بالأمر كفرح ، أى أغرى به فثابر عليه .

(٤) الممسى : الإمساء .

الله عز وجل بمصر المسلمين ومجمعهم صراحا[١] وجهارا ، أقدم بهم على شبهة مهلكة ، وزين لهم ورطة موبقة ، وغرهم بمكيدة حيله ، إرادة لاستهوائهم بالخدع ، واجتيالهم[٢] بالشبه والمراصد الخفية المشكلة ، وكل مقيم على معصية الله صغرت أو كبرت مستحلا لها مشيدا[٣] بها ، مظهرا لارتكابه إياها ، غير حذر من عقاب الله عز وجل عليها ، ولا خائف مكروها فيها ، ولا رعيب[٤] من حلول سطوته عليها ، حتى تلحقه المنية ، فتختلجه وهو مصر عليها ، غير تائب إلى الله منها ، ولا مستغفر من ارتكابه إياها ، فكم قد أقام على موبقات الآثام وكبائر الذنوب حتى حدّه مخترم[٥] أيامه .

وقد أحب أمير المؤمنين أن يتقدم إليهم فيما بلغه عنهم ، ويوعز إليهم ويعلمهم ما فى أعناقهم عليها ، وما لهم فى قبول ذلك[٦] من الحظ ، وعليهم فى تركه من الوزر ، فآذن[٧] بذلك فيهم ، وأشده فى أسواقهم . وجميع أنديتهم ، وأوعز إليهم فيه ، وتقدم إلى عامل شرطتك : فى إنهاك[٨] العقوبة لمن رفع إليه من أهل الاعتكاف عليها ، والإظهار للعب بها ، وإطالة حبسه فى ضيق وضنك ، وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين ، وأفطمهم عما لهجوا[٩] به من ذلك ، والتمس بشدتك عليهم فيه وإنهاكك بالعقوبة عليه ثواب الله وجزاءه ، واتباع أمير المؤمنين ورأيه ، ولا يجدن أحد عندك هوادة فى التقصير فى حق الله عز وجل ، والتعدى لأحكامه ،

---

(١) الصراح بالضم والكسر : المصارحة .

(٢) اجتالهم : حولهم عن قصدهم . (٣) أشاده وأشاد به : أشاعه ورفع ذكره .

(٤) أى مرعوب ، رعبه كمنعه خوفه فهو مرعوب ورعيب ، وفى الأصل « رعب » وهو تحريف

(٥) هو الموت ، اخترمته المنية : أخذته واقتطعته ، وفى الأصل « محزم » ، وحدّه : دفعه ومنعه ، وفى الأصل « مدبه » وأراه محرفا وصوابه « حده أو صده » .

(٦) أى وما لهم فى قبول ذلك النصح الذى تقدم به إليهم من الحظ ، وما عليهم فى تركه من الوزر .

(٧) آذنه الأمر وبه : أعلمه .

(٨) نهكه السلطان عقوبة كسمع وأنهكه : بالغ فى عقوبته .

(٩) فى الأصل « نهجوا به » وهو تحريف .

فتَحِلّ بنفسك ما يسوءك عاقبته ومَغَبَّته ، وتتعرض به لِغِيَرِ الله عز وجل ونَكاله ، واكتُبْ إلى أمير المؤمنين ما يكون منك إن شاء الله . والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ٢ : ٢٢٢)

٥٠٨ — رسالة عبد الحميد فى وصف الصيد

ومن رسائله رسالته التى وصف بها الصيد :

« أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيَّدا بالعز ، مخصوصاً بالكرامة ، مُمتَّعا بالنعمة ، إنه لم يُلَقَّ أحد من المقتنِصين ، ولا مُنِح متطرِّف من المتصيِّدين ، إلا دون ما لقَّانا الله به من اليُمْن والبركة ، ومنحَنا من الظفَر والسعادة فى مَسِيرنا ، من كثرة الصيد ، وحُسْن المقتنص ، وتمكين الجاسَة[١] وقُرْب الغاية ، وسُهولة المورِد ، وعُمُوم القُدورة[٢] ، إلا ما كان من محاولة الطلب ، وشدة النَّصَب ، لنافِر الصيد ، وفائتة[٣] الطَّريدة ، التى أمعنَّا فى الطلب لها ، وأعجزَنَا البُهْرُ عن اللَّحاق بها ، لتفاوُتِ سبْقها ، ومنقطع هرَبِها ومتفرِّق سبُلها ، ثم آلَ بنا ذلك إلى حُسْن الظفر ، وتناوُل الأرَب ، ونهاية الطرب .

وإنى أخبر أمير المؤمنين أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح ، وأثقَف الضَّوارى ، أكرمها أجناساً ، وأعظمها أجساما ، وأحسنها ألواناً ، وأحدِّها أطرافا ، وأطولها أعضاء ، قد ثُقِّفَت بحسن الأدب ، وعوِّدت شدة الطلب ، وسبَرَت[٤] أعلام المواقف ، وخبَرَت المجاثِم ، مَجْبولة على ما عُوِّدت ، ومقصورة على ما أدِّبت ، ومعنا من

---

(١) الجاسة : جمع جائس (كقادة جمع قائد) من جاسوا خلال الغابات : أى تخللوها فطلبوا ما فيها من الصيد ، وفى الأصل « الجساسة » من جس ، والمعنى عليها صحيح أيضا .

(٢) القدورة : القدرة ، وفى الأصل « المقدورة » وهو تحريف .

(٣) فى الأصل « وقائدة » وهو تحريف ، والبهر : انقطاع النفس من الإعياء .

(٤) السبر : امتحان غور الجرح وغيره ، والمعنى وعرفت ، والأعلام جمع علم بالتحريك : وهو ما ينصب فى الطريق ليهتدى به .

نفائس الخيل المخبورة الفَراهة[١] ، من الشِّهرية[٢] الموصوفة بالنَّجــــابة ، والجرى والصَّلابة ، فلم نزَل بأخفض سَيْر ، وأثقَفِ طَلَب ، وقد أمطرتْنا السماء مطرًا متداركا فرَبَت منه الأرض ، وَزَهَر البقل ، وسكَن القَتام[٣] من مُثار السَّنابك ، ومتشعِّبات الأعاصير ، مُهْلَةً أن سِرْنَا غَلَواتٍ[٤] ، ثم برزت الشمس طالعةً ، وانكشفت من السحاب مسفرة ، فتلألأت الأشجار ، وضَحِكَ النُّوّار[٥] ، وانجلت الأبصار ، فلم نر منظرًا أحسن حُسْنا ، ولا مَرْمُوقا أشبه شكلا ، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض ، والخيل تمرَحُ بنا نشاطا ، وتجتذبنا أعنَّتها انبساطا ، ثم لم نلبث أن عَلَتْنَا ضَبابة تَقْصُر[٦] طَرْفَ الناظر ، وتُخْفِي[٧] سُبُل السلام ، تغشانا تارةً وتنكشف أخرى ، ونحن بأرض دَمِثة[٨] التراب ، أشِبَة الأطراف ، مُغْدِقة[٩] الفِجاج ، مملوءةٍ صيدًا من الظباء والثعالب والأرانب ، فأدّانا المسير إلى غابةٍ دونها مَألَفُ الصيد ، ومجتمع الوحش ، وَنهاية الطالب ، قد جاوَزناها وَنحن على سبيل الطلب مُمْعِنون ، وَبكل حرَّة[١٠] جَوْنة متفرقون ، فرجع بنا العوْد على البَدْء ، وَقد انجلت الضبابة ، وَامتدَّ البصر ، وَأمكن النظر ، فإذا نحن برَعْلَةٍ[١١] من ظباء ، وَخِلفة[١٢] آرامٍ يرتعن

---

(١) الفاره من الدواب : الجيد السير ، وقد فره ككرم فراهة .

(٢) الشهرية : نوع من البراذين (والبراذين من الخيل : ما كان من غير نتاج العراب) .

(٣) القتام : الغبار ، والسنابك جمع سنبك كقنفذ : وهو طرف الحافر .

(٤) جمع غلوة بالفتح : وهى قدر رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ، ويقال : هى قدر ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة . (٥) الزهر أو الأبيض منه .

(٦) أى تحبسه ، وفى الأصل « علقتنا صبابة يقتصر » وهو تحريف .

(٧) فى الأصل « ويحيى » وهو تحريف .

(٨) دمث المكان كفرح: سهل ولان ، وأشب الشجر كفرح أيضاً: التف ، وفى الأصل «أسنه».

(٩) غدقت الأرض كفرح وأغدقت : أخصبت ، وأرض غدقة كفرحة : فى غاية الرى ، وهى الندية المبتلة الربا الكثيرة الماء .

(١٠) الحرة : أرض ذات حجارة نخرة سود ، وفى الأصل « حر » والجونة : السوداء.

(١١) الرعلة: القطيع .

(١٢) أى بقية، يقال : بقى فى الحوض خلفة من ماء: أى بقية ، وكل شىء يجىء بعد شىء فهو خلفة. والآرام جمع رئم بالكسر : وهو الظبى الخالص البياض .

آنسات ، قد أحالتهن الضبابةُ عن شخصنا ، وَأذهَلَهن أنيقُ الرياض عن السّماع حِسَّنا ، فلم نُعِجْ[1] إلا والضوارى لائحة لهن من بُعْدِ الغاية ، ومنتهى نظرِ الشّاخص ، ثم مدّت الجوارحُ أجنحتَها ، واجتذبتِ الضوارى مَقاوِدَها ، فأمرتُ بإرسالها على الثقة بمُحْضِرِها[2] ، وسرعة الجوارح فى طلبها ، فمرّتْ تخِفّ خَفيفَ الريح عند هبوبها ، تسَفّ الأرض سَفًّا ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ، حارِشَـــةً[3] بأظفارها ، قد مزّقتها تمزيقَ الريح الجرادَ ، فمِن صائحٍ بها وناعِرٍ ، وهاتفٍ بها وناعق ، يدعو الـكلب باسمه ، ويَفديه بأبيه وأمه ، ورا كضٍ تحت مُفِرِّه ، وخافقٍ يطلبه الرمح ، وطامح يمنعه ، وسانحٍ قد عارَضَه بارِحٌ[4] ، قد حيَّرتنا الـكثرة ، وألهجتنا القدرة حتى امتلأتْ أيدينا من صنوف الصيد ، واللهُ المنعم الوهاب .

ثم مِلْنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمَته التجارِبُ ، وخبرَ أعلامَ المَذانِب[5] ، إلى غدير أفْيَح[6] ، وروضة خَضِرة ، مستأجمة بتلاوين الشجر ، ملتفّة بصنوف الخَمَر[7] ، مملوءة من أنواع الطير . لم يَذعَرهن صائد ، ولا اقتنصهن قانص ، فخُفِق لها بطبول ، وصُفِر بنفير الحتف ، فثار منها ما ملأ الأفق كثرتُها ، وراعتِ الجوارحَ خَفقَاتُ أجنحتِها ، ثم انبَرت البُزَاة لها صائدةً ، والصقور كاسرة ، والشواهين ضارية ، يرفعن الطلب لها ويخفِضْن الظفرَ بها ، حتى سئمنا من الذبح ، وامتلأنا من النَّضيح[8] : كأنا كتيبةٌ ظَفِرتْ ببُغيتها ، وسرِيَّة نُصِرَت على عدوها ، وألحقت ضعيفَها بقويها ، وغابت مُحْسِنَها بمسيئها لا نملك أنفسنا مَرَحا ، ولا نستفيق من الجَذَل بها فرَحا ، بقيّةَ يومنا ، والله المنعم الوهّاب .

---

(١) أى فلم نعطف ونرجع ، وفى الأصل يفج » وهو تصحيف .

(٢) الإحضار : ارتفاع الفرس فى عدوه . (٣) حرشه كضربه : صاده .

(٤) السانح من الصيد : مامر من مياسرك إلى ميامنك ، والبارح : مامر من ميامنك إلى مياسرك.

(٥) المذانب جمع مذنب كمنبر : وهو مسيل الماء إلى الأرض ، ومسيل فى الحضيض ، والجدول يسيل عن الروضة بمائها إلى غيرها . (٦) أى واسع .

(٧) الخمر : كل ماواراك من شجر وغيره . (٨) النضيح : العرق .

ثم غدَوْنَا يا أمير المؤمنين إلى أرض وُصِف لنا صيدُها بالكثرة ، ورياضها بالنزهة ، فزلّ واصفها عن الطريقة ، وأعتمد بنا على غير الحقيقة ، فأتيناها فلم نرَ صيداً ولا عُشباً ، ولا نُزْهة ولا حسناً ، فجعلنا نسلك منها حُزُوناً[1] وَوُعورا ، وجُدوباً وقَفْر ، حتى قصَّرَ بنا اليأس عن الطلب ، وقَطَع بنا عن الطمع النَّصَبُ . فبينا نحن كذلك إذ بدا لنا جَأْبٌ[2] قد أوْفى بنا على حائل[3] بهادِلِ غابة ، من ورائها حَمِيرُ وحشٍ كثيرة فأمَمْناها ، فلما تطرَّفنا مشياً[4] وتقريباً إلى عاناته ، توالَى نهيقُه ، وكثر شهيقه ، فالتفتْن إليه ، فرَمَقْن بأعينهن منّا ما استكثرن شخصه ، واستهولن أمره ، حتى إذا كنا بمرأى ومَسْمع انجذَبْن موليّات ، وهرَبْن مسيَّبات[5] ، فأجهدَنا الركضُ فى طلبهن ، نتبع آثارهُنّ ، ونستشِفّ[6] يلاءً بين أحفارٍ ودَكادِكَ وخَناذِيذ[7] ، حتى أشْفَى[8] بنا الطلبُ لها على وادٍ هائلٍ سائلٍ بجَنْبَتَيْهِ غابةٌ أشِبَةٌ قد سَبَقْنَ إليها ، واستخفَيْن فيها ، فنظمْناها بالخيل نَظْمَ الخَرَز ، ثم أوغلت عِدة فرسان فى نَفْضها ومعرفة أحوالها ، والطبول خافقة ، والأصوات شاهقة ، فكان وكان ، والحمد لله على كل حال » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٢٤)

---

(١) الحزون : جمع حزن بالفتح ، وهو ماغلظ من الأرض .

(٢) الجأب : الغليظ من حمر الوحش.

(٣) أى ماء جار ، حال الماء على الأرض يحول : انصب ، وأحلت الماء فى الجدول: صببته، وهادل: أى متهدل ، من هدل كفرح إذا استرخى .

(٤) فى الأصل « مسيسا » وهو تحريف ، والتقريب : ضرب من العدو، والعانات جمع عانة: وهى القطيع من حمر الوحش . (٥) جاريات: مسرعات.

(٦) استشفه : نظر ماوراءه .

(٧) الأحفار جمع حفر بالتحريك ويسكن : وهو البئر الموسعة والتراب المخرج من المحفور، والدكادك والدكاديك جمع دكدك كجعفر ودكداك : وهو من الرمل ماتكبس واستوى ، أوما التبد منه بالأرض ، أو أرض فيها غلظ ، والخناذيذ » جمع خنذيذ بالكسر : وهو رأس الجبل المشرف .

(٨) أى أشرف .

٥٠٩ — كتابه إلى أخيه

وكتب عبد الحميد فى مولود ولد له ـ وهو أول مولود كان ـ إلى أخ له :

« أما بعد ، فإنى[١] ما أتعرَّف من مواهب الله نعمةً خُصِصتُ بمزيتها ، وأُصْفِيتُ[٢] بخَصِيصتها[٣] ، كانت أسرَّ لى من هِبَة الله لى ولداً سميته « فلانا » ، وأمَّلْتُ ببقائِه بعدى حياة ذكرى ، وحُسْنَ خلافة فى حُرْمَتى ، وإشراكه إياى فى دعائه ، شافعاً لى إلى ربه[٤] عند خَلَوَاته فى صلاته وحجه ، وكل موطن من مواطنِ طاعته ، فإذا نظرتُ إلى شخصه تحرَّك به وَجْدى ، وظهر به سرورى ، وتعطَّفَتْ عليه منى أَنَسَةُ[٥] الولد ، وتولَّت عنى به وَحْشَةُ الوَحدة، فأنا به جَذِل[٦] فى مَغِيبى ومَشْهدى أُحاوِل مَسَّ جَسَده بيدى فى الظُّلَم ، وتارة أُعانِقُه وأرْشُفُه . ليس يَعْدِلُه عندى عظيماتُ الفوائد ولا مُنْفِسات[٧] الرغائب ، سَرَّنى به واهِبُهُ لى على حين حاجتى . فشَدَّ به أَزرى[٨] وحمَّلنى من شكره فيه ما قد آدنى[٩] بثِقَل حِمْل النِّعم السالفة إلىّ به ، المقرونة سَرَّاؤُها فى العَجَب بتارات مايُذْركنى به من رقَّة الشفقة عليه ، مخافةَ مُجاذَبة المنايا إياه ، ووَجَلا من عواصف الأيام عليه .

---

(١) فى الأصل « فإن مما » وهو تحريف. (٢) أصفاه بكذا : آثره به .

(٣) لم ترد هذه الكلمة فى كتب اللغة ، وفيها : « خصه بالشىء خصا بالفتح وخصوصا وخصوصية بالفتح فيهما وبضمان وخصيصى بالكسر والقصر ويمد ، وخصية بفتح الأول وكسر الثانى مشددا وتشديد الثالث ، وتخصة بفتح الأول وكسر الثانى وتشديد الثالث ، واختصه : أفرده به دون غيره ، والاسم الخصوصية بالفتح والضم والخصية بكسر أوله وثانيه مشددا ، والخاصة والخصيصى والخصيصاء بكسر أولهما ، وفعلت ذلك به خصية وخاصة وخصوصية » ولم ترد فيها كلمة خصيصة . أقول : وقد شاع فى عصرنا هذا استعمال كلمة « خصائص » ولأبى الفتح بن جنى (وهو من أحذق أهل العلم والأدب ، توفى سنة ٣٩٢هـ) كتاب جليل فى فقه اللغة سماه « الخصائص » وعندى أنها جمع خصيصة ، وأن هذه الكلمة مما فات مدونى اللغة تدوينها .

(٤) بقوله : « رَبِّ اغفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ » .

(٥) الأنسة بالتحريك والأنس بالضم وبالتحريك : ضد الوحشة . (٦) أى فرح .

(٧) المنفس : النفيس . (٨) الأزر : القوة والظهر . (٩) آده الأمر : بلغ منه المجهود .

فأسألُ اللهَ الذى امتن علينا بحسن صُنْعه فى الأرحام ، تأديبَه بالزكاء[1] ، وحَرْسَه بالعافية ، وأن يرزقنا شكرَ ما حمَّلَنا فيه وفى غيره ، وأن يجعل ما يَهَبُ لنا من سلامته، والمَدَّة فى عُمْرِه ، موصولا بالزيادة ، مقرونا بالعافية ، مَحُوطا من المكروه ، فإنه المَنَّان بالمواهب ، والواهِبُ للمُنَى ، لا شريك له ، حَمَلنى على الكتاب إليك لعلم ما سُررت به ، علمى بحالك فيه ، وشَرِكتُك إياى فى كل نعمة أسْداها إلىَّ ولِىُّ النعم ، وأهلُ الشكر أوْلَى بالمزيد من الله جل ذكره ، والسلام عليك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٤)

٥١٠ — تحميد لعبد الحميد

وله تحميد فى أبى العلاء الحَرُورىّ :

« الحمد لله الناصرِ لدينه وأوليائه وخُلفائه ، المُظْهِرِ للحق وأهْلِه . والمُذِلِّ لأعدائه أهلِ البِدْعة والضلالة الذى لم يَجْمَع بين حق وباطل ، وأهلِ طاعةٍ ومعصية ، إلا جَعَل النُّصْرة والفَلْج[2] والعاقبةَ لأهل حقه وطاعته . وجَعَل الخِزىَ والذِّلة والصَّغار[3] على أهل الباطل والخلافِ والمعصية . حَمْداً يتقبَّلُه ويَرضاه ويُوجِب به لأمير المؤمنين وأهلِ طاعته الزيادَة التى وعَدَ مَنْ شكرَه[4] والحمد لله على مايتولَّى من إعزاز أمير المؤمنين ونصرِه وإفلاجِه[5] وَإظْهارِ حقه . على ما وقع بأعدائه وأهل معصيته والخلافِ عليه ، من سَطَواته ونِقْماته وبأسه فيما وَلَّى أميرَ المؤمنين من مُوالاة مَن وَالاه وَعداوَة من بَغى عليه وعاداه . لايَكِلُه فى شىء من الأمور إلى نفسه ، ولا إلى حَوْله وقُوّته ومَكِيدته . فإنه لاحول ولا قوة لأمير المؤمنين إلا به » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٤)

---

(١) زكا يزو كا زكاء : نما وصلح وتنعم .

(٢) الفلج : الفوز والظفر . (٣) الصغار : الذل .

(٤) قال تعالى : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ »

(٥) أفلجه : نصره .

٥١١ — تحميد له فى فتح

وله تحميد فى فتح :

« الحمد لله العلىِّ مكانهُ ، المُنير بُرهانهُ ، العزيز سُلطانهُ ، الثابتة كلماتهُ ، الشافية آياتهُ ، النافذ قضاؤه ، الصادق وعده ، الذى قَدَر على خلقه بمِلكه [(١)] وعزَّ فى سمٰواته بعَظَمته ، ودبر الأمور بعلمه ، وقدَّرها بحكْمه ، على ما يشاء من عزمه ، مبتدعاً لها بإنشائه إياها ، وقدرته عليها، واستصغاره عظيمها ، نافذاً إرادته فيها ، لاتجرى إلا على تقديره ، ولا تنتهى إلا إلى تأجيله ، ولا تقع إلا على سَبْقٍ من حَتْمِه ، كل ذلك بلطفه وقدرته وتصريف وَحْيه ، لامَعْدِل لها عنه ، ولا سبيل لها غيرُه ، ولا يعلم أحد بخفاياها ومعادها إلا هو ، فإنه يقول فى كتابه الصادق : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٤)

٥١٢ — وله فى فتح

ولعبد الحميد فى فتح يعظِّم فيه أمةَ الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم :

« أما بعد ، فالحمد لله الذى اصطفى الإسلام دينا ، رَضى شرائعه ، وبيَّن أحكامه ، ونوَّر هداه ، ثم كَنَفه [(٢)] بالعزِّ المؤيَّد ، وأيَّده بالظَّفَر القاهر ، وآزَرَه بالسعادة المنتَجبَةِ [(٣)] ، وجعَلَ من قامَ به داعياً إليه ، مِنْ جُنْدِه الغالبين ، وأنصاره المسلَّطين ، كلما قهرَ بهم مُناوِئاً [(٤)] أورثهم رِباعَهم المأهولة ، وأموالهم الثَّرِيَّة ، ودارهم الفسيحة ، ودَولتَهم المطوَّلة، أمراً حتَمه على نفسه، ثم جعَلَ من عانَدَهم، وابتَغى غيرسبيلهم مُسْلَماً [(٥)]

---

(١) ملكه ملكا مثلث الميم .

(٢) كنفه : صانه وحفظه وحاطه . (٣) آزره : عاونه . وانتجبه : اختاره .

(٤) ناوأه : عاداه ، والرباع : جمع ربع بالفتح ، وهو الدار والمنزل. ثرا المال يثرو : كثر ، ومال ثرى : كثير . (٥) أسلمه : خذله .

قد استهوته ذِلّةُ الكفر بظُلَمِها ، وحَيْرةُ الجهالة بِجوارها ، وتيهُ الشقاء بمَغاويه ، وكلما ازدادوا لدَعْوة الحق إباءً ، ازداد الحقُّ إليهم ازدِلافا ، وعليهم عُكوفا ، وفيهم إقامةً إلى أن يحُلَّ بهم عزُّ الغَلَبة ، ونجاة المجتاز[1] ، داعِين فيما شوَّقهم إليه ، محافظين على ما ندَبهم له . قد بذلوا فى طاعة الله دِماءهم ، وقَبِلوا المعروضَ عليهم فى مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجنةَ ، محمودٌ صَبرُهم ، مسهَّلٌ بهم عزمُهم إلى خير الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذى أكرم محمداً صلى الله عليه وسلم بما حفِظ له من أمور أمته ، أن اختار لِمَواريث نبوَّته ما أصار إلى أمير المؤمنين من تطويقه ما حمَل ، بِحُسْن نهوضٍ به وشُحٍّ عليه ، ومنافسةٍ فيه ، أنْ فَعَل وفعَل .

الحمد لله الذى تمَّم وعدَه لرسوله ، وخايفتِهِ فى أمَّةِ نبيه ، مسدِّدا له فيما اعتزم عليه والحمد لله المعزِّ لدينه ، المتولِّى نصرَ أمة نبيه ، المتخلِّى عمن عاداهم وناوَأهم ، حمْداً يَزيد به مِن رضا شُكره ، وحمداً يَعلُو حمْدَ الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نِعَمُه فلا توصَف ، وجلَّت أياديه فلا تُحْصَى ، الذى حمَّلنا مالا قُوة بنا على شكره إلا بعَوْنه ، وبالله يستعين أميرُ المؤمنين على ذلك ، وإليه يرْغَب ، إنه على كل شىء قدير » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٥)

٥١٣ — تحميد له

وله أيضاً :

« أما بعد ، فالحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه ، وارتضاه ديناً لملائكته ، وأهل طاعتِهِ من عبادِه ، وجعلَهُ رحمةً وكرامةً ونجاةً وسعادةً لمن هُدِى به من خَلْقه وأكرَمَهم وفضَّلهم وجعَلهم بما أنعم عليهم منه أولياءه المقرَّبين ، وحِزْبَه الغالبين ،

---

(١) فى الأصل : « المتجاوز » وأرى أنه محرف عن « المجتاز » وهو سالك الطريق .

وجندَه المنصورين ، وتوكَّل لهم بالظهور والفَلْج ، وقَضى لهم بالعلوِّ والتمكين ، وجَعَل من خالفه وعَزَب(١) عنه ، وابتغى سبيل غيره ، أعداءه الأقلِّين ، وأولياء الشيطان الأخسرين ، وأهل الضلالة الأسفلين مع ما عليهم فى دنياهم من الذلِّ والصَّغار فأعجل لهم فيها من الخِذلان والانتقام ، إلى ما أعدَّ لهم فى آخرتهم من الخِزْى والهوان المُقيم والعذاب الأليم ، إنه عزيز ذو انتقام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٦)

٥١٤ — كتابه إلى مروان فى حاجة

وله إلى مروان فى حاجة :

« إن الله بنعمته علىَّ ، لَمَّا رَزَقَنى المنزلةَ من أمير المؤمنين ، جَعَل معها شكرَها مقرونا بها ، فهى تَنْمِى(٢) بالزيادة ، والشكر مُصاحِبٌ لها ، فليست تدخُلُنى وَحْشةٌ من إنباء(٣) حاجتى ، وأنا أعلم أنه لو وَصَل إلى أمير المؤمنين علم حالى أغنانى عن استزادته ، ولكنى تكَنَّفَتْنى مُؤَنٌ اسْتَنْفَضَتْ(٤) ما فى يدى ، وكنت للخَلَف من الله منتظراً ، فإنى إنما أتقلَّب فى نِعَمه ، وأتمرَّغ فى فوائده ، وأعتَصِم بسالف معروفه كان عندى » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٤)

٥١٥ — كتابه فى الوصاة بشخص

وكتب إلى بعض الرؤساء فى الوَصاة بشخص :

« حقٌّ موصِّل كتابى إليك(٥) كحقِّه علىَّ ، إذ جعلك مَوْضِعاً لأمله ، ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزتُ حاجته ، فَصَدِّق أمَلَهُ » .

(سرح العيون ص ١٦٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٣٠٧ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٦٠)

---

(١) عزب : بعد . (٢) نما ينمو وينمى : زاد .

(٣) أى من الإخبار بحاجتى ، أنبأه إياه وبه : أخبره .

(٤) من قولهم : استنفضنا حلائبنا استنفاضا ، وذلك إذا استقصوا عليها فى حلبها ، فلم يدعوا فى ضروعها شيئا من اللبن .

(٥) فى وفيات الأعيان « حق موصل كتابى إليك عليك » وفى نهاية الأرب « حق موصل هذا الكتاب عليك » وفيهما « إذ رآك » .

٥١٦ — كتابه فى فتنة بعض العمال

وكتب فى فتنة بعض العمال من رسالة :

« حتى اعترانى حَنَادِسُ[١] جَهالة ، ومهاوِى سُبُل ضَلالة ، ذَلَّلاَ لِسياقه ، وسَلَّمانى قِيادَه إلى نُزُلٍ[٢] من حَمِيم ، وتَصْلِية جَحِيم ، سوى ما أنتجتِ الحفيظةُ[٣] ، فى نفسه من عَوائِد الحَسَك ، وقَدَحتِ الفتنةُ فى قلبه من نار الغضب ، مضادَّةً لله تعالى بالمُنَاصَبة[٤] ، ومُبَارَزَةً لأمير المؤمنين بالمحارَبة ، ومُجاهدةً للمسلمين بالمخالَفَة ، إلى أن أصبح بفَلَاة قَفْرٍ ، وتِيهٍ صِفْرٍ[٥] ، بعيدة المَناط[٦] ، يُقْطع دونَها النِّياطُ[٧] ، وكذلك يفعل الله بالظالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون » .

(سرح العيون ص ١٦٤)

٥١٧ — كتابه عن مروان إلى بعض عماله

وروى صاحب وَفَيات الأعيان قال :

وقال له مروان يوما ـ وقد أهدى إليه بعض العمال عبداً أسود فاستقلَّه ـ :

اكتب إلى هذا العامل كتابا مختصرًا ، وذُمَّه على مافعل ، فكتب إليه :

« لو وجدت لوناً شرًّا من السَّواد ، وعَدَداً أقلّ من الواحد ، لأهديته ، والسلام » .

---

(١) حنادس : جمع حندس بكسر الحاء والدال ، وهو الظلمة ، والليل المظلم .
(٢) النزل : المنزل ، وماهيء للضيف أن ينزل عليه . والحميم : الماء الحار .
(٣) الحفيظة : الغضب ، والحسك : الحقد والعداوة ، وعوائد : راوجع .
(٤) ناصبه الحرب والعداوة : أظهرها له وأقامها . (٥) التيه : المفازة ، والصفر : الخالى .
(٦) ناط الشيء : علقه ، واسم موضع التعليق مناط بالفتح. وهو منى مناط الثريا ، أى بعيد ، معنى بعيدة المناط : بعيدة المسافة، وجاء فى القاموس:النياط من المفازة : بعد طريقها كأنها نيطت بمفازة أخرى .
(٧) النيـاط : عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين ، (والوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه) .

وروى صاحب العقد الفريد قال :

وبعث إلى مَرْوانَ بن محمد قائد من قواده بغُلام أسود ، فأمر عبد الحميد الكاتب أن يكتب إليه يَلْحاه[١] ويُعَنِّفه ، فكتب وأكثر ، فاستثقل ذلك مَرْوان ، وأخذ الكتاب فوقع فى أسفله :

« أمَا إنك لو علمت عددا أقلّ من واحد ، ولونا شرًّا من السواد ، لبعثت به » .

وروى صاحب الأغانى قال :

واستهدى حَمَّاد الراويةُ من صديق له نبيذا ، فأهدى إليه دَسْتِيجَةَ[٢] نبيذ ، فكتب إليه :

« لو عرَفت فى العدد أقل من واحد، وفى الألوان شرًّا من السواد، لأهديته إلىّ ».

(وفيات الأعيان ١ : ٣٠٧ ، وسرح العيون ص ١٦٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٥ ، والأغانى ٥ : ١٦١)

---

(١) يلومه .　　(٢) الدستيج : آنية تحول باليد وتنقل ، فارسى معرب .

الدعوة العباسية

٥١٨ — بين محمد بن على بن عبد الله بن عباس وبين من استجاب لدعوته من أهل خراسان

بدأت الدعوة العباسية سنة ١٠٠ هـ ، فوجَّه محمد بن على بن عبد الله بن عباس في هذه السنة من أرض الشَّراة[1] ، مَيْسَرَةَ إلى العراق ، ووجَّه جماعةً من شيعته إلى خُراسان ، وعليها يومئذ الجرَّاح بن عبد الله الحكَمى من قِبَل عمر بن عبد العزيز ، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته ، فلقُوا مَن لقُوا ، ثم انصرفوا بكتب مَن استجاب لهم إلى محمد بن على ، فدفعوها إلى مَيْسرة ، فبعث بها مَيسرةُ إلى محمد بن على .

وفى سنة ١٠٣ أو سنة ١٠٤ هـ بعث محمد بن على رسولَه إلى خراسان ، فاستجاب له سبعون رجلاً ، اختار منهم اثنى عشر رجلاً نُقَباءَ ، منهم سليمانُ بن كُثَيِّر الخزاعىّ وقَحْطَبَة بن شَبِيب الطائىّ ، فكتب إليهم محمد بن على كتابا ، ليكون لهم مِثالا وسيرةً يسيرون بها ، ثم توفى سنة ١٢٦ هـ فدعا الدُّعاةُ إلى ابنه إبراهيم الإمام[2] .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٣٥ و ٩ : ٩٨)

---

(١) الشراة : صقع بالشام فى طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك وهو من إقليم البلقاء ، وفى بعض نواحيه القرية المعروفة بالحميمة (كجهينة) ، وكان الوليد بن عبد الملك بن مروان أخرج على ابن عبد الله بن عباس من دمشق وأنزله الحميمة سنة ٩٥ هـ ولم يزل ولده بها إلى أن زالت دولة بنى أمية — انظر وفيات الأعيان ج ١ : ص ٣٢٤ فى ترجمة على بن عبد الله بن عباس .

(٢) روى الطبرى قال : « وفى سنة ١٢٦ هـ وجه إبراهيم بن محمد الإمام أبا هاشم بكير بن ماهان إلى خراسان ، وبعث معه بالسيرة والوصية ، فقدم مرو وجمع النقباء ومن بها من الدعاة ، فنعى لهم الإمام محمد بن على ، ودعاهم إلى إبراهيم ، ودفع إليهم كتاب إبراهيم فقبلوه ، ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة ، فقدم بها بكير على إبراهيم بن محمد » — ج ٩ : ص ٤٣ — .

٥١٩ – كتاب إبراهيم بن محمد إلى شيعته بخراسان

وفى سنة ١٢٨ هـ وجّه إبراهيم بن محمد أبا مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراسانى (١) إلى خراسان، وكتب إلى أصحابه :

« إنى قد أمرتُه بأمرى، فاسمَعوا منه واقبَلوا قوله، فإنى قد أمَّرْته على خراسان وما غلَب عليه بعد ذلك .

فأتاهم فلم يقبلوا قوله، وخرجوا من قابِلٍ، فالتقَوا بمكة عند إبراهيم، فأعلمه

(١) قال ابن أبى الحديد — م ٢ : ص ٢١٥ — « لم يكن أبو مسلم معلوم النسب، وقد اختلف فيه: أهو مولى أم عربى ؟ » وقال ابن خلكان فى ترجمته « وفيات الأعيان ١ : ٢٨٠ » أبو مسلم عبد الرحمن ابن مسلم، وقيل عثمان الخراسانى القائم بالدعوة العباسية، وقيل هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سدوس ابن جودرن، من ولد بزرجمهر بن البختكان الفارسى، وقد اختلف الناس فى نسبه، فقيل إنه من العرب، وقيل إنه من العجم، وقيل من الأكراد، وفى ذلك يقول أبو دلامة : (حين قتله المنصور فى خلافته كما سيأتى فى الجزء الثالث إن شاء الله) .

أبا مجرم ما غير الله نعمة على عبده حتى يغيرها العبد
أفى دولة المنصور حاولت غدرة ؟ ألا إن أهل الغدر آباؤك الكرد

وقال ابن طباطبا فى الفخرى ص ١٢٣ : « أما نسبه ففيه اختلاف كثير، فقيل هو حر من ولد بزرجمهر، وإنه ولد بأصفهان، ونشأ بالكوفة، فاتصل بإبراهيم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس، فغير اسمه وكناه بأبى مسلم، وثقفه وفقهه، حتى كان منه ما كان .

وأما هو فإنه لما قويت شوكته ادعى أنه ابن سليط بن عبدالله بن عباس، وكان لعبد الله بن عباس جارية فوقع عليها مرة، ثم اعتزلها مدة فاستنكحها عبدا فوطئها، فولدت منه غلاما سمته سليطا، ثم ألصقته بعبد الله بن عباس، وأنكره عبد الله ولم يعترف به، ونشأ سليط وهو أكره الخلق إلى عبد الله بن عباس، فلما مات عبد الله نازع سليط ورثته فى ميراثه، وأعجب ذلك بنى أمية، ليغضوا من على بن عبد الله بن عباس، فأعانوه وأوصوا قاضى دمشق فى الباطن، فمال إليه فى الحكم وحكم له بالميراث، فادعى أبو مسلم حين قويت شوكته أنه من ولد سليط هذا » .

وقد قرعه المنصور بذنوبه لما أراد قتله ؛ فكان فيما قال له : « ألست الكاتب إلىّ تبدأ بنفسك قبلى ؟ ألست الكاتب إلى تخطب أمينة بنت على (عمة المنصور) وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس! لقد ارتقيت — لاأم لك — مرتقى صعبا ؟ تقرعلى نفسك أنك دعى ثم ترغب فى بنات العباس! انظر اتاريخ الطبرى ، ٩: ١٦٧ ووفيات الأعيان ١ : ٢٨٣ وغرر الخصائص الواضحة ص ٧٥ وفى غرر الخصائص أيضاً « كان أبو مسلم عبدا لعيسى بن معقل، فباعه لأخيه إدريس — جد أبى دلف — ثم اشتراه منه بكر بن ماهان بأربعمائة درهم، وبعث به إلى إبراهيم الإمام ، وما زال قدره ينبل حتى أرسله إبراهيم بالدعوة لبنى العباس سنة ١٢٨ ، وقدم إلى خراسان يدعو الناس إلى طاعتهم، فانطلق فتية من أهل مرو نساك فأتوه فى عسكره فسألوه عن نسبه ، فقال : خبرى خير لكم من نسبى » .

أبو مسلم أنهم لم يُنفذوا كتابه وأمْرَه ، فقال إبراهيم : إنى قد عرَضْتُ هذا الأمر على غير واحد ، فأبَوه علىّ وأعلمهم أنه أجمع رأيه على أبى مسلم ، وأمرهم بالسمع والطاعة(١) .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٧٥)

٥٢٠ — كتاب إبراهيم بن محمد إلى أبى مسلم الخراسانى وكتابه إلى سليمان بن كثير

وفى سنة ١٢٩ هـ كتب إبراهيم بن محمد إلى أبى مسلم يأمره بالقدوم عليه ، ليسألَه عن أخبار الناس ، فخرج فى النصف من جمادى الآخرة مع سبعين من النقباء ، فلما بلغ قُومِسَ(٢) أتاه كتاب من إبراهيم إليه ، وكتاب إلى سليمان بن كثيِّر ، وكان فى كتاب أبى مسلم :

« إنى قد بعثت إليك براية النصر ، فارجِع من حيثُ ألفاكَ كتابى ، ووجِّه إلىّ قَحْطَبَةَ بما معك يُوافِنِى به فى المَوْسم » .

فوجَّه أبو مسلم قَحطبةَ إلى الإمام وانصرف إلى خراسان ، فقَدِم « مَرْوَ » فى أول يوم من رمضان سنة ١٢٩ هـ ، ودفع كتاب الإمام إلى سليمان بن كثير ، وكان فيه أن :

« أظْهِر دعْوَتَك ، ولا ترَبَّصْ(٣) ، فقد آنَ ذلك » :

---

(١) ثم قال لأبى مسلم « ياعبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ وصيتى ، وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانظر هــذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم ، وانظر هذا الحى من مضر فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت فى أمره ، ومن كان فى أمره شبهة . ومن وقع فى نفسك منه شىء ، وإن استطعت أن لاتدع بخراسان لسانا عربيا فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ، ولاتخالف هذا الشيخ — يعنى سليمان بن كثير — ولاتعصه ، و ذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى » .

(٢) ضبطه ياقوت فى معجمه بكسر الميم وكذا فى اللسان ، وضبطه الفيروزا بادى فى القاموس بفتحها صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل .

(٣) أى ولا تنتظر . .

فبثَّ أبو مسلم دُعاتَه فى الناس ، وأعلن[1] بالدعوة (لخمس بقين من رمضان سنة ١٢٩ هـ) ولبِسُوا السَّواد » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٨٢)

٥٢١ — كتاب أبى مسلم إلى نصر بن سيار

وكان أبو مسلم إذا كتب إلى نصر بن سيار والى خراسان من قِبَل مروان بن محمد الأموى ، يكتب : للأمير نصر ... فلما قَوِىَ بمن اجتمع إليه من الشيعة ، بدأ بنفسه ، وكتب إلى نصر ـ وهو أول كتاب صدر عن أبى مسلم إليه — :

أما بعد : فإن اللّٰه تباركت أسماؤه ، وتعالى ذكره ، عَيَّرَ أقواما فى القرآن[2] ، فقال : « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا . اسْتِكْبَارًا فِى الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ، فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا » .

فلما ورد الكتاب إلى نصر تعاظمه[3] أمره ، وأنه بدأ بنفسه ، وكسَرَ له إحدى عينيه ، وقال : هذا كتاب له جَوابٌ ، وكتب إلى مَرْوَان بن محمد يستصرخه[4] ، وإلى يزيد بن عمر بن هُبيرة والى العراق يستنجده ، فقعَدا عنه حتى أفضى ذلك إلى خروج الأمر عن بنى أمية .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٨٤ » وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣١٣)

---

(١) أعلن الأمر وبه : أظهره .
(٢) فى ابن أبى الحديد « فإن الله جل ثناؤه ذكر أقواما فقال ... » .
(٣) تعاظمه الأمر : عظم عليه . (٤) يستغيثه .

٥٢٢ — كتاب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد

ولما أظهر أبو مسلم الدعوة بمَرْوَ كتب نصر إلى مروان :

أَرَى جَذَعا ، إنْ يُثْنِ لم يَقْوَ رَائِضٌ عليه ، فبَادِر قبل أن يُثْنِيَ الجَذَعْ(١)

وكان مروان مشغولا عنه بحروب الخوارج بالجزيرة وغيرها ، فلم يُجِبْه عن كتابه ، وأبو مسلم يوم ذاك فى خمسين رجلا .

(وفيات الأعيان ١ : ٢٨٢)

٥٢٣ — كتاب نصر إلى مروان

واشتدت شوكة أبى مسلم ، واستمكن أمْرُه ، وفرّق رُسُلَه فى كُوَر خراسان ، يدعو الناس إلى آل الرسول ، فأجابوه ، وكان نصر بن سيار يكتب إلى مروان(٢) بخبرهم ، وتمضِى كتبه إلى ابن هبيرة لِيُنْفِذَها إلى أمير المؤمنين فكان يحبسها ولا يُنْفِذها ، لِئلاّ يقوم لنصر بن سيار قائمةٌ عند الخليفة — وكان فى ابن هبيرة حَسَدٌ شديد — فلما طال بنصر ذلك ، ولم يأته جواب من مروان ، كتب كتابا وأمضاه إلى مروان على غير طريق ابن هبيرة ، يُعلِمه بحال أبى مسلم وخروجه ، وكثرة من معه ومن تَبِعه ، وأنه كشف عن أمره وبحث عن حاله ، فوجده يدعو إلى إبراهيم بن محمد بن على ابن عبد الله بن عباس (وهو أخو السّفّاح والمنصور) وضَمّن كتابه أبياتاً من الشعر وهى :

---

(١) الجذع بالتحريك: الصغير السن ، ويختلف فى أسنان الشاه والبقر والخيل والإبل، يقال : أجذع ولد الشاة : فى السنة الثانية ؛ وأجذع ولد البقرة وذوات الحافر : فى الثالثة ، وأجذع البعير : فى الخامسة، فهو جذع ، والثنىّ كغنىّ : بعد الجذع ، وأثنى : صار ثنيا ، وراض الدابة يروضها روضا ورياضة : ذللها أو علمها السير فهو رائض .

(٢) فى العقد الفريد « فكان يكتب لهشام » وهو خطا ، لأن ظهور أبى مسلم إنما كان فى عهد مروان لا فى عهد هشام — وإن كانت الدعوة العباسية قد بدأت منذ سنة ١٠٠ هـ كما ذكر الطبرى فى تاريخه ج ٨ : ص ١٣٥ — أضف إلى ذلك أن ولاية يزيد بن عمر بن هبيرة العراق كانت سنة ١٢٩ هـ فى عهد مروان أيضاً — تاريخ الطبرى ٩ : ٩٦ — وكان أبوه عمر بن هبيرة واليا عليها فى خلافة يزيد ابن عبد الملك ثم عزله عنها هشام أول ولايته سنة ١٠٥ هـ كما قدمنا .

أَرَى خَلَلَ الرَّماد وَمِيضَ جَمْرٍ ... ويُوشكُ أَن يكون له ضِرامُ (١)
فإن النار بالعُودَيْنِ تُذْكَى ... وإن الحربَ أَوَّلُها الـكلامُ (٢)
فإن لم تُطْفِئُوها تَجْنِ حربا ... مشمَّرة يَشِيبُ لها الغُلامُ (٣)
أقول من التعجُّب : ليت شعرى ... أأيقاظ أُميَّةُ أم نيام ؟ (٤)
فإن كانوا لِحَيْنِهِمُ نيـاماً ... فقُلْ : قوموا فقد حان القيامُ (٥)
فصَرِّى عن رحالك ، ثم قولى : ... على الإسلام والعرب السلام ! (٦)

٥٢٤ — رد مروان عليه

فكتب إليه مروان :

« إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فاحْسِمْ ذلك الثُّؤْلُول (٧) الذى نَجَمَ عندكم » .

---

(١) فى وفيات الأعيان والإمامة والسياسة والفخرى « وميض نار » وفى تاريخ الطبرى والمسعودى والفخرى « بين الرماد »، وفى الطبرى أيضاً « فأحج بأن يكون .. » والخلل : الفرجة بين الشيئين والجمع خلال كجبل وجبال ؛ وومض البرق كوعد: لمع لمعا خفيا ، والضرام: اشتعال النار، وأحج به ،وما أحجاه : ما أخلقه ، وهو حجى به كغنى ، وحج كشج ، وحجى كفتى : جدير

(٢) أذكى النار : أوقدها ، وذكت تذكو ذكوا وذكا وذكاء : اشتد لهيبها، وفى العقد الفريد « تذكو » وفى وفيات الأعيان « بالزندين تورى » أى تشعل أيضاً ، وفى الطبرى « مبدؤها الـكلام » .

(٣) مشمرة : أى مشمرا أصحابها وأبطالها ، وهذا البيت لم يرد فى رواية الطبرى ، ولا فى الإمامة والسياسة، وروى فى وفيات الأعيان والفخرى :

لئن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام

وهام جمع هامة وهى الرأس .

(٤) فى الطبرى والعقد والفخرى « فقلت من التعجب » .

(٥) الحين : الهلاك ، وهذا البيت لم يرد فى الطبرى ولا فى الفخرى ، وروى فى مروج الذهب « فإن يك قومنا أضحوا نياما » .

(٦) وهذا البيت لم يرد فى الطبرى ولا فى الفخرى ولا فى وفيات الأعيان، وصرى مضعف صراه يصريه. إذا دفعه ومنعه وحفظه ووقاه، يقال : صرى الله عنك شر فلان أى دفعه، وفى الإمامة والسياسة ومروج الذهب « ففرى عن رحالك » .

(٧) الثؤلول : الحبة تظهر فى الجلد كالحمصة فما دونها ، وقد تثألل جسده بالثآليل ، ونجم : طلع وظهر ، وفى الطبرى « فاحسم الثؤلول قبلك » وفى الفخرى « إن الحاضر » وفيه « فاحسم أنت هـذا الداء الذى قد ظهر عندك » .

فلما ورد الكتاب على نصر ، قال لخواصّ أصحابه : أمَّا صاحِبُكم فقد أعلَمكم أنْ لا نَصْرَ عنده .

(العقد الفريد ٢ : ٢٩٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٠٢ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٢٨٢ ، وتاريخ الطبرى ٩ : ٩٢ ، والإمامة والسياسة ٢ : ٩٦ ، والفخرى ص ١٢٨)

٥٢٥ — كتاب نصر إلى يزيد بن عمر بن هبيرة

ولما يَئِس نصر بن سيّار من إنجاد مروان ، كتب إلى يزيد بن عمر بن هُبَيرة يستمِدّه ، ويسأله النُّصْرة على عدوه ، وضمَّن كتابه أبياتاً من الشعر وهى :

أَبْلِغْ يَزِيدَ (وخَيْرُ القول أَصْدَقُه ... وقد تَبيَّنْتُ أَنْ لاَ خَيْرَ فى الكذب)
بأَنَّ أَرْضَ خُرَاسانَ رأيتُ بها ... بَيْضاً لوَ اُفْرِخَ قد حُدِّثتَ بالعَجَب
فِراخُ عامين ، إلا أَنَّها كَبُرَتْ ... لمَّا يَطِرْنَ وقد سُرْبِلْن بالزَّغَب[1]
فإن يَطِرْنَ ولم يُحْتَلْ لهنَّ بها ... يُلْهِبْنَ نِيرَانَ حَرْب أيَّما لَهَب

فلم يجبه يزيد ، وتشاغل بدفع فتن العراق .

(مروج الذهب ٢ : ٢٠٣ ، وتاريخ الطبرى ٩ : ٩٢)

٥٢٦ — كتب من أبى مسلم إلى قحطبة بن شبيب وكتب بين نصر بن سيار ومروان بن محمد وابن هبيرة

ومضى أبو مُسْلم حتى نزل قصر الإمارة بمَرْو الذى كان ينزله عُمَّال خراسان ، (وذلك لتسعٍ خَلَون من جُمادى الأولى سنة ١٣٠ هـ) وهرب نصر بن سيار عن مرو .

ثم كتب أبو مسلم إلى قَحْطَبة بن شَبيب يأمره بقتال تميم بن نصر بن سيار ومن لجأ إليه من أهل خراسان ، فزحَف إليه ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل تميم بن نصر فى المعركة ، وقتل معه منهم مَقْتلة عظيمة ، واستُبيح عسكرهم .

---

(١) الزغب : صغار الريش ، وسربلن : ألبسن وكسين . السربال بالكسر : كل ما لبس ، وقد سربله .

وكتب أبو مسلم إلى قحطبة يأمره أن يَتْبَع نصر بن سيَّار — وكان قد نزل نَيْسابور — فلما بلغه ذلك ارتحل هاربا حتى نزل قُومِسَ ، وقدِم قحطبةُ نيسابورَ بجنوده . وكتب نصر وهو نازل فى قومس إلى ابن هُبَيرة يستمِدُّه وهو بواسط ، مع ناس من وجوه أهل خراسان يُعظِم الأمر عليه ، فحبس بن هبيرة رسلَه ، فكتب نصر إلى مَرْوان :

« إنى وجَّهتُ إلى ابن هبيرة قوماً من وجوه أهل خراسان ، لِيُعلِموه أمرَ الناس من قِبَلنا ، وسألته المدَدَ ، فاحتبس رُسُلى ولم يُمِدَّنى بأحد ، وإنما أنا بمنزلةِ مَن أُخرج من بيته إلى حُجْرته ، ثم أُخرج من حجرته إلى داره ، ثم أُخرج من داره إلى فِناء داره ، فإن أدركه مَن يُعينه فعسى أن يعود إلى داره وتبقى له ، وإن أُخرج من داره إلى الطريق فلا دار له ولا فِناء » .

فكتب مروان إلى ابن هبيرة أن يُمِدَّ نصرًا ، وكتب إلى نصر يُعلمه ذلك ، وكتب إلى ابن هبيرة « يسأله أن يعجِّل إليه الجند ، فإنَّ أهل خراسان قد كذَّبتُهم حتى ما رَجُلٌ منهم يصدِّق لى قولاً ، فأمِدَّنى بعشرة آلاف قبل أن تُمِدَّنى بمائة ألف ثم لا تُغْنى شيئاً » .

وتفرق عن نصر أصحابه فسار من قومِسَ إلى نُباتة بن حَنْظلة عامل ابن هبيرة على جُرْجان ، وأقبل قحْطبة إلى جُرْجان ، فنزل بإزاء نباتة ، وأهل الشأم فى عِدَّة لم ير الناس مثلها ، فلما رآهم أهلُ خراسان هابوهم حتى تكلموا بذلك وأظهروه ، وبلغ قحطبة ، فقام فيهم خطيباً وحَضَّهم على الثبات .

وورد إلى قحطبة كتاب أبى مسلم :

« من أبى مسلم إلى قحطبة ، بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فَناهِض عدوَّك ، فإن الله عزّ وجل ناصِرُك ، فإذا ظهرت عليهم فأثخِنْ فى القتل » .

فالتقَوْا فى مستهلِّ ذى الحِجَّة سنة ١٣٠ هـ ، وصَبَر بعضهم لبعض ، فقتل نُباتة ،

وانهزم أهل الشأم وقتل منهم عشرة آلاف ، وبعث قحطبة إلى أبى مسلم برأس نباتة وابنه حيّة .

وسار نصر بن سيار حتى أتى الرىّ ، وخرج عنها ، فنزل « ساوَةَ » بين هَمَذان والرّىّ ، فمات بها كَمَدا فى ربيع الأول سنة ١٣١ هـ .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٩٨ ، ١١٢)

٥٢٧ — كتاب نصر إلى مروان

ولما خرج نصرُ بن سيّار عن خراسان ، وصار بين خراسان والرّىّ ، كتب كتاباً إلى مَرْوان يذكر فيه خروجه عن خراسان ، وأن هذا الأمر الذى أزعَجَه سينمو حتى يملأَ البلاد ، وضمَّن ذلك أبياتاً من الشعر وهى :

إنّا وَما نَكتُمُ من أمْرِنا ... كالثَّور إذ قُرِّب للنَّاخِعِ(١)

أو كالتى يَحْسَبُهَا أهلُها ... عَذْراءَ بِكرًا وهْىَ فى التاسِعِ

كنا نُرَفِّيها ، فقد مُزِّقَتْ ... واتَّسَعَ الخَرْق على الراقِع(٢)

كالثَّوْب إذ أَنْهَجَ فيه البِلَى ... أعْيا على ذى الحِيلة الصانِعِ(٣)

فلم يستتمّ مَرْوانُ قراءة هذا الكتاب حتى مَثَل أصحابه بين يديه ممن كان قد وكّل بالطريق ، وقد جاءوه برسول من خراسان معه كتاب من أبى مُسْلم إلى إبراهيم بن محمد الإمام يخبره فيه خَبَره وما آل إليه أمره ، فلما تأمَّل مروان كتاب أبى مسلم ، قال للرسول : لا تُرَعْ ، كم دفع لك صاحبك ؟ قال : كذا وكذا ، قال : فهذه عشرة آلاف درهم لك ، وإنما دفع إليك شيئاً يسيرا ، وامضِ بهذا الكتاب إلى إبراهيم ، ولا تُعلِمْهُ بشىء مما جرى ، وخذ جوابه فأْتِنِى به ، ففعل الرسول ذلك ، فتأمل مروان

---

(١) نخع الذبيحة : جاوز منتهى الذبح فأصاب نخاعها .

(٢) رفى مضعف رفا . ورفا الثوب ورفأه : لأم خرقه وضم بعضه إلى بعض .

(٣) أنهج : وضح (وأنهج الثوب ونهجه كمنعه : أخلقه ، ونهج الثوب مثلثة الهاء وأنهج : بلى).

جواب إبراهيم إلى أبى مسلم بخطّه : يأْمره فيه بالجِد والاجتهاد ، والحِيلة على عدوه ، وغير ذلك من أمره ونهيه ، وكان فيه أبيات من الرَّجَز منها :

دُونَكَ أمرًا قد بدت أشراطُه   إن السبيل واضح صراطُهْ

* لم يبْقَ إلا السيفُ واُختراطُهْ[1] *

فاحتبس مَرْوانُ الرسول ، وكتب إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك ، وهو على دمشق : يأمره أن يكتب إلى عامل البَلْقاء[2] فيَسير إلى الحُمَيْمة ، ليأخذ إبراهيم ابن محمد ، فيشدّه وَثاقا ، ويبعث به إليه فى خيل كثيفة ، وحُمِل إبراهيم بن محمد إلى الوليد ، فحمله إلى مروان ، فقرَّره بما كان من أمره مع أبى مسلم ، فأنكر ، فقال له مَرْوان : يا منافق : أليس هذا كتابك إلى أبى مسلم جوابا عن كتابه إليك ؟ وأخرج إليه الرسول ، وقال : أتعرف هذا ؟ فلما رأى ذلك إبراهيم أمسك وعَلِم أنه أُتِىَ من مَأْمَنه ، وأمر به مروان فحُبِس شهرين فى حَرّان[3] .

ثم دخل عليه السجن جماعة من مَوَالى مروان من العجم وغيرهم فقتلوه سنة ١٣٢ هـ[4] .

(مروج الذهب ٢ : ٢٠٤)

---

(١) الأشراط: جمع شرط بالتحريك وهو العلامة ، واخترط السيف : استله .

(٢) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشأم ووادى القرى ، وكانت قصبتها عمان . والحميمة: قرية من أعمال عمان فى أطراف الشأم ، انظر ص ٤٧٥ .

(٣) حران : مدينة عظيمة بالجزيرة على طريق الموصل والشأم والروم ، بينها وبين الرها يوم ، وبين الرقة يومان .

(٤) وقيل إنه لم يقتل ولكنه مات فى سجن مروان بالطاعون — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٣٢ ومعجم البلدان ٣ : ٢٤٢ — وقيل إن مروان سمه فى الحبس فمات — انظر الفخرى ص ١٢٩ .

ولما حبس إبراهيم الإمام بحران خاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم وقصدوا إلى الكوفة ، وكان لهم بها شيعة منهم أبو سلمة الخلال ، وكان من كبار الشيعة بالكوفة — وقد استوزره السفاح حينما ولى الخلافة — فأخلى لهم أبو سلمة دارا بالكوفة ، وتولى خدمتهم بنفسه ، وكتم أمرهم ، واجتمعت الشيعة إليه ، وقويت شوكتهم ، ثم وصل أبو مسلم بالجنود من خراسان إلى الكوفة وسلم على السفاح بالخلافة ، وأظهر الدعوة ، وبويع السفاح بالخلافة سنة ١٣٢ هـ .

٥٢٨ — كتاب عبد الحميد عن مروان إلى أبى مسلم الخراسانى

وذكروا أن عبد الحميد بن يحيى كتب عن مَرْوان بن محمد إلى أبى مسلم الُخراسانىّ كتابا حُمِلَ على جمل لِكِبَر حجمه — وقيل : إنه لم يكن فى الطول إلى هذه الغاية ، وقد حمل على جمل تعظيما لأمره — وقد نَفَثَ فيه حَواشِيَ صدره ، وضمَّنه غَرائِبَ عُجَره وبُجَرِه[١] ، وضمَّنه مالو قرئ لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبى مسلم ، وقال لمروان : قد كتبت كتابا متى قرأه بطَل تدبيره ، فإن نَجَع[٢] فذاك ، وإلا فالهلاك ، ويقال : إن أول الكتاب كان : « لوأراد اللهُ بالنملة صلاحا لما أنبت لها جَناحا » .

٥٢٩ — رد أبى مسلم عليه

فلما ورد الكتاب على أبى مسلم ، لم يقرأه ، وأمر بنار فأحرقه بها ، وكتب على جُذَاذَةٍ[٣] منه إلى مروان :

مَحَا السيفُ أسطارَ البلاغة وانتحَى ... عليك لُيُوثُ الغابِ من كل جانب

فإن تقدموا نُعْمِلْ سيوفًا شَحِيذَةً ... يَهُون عليها العَتْبُ من كل عاتب[٤]

وردَّه، فأيِس الناس من معالجته .

(سرح العيون ص ١٦٣ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣١٣ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٤)

---

(١) قال فى اللسان : أصل العجر : العروق المتعقدة فى الجسد ، والبجر : العروق المتعقدة فى البطن خاصة ، وهما جمع عجرة وبجرة كفرصة ، وقال أيضاً : العجرة : نفخة فى الظهر ، فإذا كانت فى السرة فهى بجرة ، وأفضيت إليه بعجرى وبجرى: أى أطلعته على أمورى كلها ماظهر منها وما بطن ، أو أظهرته من ثقتى به على معايبى ومساوى ، وقول على كرم الله وجهه : أشكو إلى الله عجرى وبجرى: أى همومى وأحزانى .

(٢) نجع الخطاب فيه : أثر .

(٣) قطعة .

(٤) فى ابن أبى الحديد « وانتحت : إليك ليوث .... » وفى نهاية الأرب « وانتحى: ليوث الوغى يقدمن من كل جانب » .

٥٣٠ – من رسالة لعبد الحميد عن مروان

ولعبد الحميد من رسالة كتب بها عن مَرْوان لفِرَق العرب، حين فاض العَجَم من خُراسان بشعار السواد قائمين بالدولة العباسية :

« فلا تمكِّنوا ناصية الدولة العربية، من يد الفِئة العَجَمية، واثبُتوا رَيْثما تَنجَلى هذه الغَمْرَةُ[١]، ونصحو من هذه السَّكْرة، فسَيَنْضُب[٢] السَّيل، وتُمْحَى آية اللَّيل، واللهُ مع الصابرين، والعاقبةُ للمتقين » .

وجاء فى سرح العيون :

وكتب يعرِّض بشعار بنى العباس الأسود من رسالة :

« فرُوَيْداً حتى ينضب السيل، وتمحى آية الليل » .

(رسائل البلغاء ص ١٧٢ ، وسرح العيون ص ١٦٤)

٥٣١ – كتاب عبد الحميد إلى أهله

وكتب عبد الحميد من رسالة إلى أهله وهو منهزم مع مروان :

« أما بعد : فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفةً بالكُرْه والسرور، فمَن ساعَده الحظُّ فيها سَكَن إليها، ومن عضَّتْه بِنابها ذَمَّها ساخِطاً عليها، وشكاها مُسْتَزِيداً[٣] لها، وقد كانت إذاقَتْنا أفاوِيقَ[٤] استحلَيْناها، ثم جمحَت[٥] بنا نافرةً، ورمَحتْنا مُوَلِّيَةً، فمَلُح عَذْبُها، وخشُن ليِّنُها، فأبعدَتْنا عن الأوطان، وفرَّقتنا عن الإخوان،

---

(١) الغمرة : الشدة تغمر الواقع فيها بشدتها، وفى المثل « غمرات ثم ينجلين » .

(٢) نضب الماء : غار ، يعنى أن قوة دعاة العباسية ستنهار .

(٣) جاء فى لسان العرب « استزاد فلان فلانا : إذا عتب عليه فى أمر لم يرضه » .

(٤) الفيقة بالكسر : اسم اللبن يجتمع فى الضرع بين الحلبتين وجمعها فيق بالكسر وفيق كعنب وفيقات وأفواق، وجمع الجمع أفاويق .

(٥) جمح الفرس كمنع : علب راكبه ، ورمحه الفرس كمنع أيضا : رفسه .

فالدارُ نازحةٌ[١] والطيرُ بارحةٌ[٢]، وقد كثبتْ والأيامُ تَزيدُنا منكم بُعْداً، وإليكم وَجْداً، فإن تَتِمَّ البليَّةُ إلى أقصى مُدَّتِها، يكن آخر العهد بكم وبنا، وإن يَلْحَقْنا ظُفرٌ جارحٌ من أظفار مَن يَليكم، نَرْجِعْ إليكم بذُلِّ الإسار[٣]، والذلُّ شرُّ جار، نسأل اللهَ الذى يُعِزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، أن يَهَبَ لنا ولكم أُلْفة جامعة، فى دار آمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين، وأرحم الراحمين[٤] » .

(سرح العيون ص ١٦٥)

٥٣٢ — كتاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه

كتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب إلى بعض إخوانه :

« أما بعدُ ، فقد عاقنى الشَّكُّ فى أمرك عن عَزيمة الرأى فيك ، وذلك أنك

---

(١) بعيدة .

(٢) البارح من الطير والوحش : ما مر من ميمنك إلى مياسرك ، والعرب تتطير به لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف ، والسانح ما مر من مياسرك إلى ميامنك ، والعرب تتيمن به لأنه أمكن للرمى والصيد .

(٣) أسره كضرب أسرا وإسارا ، والإسار أيضا : القيد الذى يشد به وجمعه أسر ككتب .

(٤) وقد حضر عبد الحميد مع مروان جميع وقائعه عند آخر أمره ، ولما اشتد عليه الطلب وتتابعت هزائمه ، وأيقن بزوال ملكه ، قال لعبد الحميد : قد احتجت أن تصير مع عدوى ، وتظهر الغدر بى ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تدعوهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى ، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمى بعد وفاتى ، فقال له عبد الحميد : إن الذى أشرت به على أنفع الأمرين لك ، وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر ، حتى يفتح الله عليك ، أو أقتل معك ، وأنشد :

أسر وفاء ثم أظهر غدرة ؟ فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره ؟

فلما قتل مروان استخفى عبد الحميد بالجزيرة ، فغمز عليه ، فطلب ، وكان صديقا لعبد الله بن المقفع ، ففاجأهما الطلب وهما فى بيت ، فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا ، خوفا من أن ينال صاحبه مكروه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع ، فقال : ترفقوا بنا ؛ فإن كلا منا له علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ، ويمضى بعض آخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم ففعلوا ، وأخذ عبد الحميد ، فسلمه السفاح إلى عبد الجبار بن عبد الرحمن صاحب شرطته ، فكان يحمى له طستا ويضعه على رأسه إلى أن مات سنة ١٣٢ هـ — انظر ترجمته فى سرح العيون ص ١٦٢ ووفيات الأعيان ١ : ٣٠٧ ومروج الذهب ٢ : ٢٠٧ ؛ والفهرست لابن النديم ص ١٧٠ ، وغرر الخصائص الواضحة ص ٣١ وكتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٧٨ .

ابتدأتنى بلُطفٍ عن غير خِبْرة ، ثم أعقبتنى جَفاءً عن غير جَرِيرة[(١)] ، فأطمعنى أوَّلُك فى إخائك ، وآيَسَنِى[(٢)] آخِرُكَ من وفائك ، فلا أنا فى اليوم[(٣)] مجمِعٌ لك اُطِّراحا ، ولا أنا فى غدٍ وانتظاره منك على ثقة ، فسُبْحانَ من لو شاء كشَفَ بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة الشك فيك[(٤)] ، فاجْتَمَعْنا[(٥)] على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف ، والسلام » .

(البيان والتبيين ٢ : ٤١ ، وزهر الآداب ١ : ٩٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٩٤ ، وغرر الخصائص الواضحة ٤٧٠)

٥٣٣ — كتابه إلى أبى مسلم الخراسانى

وكتب من الحبس إلى أبى مُسْلم صاحب الدعوة[(٦)] .

« مِنَ الأسير فى يديه ، بلا ذَنْبٍ إليه ، ولا خِلاف عليه ، أمَّا بعدُ ، فآتاك الله

---

(١) الجريرة : الجريمة والذنب ، وفى غرر الخصائص « من غير جريمة » وفى البيان والتبيين والعقد من غير ذنب » .

(٢) فى زهر الآداب «وأيأسنى» وآيس مجرده أيس ، وأيأس مجرده يئس ، والأول مقلوب عن الثانى .

(٣) فى زهر الآداب « فلا أنا فى غير الرجاء مجمع لك اطراحا ، ولا أنا فى عدم انتظاره منك على ثقة » وأجمع الأمر وعليه ، وأزمع الأمر وعليه أيضا : عزم عليه وثبت .

(٤) فى غرر الخصائص « عن ظلمة الشك فيك » وفى زهر الآداب « كشف بإيضاح الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك » . (٥) فى البيان والتبيين والعقد وغرر الخصائص « فأقمنا » .

(٦) وذلك أنه كان قد دعا إلى نفسه بالكوفة سنة ١٢٧ هـ . حرضه على ذلك أهل الكوفة وقالوا له : ادع إلى نفسك ، فبنو هاشم أولى بالأمر من بنى مروان ، وقد حاربه بها عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز ، فهزمه عبد الله بن عمر ، فخرج ابن معاوية إلى المدائن ، وفى سنة ١٢٩ خرج إلى الجبال فغلب عليها وعلى حلوان وقومس وهمذان وأصبهان والرى من بلاد فارس ، وبقى على ذلك مدة ، وكان أبومسلم الخراسانى قد قويت شوكته ، فسار إليه وقبض عليه وسجنه ثم قتله سنة ١٣٠ — انظر تاريخ الطبرى ٩ ، ٤٨ ، ٩٣ ومروج الذهب ٢ : ٢٠٣ والفخرى ص ١٢٢ والنجوم الزاهرة ١ : ٣٠٩ ، ٣١٠

وجاء فى « فصل ، فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم الظاهرى الأندلسى فى باب « شنع الشيعة » ج ٤ : ص ١٣٨ : « وقال بعض الكيسانية — وهى فرقة من فرق الشيعة ، أصحاب كيسان مولى على بن أبى طالب — إن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب حى بجبال أصبهان إلى اليوم ، ولا بد له من أن يظهر ، وعبد الله هذا هو القائم بفارس أيام مروان بن محمد ، وقتله أبومسلم بعد أن سجنه دهرا ، وكان عبد الله هذا ردىء الدين معطلا مستصحبا للدهرية» .

حِفْظَ الوصيّه(١) ، ومَنَحك نصيحة الرعِيَّة، وأَلْهمك عَدْلَ القَضيَّة(٢) ، فإنَّكَ مُستَوْدَعُ الودائع ، ومُولِى الصَّنائع(٣) ، فاحفَظْ ودائِعَك بحُسْن صنائعك ، فالودائِعُ عارِيَّةٌ ، والصنائع مَرْعِيَّة ، وما النِّعَم عليك وعلينا فيك بمَنْزُور(٤) نَداها ، ولا ببلوغ مَداها فَنَبِّهْ للتفكير قلبَك ، واتَّقِ اللهَ ربَّك ، وأَعْطِ مِن نفسك مَن هو تحتك ما تُحِبُّ أن يعطيَك مَن هو فوقَك ، مِن العَدْل والرَّأفة والأَمْن من المخافة. فقد أنعم اللهُ عليك بأن فوَّض أمْرَنا إليك ، فاعْرِفْ لنا لِينَ شكرِ المَوَدَّة ، واغتفارَ مَسِّ الشِّدة ، والرِّضا بما رَضيت ، والقناعةَ بما هويتَ ، فإنَّ علينا مِن سَمْك(٥) الحديد وثِقَله أذًى شديداً مع مُعالجة الأغلال ، وقِلَّة رَحْمَة العُمَّال ، الذين تَسهيلُهم الغِلْظَةُ ، وتيسيرُهم الفَظاظة ، وإيرادُهم علينا الغُمُوم ، وتوجيهُهُمْ إلينا الهُمُوم ، زيارتُهم الحِراسةُ ، وبِشارتهم الإياسة، فإليك بعدَ الله نرْفَع كُرْبَةَ الشَّكوى ، ونشكو شِدةَ البَلْوَى، فمتى تُمِلْ إلينا طَرْفا ، وتُولِنا منك عَطْفا، تجدْ عندنا نُصْحا صريحاً ، ووُدًّا صحيحاً ، لايُضَيِّع مِثْلك مِثْلَه ،

---

(١) يقول الشيعة إن النبى صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة من بعده لعلى كرم الله وجهه ، فلقبوا عليا بالوصى ، وهو أوصى بها لمن بعده ، وهكذا كل إمام وصى من قبله ، قال الحميرى من أبيات :

إنى أدين بما دان الوصى به   يوم النخيلة من قتل المحلينا

انظر الكامل للمبرد ج ٢ : ص ١٥٥ ، وقد أورد ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة م ١ : ص ٤٧ — ٥٠ طائفة كبيرة من الأشعار التى وردت فيها كلمة الوصى ، منها قول عبد الله بن أبى سفيان بن الحرث بن عبد المطلب :

ومنا على ذاك صاحب خيبر   وصاحب بدر يوم سالت كتائبه
وصى النبى المصطفى وابن عمه   فمن ذا يدانيه ، ومن ذا يقاربه؟

وقول عبد الرحمن بن جعيل :

لعمرى لقد بايعتم ذا حفيظة   على الدين معروف العفاف موفقا
عليا وصى المصطفى وابن عمه   وأول من صلى أخا الدين والتقى

وقول أبى الهيثم بن التيهان من أبيات ، وكان بدريا :

إن الوصى إمامنا وولينا   برح الخفاء وباحت الأسرار

(٢) يقال : قضى عليه قضيا وقضاء وقضية .

(٣) جمع صنيعة ، وهى المعروف والإحسان .   (٤) النزر والنزير والمنزور : القليل .

(٥) يقال سمكه سمكا : أى رفعه ، والمعنى : فإن علينا من الحديد الغليظ المضاعف .

ولا يَنفِي مِثْلُكَ أهْلَه ، فارْعَ حُرْمةَ مَن أدْرَكْتَ بحُرْمَته ، واعرِفْ حُجَّةَ مَنْ فَلَجْتَ(١) بحُجَّتهِ فإن الناس مِنْ حَوْضِكَ رِوَاءٌ(٢) ، ونحن منه ظِماءٌ ، يمشون فى الأَبْراد ونحن نَحْجِل فى الأقياد(٣) ، بعد الخير والسَّعَة ، والخَفْضِ والدَّعَة ، والله المُستعان ، وعليه التُّكْلان ، صَرِيخ(٤) الأَخْيار ، مُنَجِّى الأبرار ، الناسُ من دَوْلتنا فى رَخاء ، ونحن منها فى بَلاء ، حين أَمِنَ الخائفون ، ورَجَع الهاربون ، رَزَقَنا الله منك التَّحنُّن ، وظاهرَ علينا من التمنُّن ، فإنك أَمِينٌ مُسْتَوْدَع ، ورائِدٌ مُصْطَفًى(٥) ، والسلام ورحمة الله »

(البيان والتبيين ٢ : ٤٢ ، والأغانى ١١ : ٧١)

---

(١) أى غلبت وانتصرت .

(٢) رواء : جمع ريان ، وظماء : جمع ظمآن .

(٣) الأبراد والبرود: جمع برد كقفل ، وهو ثوب مخطط، وحجل المقيد كضرب ونصر: رفع رجلا وتربث فى مشيه على رجله ، والأقياد والقيود : جمع قيد .

(٤) الصريخ : المغيث (والمستغيث أيضا ، ضد) وفى الأصل « صريح الأخبار » وهو تصحيف .

(٥) أصل الرائد : المرسل فى طلب الكلأ ، ومصطفى : أى مختار ، وفى نسخة « مصطنع » وهى بمعناها .

التوقيعات

معاوية

كتب عبد الله بن عامر[1] إلى معاوية فى أمرٍ عاتبَه فيه، فوقَّع فى أسفل كتابه :

« بيتُ أُمَيَّة فى الجاهلية أشرفُ من بيت حَبيبٍ فى الإسلام، فأنت تراه » .

ووقَّع فى كتاب عبد الله بن عامر يسأله أن يُقْطِعَه مالًا بالطائف :

« عِشْ رَجَباً تَرَ عَجَباً[2] » .

وكتب زياد إلى معاوية يخبره بطعن عبد الله بن عباس فى خلافته[3]، فوقع فى كتابه :

« إن أبا سفيان وأبا الفضل[4] كانا فى الجاهلية فى مِسْلاخٍ[5] واحد، وذلك حِلْفٌ[6] لا يحُلُّه سوء رأيك » .

---

(١) هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وهو ابن خال عثمان بن عفان، استعمله عثمان على البصرة بعد أبى موسى الأشعرى، وولاه أيضا بلاد فارس بعد عثمان ابن أبى العاص، ولم يزل واليا على البصرة إلى أن قتل عثمان، وولاه معاوية البصرة ثلاث سنين .

(٢) هو مثل، قال الميدانى فى مجمع الأمثال (١ : ٣١٢) قالوا من حديثه : إن الحارث بن عباد ابن قيس بن ثعلبة طلق بعض نسائه من بعد ما أسن وخرف، فخلف عليها بعده رجل، كانت تظهر له من الوجد مالم تكن تظهر للحارث، فلقى زوجها الحارث، فأخبره بمنزلته منها، فقال الحارث : « عش رجبا ترعجبا » فأرسلها مثلا، قال أبو الحسن الطوسى : يريد عش رجبا بعد رجب، فحذف، وقيل رجب كناية عن السنة، لأنه يحدث بحدوثها . ومن نظر فى سنة واحدة ورأى تغير فصولها، قاس الدهر كله عليها، فكأنه قال : عش دهرا تر عجائب، وعيش الإنسان ليس إليه ؛ فيصح له الأمر به، ولكنه محمول على معنى الشرط، أى إن تعش تر، والأمر يتضمن هذا المعنى فى قولك زرنى أكرمك .

(٣) وفى العقد الفريد أيضا (٣ : ٥) « كتب زياد إلى معاوية : إن عبد الله بن عباس يفسد الناس على، فإن أذنت لى أن أتوعده فعلت، فكتب إليه .... » .

(٤) كنية العباس . (٥) المسلاخ : الإهاب (الجلد) .

(٦) الحلف : العهد بين القوم والصداقة .

وكتب إليه رَبيعة بن عِسْل اليَرْبوعى يسأله أن يُعينه فى بناء داره بالبصرة باثنى عشر ألف جِذْع :

« أدارُكَ فى البصرة أم البصرة فى دارِكَ ؟ » .

ووقّع معاوية : « نحن الزمانُ : مَن رفعَناه ارتفع ، ومن وَضَعْناه اتّضع » .

وكتب إليه الحسن بن على رضى الله عنهما كتاباً أغلَظ له فيه القولَ ، فوقّع إليه :

« ليت طُولَ حِلْمنا عنك لايدعو جَهْلَ غيرِنا إليْك » .

وكتب زياد إلى سعيد بن العاص يخطب إليه ، فوقع فى كتابه :

« كَلَّا إنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى » .

يزيد بن معاوية

وكتب مُسْلِم بن عُقْبة المُرِّى إلى يزيد بالذى صَنَعَ بأهل الحرَّة ، فوقّع فى أسفل كتابه :

« فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » .

وكتب عبد الله بن جعفر إلى يزيد يستوهبه جماعةً من أهل المدينة ، فوقع إليه :

« مَن عرَفْتَ فهو آمِنٌ » .

وكتب إليه يسأله أن يقضِىَ عنه ذِمامَ نفر من بطانته وخاصّته ، فوقع فى كتابه : « احكم لهم بآمالهم إلى مُنْتَهَى آجالهم » ، فحكم لهم بتسعمائة ألف فأجازها .

ووقّع فى كتاب مُسْلم بن زياد عامله على خُراسان ، وقد استبطأه فى الخراج .

« قليل العتاب يُحْكم مَرَائر الأسباب ، وكثيره يَقْطَع أَواخِيَ الانتساب[1] » .

(١) المرائر : جمع مريرة : وهى طاقة الحبل (والحبل الشديد الفتل أيضا) والأسباب جمع سبب: وهو الحبل وما يتوصل به إلى غيره ، والأواخى جمع آخية بتشديد الياء فيهما ، والأواخى : جمع آخية بتخفيفها فيهما ، والآخية: عروة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة .

ووقع إلى عبد الرحمن بن زياد وهو عامله على خراسان :

« القرابة واشِجَةٌ ، والأفعال متباينَة ، فخذ لِرَحِمك من فعلك[١] » .

وإلى عبيد اُلله بن زياد :

« أنت أحدُ أعضاء اُبن عمك ، فاحْرِصْ أن تكون كلّها » .

عبد الملك بن مروان

ووقع عبد الملك بن مروان فى كتاب أتاه من الحجاج يشكو إليه نفراً من بنى هاشم ويحرضه على قتلهم :

« جنِّبنى دِماءَ بنى عبد المطلب ، فليس فيها شِفاء من الطَّلَب[٢] » .

وكتب إليه الحجاج يخبره بسوء طاعة أهل العراق ، وما يقاسى منهم ، ويستأذنه فى قتل أشرافهم ، فوقع له :

« إن مِن يُمن السائس أن يأتلِف به المختلفون ، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون » .

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يشكو إليه أهلَ العراق ، فوقَّع :

« اُرفُقْ بهم ، فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ، ومع الخُرْق ما تحب » .

ووقع إليه فى أهل السَّواد :

« أبْقِ لهم لُحوما ، يَعْقِدوا بها شُحوما » .

ووقع فى كتاب مُتَنَصِّح[٣] :

« إن كنتَ صادقاً أتَبْناك ، وإن كنت كاذباً عاقَبْناك ، وإن شئت أقَلْناك » .

ووقع فى كتاب الحجاج يُخبره بقوَّة ابن الأشعَث :

« بِضعْفك قَوِىَ ، وبخَوفك خَلَعَ » .

---

(١) قرابة واشجة : مشتبكة ، وقد وشجت بك قرابته كوعد . (٢) انظر ص ١٤٠ .

(٣) تنصح : تشبه بالنصحاء .

ووقع في كتاب ابن الأشعث :

« فما بالُ مَنْ أسْعَى لِأَجْبُرَ عَظْمَهُ حِفاظًا ، وينْوِى من سفاهته كَسْرِى »[١]

ووقع أيضاً في كتاب :

« كيف يَرْجُون سِقَاطِي بعدما شَمِلَ الرأسَ مَشِيبٌ وصَلَعْ ؟ »[٢]

الوليد بن عبد الملك

وكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك لمّا بلغه أنه خَرِقَ[٣] فيما خَلّف له عبد الملك، يُنكر ذلك عليه ويعرّفه أنه غير صواب ، فوقع في كتابه :

« لَأَجمَعَنَّ المالَ جَمْعَ مَن يعيش أبداً ، ولأُفرِّقَنَّه تفريق من يموت غداً » .

ووقع إلى عمر بن عبد العزيز :

« قد رَأَبَ اللهُ بك الداء ، وأَوْذَمَ بك السِّقاء[٤] » .

سليمان بن عبد الملك

وكتب قُتيبة بن مُسْلِم إلى سليمان بن عبد الملك يتهدّده بالخلع ، فوقع في كتابه :

زَعَمَ الفرزدقُ أَنْ سَيَقْتُل مِرْبَعًا أَبْشِرْ بطُول سـلامة يا مِرْبَعُ[٥]

ووقّع في كتابه أيضاً : « وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

ووقّع إلى قتيبة أيضاً جواب وعيده :

« وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا » .

---

(١) انظر ص ١٩١ .

(٢) السقط بالتحريك والسقاط بالكسر : الخطأ في الحساب والقول وفي الكتاب .

(٣) الخرق بالتحريك : ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور .

(٤) رأب الصدع كمنع : أصلحه ، وأوذم : شد .

(٥) مربع كمنبر : لقب وعوعة بن سعيد رواية جرير .

وكتب مَسْلَمة بن عبد الملك إلى أخيه سليمان من الصَّائِفة[1] بما كان منه من حُسْن الأثر فى بلاد الروم، فوقع فى كتابه :

« ذلك بالله لا بِمَسْلَمَة » .

عمر بن عبد العزيز

وقال صاحب العقد :

كتب بعض العمال إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه فى مَرَمَّةِ مدينته فوقع أسفل كتابه :

« ابْنِهَا بالعدل، ونَقِّ طُرُقَها من الظلم[2] » .

ووقع إلى بعض عماله فى مثل ذلك :

« حَصِّنها ونفسَك بتقْوَى الله » .

وقال الثعالبى فى خاص الخاص :

كتب عامل حِمْص إلى عمر بن عبد العزيز يخبره أنها احتاجت إلى حِصْن، فوقّع :

« حَصِّنها بالعدل والسلام » .

* * *

وإلى رجل وَلَّاه الصَّدقاتِ، وكان دميا فعَدَل وأحسن :

« وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا » .

وكتب إليه صاحب العراق يخبره عن سوء طاعة أهلها، فوقع له :

« ارْضَ لهم ما تَرْضَى لنفسك، وخذ بجرائمهم بعد ذلك » .

---

(١) الصائفة : غزوة الروم، لأنهم كانوا يغزون صيفا، لمكان البرد والثلج .

(٢) انظر ص ٣٠١ .

وإلى عَدِىّ بن أرْطاة فى أمر عاتبه عليه :

إن آخر آية أنزلت : « وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللهِ » .

وإلى عامله على الكوفة ، وكتب إليه أنه فَعَلَ فى أمرٍ كما فعل عمرُ بن الخطاب :

« أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » .

وإلى الوليد بن عبد الملك ـ وعمر عامله على المدينة ـ فوقَّع فى كتابه :

« اللهُ أعلمُ ،إنك أول خليفة تموت » .

وأتاه كتاب عَدِىّ بن أَرْطاةَ يخــبره بسوء طاعة أهل الكوفة ، فوقع فى كتابه :

« لا تَطلُب طاعةَ مَن خَذَل عليًّا ، وكان إماماً مَرْضِيًّا » .

وإلى عامله بالمدينة ، وسأله أن يعطيه موضِعاً يَبْنيه ، فوقع :

« كن من الموت على حَذَر » .

وفى قصة متظلم : « العدلُ أمامَك » .

وفى رقعة محبوس : « تُبْ تُطلَقْ » .

وفى رقعة رجل قُتِل : « كتابُ الله بينى وبينك » .

وفى رقعة متنصِّح : « لو ذكرتَ الموتَ شَغَلَكَ عن نصيحتك » .

وفى رقعة رجل شكا بعض أهل بيته[١] : « أنتما فى الحق سِيَّان » .

وفى رقعة امرأة حُبِس زوجها . « الحقُّ حبَسَه » .

وفى رقعة رجل تظلَّم من ابنه : « إن لم أُنصِفْك منه فأنا ظلمْتُك » .

---

(١) الضمير فيه لعمر بن عبد العزيز .

يزيد بن عبد الملك

ووقع يزيد بن عبد الملك إلى صاحب خراسان :

« لا تترك حَسَنَ رأيٍ ، فإنما تُفْسِده عَثْرةٌ » .

وإلى صاحب المدينة : « عَثَرْتَ فَاسْتَقِلْ » .

وفى قصة متظلم : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

وفى قصة متظلم شكا بعض أهل بيته :

« ما كان عليك لو صَفَحْتَ عنه واُستوصَلْتَنى[1] ؟ » .

هشام بن عبد الملك

ووقع هشام بن عبد الملك فى قصة متظلم :

« أتاك الغَوث إن كنت صادقاً ، وحَل بك النَّكال إن كنت كاذبا ، فتقدَّمْ أوْ تَأَخَّرْ » .

وفى قصة قوم شكَوا أميرهم :

« إن صَحّ ما ادعيتم عليه عزلناه وعاقبناه » .

« وإلى صاحب خراسان حين أمره بمحاربة الترك :

« احذر ليالىَ البياتِ[2] » .

وإلى صاحب المدينة ، وكتب يخبره بوثوب أبناء الأنصار :

« احفظ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهَبْهم له » .

ووقع فى رقعة محبوس لَزِمه الحَدُّ :

« نَزَلَ بِحَدِّك الكتاب » .

---

(١) أى وطلبت بذلك صلتى .

(٢) بيت العدو : أوقع بهم ليلا ، وفى العقد « البيان » وهو تحريف .

ووقع فى قصة رجل شكا إليه الحاجة وكثرة العِيال ، وذكر أنّ له حُرْمة :

« لِعِيالك فى بيت مال المسلمين سَهمٌ ، ولك بحُرْمتك منا مِثلاه » .

وَإلى عامله على العِراق فى أمر الخوارج :

« ضَعْ سيفَك فى كلاب النار ، وتقرَّب إلى الله بقتل الكفار » .

« وإلى جماعة يشكون تعدِّىَ عامِلِهم عليهم ·

« لَنفُوَّضَنَّكم فى خَصمكم دونكم » .

وفى كتاب عامله يخبره فيه بقلة الأمطار فى بلده :

« مُرْهم بالاستغفار » .

وإلى سهل بن سيار : « خَفِ اللهَ وإمامَك ، فإنه يأخذك عند أول زلَّة »

يزيد بن الوليد بن عبد الملك

ووقع يزيد بن الوليد بن عبد الملك إلى مروان بن محمد :

« أراك تقدِّم رِجْلا وتؤخرُ أخرى ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمِدْ عَلَى أيِّهما شئت [(١)] » .

وإلى صاحب خراسان فى المسوَدَّة :

« نَجَم أمرٌ أنت عنه نائم ، وما أراك منه أو منِّى بسالم » .

مروان بن محمد

وكتب مروان بن محمد إلى نصر بن سيار فى أمر أبى مسلم :

« نُجُومُ الظاهر يدلُّ عَلَى ضَعفِ الباطن ، والله المستعان » .

ووقع إلى ابن هُبيرة :

---

(١) انظر ص ٣٩٧ .

« الأمر مضطرب ، وأنت نائم ، وأنا ساهر » .

وإلى حَوْثَرَة بن سُهَيْل الباهلي حين وجَّهه إلى قَحْطبة بن شبيب الطائي[1] :

« كُن من بيَاتِ المارقَة عَلَى حَذَر » .

وكتب ابن هُبيرة إلى مَرْوان أن قحطبةَ قد غَرِق ، وأنه واقَع أصحابه فهزِم[2] ، فوقَّع .

« هذا والله الإدبارُ ، وإلاَّ فمَنْ سمع بميِّت هَزَمَ حيا ؟ » .

وفى جواب أبيات نصر بن سيار إذ كتب إليه :

أَرَى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ جَمرٍ ويُوشك أن يكون له ضِرَامُ

« الحاضِرُ يَرَى مالاَ يَرَى الغائب ، فاحسِمِ الثُّؤْلُولَ[3] » .

فكتب إليه نصر :

« الثُّؤْلُولُ قد آشتدت أعضاؤه ، وعَظُمَتْ نِكايَتُه » .

فوقع إليه : « يداكَ أَوْكَتَا ، وَفُوكَ نَفَخَ[4] » .

---

(١) فى العقد الفريد « الحويرة بن سهل » وهو تحريف ، وكان مروان بن محمد قد أمد ابن هبيرة به فى عشرين ألفا من أهل الشأم ، لقتال قحطبة بن شبيب قائد الجيوش الخراسانية حين أقبل إلى ابن هبيرة ـ انظر تاريخ الطبرى ج ٩ : ص ١١٨

(٢) وذلك أن قحطبة أقبل بجنوده حتى صار بحذاء ابن هبيرة وبينهما الفرات ، ثم عبر بفرسانه ـ ليلة الخميس لليال خلون من المحرم سنة ١٣٢ ـ وحمل أصحابه على جيش ابن هبيرة فهزموهم ، وخلى ابن هبيرة عسكره ومافيه من الأموال والسلاح والزينة والآنية وغير ذلك ، وأصبح أصحاب قحطبة وقد فقدوه ، فلم يزالوا فى رجاء منه إلى نصف النهار ، ثم يئسوا منه وعلموا بغرقه ، فولوا أمرهم ابنه الحسن .

وفى العقد « ووقع حين أتاه غزو قحطبة » وهو تحريف وصوابه « غرق قحطبة » وفيه « وإلا فمن رأى ميتا هزم حيا » .

(٣) انظر ص ٤٨٠ .

(٤) الوكاء ككساء: رباط القربة وغيرها، وقد وكأها وأوكأها وعليها: شدها بالوكاء، وهذا مثل. وأصله أن رجلا كان فى جزيرة من جزائر البحر ، فأراد أن يعبر على زق قد نفخ فيه ، فلم يحسن إحكامه ، حتى إذا توسط البحر خرجت منه الريح فغرق ، فلما غشيه الموت استغاث برجل فقال له: يداك أوكتا وفوك نفخ . يضرب لمن يجنى على نفسه الحين ـ انظر مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ : ص ٢٤٨ .

عبد الله بن على

ولما أَيِسَ مروان من أمره ، كتب إلى عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس يُوصيه بالحُرَم ، فوقع فى كتابه :

« الحقُّ لنا فى دَمِك ، وعلينا فى حُرَمك » .

زياد

ووقع زياد إلى بعض عماله :

« قد كنتَ على الدُّعَّار ، وإخالُك ذَاعِرًا[١] » .

وكتبت إليه السيدة عائشة فى وَصَاةٍ برجل ، فوقَّع فى كتابها :

« هُو بَيْن أبويه » .

وإلى صاحب خُراسان فى أمر خالفه فيه :

استر بعض دِينك[٢] ببعض ، وإلا ذَهَبَ كلُّه » .

وإلى عامله بالكوفة :

« أمِطِ[٣] الحُدودَ عن ذَوى المُرُوءات » .

وفى قصة متظلم :

« أنا معك » .

وفى قصة قوم رفَعوا[٤] على عامل :

---

(١) ذعره كمنعه ذعرا بالفتح : خوفه ، كأذعره فهو ذاعر والجمع ذعار : أى قد كنت على الذين يفزعون الناس بسطواتهم ، فأرهبتهم وضربت على أيديهم . ويقينى أنك ستأخذ من وليتك أمرهم بالشدة والقسوة والرهبة ، وجاء فى الحديث : « لايزال الشيطان ذاعرا من المؤمن » أى ذا ذعر وخوف ، أو هو فاعل بمعنى مفعول : أى مذعور ، ويجوز أن يكون بهذا المعنى فى توقيع زياد: أى وأظنك ستخاف هؤلاء، وترهب بأسهم وقوتهم ، والمعنى : فلا تجنح إلى ذلك .

(٢) الدين : السلطان والملك والحكم والسيرة والتدبير .

(٣) ماطه وأماطه : نحاه وأبعده . (٤) رفع قصته : قدمها .

« من أماله الباطِلُ قَوَّمه الحقُّ » .

وفى قصة مُسْتَمْنِـح :

« لك المُواساة » .

وإلى عامله فى خوارجَ خرجوا بالبصرة :

« النساء تحاربهم دُونَك » .

وفى قصة سارق :

« القطْعُ جَزاؤك » .

وفى قصة امرأة حُبس زوجها :

« حُكْمُه إلى الله » .

وفى قصة قوم نقبوا :

« تُنْقَبُ ظهورُهم » .

وفى قصة نَبَّاش[1] :

« يُدْفَن حيًّا فى قبره » .

وفى قصة متظلم :

« الحقُّ يَسَعُك » .

وفى قصة متنصح :

« مَهْلاً فقد أبلغتَ أسماعى[2] » .

وفى قصة متظلم :

« كُفِيتَ » .

وفى قصة رجل شكا إليه عقوقَ ابنه :

---

(١) هو الذى ينبش القبر ، وفعله كدخل .

(٢) هو عجز بيت لأبى قيس ، وصدره « قالت ولم تقصد لقيل الخنا » وأسماعى بالفتح جمع سمع وعبر به عن المثنى مبالغة ، وبالكسر مصدر أسمع ، بمعنى سمعى .

« ربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد » .

وفى قصة رجل شكا الحاجة :

« لك فى مال الله نصيبٌ أنت آخِذُه[(١)] » .

وفى قصة رجل جارح :

« والُجرُوحُ قِصَاصٌ » .

وفى قصة محبوس :

« التائب من الذنب كَمَن لا ذَنْبَ له » .

وفى قصة قوم شَكَوا غرَقَ ضِياعهم .

« لا تعَرَّضَ فيما تفرَّدَ الله به » .

وفى قصة قوم اشتكَوا اجْتِياح الجرادِ لزُرُوعهم .

« لا حكم فيما استأْثَر الله به » .

الحجاج بن يوسف

ووقع الحجاج فى كتاب أتاه من قُتَيبة بن مُسْلِم ، يشكو كثرة الجراد وذهابَ الغِلال ، وما حَلَّ بالناس من القَحْط :

« إذا أزِف[(٢)] خراجك فانظر لرعيتك فى مَصَالحها ، فبَيْتُ المال أشدُّ اطِّلاعا[(٣)]

---

(١) قال الله تعالى « وَاعلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » .

(٢) أزف الشىء : قل .

(٣) جاء فى اللسان يقال : فلان مضطلع بهذا الأمر : أى قوى عليه، وهو مفتعل من الضلاعة بالفتح وهى القوة ، قيل ولا يقال مطلع بالادغام . وقال أبو نصر أحمد بن حاتم : يقال هو مضطلع بهذا الأمر ، ومضطلع له ، فالاضطلاع من الضلاعة وهى القوة ، والاطلاع من العلو من قولهم : اطلعت الثنية أى علوتها، كذلك هو عال لذلك الأمر مالك له، وقال الليث: يقال إنى بهذا الأمر مضطلع ومطام، الضاد تدغم فى التاء =

لذلك من الأَرْمَله واليتيم وذى العَيْلَة[١] » .

وفى كتاب قتيبة إليه أنه على عبور النهر ومحاربة الترك :

« لا تخاطِرْ بالمسلمين حتى تعرِفَ موضع قدمك ، ومَرْمَى مهامك » .

وإلى قتيبة :

« خذ أهل عسكرك بتلاوة القرآن ، فإنه أمْنع من حصونك » .

وفى كتاب صاحب الكوفة يخبره بسوء طاعتهم ، وما يقاسى من مداراتهم :

« ما ظنُّك بقوم قتلوا من كانوا يعبدونه ؟ » .

وفى قصة محبوس ذكروا أنه تاب :

« مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ » .

وفى كتابه إلى بعض عماله :

« إياكَ والملاَهِى حتى تَسْتَنْظِف[٢] خَرَاجَك » .

وفى كتاب إلى ابن أخيه :

« ما ركِبَ يهودىّ قَبلك مِنبرا » .

وفى كتابه إلى يزيد بن أبى مُسْلِم[٣] :

« أنت أبو عبيدة هذا القرْن » .

= أى تاء الافتعال التى قلبت طاء ـ فتصيران طاء مشددة ، كما تقول ـ فاظنى ـ اظننى : أى اتهمنى ـ واظلم إذا احتمل الظلم ، وروى أبو الهيثم قول أبى زبيد :

أخو المواطن عياف الخنا أنف ... للنائبات ولو أضلعن مطلم

(وأضلعن : أثقلن) ومطلم : هو القوى على الأمر المحتمل له ، أراد مضطلم ، فأدغم ، هكذا رواه بخطه . قال ويروى « مضطلم » .

(١) العيلة : الفقر .

(٢) استنظف الوالى ما عليه من الخراج : استوفاه ، واستنظف الشىء : أخذه كله .

(٣) هو مولى الحجاج وكاتبه ، وروى صاحب العقد (٣ : ٢١) قال . « مات الحجاج فى آخر أيام الوليد بن عبد الملك ، فتفجع عليه وولى مكانه يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج فاكتفى (وكفى الرجل واكتفى : كلاهما اضطلم) وجاوز ، فقال الوليد : « مات الحجاج وولت مكانه يزيد بن أبى مسلم فكنت كمن سقط منه درهم وأصاب دينارا » .

أبو مسلم الخراسانى

وكتب قَحْطَبة إلى أبى مسلم أن بعض قوّاده خرج إلى عسكر ابن ضُبَارة[١] راغبا، فوقع فى كتابه :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ » .

ووقع إلى ابن قحطبة :

« وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ » .

وإليه :

« وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » .

وإليه :

« اُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٨٥ — ١٩٠ ، ٣ : ٥ ، وزهر الآداب ١ : ٢٤٢ ، وخاص الخاص ص ٦٨)

تم الجزء الثانى بحمد الله وتوفيقه

ويليــــه الجزء الثالث وأوله :

الباب الرابع فى رسائل العصر العباسى الأول

---

(١) لما ورد على ابن هبيرة مقتل نباتة بن حنظلة بجرجان كما قدمنا ، كتب إلى عامر بن ضبارة وإلى ابنه داود بن يزيد بن عمر أن يسيرا إلى قحطبة، وكانا بكرمان ، ونشب القتال بين الفريقين ، فانهزم داود بن يزيد ، وقاتل ابن ضبارة حتى قتل سنة ١٣١ — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٩٣ .

فهرس

الجزء الثانى

من جمهرة رسائل العرب

الباب الثالث

الرسائل فى العصر الأموى

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرســـالة
٤٠	٤٠	رد الحكم عليه
٤١	٤١	رد زياد عليه
٤١	٤٢	كتاب المغيرة بن شعبة إلى معاوية
٤٢	٤٣	رد معاوية عليه
٤٢	٤٤	بين معاوية والمغيرة بن شعبة
٤٣	٤٥	كتاب المستورد بن علفة الخارجى إلى سماك بن عبيد
٤٤	٤٦	كتاب حبيب بن مسلمة إلى أهل تفليس
٤٤	٤٧	عهد حبيب بن مسلمة لأهل تفليس
٤٥	٤٨	كتاب زياد إلى معاوية فى شأن حجر بن عدىّ
٤٧	٤٩	« شريح بن هانئ إلى معاوية
٤٨	٥٠	« معاوية إلى زياد
٤٨	٥١	رد زياد على معاوية
٤٨	٥٢	كتاب معاوية إلى زياد
٤٩	٥٣	« « « «
٥٠	٥٤	« زياد إلى معاوية
٥٠	٥٥	« السيدة عائشة إلى معاوية
٥٠	٥٦	« عبد الله بن الزبير إلى معاوية
٥١	٥٧	رد معاوية على ابن الزبير
٥١	٥٨	رد ابن الزبير على معاوية
٥٢	٥٩	كتاب سعيد بن العاص إلى معاوية
٥٣	٦٠	« معاوية إلى مروان بن الحكم
٥٣	٦١	« سعيد بن العاص إلى معاوية
٥٤	٦٢	ردّ معاوية على سعيد
٥٥	٦٣	كتاب معاوية إلى ابن عباس
٥٥	٦٤	« « « عبدالله بن جعفر
٥٦	٦٥	« « « الحسين
٥٦	٦٦	« « « ابن الزبير

رقم الصفحة	رقم الرسالة	الرسالة
		خلافة عمر بن عبد العزيز

فهرس أعلام الكتاب

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل كاتب بأرقام الصفحات التى وردت فيها رسائله

تم فهرس الكتاب

فهرس

بعض ماورد فى الهامش من الفوائد التى قد يحتاج القارىء إلى مراجعتها

فهرس

الأمثال التي ورد شرحها في الهامش